مجموع مؤلفات الإمام ابن قيم الجوزية

العبيكان
Obeikan

عطاءات العلم

طريق الهجرتين وباب السعادتين

تأليف
الإمام أبي عبد الله محمد بن أبي بكر بن أيوب ابن قيم الجوزية
(٦٩١ - ٧٥١)

حققه
محمد أجمل الإصلاحي

خرج أحاديثه
زائد بن أحمد النشيري

إشراف
بكر بن عبد الله أبو زيد

المجلد الأول

دار عطاءات العلم

مَجْمُوعُ مُؤَلَّفَاتِ الإِمَامِ ابْنِ قَيِّمِ الجَوْزِيَّة

طَرِيقُ الهِجْرَتَيْنِ وَبَابُ السَّعَادَتَيْنِ

تأليف

الإِمَامِ أَبِي عَبْدِ اللهِ مُحَمَّدِ بْنِ أَبِي بَكْرِ بْنِ أَيُّوبَ ابْنِ قَيِّمِ الجَوْزِيَّةِ

(٦٩١ - ٧٥١)

حَقَّقَهُ

مُحَمَّد أَجْمَل الإِصْلَاحِي

خَرَّجَ أَحَادِيثَهُ

زَائِد بْن أَحْمَد النُّشَيْرِي

إشراف

بَكْر بْن عَبْدِ اللهِ أَبُو زَيْد

المجلد الأول

دَارُ عَطَاءَاتِ العِلْم

ح دار عطاءات العلم ، ١٤٤٥هـ
الجوزية ، ابن قيم
مجموع مؤلفات الإمام ابن قيم الجوزية. / ابن قيم الجوزية - ط ١
.- الرياض ، ١٤٤٥ هـ
..ص ؛ ..سم
رقم الإيداع: ١٤٤٥/١٧٣١٥
ردمك: ٠-٥٣-٨٤١٠-٦٠٣-٩٧٨

دار عطاءات العلم

info@ataat.com.sa
00966 559222543
@ ataat11

الطبعة الأولى
من مجموع مؤلفات الإمام ابن قيم الجوزية
١٤٤٥ هـ / ٢٠٢٤ م

راجع هذا الجزء

سعود بن عبد العزيز العريفي
علي بن محمد العمران

العبيكان الخيرية
العبيكان Obeikan

بسم الله الرحمن الرحيم

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

مقدمة التحقيق

الحمد لله رب العالمين، القائل في كتابه الحكيم: ﴿ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾ ﴾ [المائدة/ ١٥ ـ ١٦]. والصلاة والسلام على رسوله الذي بعثه في الأميين، يتلو عليهم آياته، ويعلمهم الكتاب والحكمة، ويزكيهم؛ فبلغ الرسالة، وأدّى الأمانة، ونصح للأمة. ومضى إلى ربه محمودًا بعدما أقام الدين، وترك الأمة على المحجة البيضاء، ليلها كنهارها، لا يزيغ عنها إلا هالك.

أما بعد، فإن كتاب «طريق الهجرتين وباب السعادتين» للإمام ابن قيم الجوزية رحمه الله تعالى لكتاب نفيس نادر في بابه. فقد وضعه لبيان قواعد السلوك والسير إلى الله على الطريقة التي شرعها الله ورسوله ﷺ. والمقصود بالهجرتين ـ كما فسّر المؤلف في مقدمة هذا الكتاب وفي كتبه الأخرى ـ هجرة العبد إلى الله سبحانه بالتوحيد والإخلاص والإنابة والحب والخوف والرجاء والتوكل والعبودية، وهجرته إلى رسول الله ﷺ بمتابعته والتأسّي به في كل شأن من شؤون حياته من عقائده وعباداته ومعاملاته. وهذا هو مضمون الشهادتين اللتين لا يقوم الإيمان والإسلام إلاّ بهما.

ولا تخفى أهمية الهجرتين المذكورتين في باب الإحسان وتزكية النفس والسير إلى الله. فإنّ الصوفية منذ أن جعلوه سرًّا مكتومًا، زاعمين أنه علم خصّ به النبي ﷺ بعض أصحابه، ثم حكّموا فيه الذوق

والوجدان والكشف والإلهام = فتحوا بابًا واسعًا للزيغ والانحراف والتأويل والتحريف. ثمّ تعدّوا إلى تقسيم الدين إلى شريعة وطريقة، وعلم الظاهر وعلم الباطن، وقرّروا أن الأول حجاب دون الآخر، حتى صار التصوف في بعض صوره دينًا مناهضًا لدين رسول الله ﷺ.

ومن ثم لم يكن شيخ الإسلام ابن تيمية وصاحبه الإمام ابن القيم رحمهما الله ليصرفا النظر، في المهمة العظيمة التي قاما بها لإصلاح الأمة وتجديد معالم الدين، عن الردّ على مزاعم الصوفية، والكشف عن انحرافاتهم، وبيان هدي النبي ﷺ في التزكية والإحسان.

وقد أوتي الشيخان الربّانيّان قدرةً عجيبةً على الخوض في غوامض علوم العارفين ودقائق أحوالهم والكلام عليها. وذلك لما فتح الله عليهما من علوم الكتاب والحكمة، ثم وفقهما للظهور على معارج العبودية والإشراف على مقامات الإحسان. ومن هنا أصبحت كتابات الشيخين في التصوف والسلوك، الجامعة بين خطر الموضوع، وسلفيّة المنهج في التمسّك بالكتاب والسنّة دون تحيّز لأحدٍ كائنًا من كان، وقدرةٍ على الخوض في الدقائق، وقوّة البيان ووضوح التعبير = أصبحت منظومةً نادرةً في المكتبة الإسلامية الزاخرة.

ومن أجلّ تلك الكتب كتابنا هذا. وقد افتتحه ابن القيّم رحمه الله «بباب الفقر والعبودية، إذ هو باب السعادة الأعظم وطريقها الأقوم الذي لا سبيل إلى دخولها إلاّ منه». ثم تكلم على قواعد نافعة منها قاعدة في الإنابة ودرجاتها، وقاعدة في الابتلاء، وقاعدة في ذكر طريق قريب موصل إلى الاستقامة في الأحوال والأقوال والأعمال، وقاعدة في أقسام العباد في سفرهم إلى الدار الآخرة. وختم الكتاب بباب جامع في مراتب

المكلفين في الدار الآخرة وطبقاتهم فيها.

وقد تطرّق الكلام في أثناء البابين والقواعد إلى مباحث عظيمة ومسائل مشكلة اقتضت أهميتها إشباع القول فيها، كمبحث القضاء والقدر الذي استغرق أكثر من مائتي صفحة. ولكن أهمّ أقسام الكتاب وأنفسها ـ وهو من صميم الموضوع فلا يعدّ استطرادًا ـ هو القسم الذي تكلم فيه المؤلف رحمه الله على علل مقامات السلوك. وقد اختار لبيان غلط المشايخ في هذا الباب كتاب محاسن المجالس لأبي العباس ابن العريف الصنهاجي من أكابر صوفية الأندلس. فتناوله فصلاً فصلاً بالنقد والنقض، وبيّن ما له وما عليه، فتكلم على ما قاله في منزلة الإرادة مثلاً، من اثني عشر وجهًا، وعلى التوكل من خمسة عشر وجهًا، وعلى الخوف من ثلاثة عشر وجهًا، وهكذا.

ومما يستغرب أن المستشرق الإسباني الذي نشر محاسن المجالس في باريس سنة ١٩٣٣م لم يكن على علم بنقد ابن القيم إياه في طريق الهجرتين، مع كونه مطبوعًا قبل المحاسن بأكثر من ثلاثين سنة.

وقد صدرت أول طبعة من كتابنا عن المطبعة الميمنية سنة ١٣٢٠هـ = ١٩٠٢م، على حاشية كتاب آخر لابن القيم، وهو إغاثة اللهفان. ثم طبعته إدارة الطباعة المنيرية سنة ١٣٥٨هـ، وتلتها طبعة المكتبة السلفية سنة ١٣٧٥هـ. ولكن لم تتهيأ لهذه الطبعات نسخة موثقة عالية من الكتاب، فكثرت فيها الأسقاط والتصحيفات والتحريفات، إلا ما صحح منها باجتهاد المشرفين عليها، غير أن اجتهادهم قد أدّى في أحيان كثيرة إلى مزيد من الأخطاء.

وعن هذه الطبعات الثلاث ـ وبخاصة طبعة المكتبة السلفية ـ

صدرت عشرات الطبعات، وصوّرت مرّات ومرّات. وزعمت طبعتان منها ـ وهما طبعة دار ابن كثير بتحقيق يوسف علي البديوي، وطبعة دار البيان بتحقيق بشير محمد عيون ـ أنهما اعتمدتا على نسخة الظاهرية، وأثبتت الأخيرة أرقام أوراقها أيضًا في الحواشي، ولكن مقارنة متن الطبعتين بالنسخة المذكورة لا تصدّق دعواهما العريضة. ولو اعتمدت إحداهما عليها لكانت خليقةً بأن تكون أصحّ الطبعات، غير أنهما لم تزيدا على مراجعتها في مواضع متفرقة تحلّةً للقسم!

وكان من فضل الله سبحانه أن وفقني لإخراج هذه النشرة التي هي أول نشرة علمية للكتاب، وقد اعتمدت فيها على خمس نسخ خطيّة، أهمّها نسختان: إحداهما نسخة الظاهرية التي هي مسودة الكتاب بخط المصنف، والأخرى نسخة منقولة من نسخة المصنف حسب تصريح ناسخها.

وقد تبيّن لي أنّ المؤلف رحمه الله قد ترك الكتاب مسوّدة مع إضافاته وإلحاقاته الكثيرة، فلا أمكنه تبييضه، ولا قرئ عليه، ومن ثم قد بقي فيه من السهو وسبق القلم شيء كثير. وقد ضاع بعض كلامه أيضًا لكونه في أطراف الأوراق التي أكل منها البلى. وكان في خطه كذلك من السرعة وإهمال النقط وتداخل الكلمات وغيره ما يؤدي إلى صعوبة واختلاف في القراءة. وقد اجتهدت في قراءة النص مستعينًا بالنسخة المنقولة من الأصل وغيرها، ومستأنسًا بأسلوب المؤلف وعباراته المألوفة، وأرجو أن أكون قد وفقت في خدمة الكتاب وأدائه أداءً مقاربًا لما وضعه المؤلف رحمه الله.

وقد مهّدت للكتاب بدراسة اشتملت على الفصول الآتية:

١ ـ توثيق نسبة الكتاب.

٢ ـ عنوان الكتاب.

٣ ـ تاريخ تأليف الكتاب.

٤ ـ مقصد الكتاب.

٥ ـ ترتيب الكتاب وبعض مباحثه المهمة، وفيه إشارة إلى بعض طرائق التأليف اللطيفة عند المصنف.

٦ ـ أهمية الكتاب.

٧ ـ موارد الكتاب.

٨ ـ طبع الكتاب وتحقيقه واختصاره وترجمته.

٩ ـ مخطوطات الكتاب.

١٠ ـ منهج التحقيق، مع نماذج مصورة من النسخ المعتمدة.

وأشكر الأخ الشيخ زائد بن أحمد النشيري الذي تولّى تخريج الأحاديث الواردة في الكتاب ماعدا أحاديث الصحيحين، فجزاه الله خير الجزاء.

وقبل أن أضع القلم آمل من القراء، لا سيما العلماء والباحثون، إذا وقفوا على خلل أو زلل في خدمة الكتاب، أن لا يضنّوا عليّ بإفاداتهم وتنبيهاتهم. فالأمانة ثقيلة، والإنسان مهما اجتهد وبالغ فإنه إلى الضعف والنسيان ما هو! وخدمة هذا التراث العظيم لا تتم عندي إلا بتعاون

المحقق الخبير والناقد البصير؛ وإني إذ لم أكن بذاك، أرجو أن لا أعدم ناقدًا بصيرًا يُهدي إليّ عيوبي.

أسأل الله أن ينفع بهذا الكتاب، وأن يغفر لمؤلفه، ويرفع درجاته، ويجزيه عنا خير ما يجزي العلماء الربانيين. وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

الرياض   محمد أجمل أيوب الإصلاحي

٢٢/ ١٢/ ١٤٢٧هـ

توثيق نسبة الكتاب

لم يكن هذا الكتاب بحاجة إلى توثيق نسبته إلى الإمام ابن القيم رحمه الله، فإننا لا نعرف أحدًا شكّ في ذلك، لولا ما وجد على ظهر نسخة منه، وهي محفوظة في مكتبة الدولة في برلين برقم ٨٧٩٥، وناقصة من أولها بقدر ستين ورقة تقريبًا، فكتب بعضهم في أعلى الورقة الأولى: «كتاب نهج العمل لابن حجر»، وفي ورقة أخرى قبلها كتب: «نهج العمل لابن حجر في السلوك». ولعل من كتب هذه العبارة قصد المغالاة في ثمن النسخة وإغراء من يعرضها عليه بالشراء. وذلك لأن النسخة كتبت سنة ٨١٦هـ كما جاء في خاتمتها، فإذا كان مؤلفها الحافظ ابن حجر المتوفى سنة ٨٥٢هـ، فهي على هذا قد نسخت في حياة المؤلف قبل وفاته بستة وثلاثين عامًا، فلا شكّ إذن في كونها نسخة ثمينة جدًّا! ولكن لا أدري من أين جاء هذا الكاتب بعنوان «نهج العمل»، إذ لم أره عنوانًا لكتاب مطلقًا في كشف الظنون وذيله، فضلاً عن أن يكون عنوانًا لكتاب من كتب الحافظ ابن حجر رحمه الله. والجدير بالذكر أن في بداية بعض الكراريس تصريحًا بكونه «حادي عشر من طريق الهجرتين» مثلاً.

وبعد، فإن الشواهد على نسبة الكتاب إلى ابن القيم كثيرة جدًّا ومتنوعة. ومن أبرزها:

(١) أن المخطوطة التي اعتمدنا عليها في هذه الطبعة مسودة الكتاب بخط المؤلف. وفي صفحة العنوان كتب اسمه واسم الكتاب مصرّحًا بأنه من تأليفه، كما سيأتي في وصف المخطوطة.

(٢) أن المؤلف نفسه ذكره أربع مرّات في كتابه مدارج السالكين، والمباحث التي أحال فيها على كتابنا كلها موجودة فيه. فذكر في الموضع الأول (١/ ١٥٥) مذهب نفاة الحكمة والتعليل الذين لا فرق عندهم بين المأمور والمحظور في نفس الأمر، والمشيئة هي التي اقتضت أمره ونهيه عن هذا. ثم أشار إلى أنه بيّن فساد هذا الأصل من نحو ستين وجهًا في كتابه مفتاح دار السعادة، وأنه ذكره أيضًا في كتابه المسمى بسفر الهجرتين وطريق السعادتين. وهذا المبحث موجود في كتابنا في ص(٢٤٦).

وفي الموضع الثاني (١/ ٤٨٠) أورد فصلاً في مشاهد الخلق في المعصية وقال: «ولعلك لا تظفر به في كتاب سواه إلاّ ما ذكرناه في كتابنا المسمى سفر الهجرتين في طريق السعادتين». وهذا الفصل يوجد في كتابنا في ص(٣٥٠).

وفي الموضع الثالث (١/ ٥٦٧) عندما فسّر ابن القيم كلام صاحب منازل السائرين في رياضة خاصة الخاصة، وأن منها «قطع المعاوضات» نبّه على أن سؤال المحبّ الصادق أن يثيبه الله سبحانه الجنة والقرب منه والتنعم بحبه ليس قادحًا في عبوديته، ثم قال: «وقد استوفينا ذكر هذا الموضع في كتاب سفر الهجرتين عند الكلام على علل المقامات». ولعل المؤلف يشير إلى المسألة الخامسة من المسائل الخمس في المحبة والشوق، التي تكلم عليها في كتابنا في ص(٧٢٩).

وأشار في الموضع الرابع (٢/ ٧٤) إلى مسألة في الشوق، هل يبقى عند لقاء المحبوب أو يزول، فقال: «ولقد ذكرنا هذه المسألة مستقصاة وتوابعها في كتابنا الكبير في المحبة، وفي كتاب سفر الهجرتين». وهذه

المسألة هي المسألة الثالثة من المسائل الخمس المذكورة. انظر ص(٧٢٤).

(٣) ومنها أن ابن القيم أحال في هذا الكتاب على مؤلفات أخرى له نحو قوله في ص(٨٦): «وقد ذكرنا في كتاب الكلم الطيب والعمل الصالح من فوائد الذكر استجلاب ذكر الله لعبده، وذكرنا قريبًا من مائة فائدة تتعلق بالذكر، وكل فائدة منها لا خطر لها، وهو كتاب عظيم النفع جدّا». والكتاب المذكور معروف مطبوع، وقد صدرت منه نشرة جديدة ضمن هذا المشروع أيضًا بعنوان «الوابل الصيب ورافع الكلم الطيب».

وكذلك أحال فيه على كتابه «التحفة المكية» مرتين (٤٢٥، ٤٥٤)، وهو من الكتب التي ذكرها الحافظ ابن رجب وغيره من مؤلفات ابن القيم. وقد أشار ابن القيم أيضًا إليه في عدة مواضع من كتابه بدائع الفوائد.

وأحال أيضًا على كتاب كبير له في المحبة قائلاً: «وقد ذكرنا مجموع هذه الطرق في كتابنا الكبير في المحبة الذي سميناه «المورد الصافي والظل الضافي» في المحبة وأقسامها وأنواعها وأحكامها، وبيان تعلقها بالإله الحق دون ما سواه، وذكرنا من ذلك ما يزيد على مائة وجه»(١٢٤). وهذا الكتاب هو الذي أشار إليه في مدارج السالكين(٢/ ٥٩٨) ـ وإن لم يسمّه ـ فقال: «وجميع طرق الأدلة عقلاً ونقلاً وفطرةً وقياسًا واعتبارًا وذوقًا ووجدًا تدلّ على إثبات محبة العبد لربه والرب لعبده، وقد ذكرنا من ذلك قريبًا من مائة طريق في كتابنا الكبير في المحبة». وهو غير كتاب «روضة المحبين» المطبوع.

وقد أشار أيضًا إلى كتابين آخرين لم يسمّهما، فقال في موضع:

«وقد ذكرنا مائتي دليل على فضل العلم وأهله في كتاب مفرد» (٧٧٠). ولا يخفى أن المقصود كتاب فضل العلماء الذي ذكره ابن رجب في ترجمة ابن القيم[١].

وفي موضع آخر تطرق الكلام إلى الأنفع والأفضل من النخيل والعنب وأنّ طائفة رجحت النخل وأخرى رجحت العنب، فقال: «وذكرت كل طائفة حججًا لقولها قد ذكرناها في غير هذا الموضع» (٨٠٨). والظاهر أن المؤلف رحمه الله يشير إلى كتابه مفتاح دار السعادة الذي تضمن هذا المبحث (٢/ ١١٧).

(٤) ومنها المباحث المشتركة بين هذا الكتاب والكتب الأخرى للمؤلف، ولا خلاف بينها إلا في الاختصار والتفصيل أو التقديم والتأخير. أما نفسه وبيانه ومنهجه في ذكر الأقوال والمذاهب والموازنة بينها، فهو هو، بل تجد اللفظ بعينه بعض الأحيان.

ومن أمثلتها مبحث طويل في مذاهب الناس في أطفال المشركين (٨٤٢ ـ ٨٧٧). وقد ورد المبحث نفسه في كتاب أحكام أهل الذمة (١٠٨٦ ـ ١١٣٠)، وفي حاشية المؤلف على سنن أبي داود (١٢/ ٣٢٠).

ومن ذلك أيضًا تفسير المؤلف لدعاء النبي ﷺ: «اللهم إني أعوذ بك من الهم والحزن، والعجز والكسل، والجبن والبخل، وضلع الدين وغلبة الرجال» (٦٠٥). وقد فسره أيضًا في بدائع الفوائد (٧١٤) ومفتاح

---

(١) الذيل على طبقات الحنابلة (٥/ ١٧٥). وانظر: ابن قيم الجوزية للشيخ بكر بن عبدالله أبوزيد (٢٨٢).

دار السعادة(١/ ٣٧٥) والداء والدواء(١١٨).

ومن ذلك تفسيره لكلام صاحب منازل السائرين على الفقر والغنى والتجريد والشوق. وقد فسّره في كتابنا هذا (١٩، ٦٣، ٦٧، ٧٢٩) ثم فسره في مدارج السالكين (٢/ ٤٩٧، ٥٠٣)، (٣/ ٢١، ٤٠٨). والمقارنة بينهما تكشف عن وجوه المشابهة والمفارقة، ولكن تؤكد في الوقت نفسه أن الكلامين لمؤلف واحد.

(٥) ومنها نقول المؤلف عن شيخه شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله. وبعضها من كتبه وبعضها رواية شفوية عنه. وسيأتي الحديث عنها عند الكلام على موارد المؤلف في هذا الكتاب.

(٦) وأخيرًا اتفاق كتب التراجم على نسبته إلى ابن القيم، وبعضها لتلامذته ومعاصريه، كما سيتبين من الفقرة الآتية.

عنوان الكتاب

ذكر الكتاب في المصادر ـ ومنها بعض كتب المؤلف ـ بعدّة عناوين وصلت إلى ستة وجوه، وهي:

١ ـ سفر الهجرتين وطريق السعادتين.

بهذا العنوان سمّاه المؤلف في مدارج السالكين(١/ ١٥٦)، فقال: «. . . وذكرنا أيضًا في كتابنا المسمّى بـ(سفر الهجرتين وطريق السعادتين) ».

وهذا العنوان هو الذي ذكره الصفدي(٧٦٤هـ) في الوافي (٢/ ٢٧١) وأعيان العصر(٤/ ٣٦٩)، وابن تغري بردي (٨٧٤هـ) في المنهل الصافي(٣/ ٦٢).

٢ ـ سفر الهجرتين في طريق السعادتين.

هذا العنوان أيضًا ورد في كتاب مدارج السالكين(١/ ٤٨٠) قال: «. . . ذكرناه في كتابنا المسمّى (سفر الهجرتين في طريق السعادتين) ». وغريب أن يختلف العنوان في كتاب واحد في موضعين متقاربين.

٣ ـ سفر الهجرتين وباب السعادتين.

ذكره تلميذه الحافظ ابن رجب (٧٩٥هـ) في ترجمته في ذيل طبقات الحنابلة (٥/ ١٧٥). ومنه نقل ابن ناصر الدين (٨٤٢هـ) في الرد الوافر (٦٨) والداودي (٩٤٥هـ) في طبقات المفسرين (٢/ ٩٢) ومرعي بن يوسف الحنبلي (١٠٣٣هـ) في الشهادة الزكية (٣٤) وابن العماد (١٠٨٩هـ) في شذرات الذهب(٣/ ١٦٩).

٤ ـ سفر الهجرتين.

بهذا سمّاه المؤلف في موضعين في مدارج السالكين(١/ ٥٦٧) و(٢/ ٤٧). وهو ليس عنوانًا جديدًا، وإنما هو اختصار صالح للعناوين الثلاثة السابقة. وكذا ذكره السيوطي في بغية الوعاة(١/ ٦٣).

٥ ـ طرق السعادتين.

وهذا أيضًا جاء على وجه الاختصار. ولكن الذي يلفت النظر أن «الطريق» صارت هنا «طرقًا»، وكذا سمّاه الحافظ ابن حجر (٨٥٢هـ) في الدرر الكامنة(٣/ ٤٠٢). وكلمة «طرق» ـ فيما يظهر ـ ليست تحريفًا في مطبوعة الدرر، بل كذا ورد في الأصل الذي بخط السخاوي. ثم كذا نقله الشوكاني (١٢٥٠هـ) منه في البدر الطالع (٢/ ١٤٤).

٦ ـ طريق الهجرتين وباب السعادتين.

هذا العنوان ورد بخط المصنف مرتين في الأصل الذي اعتمدنا عليه في تحقيق هذا الكتاب: أولاً في صفحة العنوان، وثانيًا في مقدمة الكتاب التي قال فيها: «... وسميناه (طريق الهجرتين وباب السعادتين)، وابتدأناه بباب الفقر والعبودية، إذ هو باب السعادة الأعظم وطريقها الأقوم...».

ولعلّ الصيغ الثلاث الأولى التي ذكرها المؤلف ومعاصره الصفدي وتلميذه ابن رجب، كان المؤلف رحمه الله يميّل رأيه بينها، ثم استقرّ على العنوان الأخير الذي أثبته في المقدمة وفي صفحة العنوان.

وهذا العنوان هو الوارد في سائر النسخ الخطيّة إلاّ نسختين لا يعوّل عليهما. إحداهما نسخة الشيخ محمد بن إبراهيم الضويّان، وقد كتب

العنوان في الورقة الأولى : «كتاب سفر الهجرتين وباب السعادتين» مع أن العنوان المعروف هو الثابت في مقدمة المؤلف(ق ٢/ب)، فأخشى أن يكون ذلك من اجتهاد الناسخ. والنسخة الأخرى في مكتبة جامعة ليدن بخط حديث، وقد كتب اسم الكتاب في صفحة العنوان هكذا: «سفر الهجرتين وطريق السعادتين أو طريق الهجرتين وباب السعادتين».

تاريخ تأليف الكتاب

لم أجد في مخطوطات الكتاب أو غيرها نصًّا على التاريخ الذي فرغ المؤلف فيه من تأليف هذا الكتاب، ولكن أذكر فيما يلي بعض الإشارات التي تعين على تقديره.

خرج الإمام ابن القيم رحمه الله من السجن بعد وفاة شيخه فيه سنة ٧٢٨هـ. «وكان في مدة حبسه مشتغلاً بتلاوة القرآن وبالتدبر والتفكر، ففتح عليه من ذلك خير كثير، وحصل له جانب عظيم من الأذواق والمواجيد الصحيحة. وتسلّط بسبب ذلك على الكلام في علوم أهل المعارف والخوض في غوامضهم. وتصانيفه ممتلئة بذلك»، كما يقول تلميذه الحافظ ابن رجب في ترجمته[1]. وإذا استعرضنا مؤلفات ابن القيم لم نجد كتابًا تصدق عليه كلمة ابن رجب هذه صدقها على كتابنا طريق الهجرتين وكتاب مدارج السالكين. فكلاهما وضع في علم السلوك، وهما يشهدان حقًّا بما أوتي المؤلف من «تسلّط» على الكلام في العلوم والحقائق التي تنقطع عندها العبارة، وتجفو عنها الإشارة، كما يقول أصحابها. فالظاهر أن الكتابين من الكتب التي ألّفت بعد خروج المؤلف من السجن سنة ٧٢٨هـ. وقد تبيّن ممّا سبق أن طريق الهجرتين ألّف قبل مدارج السالكين لأن المؤلف قد أحال في المدارج أربع مرات على كتابنا هذا.

ثم في طريق الهجرتين مبحث طويل في القدر، جاء على سبيل الاستطراد ولكنه طال جدًّا لأهميته البالغة. وللمؤلف كتاب مستقلّ في

---

(١) الذيل على طبقات الحنابلة (٥/ ١٧٣).

هذا الموضوع، وهو «شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل». فلو كان ألفه قبل طريق الهجرتين لأحال عليه في هذا، ولم يسهب ذلك الإسهاب. وهذا ينبيء بأن شفاء العليل ألّف بعد طريق الهجرتين.

ويوجد في حاشية المؤلف على سنن أبي داود (١٢/ ٣١٥) بحث في القدر أيضًا، وهناك قال المؤلف: «وقد نظرت في أدلة إثبات القدر والردّ على القدرية والمجوسية، فإذا هي تقارب خمسمائة دليل. وإن قدر الله تعالى أفردت لها مصنّفًا مستقلاً، وبالله عزّ وجلّ التوفيق». وهذا الكتاب الذي نوى المؤلف تأليفه هو «شفاء العليل» المذكور. ومن حسن الحظ قد عرفنا تاريخ تأليف حاشية السنن، إذ نصّ المؤلف في خاتمته للكتاب أنه فرغ من تأليفه في مكة في آخر شوّال سنة ٧٣٢هـ. فلما جاء بحث القدر في طريق الهجرتين ولم يشر المؤلف إلى كتاب شفاء العليل ولا نيته لإفراد الموضوع بتأليف مستقلّ، وبدا له ذلك في أثناء تهذيب مختصر السنن والتعليق عليه الذي فرغ منه سنة ٧٣٢هـ = علمنا أن طريق الهجرتين ألّف قبل سنة ٧٣٢هـ. والله أعلم.

مقصد الكتاب

موضوع هذا الكتاب قواعد السلوك والسير إلى الله على المنهج الشرعي الذي بينه النبي ﷺ. فالمؤمن يجب عليه أن يوحد الله بعبادته ومحبته وخوفه ورجائه، وأن يكون قدوته في ذلك هو النبي ﷺ، فيتبع هديه وشرعه ومنهاجه. وهذان الأمران: إفراد الله بالعبادة، وإفراد الرسول بالمتابعة، هما المقصودان بالهجرتين في عنوان الكتاب. فيقول المؤلف رحمه الله في مقدمته: « فله ـ يعني للمؤمن ـ في كل وقت هجرتان: هجرة إلى الله بالطلب والمحبة والعبودية، والتوكل والإنابة، والتسليم والتفويض، والخوف والرجاء، والإقبال عليه، وصدق اللجأ والافتقار في كل نفَس إليه. وهجرة إلى رسوله في حركاته وسكناته الظاهرة والباطنة، بحيث تكون موافقة لشرعه الذي هو تفصيل محابّ الله ومرضاته، ولا يقبل الله من أحد دينًا سواه. وكل عمل سواه، فعيش النفس وحظّها لا زاد المعاد».

وقد عني المؤلف في كتبه ببيان أهمية الهجرتين في حياة المسلمين عناية بالغة، فتكلم عليهما في مواطن عديدة؛ لأنهما مضمون الشهادتين ومقتضاهما، ولا يقوم الإيمان والإسلام إلاّ بهما. فقال في مدارج السالكين (٢/ ٥٢٠): «ولله على كل قلب هجرتان، وهما فرض لازم له على [مدى] الأنفاس: هجرة إلى الله سبحانه بالتوحيد والإخلاص والإنابة والحب والخوف والرجاء والعبودية. وهجرة إلى رسوله ﷺ بالتحكيم له والتسليم والتفويض والانقياد لحكمه، وتلقي أحكام الظاهر والباطن من مشكاته، فيكون تقيده به أعظم من تقيد الركب بالدليل الماهر في ظلم الليل ومتاهات الطريق. فما لم يكن لقلبه هاتان الهجرتان فليحث على

رأسه الرماد، وليراجع الإيمان من أصله، فيرجع وراء، ليقتبس نورًا قبل أن يحال بينه وبينه، ويقال له ذلك على الصراط من وراء السور، والله المستعان».

وقد عقد فصلاً كاملاً في قصيدته النونية (٨٧٠) بعنوان «فصل في تعيّن الهجرة من الآراء والبدع إلى سنّته، كما كانت فرضًا من الأمصار إلى بلدته ﷺ» يشتمل على ٥٧ بيتًا، افتتحه بقوله:

ياقوم فرضُ الهجرتين بحاله   واللهِ لم يُنسخ إلى ذا الآنِ

فالهجرة الأولى إلى الرحمن بالـ   إخلاص في سرّ وفي إعلان

إلى أن قال:

والهجرة الأخرى إلى المبعوث بالـ   إسلام والإيمان والإحسان

وفي رسالته التي بعث بها من تبوك إلى أصحابه بالشام، أفاض القول في بيان أهمية الهجرتين بأسلوب أدبي بليغ، وذكر أن الهجرة إلى الله ورسوله فرض عين على كل أحد في كل وقت، وهي مطلوب الله ومراده من العباد. وهذه الهجرة هي الهجرة الحقيقية، وهي الأصل، وهجرة الجسد تابعة لها. وبعد ما فسّر الهجرة إلى الله قال: « والذي يُقضى منه العجب أنّ المرء يوسّع الكلام، ويفرّع المسائل في الهجرة من دار الكفر إلى دار الإسلام، وفي الهجرة التي انقطعت بالفتح، وهذه هجرة عارضة ربما لا تتعلق به في العمر أصلاً. وأما هذه الهجرة التي هي واجبة على مدى الأنفاس [فإنه] لا يحصل [فيها] علمًا ولا إرادة. وما ذاك إلا للإعراض عما خلق له والاشتغال عما لا ينجيه غيره» (٢٠ ـ ٢١).

وأما الهجرة إلى الرسول ﷺ فكلام المؤلف عليها في الرسالة

المذكورة ينطوي على تألم شديد لما آل إليه أمر المسلمين في عهده من إعراض عن سنة الرسول ﷺ في عقائدهم وعباداتهم ومعاملاتهم، واشتغال بأفكار ومذاهب وبدع وعادات ما أنزل الله بها من سلطان، فقال: «وأمّا الهجرة إلى الرسول ﷺ، فمعلم لم يبق منه سوى رسمه، ومنهج لم تترك منه بنيّات الطريق سوى اسمه، ومحجّة سفت عليها السوافي فطمست رسومها، وأغارت عليها الأعادي فغوّرت مناهلها وعيونها. فسالكها غريب بين العباد، فريد بين كل حيّ وناد، بعيد على قرب المكان، وحيد على كثرة الجيران، مستوحش ممّا[به] يستأنسون، مستأنس ممّا به يستوحشون. . . والمقصود أن هذه الهجرة النبوية شأنها شديد، وطريقها على غير المشتاق وعير بعيد» (٢١ ـ ٢٢).

ثمّ بين حدّ هذه الهجرة بقوله: «فحدّ هذه الهجرة: سفر الفكر في كل مسألة من مسائل الإيمان، ونازلة من نوازل القلب، وحادثة من حوادث الأحكام إلى معدن الهدى، ومنبع النور المتلقى من فم الصادق المصدوق الذي لا ينطق عن الهوى ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ۝٤﴾. فكل مسألة طلعت عليها شمس الرسالة وإلا فاقذف بها في بحار الظلمات، وكل شاهد عدّله هذا المزكّي الصادق وإلاّ فعدّه من أهل الريب والشبهات. فهذا هو حدّ هذه الهجرة» (٢٣ ـ ٢٤).

فهذه الهجرة شاملة محيطة بحياة المؤمن كلها. فلا تخصّ جانبًا منها دون جانب، ولا يحتاج إليها في وقت دون وقت. وليست أهميتها في أحكام الفقه أكثر منها في مسائل الاعتقاد ومنازل السلوك ومقامات الإحسان. بل لها أهمية خاصة في وادي السلوك، فإن المقرر عند كثير من أصحابه أنّ الشرع فيه معزول، والعقل فيه معقول، والحكم فيه

للذوق والوجدان والكشف والإلهام، لا للشرع والحجة والبرهان. فالشريعة شيء، وأصحابها أصحاب الظاهر. والطريقة شيء، وأصحابها أصحاب الباطن. هذا علم الصدور، وذاك علم السطور. هذا علم اللبّ وذاك علم القشور. بل هذا العلم حجاب دون ذلك العلم. وبهذا التفريق المزعوم قد انفسح مجال الانحراف والضلال في علم السلوك الذي هو أهمّ العلوم، فإن سعادة الإنسان في الدارين منوطة به، وانفتح الباب لكل دخيل غريب، فتشعبت الطرق، وكثرت المزالق، ولا نهاية للترّهات بعد العدول عن قصد السبيل وسواء الصراط.

فالهجرة الثانية ـ وهي الهجرة إلى ما جاء به الرسول ﷺ من الكتاب والسنة واتباعُه في كل منازل السلوك ـ هي التي توصل العبد إلى الله، وتصونه عن الجور والانحراف، وتضمن له السعادة في الدنيا والآخرة. يقول المؤلف رحمه الله في مقدمة هذا الكتاب: «ولما كانت السعادة دائرة نفيًا وإثباتًا مع ما جاء به كان جديرًا بمن نصح نفسه أن يجعل لحظات عمره وقفًا على معرفته، وإرادته مقصورة على محابّه. وهذه أعلى همة شمّر إليها السابقون، وتنافس فيها المتنافسون. فلا جرم ضمنّا هذا الكتاب قواعد من سلوك طريق الهجرة المحمدية».

فهذا هو مقصود الكتاب، ولكن كيف تناوله المؤلف، وما المباحث التي اشتمل عليها الكتاب؟ هذا سنبينه في الصفحات الآتية.

ترتيب الكتاب وبعض مباحثه المهمّة

قد رتب المؤلف رحمه الله معظم كتبه على المنهج المألوف، فقسمها إلى أبواب أو فصول أو مسائل تقسيمًا محكمًا، وصرّح بعددها، وسرد عناوينها في مقدمة الكتاب؛ كما ترى في شفاء العليل، وإغاثة اللهفان، وروضة المحبين، وعدة الصابرين، وغيرها. وقد أشار إلى اجتهاده في الترتيب والتبويب في مقدمة كتاب حادي الأرواح إذ قال: «وهذا كتاب اجتهدت في جمعه وترتيبه وتفصيله وتبويبه... وقد قسمت الكتاب سبعين بابًا». ثم ذكر عناوينها كلها.

أمّا كتابنا هذا فلم يرتبه ذلك الترتيب. بل اقتصر في مقدمته على الإشارة إلى مبحثين، وهما المبحث الأول والمبحث الأخير من الكتاب فقال: «وابتدأناه بباب الفقر والعبودية، إذ هو باب السعادة الأعظم وطريقها الأقوم الذي لا سبيل إلى دخولها إلا منه، وختمناه بذكر طبقات المكلفين من الجن والإنس في الآخرة ومراتبهم في دار السعادة والشقاء. فجاء الكتاب غريبًا في معناه، عجيبًا في مغزاه...».

وهذه نظرة في البناء العام للكتاب:

١ ـ خطبة الكتاب (٥ ـ ١١).

٢ ـ «فصل» في الفقر والغنى(١٢ ـ ١١٥).

٣ ـ «قاعدة شريفة عظيمة القدر حاجة العبد إليها أعظم من حاجته إلى الطعام والشراب والنفس، بل وإلى الروح التي بين جنبيه» في كون الله سبحانه هو المطلوب المعبود المحبوب وحده لا شريك له، وهو وحده المعين للعبد على حصول مطلوبه. (١١٦ ـ ٣٤٦).

٤ ـ «قاعدة» في أن كمال العبد وصلاحه يتخلف عنه من إحدى جهتين(٣٤٧).

٥ ـ «قاعدة» في الابتلاء (٣٤٨ ـ ٣٤٩).

٦ ـ «قاعدة في مشاهد الناس في المعاصي والذنوب» (٣٥٠ ـ ٣٧٢).

٧ ـ «قاعدة» في الإنابة ودرجاتها (٣٧٣ ـ ٣٧٦).

٨ ـ «قاعدة في ذكر طريق قريب موصل إلى الاستقامة في الأحوال والأقوال والأعمال» (٣٧٧ ـ ٣٨٢).

٩ ـ «قاعدة شريفة» في أن الطريق إلى الله واحد(٣٨٣ ـ ٣٩٦).

١٠ ـ «قاعدة» في أن السير إلى الله لا يتم إلا بقوتين علمية وعملية (٣٩٧ ـ ٤٠٢).

١١ ـ «قاعدة نافعة» في أقسام العباد في سفرهم إلى الدار الآخرة، ووصف أحوالهم (٤٠٣ ـ ٧٦٠).

١٢ ـ «فصل في مراتب المكلّفين في الدار الآخرة وطبقاتهم فيها. وهم ثمان عشرة طبقة» (٧٦١ ـ ٩٣١).

ونلاحظ هنا أن المؤلف لم يذكر موضوع الفصل أو القاعدة إلاّ في ثلاثة مواضع(٦، ٨، ١٢). وفي غيرها اكتفى بكلمة «فصل» أو«قاعدة» أو «قاعدة شريفة» أو «قاعدة نافعة».

أما حجم هذه القواعد، فالقاعدة الأولى جاءت في ٢٣٠صفحة، والقاعدة الأخيرة في ٣٥٧ صفحة. وبين هاتين القاعدتين الكبيرتين سبع

قواعد لطيفة تراوح حجمها بين ٦ أسطر و٢٢ صفحة. والقواعد التسع وقعت بين فصلين استغرق أحدهما ١٠٤ صفحة والآخر ١٧٠ صفحة. وتحت كل فصل وقاعدة ـ إلاّ القواعد القصار ـ فصول كثيرة تطول أو تقصر حسب مقتضى الكلام.

هذا البناء العام للكتاب قد انطوى على عدد كبير من المباحث العظيمة والمطالب الشريفة والمسائل المشكلة، يستحق بعضها أن يفرد بالتأليف، وبعضها إذا استخرج من هذا الكتاب صار رسالة مستقلة في موضوعها. ونشير هنا بصفة خاصة إلى مبحثين عظيمين، قد وردا في الظاهر عرضًا، ثم استتبع الكلام عليهما مسائل أخرى، وسيقف القارىء من خلال عرضهما على بعض طرائق المؤلف رحمه الله في التأليف.

١ ـ مبحث في القضاء والقدر:

هذا المبحث الذي جاء استطرادًا استغرق نحو ٢١٠ صفحة (١٣٧ ـ ٣٤٦)، ومن المعلوم أن للمؤلف كتابًا مفردًا في هذا الموضوع كما سبق، ولكن الظاهر أنّه لم يكن ألفه إلى ذلك الحين، وإلاّ لأحال عليه، وأوجز الكلام على المسألة حسب الاقتضاء. فلننظر كيف تطرق الحديث إلى هذا الموضوع؟

ذكر المؤلف في أحد فصول القاعدة الأولى أن الإنسان ليس عالمًا بمصلحته ولا قادرًا عليها، والله تعالى هو الذي يعلم ويقدر، ويحب الجود والبذل، ويعطي من فضله لا لمعاوضة ولا لمنفعة، فإذا حبس فضله عن الإنسان فهناك أمران لا ثالث لهما. وذكر الأمر الأول وهو أن يكون الإنسان نفسه واقفًا في طريق مصالحه ومعوقًا لوصول فضله إليه. فإن نعمة الله لا تنال إلا بطاعته ولا تستدام إلا بشكره، فآفته من نفسه

وبلاؤه منه. ثم قال(١٣٧): «فإن أصررت على اتهام القدر وقلت: فالسبب الذي أُصبتُ به وأُتِيتُ منه ودُهيت منه قد سبق به القدر والحكم، وكان في الكتاب مسطورًا، فلا بدّ منه على الرغم منّي. . . ». وهكذا فتح المؤلف لنفسه بابًا واسعًا للكلام على القدر. فأورد على لسان هذا المحتج بالقدر ما جاء في إثبات القدر من الآيات والأحاديث والآثار. ولما اختلفت الروايات في وقت كتابة المقدور للجنين عقد فصلاً في الجمع بينها، ثم عاد إلى سرد الأحاديث الأخرى في إثبات القدر.

وبعدما فرغ من ذلك شرع في الردّ على الذي احتج بالقدر فقال(١٧٨): «فالجواب أن ههنا مقامين: مقام إيمان وهدى ونجاة، ومقام ضلال وردى وهلاك. زلّت فيه أقدام فهوت بأصحابها إلى دار الشقاء. . . ». فهذا الجواب في ص(١٧٨) عن قوله: «فإن أصررت على اتهام القدر. . . » الذي سبق في ص(١٣٧). وقد ذكر في مقام الضلال حكايات وأقوالاً للمحتجين بالقدر من خصماء الله، ثم نقل عن شيخ الإسلام ابن تيمية أن القدرية المذمومين في السنة وعلى لسان السلف ثلاث فرق: القدرية النفاة، والقدرية الإبليسية، والقدرية المشركية. وذكر أن أربعة مواضع في القرآن بين سبحانه فيها أن الاحتجاج بالقدر من فعل المشركين، وأن الناس تفرقوا في الكلام على هذه الآيات أربع فرق، وبيّن مذاهبها. ثم ذكر مراتب القضاء والقدر عند أهل السنة والجماعة، وأوضح صلة القدر بالقدرة والعلم والحكمة وقال(١٩٩): «فكما لا يخرج مقدور عن علمه وقدرته ومشيئته، فهكذا لا يخرج عن حكمته وحمده، وهو محمود على جميع ما في الكون من خير وشر حمدًا استحقه لذاته، وصدر عنه خلقه وأمره، فمصدر ذلك كله عن الحكمة».

وهنا واجه مسألة كبيرة أخرى من المعضلات، قد أشكلت على الفلاسفة وغيرهم من أصحاب الديانات والمقالات قديمًا وحديثاً، فخبطوا فيها خبط عشواء. هي مصدر الشرّ الموجود في العالم وحكمة خلق الأضداد. فناقش المؤلف هذه المسألة من وجوه مختلفة، وأعاد فيها وأبدأ ذاكرًا مذاهب الناس في دخول الشر في القضاء الإلهي، والأصول التي تفرّعت عنها تلك المذاهب، وفي أثنائها تعرض لمسألة إيلام الأطفال والبهائم. وفي الأخير نقل فصلاً لفخر الدين الرازي في هذه المسألة من كتابه المباحث المشرقية، وعقّب عليه.

وقد اتضح من هذا العرض المقتضب لمسألة القضاء والقدر وما يتصل بها كيف تطرق الكلام إليها، ثم اقتضى خطرها وكثرة التنازع فيها أن يتوسع في مناقشتها. ولعلك تذكر قول المؤلف في بداية الفصل أنّ الله سبحانه لا يحبس فضله عن الإنسان إلا لأمرين، وأنه ذكر الأمر الأول الذي قاده إلى هذه المسألة العظيمة الواسعة الأطراف، فذهب عليه مع استطالة الكلام أن يذكر الأمر الثاني. وهذا الموضع ومواضع أخرى تدلّ على أن المؤلف رحمه الله لم يتمكن من إعادة النظر في الكتاب بعد تسويده.

٢ ـ نقد كتاب محاسن المجالس لابن العريف في علل المقامات

أبوالعباس أحمد بن محمد بن موسى الصنهاجي الأندلسي المعروف بابن العريف من أكابر صوفية الأندلس. ولد في المرية، ومات في مرّاكش. كانت له عناية بالقراءات ومشاركة في عدة علوم. وكان أديبًا شاعرًا، وكانت بينه وبين القاضي عياض مكاتبات حسنة(١). وله كتاب

---

(١) وفيات الأعيان (١/ ١٦٨ ـ ١٦٩).

في علل المقامات سمّاه «محاسن المجالس». وقد نشره المستشرق الإسباني آسين بلاسيوس في باريس ١٩٣٣م. وعن هذه النشرة أعاد نشره نهاد خياطة في مجلة المورد العراقية (المجلد١٩ العدد ٤ سنة ١٩٨٠) وجاء النص فيها في ٢٥ صفحة. فهو كتاب لطيف. وقد ذكر شيخ الإسلام أنه اعتمد فيه على كتاب «علل المقامات» للشيخ الهروي، فقال في كلام له على التوكل: «فقد تبيّن أنّ من ظنّ التوكل من مقامات عامّة أهل الطريق فقد غلط غلطًا شديدًا، وإن كان من أعيان المشايخ كصاحب «علل المقامات»، وهو من أجلّ المشايخ. وأخذ ذلك عنه صاحب «محاسن المجالس» »[(١)].

ويؤكد ذلك المقارنة بين محاسن المجالس ومنازل السائرين. ونذكر هنا مثالاً واحدًا من فصل الرجاء. قال صاحب المنازل: «الرجاء أضعف منازل المريدين، لأنه معارضة من وجه، واعتراض من وجه. وهو وقوع في الرعونة في مذهب هذه الطائفة إلا ما فيه من فائدة واحدة نطق بها التنزيل والسنة، ودخل في مسالك المحققين. وتلك الفائدة هي كونه يبرّد حرارة الخوف حتى لا يفضي بصاحبه إلى الإياس». ثم ذكر درجاته حسب طريقته[(٢)].

وقال صاحب المجالس: «وأما الرجاء فهو من منازل العوام. وهو انتظار غائب وطلب مفقود، وهو من أضعف منازل القوم في هذا الشأن؛ لأنه معارضة من وجه، واعتراض من وجه آخر. وهو وقوع في الرعونة. ولفائدة واحدة نطق بها التنزيل فقال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يَرۡجُونَ رَحۡمَتَ ٱللَّهِۚ﴾

(١) مجموع الفتاوى (١٠/ ٣٥).
(٢) مدارج السالكين (٢/ ٥٦).

يريد على العوض من أجر المجاهدة. وقال: ﴿مَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَآتٍۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۝٥﴾، ووردت به السنة لفائدة واحدة، وهي تبريد حرارة الخوف لئلا يفضي بصاحبه إلى اليأس والقنوط. فهو دواء لمرض الخوف، ولا يعرض ذلك المرض إلاّ لعوام هذه الطائفة...».

فالنصان متفقان في الفكر وكثير من الألفاظ والتعبيرات، مع أنه ليس بين أيدينا كتاب علل المقامات للهروي، وإنما نقلنا كلامه من منازل السائرين.

وقد ذكر ابن عبدالهادي أنّ لشيخ الإسلام «قاعدة على كلام ابن العريف في التصوف»[1] ولا نعرف خبرًا عن هذه القاعدة، ولا ندري أتكلم فيها على كتابه محاسن المجالس هذا أم على غيره.

يشتمل كتاب المحاسن على فاتحة، و١٣ فصلاً، وخاتمة في أربعين كرامة يكرم الله بها أولياءه في الدنيا والآخرة. والفصل الأول في المعرفة والعلم، ثم عشرة فصول في الإرادة، والزهد، والتوكل، والصبر، والحزن، والخوف، والرجاء، والشكر، والمحبة، والشوق. وجعلها جميعًا من منازل عوام السالكين، وقرّر أنها علل أنِف الخواص منها. ثم عقد الفصل الثاني عشر في منازل الخاصة، وذكر فيه حقيقة زهدهم وتوكلهم وصبرهم...» إلى آخر المقامات. والفصل الثالث عشر في النظر إلى الله تعالى.

لم يتعرض ابن القيم للفصلين الأول والثالث عشر ولا للخاتمة.

---

(١) العقود الدرية (١/ ٥٧).

وإنما تكلم على الفصول التي بين الفصلين المذكورين. لأن غرضه ـ وهو الكلام على علل المقامات ـ كان متعلقًا بها. وقد استغرق الكلام عليها نحو ٢٨٠ صفحة من نشرتنا هذه، أي نحو ثلث الكتاب. فهو بمنزلة رسالة مستقلة في نقد كتاب ابن العريف. وإذا كان المبحث السابق وهو القضاء والقدر وما إليه قد يشعر القارىء باستطالته مع خطره وجلالته، وبأن ابن القيم رحمه الله لو كان ألّف كتابه الكبير من قبل لأحال عليه وأوجز القول هنا، كما فعل في حاشيته على السنن= فإن هذا المبحث ـ وهو علل المقامات ـ قد وقع في حاقّ موضعه، وهو من صميم موضوع الكتاب. وذلك لأن هذه المقامات هي مقامات السلوك ومنازله، فيجب على السالك أن يعرف عللها وقوادحها، فيتجنبها ويتحاشاها، لينجح مسعاه ويحمد مسراه.

ومن المصائب أن جميع المقامات التي ذكرت في الكتاب والسنة، ووصف بها الأنبياء وغيرهم من عباد الله الصالحين قد جعلها أرباب الطرق معلولة ومن مقامات العوامّ من السالكين. ومراتب الخاصة فوقها، ثم مراتب خاصّة الخاصّة. فلم يكن محيص من التعرض لهذه العلل في هذا الكتاب الذي قصد به بيان قواعد السلوك الشرعي.

وكان من السهل أن يعقد ابن القيم رحمه الله بابًا كاملاً في علل المقامات، ولكنه لم يفعل، بل جاء كلامه عليها عرضًا في الظاهر، كأنه لم يصمد إليها صمدًا، ولم يكن ذلك من همّه ووكده. ولعل هذا رفق منه بقارىء كتابه، وتلطف وإيناس له، لكيلا يستوحش من البداية، فينفر نفورًا. فلننظر كيف دلف ابن القيم إلى هذا البحث النفيس الخطير.

عقد ابن القيم فصلاً (٤٠٣) بعنوان «قاعدة نافعة»، وذكر أن الإنسان

من حين استقرت قدمه في الدنيا فهو مسافر فيها إلى ربه، ومدة سفره هو عمره الذي كتب له. والناس في سفرهم هذا إما مسافرون إلى دار الشقاء وإما إلى دار السلام. والسائرون إلى دار السلام ثلاثة أقسام: ظالم لنفسه، ومقتصد، وسابق بالخيرات. والسابقون بالخيرات نوعان: أبرار ومقربون.

ثم عقد فصلاً في مسألة أن أصحاب اليمين هل هم الأصناف الثلاثة (المقتصدون والأبرار والمقربون) أو يدخل فيهم الظالمون لأنفسهم أيضًا. وفصّل القول فيها على طريقته من ذكر خلاف العلماء وأدلتهم وردودهم في نحو ٣٢ صفحة، ثم رجع فقال: «والمقصود الكلام على مراحل العالمين وكيفية قطعهم إياها، فلنرجع إليه فنقول. . . » (٤٤١).

ثم وصف حال الأصناف المذكورة، وأفضلها وأعلاها: السابقون المقربون. وقد تواضع ابن القيم فاعتذر واستغفر قبل وصف حالهم قائلاً: «وأما السابقون المقربون، فنستغفر الله الذي لا إله إلا هو أولاً من وصف حالهم وعدم الاتصاف به، بل ما شممنا له رائحة، ولكن محبة القوم تحمل على تعرف منزلتهم والعلم بها. وإن كانت النفوس متخلفة منقطعة عن اللحاق بهم، ففي معرفة حال القوم فوائد عديدة» (٤٤٦). وبعد ذكر هذه الفوائد شرع في وصف حالهم من الجهتين: جهة الإرادة والعمل، وجهة العلم والمعرفة. فلما وصف حالهم مع الأقدار التي تصيبهم بغير اختيارهم بأنهم يقابلونها بمقتضاها من العبودية ذكر أنهم فيها على ثلاث مراتب: إحداها الرضا عنه فيها والمزيد من حبه والشوق إليه. والمرتبة الثانية شكره عليها كشكره على النعم. وهذا فوق الرضا عنه بها، ومنه ينتقل إلى هذه المرتبة، والمرتبتان لأهل هذا الشأن.

والثالثة للمقتصدين، وهي مرتبة الصبر التي إذا نزل منها نزل إلى نقصان الإيمان وفواته. ثم قال: «فالصبر أول منازل الإيمان ودرجاته، وأوسطها، وآخرها. فإن صاحب الرضا والشكر لا يعدم الصبر في مرتبته، بل الصبر معه، وبه يتحقق الرضا والشكر، لا تصور ولا تحقق لهما دونه. وهكذا كل مقام مع الذي فوقه، كالتوكل مع الرضا، وكالخوف والرجاء مع الحب. فإن المقام الأول لا ينعدم بالترقي إلى الآخر. . . وإنما يندرج حكمه في المقام الذي هو أعلى منه» (٤٧٧).

ولما وصل هنا قال: «فتأمل هذا الموضع وأعطه حقه يزُل عنك ما يعرض من الغلط في علل المقامات، وتعلم أن دعوى المدعي أنها من منازل العوام ودعوى أنها معلولة غلط من وجهين». وبعد ذكرهما قال: «ولنذكر لذلك أمثلة». وهذا هو المدخل لنقد كتاب ابن العريف، فذكر المثال الأول في الإرادة وقال: إن الله جعلها من منازل صفوة عباده، وقالت طائفة: «الإرادة حلية العوام. . . » (٤٧٩). ونقل كلامًا طويلاً لابن العريف من كتابه محاسن المجالس ولكن لم يسمّه هنا، بل جعله قول «طائفة» لأن المقصود نقد مذهب، لا نقد شخص بعينه. ثم تكلم عليه من اثني عشر وجهًا.

وفي الفصل الثاني ذكر المثال الثاني وهو في الزهد وهنا فجأة قال: «قال أبوالعباس رحمه الله» (٤٩٢). ولكن من أبوالعباس هذا؟ لا يعرف القارئ شيئًا عنه إلى أن يصل بعد استطرادات مهمة إلى ص(٥٤٥). فيجده يقول: «ولنرجع الآن إلى المقصود، وهو الكلام على ما ذكره أبوالعباس ابن العريف في علل المقامات، فقد ذكرنا كلامه في علة مقام الإرادة والكلام عليه، وذكرنا كلامه في مقام الزهد وقوله إنه من مقامات

العامة، وذكرنا أن الكلام على ذلك من وجوه، هذا آخر الوجه الثاني منها. والوجه الثالث: . . .».

وهكذا تكلم ابن القيم على فصل فصل من كتاب محاسن المجالس حتى إذا وصل إلى فصل المحبة قال: «والمقصود: الكلام على علل المقامات وبيان ما فيها من خطأ وصواب. ولما كان أبوالعباس ابن العريف رحمه الله قد تعرض لذلك في كتابه «محاسن المجالس» ذكرنا كلامه فيه وما له وما عليه. ثم ذكر بعدها فصلاً في المحبة وفصلاً في الشوق، فنذكر كلامه في ذلك وما يفتح الله به تتميمًا للفائدة، ورجاء للمنفعة وأن يمنّ الله العزيز الوهاب بفضله ورحمته، فيرقي عبده من العلم إلى الحال، ومن الوصف إلى الاتصاف، إنه قريب مجيب» (٦٣٩).

فانظر كيف تدرّج ابن القيم رحمه الله بقارئه، فقال له أولاً: إنه سيذكر أمثلة من علل المقامات، وذكر مثال الإرادة، ونقل (٤٧٩) كلام «طائفة» (وهو فصل من كلام ابن العريف). وفي المثال الثاني قال(٤٩٢): «قال أبوالعباس». وفي المثال الثالث زاد في تعريفه، فقال(٥٤٥): «أبوالعباس بن العريف». وبعد المثال السادس ذكر(٦٣٩) مع اسمه اسم كتابه أيضًا، فجاءت الإحالة إحالة كاملة. فهل هذا اتفاق أو أسلوب من أساليب التأليف عند ابن القيم رحمه الله؟ أراني أميل إلى الأمر الثاني. ولعلّ تطرّقه في كتاب «مدارج السالكين» إلى شرح «منازل السائرين» للهروي ونقده أيضًا من هذا.

وبقي سؤال، وهو أنّ ابن العريف قد اعتمد في كتابه على كتاب علل المقامات للشيخ الهروي كما ذكر شيخ الإسلام. وقد أشار إليه ابن القيم أيضًا في مدارج السالكين حينما نقل كلام ابن العريف ـ دون تسميته ـ في

التوكل نموذجًا لكلام هذه الطائفة في علل المقامات، وردّ عليه، ثم قال(٣/ ٤٧١) «وهكذا الكلام في سائر علل المقامات، وإنما ذكرنا هذا مثالا لما يذكر من عللها، وقد أفرد لها صاحب المنازل مصنّفًا لطيفًا وجعل غالبها معلولاً». فلماذا اختار ابن القيم للنقد والنقض كتاب ابن العريف، وترك كتاب الهروي الذي هو الأصل؟ يبدو أن ابن القيم لم يقف على كتاب الهروي لا سيما عند تأليفه طريق الهجرتين ومدارج السالكين.

أهمية الكتاب

تكمن أهمية هذا الكتاب بالدرجة الأولى في أمرين معًا، وهما: موضوعه، ومؤلفه. فالموضوع ـ كما سبق ـ بيان قواعد السلوك والسير إلى الله على المنهج الذي شرعه الله ورسوله، لأن سعادة العبد في الدارين منوطة بهذا السير المستقيم. ولكن الموضوع متداول مطروق في كتب الصوفية، وكلهم يزعم أن القواعد التي يذكرها مؤسسة على الكتاب والسنة. وهنا يكتسب الكتاب أهميته من الأمر الثاني وهو أنه من تأليف إمام ربّاني يصدر في كل مسألة عن كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ. وهو مع تمسكه الشديد بالكتاب والسنة مطلع على كتب القوم، عارف بغوامضها، قادر على الخوض في دقائقها، ذائق لأحوال السالكين، مشرف على مقامات العارفين، ومن الزهد والورع والتعبد والتألّه في مكان مكين. هذا إلى العدل والنصفة في النقد والحكم، وعدم التحيز إلى فرقة أو حزب أو مذهب. فكون هذا الكتاب في بيان قواعد السلوك المحمدي، ومن تأليف الإمام ابن القيم رحمه الله هو الذي أضفى عليه أهمية بالغة. والحقيقة أن كتب الشيخين ابن تيمية وابن القيم رحمهما الله في تزكية النفس وطب القلوب لتؤلف «منظومة» لا نظير لها في المكتبة الإسلامية.

أمّا المباحث الجليلة التي اشتمل عليها الكتاب فقد سبقت الإشارة إلى أهمية بعضها في الفقرة السابقة. وقد نبّه المؤلف نفسه رحمه الله ـ نصحًا لقارىء كتابه وشفقة عليه ـ على أهمية بعض المباحث، نحو قوله خلال الكلام على طبقات المكلفين في الدار الآخرة: «ولا يدري قدر الكلام في هذه الطبقات إلا من عرف ما في كتب الناس، ووقف على

أقوال الطوائف في هذا الباب، وانتهى إلى نهاية مرامهم ونهاية إقدامهم» (٩٠٢).

وهكذا في فصل التوكل ختم بيانه لسرّ الاقتران بين التوكل والهداية والحق في القرآن الكريم بقوله: «فتدبّر هذا السر العظيم في اقتران التوكل والكفاية بالحق والهدى، وارتباط أحدهما بالآخر. ولو لم يكن في هذه الرسالة إلاّ هذه الفائدة السَّرِيَّة لكانت حقيقة أن تودع في خزانة القلب لشدة الحاجة إليها»(٥٦١).

والمباحث التي وردت في غضون الكلام استطرادًا، قد نبّه المؤلف رحمه الله على أن أهميتها هي التي اقتضت تناولها، بل كان بعض المباحث المعترضة أهم من المبحث الأصلي. فقال في موضع: «ولولا أن هذه المواضع أهم مما كلامنا بصدده ـ من ذكر مجرد الطبقات ـ لم نذكرها، ولكنها من أهم المهم» (٨١١). ولما عاد إلى المقصود بعد بسط الكلام على آيات الإنفاق من سورة البقرة قال: «ولنعد إلى المقصود، فإن هذا من سعي القلم، ولعله أهم مما نحن بصدده» (٨٢٤).

ولقد أحسن المصنف رحمه الله إذ توقف عند هذه المباحث المهمة وتناولها بالبسط، فهذا الاستطراد ينفع القارىء بعض الأحيان نفعًا عظيمًا. فقد حفظ بفضله كلام شيخ الإسلام وابن القيم وغيرهما في كثير من المسائل العظيمة.

ومع ذلك لا يظن القارىء أن المؤلف رحمه الله كان زمامه بيد الاستطراد يقوده أنّى شاء. فإذا كانت المسألة تقتضي كلامًا مستفيضًا متشعبًا يكتفي المؤلف بالإشارة إليه ولا يخوض فيه. ومن ذلك أنه لما

ذكر من أصول المعتزلة «النبوة» قال: «مع أنهم لم يوفوها حقّها، بل هضموها غاية الهضم من وجوه كثيرة ليس هذا موضعها»(٨٣٦). وهكذا لما ذكر مذاهب الفرق في الطبقة التي رجحت سيئاتها على حسناتها قال: «ولولا أن المقصود ذكر الطبقات لذكرنا ما لهذه المذاهب وما عليها، وبيّنا تناقض أهلها»(٨٤٠).

وفي تفسير آيات الإنفاق لما وصل إلى آية الدين قال: «ولولا أن هذه الآية تستدعي سفرًا وحدها لذكرت بعض تفسيرها». (٨٢٣).

موارد الكتاب

بالإضافة إلى نصوص القرآن والأحاديث والآثار، يتضمن الكتاب نقولاً من كتب التفسير والحديث والتصوف، وأقوالاً وأشعارًا ومذاهب واحتجاجات لأصحاب المقالات ورجال الفرق. فلا شكّ أن المصنف رحمه الله كان بين يديه عدد كبير من المصادر التي وقف عليها، منها ما وصل إلينا، ومنها ما لم يصل، وبعض ما وصل ليس بين أيدينا، فليس من السهل أن يكشف عنها جميعًا. ثم لم يكن من منهج العلماء عمومًا التزام الإحالة في كل ما يوردونه في مصنفاتهم من أقوال ومذاهب. ثم المصادر في زمنهم كانت متوافرة، وكثير من تلك الأقوال والمذاهب معروفة لأصحابها، والثقة بالناقل قائمة، فكأنّهم كانوا يرون من التكلف كلّما ذكر مؤلف قولاً من الأقوال أن يصرّح باسم الكتاب الذي نقله منه، بل قد لا يرى داعيًا إلى تسمية القائل نفسه فضلاً عن مصدر قوله، بل قد يتعمد إغفال اسمه لأمر ما.

ولنضرب مثالاً من كتابنا هذا، ليتضح القصد. عقد المؤلف رحمه الله فصلاً في ذكر كلمات عن أرباب الطريق في الفقر والغنى (٩٦ ـ ١٠٥) أورد فيه أكثر من عشرين كلمة للمشايخ مع التعليق عليها. وهذه كلها مأخوذة من كتاب واحد، وهو الرسالة القشيرية، ولكن لم يشر المؤلف إليها. نعم ذكر في موضع الأستاذ أبا القاسم القشيري، ولكن لا لبيان مصدر الأقوال، بل لأن أباالقاسم علّق على كلمة للمظفر القرميسيني، ورأى المؤلف أن في الكلمة شطحًا وفي التعليق غموضًا وخلطًا، مما يستوجب التعقيب، فعقّب عليهما وأبان وجه الصواب. فنلاحظ هنا أن ابن القيم رحمه الله لم يشر إلى مصدر الأقوال لأن غرضه

كان متعلقًا بالأقوال نفسها، وقد نقلها من مصدرها بأمانة تامة.

أما تعليق أبي القاسم فكان بإمكان ابن القيم أن يحيل هنا على رسالته أيضًا، ولكنه لم يفعل، وذلك فيما يبدو نظرًا لشهرة الرسالة، وثقةً بفطنة القارىء.

وبعد، فهما طريقان مألوفان للإشارة إلى المصادر، فيصرح حينًا باسم الكتاب، وحينًا آخر يسمّى صاحب الكتاب دون كتابه، وبعض الأحيان يغفل الإحالة. وقدّمنا هذا التنبيه لكيلا يظن القارىء أن الموارد التي سنشير إليها في هذا المبحث هي كل موارد الكتاب أو جلّها، فإنّ الناظر في الكتاب يكاد يجزم أن ما لم يذكر هنا يبلغ عدده أضعاف ما ذكر. هذا، وربما استفاد المؤلف بعض النقول بواسطة.

ونذكر أولاً أسماء الكتب المذكورة في المتن ثم أسماء المؤلفين الذين لم تذكر كتبهم، ثم نقول المؤلف عن شيخه ابن تيمية رحمه الله.

*** أولاً: الكتب**

أثبتنا بجانب اسم الكتاب أرقام الصفحات التي نصّ فيها على اسمه. ولمعرفة المواضع الأخرى التي نقل فيها عن مؤلفه دون تسمية كتابه المذكور، يراجع فهرس الأعلام.

- تفسير ابن مردويه (٢٦٢، ٤٢٨، ٤٣٧).
- تفسير منذر بن سعيد (٤١٤).
- خلق أفعال العباد للبخاري (٢٩٥).
- الرد على الجهمية للإمام أحمد (٧٧١).

ـ السنة للطبري (١٤٩).

ـ السنن الأربعة (١٦٥).

ـ سنن الترمذي (١٦٦، ١٦٨، ١٧٠، ٥٤١، ٦٢٦، ٦٨٦، ٧٨٤، ٩٢٠).

لم يسمّ المؤلف كتاب الترمذي، ولكن قوله الترمذي بمنزلة تسمية كتابه، وهكذا في كتب الحديث الأخرى.

ـ سنن أبي داود (١٦٤).

ـ السنن الكبرى للنسائي (٤٤٤، ٧٢١، ٧٤١).

ـ سنن ابن ماجه (١٦٢، ١٦٤).

ـ الصحيحان (١٤٨، ١٤٩، ١٥٠، ١٥٥، ١٦٢، ١٦٣، ١٦٥، ٦٨٧، ٨٤٢، ٨٦٠، ٨٧٣).

ـ صحيح البخاري (١٦٢، ١٦٣، ٢٠٣، ٤٦٢، ٦١٩، ٧٨٢، ٨٠٦، ٨٥٠، ٨٥٢، ٩١٠).

ـ صحيح مسلم (١٣٩، ١٤٦، ١٤٧، ١٤٨، ١٥٠، ١٥٥، ١٧٠، ٣٨٤، ٥٣٥، ٥٣٩، ٦٢٤، ٨٥٦، ٨٦٣).

ـ صحيح الحاكم (١٢٤).

ـ صحيح ابن حبان (١٢٤، ٥٧٨، ٨٤٣، ٨٤٦).

ـ صحيح أبي عوانة (٨٤٤).

ـ كتاب القدر لأبي داود(١٥١).

ـ كتاب المحتضرين لابن أبي الدنيا (٦٦٩).

ـ كتاب نزول الرب كل ليلة إلى سماء الدنيا للدارقطني (٤٦٤).

ـ الكشاف للزمخشري (٤١٤).

ـ المباحث المشرقية للرازي (٣٣٤).

ـ محاسن المجالس لابن العريف (٦٣٩).

ـ مستخرج البرقاني على البخاري (٨٥٣).

ـ مسند أحمد (١٥، ١٢٣، ١٥٠، ١٧٠، ٥٢٢، ٥٥٠، ٥٧٨، ٧٢١، ٧٨٤، ٨٤٧، ٨٤٨، ٨٦٥).

ـ مسند إسحاق بن راهويه (٨٦٦).

ـ المعجم الكبير للطبراني (٢٦٣).

ـ مقالات الإسلاميين للأشعري (٨٧٢، ٩١٢).

ـ منازل السائرين للهروي (٧٤، ٥٨٥، ٧٠١، ٧١٤، ٧٢٩).

والجدير بالذكر أنّ نسخة «منازل السائرين» التي رجع إليها ابن القيم في هذا الكتاب غير النسخة التي اعتمد عليها في كتاب «مدارج السالكين».

*** ثانيًا: المؤلفون**

ـ البغوي (٩١٤).

كثيرا ما يعتمد المؤلف على تفسير معالم التنزيل للبغوي، فهناك مواضع أخرى لم يصرّح بنقله عنه، كما سنرى في الحواشي.

ـ البيهقي (٨٦٧، ٨٦٩، ٨٧٠، ٨٧٣).

النقل في المواضع الثلاثة الأولى من كتاب الاعتقاد.

ـ الثعلبي (٥٣٥): الكشف والبيان.

ـ الحاكم (٨٣٢).

يجوز أن تكون الإحالة على معرفة علوم الحديث أو المستدرك.

ـ ابن حزم (٨٤٠): الدرّة فيما يجب اعتقاده.

ـ الدارمي (٣٨٤): نقض الدارمي على بشر المريسي.

ـ الرماني (٤١٤).

يظهر من السياق أن الإحالة على تفسيره.

ـ الزجّاج (٢٢٩، ٥٣٤، ٧٧٩، ٩١٤).

نقل قوله في الموضع الأخير من تفسير البغوي، ولعل المواضع الأخرى أيضًا منقولة بالواسطة.

ـ الطبري (١٤٥، ١٤٨، ١٦٧، ١٦٩، ١٧١)،

الظاهر أن هذه النقول كلها مأخوذة من كتاب السنة له، وقد صرّح باسمه في ص(١٤٩) كما سبق.

ـ ابن عبدالبرّ (٨٤١، ٨٧٢).

النقل من الاستذكار، وقد صرّح باسمه في أحكام أهل الذمة (٨٧٢).

ـ عبدالحق الإشبيلي (٨٦٦، ٨٦٩): كتاب العاقبة.

ـ أبوعبدالرحمن السلمي (٧٢٧).

ـ ابن عطية (٥٣٥): المحرر الوجيز.

ـ الفريابي (٤٤٠).

لعلّ النقل من تفسيره.

ـ ابن قتيبة (٨٥٩).

الظاهر أن النقل من غريب الحديث، والمطبوعة ناقصة، ولكن قد يكون مصدر قوله «الرد على ابن قتيبة للمروزي».

ـ المهدوي (٥٣٥). لعلّ النقل من تفسيره.

ـ ابن وهب (١٥٢، ١٥٤، ١٦٧): كتاب القدر.

ـ ابن وضاح (٧٧٢): البدع والنهي عنها.

ـ القاضي أبويعلى (٨٤٦).

*** ثالثاً: النقول عن شيخ الإسلام**

إنّ شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه الإمام ابن القيم رحمهما الله يغرفان جميعًا من ينبوع واحد، ومنهجهما واحد في تقويم الأقوال والآراء ووزنها بميزان الكتاب والسنة دون التعصب لشخص أو مذهب. ثم من طول الملازمة والمذاكرة والموافقة امتزجت الأفكار وتشابهت العبارات، وكادت تتحدّ بعض الأحيان.

وقد يتناول ابن القيم قاعدة من قواعد شيخ الإسلام ويفسرها ويبسط الكلام عليها من غير أن يشير إلى أن أصلها من كلام شيخه، ولا عجب

في ذلك، فهو حامل علمه وناشره وشارحه. وكذلك بعض أقوال الشيخ وآرائه يعزوها إليه حينًا، ويغفل العزو حينًا آخر. ومن ثم يجب على من يريد دراسة أفكار ابن القيم في موضوع من الموضوعات أن يستوعب النظر في مؤلفات شيخه أيضًا.

ذكر ابن القيم شيخه في هذا الكتاب في عشرة مواضع. أورد في موضعين (١٢، ١٨٦) ثلاثة أبيات من تائيته. وفي موضعين (٣٢٨، ٥١٨) ذكر كتابه «موافقة العقل الصريح للنقل الصحيح» وأثنى عليه. وفي موضعين آخرين (١٨٤، ٦٥٨) نقل مناظرة له مع بعض شيوخ الجبرية حكاها له. وفي (٨٤٩) نقل حكمه على حديث بأنه باطل موضوع. وفي المواضع الأخرى (٢٠٠، ٢١٤، ٥٣٤) نقل أقوال شيخه في بعض المسائل.

أما النصوص التي هي لشيخه بدليل وجودها في كتبه أو أن ابن القيم نفسه عزاها إليه في كتاب آخر له، فمنها أنه ذكر في (٢٩) قول المسيح للحواريين: «إنكم لن تلجوا ملكوت السماء حتى تولدوا مرتين» وفسّره واستدلّ كذلك بقراءة لأبي بن كعب، من غير إشارة إلى شيخه. ولكن في مدارج السالكين (٣/ ٣٤) نقل ذلك كله عن الشيخ.

ومنها أنه لما فسّر «العزيز» من أسماء الله سبحانه بأن العزة تتضمن القوة قال: «يقال: عز يعَز ـ بفتح العين ـ إذا اشتدّ وقوي. ومنه الأرض العزاز للصلبة الشديدة. وعز يعز ـ بكسر العين ـ إذا امتنع ممن يرومه. وعز يعُز ـ بضم العين ـ إذا غلبَ وقهر. فأعطوا أقوى الحركات ـ وهي الضمة ـ لأقوى المعنى، وهو الغلبة والقهر للغير...» (٢٣١). ونحوه في مدارج السالكين (٣/ ٢٣٨) وجلاء الأفهام (١٤٧) أيضًا، ولكن السياق في جلاء الأفهام يدلّ على أنه من كلام شيخ الإسلام، إذ قال فيه:

«ثم ذكر لي فصلاً عظيم النفع في التناسب بين اللفظ والمعنى، ومناسبة الحركات لمعنى اللفظ، وأنهم في الغالب يجعلون الضمة التي هي أقوى الحركات للمعنى الأقوى... فيقولون: عز يعَز بفتح العين إذا صلب. وأرض عزاز: صلبة...» ونجد الفكرة بعينها مع تفسير الكلمة على هذا الوجه في منهاج السنة (٣/ ٣٢٥).

ومنها القاعدة الأولى بعد باب الفقر والغنى، التي عنوانها: «قاعدة شريفة عظيمة القدر حاجة العبد إليها أعظم من حاجته إلى الطعام والشراب...». وخلاصتها أن الله عز وجل هو المعبود المطلوب المحبوب وحده، وهو المعين للعبد على حصول مطلوبه، وهو معنى قوله تعالى: ﴿إياك نعبد وإياك نستعين﴾. فقد بنى ابن القيم كلامه في هذه القاعدة إلى أول الفصل الثالث (١١٦ ـ ١٣٣) على كلام شيخه، ونقل معظمه بنصه مع بسطه. وكذا فعل في الباب السادس من كتابه إغاثة اللهفان (٧٠ ـ ٩٦)، ولكنه رتبه هناك على نحو آخر، ولم يشر هنا ولا في الإغاثة إلى شيخ الإسلام. وكلام الشيخ في مجموع الفتاوى (١/ ٢١ ـ ٣٣).

ولا أستبعد أن يكون نقد ابن القيم لكتاب ابن العريف في علل المقامات مبنيًا على قاعدة الشيخ المذكورة في مؤلفاته، وقد سبقت الإشارة إليها.

وفي آخر هذه الفقرة نشير إلى موضعين في تفسير قول النبي ﷺ: «ربنا ولك الحمد، ملء السماوات وملء الأرض، وملء ما بينهما، وملء ما شئت من شيء بعد». ذكر في الموضع الأول (٢٤٠) أن قوله: «ملء ما شئت من شيء بعد» يحتمل أمرين: أحدهما أن يملأ ما يخلقه

الله بعد السماوات والأرض، والثاني أن يكون المعنى: ملء ما شئت من شيء ويقدّر مملوءًا بحمدك، وإن لم يكن موجودًا. ثم أورد وجوهًا تقوي المعنى الأول. وختم الوجه الثاني في المسوّدة (٤١/أ) بقوله: «هذا تقرير شيخنا. قلت: وفيه نظر، إذ قوله: «وملء ما شئت من بعد» يحتمل بعدية الزمان وبعدية المكان المغايرة، أي ما شئت غير ذلك. والبعدية مستعملة فيهما». ثم ضرب على هذه العبارة، فبقي تقرير الوجه الثاني دون إشارة إلى أنه من كلام شيخ الإسلام، ودون التعقيب عليه.

وفي الموضع الثاني (٢٤٢) ذكر المؤلف اختلاف الناس في معنى كون حمد الله سبحانه يملأ السماوات والأرض وما بينهما، وأن طائفة ذهبت إلى أن ذلك على وجه التمثيل. ثم كتب في مسودته (٤١/أ): «وكان شيخنا رحمه الله يرى أنه لا يحتاج إلى هذا التكلف، بل الحمد يملؤها حقيقة». ثم ضرب على هذه العبارة واستكمل استدلال الطائفة الأولى، ثم قال: «والصواب أنه لا يحتاج إلى هذا التكلف البارد، فإن ملء كل شيء يكون بحسب المالىء والمملوء». ثم أورد استعمالات وشواهد عديدة ليخلص إلى أنه حقيقة في بابه.

طبع الكتاب وتحقيقه واختصاره وترجمته

أوّلاً: طبعه وتحقيقه:

صدر طريق الهجرتين لأول مرة سنة ١٣٢٠هـ في القاهرة من المطبعة الميمنية. وعلى هذه الطبعة اعتمدت طبعة المنيرية ثم طبعة السلفية مع زيادة تعليقات وتحسينات. ثم عن هذه الثلاث وبخاصة عن السلفية صدرت معظم الطبعات، وإن ادّعت بعضها الاعتماد على نسخة خطية. ونذكر فيما يلي الطبعات التي وقفنا عليها:

- طبعة المطبعة الميمنية على حاشية إغاثة اللهفان، بتصحيح محمد الزهري الغمراوي. صدرت في شعبان ١٣٢٠=١٩٠٢م. عدد صفحاتها ٤+ ٤٢٣ . والنسخة التي وقفت عليها ضاعت خاتمتها، فلا أدري أأشير في آخرها إلى المخطوطة التي اعتمد عليها في نشرها أم لا.

- طبعة إدارة الطباعة المنيرية. كتب على غلافها: «عنيت بتصحيحه والتعليق عليه للمرة الأولى سنة ١٣٥٧هـ إدارة الطباعة المنيرية». وفي آخرها: «تم طبعه في ربيع الآخر سنة ١٣٥٨هـ. وهي في ٥٦٧ صفحة بالإضافة إلى فهرس الموضوعات المرقم بحروف المعجم.

- طبعة المكتبة السلفية بعناية الأستاذ محب الدين الخطيب رحمه الله. ووقف على طبعها يوسف بن عبدالعزيز النافع. صدرت سنة ١٣٧٥هـ = ١٩٥٥م في ٤٣٢ صفحة. والطبعة الثانية منها صدرت سنة ١٣٩٤هـ = ١٩٧٤م.

- طبعة إدارة الشؤون الدينية في الدوحة (قطر) سنة ١٣٩٧هـ = ١٩٧٧م (عن ط السلفية) بتحقيق ومراجعة الشيخ عبدالله بن إبراهيم

الأنصاري رحمه الله في ٧٤٤ صفحة.

ـ طبعة مكتبة النهضة الإسلامية للطباعة والنشر والتوزيع في القاهرة سنة ١٣٩٩هـ = ١٩٧٩م. قام بتصحيحها محمود غانم غيث (عن ط المنيرية) في ٦٢٤ صفحة.

ـ طبعة دار الكتب العلمية في بيروت، سنة ١٤١٦هـ، مصورة عن ط السلفية في ٤٣٢ صفحة.

ـ طبعة مكتبة المعارف بالطائف (عن ط السلفية) دون تاريخ، في ٤٢٧ صفحة.

ـ طبعة دار الوطن للنشر والإعلام في المملكة العربية السعودية (عن ط السلفية) دون تاريخ في ٤٣٢ صفحة.

ـ طبعة مكتبة المؤيد بالرياض سنة ١٤١٤هـ = ١٩٩٣م، بتحقيق بشير محمد عيون. وبين يديّ طبعته الثانية التي صدرت عن مكتبة دار البيان بدمشق سنة ١٤١٩هـ في ٤٤٣ صفحة. وقد زعم محققها أنه اعتمد على نسخة الظاهرية ونسخة الكويت والطبعتين المنيرية والسلفية، وقد أثبت أرقام أوراق الظاهرية أيضًا على حواشي الصفحات، ولعل هذا هو المقصود بالاعتماد عليها!

ـ طبعة دار ابن كثير بدمشق، تحقيق يوسف علي بديوي. وبين أيدينا الطبعة الرابعة التي صدرت سنة ١٤٢٤هـ في ٨١٢ صفحة، ولم أعرف متى صدرت لأول مرة. وقد زعم محققها أيضًا أنه اعتمد فيها على نسخة الظاهرية. وهذه أيضًا دعوى عريضة لا تصدّقها المقابلة بينها وبين النسخة المذكورة!

ـ طبعة دار الخير في بيروت سنة ١٤١٩هـ، بتحقيق وهبة الزحيلي

عن ط دار ابن كثير! وخرج أحاديثه أسامة حسن عبدالمجيد. عدد صفحاتها ٤٩٨ صفحة.

ـ طبعة دار ابن القيم بالدمام، الطبعة الثانية، سنة ١٤١٤هـ، ضبط وتخريج وتعليق عمر بن محمود أبوعمر، في ٦٣٢ صفحة.

ـ طبعة المكتبة العصرية في بيروت سنة ١٤٢٣هـ باعتناء أبي عبدالله العاملي السلفي، في ٤٨٨ صفحة، وذكر في المقدمة أنه اعتمد على الطبعة المصرية القديمة، وطبعة دار ابن القيم، وطبعة دار ابن كثير، وهي أصح تلك الطبعات(؟).

ـ طبعة نزار مصطفى الباز في مكة المكرمة، تحقيق أبي الزهراء حازم علي بهجت القاضي سنة ١٤١٥هـ، في ٥٥٦ صفحة.

ـ طبعة دار الكتاب العربي في بيروت. حققه وخرج أحاديثه أحمد إبراهيم زهوة. الطبعة الأولى سنة ١٤٢٣هـ. وذكر أنه اعتمد على طبعة سابقة لدار الكتاب العربي.

ـ طبعة دار ابن حزم في بيروت، الطبعة الأولى سنة ١٤٢٤هـ.

ـ طبعة دار المعرفة في بيروت، الطبعة الأولى سنة ١٤٢٤هـ، اعتنى بها عبدالله سنده.

* وقد حُقّق الكتاب لأول مرة في ثلاث رسائل جامعية (١٤٢٣ ـ ١٤٢٤) في كلية أصول الدين بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية من إعداد الباحثين:

١ ـ عايد بن مسفر العقيلي.

٢ ـ عبدالله بن عايض آل مسعود القحطاني.

٣ ـ خالد بن علي بن عبدالله العايد.

وقد أشرف على القسمين الأول والثاني: الشيخ عبدالله بن صالح المشيقح، وعلى الثالث: الشيخ عبدالعزيز بن إبراهيم الشهوان.

وكان اعتمادهم على نسخة المصنف، ونسخة الفاتح، ونسخة الكويت، ونسخة برلين، ونسخة الشيخ ابن سحمان المكتوبة سنة ١٢٨٥هـ. والرسائل الجامعية لها منهجها وحدودها.

ثانيًا: اختصاره

ـ اختصر الكتاب فؤاد شاكر، وصدر باسم «إني مهاجر إلى ربي ـ مختصر طريق الهجرتين» في ٢١٢ صفحة من مكتبة التراث الإسلامي بالقاهرة سنة ١٤٠٧هـ.

ـ اختصر الباب الأخير من الكتاب ونشره عبدالله بن جار الله بن إبراهيم الجار الله بعنوان «مختصر طبقات المكلفين». وقد صدر من مكتبة الطالب الجامعي بمكة المكرمة سنة ١٤٠٤هـ في ٢٧ صفحة.

ـ فصل «مشاهد الخلق في المعصية» استلّه نذير حسن عتمة ونشره سنة ١٤٠٥هـ.

ثالثًا: ترجمته

ـ ترجمه إلى الأردية مع شيء من الاختصار شيخنا الشيخ عبدالعليم الإصلاحي، ونشرته رئاسة إدارة البحوث العلمية والإفتاء في الرياض سنة ١٤١٤هـ = ١٩٩٤م في ٣٤٣ صفحة.

ـ ترجمة أخرى إلى الأردية صدرت من الدار السلفية في بومباي، لم أقف عليها. وقد ذكرها الشيخ محمد عزير شمس دون ذكر اسم المترجم وتاريخ النشر في فهرس أعدّه لمؤلفات ابن القيم (مخطوط).

مخطوطات الكتاب

مخطوطات الكتاب التي وقفت عليها أو علمت بها يبلغ عددها ١٤ نسخة، وقد اخترت منها خمس نسخ اعتمدت عليها أو استأنست بها في إخراج هذه النشرة، أصفها أولاً ثم أذكر سائرها.

١ـ نسخة الظاهرية (الأصل)

وهي من مخطوطات دار الكتب الظاهرية برقم ١٤٥٧ تصوف ١٣٩. وصفها الأستاذ محمد رياض مالح رحمه الله في فهرس مخطوطات التصوف (٢/ ٢٧٤) بقوله: «الخط نسخي مقروء، بخطوط مختلفة، الحبر أسود، ق١٢٥، س ٢٤، كلمات السطر ١٥. هامش ٢ سم. ٢٥,٥×١٨ سم».

ثم ذكر من ملاحظاته عليها: «نسخة قيمة. الورقة الأولى بخط المؤلف، ثم ورقتان بخط حديث. ثم يتخلل الكتاب بعض خطوط مختلفة، ولكن الغالب خط المؤلف. وهو من وقف العمرية».

لقد حرصت على نقل هذا الوصف لأنه صادر عن معاينة للأصل لا لصورته التي بين أيدينا.

الحق أن هذه النسخة ـ كما سنرى ـ تحفة نفيسة وكنز ثمين لا يقوّم، لأنها مسوّدة الكتاب بخط ابن القيم رحمه الله. وفيها تصحيحات وإضافات واستدراكات كثيرة بخطه.

أما عدد أوراق النسخة في وضعها الحالي، وهي مرقمة، فقد وصل ترقيمها مع الورقتين اللتين ذكر الأستاذ مالح أنهما بخط حديث إلى ١٢٦ ورقة، والظاهر أن تكون معهما ١٢٧ ورقة. أما عدد الأسطر فيتراوح ما

بين ٢٢ و٣٧ سطرًا.

وقد وقع في ترتيبها اضطراب شديد. ويبدو أنها قد تشتّت شملها، فجمعت أوراقها كيفما اتفق، ورقمت، وليعرف مقدار هذا الاضطراب في أوراقها نثبت هنا الأرقام المثبتة عليها على الترتيب الصحيح.

١_١٢، ٣١، ٩٧، ٩٩، ٩٤، ٩٦، ٣٣، ٣٤، ١١٨، ٢٨، ٤٥، ٤٦، ٤٣، ٤٤، ٩٣، ٤٢، ٤٧، ٤٩، ٢٧، ٣٦، ٣٧، ١٣، ١٤، ٢٩، ٣٠، ١٥، ١٦، ٣٨، ٣٥، ١١٦، ١٠٨، ١١٥، ١١٧، ٥٠، ١٠٠ _ ١٠٧، ٥١، ٥٢، ١٨ _ ٢٦، ١٧، ٥٣ _ ٨٧، ٩١، ٨٩، ٩٠، ٨٨، ٩٢، ٩٣، ١١٩ _ ١٢٦.

والنسخة كاملة ما عدا «وريقة» تضمنت جزءًا من استدراك طويل وأشار إليها المؤلف في طرة(٥٨/ أ)، فإنها قد فقدت من النسخة. ومحتواها يبلغ ثلاث صفحات وتسعة أسطر من طبعة السلفية. ثم بعض الإضافات والاستدراكات قد ذهب سطر منها أو أكثر لتأكل أطراف الورق قديمًا قبل أن تنسخ منها نسخة الفاتح الآتية سنة ٧٧٢هـ. وذهبت أسطر أخرى فيما بعد. وقد يكون التصوير أيضًا أخفى بعضها.

كتب في وجه الورقة الأولى اسم الكتاب في سطرين وتحته اسم المؤلف هكذا: «كتاب طريق الهجرتين وباب السعادتين تأليف العبد الفقير إلى الله تعالى محمد بن أبي بكر بن القيم».

وتحته العبارة الآتية:

«هذا المكتوب أعلاه هو خط المصنف رحمه الله تعالى. وهو الإمام العلامة شيخ الإسلام ترجمان القرآن، كاشف قناع غوامض المشكلات، ذو التصانيف البديعة، والحد الحديد بالانتصار للسنة الشريفة، أوحد

العلماء المفوهين، الذائق حلاوة عبارات السالكين، شمس الدين أبوعبدالله محمد الشهير بابن قيم الجوزية. تغمده الله برضوانه ورحمته، وأحلّه بفضله بحبوحة جنته آمين».

لم يكتب صاحب هذا البيان اسمه، ولكنه عارف بخط ابن القيم، والعبارة «تأليف العبد الفقير. . . » تدل على أنها بقلم صاحبها، غير أن هذا الفاضل أحبّ أن يؤكد ذلك بشهادته.

جاء تحت البيان السابق: «من كتب إلياس بن علي الشافعي» وفي موضع آخر ورد الاسم نفسه على وجه أكمل: «في نوبة الفقير إلى الله سبحانه وتعالى إلياس بن علي بن أبي بكر بن إلياس الشافعي عفا الله سبحانه وتعالى عنهم أجمعين. آمين رب العالمين».

ولعل إلياس هذا هو آخر من ملك النسخة من الذين ظهرت أسماؤهم في صفحة العنوان. وفي الجانب الأيسر من اسمه قيد تملك آخر طمس بعضه، وقرىء منه: «الحنفي الخراساني عفا الله عنه». وتحته قيد مطالعة: «الحمدلله الذي ليس كمثله شيء وهو السميع البصير. طالعه. . . عثمان الحسباني لطف الله به».

وفي أسفل الصفحة قيد شراء للنسخة: «انتقل بالابتياع الصحيح الشرعي من مالكه إلى العبد علي بن محمد الفقاعي. . . »[1].

وتحته قيد آخر: «ثم انتقل بالابتياع الصحيح الشرعي من تركة مالكه المذكور أمامه رحمه الله بطريق الوكالة بمشترى سيدي الأخ بدر الدين

(١) لعله علاء الدين علي بن محمد بن علي الحموي ثم الدمشقي الفقاعي الحنفي الشاعر. ولد في حماة سنة ٩١٨هـ. انظر: شذرات الذهب(٤/ ٨٠).

أبي عبدالله محمد بن فخر الدين لكاتب هذه الأحرف الفقير إلى الله تعالى في الحال والمآل عبدالقادر بن محمد بن الحبال. . . ».

ولعل على يمين الصفحة قيد وقف النسخة على المدرسة العمرية، ولكن لم يتضح في الصورة.

كان المؤلف رحمه الله قد ترك أكثر من النصف الأعلى من ظهر الورقة الأولى فارغًا للمقدمة التي أخّر كتابتها، وبدأ الكتاب بالآية الكريمة: ﴿ ۞يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿١٥﴾ ﴾ بيّن سبحانه في هذه الآية. . . ». ولكن لما أخذ في تسويد المقدمة رأى أن المساحة المخصصة لها غير كافية، فصغّر الكتابة، وضيّق بين الأسطر، ومع ذلك اضطرّ إلى تكملتها في حواشي الصفحة الأربع، فاستغرقتها ثم تجاوزت إلى حاشية الورقة الثانية. ولما تمّت في أسفلها كتب: «فصل قال تعالى»، ووضع نقاطًا إلى أن كتب في الحاشية اليسرى من الصفحة: «يرجع إلى قوله تعالى: ﴿ ۞يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ ﴾ وذلك في الصفحة اليمنى».

ولما وقف بعض من ملك الكتاب أو اطلع عليه ورأى مقدمة الكتاب على هذا الوجه من التسويد قام بتبييضها في ورقتين (ثلاث صفحات) بعد التصدير الآتي: «بسم الله الرحمن الرحيم. ربّ يسّر وأعن. قال شيخ الإسلام العالم العلامة شيخ الإسلام وقدوة الأنام، أوحد الحفاظ الأعلام، عمدة المفسرين، بقية المجتهدين، كاشف أسرار العلوم، موضح كل مشكل بأعذب نطق مفهوم، شمس الدين أبوعبدالله محمد بن الشيخ الإمام العالم تقي الدين أبي بكر، ابن قيم الجوزية الحنبلي غفر الله له وأعاد علينا من بركته».

وصاحب هذا التبييض أيضًا لم يكتب اسمه، ولكنه ليس بصاحب العبارة المكتوبة في صفحة العنوان تحت عنوان الكتاب واسم المؤلف. وقد ضمت هاتان الورقتان إلى النسخة ورقّمتا معها. وقد وردت في مقدمة المؤلف جملة كتبها المبيض هكذا مع الضبط: «فإذا رُؤِيَ ذُكِرَ الله». وعلق في الجانب الأيمن على «رُؤى» حاشية: «صورة خط المصنف فإذا راى ولا ضبط فيه». وهو كما قال. والملاحظ هنا أن الكاتب صرّح في حاشيته هذه بأن المقدمة بخط المصنف.

والسؤال الآن: هل اسم الكتاب واسم المؤلف في صفحة العنوان ومقدمة الكتاب فقط بخط المصنف أو سائر النسخة أيضًا؟

الجواب في نسخة الفاتح التي سيأتي وصفها، فإن ناسخها قد صرّح في خاتمتها بأنه نقلها من نسخة المصنّف المسودة، ثم قال مرة أخرى إنه قابله بأصل مصنفه رحمه الله المنقول منه. وقال أيضًا: «وفيه تبييضات أكلها الزمان من أطراف الأصل قصرت العبارة عن معرفة مضمونها، فبيضها كما ترى في القريب من آخره». ومعارضة نسخة الفاتح على نسخة الظاهرية هذه خصوصًا في المواضع التي ذكر الناسخ أنها أكل الزمان من أطراف الأصل، لا تدع مجالاً للشك في أن المقصود بنسخة المصنف المسودة هي النسخة التي بين أيدينا.

وقد سبق قول الأستاذ محمد رياض مالح إن الكتاب يتخلله خطوط مختلفة والغالب خط المؤلف. ولكن يظهر لي ـ والله أعلم ـ أن الاختلاف الذي يبدو أحيانًا في الخط، إنما هو اختلاف الأقلام وأزمنة الكتابة. والمسودة كلها بخط المصنف إلا موضعًا واحدًا في (ق٥٥/ب ـ ١/٥٦). وهو جزء من كلام للرازي في كتابه المباحث

المشرقية. نقل المؤلف منه ١٧ سطرًا ثم كلف أحدًا تكملة الباقي، فكتب ٣٣ سطرًا، أي مقدار صفحة.

ومما يؤكد أنها مسودة المؤلف كثرة الضرب والتعديل في العبارة في أثناء الكتابة، غير التصحيحات والإضافات بين السطور أو في الحواشي، كما يؤكد وجودها من أول النسخة إلى آخرها أنها بخط المصنف.

وبعض الإضافات حصلت بعد مدة من كتابة المسودة. يدل على ذلك أنه قال في موضع: «وفي الباب أحاديث غير هذا لا تحضرني الآن» (٩٠/ب). ثم ضرب على هذا واستدرك بضعة أحاديث، مما أدى إلى شيء من التكرار أيضًا.

ومن المؤكد أن هذه المسودة لم تقرأ على المؤلف، ولا تمكن من تبييضها، فقد وقعت فيها ضروب من الوهم والسهو وسبق القلم، ومنها:

ـ قوله: «وسنفرد إن شاء الله للغيرة فصلاً نذكر فيها أقسامها وحقيقتها(٩٤/ب). ولا وجود لهذا الفصل في الكتاب.

ـ ومنها أن المؤلف رحمه الله كتب في «قاعدة في مشاهد الناس في المعاصي والذنوب» أولاً: «ويجمع ذلك أربعة أقسام أولها. . .» وبعد أسطر: «القسم الثاني» (٥٧/أ). ثم ضرب على العبارة الأولى، وكتب: «وجماع ذلك ثمانية مشاهد». وغيّر القسم الثاني إلى «المشهد الثاني». ولما فرغ من المشهد الرابع جاء بفصل وقسم المشهد الرابع إلى قسمين. وفي آخرهما زاد في الحاشية طولاً: «فهذه ستة مشاهد. المشهد السابع

مشهد الحكمة». وكتب ثلاثة أسطر وبعدها: «الوريقة». يعني أن بقية الكلام فيها، وهي التي سبق أنها مفقودة الآن، ولكنها كانت محفوظة لما نقلت منها نسخة الفاتح وغيرها. فالتكملة موجودة فيها، إلاّ أنها تخلو جميعًا من المشهد الثامن من غير إشارة إلى بياض أو سقط، فلعل المؤلف رحمه الله سها عنه.

ـ ومنها أن المؤلف رحمه الله تكلم على كلام ابن العريف في الخوف من خمسة وجوه. وكتب مكان الوجه الرابع: «الوجه الثالث» مع أن الوجه الثالث قد سبق قبل خمسة أسطر.

ـ ومنها أنه لما أخذ في نقد كتاب ابن العريف ذكر المثال الأول في الإرادة والثاني في الزهد. ثم كتب في (٨١/أ): «فصل، المثال الثالث». وهذا صحيح، ولكنه بعد ذلك ضرب على «الثالث» وكتب «الرابع التوكل». واستمرّ الخطأ في الترقيم إلى «المثال السابع الخوف» (٨٧/أ)، وهو في الواقع المثال السادس. ولعل سبب الخطأ أن التوكل هو الفصل الرابع من كتاب ابن العريف، والفصل الأول منه في المعرفة، ولم يتعرض له ابن القيم، بل بدأ نقده من مقام الإرادة وهو الفصل الثاني عند ابن العريف، والمثال الأول عند ابن القيم، ثم الزهد، ثم التوكل. فلما كتب بعد مثال الإرادة ومثال الزهد: «المثال الثالث» كان مصيبًا، ولكن لما رجع إلى كتاب ابن العريف لنقل كلامه رأى «الفصل الثالث» فضرب على «الثالث» الذي عنده، وكتب «الرابع».

ـ في (٩٢/ب) وقع سهو في نقل الآية الكريمة ﴿ أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾ ﴾ [ص/٢٨]، فكتب: «أفنجعل الذين آمنوا». وكذا في نسخة الفاتح

المنقولة عنها.

ـ وهكذا في (٧٦/أ) كتب الآية الثالثة من سورة يونس هكذا: «... ما شفيع إلا من بعد إذنه أفلا تذكرون». والآية الكريمة: ﴿مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ إِذۡنِهِۦۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُوهُۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ۝٣﴾. ولا شك أن ذلك من السهو وسبق القلم.

ومن أمثلة ذلك العبارات الآتية:

ـ «اشتد خوف سادة الأمة وسابقوها»(١١٨/أ).

ـ «وقد علم الله ورسوله والمؤمنون أهل الفتن المفسدون» (١١٨/أ).

ـ «مخالفًا لمحبوبته مكرم لمن أهانته»(٩٢/ب).

ـ «مبطلاً لأثر الإنفاق مانع من الثواب» (١٠٨/أ).

ـ «فيبقى قلب العبد الذي هذا شأنه عرش للمثل الأعلى أي عرش لمعرفة محبوبه»(٦٧/أ).

ـ «قال» بدلاً من «قالت» (٩٧/أ).

ومن سبق القلم أيضًا كتابة «صبخة» (٣٧/أ) بالصاد بدلاً من السين. و«أظالعك» (٢٣/ب) بالظاء مكان الضاد. وظل (٤٣/أ) والظن (٧٨/أ، ٨٣ب) والحظ (٨١/ب) مكان ضل، والضن، والحض.

ومن سمات خط النسخة أن واو العطف تتصل أحيانًا بالكلمة التالية، فتحتمل أن تقرأ واوًا أو فاءً. وتلتبس الكاف والحاء بعض الأحيان. وكثيرًا ما يهمل النقط وبخاصة في حرف المضارع، فيجوز أن يقرأ ياءً أو

تاءً. وقد يغمض رأس الميم في بداية الكلمة فلا يتميز «الوجود» من «الموجود». وقد أدى ذلك إلى اختلاف في النسخ.

وفي النسخة ظاهرة غريبة، وهي بلاغات المقابلة. انظر مثلاً: ٨/أ، ٩/أ، ٩/ب، ١٣/ب، ١٥/ب، ١٧/أ، ١٩/أ، ٢١/ب، ٢٨/أ، ٣١/أ، ٣٤/ب، ٣٨/أ، وهلم جرّا إلى آخر النسخة. والمعروف أن هذه البلاغات تكتب في حاشية النسخة المنقولة لمعرفة المكان الذي وصل إليه في مقابلتها بالأصل المنقول منه. وقد ظننت في أول الأمر أن أجزاء من الكتاب ربما سوّدت من قبل، ونسخت من المسودة الأولى فقوبلت عليها. ولكن البلاغات تستمر إلى آخر المسودة، فلا شك أن ناسخًا خالف القاعدة المعروفة وكتب البلاغات في المسودة بدلاً من نسخته المنقولة.

وقد سبق في وصف الورقة الأولى أنّ فيها قيد مطالعة، وصاحبه عثمان الحسباني، ولم أعرفه، ولكن هل تركت مطالعته أو مطالعة غيره آثارًا في النسخة؟

في آخر باب الفقر والغنى الذي انتهى بانتهاء الورقة (١٩/أ) ورد أكثر من مائة بيت من القصيدة الميمية للمؤلف. وكأنه خصص لها الصفحات الثلاث الباقية (١٩/ب ـ ٢٠/ب) من الكراس الثاني. فكتب في الصفحة الأولى كل بيت في سطر، وفي الثانية كل بيتين في سطر، وكذا في الثالثة، وتمت القصيدة في نصفها، فبقي النصف فارغًا. وهنا حاشية على يمين الصفحة نصّها: «علّق منها لنفسه نسخةً علي بن زيد بن علوان ابن صَبرَةَ (كذا مضبوطًا) بن مهدي بن حريز الزُّبيدي الأثري اليمني داعيًا لناظمها ومالكها ولكل مسلم بالموت على الإسلام والسنّة».

وصاحب هذه الحاشية عالم معروف من علماء القرن الثامن. ولد في «رَدْما» قرية بمشارف اليمن سنة ٧٤١هـ، وتوفي بالقاهرة سنة ٨١٣هـ. ذكر الحافظ ابن حجر أنه جاور بمكة ولقي بالشام الحافظ ابن كثير. وعني بالفقه والحديث والأدب ويستحضر كثيرًا من الحديث، ويميل إلى قول ابن حزم[(١)].

وفي هذه الصفحة زيادة بيتين في آخر القصيدة، ولكنها ليست بخط الشيخ علي بن زيد المذكور. وهي أيضًا قديمة فإنها واردة في نسخة الفاتح، إلا أنها لم توجد في نسخة برنستون، وهذا دليل على أن أصلها نسخ قبل نسخة الفاتح.

ثم كتب البيت الآتي في المسودة هكذا (١٩/ب):

وحي على واد بها أفيح به　　منابر من نور..........

فكتب صاحب الزيادة المذكورة نفسه في الحاشية: لعله: «لدى الرسل تعلم» أو «بها الرسل تكرم». وقد أخذ ناسخ نسخة الفاتح بالاقتراح الأول ولكنه نبّه مع ذلك على أنه «ليس هذا من كلام المصنّف رحمه الله».

ومن تعليقات القراء ما جاء في ق(٤٤/ب)، إذ ورد في كلام المؤلف: «وإقرار العبد بأن للعالم إله حيّ جامع» فعلّق بعضهم في الحاشية: «صوابه: إلهًا حيًّا جامعًا». ولكن هناك مواضع أخرى مشابهة كقوله: «فإن لذلك الوقت شأن» (٦٨/أ)، وقوله: «فإن للقرب من

---

(١) ذيل الدرر الكامنة (٢٠٩). وفيه «صَيْرة» بالياء، تصحيف. وكذلك نسبة «الردماري» صوابها: «الردماوي». وانظر: شذرات الذهب(٤/ ١٠٢ ـ ١٠٣).

الإمام تأثير» (٦٨/أ) وقوله: «ولا ريب أن فوق هذا مقام» (٧٢/أ)، ولكن لم يعلق هناك.

وكذلك نجد في بعض الصفحات علامة «ظ» أي انظر، عند غموض كلمة أو وجود سهو كما في (٩/ب، ١٥/ب،١٦/أ).

ومن تعليقات القراء أيضًا أنه ورد في ق(٩٦/ب): «فإذًا لا نسبة أصلاً بل كمالات العالم وكمال الله جلّ جلاله». فوضع بعضهم إشارة بعد «أصلاً» وكتب في الحاشية: «لعله بين». يعني مكان «بل»، وهو من سبق القلم.

وقد افتتح المؤلف رحمه الله نسخته بالبسملة، وختمها حامدًا ومصلّيًا بقوله: «. . . والقول الأول أظهر الأقوال والله أعلم. والحمدلله رب العالمين وصلى الله على محمد وآله».

فذلك البدء وهذا الختام مجرّدين من ألقاب التعظيم ونعوت الإكرام يؤكدان أيضًا أن النسخة التي بين أيدينا نسخة المؤلف رحمه الله. فهي نسخة جليلة نفيسة، وتستحق دراسة «اكتناهية» دقيقة يقوم بها عالم خبير بالمخطوطات.

٢ ـ نسخة الفاتح(ف):

أصلها محفوظ في مكتبة الفاتح بإستنبول برقم ٢٧٣٧. عدد أوراقها ٢٢٦ ورقة. وفي كل صفحة ٢٣ سطرًا. كتبت في بعلبك بخط نسخي جميل سنة ٧٧٢هـ، أي بعد وفاة المؤلف بإحدى وعشرين سنة. ثم هي منقولة من مسودة المصنف، ومقابلة عليها، كما صرّح الناسخ في الخاتمة.

ورد اسم الكتاب واسم المؤلف في صفحة العنوان على الوجه الآتي: «كتاب طريق الهجرتين وباب السعادتين تأليف الشيخ الإمام العلامة شيخ الإسلام قدوة الأنام أوحد حفاظ الأعلام عمدة المفسرين بقية المجتهدين كاشف أسرار العلوم موضح كل مشكل بأعذب نطق مفهوم شمس الدين أبي عبدالله محمد بن الشيخ الإمام العالم أبي بكر بن قيم الجوزية، قدس الله روحه، وجعل أبواب الجنة في وجهه مفتوحة».

والملاحظ أن النعوت والألقاب الواردة في هذه العبارة هي التي صدّر بها من بيّض مقدمة المؤلف من مسوّدته كما سبق.

وتحتها باللغة الفارسية: «قيد شد» يعني: تمّ تقييده. ثم سجل تحته عدد الأسطر وعدد الأوراق. وتحته ختم لعله ختم أوقاف السلطان محمود خان. وتحته قيد يفيد أن الكتاب من أوقاف السلطان المذكور، وكاتبه نعمة الله مفتش أوقاف الحرمين الشريفين، وفي آخره ختم المفتش الذي يحمل العبارة الآتية: «المتوكل على الله عبده نعمة الله» وبجانبه الأيسر ختم مكتبة الفاتح.

وفوق اسم الكتاب تاريخ وفاة ابن القيم وأسماء بعض مؤلفاته المذكورة في هذه النسخة. وعن يساره نص منقول من شرح صحيح البخاري للكرماني. وتحته الإشارة إلى الورقة التي ذكر فيها كتاب موافقة العقل للنقل لابن تيمية وكذلك الموضع الذي ذكر فيه علل المقامات لابن العريف، وظن هذا الكاتب أن «علل المقامات» عنوان كتاب ابن العريف.

وخاتمة النسخة نصّها: «بحمدالله تعالى ومنّه وحسن توفيقه، فرغ من كتابته من نسخة المصنف المسودة العبدُ محمد بن عيسى بن عبدالله بن

سليمان البعلي الحنبلي غفر الله له ولوالديه وللمصنف ولجميع المسلمين. ووافق الفراغ يوم الأربعاء المبارك تاسع عشرين شهر رمضان المعظم من عام اثنين وسبعين وسبع مائة ببعلبك. والحمدلله وصلَّى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلَّم».

ثم كتب بجانب هذه العبارة عن يسارها في الطول: «قابله كاتبه بأصل مصنفه رحمه الله المنقول منه، فصح بحمدالله. غفر الله له ولمن قابل معه وللمصنف والمالك ولمن نظر فيه ودعا لهم، آمين. وفيه تبييضات أكلها الزمان من أطراف الأصل قصرت العبارة عن معرفة مضمونها، فبيضها كما تراها في القريب من آخره. والله المستعان، وهو حسبنا ونعم الوكيل».

والتبييضات التي أشار إليها الناسخ توجد في خمسة مواضع: ٢٠٤/أ، ٢٠٥/ب، ٢٠٦/ب، ٢٠٩/ب، ٢١١/أ.

أما الموضع الأول فيتعلق بمسألة أطفال المسلمين، إذ ورد في النسخة: «فقال الإمام أحمد لا يختلف فيهم أحد يعني أنهم في الجنة. وأما أطفال المشركين...». وضع الناسخ إشارة بعد كلمة «الجنة»، وعلق في الحاشية: «وفي حاشية الأصل بخط المؤلف رحمه الله أسطار مصحح على آخرها ذهب الأول منها تأكلاً على طرف الورقة، أخلى الكاتب تحت هذا السطر موضعًا وكتب ما وجد بعده». وكتب بعد بياض سطر: «وحماد بن سلمة وابن المبارك وإسحاق بن راهويه...». والرجوع إلى ق (١١٤/أ) من المسودة يصدّق ما قاله ناسخ (ف) وذلك أن هذا الاستدراك في ثلاثة أسطر كتبها المؤلف في أعلى الصفحة، فذهب السطر الأول، وما زال السطران الآخران ظاهرين.

أما الموضع الثاني (٢٠٥/ب) فترك فيه الناسخ بياضًا في السطر الحادي عشر بقدر كلمتين، وفي السطر الثاني عشر بقدر تسع كلمات تقريبًا. وذلك لأن المؤلف كتب في الصفحة نفسها (١١٤/أ) استدراكًا في ثلاثة أسطر في طول الصفحة، وذهب أكثر السطر الأخير الذي في طرف الورقة عندما نقلت نسخة (ف) منها. أما الآن فلا يرى في الصورة إلا كلمات من أول السطر.

وفي الموضع الثالث (٢٠٦/ب) بياض أكثر من سطر. وهو الجزء الأخير من استدراك بدأ في الأصل (١١٤/ب) من وسط حاشية الصفحة اليسرى في طولها، وانعطف إلى أعلاها في العرض، وتم في ثلاثة أسطر، والسطر الأخير قد أكله البلى، ولا يظهر منه الآن في الصورة إلا ثلاث كلمات.

والبياض الرابع (٢٠٩/ب) بقدر تسع كلمات تقريبًا، وهو جزء من لحق في الحاشية اليسرى من الأصل (١١٥/ب). والبياض الخامس (٢١١/أ) بقدر ست كلمات تقريبًا، وهو أيضًا جزء من استدراك طويل مكتوب في الحاشية اليسرى من الأصل (١١٦/أ).

وقد تبين من هذه المقارنة أن نسخة الفاتح منقولة من نسخة الظاهرية، وهي المقصودة بمسودة المصنف في نص خاتمتها. والملاحظ أن التأكل الذي أشار إليه ناسخها البعلي كان قد أصاب ثلاث ورقات من المسودة (ق١١٤ ـ ١١٦)، وسائر النسخة كانت سليمة في عهده سنة ٧٧٢ هـ. وإذا صح تقديرنا أن المسودة قد كتبت قبل سنة ٧٣٢هـ، فكان قد مضى عليها حين ذاك ٤٠ سنة. والآن بيننا وبين نسخة الفاتح أكثر من ٦٥٠ سنة. وقد ضاعت وريقة من الأصل في هذه المدة،

وذهبت أسطر أخرى من أطراف الأوارق في مواضع عديدة مما زاد من قيمة نسخة الفاتح.

هذه النسخة قد قوبلت على الأصل بعد كتابتها كما ذكر الناسخ في الخاتمة. يؤكد ذلك بلاغات المقابلة والتصحيحات. ولكن بقيت فيها ألفاظ كثيرة تختلف عما في الأصل، ووقع أحيانًا سقط أيضًا، ومن الغريب أنه لم يكتشف في المقابلة. ثم أخطأ الناسخ في قراءة النص في مواضع كثيرة، وهو معذور فيها لصعوبة الخط وتشابك الكلمات وإهمال النقط.

في آخر النسخة بعد الخاتمة يوجد قيدان للمطالعة. أحدهما بخط فارسي جميل وصاحبه «الفقير السيد مصطفى بن السيد عبدالله الشهير بطريقتجي»، ولكن لم يظهر في الصورة تاريخه. والآخر الذي ذكر أنه طالع في هذا الكتاب من أوله إلى آخره مرارًا عديدة كتب تاريخه «شهر شوال سنة ٩٨٩هـ». والقارىء الأول هو الذي قيّد في صفحة العنوان بعض أسماء كتب المصنف وشيخه المذكورة في النسخة. وله عليها تعليقات لغوية وغيرها.

٣ ـ نسخة برلين الأولى (ب).

وهي محفوظة في مكتبة الدولة في برلين برقم ٨٧٩٥. عدد أوراقها ١٤٨ورقة. وفي كل صفحة ٢٣ سطرًا. كتبها عمر بن محمد المارديني بخط نسخي جميل سنة ٨١٦هـ كما في خاتمتها التي نصها: «ووافق الفراغ من كتابته بيد مالكه الفقير الحقير المعترف بالتقصير عمر بن محمد المارديني عفا الله عنهما يوم الأحد ثالث عشر صفر من سنة ست عشرة وثمان مائة. والحمد لله وحده، وصلواته على رسوله وعبده محمد

النبي وآله الطاهرين وصحبه المنتجبين وسلامه. آمين يا رب العالمين».

لم أجد ترجمة هذا الناسخ، ولكن عبارة الخاتمة تدل على أنه كان من الفضلاء المعتنين بالعربية.

والنسخة ناقصة من أولها. وقد كتب في أعلى الورقة الثانية: «السابع»، وبعد عشر ورقات: «الثامن». فإذا كان كل كراس عشر ورقات، وفقدت منها ستة كراريس إلا ورقة واحدة، فذلك يعني أن النسخة كانت في ٢٠٨ ورقة أي في ٢١ كراسًا، وبقيت منها ١٥ كراسًا.

وبداية النسخة: «ما بقيت الدنيا في شأن موسى وفرعون وقومه...». وتجد هذا النص في ص(١٢٣) من طبعة السلفية. وقد سبق في الكلام على عنوان الكتاب أن بعضهم كتب في أعلى الصفحة الأولى: «كتاب نهج العمل لابن حجر» مع أن في أعلى الورقة (٣٢/أ) تصريحًا بأنه «العاشر من طريق الهجرتين» يعني: الكراس العاشر. ويوجد هذا التصريح في بداية كراريس أخرى أيضًا.

لم يذكر الناسخ الأصل الذي نقل منه نسخته، ولكنها لم تنسخ بلا شك من مسودة المؤلف ولا من نسخة الفاتح. ثم أصل هذه النسخة قد نقل من المسودة قبل نسخة الفاتح، فإن النص الذي أشار ناسخ هذه إلى ذهابه لكونه في طرف الورق وترك له بياضًا موجود في نسخة برلين.

والنسخة قد قوبلت على أصلها، ويظهر من بعض التعليقات المنتهية بحرف «خ» أنها قوبلت على نسخة أخرى أيضًا. وهي مع جمال خطها وضبطها وعناية ناسخها كثيرة التصحيفات. وقد وقع فيها سقط طويل في ق(٢/أ) يساوي ٢٢ سطرًا من طبعة السلفية، بالإضافة إلى سقوط

كلمات وجمل وبياض في (١٣/ أ، ١٤/ ب، ٥١/ ب، ١١٨/ أ) وأغلاط أخرى. والظاهر أن ذلك كله راجع إلى الأصل الذي نقلت منه النسخة.

وفي آخر النسخة يوجد قيد تملك نصه: «ملك الفقير الحقير المعترف بالعجز والتقصير لربه القدير، الفقير شرف الدين بن الفقير يوسف بن الفقير أحمد بن الفقير محمد غزال الفرنوي المؤذنين بمقام القطب الربّاني سيدي عيسى الفرنواني. نفعنا الله ببركاته وبركات علومه في الدنيا والآخرة. آمين».

٤ـ نسخة برنستون (ن).

وهي نسخة قديمة قيمة محفوظة في مكتبة جامعة برنستون برقم ٢٥٣٣، ولكنها ناقصة أيضًا كالنسخة السابقة، إلا أن النقص في هذه من آخرها، فهي تنتهي بانتهاء السطر الأول من ص(١٤٣) من طبعة السلفية البالغة صفحات النص فيها ٤٢٣ صفحة. وذلك يعني أن الموجود من هذه النسخة نحو الثلث فقط من أولها.

لم يعرف اسم ناسخها ولا تاريخ نسخها لضياع آخرها، وإن كنا لا ندري أكانت خاتمتها متضمنة لذلك أم لا. ولكن الظاهر أنها قديمة ولعلها من القرن الثامن. ثم قد نسخ أصلها أيضًا قبل نسخة الفاتح. والدليل على ذلك أن البيتين اللذين زيدا في آخر الميمية في المسودة ونقلها ناسخ (ف) لم يكونا موجودين في هذه النسخة، وزادهما بعض القراء بخط حديث. وقد قابل صاحب هذه الزيادة أبيات الميمية (٢٢/ ب ـ ٢٤/ أ) بنسخة أخرى وقيّد بعض الفروق.

والنسخة لا تخلو من السقط والتصحيف. وقد سقط منها سطر كامل

من مسودة المؤلف في (٤١/أ،٤١ب، ٤٥/أ) وثلاثة أسطر في (١٧/ب). ومن المستغرب أن ناسخ أصلها أثبت في بعض المواضع ما هو مضروب عليه في المسودة. ومن أمثلة ذلك أنه ورد في النسخة (١٠/أ): «وناداك من قبضة اليمين». وهكذا كان في المسودة (٩/أ) ثم ضرب على «ناداك» وكتب فوقه: «وجعلك»، وزيد فوق «من»: «أهل». مع علامة «صح». فأصبحت الجملة هكذا: «وجعلك من أهل قبضة اليمين».

وكذلك ورد في الصفحة التالية (١٠/ب): «فصل فهنا وقفت شهادة العبد». وكلمة «فصل» مضروب عليها في المسودة بصورة واضحة. فلا أدري كيف غفل عنه كاتب أصل هذه النسخة. ثم في الصفحة نفسها زاد الكاتب كلمة «فصل» قبل سبعة أسطر، مع أنها لا وجود لها في مسودة المصنف.

٥ـ نسخة الكويت (ك).

وهي محفوظة في مكتبة وزارة الأوقاف الكويتية برقم خ٥٢. عدد أوراقها ٢٠٨ ورقة. وعدد الأسطر في كل صفحة يتراوح بين ٢١ و٢٥ سطرًا. كتبها بخط النسخ سنة ١٠٠٠هـ عبدالقادر بن محمد بن موسى بن حبيش كما يفيد نصّ الخاتمة.

وكتب في صفحة العنوان اسم الكتاب والمؤلف هكذا: «كتاب طريق الهجرتين وباب السعادتين لابن القيم الحنبلي رحمه الله». فضرب بعضهم على نسبة «الحنبلي» ضربات! وتحته قيد تملك مطموس. وتحته قيد آخر: «دخل في ملكنا غرة ربيع أول سنة ١٣٤٤هـ».

وبداية النسخة بعد البسملة: «قال شيخنا العالم الرباني خادم السنة وإمامها في عصره [القائم] بأعيان حقائقها والدعوة إليها أبوعبدالله محمد ابن الشيخ أبي [بكر] بن أيوب بن سعد الزرعي المعروف بابن قيم الجوزية رحمه [الله] ورضي عنه ونفع بعلمه وبركته».

وهذا يدل على أن النسخة التي انحدرت منها نسخة الكويت كانت مكتوبة بخط بعض تلامذة المصنف. ولكن كم نسخةً بين هذه وبين تلك، لا ندري. النسخة كاملة، ولم يذهب منها إلا كلمات وأجزاء من أسطر في الورقتين الأولى والثانية من أجل التمزق.

وفي حواشيها تصحيحات واستدراكات بعضها بخط الناسخ، وبعضها بخط شخص قابلها بنسخة أخرى، وكثير منها لم تظهر في الصورة.

وأم هذه النسخة أو جدّتها نقلت أيضًا من أصل المصنف قبل نسخة الفاتح، فإن العبارة التي ترك لها ناسخ(ف) بياضًا موجودة في نسخة الكويت. ثم في النسخة أسقاط وتصحيفات كغيرها من النسخ.

٦ـ نسخة برلين الثانية.

رقمها ٧٩٥، في ٣١٥ ورقة، كتبت في جمادى الأولى سنة ١٢٤٤هـ كما في فهرس ألورد (٣/ ١٨٧).

٧ـ نسخة الأميرة نورة بنت الإمام فيصل بن تركي.

وهي من مخطوطات المكتبة السعودية بالرياض، ومحفوظة الآن في مكتبة الملك فهد الوطنية. وقد سجلت في المكتبة السعودية برقم ٨٦/٤٥ في ١٣٩٢/٦/٢٩هـ. وهي مما وردها من مكتبة الشيخ محمد

ابن عبداللطيف رحمه الله. فرغ من نسخها شريدة بن علي الطيار في جمادى الأولى سنة ١٢٧٦هـ للأميرة نورة بنت الإمام فيصل بن تركي، التي جعلتها وقفًا على طلبة العلم من المسلمين في ١٩ جمادى الأولى سنة ١٢٧٦هـ. وهي بخط نسخي جميل في ٤٠٣ ورقة. وتصديرها مثل تصدير النسخة الكويتية.

٨ـ نسخة ابن سحمان.

فرغ من كتابتها الشيخ سليمان بن سحمان رحمه الله في التاسع من شهر شوال سنة ١٢٨٥هـ. وقد سجلت في المكتبة السعودية بالرياض برقم ٨٦/٤٣ في ١٣٧٢/٦/٢٤هـ. وهي في ٤٢١ صفحة، ومحفوظة الآن في مكتبة الملك فهد الوطنية.

٩ـ نسخة مكتبة المعهد العلمي بحائل.

وهي في ٢٠٤ ورقة نسخها إبراهيم بن عبدالعزيز بن عبدالله بن فرحان بن محمد في شهر رجب ١٣٠١هـ. وصورتها موجودة في مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية برقم ٢٨٥٠ ـ ١ـ ف.

١٠ـ نسخة الضويان.

وهي من مخطوطات المكتبة السعودية. وقد سجلت فيها برقم ٨٦/٣٥٠ في ١٣٩٢/٤/١٥هـ. وعليه قيد وقف الشيخ محمد بن إبراهيم رحمه الله المؤرخ في ١٣٩١هـ. عدد صفحاتها ٤١٥ صفحة. وفرغ من نسخها الشيخ إبراهيم بن محمد الضويان رحمه الله في ٥ ربيع الأول سنة ١٣١٤هـ. وصرّح في خاتمتها أنه كتبها لأخيه عيسى بن حمود المهوس. وعنوان الكتاب في الورقة الأولى: «كتاب سفر الهجرتين

وباب السعادتين» مع أن العنوان المعروف هو الثابت في مقدمة المؤلف (ق٢/ ب). وهي أيضًا محفوظة في مكتبة الملك فهد الوطنية.

١١ـ نسخة محفوظة في مكتبة جامعة بولونيا (إيطاليا) برقم ٢٣٦. ذكرها بروكلمان في الذيل (٢/ ١٢٧).

١٢ـ نسخة في مكتبة جامعة ليدن في ٢٠٥ ورقة بخط حديث. رقمها ٣٠٠٢ شرقيات. والأوراق ٢٠ ـ ٢٧ ساقطة منها. كتب اسم الكتاب في صفحة العنوان: «سفر الهجرتين وطريق السعادتين أو طريق الهجرتين وباب السعادتين»، كما في فهرس المخطوطات العربية في مكتبة جامعة ليدن (٣٣٦). وذكرها بروكلمان أيضًا في الذيل (٢/ ١٢٧).

١٣ـ نسخة في جامعة الإمام برقم ٨٩١/خ.

١٤ـ نسخة في مكتبة الشيخ علي بن يعقوب في حائل في ١٥٠ ورقة. النسختان الأخيرتان ذكرهما الشيخ محمد عزير شمس في فهرس صنعه لمخطوطات كتب ابن القيم (مخطوط).

وفي ختام حديثي عن نسخ الكتاب يطيب لي أن أشكر للإخوة القائمين على أقسام المخطوطات في مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، ومكتبة الملك فهد الوطنية، وجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض، فقد أتاحوا الفرصة للاطلاع على مخطوطات الكتاب المحفوظة عندهم ثم تصوير ما لزم تصويره منها، فجزاهم الله خير الجزاء.

منهج التحقيق

اعتمدت في تحقيق النص على نسخة الظاهرية التي تأكد أنها مسودة المؤلف كما سبق. واستظهرت بنسخة الفاتح (ف) التي نقلت من المسودة، في قراءة النص واستكمال نص الوريقة التي ضاعت من الأصل، والنقص الذي أدت إليه عوامل البلى في بعض المواضع. وقد حرصت على إثبات كل خلاف من سقط أو تصحيف أو غلط وقع في نسخة الفاتح نتيجة لسهو أو انتقال نظر أو خطأ في القراءة.

ثم اخترت ثلاث نسخ من سائر مخطوطات الكتاب، إذ تبين من دراستها أنها نقلت من أصول مختلفة، ثم تلك الأصول نقلت من مسودة المصنف قبل نسخة الفاتح، فقابلت النص عليها: الأولى نسخة برلين(ب) الناقصة الأول وتحوي أكثر من ثلثي الكتاب، والثانية نسخة برنستون (ن) الناقصة الآخر التي تشتمل على نحو الثلث الأول، فكأنهما تؤلفان نسخة كاملة قديمة. وقد استأنست بهما في ترجيح قراءة على أخرى، وأشرت إلى بعض الفروق، ولم أنبه على كثير من أخطائها وأسقاطها.

أما النسخة الثالثة من هذه ـ وهي نسخة الكويت ـ فرأيت أنها تشبه المطبوعة والنسخ النجدية، فكأن أصلها واحد. فاخترتها لتنوب عن النسخ المتأخرة.

ثم قابلت النص على طبعة السلفية(ط)، والطبعة القطرية التي طبعت عن الأولى بعد تصحيح أخطائها بالرجوع إلى بعض النسخ الخطية فيما يبدو. ولما كانت معظم طبعات الكتاب صادرة عن طبعة السلفية، وقد اعتمد فيها أو في أصلها على نسخة متأخرة، قيدت الخلافات بينها وبين

مسودة المؤلف (غير ألفاظ التسبيح والتمجيد أو ألفاظ الصلاة والسلام)، ليتبين الفرق الشاسع بين هذه النشرة والطبعات السابقة كلها. واخترت من فروق النسخة الكويتية ما شاركت فيه المطبوعة، وصرفت النظر عن غيرها إلا إذا اقتضى الأمر إثباته.

وقد رجعت إلى الكتب الأخرى للمؤلف وشيخه، لربط هذا الكتاب بتلك في المسائل المشتركة، والاستفادة منها في خدمة النص من جهة القراءة أو الضبط أو التفسير أو التعزيز أو غير ذلك.

ولما كان الأصل مسودة، والنسخ التي وصلت إلينا كلها مع اختلافها راجعة إلى هذه المسودة، وقد وقع فيها شيء كثير من السهو وسبق القلم = كنت مترددًا بين إثبات السهو في النص كما ورد في المسودة وإثبات الصواب في الحاشية، وبين تصحيح النص وإثبات السهو في الحاشية. ثم اخترت الطريقة الأخيرة فيما وقع من ذلك في العبارة والترقيم ونحو ذلك. ولا ضير في ذلك إن شاء الله بعد ما التزمت أن لا أغفل شيئًا مما ورد في نص المسودة وأقيّده في الحواشي.

وحاولت أن لا أضع عنوانًا جانبيًّا إلا عند الحاجة، وأحقق هذا الغرض بتحبير الكلمات أو الجمل الواردة في النص.

أما تخريج الأحاديث فقد تولّاه ـ ما عدا أحاديث الصحيحين ـ الأخ الشيخ زائد بن أحمد النشيري، فجزاه الله خيرًا. وسترى في آخر تخريجاته حرف الزاي بين القوسين إشارة إليه.

وقد ترجمت لطائفة من الزهاد والمشايخ الذين نقل المؤلف أقوالهم لأن أسماءهم قد تكون غير مألوفة لكثير من قراء هذا الكتاب. وحرصت

على أن تكون هذه التراجم بألفاظ قليلة مأخوذة من مصدرها ومبينة لمكانة الشخص عند القوم مع الإشارة إلى عهده.

وفي آخر الكتاب وضعت فهارس كاشفة متنوعة تعين على الاستفادة من المباحث الجليلة التي انطوى عليها.

وبعد، فأرجو أن أكون قد وفقت في أداء هذا النص القيم أداءً مقاربًا، وأن تكون نشرتي هذه أول نشرة علمية وأدناها إلى الصحة. والله ولي التوفيق، وله الحمد في الأولى والآخرة. وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

نماذج مصوّرة

من النسخ الخطّيّة المعتمدة



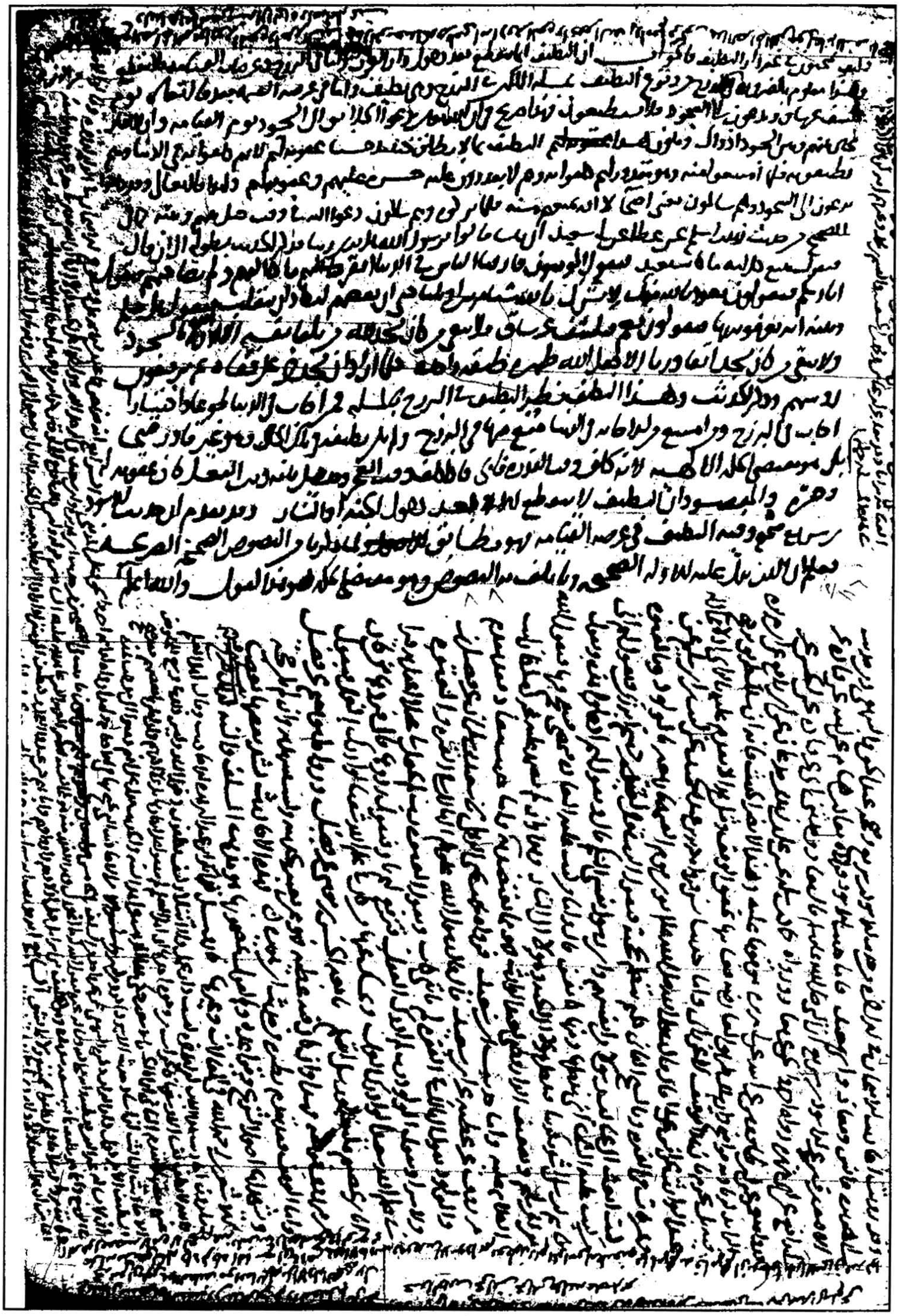
صفحة العنوان من الأصل



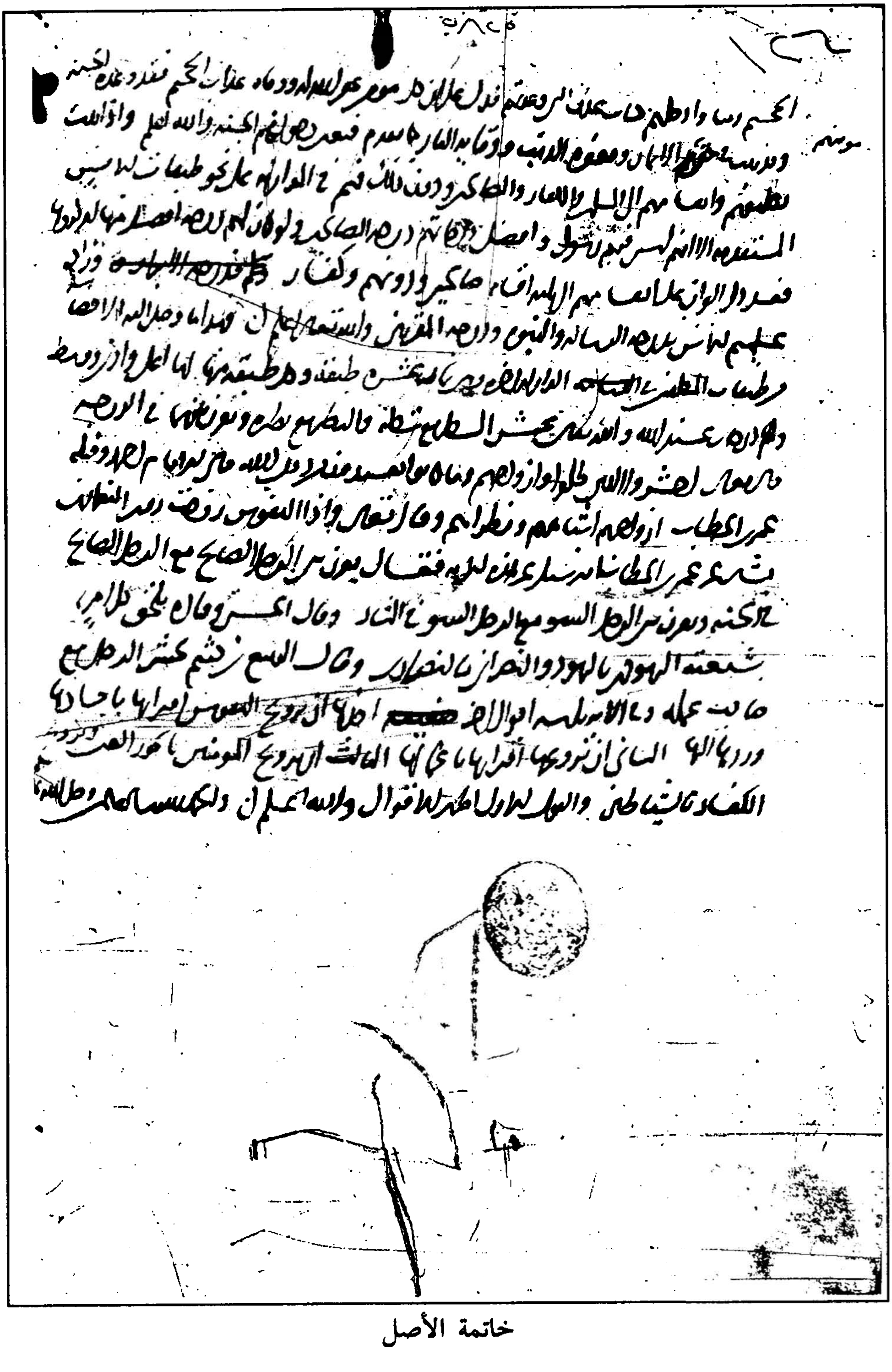
أول الكتاب في الأصل



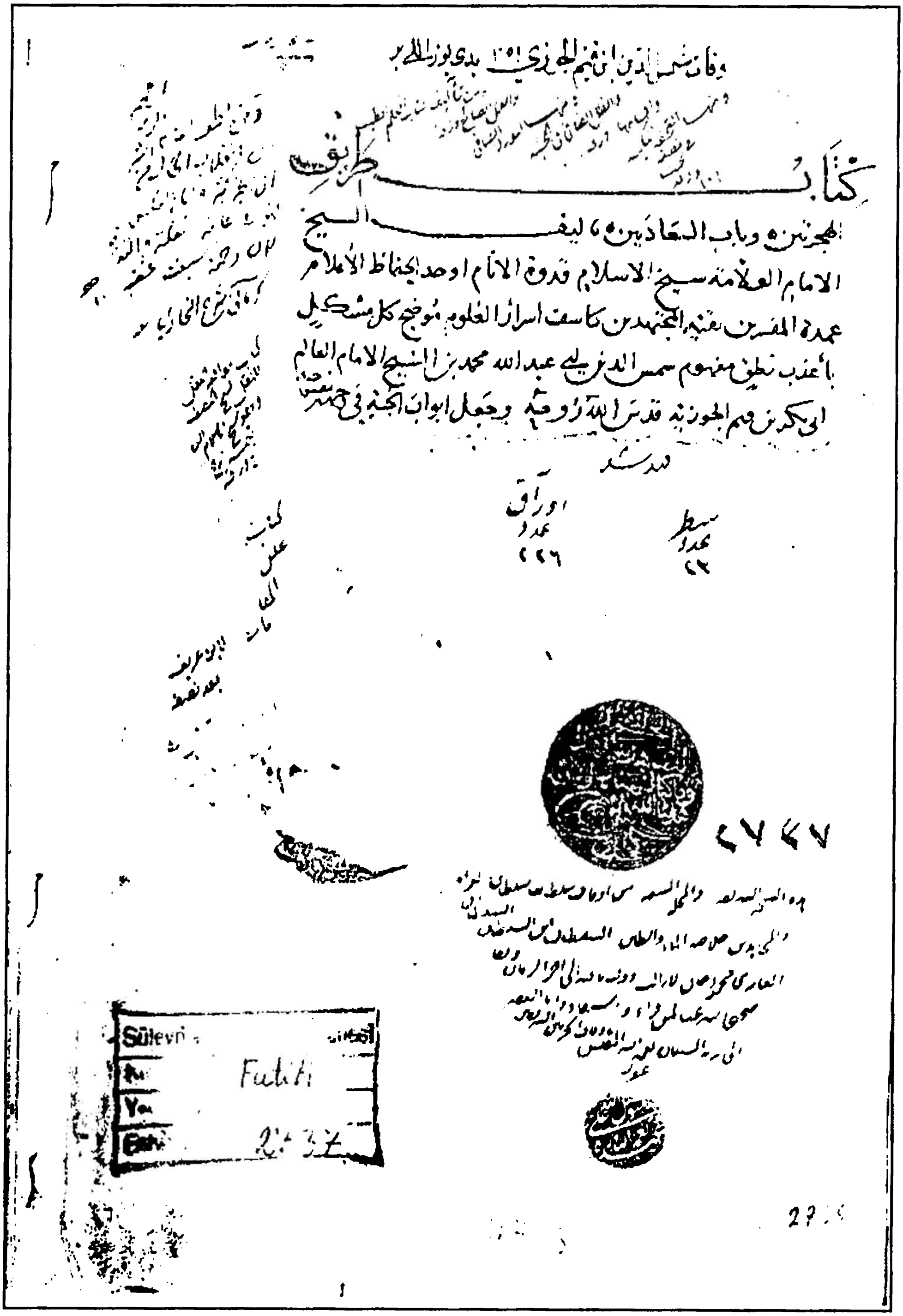
ق١١٤/أ من الأصل، وفيها إصلاحات وإضافات



ق١١٦/أ من الأصل وفيها إضافات



خاتمة الأصل


كتاب طريق
الهجرتين وباب السعادتين للشيخ
الامام العلامة شيخ الاسلام قدوة الانام اوحد الحفاظ الاعلام
عمدة المفسرين فقيه المجتهدين كاشف اسرار العلوم موضح كل مشكل
باعذب نطق ومفهوم شمس الدين ابي عبد الله محمد بن الشيخ الامام العالم
ابي بكر بن قيم الجوزية قدس الله روحه وجعل ابواب الجنة في

صفحة العنوان من نسخة الفاتح (ف)

بسم الله الرحمن الرحيم

قال الشيخ الإمام العلامة شيخ الإسلام أوحد الحفاظ الأعلام عمدة المفسرين بقية المجتهدين كاشف أسرار العلوم موضح كل مشكل بأعذب نطق مفهوم شمس الدين أبو عبد الله محمد بن الشيخ الإمام العالم أبي بكر بن قيم الجوزية الحنبلي رحمه الله تعالى

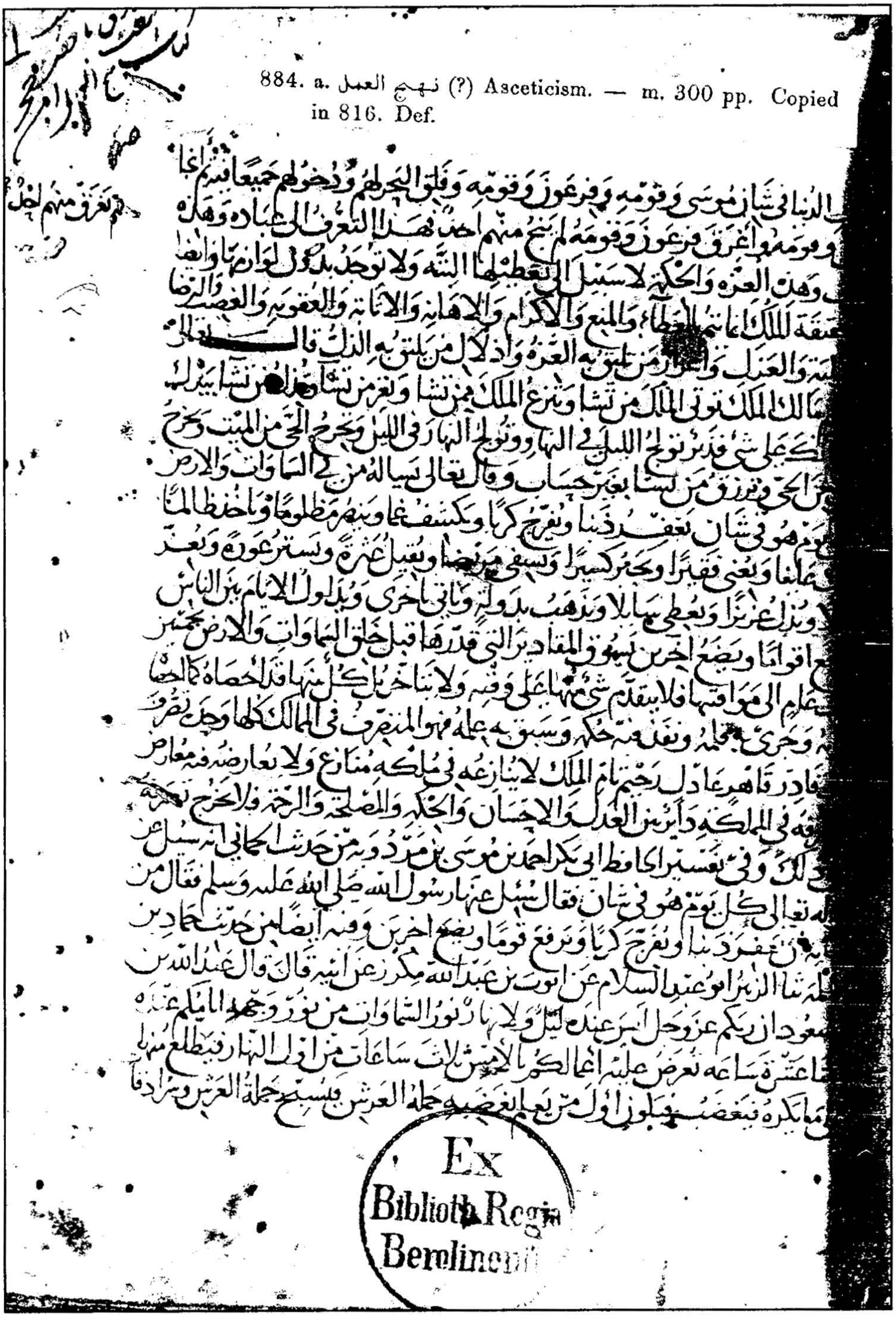
الحمد لله الذي نصب الحجاب على ربوبيته ووحدانيته حججا وحجب العقول والأبصار أن تجد إلى تكييفه منهجا وأوجب الفوز بالنجاة لمن شهد له بالوحدانية شهادة لم يبغ لها عوجا وجعل لمن لاذ به واتقاه من كل ضائقة مخرجا وأعقب من ضيق الشدائد وضنك الأوابد لمن توكل عليه فرجا وجعل قلوب أوليائه متنقلة في منازل عبوديته من الصبر والتوكل والإنابة والتفويض والمحبة والخوف والرجا فسبحان من أفاض على خلقه النعمة وكتب على نفسه الرحمة وضمن الكتاب الذي كتبه أن رحمته تغلب غضبه أسبغ على عباده نعمه الفرادى والتوأم وسخر لهم الشمس والقمر والليل والنهار والصوف والأوبار والضياء والظلام وأرسل إليهم رسله وأنزل عليهم كتبه يدعوهم إلى جواره في دار السلام فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقا حرجا فسبحان من أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجا ورفع لمن ائتم به فأحل حلاله وحرم حرامه وعمل بمحكمه وآمن بمتشابهه في مراقي السعادة درجا ووضع من أعرض عنه فلم يرفع به رأسا ونبذه وراء ظهره وابتغى الهدى من غيره وجعله في دركات الجحيم متولجا فإنه الذكر الحكيم والصراط المستقيم والنبأ العظيم وحبل الله المتين الممدود بينه وبين خلقه وعهده الذي من استمسك به فاز ونجا وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ولا سمي له ولا كفؤ له ولا صاحبة له ولا والد له ولا ولد له ولا شبيه له ولا يحصي أحد ثناء عليه بل هو كما أثنى على نفسه وفوق ما يثني عليه خلقه شهادة من أصبح قلبه بالإيمان بالله ولسانه بذكره وصفاته مبتهجا ولم يزغ عنه إلى شبه الجاحدين المعطلين معرجا وأشهد أن محمدا عبده ورسوله وخيرته من خلقه وأمينه على وحيه وسفيره بينه وبين عباده أرسله الله رحمة للعالمين وقدوة للعاملين ومحجة للسالكين وحجة على العباد أجمعين أرسله على حين فترة من الرسل فهدى به إلى أقوم

الحرو

ق١/ب من النسخة (ف)



خاتمة النسخة (ف)


884. a. نهج العمل (?) Asceticism. — m. 300 pp. Copied in 816. Def.

... الدنيا في شأن موسى وقومه وفرعون وقومه وفلق البحر لهم ودخولهم جميعا فيه ثم انجا
... موسى وقومه واغرق فرعون وقومه لم ينج منهم احد فهذا التعرف الى عباده وهذه
... وهذه العزة والحكمة لا سبيل الى تعطيلها البتة ولا توجد بدون لوازمها وانما
... صفة للملك ثم العطاء والمنع والاكرام والاهانة والاثابة والعقوبة والغضب والرضا
... والعدل واعزاز من يليق به العزة واذلال من يليق به الذل قال تعالى
... مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك
... على كل شيء قدير تولج الليل في النهار وتولج النهار في الليل وتخرج الحي من الميت وتخرج
... الحي وترزق من تشاء بغير حساب وقال تعالى يسأله من في السماوات والارض
... يوم هو في شأن يغفر ذنبا ويفرج كربا ويكشف غما وينصر مظلوما ويأخذ ظالما
... عانيا ويغني فقيرا ويجبر كسيرا ويشفي مريضا ويقيل عثرة ويستر عورة ويعز
... ويذل عزيزا ويعطي سائلا ويذهب بدولة ويأتي باخرى ويداول الايام بين الناس
... اقواما ويضع آخرين يسوق المقادير التي قدرها قبل خلق السماوات والارض بخمسين
... عام الى مواقيتها فلا يتقدم شيء منها عن وقته ولا يتأخر بل كل منها قد احصاه كما احصاه
... وجرى به قلمه ونفذ فيه حكمه وسبق به علمه فهو المتصرف في الممالك كلها وحده تصرف
... قادر قاهر عادل رحيم تام الملك لا ينازعه في ملكه منازع ولا يعارضه فيه معارض
... في المملكة دائر بين العدل والاحسان والحكمة والمصلحة والرحمة ولا يخرج تصرفه
... ذلك وفي تفسير الحافظ ابي بكر احمد بن موسى بن مردويه من حديث [illegible] عن
... تعالى كل يوم هو في شأن فقال سئل عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال من
... ان يغفر ذنبا ويفرج كربا ويرفع قوما ويضع آخرين وفيه ايضا من حديث حماد بن
... سلمة ثنا الزبير ابو عبد السلام عن ايوب بن عبد الله بن مكرز عن ابيه قال قال عبد الله بن
... مسعود ان ربكم عز وجل ليس عنده ليل ولا نهار نور السماوات من نور وجهه وان مقدار كل يوم عنده
... اثنتا عشرة ساعة تعرض عليه اعمالكم بالامس اول ساعات من اول النهار فيطلع منها
... ما يكره فيغضبه فاول من يعلم بغضبه حملة العرش يسبح حملة العرش وسرادقات

بداية النسخة (ب)

١٦٤

من المسلمين والكفار والصالحين ودون ذلك منهم في الموازنة على نحو طبقات الانس
المتقدمة الا انهم ليس فيهم رسول وافضل درجاتهم درجة للصالحين ولو كان لهم
درجة افضل منها لذكروها فقد دل القران فقد دل القران على انقسامهم الى ثلاثة اقسام
صالحين ودونهم وكفار وزاد عليهم الانس بدرجة الرسالة والنبوة ودرجة المقربين
والله تعالى اعلم فهذا ما وصل اليه الاحصاء من طبقات المكلفين في الدار
الاخرة وهي ثمان عشرة طبقة وكل طبقة منها لها اعلا وادنى ووسط وهم درجات عند
الله والله يحشر الشكل مع شكله والنظير مع نظيره ويفرق بينهما في الدرجة قال تعالى
احشروا الذين ظلموا وازواجهم وما كانوا يعبدون من دون الله قال الامام احمد وقبله
عمر بن الخطاب ازواجهم اشباههم ونظراوهم وقال تعالى واذا النفوس زوجت
روى النعمن بن بشير عن عمر بن الخطاب انه سيل عن هذه الاية فقال يقرن بين الرجل
الصالح مع الرجل الصالح في الجنة ويقرن بين الرجل السو مع الرجل السو في النار وقال
الحسن وقتادة لحق كل امر بشيعته اليهودي باليهودي والنصراني بالنصراني وقال
الربيع بن خثيم يحشر الرجل مع صاحب عمله وفي الاية ثلاثة اقوال اخر احدها ان
تزويج النفوس قرانها باجسادها وردها اليها الثاني تزوجها اقرانها باعمالها
الثالث انه تزويج المومنين بالحور العين وتزويج الكفار بالشياطين والقول
الاول اظهر الاقوال والله اعلم

ووافق الفراغ من كتابته بيد مالكه الفقير الحقير المعترف بالتقصير عمر بن محمد المارديني
عفا الله عنهما يوم الاحد ثالث عشر صفر من سنة ست عشرة وثمان مائة والحمد لله وحده
وصلواته على رسوله وعبده محمد
النبي واله الطاهرين وصحبه
المنتخبين وسلامه
امين يا رب
العالمين

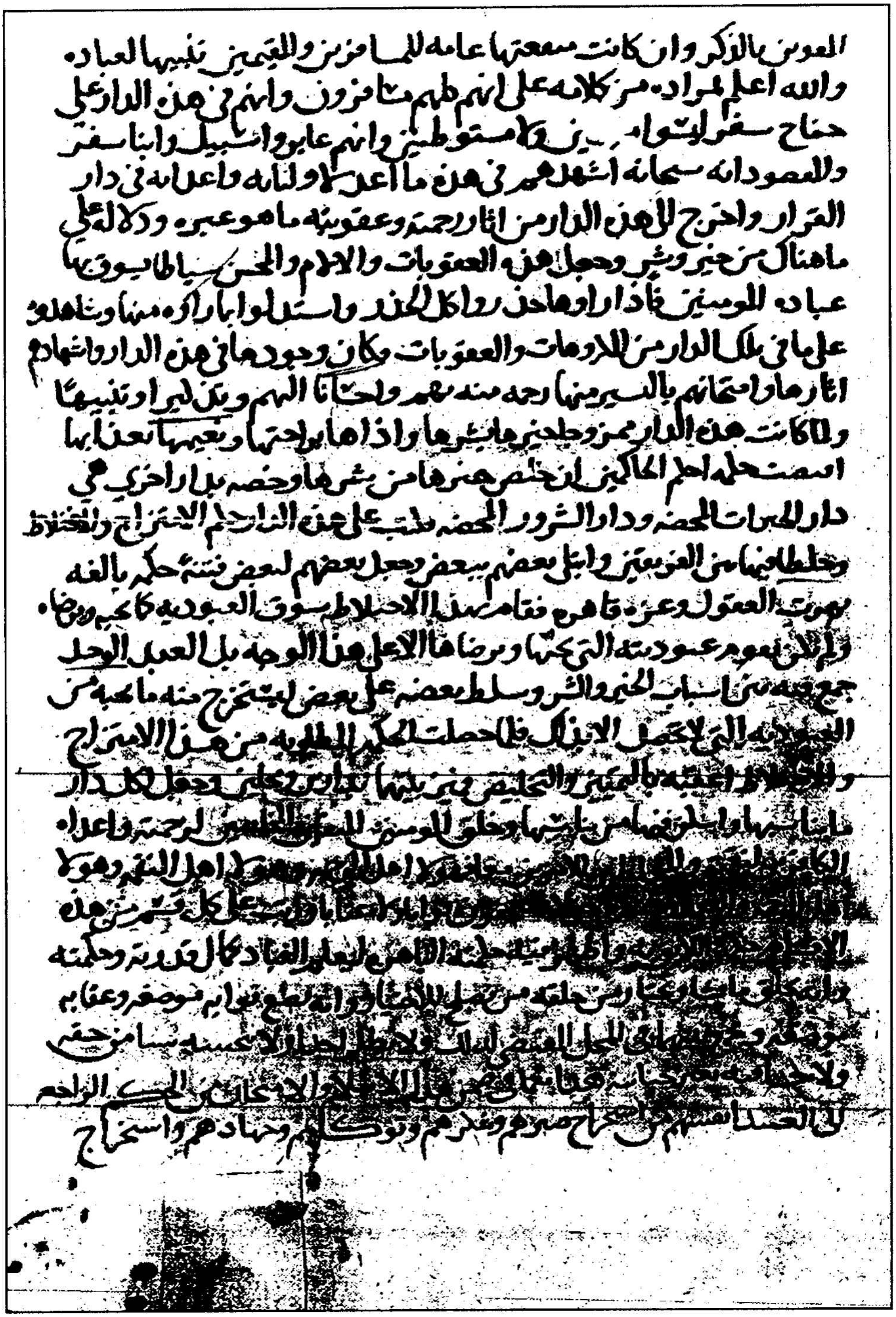
خاتمة النسخة (ب)

بسم الله الرحمن الرحيم ن وما توفيقي إلا بالله

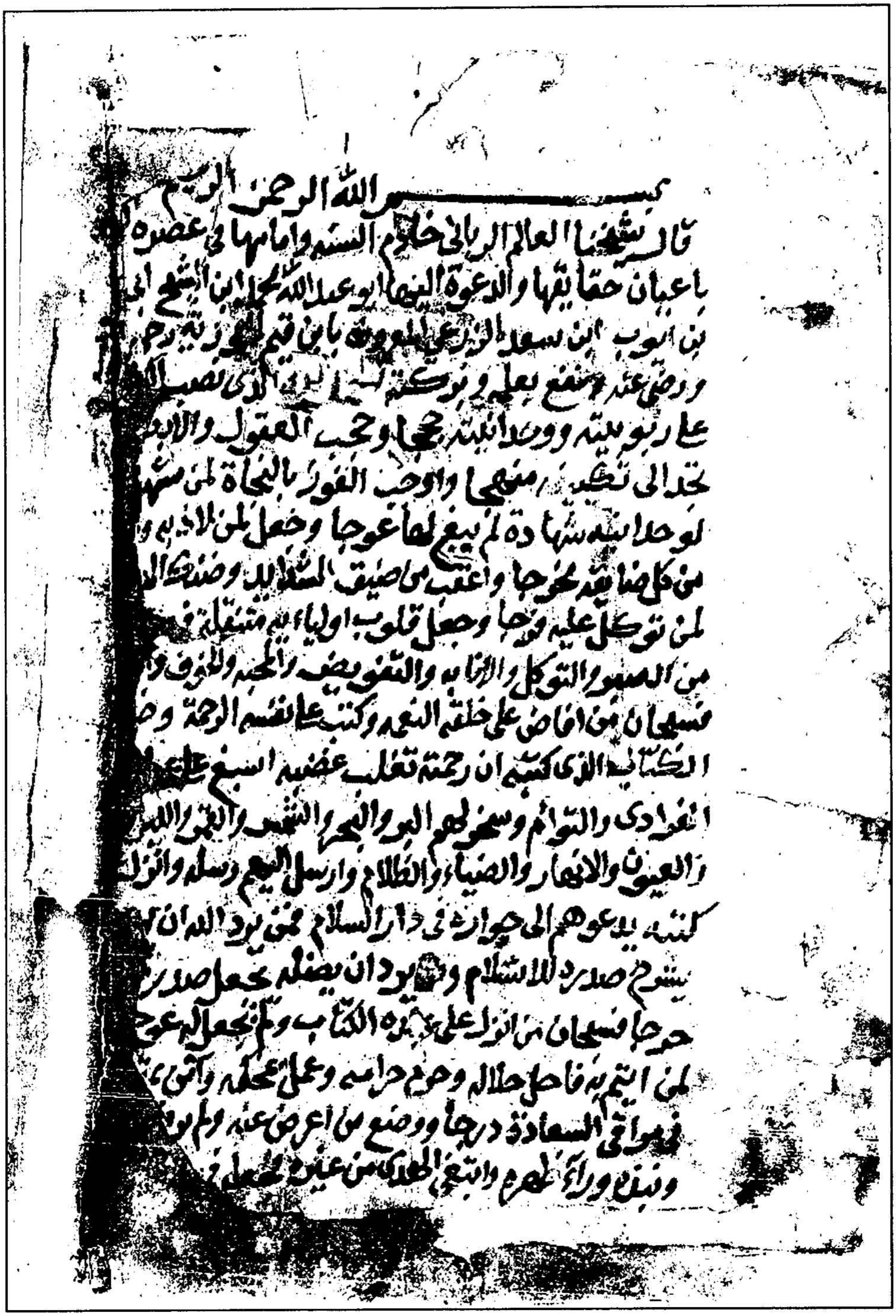
الحمد لله الذي نصب الآيات على ربوبيته ووحدانيته حججا، وحجب العقول والأبصار
أن تجد إلى تكييفه منهجا، و[illegible] ب الفوز بالنجاة لمن شهد له بالوحدانية شهادة لم يبغ لها
عوجا، وجعل لمن لاذ به وأناب إليه من كل ضائقة مخرجا، وأعقب من ضيق الشدائد وضنك
الأوابد لمن توكل عليه فرجا، وجعل قلوب أوليائه متنقلة في منازل عبوديته من الصبر
والتوكل والإنابة والتفويض والخوف والرجا، سبحان من أفاض على خلقه النعم وكتب على
نفسه الرحمة وضمن الكتاب الذي كتبه أن رحمته تغلب غضبه، أسبغ على عباده نعمه الفراد
والتوام وسخر لهم البر والبحر والشمس والقمر والليل والنهار والعيون والأنهار والضيا
والظلام، وأرسل إليهم رسله وأنزل عليهم كتبه يدعوهم إلى جواره في دار السلام،
فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقا حرجا،
والحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجا، ورفع لمن ائتم به فأحل حلاله وحرم
حرامه وعمل بمحكمه وآمن بمتشابهه في مراقي السعادة درجا، ووضع من أعرض عنه ولم
يرفع به رأسا ونبذه وراء ظهره وابتغى الهدى من غيره وجعله في دركات الجحيم متولجا، فإنه
الذكر الحكيم والصراط المستقيم والنبأ العظيم وحبل الله الممدود بينه وبين خلقه وعهده
الذي من استمسك به فاز ونجا، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ولا سمي
له ولا كفو له ولا صاحبة له ولا ولد له ولا شبيه له ولا نحصي ثناء عليه بل هو كما أثنى
على نفسه وفوق ما يثني عليه خلقه، شهادة من أصبح قلبه بالإيمان بالله وأسمائه وصفاته
مبتهجا ولم يزغ عنه إلى شبه الجاحدين المعطلين منعرجا، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله وخيرته
من خلقه وأمينه على وحيه وسفيره بينه وبين عباده، أرسله الله رحمة للعالمين وقدوة
للعاملين ومحجة للسالكين وحجة على العباد أجمعين، أرسله على حين فترة من الرسل يهدي به
إلى أقوم الطرق وأوضح السبل، وافترض على العباد طاعته ومحبته وتعزيره وتوقيره والقيام
١ بحقوقه، وسد إلى الجنة جميع الطرق فلم يفتح لأحد إلا من طريقه، فشرح له صدره ورفع له
ذكره ووضع عنه وزره وجعل الذلة والصغار على من خالف أمره، يهدي به من الضلالة وعلّم
به من الجهالة وكثر به بعد القلة وأعز به بعد الذلة وأغنى به بعد العيلة وبصر به بعد العمى وأرشد
به بعد الغي، وفتح برسالته أعينا عميا وآذانا صما وقلوبا غلفا، فبلغ الرسالة وأدى الأمانة ونصح

الأمر

بداية الكتاب في النسخة (ن)


المعوض بالذكر وإن كانت منفعتها عامة للمسافرين والمقيمين تنبيهاً للعباد
والله أعلم المراد من كلامه على أنهم كلهم مسافرون وأنهم في هذه الدار على
جناح سفر ليسوا مقيمين ولا مستوطنين وأنهم عابرو سبيل وأبناء سفر
والمقصود أنه سبحانه أشهدهم في هذه ما أعد لأوليائه وأعدائه في دار
القرار وأخرج لأهل هذه الدار من آثار رحمته وعقوبته ما هو عبرة ودلالة على
ما هناك من خير وشر وجعل هذه العقوبات والآلام والمحن سياطاً يسوق بها
عباده المؤمنين فإذا رأوها حذروا كل الحذر واستدلوا بما رأوه منها وشاهدوه
على ما في تلك الدار من المكروهات والعقوبات وكان وجودها في هذه الدار وإشهادهم
آثارها واستمتاعهم بالسير منها رحمة منه بهم وإحساناً إليهم وتذكيراً وتنبيهاً
ولما كانت هذه الدار ممزوجاً خيرها بشرها وأذاها براحتها ونعيمها بعذابها
اقتضت حكمة أحكم الحاكمين أن خلص خيرها من شرها وخصه بدار أخرى هي
دار الخيرات المحضة ودار الشرور المحضة فكتب على هذه الدار حكم الامتزاج والاختلاط
وخلط فيها بين الفريقين وابتلى بعضهم ببعض وجعل بعضهم لبعض فتنة حكمة بالغة
بهرت العقول وعزة قاهرة فقام بهذا الاختلاط سوق العبودية كما يحبه ويرضاه
ولم تكن تقوم عبوديته التي يحبها ويرضاها إلا على هذا الوجه بل العبد الواحد
جمع فيه بين أسباب الخير والشر وسلط بعضه على بعض ليستخرج منه ما يحبه من
العبودية التي لا تحصل إلا بذلك فلما حصلت الحكمة المطلوبة من هذا الامتزاج
والاختلاط أعقبه بالتمييز والتخليص فميزهما بدارين ومحلين وجعل لكل دار
ما يناسبها وأسكن فيها من يناسبها وخلق المؤمنين المتقين المخلصين لرحمته وأعداءه
الكافرين [illegible] أهل النعيم [illegible]
[illegible] على كل قسم من هذه
الأقسام [illegible] ليعلم العباد كمال عزته وحكمته
[illegible] من [illegible] وإنه لا يضع ثوابه موضع عقابه
[illegible] في المحل [illegible] ولا [illegible] سيما من حقه
ولا [illegible] هنا [illegible] إلا [illegible] الحكمة الراجحة
[illegible] صبرهم وشكرهم وتوكلهم وجهادهم واستخراج

آخر النسخة (ن)


بسم الله الرحمن الرحيم
قال شيخنا العالم الرباني خادم السنة وإمامها في عصره
بإعلان حقائقها والدعوة إليها أبو عبد الله محمد بن الشيخ أبي
بكر بن أيوب بن سعد الزرعي المعروف بابن قيم الجوزية رحمه الله
ورضي عنه ونفع بعلمه ونور ضريحه [illegible] الذي نصب الكائنات
على ربوبيته ووحدانيته حججا وحجب العقول والأبصار أن
تجد إلى تكييفه منهجا وأوجب الفوز بالنجاة لمن شهد
له بالوحدانية شهادة لم يبغ لها عوجا وجعل لمن لاذ به و[illegible]
من كل ضائقة مخرجا وأعقب من ضيق الشدائد وضنك البلاء
لمن توكل عليه فرجا وجعل قلوب أوليائه متنقلة في [illegible]
من الصبر والتوكل والإنابة والتفويض والمحبة والخوف و[illegible]
فسبحان من أفاض على خلقه النعمة وكتب على نفسه الرحمة و[illegible]
الكتاب الذي كتبه أن رحمته تغلب غضبه أسبغ على [illegible]
[illegible] والتوأم وسخر لهم البر والبحر والشمس والقمر والليل
والعيون والأنهار والضياء والظلام وأرسل إليهم رسله وأنزل
كتبه يدعوهم إلى جواره في دار السلام فمن يرد الله أن [illegible]
يشرح صدره للإسلام ومن يرد أن يضله يجعل صدره [illegible]
حرجا فسبحان من أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجا
لمن ائتم به فأحل حلاله وحرم حرامه وعمل بمحكمه وآمن [illegible]
في مراقي السعادة درجا ووضع من أعرض عنه ولم [illegible]
ونبذه وراء ظهره وابتغى الهدى من غيره فجعل [illegible]

بداية الكتاب في نسخة الكويت (ك)

درجات عند الله والله تعالى يحشر الشكل مع شكله والنظير مع نظيره ويقرن
بينهما في الدرجة قال تعالى احشروا الذين ظلموا وازواجهم وما كانوا يعبدون من دون
٢٠٨ الله قال الامام احمد وقبله عمر ابن الخطاب ازواجهم اشباههم ونظراؤهم
وقال تعالى واذا النفوس زوجت روى النعمان بن بشير عن عمر بن الخطاب انه سيل
عن هذه الاية فقال يقرن بين الرجل الصالح مع الرجل الصالح في الجنة ويقرن بين
الرجل السوء مع الرجل السوء في النار وقال الحسن وقتادة يلحق كل امرء بشيعته
اليهودي باليهودي والنصراني بالنصراني وقال الربيع ابن خيثم يحشر الرجل
مع صاحب عمله وفي الاية ثلاثة اقوال اخر احدها ان تزويج النفوس اقترانها
باجسادها وردها اليها الثاني تزويجها اقترانها باعمالها الثالث انه تزويج
المومنين الحور العين وتزويج الكفار بالشياطين والقول الاول اظهر الاقوال
والله اعلم والحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد واله وصحبه وسلم

كتبه الفقير الى مولى عم احسانه عبد القادر
ابن محمد المرحوم ابن موسى ابن حبيش ...
سايلا من نظر فيه الدعا له ولوالديه بالثبات
على دين الاسلام والغفران والحمد لله رب العالمين
الذي بنعمته تتم الصالحات وصلى الله على ...

خاتمة نسخة الكويت (ك)

مَجمُوعُ مُؤلَّفَاتِ الإمَامِ ابْنِ قَيِّمِ الجَوْزِيَّة

العبيكان Obeikan

عطاءات العلم

طَرِيقُ الهِجْرَتَيْنِ وَبَابُ السَّعَادَتَيْنِ

تأليف

الإمَامِ أَبِي عَبْدِ اللهِ مُحَمَّدِ بْنِ أَبِي بَكْرِ بْنِ أَيُّوب ابْنِ قَيِّمِ الجَوْزِيَّةِ

(٦٩١ - ٧٥١)

حَقَّقَهُ
مُحَمَّد أَجْمَل الإصْلَاحِي

خَرَّجَ أَحَادِيثَهُ
زَائِد بْن أَحْمَد النُّشَيْرِي

إشْرَاف
بَكْر بْن عَبْدِ الله أَبُو زَيْد

المجلَّد الأوَّل

دَارُ عَطَاءَاتِ العِلْم

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمد لله الذي نَصَبَ الكائناتِ على ربوبيّته ووحدانيّته حُجَجًا، وحَجَبَ العقولَ والأبصارَ أن تجد إلى تكييفه منهجًا، وأوجب الفوزَ بالنجاة لمن شهد له بالوحدانية شهادةً لم يبغِ لها عوجًا، وجعل لمن لاذ به واتّقاه مِن كلِّ ضائقةٍ مخرجًا، وأعقبَ مِن ضيقِ الشدائدِ وضَنْكِ الأوابدِ لمن توكَّل عليه فرجًا، وجعل قلوبَ أوليائه متنقلةً في منازل عبوديته من الصبر والتوكّل والإنابة والتفويض والمحبّة والخوف والرَّجا.

فسبحان من أفاض على خلقه النعمة، وكتَب على نفسه الرحمة، وضمّن الكتابَ الذي كَتَبه أنّ رحمتَه تغلِبُ غضبَه. أسبغ على عباده نِعَمه الفُرادى والتُّؤام. وسخّر لهم البرّ والبحر، والشمس والقمر، والليل والنهار، والعيون والأنهار، والضياءَ والظلام. وأرسل إليهم رُسُله، وأنزل عليهم كُتُبه، يدعوهم إلى جواره في دار السلام. ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا﴾[الأنعام/ ١٢٥].

فسبحان من أنْزَلَ على عَبْدِه الكتابَ ولَمْ يَجْعَلْ له عِوَجًا[١]. ورفع لمن ائتمَّ به، فَأحلَّ حلالَهُ، وحرَّمَ حرامَهُ، وعمل بمحكمه، وآمن بمتشابهه، في مراقي السعادة درجًا. ووضع مَن[٢] أعرض عنه، ولم

(١) ضمَّن المؤلِّفُ هنا الآية الأولىٰ من سورة الكهف، فظنَّ بعضهم أنَّه سها في نقل الآية، فغيَّر في «ن» وكتب: «والحمدلله الَّذي أنزل..».

(٢) «ط»: «ووضع قهره على من»!

يرفع به رأسًا[١]، ونبذه وراءَ ظهره، وابتغى الهدى من غيره، وجعله[٢] في دَرَكاتِ الجحيمِ متولِّجًا. فإنَّه الذكر الحكيم، والصراط المستقيم، والنبأ العظيم، وحبلُ الله المتينُ المديدُ بينه وبين خلقه، وعهدُه الذي مَن استَمْسَكَ به فاز ونجا.

وأشهد أن لا إلٰه إلا الله وحده لا شريك له، ولا سميَّ له، ولا كفو له، ولا صاحبة له، ولا ولد له، ولا شبيه له؛ ولا يحصي أحدٌ ثناءً عليه، بل هو كما أثنى على نفسه، وفوق ما يثني عليه خلقُه، شهادةَ مَن أصبحَ قلبُه بالإيمان بالله وأسمائه وصفاته مبتهِجًا، ولم يزغْ عنه إلى[٣] شُبَهِ الجاحدين المعطّلين مُعَرِّجًا.

وأشهد أنّ محمدًا عبده ورسوله، وخيرتُه من خلقه، وأمينُه على وحيه، وسفيُره بينه وبين عباده. أرسله الله[٤] رحمةً للعالمين، وقدوةً للعاملين، ومحجّةً للسالكين، وحجّةً على العباد أجمعين. أرسله على حين فترةٍ من الرسل، فهدى به إلى أقوم الطرق وأوضح السبل، وافترض على العباد طاعتَه ومحبتَه وتعزيرَه وتوقيره والقيامَ بحقوقه، وسدَّ إلى جنّته جميعَ الطرق فلم يفتح لأحد إلاّ مِن طريقه. فشرح له صدرَه، ورفع له ذكرَه، ووضع عنه وزرَه، وجعل الذلّة والصغارَ على من خالف أمره.

فهدى به من الضلالة، وعلَّم به من الجهالة. وكثَّر به بعدَ القلَّة، وأعزَّ به بعدَ الذلَّة، وأغنى به بعدَ العَيْلة. وبصَّر به من العمى، وأرشد به من

---

(١) «ط»: «رأسه».

(٢) «ك، ط»: «فجعله».

(٣) «ط»: «ولم يدع إلى»، تحريف.

(٤) سقط لفظ الجلالة من «ط».

الغيّ، وفتح برسالته أعينًا عُمْيًا وآذانًا صُمًّا وقلوبًا غُلْفًا. فبلّغ الرسالة، وأدّى الأمانة، ونصح الأُمّة، وجاهدَ في الله حقَّ جهاده، وعَبَدَالله حتى أتاه اليقين. فلم يدع خيرًا إلاّ دلَّ أمته عليه، ولا شرًّا إلاّ حذّر منه، ونهى عن سلوك الطريق الموصلة إليه. ففتح القلوب بالإيمان والقرآن، وجاهد أعداءَ الله باليد والقلب واللسان.

فدعا إلى الله على بصيرة، وسار في الأُمة ـ بالعدل والإحسان وخلقه العظيم ـ أحسنَ سيرة، إلى أن أشرقتْ برسالته الأَرضُ بعد ظلماتها، وتألّفتْ به[1] القلوب بعد شتاتها. وسارت دعوتُه مسيرَ[2] الشمس في الأقطار، وبلغ دينُه القيّم ما بلغ الليل والنهار. واستجابت القلوب لدعوة الحق[3] طوعًا وإذعانًا، وامتلأت بعد خوفها وكفرها أمنًا وإيمانًا. فجزاه الله عن أمته أَفضَل الجزاءِ، وصلّى عليه صلاةً تملأُ أقطارَ الأرض والسماءِ، وسلّم تسليمًا كثيرًا.

أمّا بعد: فإنّ الله سبحانه غَرَسَ شجرةَ محبتِه ومعرفتِه وتوحيدِه في قلوبِ مَن اختارهم مِن بريّته[4]، واختصّهم بنعمته، وفضّلهم على سائر خليقته. فهي[5] ﴿كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِيٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾[إبراهيم/ ٢٤ ـ ٢٥]. وكَذٰلِكَ[6] شَجَرَةُ الإيمان

---

(١) «ك»: «بها».

(٢) «ف»: «سير»، خلاف الأصل، وكذا في ط.

(٣) «ط»: «لدعوته الحق القلوب».

(٤) «ط»: «اختارهم لربوبيته».

(٥) في مبيضة المقدمة: «فهي شجرة طيبة»، وكذا في «ف، ن». والمثبت من خط المؤلف، ونحوه في «ك، ط».

(٦) «ك، ط»: «فكذلك».

أصلُها ثابتٌ في القلب، وفروعُها من[1] الكلام الطيّب والعمل الصالح في السماءِ، فلا تزال هذه الشجرةُ تُخرِجُ ثمرَها كلَّ وقتٍ بإذن ربِّها من طيّب القول وصالح العمل ممَّا تقرُّ به عينُ[2] صاحب الأصل وعيونُ حفظته وعيونُ أهله وأصحابه ومَن قرُبَ منه. فإنَّ من قرَّت عينُه بالله قرَّت به كلُّ عين، وأَنِسَ به كلُّ مستوحش، وطاب به كلُّ خبيث، وفرِحَ به كلُّ حزين، وأمِنَ به كلُّ خائف، وشهد به كلُّ غائب، وذكَّرتْ رؤيتُه بالله، فإذا رُئِيَ ذُكِرَ الله.

قد اطمأنَّ[3] قلبُه بالله[4]، وسكنت نفسُه إلى الله، وخلصتْ محبته لله، وقصَرَ خوفَه من الله[5]، وجعل رجاءَه كلَّه لله. فإن سمع سمع بالله، وإن أبصرَ أبصرَ بالله، وإن بطش بطش بالله، وإن مشى مشى بالله. فبه يسمع، وبه يبصر، وبه يبطش، وبه يمشي. فإذا أحبَّ أحبَّ الله، وإذا أبغضَ أبغض لله[6]، وإذا أعطىٰ فللّه، إذا منع فللّه.

قد اتخذ الله وحدَه معبودَه ومرجوَّه ومخوفَه وغايةَ قَصْدِه ومنتهىٰ طلبِه، واتخذ رسولَه وحدَه دليلَه وإمامَه وقائدَه وسائقه[7]. فوحَّد الله

---

(١) «ك»: «فروعها والكلم». ط: «فروعها الكلم».

(٢) «ك،ط»: «ما تقر به عيون».

(٣) «ط»: «فاطمأنَّ».

(٤) «ك،ط»: «إلى الله».

(٥) كذا بخطِّ المؤلِّف. وكتب ناسخ المبيضة فوق «من»: «كذا»، وكذا في «ف،ن،ك». وفي «ط»: «على الله» وفي نسختي الأميرة نورة وابن كمان: «حضر خوفه...».

(٦) «ك،ط»: «فإذا أحبَّ فللَّه، وإذا أبغض فللَّه».

(٧) «ف»: «شافعه»، ولعلَّه أخطأ في القراءة.

بعبادته ومحبته وخوفه ورجائه، وأفرَدَ[١] رسوله بمتابعته والاقتداء به والتخلق بأخلاقه والتأدب بآدابه.

فله[٢] في كلِّ وقتٍ هجرتان[٣]: هجرةٌ إلى الله بالطلب والمحبة، والعبودية والتوكل والإنابة، والتسليم والتفويض، والخوف والرجاء، والإقبال عليه، وصدق اللَّجأ والافتقار في كلِّ نفس إليه. وهجرةٌ إلى رسوله في حركاته وسكناته الظاهرة والباطنة، بحيث تكون موافقةً لشرعه الذي هو تفصيلُ محابِّ الله ومرضاته، ولا يقبل الله من أحد دينًا سواه، وكلُّ عملٍ سواهُ فعيشُ النفس وحظُّها لا زادُ المعاد.

وقد قال شيخ الطريقة وإمام الطائفة الجنيد بن محمد قدَّس الله روحه: الطرق كلها مسدودة إلا طريقَ من اقتفىٰ آثارَ النبي ﷺ، فإنَّ الله عزّوجلَّ يقول: «وعزَّتي وجلالي لو أتوني من كلِّ طريقٍ، واستفتحوا[٤] من كل بابٍ، لما فتحتُ لَهُمْ حتَّىٰ يدخلوا خلفك»[٥].

وقال بعض العارفين: «كلُّ عملٍ بلا متابعة فهو عيش النفس»[٦].

---

(١) «ط»: «إفراد»، خطأ.

(٢) «ط»: «وله».

(٣) انظر نحو ذلك في مدارج السالكين (٢/ ٥٢٠)، والكافية الشافية (٨٧٠)، والرسالة التبوكية (١٦ـ٢٧).

(٤) «ك»: «واستفتحوني».

(٥) قول الجنيد في طبقات الصوفية للسلمي (١٥٩)، وحلية الأولياء (١٠/ ٢٧٦)، ونقله شيخ الإسلام في الاستقامة (١/ ٩٧، ٢٤٩). والمؤلف في مدارج السالكين (٢/ ٥٢١). أمَّا «الأثر الإلهي» فأورده المؤلف في جلاء الأفهام (٣٥٩).

(٦) من كلام سهل بن عبدالله التستري، كمافي الرسالة القشيرية (٤٠١)، وانظر مدارج السالكين (٢/ ٥٢١)، والاستقامة (١/ ٩٥، ٢٤٩)، ومنهاج السنة(٣٣١).

ولمَّا كانت السعادة دائرةً ـ نفيًا وإثباتًا ـ مع ما جاءَ به كان جديرًا بمن نصح نفسه أن يجعل لحظات عمره وقفًا على معرفته، وإرادتَه مقصورةً على محابّه، وهذه[1] أعلىٰ همَّة شمَّرَ إليها السابقون، وتنافسَ فيها المتنافسون. فلا جرمَ ضمَّنَّا هذا الكتابَ قواعدَ من سلوك طريق[2] الهجرة المحمدية. وسمّيناه «**طريق الهجرتين، وباب السعادتين**». وابتدأناه بباب الفقر والعبودية، إذ هو باب السعادة الأعظم[3] وطريقها الأقوم الذي لا سبيل إلى دخولها إلا منه. وختمناه بذكر طبقات المكلَّفين من الجن والإنس في الآخرة ومراتبهم في دار السعادة والشقاء[4]. فجاء الكتاب غريبًا في معناه، عجيبًا في مغزاه، لكلِّ قومٍ منه نصيب، ولكلِّ واردٍ منه شِرْب[5]. وماكان فيه من حقٍّ وصوابٍ فمنَ الله، هو المانُّ به، فإنَّما[6] التوفيق بيده. وماكان فيه من خطأ وزَلَلٍ[7] فمنِّي ومن الشيطان، والله ورسوله منه بريء[8].

فيا أيها القارئ له والناظر فيه، هذه بضاعةُ صاحبه[9] المزجاةُ مسوقةٌ إليك، وهذا فهمه وعقلُه معروضٌ عليك. لك غُنْمُه، وعلى مؤلفه

---

(١) «ط»: «وهذا».

(٢) «طريق»: ساقط من «ك، ط».

(٣) «الأعظم»: ساقط من«ط».

(٤) «ط»: «الشقاوة».

(٥) «ط»: «مشرب».

(٦) «ط»: «فإن».

(٧) «خطأو» ساقط من«ط».

(٨) ط: «براء». والذي ورد في الأصل وغيره صحيح في العربية.

(٩) «ك، ط»: «صاحبها».

غُرْمُه؛ ولك[1] ثمرتُه، وعليه عائدته. فإنْ عدِمَ منك حمدًا وشكرًا، فلا يعدَمْ منك مغفرةً وعذرًا[2]، وإنْ أبيتَ إلا الملامَ فبابُه مفتوحٌ، وقد:

استأثَرَ اللهُ بالثناء وبالـ ـحَمْدِ وولَّىٰ الملامةَ الرَّجُلا[3]

والله المسؤول أن يجعله لوجهه خالصًا، وأن ينفع[4] به مؤلفه وقارئه وكاتبه في الدنيا والآخرة. إنَّهُ سميع الدعاء. وأهل الرجاء، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

---

(١) «ك»: «فلك».

(٢) «مغفرة و» ساقط من «ك، ط».

(٣) البيت من قصيدة منسوبة إلى الأعشىٰ في مدح سلامة ذي فائش الحميري. الديوان (٢٨٣). وقد أنشده المؤلف في غير موضع من كتبه، والرواية المشهورة: «بالوفاء وبالعدل». والمؤلف أورده على أنحاء مختلفة. فوقع هنا وفي شفاء العليل (٢١٧) «بالثناء وبالحمد». وسيأتي في ص (٧٩): «بالمحامد والفضل». وفي مدارج السالكين (١: ٢٦٨) «بالمحامد والحمد». وفي الداء والدواء (١٣٧) «بالوفاء وبالحمد»، ونحوه في الشعر والشعراء (١: ٦٩). واستدلَّ بعضهم بهذا البيت أنَّ الأعشىٰ كان قدريًّا. انظر: الأغاني (٩: ١١٠)، وأمالي المرتضى (١: ٢١)، ولكن المؤلف أنشده في المدارج في سياق الاحتجاج بالقدر كأنَّ قائله من الجبرية خصماء الله، وأرى ذلك أشبه بلفظ البيت من السياق الذي أورده المؤلف فيه هنا وفي المواضع الأخرىٰ.

(٤) «ك، ط»: «وينفع».

فصل

[في أنَّ الله هو الغني المطلق والخلق فقراء محتاجون إليه][1]

قال الله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿١٥﴾﴾ [فاطر/ ١٥].

بيَّن سبحانه في هذه الآية أنَّ فقرَ العباد إليه أمرٌ ذاتيٌّ لهم لا ينفك عنهم، كما أنَّ كونَه غنيًّا حميدًا أمرٌ[2] ذاتيٌّ له. فغناه وحمده ثابت له لذاته لا لأمرٍ أوجبه، وفقرُ من سواه إليه أمرٌ[3] ثابت لذاته لا لأمرٍ أوجبه. فلا يعلَّل هذا الفقر بحدوث ولا إمكان، بل[4] هو ذاتي للفقير، فحاجة العبد إلى ربه لذاته، لا لعلَّة أوجبت تلك الحاجة؛ كما أنَّ غنى الرب عزَّ وجلَّ لذاته، لا لأمرٍ أوجبَ غناه، كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية:

والفقرُ لي وصفُ ذاتٍ لازمٌ أبدًا ... كما الغنىٰ أبدًا وصفٌ له ذاتي[5]

---

(١) مابين الحاصرتين من «ط».

(٢) «أمر» ساقط من «ط».

(٣) «ك»: «سواه أمر» فسقط منها «إليه». وسقط «أمر» من «ط».

(٤) «ك»: «فهو».

(٥) في «ك»: «كما أنَّ الغنى وصف»، وهو خطأ، والبيت من جملة أبيات أوردها المصنف في مدارج السالكين (٢: ١٢)، وذكر أنَّ شيخ الإسلام بعث إليه في آخر عمره قاعدة في التفسير بخطه، وعلى ظهرها تلك الأبيات بخطه من نظمه. وانظر أيضًا (٢: ٤٩٤). وقال صاحب المنهج الأحمد: «ومن إنشاد الشيخ رحمه الله لنفسه قبل موته بأيام» ثمَّ ذكر الأبيات. انظر: الجامع لسيرة شيخ الإسلام (٥٤٥ـ٥٤٦).

فالخلق فقير محتاج إلى ربه بالذَّات لابعلَّة، وكلُّ مايذكَرُ ويقدَّر[١] من أسباب الفقر والحاجة فهي أدلَّة على الفقر والحاجة، لا علل لذلك؛ إذ ما بالذات لا يعلَّل. فالفقير بذاته محتاج إلى الغني بذاته، فمايذكَر من إمكان وحدوث واحتياج فهي أدلَّةٌ على الفقر، لا أسبابٌ له.

ولهذا كان الصوابُ في مسألة علَّة احتياج العالم إلى الرب تعالىٰ غيرَ القولين اللذين يذكرهما[٢] الفلاسفة والمتكلمون، فإنَّ الفلاسفة قالوا: علَّة الحاجة الإمكان، والمتكلمون قالوا: علَّة الحاجة الحدوث. والصواب أنَّ الإمكان والحدوث متلازمان، وكلاهما دليل الحاجة والافتقار. وفقرُ العالم إلى الله عزَّوجلَّ أمرٌ ذاتي لا يعلَّل، فهو فقيرٌ بذاته إلى ربِّه الغني بذاته. ثمَّ يستدل بإمكانه وحدوثه وغير ذلك من الأدلَّة على هذا الفقر.

والمقصود أنَّه سبحانه أخبرَ عن حقيقة العباد وذواتهم بأنَّها فقيرة إليه [٣/أ] عزَّوجلّ، كما أخبر عن ذاته المقدَّسة وحقيقتِه أنَّه غنيٌّ حميد. فالفقرُ المطلقُ من كلِّ وجهٍ ثابتٌ لذواتهم وحقائقهم من حيث هي، والغنى المطلق من كل وجهٍ ثابتٌ لذاته تعالىٰ وحقيقته من حيث هي. فيستحيل أن يكون العبدُ إلا فقيرًا، ويستحيل أن يكون الربُّ تعالىٰ إلا غنيًّا، كما أنَّهُ يستحيل أن يكون العبدُ إلا عبدًا والربُّ إلا ربًّا.

إذا عُرِف هذا، فالفقرُ فقران: فقرُ اضطرارٍ[٣]، وهو فقرٌ عامٌّ لا خروج لِبَرٍّ ولا فاجر عنه. وهذا الفقر لا يقتضي مدحًا ولا ذمًّا

---

(١) «ط»: «يقرّر»، تحريف.

(٢) «ف»: «تذكرهما». والأصل غير منقوط.

(٣) «ط»: «اضطراري».

ولا ثوابًا ولا عقابًا، بل هو بمنزلة كون المخلوق مخلوقًا ومصنوعًا.

والفقر الثاني فقرٌ اختياريٌّ هو نتيجة علمين شريفين: أحدهما معرفة العبد بربه، والثاني معرفته بنفسه؛ فمتىٰ حصلت له هاتان المعرفتان أنتجا[١] له[٢] فقرًا هو عينُ غناه وعنوانُ فلاحه وسعادته.

وتفاوتُ النَّاسِ في هذا الفقرِ بحسب تفاوتهم في هاتين المعرفتين، فمن عرف ربه بالغنى المطلق عرف نفسه بالفقر المطلق، ومن عرف ربه بالقدرة التامَّة عرف نفسه بالعجز التام، ومن عرف ربه بالعز التام عرف نفسه بالمسكنة التامة، ومن عرف ربه بالعلم التام والحكمة عرف نفسه بالجهل.

فالله تعالىٰ أخرج العبد من بطن أُمه لا يعلم شيئًا، ولا يقدر على شيءٍ، ولا يملك شيئًا، ولا يقدر على عطاءٍ ولا منعٍ، ولا ضر ولا نفع ولا شيء البتة؛ فكان فقره في تلك الحال إلى ما به كمالُه أمرًا مشهودًا محسوسًا لكلِّ أحد، ومعلوم أنَّ هذا له من لوازم ذاته، وما بالذات دائم بدوامها، وهو لم ينتقل من هذه الرتبة إلى رتبة الربوبية والغنىٰ، بل لم يزل عبدًا فقيرًا بذاته إلى بارئه وفاطره.

فلمَّا أسبغ عليه نعمته، وأفاض عليه رحمته، وساق إليه أسباب كمال وجوده ظاهرًا وباطنًا، وخلع عليه ملابس إنعامه، وجعل له السمع والبصر والفؤاد، وعلَّمه، وأقدره، وحرَّكه، وصرَّفه[٣]، ومكَّنه من

---

(١) كذا في الأصل، و «ف»، يعني العلمين الشريفين. وفي «ك،ط»: «أنتجتا» يعني المعرفتين.

(٢) «له» ساقط من «ك،ط».

(٣) «ك،ط»: «وصرَّفه وحرَّكه».

استخدام بني جنسه، وسخَّر له الخيل والإبل، وسلَّطه على دواب الماءِ، واستنزال الطير من الهواء، وقهرِ الوحوش[1] العادية، وحفر الأنهار، وغرس الأشجارِ، وشقِّ الأرضِ، وتعلية البناءِ، والتحيّل على جميع مصالحه[2]، والتحرز والتحفظ ممَّا[3] يؤذيه = ظن المسكينُ أنَّ له نصيبًا من الملك، وادَّعىٰ لنفسه ملكةً[4] مع الله، ورأىٰ نفسه بغير تلك العين الأولىٰ، ونسي ما كان فيه من حالة الإعدام والفقر والحاجة، حتَّىٰ كأنَّه لم يكن هو ذلك الفقير المحتاج المضطر[5]، بل كان ذلك شخصًا آخر غيرَه؛ كما روىٰ[6] الإمام أحمد في مسنده من حديث بُسْر[7] بن جِحَاش القرشي أنَّ رسول الله ﷺ بصق يومًا في كفِّه فوضع عليها إصبعه ثمَّ قال: «قال الله عزَّوجلّ: بُنَيَّ[8] آدم، أنَّىٰ تعجزني! وقد خلقتك من مثل هذه، حتى إذا سويتك وعدلتك مشيت بين بُردين، وللأرض منك وئيد[9]، فجمعتَ

---

(١) «ك، ط»: «الوحش».

(٢) «جميع» ساقط من «ك، ط».

(٣) «ط»: «لما».

(٤) «ط»: «ملكًا».

(٥) «المضطر» ساقط من «ك، ط»، وفي «ك»: «والمحتاج».

(٦) «ف»: «أخبر»، خلاف الأصل.

(٧) كذا بالسين المهملة في الأصل. وفي غيره بالمعجمة، قال ابن منده: أهل العراق يقولون «بسر» بالمهملة، وأهل الشام يقولونه بالمعجمة. وقال الدَّارقطني وابن زبر وابن ماكولا: لايصح بالمعجمة، أمَّا أبوه «جحاش» فضبط في الأصل بكسر الجيم، ويقال أيضًا بفتحها وتثقيل الحاء.
انظر: الإصابة (١/ ٢٩١)، وتوضيح المشتبه (١/ ٥٢١). وفي «ن» حاشية لم تظهر كاملة في المصورة، أشير فيها إلى قول ابن منده.

(٨) «ط»: «يابن آدم».

(٩) الوئيد: صوت شدّة الوطء على الأرض يُسمع كالدويّ من بُعد.

ومنعتَ، حتى إذا بلغتِ التراقي قلتَ: أتصدّق، وأنَّى أوانُ الصدقة!»[1].

ومن ههنا خُذِلَ مَن خُذِلَ ووُفِّقَ مَنْ وُفِّقَ، فحُجِب المخذول عن حقيقته وأُنسيَ[2] نفسه، فنسي فقره وحاجته وضرورته إلى ربه، فطغىٰ وبغىٰ[3] وعتا، فحقّت عليه الشقوة. قال تعالىٰ: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ۝٧﴾[العلق/ ٦ـ٧] وقال: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ ۝١٠﴾[الليل/ ٥ـ١٠].

فأكملُ الخلقِ أكملُهم عبودية وأعظمهم شهودًا لفقره وحاجته[4] وضرورته [٣/ب] إلى ربه وعدم استغنائه عنه طرفة عين. ولهذا كان من دعائه ﷺ: «أصلِحْ لي شأني كلَّه، ولا تكِلْني إلى نفسي طرفةَ عين، ولا إلى أحدٍ مِن خَلْقِك»[5].

---

(١) أخرجه أحمد (١٧٨٤٢)، وابن ماجه (٢٧٠٧)، وابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني (٨٦٩، ٨٧٠)، والحاكم (٢/ ٥٤٥) (٣٨٥٥) وغيرهم.

وفيه عبدالرحمن بن ميسرة الحضرمي. قال ابن المديني: مجهول، لم يرو عنه غير حريز. وقال ابن حجر: مقبول. وقد روىٰ عنه جماعة. وقال أبوداود: شيوخ حريز كلهم ثقات. ووثّقه العجلي وابن حبان.

والحديث صحح إسناده الحاكم والبوصيري وابن حجر. انظر: مصباح الزجاجة (٣/ ١٤٣)، والإصابة (١/ ١٥٣). (ز).

(٢) «ك، ط»: «نسي».

(٣) «وبغى» ساقط من«ط».

(٤) «ك، ط»: «ضرورته وحاجته».

(٥) أخرجه أحمد (٢٠٤٣٠) مطولاً، وأبوداود (٥٠٩٠)، والنسائي في عمل اليوم والليلة (٦٥١)، وابن حبان (٩٧٠) مختصرًا، والطيالسي في مسنده (٩١٠) وغيرهم. وليس عندهم: «ولا إلى أحد من خلقك». =

وكان يدعو: «يا مقلِّب القلوب ثبِّت قلبي على دينك»[1]. يعلم[2] ﷺ أنَّ قلبه بيد الرحمن عزَّ وجلَّ لا يملك هو[3] منه شيئًا، وأنَّ الله عزَّوجلَّ يصرفه كما يشاء، كيف وهو يتلو قوله عزَّوجلَّ: ﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ۝٧٤﴾[الإسراء/ ٧٤].

فضرورته ﷺ إلى ربه وفاقته إليه بحسب معرفته به، وبحسب[4] قربه منه ومنزلته عنده، وهذا أمر إنَّما لمن بعده منه[5] ما يرشح من ظاهر الوعاءِ. ولهذا كان أقربَ الخلق إلى الله وسيلةً، وأعظمهم عنده جاهًا، وأرفعهم عنده منزلةً؛ لتكميله مقام العبودية والفقر إلى ربه عزَّوجلَّ.

= والحديث أعلَّه النسائي بجعفر بن ميمون، فقال: ليس بالقوي. ووافقه المنذري. وجعفر له منكرات، وقد تفرَّد بهذا اللفظ في الحديث.

والحديث صحَّحه ابن حبان، وحسَّن إسناده الهيثمي، وابن حجر. انظر: مجمع الزوائد (١٠/ ١٣٧)، ونتائج الأفكار (٢/ ٣٦٩)، وجاء عن أنس عند النسائي في عمل اليوم والليلة (٥٧٠)، قال ابن حجر: «حسن غريب»، وانظر الأسماء والصفات للبيهقي (٢/ ٢٩١) (٢١٨). (ز).

(١) أخرجه أحمد (١٧٦٣٠) مطوَّلاً، وابن ماجه (١٩٩)، وابن حبان (٩٤٣)، والحاكم (١/ ٧٠٦) (١٩٢٦) وابن منده في التوحيد (١٢٠) وغيرهم من حديث النواس بن سمعان رضي الله عنه. والحديث صحَّحه ابن حبان والحاكم وابن منده والبوصيري. انظر: مصباح الزجاجة (١/ ٢٧). وجاء هذا المتن عن جماعة من الصحابة. راجع السنة لابن أبي عاصم (٢٣٢، ٢٣٧، ٢٤٠) وغيره (ز).

(٢) «ك»: «فعلم».

(٣) «هو»: ساقط من «ط».

(٤) «بحسب» ساقط من «ك». وفي «ط»: «وحسب قربه».

(٥) «ك»: «إنَّما هو لمن بعده ما»، ثمَّ ضرب بعض القراء على «هو». وفي «ط»: «إنَّما بدا منه لمن بعده ما».

وكان يقولُ لهم: « أيها النَّاس، ما أحب أن ترفعوني فوق منزلتي، إنَّما أنا عبد»[1] وكان يقول: «لا تطروني كما أطرت النصارىٰ المسيحَ ابن مريم، إنَّما أنا عبد، فقولوا: عبدالله ورسوله»[2].

وذكره الله عزَّوجلَّ بسمة العبودية في أشرف مقاماته: مقام الإسراء، ومقام الدعوة، ومقام التحدي[3]. فقال: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا﴾[الإسراء/ ١]. وقال: ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ﴾[الجن/ ١٩]، وقال: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾[البقرة/ ٢٣]. وفي حديث الشفاعة: «إنَّ المسيح يقول لهم: اذهبوا إلى محمد عبدٍ غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر»[4]. فنالَ ذلك المقام بكمال عبوديته لله وبكمال مغفرة الله له.

وتأمَّل[5] قوله في الآية: ﴿أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [فاطر/ ١٥] فعلَّق الفقر إليه باسمه «الله»[6] دون اسم الربوبية ليؤذن بنوعي الفقر، فإنَّه

---

(١) أقرب لفظ لما ساقه المؤلف ورد عن الحسين بن علي رضي الله عنهما. أخرجه الدولابي في الذرية الطاهرة (١٥٩) بلفظ «ياأيها النَّاسُ لا ترفعوني فوق حقي، فإنَّ الله عزَّوجلَّ قد اتخذني عبدًا قبل أن يتخذني نبيًّا».
وأخرجه الطبراني في الكبير (٣/ ١٣٨ـ١٣٩) (٢٨٨٩)، والحاكم في المستدرك (٣/ ١٩٧) (٤٨٢٥) بنحوه.
والحديث صحَّحه الحاكم وحسَّنه الهيثمي في المجمع (٩/ ٢١) (ز).

(٢) من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه. أخرجه البخاري في كتاب أحاديث الأنبياء (٣٤٤٥) وغيره.

(٣) وانظر: مفتاح دارالسعادة (١/ ١١٠).

(٤) أخرجه البخاري من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه في كتاب التفسير (٤٤٧٦) وغيره.

(٥) «ك، ط»: «فتأمَّل».

(٦) «ك، ط»: «باسم الله». وسقط من «ط»: «فعلق الفقر إليه».

ـ كماتقدم ـ نوعان: فقرٌ إلى ربوبيته، وهو فقر المخلوقات بأسرها؛ وفقرٌ إلى إلاهيته[1]، وهو فقر أنبيائه ورسله وعباده [الصالحين][2]، وهذا هو الفقر النافع. والذي يشير إليه القوم، ويتكلمون عليه، ويشمرون إليه، هو الفقر الخاص لا العام. وقد اختلفت عباراتهم عنه ووصفهم له، وكلٌّ أخبرَ عنه بقدر ذوقه وقدرته على التعبير.

[تعريف الفقر ودرجاته عند الهروي، وتفسير كلامه]

قال شيخ الإسلام الأنصاري: «الفقر اسم للبراءة من رؤية الملَكة، وهو على ثلاث درجات:

الدرجة الأولىٰ: فقر الزهاد، وهو نفضُ اليدين من الدنيا ضبطًا أوطلبًا، وإسكات اللسان عنها ذمًّا أومدحًا، والسلامةُ منها طلبًا أوتركًا، وهذا هو الفقر الذي تكلَّموا في شرفه.

الدرجة الثانية: الرجوعُ إلى السبق بمطالعة الفضل، وهو يورث الخلاص من رؤية الأعمال، ويقطع شهود الأحوال، ويمحّص من أدناس مطالعات[3] المقامات.

الدرجة الثالثة: صحة الاضطرار، والوقوعُ في يد التقطع الوحداني، والاحتباس في قيد[4] التجريد، وهو فقر الصوفية»[5].

---

(١) «ك، ط»: «ألوهيته».

(٢) مابين الحاصرتين من «ك، ط».

(٣) «ط»: «مطالعة» كما في مدارج السالكين (٢/ ٥٠).

(٤) «ط»: «في بيداء قيد»، كما في المدارج وبعض نسخ منازل السائرين.

(٥) منازل السائرين (٥٦). وقارن تفسير المؤلف لكلام الهروي هنا، بما فسره في المدارج (٢/ ٤٩٧ ـ ٥٠٢).

فقوله: «الفقرُ اسمٌ للبراءة من رؤية الملكة» يعني أنّ الفقير هو الذي يجرّد رؤية الملك لمالكه الحقّ، فيرى نفسه مملوكة لله، لا يرى نفسه مالكًا بوجه من الوجوه، ويرى أعماله مستحَقّة عليه بمقتضى كونه مملوكًا عبدًا مستعملاً فيما أمره به سيّده. فنفسه مملوكة، وأعماله مستحَقّة بموجب العبودية، فليس مالكًا لنفسه ولا لشيء من ذرّاته ولا لشيء من أعماله، بل كلّ ذلك مملوك عليه مستحقّ عليه؛ كرجل اشترى عبدًا بخالص ماله ثمّ علّمه بعض [٤/أ] الصنائع، فلمّا تعلّمها قال له: اعمل وأدِّ إليَّ، فليس لك في نفسك ولا في كسبك شيء. فلو حصل بيد هذا العبد من الأموال والأسباب ما حصل لم ير له فيها شيئًا، بل يراها(١) كالوديعة في يده، وأنّها أموالُ أُستاذه وخزائنُه ونعمُه، بيد عبده مستودعها(٢)، متصرّفًا فيها لسيّده لا لنفسه، كما قال عبد الله ورسوله وخيرته من خلقه: «والله إني لا أعطي أحدًا، ولا أمنع أحدًا، وإنما أنا قاسم أضع حيث أُمِرتُ»(٣).

فهو متصرّف في تلك الخزائن بالأمر المحض تصرُّفَ العبد المحض الذي وظيفته تنفيذ أوامر سيّده. فالله هو المالك الحق، وكلُّ ما بيد خلقِه هو من أمواله وأملاكه وخزائنه، أفاضها عليهم ليمتحنهم في البذل والإمساك، وهل يكون ذلك منهم على شاهد العبودية لله عزّوجلّ، فيبذل(٤) أحدهم الشيء رغبةً في ثواب الله، ورهبةً من عقابه، وتقرّبًا

---

(١) «ك، ط»: «يراه».

(٢) «ك، ط»: «مستودعًا».

(٣) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه. أخرجه البخاري في كتاب فرض الخمس (٣١١٧). وانظر المسند (١٦ : ١٨٠) (١٠٢٥٧).

(٤) «ك»: «فبذل».

إليه، وطلبًا لمرضاته؟ أم يكون البذل والإمساك منهم صادرًا عن مراد النفس، وغلبة الهوى، وموجب الطبع، فيعطي لهواه ويمنع لهواه؟ فيكون متصرّفًا تصرّف المالك لا المملوك، فيكون مصدرُ تصرّفه الهوى ومرادَ النفسِ، وغايتُه الرغبةَ فيما عند الخلق من جاه أو رفعة أو منزلة أو مدح أو حظّ من الحظوظ، أو الرهبةَ من فوت شيء من هذه الأشياءِ. وإذا كان مصدر تصرّفه وغايته هو هذه الرغبة والرهبة رأى نفسه لا محالة مالكًا، فادعى الملكة[1]، وخرج عن حدّ العبوديّة، ونسي فقره. ولو عرف نفسه حقّ المعرفة لعلم أنما هو مملوك ممتحَن في صورة مالك[2] متصرّف، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾﴾[يونس/ ١٤].

وحقيق بهذا الممتحَن أن يُوكَل إلى ما ادّعته نفسه من الحالات والملكات مع المالك الحقّ سبحانه، فإنّ من ادّعى لنفسه حالةً مع الله وُكِلَ إليها. ومن وُكِل إلى شيء غير الله فقد أتيح[3] له بابُ الهلاك والعطَب، وأغلق عنه بابُ الفوز والسعادة؛ فإنّ كل شيء ما سوى الله باطل، ومن وُكِلَ إلى الباطل بطل عمله، وضلّ سعيه، ولم يحصل إلاّ على الحرمان.

فكلّ من تعلّق بشيء غير الله[4] انقطع به أحوجَ ما كان إليه، كما قال تعالى: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ

---

(١) «ك، ط»: «الملك».

(٢) «ك، ط»: «ملِك».

(٣) «ك، ط»: «فتح».

(٤) «ك، ط»: «تعلق بغير الله».

ٱلۡأَسۡبَابُ ﴿١٦٦﴾﴾[البقرة/ ١٦٦]. فالأسباب التي تقطّعت بهم هي العلائق التي كانت[1] بغير الله ولغير الله، قُطِعت[2] بهم أحوجَ ما كانوا إليها، وذلك لأن تلك الغايات لما اضمحلّت وبطلت اضمحلّت أسبابها وبطلت، فإنّ الأسباب تبطل ببطلان غاياتها وتضمحلّ باضمحلالها. وكلُّ شيء هالكٌ إلاّ وجهه سبحانه، فكلُّ عمل[3] باطلٌ إلاّ ما أريد به وجهه، وكلّ سعي لغيره فباطل[4] ومضمحلّ.

وهذا كما يشاهده الناس في الدنيا من اضمحلال السعي والعمل والكدّ والخدمة التي يفعلها العبد لمتولٍّ أو أمير أو صاحب منصب أو مال، فإذا زال ذلك الذي عمل [٤/ب] له وعُدِمَ ضلّ ذلك[5] العمل، وبطل ذلك السعي، ولم يبق في يده سوى الحرمان.

ولهذا يقول الله تعالى يوم القيامة: «أليس عدلاً منّي أن[6] أُولِّيَ كلَّ رجلٍ منكم ما كان يتولّى في الدنيا؟»[7] فيتولّى عُبّاد الأصنام والأوثان

---

(١) «كانت»: ساقط من «ك، ط».

(٢) «ك، ط»: «تقطعت».

(٣) «ك، ط»: «وكل عمل».

(٤) «ك، ط»: «باطل».

(٥) «ك، ط»: «عمل له عدم ذلك».

(٦) «ط»: «أني».

(٧) أخرجه عبدالله في السنة (١٢٠٣)، وابن أبي الدنيا في صفة الجنّة (٣١)، والطبراني (٩٧٦٣)، والحاكم في المستدرك (٢: ٤٠٨) (٣٤٢٤) وغيرهم مطوّلاً من حديث ابن مسعود.

والحديث صحّحه ابن منده والحاكم. وقد اختلف في رفعه ووقفه، ورجّح الدّارقطني رفعه. وقال الذهبي: ماأنكره حديثاً على جودة إسناده! (ز).

أصنامَهم وأوثانَهم، فتتساقط بهم في النار. ويتولّى عابدو الشمس والقمر والنجوم آلهتهم، فإذا كوّرت الشمس، وانتثرت النجوم اضمحلّت تلك العبادة، وبطلت، وصارت حسرةً عليهم ﴿ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ ۖ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿١٦٧﴾ ﴾[البقرة/ ١٦٧].

ولهذا كان المشرك من أخسر الناس صفقةً وأغبنهم يوم معاده، فإنه يحال على مفلس كلَّ الإفلاس بل على عدم، والموحّد حوالته على المليء الكريم، فيا بُعدَ ما بين الحوالتين!

وقوله: «البراءَة من رؤية الملكة»[1]. ولم يقل «من الملكة» لأنّ الإنسان قد يكون فقيرًا لا ملكة له في الظاهر، وهو عريّ عن التحقّق[2] بنعت الفقر الممدوحِ أهلُه الذين لا يرون مَلَكةً إلاّ لمالكها الحقّ ذي[3] الملك والملكوت. وقد يكون العبد قد فُوِّض إليه من ذلك شيءٌ وجُعِلَ كالخازن فيه، كما كان سليمان بن داود ﷺ أوتي مُلْكًا لا ينبغي لأحد من بعده، وكذلك الخليل وشعيب والأغنياءُ من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وكذلك أغنياءُ الصحابة. فهؤلاءِ لم يكونوا بريئين من الملكة في الظاهر، وهم بريئون من رؤية الملكة لنفوسهم، فلا يرون لها ملكًا حقيقيًا، بل يرون ما في أيديهم لله عاريةً ووديعةً في أيديهم، ابتلاهم به لينظر هل يتصرّفون فيه تصرّفَ العبيد أو تصرّفَ الملّاك الذين يعطون لهواهم ويمنعون لهواهم.

---

(١) بلى، كذا ورد في بعض نسخ منازل السائرين التي اعتمد المؤلِّف عليها في مدارج السالكين (٢/ ٤٩٧).

(٢) «ف،ك»: «التحقيق»، خطأ.

(٣) في الأصل: «ذو»، سهو، وكذا في «ن».

فوجود المال في يد الفقير لا يقدح في فقره، إنّما يقدح في فقره رؤيته لملكته. فمن عوفي من رؤية الملكة لم يتلوّث باطنه بأوساخ المال وتعبه وتدبيره واختياره[(١)]، وكان كالخازن لسيّده الذي ينفّذ أوامره في ماله، فهذا لو كان بيده من المال مثل[(٢)] جبال الدنيا لم يضرّه.

ومن لم يُعافَ من ذلك ادّعت نفسه الملكة، فتعلّقت[(٣)] به النفس تعلّقها بالشيء المحبوب المعشوق، فهو أكبر همّه ومبلغ علمه، إن أعطي رضي، وإن مُنع سخط. فهو عبد الدينار والدرهم، يصبح مهمومًا به[(٤)]، ويمسي كذلك، فيبيت[(٥)] مضاجعًا له. تفرح نفسه إذا ازداد، وتحزن وتأسف إذا فات منه شيء، بل يكاد يتلف إذا توهمتْ نفسه الفقر، وقد يؤثر الموت على الفقر.

والأول مستغنٍ بمولاه المالك الحيّ[(٦)] الذي بيده خزائن السموات والأرض، وإذا أصاب المالَ الذي في يده نائبةٌ رأى أنّ المالك الحقّ هو الذي أصاب مال نفسه، فما للعبد وما للجزع والهلع؟ وإنّما تصرّفَ مالكُ المال في ملكه الذي هو وديعة في يد مملوكه، فله الحكم في ماله: إن شاءَ أبقاه، وإن شاءَ ذهب به وأفناه، فلا يتّهم مولاه في تصرّفه في ملكه، ويرى تدبيره هو موجب الحكمة. فليس لقلبه بالمال تعلّق،

---

(١) في الأصل نقط الخاء وأهمل الباقي. وفي «ن» نقط التاء، وقرأها ناسخ «ف»: «واحتيازه». والمثبت من «ك، ط».

(٢) «ك، ط»: «أمثال».

(٣) «ك، ط»: «وتعلقت».

(٤) «به» ساقط من «ن، ك، ط».

(٥) «ك، ط»: «يبيت».

(٦) «ك، ط»: «الحق».

ولا له به اكتراث، لصعوده عنه وارتفاع همّته إلى المالك الحقّ، فهو غنيّ به وبحبّه ومعرفته وقربه منه عن كل ماسواه، وهو فقير إليه دون ما سواه. فهذا هو البريء عن رؤية الملكة الموجبة للطغيان، كما قال تعالى: ﴿ كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ۝٧ ﴾[العلق: ٦ـ٧] ولم يقل: «أن استغنى»، بل جعل الطغيان ناشئًا عن رؤيته[١] غنى نفسه.

ولم يذكر هذه الرؤية في سورة الليل بل قال: ﴿ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٩ ﴾[الليل/ ٨ ـ ٩][٢]. وهذا ـ والله أعلم ـ لأنّه ذكر موجِب طغيانه وهو رؤيته[٣] غنى نفسه، وذكر في سورة الليل موجِب هلاكه وعدم تيسيره لليسرى، وهو استغناؤه عن ربّه بترك طاعته وعبوديته، فإنه لو افتقر إليه لتقرّب إليه بما أمره به[٤] من طاعته، فعلَ المملوك الذي لا غنى له عن مولاه طرفةَ عين ولا يجد بدًّا من امتثال أوامره. ولذلك ذكر معه بخله، وهو تركه إعطاءَ ما وجب عليه من الأقوال والأعمال وأداءِ المال، وجمع إلى ذلك تكذيبَه بالحسنى، وهي التي وعد بها أهل الإحسان بقوله: ﴿ ۞ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ﴾[يونس/ ٢٦].

ومن فسّرها بشهادة أن لا إله إلاّ الله فلأنّها أصل الإحسان، وبها تنال الحسنى. ومن فسّرها بالخلَف في الإنفاق فقد هضم المعنى حقَّه، وهو أكبر من ذلك، وإن كان الخلَف جزءًا من أجزاءِ الحسنى.

---

(١) «ك، ط»: «رؤية». وفي «ف»: «عين نفسه»، تحريف.

(٢) زاد في «ك، ط» الآية العاشرة.

(٣) «ك، ط»: «رؤية».

(٤) «به» ساقط من «ك، ط».

والمقصود أنّ الاستغناءَ عن الله سببُ هلاك العبد وتيسيرِه لكلّ عسرى، ورؤيتُه غنى نفسه سببُ طغيانه، وكلاهما منافٍ للفقر والعبودية.

[تفسير الدرجة الأولى من الفقر]

قوله: «الدرجة الأولى فقر الزهاد، وهو نفض اليدين من الدنيا ضبطًا أَو طلبًا، [وإسكات اللسان عنها ذمًّا أَو مدحًا، والسلامة منها طلبًا][١] أو تركًا، وهذا هو الفقر الذي تكلّموا في شرفه».

فحاصلُ هذه الدرجة فراغُ اليد والقلب من الدنيا، والذهولُ عن الفقرِ منها والزهدِ فيها. وعلامةُ فراغ اليد نفضُ اليدين من الدنيا ضبطًا أَو طلبًا: فهو لا يضبط يده مع وجودها شحًّا وضنًّا بها، ولا يطلبها مع فقدها سؤالاً وإلحافًا وحرصًا. فهذا الإعراض والنفض دالٌّ على سقوط منزلتها من القلب، إذ لو كان لها في القلب منزلة لكان الأمر بضدّ ذلك، وكان يكون حاله الضبط مع الوجود لغناه بها، ولكان يطلبها مع فقدها لفقره إليها.

وأيضًا من أقسام الفراغ إسكات اللسان عنها ذمًّا أو مدحًا[٢] لأن من اهتمّ بأمر وكان له في قلبه موقع اشتغل اللسان بما فاض على القلب من أمره مدحًا أو ذمًّا، فإنّه إن حصلتْ له مدَحَها، وإن فاتته ومُنِعَها[٣] ذمَّها.

(١) مابين الحاصرتين ساقط من الأصل وغيره بسبب انتقال النظر. وقد استدرك في «ط».

(٢) «ك،ط»: «ومدحًا».

(٣) «ومنعها»: ساقط من «ك،ط».

وذمُّها[1] علامةُ موضعِها من القلب، لأنّ الشيء إنّما يُذمّ على قدر الاهتمام به والاعتناءِ بشفاء[2] الغيظ منه بالذم.

وكذلك تعظيم الزهد فيها إنَّما هو على قدر خطرها في القلب، إذ لولا خطرها وقدرها لما صار للزهد فيها خطر. وكذلك مدحها دليل على خطرها وموقعها من قلبه، فإنَّ من أحبَّ شيئا أكثر من ذكرِه.

فصاحب[3] هذه الدرجة لا يضبطها مع وجودها ولا يطلبها مع عدمها، ولا يفيض من قلبه على لسانه مدح لها يدلُّ على محبتها، ولا يفيض من القلب على اللسان ذم يدلُّ على موقعها وخطرها؛ فإنَّ الشيء إذا صغر أعرض القلب عنه ذمًّا أومدحًا[4].

وكذلك صاحب هذه الدرجة فانٍ[5] عن النظرِ إلى تركها، وهو الذي تقدَّم من ذكر خطر الزهد فيها؛ لأنَّ نظرَ العبد إلى كونه تاركًا لها زاهدًا فيها، تتشوف[6] نفسه بالترك وتتلذَّذ به = دليلٌ على شغله بها، ولو على وجه الترك[7]؛ وذلك من خطرها وقدرها. ولو صغرت في القلب لصغر تركها والزهد فيها، ولو اهتمَّ القلب بمهمٍّ من المهمات المطلوبة التي هي

---

(١) «ك، ط»: «ومدحها وذمها».

(٢) «ط»: «والاعتناء شفاء».

(٣) «ك، ط»: «وصاحب».

(٤) «ك، ط»: «مدحًاأو ذمًّا».

(٥) «ط»: «سالم»، ولعلَّه تغيير من الناشر.

(٦) «ك، ط»: «تتشرف».

(٧) «وتتلذَّذ. . الترك»: ساقط من «ط».

فاقات[١] أهل القلوب والأرواح [٥/ب] لذهل عن النظر إلى نفسه بالترك والزهد[٢]. فصاحب هذه الدرجة معافى من هذه الأمراض كلّها: من مرض الضبط، و الطلب، والذم، والمدح، والترك. فهي بأسرها، وإن كان بعضها ممدوحًا في العلم مقصودًا يستحق المتحقق به الثواب والمدح، لكنَّها آثار وأشكال مشعرة بأنَّ صاحبها لم يذُقْ حال الخلوّ والتجريد الباطن، فضلاً عن أن يتحقق بشيءٍ[٣] من الحقائق المتوقعة المتنافس فيها.

فصاحب هذه الدرجة متوسط بين درجتي الداخل[٤] بكليته في الدنيا قد ركن إليها، واطمأنَّ إليها، واتخذها وطنًا، وجعلها له سكنًا؛ وبين من نفضها بالكلية من قلبه ولسانه، وتخلص من قيودها ورعوناتها[٥] وآثارها، وارتقىٰ إلى ما يسبي[٦] القلبَ ويُحييه ويُفرحه ويُبهجه من جذَبات العزَّة[٧]. فهو في البرزخ كالحامل المقْرِب، ينتظر ولادة الروح والقلب صباحًا ومساءً، فإنَّ من لم تولد روحه وقلبه، ويخرجْ من مشيمة نفسه، ويتخلّصْ من ظلمات طبعه وهواه وإراداته[٨]، فهو كالجنين في بطن أمه الذي لم ير الدنيا وما فيها. فهكذا هذا الذي

---

(١) «ط»: «مذاقات»، تحريف.

(٢) «ك، ط»: «بالزهد والترك».

(٣) «بشيء» ساقط من «ك، ط».

(٤) «ف»: «درجتين الداخل»، أخطأ في القراءة.

(٥) «ط»: «رعونتها».

(٦) «ط»: «يسر»، تحريف.

(٧) «ف»: «حدثات الغرة»، تصحيف.

(٨) «ك، ط»: «إرادته».

هو[1] بعدُ في مَشِيمة النفس والظلمات الثلاث التي[2] هي: ظلمة النفس، وظلمة الطبع، وظلمة الهوى. فلا بدَّ من الولادة مرَّتين كما قال المسيح للحواريين: «إنّكم لن تلِجوا ملكوتَ السماء حتى تولَدوا مرَّتين»[3].

ولذلك كان النبي ﷺ أبًا للمؤمنين، كما في قراءة أُبيّ: «النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم وهو أب لهم»[4]. ولهذا تفرّع على هذه الأبوة أن جُعِلت أزواجه أمّهاتِهم، فإنّ أرواحهم وقلوبهم وُلِدت به ولادةً أخرى غيرَ ولادة الأُمهات، فإنّه أخرج أرواحهم وقلوبهم من ظلمات الجهل والضلال والغيّ إلى نور العلم والإيمان وفضاء المعرفة والتوحيد، فشاهدتْ حقائق أُخر وأمورًا لم يكن لها بها شعور قبله.

قال تعالىٰ: ﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ۝١﴾[إبراهيم/ ١].

وقال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّۦنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾[الجمعة/ ٢].

وقال: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ

---

(١) «هو»: ساقط من «ط».

(٢) «التي» ساقط من «ط»، وفي «ك»: «الذي»، خطأ.
المدارج (٢/ ٤٩٧ ـ ٥٠٢).

(٣) سيأتي قول المسيح هذا مرّة أخرىٰ في ص(٣٩٧).

(٤) نقل المصنف قول المسيح المذكور وتفسيره وقراءة أبي بن كعب والاستدلال بها في مدارج السالكين (٣/ ٣٤) عن شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله. وانظر منهاج السنة (٥/ ٢٣٨).

ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾ [آل عمران/ ١٦٤].

والمقصود أنّ القلوب في هذه الولادة ثلاثة:

قلبٌ لم يولد ولم يأنِ له، بل هو جنين في بطن الشهوات والغيّ والجهل والضلال.

وقلبٌ قد وُلِد وخرج إلى فضاءِ التوحيد والمعرفة، وتخلّص من مشيمة الطباع وظلمات النفس والهوى، فقرّتْ عينه بالله، وقرّتْ عيونٌ به وقلوب، وأنِستْ بقربه الأرواح، وذكّرت رؤيتُه بالله؛ فاطمأنّ بالله، وسكن إليه، وعكف بهمّته عليه[(١)]، وسافرت هممه وعزائمه إلى الرفيق الأعلى. لا يقَرّ بشيء غير الله، ولا يسكن إلى شيء سواه، ولا يطمئنّ[(٢)] بغيره. يجد من كلّ شيء سوى الله عوضًا،[(٣)] ولا يجد من الله عوضًا أبدًا. فذكرُه حياةُ قلبه، ورضاه نهايةُ[(٤)] مطلبه، ومحبّتُه قوتُه، ومعرفتُه أنيسُه. عدوُّه مَن جذَب قلبه عن الله «وإن كان القريبَ المصافيا»[(٥)]، ووليُّه من ردَّه إلى الله، وجَمَع قلبَه عليه، «وإن كان البعيدَ المناويا».

---

(١) «عليه» ساقط من«ط».

(٢) «ف»: «يظهر»، تحريف.

(٣) بعده في «ط»: «ومحبته قوته»، وهي جملة مقحمة هنا، وستأتي قريبًا في مكانها.

(٤) «ط»: «غاية».

(٥) كأنّه اقتبسه من قول أبي قيس صِرمة الأنصاري:

نعادي الذي عادى من النّاسِ كلهم جميعًا وإن كان الحبيب المصافيا

وقد أنشده في مثل هذا السياق في مدارج السالكين (١/ ٢٣٤)، والبيت في سيرة ابن هشام (١/ ٥١٢).

فهذان [٦/أ] قلبان متباينان غاية التباين.

وقلبٌ ثالثٌ في البرزخ ينتظر الولادة صباحًا ومساءً، قد أشرف[١] على فضاءِ التجريد، وآنس من خلال الديار أشعّةَ التوحيد. تأبى غلَباتُ الحبّ والشوق إلاّ تقرّبًا إلى مَن السعادةُ كلُّها بقربه، والحظُّ كلُّ الحظ في طاعته وحبّه؛ وتأبى غلباتُ الطباع إلاّ جذبَه وإيقافَه وتعويقَه، فهو بين الدّاعيَين تارةً وتارةً، قد قطع عقباتٍ وآفات، وبقي عليه مفاوز وفلوات.

والمقصود أنّ صاحب هذا المقام إذا تحقّق به ظاهرًا وباطنًا، وسلِم عن نظر نفسه إلى مقامه واشتغاله به ووقوفه عنده، فهو فقير حقيقي، وليس فيه قادح من القوادح التي تحطّه عن درجة الفقر.

واعلم أنّه يحسن إعمالُ اللسان في ذمّ الدنيا في موضعين: أحدهما موضع التزهيد فيها للراغب، والثاني عندما يرجع به داعي الطبع والنفس إلى طلبها، ولا يأمن إجابةَ الداعي، فيستحضر في نفسه[٢] قلّة وفائها، وكثرة جفائها، وخِسّة شركائها[٣]، فإنّه إن تمّ عقلُه وحضر رشدُه زهِدَ فيها ولا بدّ.

فصل

[تفسير الدرجة الثانية من الفقر]

وقوله: «الدرجة الثانية: الرجوع إلى السبق بمطالعة الفضل. وهو يُورث الخلاصَ من رؤية الأعمال، ويقطع شهودَ الأحوال، ويمحّص من

---

(١) «ط»: «قد أصبح».

(٢) «ف»: «فتستحضر نفسُه»، وهو خلاف الأصل.

(٣) مأخوذٌ من قول بعض الزهاد، كما سيأتي في ص(٥٤١).

أدناس مطالعات[1] المقامات».

فهذه الدرجة أرفع من الأولىٰ وأعلىٰ، والأولىٰ كالوسيلة إليها؛ لأنَّ في الدرجة الأولىٰ يتخلَّىٰ بفقره عن أن يتألَّه غيرَ مولاه الحق، وأن يضيّع أنفاسَه في غير مرضاته[2]، وأن يفرق همومَه في غير محابّه، وأن يؤثر عليه غيرَه[3] في حالٍ من الأحوال. فيوجبُ له هذا الخلوُّ[4] وهذه المعاملةُ صفاءَ العبودية، وعمارة السرِّ بينه وبين الله، وخلوص الوداد والمحبة[5]. فيصبح ويمسي، ولا همَّ له غير ربه، قد قطع همُّه بربِّه عنه جميعَ الهموم، وعطَّلت إرادته له[6] جميع الإرادات، ونسخت محبتُه له من قلبه كل محبةٍ لسواه، كما قيل[7]:

لقد كان يسبي القلبَ في كلِّ ليلة ثمانون بل تسعون نفسًا وأرجحُ
يهيمُ بهذا ثمَّ يألفُ غيرَه ويسلوهُمُ من فورِه حينَ يُصْبِحُ
وقد كان قلبي ضائعًا قبل حبِّكم فكان بحبِّ الخلقِ يلهو ويمرَحُ

---

(١) «ط»: «مطالعة».
(٢) «ف»: «مرضياته».
(٣) «غيره» ساقط من «ط».
(٤) «ك، ط»: «الخلق»، ولعلَّه تحريف.
(٥) «ك، ط»: «الود». وسقطت «المحبة» من «ط».
(٦) «له» ساقط من «ك، ط».
(٧) الأبيات لسمنون بن حمزة، وقد أورد السلمي أربعة منها برواية مختلفة مع بيت آخر في طبقات الصوفية (١٩٨)، ونقلها عنه الخطيب في تاريخ بغداد (٩/ ٢٣٦). وانظر: صفة الصفوة (١/ ٤٨٥). والأبيات (١، ٦، ٩) في الزهرة (٦٢) معزوة إلى «بعض أهل هذا العصر». وقد توفي سمنون بعد الجنيد (٢٩٧هـ) فهو معاصر لصاحب الزهرة (٢٥٥ ـ ٢٩٧هـ).

فلمَّا دعا قلبي هواكَ أجابه   فلستُ أُراهُ عن جَنابِكَ[1] ينزَحُ[2]
حُرِمْتُ مُنَايَ[3] منكَ إن كنتُ كاذبًا   وإن كنتُ في الدنيا بغيرك أفرحُ
وإنْ كان شيءٌ في الوجود سواكمُ   يقِرُّ به القلبُ الجريحُ ويفرحُ
وإنْ[4] لعبتْ أيدي الهوىٰ بمُحِبّكم   فليس له عن بابكم مُتَزَحْزَحُ
فإنْ أدركتْه غربةٌ عن دياركم   فحبكم بين الحشا ليس يبرَحُ
وكم مشترٍ في الخلق قد سام قلبَه   فلم يره إلا لحبِّك يصلُحُ
هوىٰ غيرِكم نارٌ تلظَّىٰ ومحبِسٌ   وحبُّكم الفردوس أو هو أفسَحُ
فيا ضيمَ قلبٍ قد تعلَّق غيرَكم   ويارحمتا[5] ممَّا يجولُ ويكدَحُ

[٦/ب] والله عزَّ وجلَّ لم يجعل لرجل من قلبين في جوفه، فبقدر ما يدخل القلبَ من همٍّ وإرادةٍ وحبٍّ، يخرج منه همٌّ وإرادةٌ وحبٌّ يقابله، فهو إناءٌ واحد والأشربة متعددة، فأي شراب ملأه لم يبق فيه موضع لغيره، وإنَّما يمتلىء الإناءُ بأعلىٰ الأشربة إذا صادفه خاليًا، فأمَّا إذا صادفه ممتلئًا من غيره لم يساكنه حتَّىٰ يخرج ما فيه، ثمَّ يسكن موضعه،

(١) في حاشية «ن» أنَّ في نسخة: «خبائك»، وكذا في«ط». وفي الطبقات: «فنائك».
(٢) هذه قراءة «ف». وفي «ن»: «يبرح» وكذا في الطبقات و«ك،ط». ويحتمل: «يسرح»، وكذا في تاريخ بغداد.
(٣) «ك،ط»: «منائي». وفي القطرية: «الأماني». والصوابُ ما أثبتنا.
(٤) في حاشية «ن» أنَّ في نسخة «إذا»، وكذا في «ط».
(٥) «ط»: «رحمة».

كما قال[1]:

أتاني هواها قبلَ أنْ أعرفَ الهوىٰ   فصادفَ قلبًا خاليًا فتمكنا[2]

ففقرُ صاحب هذه الدرجة تفريغُه إناءه من كلِّ شرابٍ مسكرٍ، وكلُّ شرابٍ غير شراب المحبة والمعرفة فمسكرٌ[3] ولا بد، «وما أسكر كثيره فقليله حرام»[4]، وأين سكر الهوىٰ والدنيا إلى[5] سكر الخمر! وكيف يوضع شرابُ التسنيم الذي هو أعلىٰ أشربة المحبين في إناءٍ ملآن بخمر الدنيا والهوىٰ، لا يفيق[6] من سكره ولا يستفيق! ولو فارق هذا السكر القلبَ لطار بأجنحة الشوق إلى الله والدار الآخرة، ولكن رضيَ المسكين بالدون، وباع حظه من قرب الله ومعرفته وكرامته بأخسِّ الثمن صفقةَ خاسرٍ مغبونٍ، فسيعلم أيَّ حظٍّ أضاع إذا فاز المحبون، وخسر المبطلون!

---

(١) «ك،ط»: «قال بعضهم».

(٢) من الأبيات المشهورة، وقد أنشده المؤلف في مفتاح دار السعادة (١/ ٥٤٦)، وإغاثة اللهفان (١/ ١٨١)، وروضة المحبين (١٨٧، ٢٤٠)، ونسبه في الموضع الأخير إلى قيس بن الملوّح. وهو في ديوانه (٢١٩). وينسب إلى غيره.

(٣) «ط»: «من كل شراب غير شراب المحبة والمعرفة لأنَّ كل شراب فمسكر».

(٤) من حديث عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما. أخرجه أحمد في المسند (٦٦٧٤)، والنسائي (٨/ ٣٠٠)، وابن ماجه (٣٣٩٤) وغيرهم، وسنده حسن. وورد هذا المتن عن جابر وأنس وعائشة وابن عمر رضي الله عنهم (ز).

(٥) «ك،ط»: «من».

(٦) «ط»: «ولا يفيق».

فصل

[مقتضيات الدرجة الثانية من الفقر]

وإذا كان التلوث بالأعراض[1] قيدًا يقيد القلوبَ عن سفرها إلى بلد حياتها ونعيمها الذي لا سكن لها غيره، ولا راحة لها إلا فيه، ولا سرور لها إلا في منازله، ولا أمن لها إلا بين أهله؛ فكذلك الذي قد باشر[2] قلبُه روحَ التأله، وذاق طعمَ المحبة، وآنسَ نارَ المعرفة، له أعراضٌ دقيقة حاليّة تقيد قلبَه عن مكافحة صريح الحقِّ، وصحة الاضطرار إليه، والفناء التام به، والبقاء الدائم بنوره الذي هو المطلوب من السير والسلوك، وهو الغاية التي شمَّر إليها السالكون، والعلَم الذي أمّه العابدون، ودندن حوله العارفون. فجميع ما يحجب عنه أو يقيد القلبَ نظرُه وهمُّه يكون حجابًا يحجب الواصلَ، ويوقف السالك، وينكس الطالب. فالزهد فيه على أصحاب الهمم العلية متعيِّن تعيُّنَ الواجب المعيّن[3] الذي لا بد منه، وهو كزهد السالك إلى الحج في الظلال والمياه التي يمر بها في المنازل.

فالأوَّل مقيد عن الحقائق برؤية الأعراض، والثاني مقيد عن النهايات برؤية الأحوال، فتقيّد كلٌّ منهما عن الغاية المطلوبة، وترتب على هذا

(١) ضبطت الكلمة في الأصل هنا بالعين المهملة، وفي الموضع التالي بالمعجمة، ثمَّ بالمهملة، وستأتي مرَّة أخرىٰ في ص (٤٥) بالمهملة، وفي «ف» في الموضعين الأولين بالمعجمة ثمَّ بالمهملة، ولعلَّ الصواب بالمهملة كما أثبتنا، وكذا في «ن،ك» في المواضع المذكورة كلها.

(٢) «ك،ط»: «الذي باشر».

(٣) «المعين»: ساقط من «ك،ط».

القيد عدمُ النفوذ[1]، وذلك مؤخّر مخلّف.

وإذا عَرَفَ العبدُ هذا وانكشف له علمُه تعيَّن عليه الزهدُ في الأحوال والفقرُ منها، كما تعين عليه الزهدُ في المال والشرف وخلوُّ قلبه منهما. وكما[2] كان موجَبُ الدرجة الأولىٰ من الفقرِ الرجوعَ إلى الآخرة، فأوجب الاستغراقُ في همِّ الآخرة نفضَ اليدين من الدنيا ضبطًا أو طلبًا، وإسكات اللسان عنها مدحًا أوذمًّا؛ فكذلك[3] كان موجَبُ هذه الدرجة الثانية الرجوعَ إلى فضل الله عزَّوجلَّ، ومطالعة سبقِه للأسباب[4] والوسائط. فبفضل الله وبرحمته[5] وُجِدتْ منهم[6] الأحوال[7] الشريفة، والمقامات العلية، وبفضله ورحمته وصلوا إلى رضاه ورحمته وقربه وكرامته وموالاته.

وكان سبحانه هو الأوَّل في ذلك كلِّه، كما أنَّهُ الأوَّل في كلِّ شيء؛ وكان هو الآخر في ذلك، كما هو الآخر في كلِّ شيء. فمن عبده باسمه الأوَّل الآخر[8] [٧/أ] حصل[9] له حقيقة هذا الفقر، فإن انضاف إلى ذلك

(١) سيأتي تفسير «النفوذ» في ص(٣٨٨ ـ ٣٨٩).
(٢) في الأصل وغيره: «لما»، والصواب ما أثبتنا.
(٣) «ط»: «وكذلك».
(٤) «ك،ط»: «الأسباب».
(٥) «ك،ط»: «ورحمته».
(٦) «ك،ط»: «منه».
(٧) «ك،ط»: «الأقوال»، تحريف.
(٨) «ن،ك،ط»: «والآخر».
(٩) «ك،ط»: «حصلت».

عبوديته باسمه «الظاهر الباطن»[1] فهذا هو العارف الجامع لمتفرقات التعبد ظاهرًا وباطنًا.

فعبوديته باسمه «الأوَّل» تقتضي التجردَ من مطالعة الأسباب والوقوف عندها[2] والالتفات إليها، وتجريدَ النظرِ إلى مجرد سبق فضله ورحمته وأنَّه هو المبتدىء بالإحسان من غير وسيلة من العبد، إذ لا وسيلة له في العدم قبل وجوده، وأي وسيلة كانت هناك! وإنَّما هو عدم محض، وقد أتى عليه حين من الدهر لم يكن شيئا مذكورًا. فمنه الإعداد، ومنه الإمداد، وفضله سابق على الوسائل، والوسائل من مجرد فضله وجوده لم تكن بوسائل أخرىٰ، فمن نزَّل اسمه الأوَّل على هذا المعنىٰ أوجبَ له ذلك[3] فقرًا خاصًّا وعبودية خاصَّة.

وعبوديته باسمه «الآخر» تقتضي أيضًا عدم ركونه ووثوقه بالأسباب والوقوف معها، فإنَّها تُعدَم[4] لا محالة، وتنقضي بالآخرية، ويبقىٰ الدائم الباقي بعدها. فالتعلق بها تعلُّقٌ بما يُعدَم وينقضي، والتعلق بالآخِر سبحانه تعلقٌ بالحي الذي لا يموتُ ولا يزول فالتعلُّق[5] به حقيق أن لا يزول، ولا ينقطع، بخلاف التعلّق بغيره مما له آخِرٌ يفنى به. فكما[6] نظرُ العارفِ إليه بسبق الأوليّة حيث كان قبل الأسباب كلها،

(١) «ن، ك، ط»: «والباطن».
(٢) «عندها»: ساقط من «ك، ط».
(٣) «ذلك» ساقط من «ك، ط».
(٤) «ط»: «تنعدم».
(٥) «ط»: «فالمتعلّق»، وهو خطأ.
(٦) «ط»: «كذا».

فكذلك[١] نظره إليه ببقاءِ الآخرّية حيث يبقى بعد الأسباب كلها. فكان الله ولم يكن شيءٌ غيره، وكلّ شيءٍ هالك إلاّ وجهه.

فتأمَّلْ عبوديّةَ هذين الاسمين وما يوجبانه من صحة الاضطرار إلى الله وحده ودوام الفقر إليه دون كلّ شيءٍ سواه، وأنّ الأمر ابتدأ منه وإليه يرجع، فهو المبتدىء بالفضل حيث لا سبب ولا وسيلة، وإليه ينتهي الأمر حيث[٢] تنتهي الأسباب والوسائل، فهو أول كل شيءٍ وآخره. وكما أنّه ربُّ كلِّ شيءٍ وفاعله وخالقه وبارئه، فهو إلهه وغايته التي لا صلاح له ولا فلاح ولا كمال إلاّ بأن يكون هو غايته وحده. كما أنّه لا وجود له إلاّ بكونه وحده هو ربّه وخالقه، فكذلك لا كمال له ولا صلاح إلاّ بكونه تعالى[٣] وحده هو غايته ونهاية مقصوده[٤].

فهو الأول الذي ابتدأت منه المخلوقات، والآخر الذي انتهت إليه عبودياتها[٥] وإرادتها[٦] ومحبتها، فليس وراءَ الله شيءٌ يُقصَد ويُعبَد ويُتألّه، كما أنه ليس قبله شيءٌ يَخلُق ويَبرأ. فكما كان واحدًا في إيجادك، فاجعله واحدًا في تألّهك وعبوديتك[٧]. وكما ابتدأ وجودك

---

(١) «ط»: «وكذلك».

(٢) «ينتهي الأمر حيث» ساقط من «ط».

(٣) من قوله «هو غايته وحده» إلى هنا ساقط من «ط».

(٤) «ط»: «نهايته ومقصوده».

(٥) «ك»: «عبوديتها».

(٦) «ن،ك،ط»: «إراداتها».

(٧) «ط»: «تألهك إليه لتصح عبوديتك»، وهو غلط ناشىء من السقط في بعض النسخ.

وخلقك منه، فاجعل[1] نهايةَ حبّك وإرادتك وتألّهك[2] إليه لتصحّ لك عبوديته باسمه الأول والآخر. وأكثر الخلق تعبّدوا له باسمه «الأول»، وإنّما الشأن في التعبد له باسمه «الآخر»، فهذه عبودية الرسل وأتباعهم، فهو ربّ العالمين وإلٰه المرسلين سبحانه وبحمده.

وأما عبوديته باسمه «الظاهر» كما[3] فسّره النبي ﷺ بقوله: «وأنت الظاهر فليس فوقك شيء، وأنت الباطن فليس دونك شيء»[4]. فإذا تحقق العبدُ علوَّه المطلق على كلّ شيءٍ بذاته، وأنّه ليس شيءٌ فوقه[5] البتة، وأنّه قاهر فوق عباده، يدبّر الأمر من السماءِ إلى الأرض ثم يعرج إليه ﴿إِلَيۡهِ يَصۡعَدُ ٱلۡكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلۡعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرۡفَعُهُۥۚ﴾[فاطر/ ١٠] صار لقلبه أَمَمًا يقصده، وربًّا يعبده، وإلهًا يتوجّه [٧/ب] إليه؛ بخلاف من لا يدري أين ربه، فإنّه ضائع مشتَّت القلب، ليس لقلبه قبلةٌ يتوجه نحوها، ولا معبود يتوجه إليه قصده.

وصاحب هذه الحال إذا سلك وتأله وتعبد طلب قلبُه إلهًا يسكن إليه ويتوجه إليه، وقد اعتقد أنَّه ليس فوق العرش شيء إلا العدم، وأنَّه ليس فوق العالم إله يُعبَد ويُصلَّى له ويُسْجَد، وأنَّه ليس على العرش مَن يصعد إليه الكلمُ الطيب ولا يُرفع إليه العملُ الصالحُ. جال قلبُه في الوجود

---

(١) «ك، ط»: «فاجعله»، وهو خطأ.

(٢) قوله «وعبوديتك» إلى هنا ساقط في «ك» «لانتقال النظر.

(٣) «ك، ط»: «فكما».

(٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، أخرجه مسلم في كتاب الذكر والدعاء (٢٧١٣).

(٥) «ك، ط»: «ليس فوقه شيء».

جميعِه فوقع في الاتحاد ولا بد، وتعلق قلبُه بالوجود المطلق الساري في المعيّنات، فاتخذه إلهَه[1] من دون الإله الحق[2]، وظن أنَّه قد وصل إلى عين الحقيقة! وإنَّما تأله وتعبد لمخلوق مثله، أو لخيالٍ[3] نَحَتَهُ بفكره واتخذه إلهًا من دون الله، وإلهُ الرسل وراءَ ذلك كله:

﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۖ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ۝٣ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا ۚ إِنَّهُۥ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ بِٱلْقِسْطِ ۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ۝٤ ﴾[يونس/ ٣ ـ ٤].

وقال تعالىٰ: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا شَفِيعٍ ۚ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ۝٤ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ۝٥ ذَٰلِكَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝٦ ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ۝٧ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ۝٨ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ ۖ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ۝٩ ﴾[السجدة/ ٤ ـ ٩].

فقد تعرَّف سبحانه إلى عباده بكلامه معرفةً لا يجحدها إلا من أنكره سبحانه، وإن زعم أنَّهُ مقرٌّ به.

---

(١) «ك، ط»: «فاتخذ إلهه».

(٢) «ك، ط»: «إله الحق»، وقد صحح في حاشية «ك».

(٣) «ط»: «ولخيال».

والمقصود أنَّ التعبد باسم[1] «الظاهر» يجمع القلبَ على المعبود، ويجعل له ربًّا يقصده، وصمدًا يصمُد إليه في حوائجه، وملجأً يلجأ إليه. فإذا استقرَّ ذلك في قلبه، وعرف ربه باسمه «الظاهر» استقامت له عبوديته، وصار له معقل وموئل يلجأ إليه، ويهرب إليه، ويفرُّ كل وقتٍ إليه.

وأمَّا تعبده باسمه «الباطن» فأمرٌ يضيق نطاق التعبير عن حقيقته، ويكِلّ اللسانُ عن وصفه، وتصطلم الإشارةُ إليه، وتجفو العبارة عنه؛ فإنَّه يستلزمُ معرفةً بريئةً من شوائب التعطيل، مخلَصةً من فرْث التشبيه[2]، منزَّهةً عن رجس الحلول والاتحاد؛ وعبارةً مؤدية للمعنىٰ كاشفةً عنه، وذوقًا صحيحًا، سليمًا من أذواق أهل الانحراف. فمن رُزِقَ هذا فهِمَ معنىٰ اسمه «الباطن»، وصحَّ له التعبد به.

وسبحان الله كم زلَّت في هذا المقام أقدام، وضلَّت فيه أفهام! وتكلَّم فيه الزنديق بلسان الصدِّيق، واشتبه فيه إخوان النصارىٰ بالحنفاء المخلصين، لِنُبوِّ الأفهام عنه، وعزَّةِ تخلّص الحقِّ من الباطل فيه، والتباس ما في الذهن بما في الخارج إلا على من رزقه الله بصيرةً في الحقِّ، ونورًا يميز به بين الهدىٰ والضلال، وفرقانًا يفرِّق به[3] بين الحقِّ

(١) «ك، ط»: «باسمه»

(٢) هذا التعبير مأخوذ من قوله تعالى في سوره النحل ﴿نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّـٰرِبِينَ ۝٦٦﴾. وقد لهج به المصنف، فورد في غير موضع من كتبه. انظر مثلاً مقدمة النونية: (٤٢)، وبدائع الفوائد: (٢٩١)، ومدارج السالكين (٣: ١٢٢). وسيأتي مرة أخرى في هذا الكتاب في ص (٥٤). وانظر نحوه في قول الشاشي في نفح الطيب (٥: ٢٨٦).

(٣) «به» ساقطة من «ك، ط». وقد استدركت في القطرية.

والباطل؛ ورُزِقَ مع ذلك اطلاعًا على أسباب الخطأ، وتفرق الطرق، ومثار الغلط؛ فكان[1] له بصيرة في الحقِّ والباطل. وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم.

وباب هذه المعرفة والتعبد هو معرفة إحاطة الرب تبارك وتعالىٰ بالعالم وعظمته، وأنَّ العوالم كلها في قبضته، وأنَّ السماوات السبع والأرضين السبع في يده كخردلة في يد العبد[2]، قال تعالىٰ: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِٱلنَّاسِ﴾[الإسراء: ٦٠]، وقال: ﴿وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطٌۢ ۝٢٠﴾[البروج/ ٢٠].

ولهذا يقرن سبحانه بين هذين الاسمين الدالّين [٨/أ] على هذين المعنيين: اسم العلوّ الدالّ على أنَّهُ الظاهر وأنَّهُ لا شيء فوقه، واسم العظمة الدالّ على الإحاطة وأنَّهُ لا شيء دونه، كما قال تعالىٰ: ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْعَظِيمُ ۝٢٥٥﴾[البقرة/ ٢٥٥، الشورى/ ٤]، وقال: ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ ۝٢٣﴾[سبأ/ ٢٣]، وقال: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ۝١١٥﴾[البقرة/ ١١٥][3].

وهو تبارك وتعالىٰ كما أنَّه العالي على خلقه بذاته فليس فوقه شيء، فهوالباطن بذاته فليس دونه شيء، بل ظهرَ على كلِّ شيء وكان[4] فوقه،

---

(١) «ط»: «وكان».

(٢) يشير إلى قول ابن عباس: «ما السماوات السبع والأرضون السبع وما فيهما في يد الله إلا كخردلة في يد أحدكم» وقد أخرجه الطبري في تفسيره (٢٠/٢٤٦).

(٣) وانظر الصواعق: (١٣٦٥).

(٤) «ك»: «وهو فوقه». «ن»: «فكان»، وكذا في «ط».

وبطَن فكان أقرب إلى كلِّ شيء من نفسه، وهو محيط به حيث لا يحيط الشيء بنفسه، وكل شيء في قبضته، وليس[1] في قبضة نفسه، فهذا **قرب الإحاطة العامة**[2].

وأما القرب المذكور في القرآن والسنة فقربٌ خاصٌّ من عابديه وسائليه وداعيه، وهو من ثمرة التعبد باسمه «الباطن»، قال الله تعالىٰ: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴾ [البقرة/ ١٨٦]، فهذا قربه من داعيه.

وقال تعالىٰ: ﴿ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [الأعراف/ ٥٦] فذكَّر[3] الخبر ـ وهو «قريب» ـ عن لفظ «الرحمة» وهي مؤنثة إيذانًا بقربه تعالىٰ من المحسن[4]، فكأنَّهُ قال: إنَّ الله برحمته قريبٌ من المحسنين[5].

وفي الصحيح عن النبي ﷺ[6]: «أقرب ما يكون العبد من ربِّه وهو ساجد»[7] و«أقرب ما يكون الرب من عبده في جوف الليل»[8]، فهذا

---

(١) «ط»: «وليس شيء».
(٢) «ط»: «أقرب للإحاطة العامة»، غلط.
(٣) في الأصل: «فوحد»، وهو سهو، وكذا في «ف، ن».
(٤) «ك، ط»: «المحسنين».
(٥) وانظر كلامًا مستفيضًا للمؤلف على هذه المسألة في بدائع الفوائد (٨٦٢ ـ ٨٨٩). وانظر أيضًا: رسالتي الروذراوري وابن مالك (ط سليمان العايد) ورسالة ابن هشام (ط الحموز).
(٦) زاد في «ط»: «قال».
(٧) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه. أخرجه مسلم في كتاب الصلاة (٤٨٢).
(٨) أخرجه الترمذي (٣٥٧٩)، والنسائي (٥٧٢)، وابن خزيمة في صحيحه (١١٤٧)، والحاكم في المستدرك (١/ ٤٥٣) (١١٦٢) وغيرهم. قال الترمذي: =

قربٌ خاصٌّ غير قرب الإحاطة وقرب البطون.

وفي الصحيح من حديث أبي موسىٰ أنَّهم كانوا مع النبي ﷺ في سفر، فارتفعت أصواتهم بالتكبير فقال: «أيها النَّاس اربعوا على أنفسكم، فإنَّكم لا تدعون أصمَّ ولا غائبًا، إنَّ الذي تدعونه سميعٌ قريبٌ، أقرب إلى أحدكم من عُنُق راحلته»[(١)]، فهذا قربه من داعيه وذاكره، يعني: فأيُّ حاجة بكم إلى رفع الأصوات، وهو لقربه يسمعها، وإن خفضت، كما يسمعها إذا رفعت، فإنَّه سميع قريب؟

وهذا القرب هو من لوازم المحبة، فكلَّما كان الحب أعظم كان القرب أكثر[(٢)]. وقد يستولي[(٣)] محبة المحبوب على قلب محبه بحيث يفنى بها عن غيره، ويغلب محبوبه على قلبه حتَّىٰ كأنَّهُ يراه ويشاهده. فإنْ[(٤)] لم يكن عنده معرفة صحيحة بالله وما يجب له ويستحيل[(٥)] عليه، وإلا[(٦)] طرق بابَ الحلول إن لم يلِجْه. وسببه ضعف تمييزه، وقوة

= «حسن صحيح غريب من هذا الوجه». والحديث صححه ابن خزيمة والحاكم، ولم يتعقبه الذهبي (ز).

(١) من حديث أبي موسىٰ الأشعري رضي الله عنه، أخرجه البخاري في كتاب الجهاد (٢٩٩٢) وغيره.

(٢) وانظر: المدارج (٢/ ٣٠٥)، والبدائع (٣/ ٨٤٥)، ومجموع الفتاوى (١٥/ ١٧).

(٣) كذا في الأصل بالياء. وفي «ك،ط»: «وقد استولت».

(٤) «ك»: «فإذا».

(٥) «ط»: «وما يستحيل».

(٦) وقعت «إلا» هنا في غير موقعها، ولا يستقيم المعنىٰ إلا بحذفها، ولعلَّه من الأخطاء الشائعة في زمن المصنف، فقد تكرَّر في كتبه وكتب شيخه. انظر مثلاً =

سلطان المحبة، واستيلاء المحبوب على قلبه بحيث يغيب عن ملاحظة سواه[1]، وفي مثل هذه الحال يقول: «سبحاني» أو«ما في الجبة إلا الله»[2]، ونحو هذا من الشطحات التي نهايتها أن تُغفرَ[3] له ويُعذر لسكره وعدم تمييزه في تلك الحال.

فالتعبد بهذا الاسم هو التعبد بخالص المحبة وصفو الوداد، وأن يكون الإله سبحانه أقرب إليه من كلِّ شيء وأقرب إليه من نفسه، مع كونه ظاهرًا ليس فوقه شيء.

ومن كثُفَ ذهنُه وغلُظ طبعُه عن فهمِ هذا فليضرِبْ عنه صفحًا إلى ماهو أولىٰ به[4]، فقد قيل:

إذا لم تستطع شيئًا فدعه ... وجاوِزْه إلى ما تستطيع[5]

فمن لم يكن له ذوقٌ مِن قرب المحبة، ومعرفةٌ بقرب المحبوب من محبّه غاية القرب، وإنْ كان بينهما غايةُ المسافة ـ ولاسيما إذا كانت المحبة من الطرفين، وهي محبة بريئة من العلل والشوائب والأعراض القادحة فيها ـ فإنَّ المحبَّ كثيرًا ما يستولي محبوبه على قلبه وذكره،

= هذا الكتاب ص (٢٢٧، ٢٢٨)، والداء والدواء (٢٣٩)، وشفاء العليل (١٩٨)، وجامع المسائل (١/ ٩٢، ١٧١) و(٢/ ٢٠٢)، ومجموع الفتاوى (١١/ ٢٧).

(١) «ط»: «ماسواه». وانظر: الوابل الصيب (١٥٩).

(٢) تنسب هذه الكلمات إلى أبي يزيد البسطامي (٢٦١هـ) انظر مجموع الفتاوى (٨/ ٣١٣)، وسير أعلام النبلاء (١٣/ ٨٨).

(٣) «ك، ط»: «يغفر».

(٤) «به» ساقط من«ك»، وبعده فيها: «وقد قيل».

(٥) البيت لعمرو بن معديكرب في مجموع شعره (١٤٥).

ويفنىٰ عن غيره، ويرِقّ قلبه وتتجرَّد نفسه، [٨/ب] فيشاهد محبوبه كالحاضر معه القريب إليه، وبينهما من البعد ما بينهما. وفي هذا[١] الحال يكون في قلبه وجودُه العلمي، وفي لسانه وجودُه اللفظي، فيستولي هذا الشهودُ عليه ويغيبُ به، فيظن أنَّ في عينه[٢] وجودَه الخارجي، لِغلبة حكم القلب والروح، كما قيل:

خيالُك في عيني، وذكرُكَ في فمي   ومثواكَ في قلبي، فأين تغيب![٣]

هذا، ويكون ذلك المحبوب بعينه بينه وبين عدوه من البعد ما بينهما[٤]، وإن قربت الأبدانُ وتلاصقت الديارُ. والمقصودُ أنَّ المثال العلمي غير الحقيقة الخارجية وإن كان مطابقًا لها، لكنّ المثال العلمي محلُّه القلب، والحقيقة الخارجيَّة محلُّها الخارج.

فمعرفة هذه[٥] الأسماء الأربعة ـ وهي: الأوَّل، والآخر، والظاهر والباطن ـ هي أركان العلم والمعرفة، فحقيق بالعبد أن يبلغ في معرفتها إلى حيث ينتهي به قواه وفهمه.

واعلم أنَّ لك أنت أوَّلاً وآخرًا وباطنًا وظاهرًا[٦]، بل كلُّ شي فله أوَّل

---

(١) «ك، ط»: «هذه».
(٢) «ف»: «غيبة»، تصحيف.
(٣) أنشده المصنف في روضة المحبين (١٠٠)، والداء والدواء (٢٨٥)، ومع بيت آخر في المفتاح (١/ ٤٣٨)، وهو لأبي الحكم ابن غَلِندو الإشبيلي الطبيب الشاعر (٥٨١ أو ٥٨٧هـ). انظر: معجم الأدباء (١١٩٤).
(٤) «ك»: «مابينها من البعد». ط: «ومابينهما..».
(٥) «هذه» ساقط من «ط» ومستدرك في القطرية.
(٦) «ك، ط»: «ظاهرًا وباطنًا».

وآخر وظاهر وباطن، حتَّىٰ الخطرة واللحظة والنفس، وأدنىٰ من ذلك وأكبر[١]. فأوَّلية الله عزَّوجلَّ سابقةٌ على أولية كلِّ ماسواه، وآخريته ثابتةٌ بعد آخريةِ كلِّ ماسواه. فأوليته سبقُه لكل شيء، وآخريته بقاؤه بعد كلِّ شيء. وظاهريتُه سبحانه فوقيته وعلوُّه على كلِّ شيء، ومعنى الظهور يقتضي العلو، وظاهر الشيء هو ما علا منه وأحاط بباطنه. وبطونُه سبحانه إحاطته بكلِّ شيء، وبحيث يكون أقرب إليه من نفسه، وهذا قرب غير قرب المحب من حبيبه. هذا لون، وهذا لون.

فمدار هذه الأسماء الأربعة على الإحاطة، وهي إحاطتان: زمانية ومكانية، فأحاطت[٢] أوليتُه وآخريتُه بالقبل والبعد، فكلُّ سابق انتهىٰ إلى أوليته، وكلُّ آخر انتهىٰ إلى آخريته؛ فأحاطت أوليته وآخريته بالأوائل والأواخر. وأحاطت ظاهريته وباطنيته بكلِّ ظاهر وباطن، فما من ظاهر إلا الله فوقه، وما من باطن إلا والله دونه، وما من أوَّل إلا والله[٣] قبله، وما من آخر إلا والله بعده: فالأوَّل قِدَمه، والآخِر دوامه وبقاؤه، والظاهر علوه وعظمته، والباطن قربه ودنوه.

فسبق كلَّ شيء بأوليته، وبقي بعد كل شيء بآخريته، وعلا على كلِّ شيء بظهوره، ودنا من كلِّ شيء ببطونه. فلا تواري منه سماءٌ سماءً ولا أرضٌ أرضًا، ولا يحجب عنه ظاهرٌ باطنًا، بل الباطن له ظاهر، والغيب عنده شهادة، والبعيد منه قريب، والسرُّ عنده علانية.

فهذه الأسماء الأربعة تشتمل على أركان التوحيد، فهو الأوَّل في

---

(١) «ن، ك، ط»: «أكثر».

(٢) «ك، ط»: «فإحاطة»، خطأ.

(٣) «ك»: «فالله».

آخريته، والآخِر في أوليته، والظاهر في بطونه، والباطن في ظهوره، لم يزل أوَّلاً وآخرًا وظاهرًا وباطنًا.

والتعبد بهذه الأسماء له[١] رتبتان:

الرتبة الأولىٰ: أن يَشهدَ[٢] الأوليةَ منه تعالىٰ في كل شيء، والآخريةَ بعد كل شيء، والعلوَّ والفوقية فوق كل شيء، والقربَ والدنوَّ دون كل شيء. فالمخلوق يحجبه مثلُه عمَّا هو دونه، فيصير الحاجب بينه وبين المحجوب؛ والربُّ جلَّ جلاله ليس دونه شيء هو[٣] أقرب إلى الخلق منه.

والمرتبة الثانية من التعبد: أن يعامل كلَّ اسم بمقتضاه، فيعامل سبقه تعالىٰ بأوليته لكل شيء، وسَبْقَه بفضله وإحسانه الأسبابَ كلَّها، بما يقتضيه ذلك من إفراده، وعدم الالتفات إلى غيره، والوثوق بسواه والتوكل على غيره. فمن[٤] الذي شفع لك في الأزل حيث لم تكن شيئًا مذكورًا حتَّىٰ سمَّاك باسم الإسلام، [٩/أ] ووسمك بسمة الإيمان، وجعلك من أهل قبضة اليمين، وأقطعك في ذلك الغيب عِمالاتِ[٥] المؤمنين، فعصمك عن العبادة للعبيد، وأعتقك عن[٦] التزام الرق لمن له شكل ونديد؟ ثمَّ وجَّه وجهةَ قلبِك إليه تبارك وتعالىٰ دون ما سواه.

---

(١) «له» ساقط من «ط».

(٢) «ك، ط»: «تشهد».

(٣) «هو» ساقط من «ك، ط».

(٤) «ك، ط»: «من ذا».

(٥) أقطع فلانًا أرضًا: أعطاه إياها تمليكًا أو للانتفاع بها. والعمالة: أجرة العامل، والإمارة والولاية.

(٦) «ك، ط»: «مِن».

فاضرع إلى الذي عصمك من السجود للصنم، وقضىٰ لك بقدم الصدق في القِدَم، أن يُتِمَّ عليك نعمةً هو ابتدأها، وكانت أوليتُها منه بلا سبب منك. واسْمُ بهمتك عن ملاحظة الأغيار[1]، ولا تركن[2] إلى الرسوم والآثار، ولا تقنع بالخسيس الدون. وعليك بالمطالب العالية والمراتب السامية التي لا تنال إلا بطاعة الله، فإنَّ الله عزَّوجلَّ قضىٰ أن لا ينالَ ما عنده إلا بطاعته. ومن كان لله كما يريد كان الله له فوق ما يريد، فمن أقبل إليه تلقَّاه من بعيد، ومن تصرّف بحوله وقوّته ألان له الحديد، ومن ترك لأجله أعطاه فوق المزيد، ومن أراد مراده الديني أراد ما يريد.

ثمَّ اسمُ بسرِّك إلى المطلب الأعلىٰ، واقصُرْ حبَّك وتقربك على من سبق فضلُه وإحسانهُ إليك كلَّ سبب منك، بل هو الذي جاد عليك بالأسباب، وهيأها لك[3]، وصرف عنك موانعها، وأوصلك بها إلى غايتك المحمودة. فتوكَّلْ عليه وحده، وعامِلْه وحده، وآثِرْ مرضاتَه[4] وحده، واجعل حُبَّه ومرضاته هو كعبة قلبك التي لا تزال طائفًا بها، مستلمًا لأركانها، واقفًا بملتزمها. فيا فوزك ويا سعادتك إن اطَّلع سبحانه على ذلك من قلبك، ماذا يفيض عليك من ملابس نعمه وخِلَع أفضاله! «اللَّهم لا مانعَ لما أعطيتَ ولا معطي لما منعتَ، ولا ينفع ذا الجَدِّ منك الجَدُّ»[5]، سبحانَك وبحمدِك.

---

(١) «ط»: «الاختيار». وكذا كان في «ك»، فأصلحه بعض القراء.

(٢) «ك، ط»: «ولا تركنن».

(٣) «ط»: «وهيأ لك».

(٤) «ك، ط»: «رضاه».

(٥) من حديث سيأتي في ص(٤٤٣).

ثمَّ تعبَّدْ له باسمه «الآخر» بأن تجعله وحده غايتك التي لا غاية لك سواه، ولا مطلوب لك وراءَه. فكما انتهت إليه الأواخر، وكان بعدَ كل آخِر، فكذلك اجعل نهايتك إليه، فإنَّ إلى ربِّك المنتهىٰ، إليه انتهت الأسباب والغايات، فليس وراءه مرمى ينتهى إليه. وقد تقدم التنبيه على ذلك وعلى التعبد باسمه «الظاهر».

وأمَّا التعبد باسمه «الباطن» فإذا شهدتَ إحاطته بالعوالم، وقربَ البعيد[1] منه، وظهورَ البواطن له، وبدوَّ السرائر له[2]، وأنَّه لا شيء بينه وبينها، فعامِلْه بمقتضىٰ هذا الشهود، وطهِّر له سريرتك، فإنَّها عنده علانية؛ وأصلِحْ له غيبَك، فإنَّه عنده شهادة؛ وزكِّ له باطنك، فإنَّه عنده ظاهر.

فانظر كيف كانت هذه الأسماء الأربعةُ جِمَاعَ المعرفة بالله، وجِماع العبودية له. فهنا وقفَتْ شهادةُ العبدِ مع فضل خالقه ومنته، فلا يرىٰ لغيره شيئًا إلا به وبحوله وقوَّته؛ وغاب بفضل مولاه الحق عن جميع ما منه هو ممَّا كان يستند إليه، أويتحلَّىٰ به، أويتخذه عُقدة[3]، أويراه ليوم فاقته، أويعتمد عليه في مهمَّة من مهمَّاته. فكلُّ ذلك من قصورِ نظرِه وانعكاسِه عن الحقائق والأصول إلى الأسباب والفروع، كماهو شأن الطبيعة والهوىٰ، وموجَب الظلم والجهل، والإنسان ظلومٌ جهول.

فمن جلَّىٰ الله سبحانه صدأَ بصيرته، وكمَّل فطرته، وأوقفه على مبادئ الأمور وغاياتها ومناطها ومصادرها ومواردها، أصبح

---

(١) «ك، ط»: «العبيد».

(٢) «له» ساقط من «ك، ط».

(٣) «ف»: «عقده»، وكذا في «ط». وفي «ك»: «عمده». ولعلَّ الصواب ما أثبتنا، والعقدة هي المال الذي يقتنيه المرء.

كالمفلس[1] حقًّا من علومه وأعماله وأحواله وأذواقه. يقول: أستغفر الله من علمي ومن عملي، أي من انتسابي إليهما وغيبتي[2] بهما عن فضل من ذكَرني بهما، وابتدأني بإعطائهما، من غير تقدُّم سبب منِّي يُوجبُ ذلك. فهو لا يشهد غير فضل مولاه وسبقِ مِنّته ودوامها[3]، فيثيبه مولاه على هذه الشهادة العالية[4] بحقيقة الفقر الأوسط بين الفقرين الأدنىٰ والأعلىٰ ثوابَين:

أحدهما: الخلاصُ من رؤية الأعمال حيث كان يراها، ويمتدح بها، ويستكثرها؛ فيستغرق بمطالعة الفضل غائبًا عنها، ذاهبًا عنها، [٩/ب] فانيًا عن رؤيتها.

الثواب الثاني: أن يقطعه عن شهود الأحوال ـ أي عن شهود نفسه فيها متكثرةً بها ـ فإنَّ الحالَ محلُّه الصدر، والصدر بيت القلب والنفس، فإذا نزل العطاءُ في الصدر للقلب[5] وَثَبَتْ[6] النفسُ لتأخذَ نصيبها من العطاء، فتتمدح به، وتُدِلُّ به، وتزهو، وتستطيل، وتقرِّر إنِّيَّتها، لأنَّها جاهلة ظالمة، وهذا مقتضىٰ الجهل والظلم. فإذا وصلَ إلى القلبِ نورُ صفة المِنَّة، وشهد معنىٰ اسمه «المنَّان»، وتجلَّىٰ سبحانه على قلب عبده بهذا الاسم مع اسمه «الأوَّل» ذَهَلَ القلبُ والنفسُ به، وصار العبدُ فقيرًا

(١) «ك، ط»: «كمفلس».
(٢) الأصل غير منقوط، وقراءة «ف»: «غنيتي»، والمثبت من غيرها.
(٣) «ك، ط»: «دوامه».
(٤) «ف»: «الغالبة لحقيقة»، تصحيف.
(٥) «ف»: «انقلب»، تحريف.
(٦) «ط»: «ثبتت»، تحريف.

إلى مولاه بمطالعة سبق فضله الأوَّل، فصارَ مقطوعًا عن شهود أمرٍ أو حالٍ ينسبه إلى نفسه، بحيث يكون بشهادته لحاله مفصومًا مقطوعًا عن رؤية عزةِ مولاه وفاطِرِه وملاحظة صفاته. فصاحب شهود الأحوال منقطع عن رؤية منَّة خالقِه وفضلِه، ومشاهدة سبق الأولية للأسباب كلها؛ وغائب بمشاهدة عزَّة نفسه عن عزَّة مولاه. فينعكس هذا الأمر في حقِّ هذا العبد الفقير، وتشغله رؤيةُ عزَّةِ مولاه ومنّته ومشاهدةُ سبقِه بالأولية عن حالٍ يعتزُّ بها العبد أو يشرُف بها.

وكذلك الرجوعُ إلى السبق بمطالعة الفضل يمحِّصُ من أدناس مطالعات المقامات، فـ«المقام» ما كان راسخًا فيه، «والحال» ما كان عارضًا لا يدوم. فمطالعاتُ المقامات[1]، وتشرُّفُه[2] بها، وكونُه يرىٰ نفسَه صاحبَ مقام قد حقَّقه وكمَّله، فاستحقَّ أن ينسب إليه، ويوصف به، مثل أن يقال: زاهدٌ صابرٌ خائفٌ راجٍ محبٌّ راضٍ = فكونُه يرىٰ نفسَه مستحقًّا بأن تضاف المقاماتُ إليه وبأن يوصَف بها ـ على وجه الاستحقاق لها ـ خروجٌ عن الفقر إلى الغنىٰ، وتعدٍّ لطور العبودية، وجَهلٌ بحقِّ الربوبية.

فالرجوع إلى السبق بمطالعة الفضل يستغرقُ همة العبد، ويمحّصُه، ويُطهّره[3] من مثل هذه الأدناس، فيصير مصفًّى بنور الله عن رذائل هذه الأرجاس.

---

(١) «ك، ط»: «المقامة»، ثمَّ أصلحها بعضهم في «ك».

(٢) «ط»: «تشوفه».

(٣) «ف»: «تستغرق. . . تمحصه وتطهره» تصحيف.

[تفسير الدرجة الثالثة من الفقر]

قوله: «والدرجة الثالثة صحةُ الاضطرار، والوقوعُ في يدِ التقطع الوحداني، والاحتباسُ في قيد(١) التجريد، وهذا فقر الصوفية».

هذه(٢) الدرجة فوق الدرجتين السابقتين عند أرباب السلوك، وهي الغاية التي شمَّروا إليها وحاموا حولها. فإنَّ الفقر الأوَّل فقرٌ عن الأعراض الدنياوية(٣)، والفقر الثاني فقرٌ عن رؤية المقامات والأحوال، وهذا الفقر الثالث فقرٌ عن ملاحظة الوجود(٤) الساتر للعبد عن مشاهدة الموجود(٥)، فيبقىٰ الوجودُ الحادثُ(٦) في قبضة الحق عزَّوجلَّ كالهباء المنثور في الهواءِ، يتقلَّب بتقليبه إيَّاهُ، ويصير(٧) في شاهد العبد كما هو في الخارج. فتمحو رؤيةُ التوحيد عن العبد شواهدَ استبدادِه واستقلاله بأمر من الأمور، ولو في النفس واللمحة والطرفة والهمة والخاطر والوسوسة، إلا بإرادة المريد الحق سبحانه وتدبيره وتقديره ومشيئته. فيبقىٰ العبد كالكرة الملقاة بين صَولَجَانات القضاء والقدر، تُقلِّبها كيف

---

(١) «ط»: «في بيداء قيد». والظاهر أنَّ كلمة «بيداء» زيادة الناشر من مدارج السالكين. ولكن نسخة منازل السائرين التي ينقل المؤلف منها في هذا الكتاب تختلف عن نسخته التي كانت بين يديه عند تأليف المدارج.

(٢) «ك»: «وهذه».

(٣) «ط»: «الدنيوية».

(٤) «ك، ط»: «الموجود».

(٥) كذا قرأت الأصل، وفي «ف» وغيرها: «الوجود».

(٦) رسم الكلمة في الأصل غير واضح، وكتب في حاشيته: «ظ»، وكتب ناسخ «ف» في الحاشية: «كذا». وفي «ن»: «الحالي»، وفي حاشيتها: «كذا».

(٧) «ط»: «يسير» تحريف.

شاءَت، بصحةِ شهادة قيومية من له الخلقُ والأمرُ، وتفرّدِه بذلك دون ماسواه.

وهذا الأمر لا يُدْرَك بمجرَّد العلم، ولا يعرفه إلا من تحقَّق به، أو لاح له منه بارق. وربما ذَهَلَ صاحبُ هذا المشهد عن الشعور بوجوده لِغلبة شهود وجود القيوم عليه، فهناك يصحُّ من مثل هذا العبد الاضطرار إلى الحي القيوم، ويشهد[1] في كلِّ ذرَّة من ذرَّاته الظاهرة والباطنة فقرًا تامًّا إليه، من جهة كونه ربًّا، ومن جهة كونه إلهًا معبودًا لا غنىٰ له عنه، كما لا وجود له بغيره. فهذا هو الفقر الأعلىٰ الذي دارت عليه رحى القوم، بل هو قطب تلك الرحىٰ.

وإنَّما يصحّ له هذا بمعرفتين لا بد منهما: معرفة حقيقة [١٠/أ] الربوبية والإلهية، ومعرفة حقيقة النفس والعبودية، فهنالك تتم له معرفة هذا الفقر. فإن أعطىٰ هاتين المعرفتين حقَّهما من العبودية اتَّصف بهذا الفقر حالاً، فما أغناهُ حينئذٍ من فقير! وما أعزَّه من ذليل! وما أقواهُ من ضعيف! وما آنسه من وحيد! فهو الغنيُّ بلا مال، القوي[2] بلا سلطان، العزيز بلا عشيرة، المكفيّ[3] بلا عتاد! قد قرَّت عينه بالله، فقرَّت به كلُّ عين؛ واستغنىٰ بالله، فافتقر إليه الأغنياء والملوك.

ولا يتمُّ له ذلك إلا بالبراءة من فَرْث الجبر ودَمِهِ[4]، فإنَّه إن طرق بابَ الجبر انحلَّ عنه نظامُ العبودية، وخلع ربقةَ الإسلام من عنقه، وشهد

---

(١) «ط»: «شهد».

(٢) تحته في «ف» بخط مختلف: «الغالب» مع علامة «صح».

(٣) «ف»: «المكتفي». أخطأ في القراءة وكتب في الحاشية: «ظ» أي انظر.

(٤) انظر ما سلف عن هذا التعبير في ص(٤١).

أفعالَه كلَّها طاعات للحكم القدري الكوني، وأنشد:

أصبحتُ منفعلاً لما يختارهُ   منِّي، ففعلي كلُّه طاعاتُ[1]

وإذا[2] قيل له: اتَّقِ الله ولا تعصِه، يقول: إن كنتُ عاصيًا لأمره فأنا مطيع لحكمه وإرادته![3] فهذا منسلخ من[4] الشرائع، بريءٌ من دعوة الرسل، شقيقٌ لعدوِّ الله إبليس.

بل وظيفةُ الفقير في هذا الموضع وفي هذه الضرورة مشاهدةُ الأمر والشرع، ورؤيةُ قيامِه بالأفعال وصدورِها منه كسبًا واختيارًا، وتعلُّقِ الأمرِ والنهي بها طلبًا وتركًا، وترتُّبِ الذم والمدح عليها شرعًا وعقلاً، وتعلُّقِ الثواب والعقاب بها آجلاً وعاجلاً.

فمتىٰ اجتمع له هذا الشهودُ الصحيحُ إلى شهود الاضطرار في حركاته وسكناته، والفاقةِ التامةِ إلى مقلِّب القلوب ومن بيده أزمّة الاختيار ومن إذا شاء وجب وجوده، وإذا لم يشأ امتنع وجوده، وأنَّه لا هادي لمن أضلَّه، ولا مضل لمن هداه، وأنَّه هو الذي يحرك القلوبَ بالإرادات،

---

(١) سيأتي البيت أيضًا في ص (٣٥١، ٦٥٠)، وهو لابن إسرائيل محمد بن سوَّار الشاعر الصوفي الدمشقي (٦٧٧هـ). أنشده له شيخ الإسلام في مجموع الفتاوى (٨/ ٢٥٧). وانظر أيضًا (١١/ ٢٤٥)، ومنهاج السنة (٣/ ٢٥)، والمدارج (١/ ٢٣١، ٢٦٢، ٣٠٥) و (٢: ٢٣٣)، وشفاء العليل (١٩، ٤٠).

(٢) «ط»: «إذ»، خطأ.

(٣) سيذكر المصنف هذا القول مرة أخرى في (١٨٢، ٣٥٠، ٦٥٠). وانظر شفاء العليل: (٤٠). ونسبه شيخ الإسلام في الفتاوى (٨/ ٢٥٧) إلى بعض أصحاب علي بن حسين الحريري (٦٤٥هـ).

(٤) «ك»: «عن».

والجوارحَ بالأعمال، وأنَّها مدبَّرةٌ تحت تسخيره مذلَّلةٌ تحت قهره، وأنَّها أعجز وأضعفُ[1] أن تتحرك بدون مشيئته، وأنَّ مشيئتَه نافذةٌ فيها كما هي نافذة في حركات الأفلاك والمياه والأشجار، وأنَّه حرَّك كلًّا منها بسببٍ اقتضىٰ تحريكه، وهو خالق السبب المقتضي، وخالقُ السبب خالقٌ للمسبَّب، فخالقُ الإرادة الحادثةِ[2] التي هي سببُ الحركة والفعل الاختياري خالقٌ لهما، وحدوثُ الإرادة بلا خالقٍ مُحدِثٍ محالٌ، وحدوثُها بالعبد بلا إرادة منه مُحالٌ، وإنْ كان بإرادة فإرادتُه للإرادة كذلك، ويستحيل هنا[3] التسلسل، فلا بُدَّ من فاعلٍ أوجدَ تلك الإرادة التي هي سبب الفعل. وهنا[4] يتحقَّق الفقرُ والفاقةُ والضرورةُ التامة إلى مالك الإرادات وربِّ القلوب ومصرِّفها كيف شاء، فما شاء أن يزيغه منها أزاغه، وماشاء أن يقيمه منها أقامه ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ ﴿٨﴾﴾[آل عمران/ ٨].

فهذا هو الفقرُ الصحيح المطابق للعقلِ والفطرة والشرع، ومن خرج عنه وانحرف إلى أحد الطرفين زاغ قلبه عن الهدىٰ، وعطَّل مُلْكَ الملِك الحقِّ وانفراده بالتصرف والربوبية عن أوامره وشرعه وثوابه وعقابه.

وحُكْمُ هذا الفقيرِ المضطرِّ إلى خالقه في كلِّ طرفة عين وكلِّ نفس أنَّه إن حُرِّك بطاعةٍ أونعمةٍ شكرها وقال: هذا من فضل الله ومنِّه وجوده، فله

---

(١) «ط»: «أضعف من أن».

(٢) «ك،ط»: «الجازمة»، تحريف.

(٣) كذا في الأصل و«ن». وفي «ف» وغيرها: «بها».

(٤) كذا في الأصل وغيره. وفي «ط»: «فهنا»، وهو مقتضى سياق الكلام الذي طال، فسياقه: «فمتى اجتمع له هذا الشهود... فهنا يتحقق الفقر».

الحمد، وإن حُرِّك بمبادىء معصيته صرخ، ولجأ[١]، واستغاث، وقال: «أعوذُ بك منك»[٢]، «يامقلّب القلوب ثَبِّت قلبي على دينك»[٣]، «يامصرِّف القلوب صرِّف قلبي على طاعتك»[٤].

فإن تمَّ تحريكه بالمعصية التجأ التجاءَ أسير قد أسره عدوُّه، وهو يعلم أنَّه لا خلاص له من أسره إلا بأن يفتكّه سيّدُه من الأسر، ففكاكه في يد سيِّده، ليس في يده منه [١٠/ب] شيء البتة، ولا يملك لنفسه ضرًّا ولا نفعًا ولا موتًا ولا حياةً ولا نشورًا؛ فهو في أسْر العدوِّ ناظرٌ إلى سيده، وهو قادر على تخليصه[٥]؛ قد اشتدَّت ضرورته إليه، وصار اعتمادُه كلُّه عليه. قال سهل[٦]: «إنَّما يكون الالتجاء على معرفة قدر[٧] الابتلاء». يعني[٨]: وعلى قدر معرفة[٩] الابتلاء تكون المعرفة بالمبتلي.

ومن عرف معنى[١٠] قوله[١١] ﷺ: «وأعوذ بك منك»[١٢]، وقام

---

(١) في «ك» فوق السطر: «إلى الله».
(٢) من حديث عائشة رضي الله عنها. أخرجه مسلم في كتاب الصلاة (٤٨٦).
(٣) تقدم في ص (١٧).
(٤) من حديث عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما. أخرجه مسلم في القدر (٢٦٥٤).
(٥) «على تخليصه» ساقط من «ك، ط».
(٦) هو سهل بن عبدالله التستري (٢٨٣هـ) من كبار الزهاد. طبقات الصوفية: (٢٠٦)، سير أعلام النبلاء (١٣/ ٣٣٠).
(٧) «قدر» ساقط من «ط».
(٨) «ك»: «حتى»، تحريف.
(٩) «معرفة» ساقط من «ك، ط».
(١٠) «معنى» ساقط من «ط».
(١١) «ف»: «قول النبي»، خلاف الأصل.
(١٢) مرّ آنفًا.

بهذه المعرفة شهودًا وذوقًا، وأعطاها حقَّها من العبودية، فهو الفقيرُ حقًّا. ومدار الفقر الصحيح على هذه الكلمة، فمن رُزِقَ فهمَها[1] فهِمَ سرَّ الفقر المحمدي. فهو سبحانه الذي ينجي من قضائه بقضائه، وهو الذي يعيذ من نفسه[2] بنفسه، وهو الذي يدفع ما منه بما منه. فالأمرُ كلّه له، والحكم كلّه له، والخلق كلّه له[3]. وماشاء كان، ومالم يشأ لم يكن، وماشاء لم يستطع أن يصرفه إلا مشيئتُه، ومالم يشأ لم يكن أن يجلبه إلا مشيئتُه. فلا يأتي بالحسنات إلا هو، ولا يذهب بالسيئات إلا هو، ولا يهدي لأحسن الأعمال والأخلاق إلا هو، ولا يصرف سيئها إلا هو. ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ﴾[يونس/ ١٠٧].

والتحقُّق[4] بمعرفة هذا يوجب صحةَ الاضطرار وكمالَ الفقر والفاقة، ويحول بين العبد وبين رؤية أعماله وأحواله، والاستغناء بها، والخروج عن رِبقة[5] العبودية إلى دعوى ما ليس له. وكيف يدَّعي مع الله حالاً أوملكةً أو مقامًا مَن قلبُه وإراداتُه[6] وحركاتُه الظاهرةُ والباطنةُ بيد ربِّه ومليكه، لا يملك هو منها شيئًا، وإنَّما هي بيد مقلِّب القلوب ومصرِّفها كيف شاء[7]، فالإيمانُ بهذا والتحقق به نظام التوحيد،

(١) «ك»: «فمن فهم سرّها». «ط»: «. . سر هذا».

(٢) «ك، ط»: «يعيذ بنفسه من نفسه».

(٣) وقعت هذه الجملة في «ك، ط» قبل «والأمر كله له».

(٤) «ن»: «التحقيق»، خطأ.

(٥) «ط»: «رفقة»، تحريف.

(٦) «ك، ط»: «وإرادته».

(٧) «ك، ط»: «يشاء».

فمتىٰ[1] انحلَّ من القلب انحلَّ نظامُ التوحيد. فسبحان من لا يوصَل إليه إلا به، ولا يطاع إلا بمشيئته، ولا يُنال ماعنده من كرامته[2] إلا بطاعته، ولا سبيل إلى طاعته إلا بتوفيقه ومعونته. فعاد الأمرُ كلُّه إليه، كما ابتدأ الأمرُ كلُّه منه، فهو الأوَّل والآخر، وإنَّ إلى ربك المنتهىٰ.

ومن وصل إلى هذا الحال وقع في يد التقطع والتجريد، وأشرف على مقام التوحيد الخاصِّي. فإنَّ التوحيد نوعان: عامِّي وخاصِّي، كما أنَّ الصلاة نوعان، والذكر نوعان، وسائر القُرَب كذلك خاصِّيَّة وعامِّية. فالخاصِّيَّة مابذل فيها العاملُ نصحَه وقصدَه بحيث يوقعها على أحسن الوجوه وأكملها، والعامِّية ما لم يكن كذلك. فالمسلمون كلهم مشتركون في إتيانهم بشهادة أن لا إله إلا الله، وتفاوتُهم في معرفتهم بمضمون هذه الشهادة وقيامهم بحقِّها[3] باطنًا وظاهرًا أمرٌ لا يحصيه إلا الله عزَّوجلَّ.

وقد ظنَّ كثيرٌ من الصوفية أنَّ التوحيد الخاص[4] أن يشهد العبدُ المحرِّكَ له، ويغيبَ عن المتحرك وعن الحركة، فيغيبَ بشاهده[5] عن حركته، فيشهدَ[6] نفسَه شبحًا فانيًا تجري عليه[7] تصاريف المشيئة، كمن غرق في البحر فأمواجه ترفعُه طورًا وتخفضه طورًا، فهو غائب بها

(١) «ك، ط»: «ومتى».

(٢) «ك، ط»: «الكرامة».

(٣) «بحقها»: ساقط من «ط».

(٤) «ط»: «الخاصي».

(٥) «ط»: «بشهوده».

(٦) «ط»: «ويشهد».

(٧) «ك، ط»: «يجري على».

عن ملاحظة حركته في نفسه، بل قد اندرجت حركته في ضمن حركة الموج، فكأنَّه(١) لا حركة له بالحقيقة.

وهذا، وإن ظنَّه كثيرٌ من القوم غايةً، وظنَّه بعضهم لازمًا من لوازم التوحيد، فالصواب أنَّ وراءَه(٢) ما هو أجلُّ منه. وغاية هذا الفناءُ في توحيد الربوبية، وهو(٣) أن لا يشهد ربًّا وخالقًا ومدبِّرًا إلا الله، وهذا حق(٤)، ولكن توحيد الربوبية وحده لا يكفي في النجاة فضلاً عن أن يكون شهودُه والفناءُ فيه هو غاية الموحدين ونهاية مطلبهم.

بل الغاية(٥) التي لا غايةَ وراءها ولا نهاية بعدها الفناءُ في توحيد الإلاهية. وهو أن يفنىٰ بمحبة ربه عن محبة كل ما سواه، وبتألهه عن تأله ما سواه، [١١/أ] وبالشوق إليه وإلى لقائه عن الشوق إلى ما سواه، وبالذلِّ له والفقر إليه من جهة كونه معبودَه وإلهَه ومحبوبَه عن الذل والفقر(٦) إلى كلِّ ما سواه، وكذلك يفنى بخوفه ورجائه عن خوف ما سواه ورجائه. فيرىٰ أنَّه ليس في الوجود ما يصلح له ذلك إلا الله، ثمَّ يتصف بذلك حالاً(٧)، وينصبغ به قلبه صبغة، ثمَّ يفنىٰ بذلك عمَّا سواه. فهذا هو التوحيد الخاصّ(٨) الذي شمَّر إليه العارفون، والورد الصافي الذي حام

---

(١) «ك،ط»: «وكأنَّه».

(٢) «ط»: «من ورائه».

(٣) «ك»: «وهي».

(٤) «ك،ط»: «هو الحق».

(٥) «ط»: «فالغاية».

(٦) «الفقر» ساقط من «ك،ط»، ومستدرك في حاشية «ك».

(٧) «ك»: «تتصف بذلك حاله».

(٨) «ط»: «الخاصي».

حوله المحبون.

ومتىٰ وصل إليه العبدُ صار في يد التقطع والتجريد، واشتمل بلباس الفقر الحقيقي، ومزَّق[1] حبُّ الله من قلبه كلَّ محبَّة، وخوفُه كلَّ مخافة[2]، ورجاؤه كلَّ رجاءٍ، فصار حبُّه وخوفه ورجاؤه وذله وإيثاره وإرادته ومعاملته = كلُّ ذلك واحدًا[3] لواحدٍ، فلم ينقسم طلبُه ولا مطلوبُه. فتعددُ المطلوب وانقسامُه قادحٌ في التوحيد والإخلاص، وانقسامُ الطلب قادحٌ في الصدق والإرادة. فلا بدَّ من توحيد الطلب والإرادة، وتوحيد المطلوب المراد. فإذا غاب بمحبوبه عن حب غيره، وبمذكوره عن ذكر غيره، وبمألوهه عن تأله غيره، صارَ من أهل التوحيد الخاص[4]. وصاحبُه مجرَّدٌ عن ملاحظة سوىٰ محبوبه أو إيثاره أو معاملته أو خوفه أو رجائه. وصاحبُ توحيد الربوبية في قيد التجريد عن ملاحظة فاعلٍ غير الله، وهو مجردٌ عن ملاحظة وجوده هو، كما[5] كان صاحبُ الدرجة الأولىٰ مجرَّدًا عن أمواله، وصاحبُ الثانية مجرَّدًا عن أعماله وأحواله.

وصاحبُ[6] الفناءِ في توحيد الإلهية مجرَّدٌ عن سوىٰ مراضي محبوبه وأوامره، قد فني بحبه وابتغاء مرضاته عن حبِّ غيره وابتغاء مرضاته.

---

(١) «ك، ط»: «فرَّق».
(٢) «ك، ط»: «خوف».
(٣) «ط»: «واحد».
(٤) «ط»: «الخاصي».
(٥) «ك، ط»: «وهوكما».
(٦) «ط»: «فصاحب».

وهذا هو التجريد الذي سَمَتْ إليه هممُ السالكين. فمن تجرَّد عن ماله وحاله وكسبه وعلمه[١]، ثمَّ تجرَّد عن شهود تجريده، فهو المجرَّد عندهم حقًّا، وهذا هو[٢] تجريد القوم الذي عليه يحومون، وإياهُ يقصدون. ونهايته عندهم التجريد بفناء وجوده، وبقائه بموجوده، بحيث يفنىٰ من لم يكن، ويبقىٰ من لم يزل، ولا غاية عندهم وراءَ هذا.

ولعمرُ الله إنَّ وراءَه تجريدًا أكملَ منه، ونسبتهُ إليه كتَفْلة في بحرٍ، وشَعرةٍ في ظهر بعير. وهو تجريد الحبِّ والإرادة عن الشوائب والعلل والحظوظ، فيتوحد حبُّه كما توحَّد محبوبه، ويتجرَّد عن مراده من محبوبه بمراد محبوبه منه، بل يبقىٰ مرادُ محبوبه منه هو[٣] نفس مراده. وهنا يعقل الاتحاد الصحيح، وهو اتحاد المراد، فيكون عينُ مراد المحبوب هو عينَ مراد المحبِّ. وهذا هو غاية الموافقة وكمال العبودية، ولا تتجرَّد المحبة عن العلل والحظوظ التي تفسدها إلا بهذا. فالفرقُ بين محبَّة حظِّكَ ومرادك من المحبوب وأنَّك إنَّما تحبه لذلك، وبين[٤] محبَّة مراد المحبوب منك ومحبتك له لذاته وأنَّه أهل أن يُحَبَّ. وأمَّا الاتحاد في الإرادة فمحال، كما أنَّ الاتحاد في المريد محال، فالإرادتان متباينتان. وأمَّا مراد المحب والمحبوب إذا خلصت المحبة من العلل والحظوظ فواحد. فالفقر والتجريد والفناء من واد واحد.

---

(١) «ط»: «عمله».

(٢) «هو» ساقط من «ك، ط».

(٣) «ك»: «هو من نفس». «ط»: «محبوبه هو من نفس».

(٤) كلمة «بين» غير واضحة في الأصل فكتب في حاشيته: «ظ» أي انظر. وكذا في حاشية «ف».

وقد جعله صاحب «منازل السائرين» من قسم النهايات، وحدَّه بأنَّه «الانخلاع عن شهود الشواهد»، وجعله على ثلاث درجات: «الدرجة الأولىٰ: تجريد[1] الكشف عن كسب اليقين، والثانية: تجريد عين الجمع عن درك العلم، والثالثة: تجريد الخلاص من شهود التجريد»[2].

فقوله في الأولىٰ[3]: «تجريد الكشف عن كسب اليقين» يريد كشفَ الإيمان ومكافحته للقلب، وهذا وإن حصل باكتساب اليقين من أدلته وبراهينه، فالتجريد أن يشهد سبقَ الله تعالىٰ بمنته لكلِّ سبب يُنال به يقين أو إيمان[4]، فيتجرد[5] كشفُه لذلك عن ملاحظة سبب أو وسيلة، بل يقطع الأسباب والوسائل، وينتهي نظره إلى المسبب.

وهذا[6] إن أريد [به][7] تجريدُها عن كونها أسبابًا فتجريد باطل، وصاحبه ضال، وإن أريد به[8] تجريدُها عن الوقوف عندها، ورؤيةِ انتسابها إليه، وصدورِها منه، وأنَّ[9] اليقين إنَّما كان به وحده، فهذا

---

(١) «ك»: «درجة الكشف»، سهو. وفي مدارج السالكين (٣/ ٤٠٨) «تجريد عين الكشف»، وهي نسخة أخرى.

(٢) في الأصل: «شهود التدريج» سبق قلم. وكذا في «ف،ن». وانظر: منازل السائرين (١٠٨)، والمدارج (٣/ ٤٠٨).

(٣) «ف»: «الدرجة الأولى» خلاف الأصل.

(٤) «ط»: «اليقين أوالإيمان».

(٥) «ط»: «فيجرد».

(٦) «ط»: «وهذه».

(٧) زيادة يقتضيها السياق، ويدلُّ عليها ما يأتي.

(٨) «به» ساقط من «ن،ك،ط».

(٩) «ط»: «إليه وصيرورتها عنوان اليقين» ولعلَّه تحريف لما جاء في الأصل وغيره.

تجريد صحيح؛ ولكن على صاحبه إثباتُ الأسباب، فإن نفاها عن كونها أسبابًا فسدَ تجريدُه.

وقوله في الدرجة الثانية: «تجريد عين الجمع عن درك العلم». لمَّا كانت الدرجة الأولىٰ تجريدًا عن الكسب وانتهاءً إلى عين الجمع الذي هو الغَيبة[١] بتفرد الرب بالحكم عن إثبات وسيلة أو سبب، اقتضت تجريدًا آخر أكمل من الأوَّل، وهو تجريد هذا الجمع عن علم العبد به. فالأولىٰ تجريد عن رؤية السبب والفعل، والثانية تجريد عن العلم والإدراك. وهذا يقتضي أيضًا تجريدًا ثالثًا أكمل من الثاني وهو تجريد التخلص من شهود التجريد، وصاحب هذا التجريد الثالث في عين الجمع قد اجتمعت همته على الحقِّ، وشُغِلَ به عن ملاحظة جمعه وذكرِه وعلمِه به. قد استغرق ذلك قلبَه، فلا سعة فيه لشهود علمه بتجريده ولا شعوره به، فلا التفات له إلى تجريده؛ ولو بقيَ له التفاتٌ إليه لم يكمل تجريده.

ووراءَ[٢] هذا كلِّه تجريدٌ نسبةُ هذا التجريدِ إليه كشعرة من ظهر بعير[٣] إلى جُمْلته، وهو: تجريدُ الحبِّ والإرادة عن تعلقه بالسوىٰ، وتجريدُه عن العلل والشوائب والحظوظ التي هي مراد النفس؛ فيتجرد الطلب والحبُّ عن كلِّ تعلُّقٍ يخالف مراد المحبوب، فهذا تجريد الحنيفية. والله المستعان، وعليه التكلان، ولا حولَ ولا قوَّة إلا به.

---

(١) الأصل غير منقوط، وكذا في «ن». وفي «ف»: «العنية»، ويحتمل: «الغنية»، ورجحت قراءة «ك»، وكذا في«ط».

(٢) «ك»: «ووارى».

(٣) «ك»: «جمل».

فصل

[في الغنى وانقسامه إلى عالٍ وسافل]

ولمَّا كان الفقرُ إلى الله عزَّوجلَّ هو عينَ الغنىٰ به، فأفقرُ النَّاسِ إلى الله أغناهم به، وأذلُّهم له أعزُّهم، وأضعفهم بين يديه أقواهم، وأجهلُهم عند نفسِه أعلمُهم بالله، وأمقتهم لنفسه أقربُهم إلى مرضاة الله = كان ذكرُ الغنىٰ بالله مع الفقر إليه متلازمَين متناسبَين، فنذكر فصلاً نافعًا في الغنىٰ العالي.

واعلم أنَّ الغنىٰ على الحقيقة لا يكون إلا لله[1] الغني بذاته عن كلِّ ما سواه، وكلُّ ماسواه فموسومٌ بسِمَةِ الفقرِ، كما هو موسوم بسمة الخلق والصنع. فكما[2] أنَّ كونه مخلوقًا أمرٌ ذاتيٌّ له، فكونه فقيرًا أمرٌ ذاتيٌّ له، كما تقدم بيانه[3]. وغناهُ أمرٌ نسبيٌّ إضافيٌّ عارض له، فإنَّه إنَّما استغنى بأمر خارج عن ذاته، فهو غني به فقير إليه. ولا يُوصَف بالغنىٰ على الإطلاق إلا مَن غناهُ من لوازم ذاته، فهو[4] الغني بذاته عمَّا سواه، وهو الأحد الصمد الغني الحميد.

والغنىٰ قسمان: غنى سافل، وغنى عال، فالغنىٰ السافل: الغنى بالعواريّ المستردَّة من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسوَّمة والأنعام والحرث، [١٢/أ] وهذا أضعف الغنىٰ؛

---

(١) «ط»: «بالله».

(٢) «ك،ط»: «وكما».

(٣) انظر ما سلف في ص (١٢).

(٤) «ف»: «وهو»، خلاف الأصل، وكذا في «ن».

فإنَّهُ غنىً بظل زائل، وعاريَّةٍ ترجع عن قريب إلى أربابها، فإذا الفقر بأجمعه بعد ذهابها، وكأنَّ الغنى بها كان حُلْمًا فانقضىٰ. ولا همَّة أضعفُ من همَّةِ من رضي بهذا الغنىٰ الذي هو ظلٌّ زائلٌ.

وهذا غنىٰ أرباب الدنيا الذي فيه يتنافسون، وإيَّاه يطلبون، وحوله يحومون، ولا أحبَّ إلى الشيطان وأبعدَ من[1] الرحمن من قلبٍ ملآنَ بحبِّ هذا الغنىٰ وبالخوف[2] من فقده.

قال بعض السلف: إذا اجتمع إبليس وجنوده لم يفرحوا بشيء كفرحهم بثلاثة أشياء: مؤمن قتل مؤمنًا، ورجل يموت على الكفر، وقلب فيه خوف الفقر[3].

وهذا الغنىٰ محفوفٌ بفقرَين: فقرٍ قبله، وفقرٍ بعده، وهو كالغفوة بينهما، فحقيق بمن نصح نفسه أن لا يغترَّ به ولا يجعله نهايةَ مطلبه، بل إذا حصلَ له جعله سببًا لغناهُ الأكبر ووسيلةً إليه، ويجعله خادمًا من خدمه لا مخدومًا له، وتكون نفسه أعزَّ عليه من[4] أن يعبِّدها لغير مولاه الحق، أويجعلها خادمةً لغيره.

---

(١) «ط»: «عن».

(٢) «ك، ط»: «والخوف».

(٣) من كلام حمدون القصَّار النيسابوري شيخ الملامتية (٢٧١هـ). انظر الرسالة القشيرية (٢٧٢).

(٤) «من» ساقطة من «ك».

فصل

[في الغنى العالي وتفسير كلام الهروي في درجاته]

وأمّا[1] الغنىٰ العالي فقال شيخ الإسلام[2]:

«هو على ثلاث درجات: الدرجة الأولىٰ: غنى القلب، وهو سلامته من السبب، ومسالمتُه للحكم، وخلاصُه من الخصومة. والدرجة الثانية: غنى النفس، وهو استقامتها على المرغوب، وسلامتُها من المسخوط[3]، وبراءتها من المراياة[4]. والدرجة الثالثة: الغنىٰ بالحقِّ، وهو ثلاث مراتب: الأولىٰ: شهود ذكره إيَّاك، والثانية: دوام مطالعة أوليته، والثالثة: الفوز بوجوده»[5].

قلتُ: ثبت عن النبي ﷺ أنَّه قال: «ليس الغنىٰ عن كثرة العَرَض، ولكن الغنىٰ غنىٰ النفس»[6]. ومتىٰ استغنت النفس استغنىٰ القلب. ولكن الشيخ قسَّم الغنىٰ إلى هذه الدرجات بحسب متعلَّقه فقال: «غنىٰ

(١) «ط»: «أما»، واستدركت الواو في القطرية.

(٢) يعني صاحب «منازل السائرين».

(٣) «ط»: «الحظوظ». ولعلَّه تغيير من الناشر اعتمادًا على مدارج السالكين، ولو تروَّىٰ قليلاً لوجد المؤلف يفسر قول الهروي فيما يأتي حسب مانقله هنا من نسخة المنازل.

(٤) في «ط»: «المراءاة». والذي في الأصل وغيره بالياء على القلب، لغة في المراءاة. انظر: اللسان (رأي ١٤/ ٢٩٦).

(٥) منازل السائرين (٥٧)، وقارن النص وتفسيره في مدارج السالكين (٢/ ٥٠٣ ـ ٥٠٧).

(٦) أخرجه البخاري في كتاب الرقاق (٦٤٤٦)، ومسلم في الزكاة (١٠٥١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

القلب سلامته من السبب، ومسالمته للحكم، وخلاصه من الخصومة».

ومعلومٌ أنَّ هذا شرط في الغنىٰ، لا أنَّهُ نفس الغنىٰ؛ بل وجود المنازعة والمخاصمة وعدم المسالمة مانع من الغنىٰ. فهذه السلامة والمسالمة دليل على غنىٰ القلب، لا أنَّ غناه بها نفسِها، وإنَّما غنىٰ القلب بالدرجة الثالثة فقط، كما سيأتي بيانه[1]. فإنَّ الغنيَّ[2] إنَّما يصير غنيًّا بحصول مايسدُّ فاقته ويدفع حاجته. وفي القلبِ فاقة عظيمة وضرورة تامة وحاجة شديدة لا يسدُّها إلا فوزُه بحصول الغني الحميد الذي إن حصل للعبد حصل له كلُّ شيء، وإن فاته فاته كلُّ شيء. فكما أنَّه سبحانه الغنيُّ على الحقيقة ولا غنيَّ سواه، فالغنى به هو الغنى في الحقيقة ولا غِنى بغيره ألبتة. فمن لم يستغن به عمَّا سواه تقطَّعت نفسه على السوى حسراتٍ، ومن استغنىٰ به زالت عنه كلُّ حسرة، وحضره كلُّ سرور وفرح، والله المستعان.

وإنَّما قدَّم الشيخُ[3] الكلامَ على «غنىٰ القلب» على الكلام على «غنىٰ النفس»؛ لأنَّ[4] كمال صلاح النفس، وغناها[5] بالاستقامة من جميع الوجوه، وبلوغها إلى درجة الطمأنينة لا يكون إلا بعد صلاح القلب؛ وإصلاحُ[6] النفس متقدمٌ على إصلاح القلب[7]. هكذا قيل! وفيه ما

---

(١) بعده في «ك، ط»: «إن شاء الله».

(٢) «ط»: «فالغنى».

(٣) «ك، ط»: «شيخ الإسلام».

(٤) «ف»: «أنَّ» أخطأ في القراءة.

(٥) «ط»: «النفس غناها».

(٦) «ك، ط»: «صلاح».

(٧) «ط»: «إصلاحه». «ك»: «صلاح القلب».

فيه، لأنَّ صلاحَ كلٍّ منهما مقارنٌ لصلاح الآخر، ولكن لمَّا كان القلب هو الملِك وكان صلاحه صلاحَ جميع رعيته كان أولىٰ بالتقديم.

وقد قال النبي ﷺ: «إنَّ في الجسدِ مضغةً إذا صلحت صلح لها سائر الجسد، وإذا فسدت فسد لها سائر الجسد، ألا وهي القلب»(١).

[١٢/ب] والقلبُ(٢) إذا استغنىٰ بما فاض عليه من مواهب ربِّه وعطاياه السنية خلَعَ على الأمراءِ والرعية خِلَعًا تناسبها: فخلعَ على النفس خِلَع الطمأنينة والسكينة والرضا والإخبات، فأدَّت الحقوق سماحةً لا كظمًا بل(٣) بانشراحٍ ورضًا ومبادرة. وذلك لأنَّها جانست القلب حينئذٍ، ووافقته في أكثر أموره، واتحد مرادهما غالبًا، فصارت له وزير صدق، بعد أن كانت عدوًّا مبارزًا بالعداوة. فلا تسأل عمَّا أحدثت هذه المؤازرة والموافقة من طمأنينة ولذَّة عيش ونعيم هو رقيقة(٤) من نعيم أهل الجنَّة! هذا، ولم تضع الحرب أوزارها فيما بينهما، بل عُدّتها وسلاحها كامنٌ متوارٍ، لولا قوةُ(٥) سلطان القلب وقهرُه لحاربت بكلِّ سلاح؛ فالمرابطة

(١) من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنه. أخرجه البخاري في الإيمان (٥٢)، ومسلم في المساقاة (١٥٩٩).
(٢) «ك»: «فالقلب».
(٣) «بل» ساقطة من «ك، ط».
(٤) أراد أنَّه جزء يسير جدًّا من نعيم أهل الجنَّة. وقد استعمل المؤلف هذا التعبير في مدارج السالكين أيضًا فقال: «وذلك رقيقة من حال أهل الجنَّة في الجنَّة» (٢/ ٤٦٤). وقال: «وهذا رقيقة من حال أهل الجنَّة» (٣/ ١٥٦)، وقرن بها كلمة «لطيفة» في (٣/ ٢٩٤) قال: «فإنَّ نعيم المحبة في الدنيا رقيقة ولطيفة من نعيم الجنة في الآخرة». فالرقيقة هنا اسم. وقد ضبطت في «ك» بضم أولها وفتح ثانيها، وفوقها علامة «صح»، وفي «ط»: «دقيقة». والصوابُ ما أثبتنا.
(٥) «ط»: «قدرة».

على ثغري الظاهر والباطن فرضٌ معيَّن[1] مدَّة أنفاس الحياة:

وتنقضي الحربُ، محمودٌ عواقبُها   للصابرين، وحظُّ الهاربِ الندمُ[2]

وخَلَعَ على الجوارح خِلَع الخشوع والوقار، وعلى الوجه خلعةَ[3] المهابة والنور والبهاء، وعلى اللسان خلعةَ الصدق والقول السديد الثابت والحكمة النافعة، وعلى العين خلعة الاعتبار في النظر والغضّ عن المحارم، وعلى الأذن خلعة استماع النصيحة واستماع القول النافع استماعُه للعبد في معاشه ومعاده، وعلى اليدين والرجلين خلعة البطش في الطاعات أين كانت بقوَّة وأيدٍ، وعلى الفرج خلعةَ العفَّة والحفظ؛ فغدا العبدُ وراح يرفُلُ في هذه الخِلَع، ويجرُّ لها في النَّاس أذيالاً وأردانًا[4].

فغنىٰ النفس مشتقٌّ من غنىٰ القلب وفرعٌ عليه، فإذا استغنىٰ سرىٰ الغنىٰ منه إلى النفس. وغنى القلب بما[5] يناسبه من تحقّقه[6] بالعبودية المحضة التي هي أعظم خلعة تُخلع عليه، فيستغني حينئذٍ بما توجبه هذه العبودية له من المعرفة الخاصة والمحبة الناصحة الخالصة، وبما يحصل

---

(١) «ك، ط»: «متعين».

(٢) «ن، ك، ط»: «محمودًا». ولم أجد البيت.

(٣) «ف»: «خلع» خلافًا للأصل.

(٤) من قول ابن إسرائيل الدمشقي:

فواحد في رياض الأنس منبسط   يجرّ للتّيه أذيالاً وأردانا

انظر: ذيل مرآة الزمان (٣/ ٤٢٨).

(٥) «ط»: «ما».

(٦) «ط»: «تحقيقه».

له من آثار الصفات المقدسة و[ما][١] تقتضيه من الأحكام والعبوديات المتعلقة بكلِّ صفةٍ صفةٍ[٢] على الانفراد ومجموعها قائمةً بالذَّات. وهذا أمرٌ تضيق عن شرحه عدَّةُ أسفار، بل حظُّ العبد منه علمًا وإرادة كما يُدخل إصبعه في اليم، بل الأمر أعظم من ذلك، والله عزَّوجلّ ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا﴾[الرعد/ ١٧].

فإذا استغنىٰ القلبُ بهذا الغنىٰ الذي هو غاية فقره استغنت النفسُ غنىً يناسبها، وذهبت عنها البرودة التي توجبُ ثقلَها وكسلَها وإخلادَها إلى الأرضِ، وصارت [لها][٣] حرارةٌ توجِبُ حركتَها وخفّتَها في الأوامر وطلبَها الرفيق الأعلىٰ، وصارت برودتُها في شهواتها وحظوظها ورعوناتها. وذهبت أيضًا عنها[٤] اليبوسةُ المضادَّةُ للينها وسرعةِ انفعالها وقبولها؛ فإنَّها إذا كانت يابسةً قاسيةً كانت بطيئة الانفعال، بعيدة القبول، لا تكاد تنقاد. فإذا صارت برودتها [١٣/أ] حرارةً، ويبوستها رطوبةً[٥] وسُقيَت بماءِ الحياة الذي أنزله الله على قلوب أنبيائه، وجعلها قرارًا ومعينًا له، ففاض منها على قلوب أتباعهم، فأنبتت من كلِّ زوجٍ كريم = فحينئذ انقادت بزمام المحبة إلى مولاها الحق مؤديةً لحقوقه، قائمةً بأوامره، راضيةً عنه، مرضيةً له بكمال طمأنينتها ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾﴾[الفجر/ ٢٧ ـ ٢٨].

---

(١) مابين الحاصرتين من«ط».

(٢) «ك،ط»: «بكل صفة على».

(٣) مابين الحاصرتين زيادة من «ك،ط». وفي الأصل و«ف» علامة «ظ» أي انظر.

(٤) «ك،ط»: «عنها أيضًا».

(٥) «ط»: «يبوستها حرارة، وبرودتها رطوبة»، وهو خطأ.

فلنرجع إلى كلامه.

[تفسير الدرجة الأولىٰ وهي غنى القلب]

فقوله في الدرجة الأولىٰ ـ وهي غنىٰ القلب ـ أنَّهُ «سلامته من السبب» أي من الفقر إلى السبب، وشهودِه، والاعتماد عليه، والركون إليه، والثقة به. فمن كان معتمدًا على سببٍ غنيًّا به[1] واثقًا به لم يطلق عليه اسم «الغني»، لأنَّه فقير إلى الوسائط، بل لا يسمَّىٰ صاحبُه غنيًّا إلا إذا سلِم من علَّة السبب استغناءً بالمسبِّب، بعد الوقوف على رحمته وحكمته وتصرفه وحسن تدبيره، فلذلك يصير صاحبه غنيًّا بتدبير الله عزَّوجلَّ.

فمن كملت له السلامة من علَّة الأسباب، ومن علَّة المنازعة للحكم، بالاستسلام له والمسالمة[2]، أي بالانقياد لحكمه الذي[3] حصَّل الغنىٰ للقلب بوقوفه على حسن تدبيره ورحمته وحكمته[4]. فإذا وقف العبد على حسن تدبيره[5] واستغنىٰ القلب به لم يتم له الاستغناء بمجرد هذا الوقوف، إن[6] لم ينضمّ إليه المسالمة للحكم ـ وهو الانقياد له ـ فإنَّ المنازعة للحكم إلى حكم آخر دليلٌ على وجود رعونة الاختيار، وذلك

(١) «ط»: «سبب غناه»، تحريف.
(٢) «ف»: «المسألة»، تحريف.
(٣) «الَّذي» ساقط من «ط»، ولعلَّ الناشر حذفه لتقويم النص.
(٤) العبارة «فمن كملت له السلامة...» إلى هنا كذا وردت في الأصل وغيره. وأراها قلقة في هذا الموضع، ولو حذفت لاستقام السياق.
(٥) من «رحمته» إلى هنا ساقط من«ف» لانتقال النظر.
(٦) «ن»: «الاستغناء وهذا الوقوف إن...». «ط»: «وإن»، خطأ.

دالٌّ على فقر صاحب الاختيار إلى ذلك الشيء المختار، ومن كان فقيرًا إلى شيء لم يُرِده الله عزَّوجلَّ لم يُطلَق عليه اسمُ الغني بتدبير الله عزَّوجلَّ. فلا يتمُّ الغنىٰ بتدبير الربِّ عزَّوجلَّ لعبده إلا بالمسالمة لحكمه بعد الوقوف على حسن تدبيره.

ثمَّ يبقىٰ عليه الخلاصُ من معنى آخر، وهو مخاصمة الخلق بعد الخلاص من منازعة الربِّ. فإنَّ مخاصمة[1] الخلق دليلٌ على فقره إلى الأمرِ الذي وقعت فيه الخصومة من الحظوظ العاجلة، ومن كان فقيرًا إلى حظٍّ من الحظوظ، يسخَط[2] لفوته، ويخاصم الخلقَ عليه، لا يطلق عليه اسم الغني حتَّىٰ يسلم الخلق من خصومته لكمال[3] تفويضه إلى وليّه وقيومه ومتولي تدبيره.

فمتىٰ سلم العبد من علة فقره إلى السبب، ومن علَّة منازعته لأحكام الله عزَّوجلَّ، ومن علة مخاصمته للخلق على حظوظ = استحقَّ أن يكون غنيًّا بتدبير مولاه، مفوِّضًا إليه، لا يفتقر قلبه إلى غيره، ولا يسخط شيئًا من أحكامه، ولا يخاصم عباده إلا في حقوق ربه؛ فتكون مخاصمته لله وبالله، ومحاكمته إلى الله؛ كما كان النبي ﷺ يقول في استفتاح صلاة الليل: «اللهُمَّ لكَ أسلمتُ وبك آمنتُ، وعليك توكلتُ، وإليك أنبتُ، وبك خاصمتُ، وإليك حاكمتُ»[4].

---

(١) «ك، ط»: «منازعة».

(٢) «ك»: «ينحط»، تحريف.

(٣) «ك، ط»: «بكمال».

(٤) أخرجه البخاري في كتاب التهجد (١١٢٠)، ومسلم في صلاة المسافرين (٧٦٩) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

فتكون مخاصمةُ هذا العبدِ لله، لا لهواه وحظِّه؛ ومحاكمتُه خصمَه إلى أمر الله وشرعه، لا إلى شيءٍ سواه. فمن خاصم لنفسه فهو ممن اتَّبع هواه، [١٣/ب] وانتصر لنفسه. وقد قالت عائشة: «ما انتقم رسول الله ﷺ لنفسه قط»[١]، وهذا لتكميل عبوديته. ومن حاكم خصمَه إلى غيرِ الله ورسوله فقد حاكم إلى الطاغوت، وقد أُمِر أن يكفر به، ولا يكفر العبد بالطاغوت حتَّى يجعل الحُكمَ لله وحده، كما هو كذلك في نفس الأمر.

والحكم حكمان[٢]: حكم كوني قدري، وحكم أمري ديني. فهذا الذي ذكره الشيخ في «منازل السائرين» وشرَحه عليه الشارحون إنَّما مراده به[٣] الحكم الكوني القدري. وحينئذٍ فلا بدَّ من تفصيل ما أجملوه من مسألة الحكم والاستسلام له وترك المنازعة له، فإنَّ هذا الإطلاق غيرُ مأمور به، ولا ممكن للعبد في نفسه.

بل الأحكام ثلاثة: «حكم شرعي ديني»، فهذا حقه أن يُتلقَّىٰ بالمسالمة والتسليم وترك المنازعة، بل الانقياد المحض. وهذا تسليم العبودية المحضة، فلا يعارض بذوق ولا وجد ولا سياسة ولا قياس ولا تقليد، ولا يرىٰ إلى خلافه سبيلاً البتة، وإنَّما هو الانقياد المحض والتسليم والإذعان والقبول. فإذا تلقَّىٰ بهذا التسليم والمسالمة إقرارًا وتصديقًا بقي هناك انقياد آخر وتسليم آخر له إرادةً وتنفيذًا وعملاً، فلا تكون له شهوةٌ تنازِعُ مرادَ اللهِ من تنفيذ حكمه، كما لم تكن له شبهةٌ تُعارضُ إيمانه

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الأدب (٦١٢٦) وغيره، ومسلم في الفضائل (٢٣٢٧).

(٢) «ك، ط»: «نوعان».

(٣) «به» ساقط من «ف».

به[١] وإقرارَه.

وهذا حقيقة القلب السليم الذي سلم من شبهة تعارض الحقَّ، وشهوةٍ تعارض الأمر، فلا استمتع بخلاقه كما استمتع به الذين يتّبعون الشهوات، ولا خاض في الباطل[٢] خوضَ الذين يتبعون الشبهات، بل اندرج خلاقُه تحت الأمر، واضمحلَّ خوضُه في معرفته بالحقِّ؛ فاطمأنَّ إلى الله معرفةً به[٣]، ومحبةً له، وعلمًا بأمره، وإرادةً لمرضاته، فهذا حقُّ الحكم الديني.

الحكم الثاني: الحكمُ الكوني القدري الذي للعبد فيه كسب واختيار وإرادة، والذي حَكَمَ به يَسخطه ويُبغضه ويَذُمّ عليه. فهذا حقُّه أن يُنازَعَ ويُدَافَعَ بكلِّ ممكن ولا يُسالَمَ البتة، بل يُنازَع بالحكم الكوني أيضًا، فينازَع حكمُ الحقِّ بالحقِّ للحقّ، ويدافَع[٤] به وله، كما قال شيخ العارفين في وقته عبدالقادر الجيلي: «النَّاسُ إذا وصلوا[٥] إلى القضاءِ والقدر أمسكوا، وأنا انفتحتْ لي فيه[٦] رَوزَنَة[٧] فنازعتُ أقدارَ الحقِّ بالحقِّ للحقِّ. والعارفُ من يكون منازعًا للقدر، لا واقفًا مع القدر»[٨] انتهىٰ.

---

(١) «به» ساقط من «ط»، وكذا من«ك»، ثمَّ استدرك بخط مغاير.

(٢) «ط»: «الباطن» تحريف.

(٣) «به»: ساقط من«ك».

(٤) «ك، ط»: «فيدافع».

(٥) «ك، ط»: «دخلوا».

(٦) «فيه» ساقط من «ك، ط».

(٧) الروزنة: الكوَّة النافذة، فارسي معرَّب. انظر: المعرب (٣٣٦).

(٨) مدارج السالكين (١/ ٢٧٢)، مجموع الفتاوى (٢/ ٤٥٨)، (٨/ ٣٠٦)، (١٠/ ١٥٨). وانظر تفسير قول الشيخ «نازعت أقدار الحق...» في =

فإن ضاق ذرعُكَ عن هذا الكلام وفهمه فتأمَّل قول عمر بن الخطاب، وقد عوتب على فراره من الطاعون، فقيل له: أتفِرُّ من قدَر الله؟ فقال: «نفِرُّ من قدر الله إلى قدر الله»[(١)].

ثمَّ كيف ينكر هذا الكلام من لا بقاءَ له في هذا العالم إلا به، ولا تتمُّ له مصلحة إلا بموجبه. فإنَّه إذا جاءَه قَدرٌ من الجوع والعطش و[(٢)] البرد نازعه، وترك الانقياد له ومسالمته، [١٤/أ] ودَفَعَ[(٣)] بقدَر آخر من الأكل والشرب واللباس، فقد دفع قدر الله بقدره.

وهكذا إذا وقع الحريقُ في داره فهو بقدَر الله، فما باله لا يستسلم له ويسالمه ويتلقَّاهُ بالإذعان؟ بل ينازعه ويدافعه بالماء والتراب وغيره حتَّى يطفئَ قدَر الله بقدر الله، وما خرج في ذلك عن قدر الله.

وهكذا إذا أصابه مرض بقدر الله دافع هذا القدر، ونازعه بقدر آخر يستعمل فيه الأدوية الدافعة للمرض. فحقُّ هذا الحكم الكوني أن يحرص العبدُ على مدافعته ومنازعته بكلِّ ما يمكنه، فإنْ غلبه وقهرَه حرَص على دفع آثاره وموجباته بالأسباب التي نصبها الله لذلك[(٤)]،

= (٨/٥٤٧ـ٥٥٠).

(١) سقط لفظ الجلالة من «ط». وفي القطرية: «قدره». وأثر عمر رضي الله عنه أخرجه البخاري في كتاب الطب (٥٧٢٩)، ومسلم في كتاب السلام (٢٢١٩).

(٢) «ط»: «أو».

(٣) «ك، ط»: «دفعه».

(٤) «ط»: «بك» خطأ صحح في القطرية.

فيكون قد دفع القدر بالقدر، ونازع الحكم بالحكم. وبهذا أُمِرَ، بل هذا حقيقة الشرع والقدر.

ومن لم يستبصر في هذه المسألة ويعطِها حقَّها لزمَه التعطيلُ للقدر أو الشرع، شاء أم[1] أبى. فما للعبد ينازع أقدارَ الربِّ تعالى بأقداره في حظوظه وأسباب معاشه ومصالحه الدنيوية[2]، ولا ينازع أقدارَه بأقداره[3] في حقِّ مولاه وأوامره ودينه؟ وهل هذا إلا خروجٌ عن العبودية ونقصٌ في العلم بالله وصفاته وأحكامه؟ ولو أنّ عدوًّا للإسلام قَصَده لكان هذا بقدر الله، ويجب على كلّ مسلم دفعُ هذا القدَر بقدَرٍ يحبُّه الله ـ وهو الجهاد باليد أو المال أو القلب ـ دفعًا لقدر الله بقدره، فما للاستسلام والمسالمة هنا مدخل في العبودية؛ اللّهم إلاّ إذا بذل العبدُ جهدَه في المدافعة والمنازعة، وخرج الأمر عن يده، فحينئذ يبقى من أهل **الحكم الثالث: وهو الحكم القدري الكوني الذي يجري[4] على العبد بغير اختياره**، ولا طاقَة له بدفعه، ولا حيلة له في منازعته.

فهذا حقُّه أَن يتلقّى بالاستسلام والمسالمة وترك المخاصمة، وأن يكونَ فيه كالميّت بين يدي الغاسل، وكمن انكسر به المركبُ في لُجّة البحر، وعجَز عن السباحة، وعن سببٍ يدنيه من النجاة؛ فههنا يحسن الاستسلام والمسالمة. مع أنَّ عليه في هذا الحكم عبودياتٍ أُخَر سوى

(١) «ن، ك، ط»: «أو».

(٢) «ك»: «أسباب مصالحه ومعايشه الدنيوية».

(٣) «بأقداره» ساقط من«ك، ط».

(٤) «ك»: «جرىٰ».

التسليم والمسالمة، وهي أن يشهد عزّةَ الحاكم سبحانه في حكمه، وعدلَه في قضائه، وحكمتَه في جريانه عليه، وأنّ ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه(١)، وأنّ الكتابَ الأول سبقَ بذلك قبل برء(٢) الخليقة، فقد جفّ القلمُ بما يلقاه كلُّ عبد، فمن رضي فله الرضا، ومن سخط فله السخط.

ويشهد أن القدر ما أصابه إلاّ لحكمة اقتضاها اسمُ الحكيم جلَّ جلالُه وصفة(٣) الحكمة، وأنّ القدر قد أصاب مواقعه وحلّ في المحلّ الذي ينبغي أن يحلّ فيه، إذ هو مُوجَب الحكمة البالغة والعلم المحيط والعزّة [١٤/ب] التامّة، لم يخطىء مواقع الحكمة، ولم يتعدَّ منازله التي ينبغي(٤) له أن ينزل بها(٥)؛ وأنّ ذلك أوجبه عدلُ الله وحكمتُه وعزّتُه وعلمُه وملكُه العادل، فهو موجَب أسمائه الحسنى وصفاته العلى. فله عليه أكملُ حمد وأتمُّه، كما له الحمدُ على جميع أفعاله وأوامره.

وإن كان حظُّ العبد من هذا القدر الذمّ، فحقُّ الربِّ جلّ جلالُه منه الحمد والمدح، لأنّه موجَب كماله وأسمائه الحسنى وصفاته العلى، وهو موجَب نقصِ العبد وجهلِه وظلمِه وتفريطِه.

---

(١) يشير إلى الحديث الذي أخرجه أحمد (٢١٥٨٩، ٢١٦١١، ٢١٦٥٣)، وعبد بن حميد (٢٤٧)، وأبوداود (٤٦٩٩)، وابن ماجه (٧٧)، وابن حبان (٧٢٧) من حديث زيد بن ثابت، وهو حديث صحيح، صححه ابن حبان (ز).

(٢) «ك، ط»: «بدء».

(٣) «ط»: «وصفته».

(٤) العبارة «أن يحل فيه..» إلى هنا ساقطة من «ط» لانتقال النظر.

(٥) «ط»: «به»، ولعلّه تغيير بسبب السقط.

فاقتسم الربُّ والعبدُ الخُطّتين[1] في هذا القدَر، فكان[2] للرب تعالىٰ فيه الحمدُ، والنعمةُ، والفضلُ، والثناء الحسن؛ وللعبد خُطَّة[3] الذمّ، واللّوم، والإساءة، واستحقاق العقوبة.

استأثر اللهُ بالمحامد والـ ـفضْلِ، وولّىٰ الملامةَ الرَّجلا[4]

ويشفيه في هذا المقَام[5] أربعُ آيات:

أحدها[6] قوله تعالى: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾ [النساء/ ٧٩].

والثانية: قوله تعالىٰ: ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٦٥﴾﴾ [آل عمران/ ١٦٥].

والثالثة: قوله تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٠﴾﴾ [الشورى/ ٣٠].

والرابعة: قوله تعالىٰ: ﴿وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ كَفُورٌ ﴿٤٨﴾﴾ [الشورى/ ٤٨].

---

(١) «ك، ط»: «الحظّين»، تحريف. وعبارة المصنف ناظرة إلى قول النابغة:

إنّا اقتسمنا خُطّتَينا بيننا فحملتُ برّةَ واحتملتِ فَجارِ

(٢) «ك، ط»: «وكان».

(٣) «ك»: «وللعبد حظه». وفي «ط»: «والعبد حظه»، والصواب ما أثبتنا من الأصل.

(٤) للأعشى، وقد سبق في ص (١١).

(٥) «ط»: «ويتبين هذا المقام في»، تحريف.

(٦) كذا في الأصل و «ف، ن» . وسيأتي مثله في ص (٣٤٦، ٤٧٦، ٨٢٠) . وانظر: بدائع الفوائد (٣٠٨) ومدارج السالكين (٢/ ٢٣٩). وفي «ك، ط»: «إحداها».

فمن نزَّل هذه الآيات على هذا الحكم علمًا ومعرفةً، وقام بموجبها إرادةً وعزمًا وتوبةً واستغفارًا، فقد أدَّىٰ عبودية الله في هذا الحكم، وهذا قدر زائد على مجرَّد التسليم والمسالمة. والله المستعان، وعليه التكلان، ولا حولَ ولا قوَّة إلا بالله.

فصل

[في تفسير الدرجة الثانية وهي: غنى النفس]

قوله في غنى النفس إنَّه: «استقامتها على المرغوب، وسلامتها من المسخوط[1]، وبراءتها من المراياة[2]»:

يريد به[3] استقامتها على الأمر الديني الذي يحبه الله ويرضاه، وتجنُّبَها لمناهيه التي يسخطها ويُبغضها، وأن تكون هذه الاستقامةُ على الفعل والترك تعظيمًا لله وأمره، وإيمانًا به، واحتسابًا لثوابه، وخشيةً من عقابه[4]؛ لا طلبًا لتعظيم المخلوقين له ومدحهم، وهربًا من ذمهم وازدرائهم، وطلبًا للجاه والمنزلة عندهم. فإنَّ هذا دليل على غاية الفقر من الله، والبعد منه[5]، وأنَّه أفقر شيء إلى المخلوق.

فسلامةُ النفس من ذلك واتصافُها بضده دليلُ غناها؛ لأنَّها إذا أذعنت منقادةً لأمر الله طوعًا واختيارًا ومحبةً وإيمانًا واحتسابًا، بحيث تصير

---

(١) «ط»: «الحظوظ»، تغيير من الناشر قد مرَّ التنبيه عليه.
(٢) انظر ما سلف في ص (٦٧).
(٣) «به» ساقط من «ك، ط».
(٤) «ك»: «لعقابه».
(٥) «ك»: «عنه».

لذَّتُها وراحتُها ونعيمُها وسرورُها في القيام بعبوديته، كما كان النبي ﷺ يقول[١]: «يا بلالُ أرِحْنا بالصلاة»[٢]، وقال ﷺ: «حُبِّبَ إليَّ من دنياكم النِّساءُ والطِّيبُ، وجُعِلَت قُرَّةُ عَيْني في الصلاةِ»[٣].

وقُرَّة العين[٤] فوق المحبة، فجعل النساءَ والطِّيب مما يحبه، وأخبر أنَّ قرَّة العين التي يطمئن القلب بالوصول إليها، وتحضره[٥] لذتُه وفرحُه[٦] وسرورُه وبهجتُه = إنَّما هو[٧] في الصلاة التي هي صلةٌ بالله وحضورٌ [١٥/أ] بين يديه، ومناجاةٌ له واقترابٌ منه، فكيف لا تكون قرَّةَ العين، وكيف تقَرُّ عينُ المحبِّ بسواها؟ فإذا حصل للنفس هذا الحظُّ الجليلُ فأيَّ فقرٍ تَخشَىٰ معه، وأيُّ غنىً فاتها حتَّىٰ تلتفتَ إليه؟

ولا يحصل لها هذا حتَّىٰ ينقلبَ طبعُها، ويصير مجانسًا[٨] لطبيعة

---

(١) «ك»: «كما قال النَّبيّ ﷺ».

(٢) أخرجه أحمد (٢٣٠٨٨، ٢٣١٥٤)، وأبوداود (٤٩٨٥)، والطبراني في الكبير (٦٢١٤) وغيرهم. والحديث وقع خلاف في وصله وإرساله، وأشار الدارقطني والخطيب إلى أنَّ إرساله أصح. انظر: علل الدارقطني (٤/ ١٢٠ـ١٢٢)، وتاريخ بغداد (١٠/ ٤٤٣). (ز).

(٣) أخرجه أحمد (١٢٢٩٣، ١٢٢٩٤، ١٣٠٥٧). والنسائي (٣٩٤٠) وابن أبي عاصم في الزهد (٢٣٥). والحديث اختلف في وصله وإرساله. فصححه موصولاً الحاكم، وقوّاه الذهبي، وجوّده العراقي، وحسّنه ابن حجر. ورجح الدارقطني المرسل، فقال: «والمرسل أشبه بالصواب». انظر الأحاديث المختارة للضياء المقدسي (٥/ ١١٣) (ز).

(٤) «ك، ط»: «فقرّة».

(٥) «ط»: «ومحض لذته»، تحريف.

(٦) «ف»: «فرحته»، خلاف الأصل.

(٧) كذا «هو» في الأصل وغيره. والضمير راجع إلى «قرّة العين».

(٨) «ك»: «مجانبًا»، تحريف.

القلب؛ فتصير بذلك مطمئنةً بعد أن كانت لوّامة. وإنَّما تصير مطمئنة بعد تبدُّل صفاتها، وانقلاب طبعها، لاستغناء القلب بما وصل إليه من نور الحقِّ جلَّ جلاله، فجرىٰ أثرُ ذلك النور في سمعه وبصرِه، وشعرِه وبَشرِه، وعَظْمِه ولَحْمِه،[(١)] وسائرِ مفاصله؛ وأحاطَ بجهاته من فوقه وتحته، ويمينه ويساره، وخلفه وأمامه؛ وصارت ذاتُه نورًا فصار[(٢)] عملُه نورًا، وقولُه نورًا، ومدخلُه نورًا، ومخرجُه نورًا؛ وكان في مبعثه ممن أُتِمَّ[(٣)] له نورُه، فقطَع به الجسر.

وإذا وصلت النفسُ إلى هذه الحال استغنت بها عن التطاول إلى الشهوات التي توجب اقتحام الحدود المسخوطة، والتقاعدَ عن الأمور المطلوبة المرغوبة، فإنَّ فقرَها إلى الشهوات هو الموجِبُ لها التقاعدَ عن المرغوب المطلوب؛ وأيضًا فتقاعدُها عن المطلوب منها[(٤)] موجِبٌ لفقرها إلى الشهوات، فكلٌّ منهما موجب للآخر. وتركُ الأوامر أقوىٰ لها في[(٥)] افتقارها إلى الشهوات، فإنَّهُ بحسب قيام العبد بالأمر تُدفَع[(٦)] عنه جيوشُ الشهوة، كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾[العنكبوت/ ٤٥].

وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّ اللهَ يَدْفَعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾[(٧)][الحج/ ٣٨]، وفي

---

(١) «ك، ط»: «لحمه ودمه».
(٢) «ك، ط»: «وصار».
(٣) «ط»: «انبهر»، تحريف شنيع.
(٤) «ط»: «بينهما»، تحريف.
(٥) «ط»: «من»، تحريف.
(٦) «ك»: «يدفع».
(٧) كذا وردت الآية في الأصل وغيره بلفظ «يدفع» على قراءة ابن كثير وأبي =

القراءة الأخرىٰ: «يُدافِعُ». فكمال الدفع والمدافعة بحسب قوَّة الإيمان وضعفه.

فإذا[1] صارت النفس حرَّةً مطمئنةً غنيةً بما أغناها به مالكها وفاطرها من النور الذي وقع في القلب، ففاض منه إليها = استقامت بذلك الغنى على الأمر المرغوب[2]، وسلِمتْ به عن الأمر المسخوط، وبرئت من المراياة[3]. ومدار ذلك كله على الاستقامة ظاهرًا وباطنًا[4]، ولهذا كان الدِّين كلُّه في قوله تعالىٰ: ﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ﴾[هود/ ١١٢]، وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٣﴾﴾[الأحقاف/ ١٣].

فصل

[في الدرجة الثالثة وهي: الغنى بالحق سبحانه، ولها ثلاث مراتب]

وهذه الاستقامة تُرَقِّيها إلى الدرجة الثالثة من الغنىٰ، وهو الغنى بالحق تبارك وتعالىٰ عن كلِّ ماسواه، وهي أعلىٰ درجات الغنىٰ.

فأوَّل هذه الدرجة أن تشهد ذكرَ الله عزَّوجلَّ إيَّاك قبلَ ذكرك له،

= عمرو، ثمَّ ذكرت قراءة الباقين: «يدافع». وعلى هذا الترتيب جاء كلام المؤلف: «فكمال الدفع والمدافعة». والناشر قد غير الترتيب في إثبات القراءتين.

(١) «ك، ط»: «وإذا».

(٢) «ط»: «الموهوب»، تحريف.

(٣) انظر ما سلف في ص (٦٧).

(٤) «ك، ط»: «باطنًا وظاهرًا».

وأنَّه[١] تعالىٰ ذَكَرَك فيمن ذكَره من مخلوقاته ابتداءً قبلَ وجودِك وطاعتِك وذكرِك، فقدّر خلقَك ورزقَك وعمَلَك وإحسانَه إليك ونِعمَه عليك حيث لم تكن شيئًا البتة.

وذكَرك سبحانه بالإسلام، فوفقك له، واختارك له دون من خذله، قال تعالىٰ: ﴿هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ﴾[الحج/ ٧٨] فجعلك أهلاً لما لم تكن أهلاً له قطّ، وإنَّما هو الذي أهَّلَك بسابق ذكره، فلولا ذكرُه لك بكلِّ جميلٍ أولاكَه لم يكن لكَ[٢] إليه سبيل.

ومن الذي ذكَرك باليقظة، حتَّى استيقظتَ، وغيرُك في رقدة الغفلة مع النُّوَّام؟

[١٥/ب] ومَن الذي ذكرك سواه بالتوبة حتَّى وفَّقك لها، وأوقعَها في قلبك، وبعث دواعيك عليها[٣]، وأحيا عزَماتِك الصادقةَ عليها، حتَّى تُبْتَ[٤] إليه، وأقبلتَ عليه، فذقتَ حلاوة التوبة وبردَها ولذَّتَها؟[٥]

ومَن الذي ذكرك سواه بمحبَّته حتَّى هاجت من قلبك لواعجُها، وتوجَّهتْ نحوَه سبحانه ركائبُها؛ وعمرَ قلبَك بمحبَّته بعد طول الخراب، وآنسَك بقربه بعد طول الوحشة والاغتراب؟

ومن تقرَّب إليك أوّلاً حتَّى تقرَّبت إليه، ثمَّ أثابك على هذا التقرب

---

(١) «ك»: «وأنَّ الله».

(٢) «لك» سقط من «ط» واستدرك في القطرية.

(٣) «عليها» ساقط من«ك، ط».

(٤) «ط»: «ثُبت».

(٥) «ط»: «لذَّاتها».

تقرُّبًا آخر، فصار التقرُّبُ منك محفوفًا بتقرّبَين منه تعالى: تقرُّبٍ قبله، وتقرُّبٍ بعده؛ والحبُّ منك محفوفًا بحبَّينِ منه: حبٍّ قبله، وحُبٍّ بعده؛ والذكرُ منك محفوفًا بذكرَين: ذكرٍ قبله، وذكرٍ بعده؟

فلولا سابقُ ذكره إيَّاك لم يكن من ذلك كلّه شيء، ولا وصل إلى قلبك ذرّةٌ ممَّا وصل إليه من معرفته وتوحيده ومحبَّته وخوفه ورجائه والتوكل عليه والإنابة إليه والتقرب إليه. فهذه كلُّها آثارُ ذكره لك.

ثمَّ إنَّه سبحانه ذَكَرك بنعمه المترادفة المتواصلة بعدد الأنفاس، فله عليك في كلِّ طرفة عينٍ ونفَسٍ نعمٌ عديدةٌ ذكَرك بها قبلَ وجودك، وتعرَّف بها إليك، وتحبَّب بها إليك، مع غناه التامّ عنك وعن كل شيء. وإنَّما ذلك مجرَّد إحسانه وفضله وجوده، إذ هو الجوادُ[1] المحسنُ لذاته، لا لمعاوضةٍ، ولا لطلب جزاءٍ منك، ولا لحاجةٍ دعته إلى ذلك، كيف وهو الغني الحميد؟ فإذا وصل إليك أدنى نعمة منه فاعلم أنَّه ذكرك بها، فَلْتعظُمْ عندك لِذكره لك بها، فإنَّه[2] ما حقَّرك مَن ذكَرك بإحسانه، وابتدأك بمعروفه، وتحبَّب إليك بنعمته؛ هذا كلّه مع غناه عنك.

فإذا شهد العبدُ ذكرَ ربِّه له، ووصل شاهدُه إلى قلبه شَغَلَه ذلك عمَّا سواه، وحصل لقلبه به غنىً عالٍ لا يشبهه شيء. وهذا كما يحصل للمملوك الذي لا يزال أستاذُه وسيّدُه يَذكُره ولا ينساه، فهو يحصل له ـ بشعوره بذكر أستاذه له ـ غنى زائد على إنعام سيّده عليه وعطاياه السنية له؛ فهذا هو غنى ذكر الله للعبد.

---

(١) زاد هنا في «ك،ط»: «المفضل».

(٢) «ط»: «فإنّها».

وقد قال ﷺ فيما يروي عن ربه تبارك وتعالى: «مَنْ ذَكَرَني في نَفْسه ذَكَرْتُهُ في نَفْسِي، وَمَنْ ذَكَرَني في مَلأٍ ذَكَرْتُهُ في مَلأٍ خَيْرٍ مِنْهُمْ»[١]. فهذا ذكرٌ ثانٍ بعد ذكر العبد لربّه غير الذكر الأوَّل الذي ذكره به[٢] حتى جعله ذاكرًا، وشعورُ العبد بكلا الذكرَين يُوجب له غنى زائدًا على إنعام ربّه عليه وعطاياه له.

وقد ذكرنا في كتاب «الكلم الطيب والعمل الصالح»[٣] من فوائد الذكر استجلابَ ذكرِ الله لِعبده. وذكرنا قريبًا من مائة فائدة تتعلَّق بالذكر، كلُّ فائدةٍ منها لاخطَرَ[٤] لها. وهو كتاب عظيم النفع جدًّا.

والمقصودُ أنَّ شعور العبد وشهودَه لذكر الله له يُغني قلبه ويَسدُّ فاقته، وهذا بخلاف مَن نسوا الله فنسيَهم؛ فإنَّ الفقرَ من كُلِّ خير حاصلٌ لهم، ومايظنون أنَّه حاصل لهم من الغنى فهو من أكبر[٥] أسباب فقرهم.

---

(١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه. أخرجه البخاري في كتاب التوحيد (٧٤٠٥) وغيره، ومسلم في الذكر (٢٦٧٥).

(٢) «به» ساقط من«ف».

(٣) ص (٩٦). وقد صدر الكتاب في هذه السلسلة بعنوان «الوابل الصيب ورافع الكلم الطيب».

(٤) كذا في الأصل وغيره. أي لا مثيل لها، ولا عوض عنها. في حديث أسامة بن زيد: «ألا مشمّر للجنة، فإنّ الجنّة لا خطر لها» رواه ابن ماجه (٤٣٣٢). وقال المصنف في زاد المعاد (٤/ ٢٧٣): «فلا تبع لذة الأبد التي لا خطر لها بلذة ساعة تنقلب آلامًا». وانظر: اللسان (خطر). وفي ط: «لا نظير لها»، ولعله تغيير من ناسخ أو ناشر.

(٥) «ف»: «آكد». «ن»: «أحد»، والصواب ما أثبتنا.

فصل

الدرجة الثانية من درجات الغنى بالله عزَّ وجلَّ: دوامُ شهودِ أوَّليته تعالى، وهذا الشهود عند أرباب السلوك أعلى ممَّا قبله، والغنى به أتمّ من الغنى المذكور؛ لأنَّه من مبادىء الغنى بالحقيقة؛ لأنَّ العبد إذا فتح الله لقلبه[1] شهود أوليته سبحانه حيث كان ولا شيء غيره، [١٦/أ] وهو الإله الحقّ الكامل في أسمائه وصفاته، الغنيّ بذاته عمَّا سواه، الحميد المجيد[2] بذاته قبل أن يخلق مَن يحمده ويعبده ويمجّده، فهو معبود محمود حيّ قيّوم، له الملك وله الحمد في الأزل والأبد، لم يزل ولا يزال موصوفًا بصفات الجلال، منعوتًا بنعوت الكمال، وكلُّ شيء سواه فإنَّما كان به؛ وهو تعالى بنفسه ليس بغيره، فهو القيوم الذي قيامُ[3] كلِّ شيءٍ به، ولا حاجةَ به في قيومته إلى غيره بوجه من الوجوه = فإذا شهد العبدُ سبقَه تعالى بالأوَّلية[4] ودوام وجوده الحقّ، وغاب بهذا عمَّا سواه من المحدَثات؛ فني في وجوده من لم يكن، كأنَّه لم يكن[5]، وبقي من لم يزل. واضمحلَّت الممكنات في وجوده الأزليّ الدائم، بحيث صارت كالظلال التي[6] يبسطُها ويمدُّها ويقبِضُها، فيستغني العبدُ بهذا

---

(١) «ف»: «له»، خلاف الأصل.

(٢) «المجيد» ساقط من«ك،ط».

(٣) «ف»: «أقام» خلافًا للأصل.

(٤) في الأصل: «الأولوية» سهو، وكذا في «ف».

(٥) «كأنَّهُ لم يكن» ساقط من«ط».

(٦) في الأصل و«ف»: «الذي»، وفي حاشيتيهما علامة «ظ» أي انظر. ولعلَّه سبق قلم. وكذا في «ن،ك»، والمثبت من«ط».

المشهد العظيم، ويتغذّى به(١) عن فاقاته وحاجاته.

وإنّما كان أفضلَ عندهم(٢) ممّا قبله لأنَّ الشهود الذي قبله فيه شائبةٌ مشيرةٌ إلى وجود العبد. وهذا الشهود الثاني ساترٌ للموجودات(٣) كلِّها سوى الأوَّل تعالى، قد اضمحَّلتْ، وفنيتْ فيه، وصارتْ كأوليتها، وهو(٤) العدم. فأفنتها أوَّليةُ الحقّ تبارك وتعالى، فبقي العبد محوًا صرفًا وعدمًا محضًا، وإن كانت إنّيّتُه متشخصةً(٥) مشارًا(٦) إليها، لكنَّها لما نُسِبتْ إلى أوَّلية الحقّ عزَّ وجلّ اضمحلَّتْ وفنيتْ، وبقي الواحد الحقّ الذي لم يزل باقيًا. فاضمحلَّ ما دون الحقّ تعالى في شهود العبد، كما هو مضمحلّ في نفسه. وشهِد العبدُ حينئذٍ أنَّ كل شيء سوى الله(٧) باطل، وأنَّ الحقَّ المبين هو الله وحده. ولا ريب أنَّ الغنى بهذا الشهود أتمُّ من الغنى بالذي قبله.

وليس هذا مختصًّا بشهود أوَّليته تعالى فقط، بل جميعُ ما يبدو للقلوب من صفات الربّ جلَّ جلالُه يستغني العبدُ بها بقدر حظّه وقسمه من معرفتها وقيامه بعبوديّتها.

فمَن شهد مشهدَ علوِّ الله على خلقه وفوقيّته لعباده واستوائه على عرشه، كما أخبر به أعرَفُ الخلق وأعلَمُهم به الصادقُ المصدوقُ؛ وتعبَّد

(١) في الأصل وغيره: «بها»، وهو أيضًا سهو. وفي حاشيتي الأصل و«ف» علامة «ظ».
(٢) «ط»: «كان هذا عندهم أفضل».
(٣) «ط»: «سائر الموجودات» تحريف.
(٤) «ف»: «هي» خلاف الأصل.
(٥) «ط»: «مشخصة».
(٦) «ك»: «ومشارًا إليها».
(٧) «ك، ط»: «ماسواه».

بمقتضى هذه الصفة، بحيث يصيرُ لقلبه صَمَدٌ يعرج القلبُ إليه مناجيًا له مطرقًا واقفًا بين يديه وقوفَ العبد الذليل بين يدي الملك العزيز، فيشعر بأنَّ كلِمَه وعملَه صاعدٌ إليه معروضٌ عليه بين خاصَّته[1] وأوليائه، فيستحيي أن يصعد إليه مِن كلمه وعمله[2] ما يُخزيه ويفضحه هناك؛ ويشهدُ نزول الأمر والمراسيم الإلهية إلى أقطار العوالم كلَّ وقت بأنواع التدبير والتصرف من الإماتة والإحياء، والتولية والعزل، والخفض والرفع، والعطاء والمنع، وكشف البلاءِ وإرساله، وتقليب[3] الدول ومداولة الأيام بين النَّاس إلى غير ذلك من التصرّف[4] في المملكة التي لا يتصرّف فيها سواه، فمراسيمُه[5] نافذةٌ فيها كما يشاء ﴿ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ۝٥ ﴾[السجدة/ ٥] = فمن أعطى هذا المشهد حقَّه معرفةً وعبوديةً استغنى به.

وكذلك من شهِد مشهدَ العلم المحيط الذي لا يعزُب عنه مثقال ذرَّةٍ في الأرض ولا في السماوات ولا في قرار البحار ولا تحت أطباق الجبال؛ بل أحاط بذلك كلّه[6] علمًا تفصيليًّا، ثمَّ تعبَّد بمقتضى هذا الشهود من حراسة خواطره، وإراداته[7]، وعزماته، وجوارحه علمًا

(١) «ك»: «مع خاصته». ط: «مع أوفى خاصته»!
(٢) «وعمله» ساقط من«ط».
(٣) «ك، ط»: «تقلب».
(٤) «ك، ط»: «التصرفات».
(٥) «ك، ط»: «فمراسمه».
(٦) «ط»: «علمه»، تحريف.
(٧) «ك، ط»: «وإرادته وجميع أحواله»!

بأنَّ[1] حركاته الظاهرة والباطنة وخواطرَه وإراداته[2] [١٦/ب] وجميعَ أحواله ظاهرةٌ مكشوفةٌ لديه[3]، علانيةٌ له، باديةٌ له[4] لا يخفى عليه منها شيء.

وكذلك إذا أشعرَ قلبَه صفةَ سمعِه تبارك وتعالى لأصوات عباده على اختلافها وجهرها وخفائها، وسواءٌ عنده من أسرَّ القولَ ومن جهرَ به، لا يشغله جَهْرُ من جَهَرَ عن سمعه لِصوت مَن أسرَّ، ولا يشغله سمعٌ عن سمعٍ، ولا تُغلِّطه الأصواتُ على كثرتها واختلافها واجتماعها، بل[5] هي عنده كلها كصوت واحد؛ كما أنَّ خلقَ الخلق جميعِهم وبعثَهم عنده بمنزلة نفس واحدة.

وكذلك إذا شهد معنى اسمه «البصير» جلَّ جلاله الذي يرى دبيب النملة السوداء على الصخرة الصمَّاءِ في حِنْدِس الظلماء، ويرى تفاصيلَ خلقِ الذرَّة الصغيرة ومخِّها وعروقها ولحمها وحركتها، ويرى مدَّ البعوضة جناحها في ظلمة الليل؛ وأعطى هذا المشهد حقَّه من العبودية، فحرَسَ حركاته وسكناته[6]، وتيقَّن أنَّها بمرأى منه تبارك وتعالى ومشاهدةٍ لا يغيب عنه منها[7] شيء.

---

(١) «ك، ط»: «عَلِمَ أنَّ».
(٢) «ك، ط»: «وإرادته».
(٣) «ن»: «لربِّه».
(٤) «له» ساقط من «ك، ط».
(٥) «بل» ساقط من «ف، ن».
(٦) «ط»: «يحرس حركاتها وسكناتها».
(٧) «منها» ساقط من «ط» واستدرك في القطرية.

وكذلك إذا شهد مشهدَ القيومية الجامع لصفات الأفعال، وأنَّه قائم على كل شيء، وقائم على كل نفس بما كسبت[1]؛ وأنَّه تعالى هو القائم بنفسه، المقيمُ لغيره، القائم عليه بتدبيره وربوبيته وقهره وإيصال جزاءِ المحسن إليه وجزاءِ المسيء إليه؛ وأنَّه لكمال[2] قيوميَّته لا ينام ولا ينبغي له أن ينام، يخفض القسط ويرفعه، يُرفَع إليه عملُ الليل قبل النَّهار وعملُ النَّهار قبل الليل، لا تأخذه سِنةٌ ولا نوم، ولا يضلّ ولا ينسى. وهذا المشهد من أرفع[3] مشاهد العارفين، وهو مشهد الربوبية.

وأعلى منه مشهد الإلهية الذي هو مشهد الرسل وأتباعهم الحنفاءِ. وهو شهادة أن لا إله إلا هو، وأنَّ إلهية ما سواه باطل ومحال، كما أنَّ ربوبية ما سواه كذلك، فلا أحد سواه يستحق أن يؤلَّه ويُعبَد، ويُصلَّى له ويُسجَد. ويستحقُّ نهاية الحبّ مع نهاية الذلّ لكمال أسمائه وصفاته وأفعاله، فهو المطاع وحده على الحقيقة، والمألوه وحده، وله الحكم وحده. فكلُّ عبوديةٍ لغيره باطلةٌ وعناءٌ وضلال، وكلُّ محبة لغيره عذاب لصاحبها، وكلُّ غنىً بغيره[4] فقرٌ وفاقة، وكلُّ عزٍّ بغيره ذلّ وصغار، وكلُّ تكثّر بغيره قلّة وذلَّة. فكما استحال أن يكون للخلق ربّ غيره، فكذلك يستحيل[5] أن يكون لهم إله غيره، فهو الذي انتهت إليه الرغبات، وتوجهت نحوه الطلبات.

---

(١) «بما كسبت» ساقط من«ك، ط».

(٢) «ك، ط»: «بكمال».

(٣) «ن»: «أعلىٰ».

(٤) «ك، ط»: «لغيره»، تحريف.

(٥) «ط»: «استحال».

ويستحيل أن يكون معه إله آخر، فإنَّ الإله على الحقيقة هو الغنيّ الصمَد الكامل في أسمائه وصفاته، الذي حاجةُ كل أحدٍ إليه، ولا حاجة به إلى أحد؛ وقيامُ كلِّ شيءٍ به، وليس قيامُه بغيره. ومن المحال أن يحصل في الوجود اثنان كذلك، ولو كان في الوجود إلهان لفسد نظامه أعظمَ فساد واختلّ أعظمَ اختلال، كما يستحيل أن يكون له فاعلان متساويان كلٌّ منهما مستقلٌّ بالفعل، فإنَّ استقلالَهما ينافي استقلالَهما، واستقلالَ أحدهما يمنع ربوبّيةَ الآخر، فتوحيد الربوبيّة أعظم دليل على توحيد الإلهية.

ولذلك[1] وقع الاحتجاج به في القرآن أكثر مما وقع بغيره، لصحّة دلالته وظهورها، وقبول العقول والفطَر لها، ولاعتراف أهل الأرض بتوحيد الربوبيّة. ولذلك[2] كان عُبّادُ الأصنام يُقِرّون به، وينكرون توحيد الإلهية، [١٧/أ] ويقولون: ﴿أَجَعَلَ ٱلْـَٔالِهَةَ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا﴾[ص/ ٥] مع اعترافهم بأنّ الله وحده هو الخالق لهم وللسماوات والأرض وما بينهما، وأنّه المتفرّد[3] بملك ذلك كله. فأرسل الله تعالى الرسلَ تذكِّرهم[4] بما في فطَرهم الإقرارُ به من توحيده وحده لا شريك له، وأنّهم لو رجعوا إلى فِطَرهم وعقولهم لدلَّتهم على امتناع إلهٍ آخر معه واستحالته وبطلانه.

فمشهد الألوهية هو مشهد الحنفاءِ، وهو مشهد جامع للأسماء والصفات، وحظُّ العباد منه بحسب حظّهم من معرفة الأسماء

---

(١) «ك»: «كذلك»، خطأ.

(٢) «ك،ط»: «وكذلك».

(٣) «ط»: «المنفرد»، والأصل غير منقوط.

(٤) «ك،ط»: «فأرسل الله تعالىٰ يذكر بما».

والصفات. ولذلك كان أكملُ الخلق فيه أعرفَهم بالله وأسمائه وصفاته[1]، ولذلك[2] كان الاسم الدَّالّ على هذا المعنى هو اسم الله جلَّ جلاله، فإنَّ هذا الاسم هو الجامع، ولهذا تضاف الأسماء الحسنى كلُّها إليه، فيقال: الرحمن الرحيم العزيز الغفار القهار من أسماء الله، ولا يقال: «الله» من أسماء الرحمن. قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾[الأعراف/ ١٨٠].

فهذا المشهد تجتمع فيه المشاهدُ كلّها، وكلُّ مشهد سواه فإنَّما هو مشهدٌ لصفة من صفاته. فمن اتسع قلبه لمشهد الإلهيَّة، وقام بحقّه من التعبّد الذي هو كمالُ الحبّ بكمالِ الذلّ والتعظيم والقيام بوظائف العبودية، فقد تمَّ له غناه بالإله الحقّ، وصار من أغنى العباد. ولسانُ حالِ مثلِ هذا يقول:

غِنيتُ بلا مالٍ عن النَّاس كلِّهم ... وإنَّ الغنى العالي عن الشيء لا بِهِ[3]

فيا لَه من غنىً ما أعظم خطره، وأجلَّ قدره! تضاءَلتْ دونه الممالكُ فما دونها، فصارت بالنسبة إليه كالظلِّ من الحامل له، والطيف الموافي في المنام الذي يأتي به حديثُ النفس، ويطرده الانتباهُ من النوم.

---

(١) العبارة «ولذلك. . .» إلى هنا ساقطة من «ك، ط».

(٢) «ك»: «وكذلك».

(٣) من قصيدة نسبت في المستطرف (٢/ ٤٣) إلى الإمام الشافعي. ومنه في ديوانه ـ نشرة إحسان عباس (١٧)، والبيت وحده ورد في المستطرف أيضًا (١/ ١١٠) منسوبًا إلى القهستاني، وله في معجم الأدباء (١٦٨٠). وانظر: مفتاح دار السعادة (١/ ٤١٩)، ومدارج السالكين (٣/ ١٥٢).

فصل

الدرجة الثالثة من درجات الغنى بالربِّ جلَّ جلاله: الفوز بوجوده.

هذا الغنى أعلى درجات الغنى؛ لأنَّ الغنى الأوَّل والثاني كانا من آثار ذكر الله والتوجّه، ففاض على القلب في صدق توجهه[1] أنوارُ الصفات المقدَّسة، فاستغنى[2] القلبُ بذلك، وحصل[3] له أيضًا أنوار الشعور بكفالته وكفايته لعبده، وحسن وكالته له[4]، وقيوميته بتدبيره، وحسن تدبيره، فاستغنت النفس بذلك أيضًا.

وأمَّا هذا الغنى الثالث الذي هو «الغنى بالحق» فهو من آثار وجود الحقيقة، وهو إنَّما يكون بعد ترقيه من آثار الصفات إلى آثار وجود الذَّات. وإنَّما يكون هذا الوجود بعد مكاشفة عينِ اليقين عندما يطلع فجرُ التوحيد، فهذا أوَّله. وكمالُه عند طلوع شمسه، فيتقطع[5] ضبابُ الوجود الفاني، وتُشرق شمسُ الوجود الباقي، فيتقطَّع[6] لها كلُّ ضباب. وهذا عبارة عن نور يُقذَف[7] في القلبِ يُكشَف له بذلك النور عن عظَمةِ الذَّات، كما كُشِف له بالنور الذي قبله عن عظمة الصفات.

فإذا كان أثرٌ من آثار صفات الذَّات أو صفات الأفعال يُغني القلبَ

(١) «ن»: «من صدق...». «ك،ط»: «من صدق التوجه».
(٢) «ط»: «واستغنى».
(٣) «ك،ط»: «وجعل»، تحريف.
(٤) «له» ساقط من «ك،ط».
(٥) هذه قراءة «ف». وفي «ك،ط»: «فينقطع».
(٦) هذه قراءة «ف». وفي «ك،ط»: «فينقطع».
(٧) في حاشية «ف» إشارة إلى أن في نسخة: «يقذفه».

والنفسَ، فما ظنُّك بما تُكاشَفُ[1] به الأرواحُ من أنوار قدسِ الذَّات المتَّصفة بالجلال والإكرام. فهذا غنىً لا يناله الوصفُ، ولا يدخل تحت الشرح، فيستغني العبد الفقير بوجود سيّده العزيز الرَّحيم.

فيالكَ من فَقْرٍ تَقَضَّى[2]، ومِن غِنَى يدومُ، ومِن عيشٍ ألذَّ من المُنى![3]

[١٧/ب] فلا تستعجزْ نفسَك عن البلوغ إلى هذا المقام، فبينك وبينه صدقُ الطلب، فإنَّما[4] هي عزمةٌ صادقةٌ، ونهضةُ حُرٍّ لنفسه[5] عنده قدرٌ وقيمةٌ، يغار عليها أن يبيعَها بالدون.

وقد جاءَ في أثرٍ إلهي: «يقول الله عزَّوجلَّ: ابْنَ آدمَ خَلَقْتُكَ لنفسي فلا تَلْعَبْ، وَتَكَفَّلْتُ برزقك فلا تتْعَبْ، ابْنَ آدمَ اطْلُبْنِي تَجدْني، فَإِنْ وَجَدْتَنِي وَجَدْتَ كُلَّ شيءٍ، وإِنْ فُتُّكَ فَاتَكَ كلُّ شيءٍ، وأَنَا أَحَبُّ إليكَ مِنْ كُلِّ شيءٍ»[6]

فمن طلَب الله بصدقٍ وجده، ومن وجده أغناه وجودُه عن كلِّ شيءٍ[7].

---

(١) «ك»: «يكشف»، خطأ.

(٢) قرأ ناسخ «ف»: «يُقضى»، وكتب في الحاشية: «ينقضي ظ». وفي «ك»: «يقضى». وفي «ط»: «ينقص»، والصواب ما أثبتنا.

(٣) لم يفطن ناسخ «ف»، فأثبت هذا البيت نثرًا، وكذا في «ك، ط».

(٤) «ك، ط»: «وإنَّما».

(٥) «ك، ط»: «ممن لنفسه».

(٦) أثر إسرائيلي، كما نصَّ شيخ الإسلام في الفتاوى (٨/ ٥٢)، وقد ذكره المصنف في مدارج السالكين (٢/ ٤٠٠، ٥٠٧)، والداء والدواء (٣٠٥)، وروضة المحبين (٤٣٢). وسيأتي مرة أخرى في ص (٥٢٦).

(٧) «عن كل شيء» ساقط من «ك».

فأصبحَ حُرًّا في غنىً ومهابةٍ   علــى وجهــه أنــوارهُ وضيــاؤه
وإن فــاتَــهُ مــولاه جــلَّ جــلالُــه   تباعدَ مايرجو، وطال عناؤه[1]

ومن وصل إلى هذا الغنى قرَّت به كلُّ عين لأنَّه قد قرَّت عينُه بالله والفوز بوجوده، ومن لم يصل إليه تقطَّعتْ نفسُه على الدنيا حسرات. وقد قال ﷺ: «مَنْ أَصْبَحَ والدُّنْيَا أكبرُ همِّه جَعَلَ اللهُ فَقْرَهُ بَيْنَ عَيْنَيْه، وَشَتَّتَ عَلَيْه شَمْلَهُ، وَلَمْ يأْتِه من الدُّنْيا إلا ما قُدِّرَ له. ومَنْ أَصْبَحَ والآخِرَةُ أَكْبَرُ هَمِّه جَعَلَ الله غِنَاهُ في قَلْبِهِ، وَجَمَعَ عليه شَمْلَه، وأَتَتْهُ الدُّنيا وهي رَاغِمَةٌ، وكان اللهُ بِكُلِّ خيرٍ إليه أَسْرَعَ»[2].

فهذا هو الفقر الحقيقي والغنى الحقيقي، وإذا كان هذا غنى من كانت الآخرةُ أكبرَ همِّه، فكيف من كان الله عزَّوجلَّ أكبرَ همِّه، فهذا من باب التنبيه والأولى.

فصل

في ذكر كلمات عن أرباب الطريق في الفقر والغنى

* قال يحيى بن معاذ[3]: «الفقر أن لا يستغني بشيء غير الله،

---

(١) أثبت ناشر «ط» البيتين نثرًا، والبيت الأوَّل ذكره المصنف في إغاثة اللهفان (٩٣٣)، وفيه: «حرًّا عزَّةً وصيانةً».

(٢) من حديث زيد بن ثابت، أخرجه أحمد (٢١٥٩٠) مطوَّلاً، والترمذي (٢٦٥٦)، وأبوداود (٣٦٦٠) مختصرًا، وابن ماجه (٤١٠٥) مطوَّلاً، وابن حبان (٦٧) مختصرًا. وليس عندهم لفظ «وكان الله بكل خير إليه أسرع»، والحديث حسَّنه الترمذي، وصححه ابن حبان والبوصيري. وقد جاء الحديث عن أنس وأبي هريرة نحوه (ز).

(٣) الرَّازي أبوزكريا، الواعظ، من كبار المشايخ. مات في نيسابور سنة (٢٥٨هـ). =

ورسمُه عدمُ الأسباب كلها»[1] .

قلتُ: يريد عدَمَها في الاعتماد عليها والطمأنينة بها، بل تصير عدمًا بالنسبة إلى سبق مسبِّبها بالأوَّلية، وتفرده بالأزلية.

* وسُئِلَ محمد بن عبدالله الفرغاني[2] عن الافتقار إلى الله تعالى والاستغناء به أيهما أكمل[3]؟ فقال: «إذا صحَّ الافتقار إلى الله تعالى صحَّ الاستغناء به، وإذا صحَّ الاستغناءُ به صحَّ الافتقار إليه، فلا يقال أيُّهما أكملُ لأنَّه لا يتمّ أحدهما إلا بالآخر»[4] .

قلتُ: الاستغناء بالله هو عين الفقر إليه، وهما عبارتان عن معنى واحد؛ لأنَّ كمالَ الغنى به هو كمالُ عبوديته، وحقيقةُ العبوديةِ كمالُ الافتقار إليه من كلِّ وجه، وهذا الافتقار هو عين الغنى به. فليس هنا شيئان يُطلَب تفضيلُ أحدهما على الآخر، وإنَّما يُتوهَّم كونُهما شيئين بحسب المستغنى عنه والمفتقَر إليه. فهي حقيقة واحدة ومقام واحد يُسمَّى «غنىً» بالنسبة إلى فراغه عن الموجودات الفانية، و«فقرًا» بالنسبة إلى قَصْر همَّته وجمعها على الله عزَّ وجلَّ. فهي همَّة سافرت عن شيء واتصلت بغيره، فسفرها عن الغير «غنى»، وسفرها إلى الله «فقر». فإذا وصلتْ إليه استغنت به لكمال[5] فقرها إليه، إذ يصير لها بعد الوصول

= طبقات الصوفية (١٠٧)، سير أعلام النبلاء (١٣/ ١٥).

(١) الرسالة القشيرية (٢٧٢).

(٢) نزل بغداد، ولزم الجنيد واشتهر بصحبته، وروىٰ عنه كلامه. الأنساب (٤/ ٣٦٨).

(٣) «أيهما أكمل» ساقط من «ك، ط».

(٤) نقله القشيري (٢٧٣) من كلام الجنيد.

(٥) «ك، ط»: «بكمال».

فقر آخر غير فقرها الأوَّل، وإنَّما يكمل فقرها بهذا الوصول.

* وسئل رُويم(١) عن الفقر فقال: «إرسال النفس في أحكام الله تعالى»(٢).

قلت: إن أراد الحكم الديني فصحيح، وإن أراد الحكم الكونيّ القدريّ فلا يصح هذا الإطلاق، بل لا بدّ فيه من التفصيل كما تقدَّم بيانه(٣). وإرسالُ النفس في أحكامه التي يسخطها ويبغضها، أو إرسالُها في أحكامه التي يجب منازعتُها ومدافعتُها بأحكامه خروجٌ عن العبودية.

* [١٨/أ] وقيل: «نعتُ الفقير ثلاثة أشياء: حفظ سرّه، وأداءُ فرضه، وصيانة فقره»(٤).

قلتُ: حفظُ السرِّ كتمانُه صيانةً له من الأغيار، وغيرةً عليه أن ينكشف لمن لا يعرفه ولا يؤمَن عليه. وأداء الفرض قيامٌ بحقّ العبودية. وصيانةُ الفقر حفظُه عن لَوث مساكنةِ الأغيار، وحفظُه عن كلِّ سببٍ يفسده، وكتمانه ما استطاع.

* وقال إبراهيم بن أدهم(٥): «طلبنا الفقرَ فاستقبلَنا الغنى، وطلب

---

(١) رُويم بن أحمد بن يزيد البغدادي. من جلَّة المشايخ، كان مقرئًا وفقيهًا على مذهب داود الظاهري، توفي سنة (٣٠٣هـ). طبقات الصوفية (١٨٠)، سير أعلام النبلاء (١٤/ ٢٣٤).

(٢) الرسالة القشيرية (٢٧٣).

(٣) انظر ما سلف في ص(٧٤).

(٤) القشيرية (٢٧٣).

(٥) العجلي ـ وقيل: التميمي ـ البلخي، نزيل الشام، الزاهد المشهور، توفي سنة (١٦٢هـ)، طبقات الصوفية (٢٧)، السير (٧/ ٣٨٧).

النَّاسُ الغنى فاستقبلهم الفقرُ»[١].

* وسُئِلَ يحيى بن معاذ عن الغنى فقال: «هو الأمن بالله عزَّ وجلَّ»[٢].

* وسُئِلَ أبو حفص[٣]: بماذا ينبغي أن يقدم الفقير على ربِّه؟ فقال: «ما ينبغي للفقير أن يقدم على ربِّه بشيء سوى فقره»[٤].

* وقال بعضهم[٥]: إنَّ الفقير الصادق لَيخشى من الغنى حِذارًا[٦] أن يدخله فيفسد عليه فقره، كما يخشى الغنيُّ الحريصُ من الفقر أن يدخله فيفسد عليه غناه».

* وقال بشر بن الحارث[٧]: «أفضل المقامات اعتقاد الصبر على الفقر إلى القبر»[٨].

قلتُ: ومن ههنا قال القائل[٩]:

---

(١) القشيرية (٢٧٣).

(٢) المصدر السابق (٢٧٤)، وقد تقدم قوله في الفقر في أوَّل الفصل.

(٣) عمرو بن سلمة النيسابوري الزاهد، شيخ خراسان. قال السلمي: هو أوَّل من أظهر طريقة التصوف بنيسابور، توفي سنة ٢٦٤هـ، وقيل غير ذلك. طبقات الصوفية (١١٥)، السير (١٢/ ٥١٠).

(٤) القشيرية (٢٧٤)، وسيأتي له قول آخر.

(٥) وهو ابن الكُرِّيني كما في القشيرية (٢٧٤)، وهو أبوجعفر محمد بن كثير، من صوفية البغداديين. انظر: تاريخ بغداد (١٤/ ٤١٣)، والأنساب (٤/ ٦٣).

(٦) «ط»: «حذرًا».

(٧) المروزي ثمَّ البغدادي المعروف بالحافي، الزاهد المشهور (١٥٢ ـ ٢٢٧هـ)، السير (١٠/ ٤٦٩).

(٨) القشيرية (٢٧٤).

(٩) من أربعة أبيات أوردها أبونعيم في الحلية (١٠/ ٤٠) لأبي بكر الشبلي (٣٣٤هـ)، وهي في القشيرية (٢٧٨)، وعوارف المعارف (٢٣٦).

قالوا: غدا العيدُ ماذا أنت لابسُه؟ فقلتُ: خلعةَ ساقٍ حِبَّه جُرَعا[1]

فقرٌ وصبرٌ هما ثوبان تحتهما قلبٌ يرى إلفَه الأعيادَ والجُمَعا[2]

الدهر لي مأتمٌ إن غبتَ ياأملي والعيدُ مادمتَ لي مرأىً ومستمَعا[3]

* وسئل ابن الجلاّءِ[4]: متى يستحقّ الفقير اسمَ الفقر؟ فقال: «إذا لم يبقَ عليه بقيّةٌ منه». فقيل له: كيف ذلك؟ فقال: «إذا كان له فليس له، وإذا لم يكن له فهو له»[5].

قلت: معنى هذا أنّه لا يبقَى عليه بقيّة من نفسه، فإذا كان لنفسه فليس لها، بل قد أضاع حقَّها، وضيَّع سعادتَها وكمالَها. وإذا لم يكن لنفسه، بل كان كلُّه لربّه، فقد أحرز كلَّ حظٍّ له، وحصّل لنفسه سعادتَها. فإنّه إذا كان لله كان الله له، وإذا لم يكن لله لم يكن الله له، فكيف تكون نفسه له؟ فهذا من الذين خسروا أنفسهم.

* وقيل: «حقيقة الفقر أن لا يستغني الفقيُر في فقره بشيء إلاّ بمن إليه فقرُه»[6].

* وقال أبوحفص[7]: «أحسنُ ما توسّل به العبدُ إلى مولاه دوامُ الفقر

---

(١) الحلية: أتى العيد. العوارف: «عبدَه الجرعا».

(٢) العوارف: «يرىٰ ربه».

(٣) في الحلية والقشيرية: «ماكنت لي».

(٤) أبوعبدالله أحمد بن يحيى، أصله من بغداد، أقام بالرملة ودمشق، وكان من كبار مشايخ الشام. طبقات الصوفية (١٧٦).

(٥) القشيرية (٢٧٥).

(٦) المصدر السابق.

(٧) قد سبق آنفًا قول آخر لأبي حفص.

إليه على جميع الأحوال، وملازمةُ السنّة في جميع الأفعال، وطلبُ القوت من وجه حلال»[(١)].

* وقال بعضهم[(٢)]: «ينبغي للفقير أن لا تسبق همتُه خطوتَه».

قلتُ: يشير إلى تعلق همَّته بواجب وقته، وأنَّهُ لا تتخطىٰ همَّته واجبَ الوقت قبل إكماله. وأيضًا يشير إلى قصر أمله، وأنَّ همَّته غيرُ متعلقةٍ بوقتٍ لا يحدّث نفسه ببلوغه. وأيضًا يشير إلى جمع الهمَّة على حفظ الوقت، وأن[(٣)] لا يضعفها بتقسيمها على الأوقات.

* وقيل: «أقلُّ مايلزم الفقير في فقره أربعة أشياء: علم يسوسُه، وورع يحجزُه، ويقين يحمِله، وذكر يؤنسه»[(٤)].

* وقال أبوسهل الخشَّاب لمنصور المغربي[(٥)]: «إنَّما هو فقر وذلّ»، فقال منصور: «بل فقر وعز»، فقال أبوسهل: «فقر وثرى»، فقال منصور: «بل فقر وعرش»[(٦)].

قلتُ: أشار أبوسهل إلى البداية، ومنصور إلى الغاية.

* وقال الجنيد: «إذا لقيتَ الفقيرَ فَالْقَه بالرفق ولا تَلْقَه بالعلم، فإنَّ

---

(١) القشيرية (٢٧٥).

(٢) وهو أبومحمد المرتعش النيسابوري المتوفى ببغداد سنة (٣٢٨هـ). انظر: القشيرية (٢٧٥) وطبقات الصوفية (٣٤٩).

(٣) «ك، ط»: «ولا».

(٤) القشيرية: (٢٧٦).

(٥) منصور بن خلف المغربي من شيوخ أبي القاسم القشيري.

(٦) القشيرية (٢٧٦).

الرفقَ يؤنسه، والعلم يُوحشه»، فقلتُ[1]: يا أبا القاسم، كيف يكون فقير يوحشه العلم؟ فقال: «نعم، الفقير إذا كان صادقًا في فقره فطرحتَ عليه العلمَ ذاب كما يذوب الرصاص في النار».

*وقال أبوالمظفر القِرْمِيسِيني[2]: «الفقير هو الذي لا يكون له إلى الله حاجة». قال أبوالقاسم القشيري: «وهذا اللفظ فيه أدنىٰ غموض على من سمعه على وصف الغفلة عن مرمىٰ القوم، وإنَّما أشار قائله إلى سقوط المطالبات، وانتفاء الاختيار[3]، والرضى بما يُجريه الحقُّ [١٨/ب] تبارك وتعالىٰ»[4].

قلتُ: وبعدُ فهو كلام مستدرَكٌ خطأ، فإنَّ حاجاتِ هذا العبد إلى الله بعدد الأنفاس، إذ حاجاته ليست كحاجات غيره من أصحاب الحظوظ والأقسام، بل حاجات هؤلاء في حاجة هذا العبد كتَفْلَةٍ في بَحْر. فإنَّ حاجتَه إلى الله في كلِّ طرفة عين أن يحفظ عليه حالَه، ويثبِّت قلبَه، ويُرقِّيَه في مقامات العبودية، ويصرفَ عنه مايفسدها عليه، ويعرِّفه منازلَ الطريق ومكامنها وآفاتِها[5]، ويعرِّفه مواقعَ رضاه ليفعلها ويعزم عليها، ومواقعَ سخطه ليعزم على تركها[6] ويجتنبها. فأي حاجاتٍ أكثر وأعظم

(١) القائل أبومحمد المرتعش. انظر: القشيرية (٢٧٦). وطبقات الصوفية (١٦٠).
(٢) كذا في الأصل وغيره. ولعله سهو، فإنَّه في القشيرية ـ مصدر المؤلف ـ وغيره «المظفر» لا «أبوالمظفر». وهو من كبار مشايخ الجبل، صحب عبدالله الخراز الرازي المتوفى قبل (٣١٠هـ) ومن فوقه من المشايخ. طبقات الصوفية (٣٩٦).
(٣) «ك،ط»: «الاختيارات».
(٤) القشيرية (٢٧٧).
(٥) «ك،ط»: «أوقاتها»، تحريف.
(٦) «على تركها» سقط من «ف» سهوًا.

من هذه؟

فالصوابُ أن يقال: الفقيرُ هو الذي حاجاته إلى الله بعدد أنفاسه أو أكثر، فالعبدُ له في كلِّ نفس ولحظة وطرفة عين عدَّةُ حوائج إلى الله لا يشعر بكثيرٍ منها، فأفقر النَّاسِ إلى الله من شعر بهذه الحاجات وطلَبها من معدنها بطريقها. وإن كان لا بُدَّ من إطلاق تلك العبارة ـ على أنَّ منها كلَّ بدّ! ـ فيقال: هو الذي لا حاجة له إلى الله تُخالِف مرضاتَه وتحطُّه عن مقام العبودية إلى منزلة الاستغناء. وأمَّا أن يقال: لا حاجة له إلى الله، فشطح قبيح.

وأمَّا حملُ أبي القاسم لكلامه على إسقاط المطالبات وانتفاء الاختيار والرضىٰ بمجاري الأقدار، فإنَّما يحسن في بعض الحالات؛ وهو في القدَر الذي يجري عليه بغير اختياره ولا يكون مأمورًا بدفعه ومنازعته بقدَرٍ آخر كما تقدم[1]. وأمَّا إذا كان مأمورًا بدفعه ومنازعته بقدَر هو أحبُّ إلى الله منه، وهو مأمور به أمرَ إيجابٍ أواستحباب، فإسقاطُ المطالبات وانتفاءُ الاختيار فيه والسعي عينُ العجز، والله تعالىٰ يلوم على العجز.

* وقال ابن خفيف[2]: «الفقرُ عدمُ الأملاك، والخروجُ عن أحكام الصفات»[3].

---

(١) انظر: ص(٧٧).

(٢) أبوعبدالله محمد بن خفيف الشيرازي المتوفى سنة (٣٧١هـ) كان شيخ المشايخ في وقته. طبقات الصوفية (٦٤٢).

(٣) القشيرية (٢٧٧).

قلتُ: يريد به[1] عدمَ إضافةِ شيءٍ إليه إضافةَ ملك، وأن يخرج عن أحكام صفات نفسه، ويبدلها بأحكام صفات مالكه وسيده. مثاله أن يخرج عن حكم صفة قدرته واختياره التي تُوجِبُ له دعوىٰ الملَكة[2] والتصرف والإضافات، ويبقىٰ بأحكام صفة القدرة الأزلية التي توجِبُ له العجز والفقر والفاقة، كما في دعاء الاستخارة: «اللَّهمَّ إنِّي أستخيرك بعلمكَ، وأستقدِرُكَ بقدرتِكَ، وأسألك من فضلك، فإنَّك تعلمُ ولا أعلمُ، وتقدِرُ ولا أقدِرُ[3]، وأنت علاَّمُ الغيوب»[4]، فهذا اتصاف بأحكام الصفات العلى في العبد، وخروج عن أحكام صفات النفس.

* وقال أبوحفص[5]: «لا يصح لأحدٍ الفقر حتَّىٰ يكون العطاءُ أحبَّ إليه من الأخذ، وليس السخاءُ أن يعطي الواجدُ المعدِمَ، وإنَّما السخاءُ أن يعطي المعدمُ الواجدَ»[6].

* وقال بعضهم[7]: «الفقيرُ: الذي لا يرىٰ لنفسه حاجةً إلى شيءٍ من الأشياءِ سوىٰ ربه تبارك وتعالىٰ».

---

(١) «به» ساقط من «ك،ط».

(٢) «ط»: «الملك». وفي «ك»: «دعوة الملك».

(٣) «ك،ط»: «من فضلك العظيم، فإنَّك تقدر ولا أقدر، وتعلم ولا أعلم». وكذا في صحيح البخاري.

(٤) من حديث جابر رضي الله عنه. أخرجه البخاري في كتاب التهجد (١١٦٢)، وانظر رقم (٧٣٩٠).

(٥) قد سبق له قولان آخران في ص(٩٩،١٠٠).

(٦) القشيرية (٢٧٧).

(٧) هو محمد المُسُوحي، انظر: المصدر السابق (٢٧٧).

* وسُئِلَ سهل بن عبدالله[١]: متى يستريحُ الفقير؟ فقال: «إذا لم ير لنفسه غير الوقت الذي هو فيه».

*وقال أبوبكر بن طاهر[٢]: «من حكم الفقير أن لا يكون[٣] له رغبة، وإنْ كان لا بدَّ فلا تجاوز رغبتُه كفايتَه»[٤] [١٩/أ].

*وسُئِلَ بعضهم[٥] عن الفقيرِ الصادق، فقال: «الذي لا يَملِك ولا يُملَك».

*وقال ذوالنون[٦]: «دوام الفقرِ إلى الله تعالىٰ مع التخليط أحبُّ إليَّ من دوام الصفاء مع العُجْبِ»[٧].

فصل

فجملة نعت الفقيرِ حقًّا أنَّه المتخلي من الدنيا تظرّفًا[٨]، والمتجافي عنها تعفّفًا، لا يستغني بها تكثّرًا[٩]، ولا يستكثر منها تملُّكًا. وإن كان

---

(١) التستري، انظر: المصدر السابق.

(٢) اسمه عبدالله بن طاهر الأبهري، من أقران الشبلي. وكان من أجلِّ المشايخ بالجبل. توفي نحو (٣٣٠هـ)، طبقات الصوفية (٣٩١).

(٣) «ف»: «تكون»، والأصل غير منقوط. وفي «ك،ط» والقشيرية كما أثبتنا.

(٤) القشيرية (٢٧٨).

(٥) هو أبوبكر المصري كمافي القشيرية. وهو محمد بن أحمد بن محمد الكناني المصري الشافعي ابن الحدَّاد، لازم النسائي وتخرَّج به، توفي سنة (٣٤٥هـ). السير (١٥/ ٤٤٥).

(٦) القشيرية (٢٧٨).

(٧) بعده في «ك،ط»: «والله أعلم».

(٨) «ك»: «تطرقًا»، «ط»: «تطرفًا»، وكلاهما تصحيف.

(٩) «ن»: «تكبرًا».

مالكًا لها بهذا الشرط لم تضرَّه[1]، بل هو فقيرٌ غناه في فقره، وغني فقرُه في غناه.

ومن نعته أيضًا أن يكون فقيرًا من حاله، وهو خروجه عن الحال تبرِّيًا، وتركُ الالتفات إليه تسلّيًا، وتركُ مساكنة الأحوال، والرجوعُ عن موافقتها؛ فلا[2] يستغني بها اعتمادًا عليها، ولا يفتقرُ إليها مساكنةً لها.

ومن نعته أنَّه يعمل على موافقة الله في[3] الصبر والرضىٰ والتوكل والإنابة، فهو عاملٌ على مراد الله منه لا علىٰ موافقة هواه، وهو تحصيل مراده من الله. فالفقيرُ خالص بكلِّيته لله عزَّوجلَّ، ليس لنفسه ولا لهواه في أحواله حظٌّ ولا نصيب[4]، بل عملُه بقيام شاهدِ الحقِّ وفناءِ شاهد نفسه. قد غيّبه شاهدُ الحقِّ عن شاهد نفسه، فهو يريد الله بمراد الله، فمعوَّله على الله، وهمَّته لا تقف دون شيءٍ سواه. قد فني بحبّه عن حبِّ ماسواه، وبأمره عن هواه، وبحسن اختياره له عن اختياره لنفسه. فهو في وادٍ، والنَّاسُ في واد!

خاضع، متواضع، سليم القلب، سلِس القياد[5] للحقِّ، سريع القلب إلى ذكر الله، بريء من الدعاوىٰ لا يدعي بلسانه ولا بقلبه ولا بحاله. زاهدٌ في كلِّ ماسوىٰ الله، راغبٌ في كلِّ ما يقرِّب إلى الله، قريبٌ من النَّاسِ، أبعد شيءٍ منهم، يأنس بما يستوحشون منه،

---

(١) «ف»: «لم يضره» تصحيف.

(٢) «فلا» ساقط من«ط» ومستدرك في القطرية.

(٣) «ط»: «والصبر»، وصحح في القطرية.

(٤) «ط»: «ونصيب».

(٥) «ط»: «القيادة»، وصحح في القطرية.

ويستوحش ممَّا يأنسون به، متفرد[1] في طريق طلبه، لا تقيده الرسوم، ولا تملكه العوائد[2]، ولا يفرح بموجود، ولا يأسف على مفقود.

من جالسه قرَّت عينه به، ومن رآهُ ذكَّرتْه رؤيتُه بالله. قد حملَ كَلَّه ومُؤنته عن النَّاسِ، واحتمل أذاهم، وكفَّ[3] أذاه عنهم. وبذلَ لهم نصيحته، وسبَّل لهم عِرْضه ونفسه لا لمعاوضة ولا لذلَّة وعجز. لا يدخلُ فيما لا يعنيه، ولا يبخلُ بما لا ينقصه.

وصفه الصدق والعفَّة والإيثار والتواضع والحلم والوقار والاحتمال. لا يتوقع لما يبذله للنَّاسِ منهم عوضًا[4]، ولا مدحة. لا يعاتِب، ولا يخاصم، ولا يطالِب، ولا يرىٰ له على أحدٍ حقًّا، ولا يرىٰ له على أحدٍ فضلاً.

مقبلٌ على شأنه، مكرمٌ لإخوانه، بخيل بزمانه، حافظ للسانه، مسافرٌ في ليله ونهاره، ويقظته ومنامه، لا يضع عصا السيرِ عن عاتقه حتَّىٰ يصل إلى مطلبه.

قد رُفِعَ له عَلَمُ الحبِّ، فشمَّرَ إليه، وناداهُ داعي الاشتياق، فأقبل بكلِّيته عليه. أجابَ منادي المحبة إذ دعاه: حيَّ على الفلاح، وواصل السُّرى[5] في بيداءِ الطلب، فحمِد عند الوصول مسراه[6]، وإنَّما يحمد

(١) «ك، ط»: «منفرد».
(٢) «ك، ط»: «الفوائد»، تحريف.
(٣) «ك»: «بكف أذاه».
(٤) «ط» «عوضًا منهم».
(٥) «ك»: «وصل السير». «ط»: «وصل السرى».
(٦) «ط»: «سراه».

القوم السُّرىٰ عند الصباح[١٩/ب]:

فحيَّ على جنَّاتِ عدنٍ فإنَّها ... منازِلُكَ الأولىٰ وفيها المخيَّمُ(١)
ولكنَّنا سَبْيُ العدوّ، فهل ترى ... نعـود إلى أوطاننـا ونسلِّـمُ
وحيَّ على روضاتها وخيامها ... وحيَّ على عيشٍ بها ليس يُسأَمُ
وحيَّ على يوم المزيد وموعدِ الـ ... ـمحبِّين، طوبىٰ للذي هومنهمُ
وحيَّ على وادٍ بها [هو أفيَحٌ ... وتربتُه من أذفرِ المسك أعظمُ](٢)
منابـرُ من نـورٍ [هناكَ وفضَّـةٍ ... ومن خالص العِقيانِ لا يتفصّمُ](٣)

---

(١) هذه القصيدة الميمية للمصنف رحمه الله. وقد أورد ٤٨ بيتًا منها في حادي الأرواح (٣٠-٣٢)، وطبعت كاملة ضمن مجموعة لم أقف عليها بعنوان «أربح بضاعة في معتقد أهل السنة والجماعة» سنة ١٣١٦هـ في الهند. ثم نشرتها مع النونية مكتبة ابن تيمية بالقاهرة سنه١٤٠٧هـ.

(٢) كذا ورد البيت في «ك،ط» وحادي الأرواح. وفي الأصل:

وحيَّ على واد بها أفيح به ... منابر من نـور.........

كذا ورد ناقصًا، وبعده بياض، فأراد بعضهم استدراك النقص فقال في الحاشية: «لعله «لدى الرسل تُعلم» أو «بها الرسل تكرم». وقد أثبت ناسخ «ف» الاقتراح الأوَّل، ولكن نبَّه على أنَّه «ليس هذا من كلام المصنف رحمه الله». وفي «ن» أيضًا ورد البيت كما في الأصل، فضرب بعضهم على «به منابر من نور»، وكتب بعده الشطر الثاني كما ورد في «ك».

وقد تبين من«ك» وحادي الأرواح أن «منابر من نور» ليس جزءًا من هذا البيت، بل هو بداية البيت التالي. هذا، وقد كتب بإزائه في الحاشية اليسرى: «تضيء بهم تلك المنابر» كأنَّه بداية بيت جديد لم يكتمل!

(٣) تكملة هذا البيت من«ك»، ولم يرد في الأصل وغيره إلاَّ أوَّله مع صدر البيت السابق. «لا يتفصم»: كذا بالفاء في «ك». وتفصم الشيء: انكسر دون بينونة. =

يـروَن به الرحمـنَ جـلَّ جـلالُـه كـرؤيــة بـدْرِ التِّـمِّ لا يُتَوَهَّــمُ

أوالشمس صحوًا ليس من دون أُفْقِها ضَبابٌ ولا غَيْمٌ هناكَ يُغيِّمُ

وبيناهمُ في عيشهم وسرورهم وأرزاقُهم تُجرىٰ عليهم وتُقسَمُ

إذا هُمْ بنورٍ ساطع قد بدا لهم فقيل: ارفعوا أبصاركم، فإذا هُمُ

بربِّهِمُ مِن فوقِهمْ وهو قائلٌ: سـلامٌ عليكـم طبتُمُ وسلِمتُـمُ

فياعجـبًا، ماعـذرُ من هو مؤمنٌ بهـذا ولا يسعـىٰ لـه ويُقـدِّمُ

فبادِرْ إذًا مادام في العمـر فسحةٌ وعَذْلُـك مقبــولٌ وصَرْفُـك قيِّمُ

فما فرحتْ بالوصل نفسٌ مَهينةٌ ولا فاز قلبٌ بالبطالـة يَنعَـمُ

فجِدَّ وسارِعْ واغتنِمْ ساعةَ السُّرى ففي زمن الإمكان يُسْعَىٰ ويُغنَمُ[(١)]

وسِرْ مسرعًا فالسَّيلُ[(٢)] خلفك مسرعٌ وهيهاتَ ما منـه مفــرٌّ ومهـزَمُ

فهــنَّ المنـايــا أيُّ واد نزلتَـه عليها القـدومُ أوعليـك ستقـدَم

وإن تكُ قد عاقتْك سُعدى فقلبُك الـ ـمُعَنَّىٰ رهينٌ في يديها مسلَّمُ

وقد ساعدتْ بالوصل غيرَك فالهوىٰ لها منكَ والواشي بها يتنعَّمُ

فدَعْهَا وسلِّ النفسَ عنها بجنَّةٍ من الفقر في روضاتها الدرُّ يَبسمُ

ومن تحتها الأنهارُ تخفِق دائمًا وطيـرُ الأمانـي فوقهـا يترنَّـمُ

= وفي حادي الأرواح بالقاف.

(١) «ط»: «تسعى وتغنم».

(٢) «ط»: «فالسير»، تحريف.

وقد ذُلِّلتْ منها القطوفُ فمن يُرِدْ ... جناها يَنَلْه كيف شاءَ وينعَمُ

وقد فُتِحت أبوابها وتزينت ... لِخُطّابها[1] فالحسنُ فيها مقسَّمُ

أقام على أبوابها داعي الهدىٰ ... هلمُّوا إلى دار السعادة تغنموا

وقد طابَ منها نُزْلُها ومقيلُها ... فطوبى لمن حلُّوا بها وتنعموا

وقد غرس الرحمنُ فيها غِراسَه ... من النَّاسِ، والرحمن بالغرس أعلمُ

فمن كان من غرس الإله فإنَّهُ ... سعيدٌ وإلا فالشقا متحتِّمُ

[٢٠/أ] فيامسرعينَ السيرَ بالله ربِّكم ... قِفوا بي على تلك الربوع وسلِّموا

وقولوا: محبٌّ قاده الشوقُ نحوَكم ... قضىٰ نحبَه فيكم تعيشوا وتسلَموا

قضىٰ الله ربّ العالمين قضيةً ... بأنَّ الهوىٰ يُعمي القلوبَ ويُبكِمُ

وحبُّكُمُ أصلُ الهدىٰ ومدارُه ... عليه وفوزٌ للمحبِّ ومغنمُ

وتفنىٰ عظامُ الصَّبِّ بعد مماته ... وأشواقُه وقفٌ عليه محرَّمُ

فياأيها القلبُ الذي ملَك الهوى ... أعِنّتَه، حتَّامَ هذا التلوُّمُ

وحتَّامَ لا تصحو وقد قرُب المدى ... ودقَّت كؤوسُ السير والنَّاسُ نُوَّمُ

بلى سوف تصحو حين ينكشف الغطا ... ويبدو لك الأمرُ الذي كنت تكتمُ

ويا موقدًا نارًا لغيرك ضؤوها ... وحرُّ لظاها بين جنبَيك يضرَمُ

أهذا جنَى العلمِ الذي قد غرستَه ... وهذا الذي قد كنتَ ترجوه تطعَمُ

(١) «ك»: «لخاطبها».

وهذا هو الحظُّ الذي قد رضيتَه ... لنفسك في الدَّارين لوكنت تفهَمُ

وهذا هو الربحُ الذي قد كسبته ... لعمرُك لا ربحٌ ولا الأصلُ يسلَمُ

بخلتَ بشيءٍ لا يضرُّك بذلُه ... وجُدْتَ بشيءٍ مثلُه لا يُقوَّمُ

وبعتَ نعيمًا لا انقضاءَ له ولا ... نظيرَ ببخسٍ عن قليلٍ سيُعدَمُ

فهلاَّ عكستَ الأمرَ إن كنتَ حازمًا ... ولكن أضعت الحزم لو[1] كنتَ تعلمُ

وتهدِمُ ما تبني بكفِّك جاهدًا ... فأنتَ مدىٰ الأيام تبني وتهدمُ

وعندَ مراد الحقِّ تفنىٰ كميِّتٍ ... وعندَ مراد النفس تُسْدِي وتُلحِمُ

وعند خلاف الأمر تحتجُّ بالقضا ... ظهير على الرحمن للجبر يزعُمُ[2]

تُنزِّه تلك النفسَ عن سوءِ فعلها ... وتعتِبُ[3] أقدارَ الإله وتظلِمُ

وتزعمُ مَعْ هذا بأنَّكَ عارف ... كذبتَ يقينًا في الذي[4] أنت تزعمُ

وما أنت إلا جاهل ثمَّ ظالم ... وإنَّكَ بين الجاهلين مقدَّمُ

إذا كان هذا نُصْحَ عبدٍ لنفسه ... فمن ذا الذي منه الهُدَىٰ يُتعلَّمُ

وفي مثل هذي الحال[5] قد قال من مضىٰ ... وأحسنَ فيما قالَه المتكلِّمُ:

---

(١) «ط»: «إن».

(٢) كذا في الأصل و«ف». وفي غيرهما: «ظهيرًا... تزعم». وفي «ن»: «ظهير» فزاد قارىء آنفًا!

(٣) «ط»: «وتغتاب».

(٤) «ك»: «بالذي».

(٥) «ك»: «هذا الحال». «ط»: «هذا كان».

(فإن كنتَ لاتدري فتلك مصيبةٌ | وإنْ كنتَ تدري فالمصيبةُ أعظمُ)
ولوتبصِرُ الدنيا وراءَ ستورها | رأيتَ خيالاً في منامٍ سيصرَمُ
كحُلْم بطيفٍ زارَفي النوم وانقضىٰ الـ | ـمنام وراح الطيفُ والصَّبُّ مغرمُ
وظلٍّ أرتْه الشمسُ عند طلوعها | سيقلِصُ في وقت الزوال ويُفصَمُ
ومُزنةِ صيفٍ طاب منها مقيلُها | فولَّت سريعًا والحَرورُ تضرَّمُ
فجُزْها مَمَرًّا لا مَقرًّا، وكنْ بها | غريبًا تعِشْ فيها حميدًا[1] وتسلَمُ
أو ابنَ سبيل قال في ظلِّ دوحةٍ | وراحَ وخلَّىٰ ظلَّها يتقسَّمُ
أخا سفر[2] لا يستقرُّ قرارُه | إلى أن يرىٰ أوطانَه ويُسلِّمُ
فياعجبًا كم مصرعٍ وعظتْ به | بنيها[3] ولكن عن مصارعها عَمُوا
سقَتْهم بكأس الحبِّ حتَّىٰ إذا انتشَوا[4] | سقتهم كؤوسَ السُّمِّ والقومُ قدظَمُوا
وأعجبُ مافي العبد رؤية هذه الـ | ـعظائمِ منها وهو فيها متيَّمُ
وأعجبُ من ذا أنَّ أحبابها الأُلىٰ | تُهينُ ولِلأَعداء تَرْعَىٰ[5] وتُكرِمُ
وذلك برهانٌ على أنَّ قدرَها | جناحُ بَعوضٍ أو أدقُّ وألأَمُ
وحسبُك ما قال الرسولُ ممثّلاً | لها ولدار الخلد والحقُّ يُفْهَمُ

---

(١) «ك»: «سعيدًا».
(٢) رسمه في الأصول: «أخى سفر» غير أن ناسخ «ف» ضبط الخاء بالفتحة.
(٣) «ط»: «عطبوا به بنيها»! الضمير في «وعظت» راجع إلى الدنيا.
(٤) «ط»: «انثنوا»، تصحيف.
(٥) «ط»: «للأعداء تُراعي».

كما يُدخِل الإنسانُ في اليمِّ إصبعًا ... وينزعُها منه فما ذاك يغنمُ
ألا ليتَ شعري هل أبيتَنَّ ليلةً ... على حذرٍ منها وأمريَ مُحكمُ
وهل أَرِدَنَ ماءَ الحياةِ وأرتوي ... على ظمأٍ من حوضه وهو مُفعَمُ
وهل تبدوَنْ أعلامُهم بعدما سَفَتْ ... عليها السوافي[1] تستبينُ وتُعلَمُ
وهل أفرُشَنْ خدِّي ثرىٰ عتَباتِهم ... خضوعًا لهم كيما يرِقُّوا ويرحموا
وهل أَرَيَنْ نفسي طريحًا ببابهم ... وطيرُ أماني الحبِّ فوقي تُحَوِّمُ
فوا أسفا تفنىٰ الحياةُ وتنقضي ... وعتبُكُم باقٍ، بقيتُمْ وعِشْتُمُ
فما منكمُ بدٌّ ولا عنكمُ غنىً ... وما لِيَ من صبرٍ فأسلوَ عنكمُ
فمن شاءَ فليغضبْ سواكم فلا إذًا[2] ... إذا كنتمُ عن عبدكم قد رضيتمُ
وعُقْبَىٰ اصطباري في رضاكم حميدةٌ ... ولكنَّها عنكم عِقَابٌ ومَغرمُ[3]
وما أنا بالشاكي لما ترتضونه ... ولكنَّني أرضىٰ به وأسلِّمُ
وحسب انتسابي من بعيدٍ إليكمُ ... وذلك حظٌّ مثلُهُ يُتَيَمَّمُ
إذا قيل: هذا عبدهم ومحبُّهم ... تهلَّلَ بِشرًا ضاحكًا يتبسَّمُ
وها هو قد أبدى الضراعةَ قائلٌ[4] ... لكم بلسان الحال والحالُ يُعلَمُ

(١) السوافي: الرياح التي تحمل الغبار وتذرو التراب.
(٢) «ط»: «أذى»، خطأ.
(٣) «ط»: «رضاكم هوى لكم حميد ولكنَّه عقاب».
(٤) كذا في الأصل وغيره. وفي«ط»: «قائلاً».

أحِبَّتَنَا عطفـًا علينـا فإنَّنـا | بنا ظمأٌ، والموردُ العذبُ أنتمُ
فياساهيًا في غَمْرةِ الجهلِ والهوىٰ | صريعَ الأماني عن قليلٍ ستندَمُ
أَفِقْ قد دنا الوقتُ الذي ليس بعده | سوىٰ جنَّةٍ أوحرِّ نارٍ تضرَّمُ
وبالسنَّة الغـرَّاءِ كـنْ متمسِّكًا | هي العروة الوثقىٰ التي ليس تُفْصَمُ
تمسَّكْ بها مَسْكَ البخيل بمالهِ | وعَضَّ عليها بالنواجذِ تسلمُ
وإِيَّاكَ ممَّا أحدث الناسُ بعدها | فمرتعُ هاتيكَ الحوادثِ أوخَمُ
وهَيِّىءْ جوابًا عندما تسمع النِّدا | من الله يومَ العرضِ: ماذا أجبتمُ
بهِ رُسُلي لمَّا أتوكمْ، فمن يُجِبْ | سواهم سيخزىٰ عند ذاك ويندمُ
وخذْ من تقىٰ الرحمن أسبغَ جُنَّةٍ | ليـومٍ بـه تبـدو عيـانًا جهنَّـمُ
ويُنصبُ ذاك الجسرُ من فوق متنها | فهاوٍ ومخدوشٌ وناجٍ مسلَّمُ
ويأتـي إلـهُ العالميـن لوعـده | فَيفْصِلُ مابين العباد ويحكمُ
ويأخذ للمظلوم إذ ذاك حقَّه | فياويحَ من قد كان للخلق يَظلِمُ
ويُنشَر ديوانُ الحساب وتوضَع الـ | ـموازينُ بالقسط الذي لا يُظَلَّمُ(١)
فلا مُجْرِمٌ يَخْشَىٰ هناكَ ظُلامةً | ولا مُحسِنٌ من أجره الذرَّ يُهضَمُ
وتشهد أعضاء المسيء بما جنىٰ | لذاك على فيه المهيمنُ يَختِمُ

---

(١) كذا في الأصل وغيره، وضبط في الأصل و«ف» بفتح الظاء واللام المشددة المفتوحة. والمعنى: الذي لا يُنسب إلى الظلم. وفي «ط»: «ليس يظلم».

وياليتَ شعري كيف حالُكَ عندما تَطايرُ كُتُبُ العالمين وتُقسَمُ
أتأْخُذُ باليمنىٰ كتابَكَ أم [ترىٰ][(1)] بيُسراكَ خلفَ الظهرِ منك تُسلَّمُ
وتقـرأ فيـه كـلَّ شـيءٍ عملتَـهُ فيُشرقُ منك الوجهُ أوهو يُظْلِمُ
تقولُ: كتابي هاؤمُ فاقرؤوهُ لي يُبَشِّرُ بالجنَّاتِ حقًّا ويُعلِمُ[(2)]
وإنْ تكن الأخرىٰ فإنَّكَ قائِلٌ ألا ليتني لم أوتَهُ فهو مُغرِمُ
فلا والذي شقَّ القلوب وأودع الـ ـمحبَّةَ فيهـا حيـث لا تتصـرَّمُ
وحَمَّلها قلبَ المحبِّ وإنَّهُ[(3)] ليضعفُ عن حمل القميص ويألمُ
وذلَّلَ فيها أنفسًا دون ذلِّها حياضُ المنايا فوقها هي حُوَّمُ
[فلقد فازَ أقوامٌ وحازوا مَرابحًا بتركهم الدنيا وَالاقبالِ منهُمُ[(4)]
على ربِّهم طولَ الحياة وحبِّهم على نهجِ ماقد سنَّهُ فَهُمُ هُمُ][(5)]

---

(1) زيادة من«ط» لإقامة الوزن، ولم ترد في الأصل وغيره.
(2) «ك، ط»: «اقرؤوه... تبشر... تعلم».
(3) «ف»: «فإنَّه».
(4) قد أضيف هذا البيت والذي يليه إلى الأصل قديمًا قبل أن تنسخ منها «ف». ولم يردا في أصل «ن» أيضًا، فزادهما بعضهم فيها بخط حديث.
(5) بعد هذا البيت بياض في الأصل بقدر نصف صفحة؛ لأنَّ هذا الجزء من الأصل نسخ مستقلاًّ عما يليه. وكتب في الحاشية اليمنى: «علَّق منها لنفسه نسخةً علي بن زيد بن علوان بن صَبِرة بن مهدي بن حريز الزبيدي الأثري اليمني داعيًا لناظمها ومالكها ولكل مسلم بالموت على الإسلام والسنة». وصاحب الحاشية من علماء القرن الثامن. ولد في «رَدْما» سنة ٧٤١هـ. وتوفي بالقاهرة سنة ٨١٣هـ. انظر ترجمته في شذرات الذهب (٤/ ١٠٢ ـ ١٠٣).

[٢١/١أ] قاعدة شريفة عظيمة القدر

حاجةُ العبدِ إليها أعظمُ من حاجته إلى الطعام والشراب والنفس، بل وإلى الروح التي بين جنبيه(١)

اعلم أنَّ كلَّ حيٍّ سوىٰ الله فهو فقيرٌ إلى جلب ما ينفعه ودفع ما يضره، والمنفعة للحي من جنس النعيم واللّذة، والمضرَّةُ من جنس الألم والعذاب. فلا بُدَّ له(٢) من أمرين: أحدهما هو المطلوب المقصود المحبوب الذي يَنتفعُ ويلتذُّ(٣) به، والثاني هو المعين الموصِل المحصِّل لذلك المقصود، والمانع لحصول المكروه، أوالدافع(٤) له بعد وقوعه.

فهاهنا أربعةُ أشياء: أمرٌ محبوب مطلوب الوجود، والثاني: أمرٌ مكروهٌ مطلوب العدم، والثالث: الوسيلة إلى حصول المحبوب، والرابع: الوسيلة إلى دفع المكروه. فهذه الأمور الأربعة ضروريةٌ للعبد، بل ولكلِّ حي سوىٰ الله، لا يقوم صلاحُه إلا بها.

إذا عرف هذا فالله سبحانه وتعالىٰ هو المطلوب المعبود المحبوب وحده لا شريك له، وهو وحده المعين للعبد على حصول مطلوبه، فلا معبود سواه، ولا معين على المطلوب غيره؛ وما سواه هو المكروهُ

---

(١) من هنا إلى ص (١٣٢) قارن بمجموع الفتاوى (١/ ٢١ ـ ٣٣)، فقد بنى المصنف كلامه في هذه القاعدة وما تبعها من فصلين وأوَّل الفصل الثالث على كلام شيخه، ونقل معظمه بنصه. وكذا فعل في «إغاثة اللهفان»: الباب السادس (٧٠ ـ ٩٦) غير أنه رتّبه هناك على نحو آخر.

(٢) «له» ساقط من«ك، ط».

(٣) «ك، ط»: «به ويتلذذ».

(٤) في «ك، ط» : « والدافع».

المطلوب[1] بُعْدُه، وهو المعينُ على دفعه. فهو سبحانه الجامع للأمور الأربعة دون ماسواه، وهذا معنىٰ قول العبد: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾[الفاتحة/ ٥]، فإنَّ العبادة[2] تتضمن المقصود المطلوبَ على أكمل الوجوه، والمستعان هو الذي يُستعان به على حصول المطلوب ودفع المكروه. فالأول من مقتضىٰ ألوهيته، والثاني من مقتضىٰ ربوبيته؛ لأنَّ الإله هو الذي يُؤلَه فيعبَدُ محبَّةً وإنابةً وإجلالاً وإكرامًا، والربُّ هو الذي يربُبُّ عبدَه فيعطيه خَلْقَه، ثمَّ يهديه إلى جميع أحواله ومصالحه التي بها كمالُه، ويهديه إلى اجتناب المفاسد التي بها فسادُه وهلاكُه.

وفي القرآن سبعة مواضع تنتظم هذين الأصلين:

أحدها: قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾[الفاتحة/ ٥].

الثاني: قوله تعالىٰ: ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ۝٨٨﴾[هود/ ٨٨].

الثالث: قوله تعالىٰ: ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾[هود/ ١٢٣].

الرَّابع: قوله تعالىٰ: ﴿عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا﴾[الممتحنة/ ٤].

الخامس: قوله: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ﴾[الفرقان/ ٥٨].

السادس: قوله: ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ ۝٣٠﴾[الرعد/ ٣٠].

السابع: قوله: ﴿وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ۝٨ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا

(١) «ط»: «والمطلوب» وقد صحح في القطرية.

(٢) «ط»: «هذه العبادة».

﴿إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا ۝٩﴾ [المزمل/ ٨-٩].

ومما يقرِّر هذا أنَّ الله سبحانه خلقَ الخلقَ لعبادته الجامعة لمعرفته والإنابة إليه ومحبته والإخلاصِ له. فبذكره تطمئنُّ قلوبُهم، وبرؤيته في الآخرة تقرُّ عيونُهم. ولا شيء يعطيهم في الآخرة أحبَّ إليهم من النظر إليه، ولا شيء يعطيهم في الدنيا أحبَّ إليهم من الإيمان به، ومحبتهم له، ومعرفتهم به.

وحاجتهم إليه في عبادتهم له وتألُّههم له كحاجتهم إليه ـ بل أعظم ـ في خلقه لهم[1]، وربوبيته لهم، ورزقه لهم. فإنَّ ذلك هو الغاية المقصودة التي بها سعادتُهم وفوزُهم، وبها ولأجلها يصيرون عاملين متحرِّكين، ولا صلاح لهم ولا فلاح ولا نعيم ولا لذَّة ولا سرور بدون ذلك بحال. فمن أعرض عن ذكر ربِّه فإنَّ له معيشةً ضنْكًا، ويحشره يوم القيامة أعمىٰ. ولهذا لا يغفرُ الله لمن يشرك به شيئًا، ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء. ولهذا كانت «لا إلٰهَ إلا الله» أفضلَ الحسنات، وكان توحيدُ الإلهية الذي كلمته «لا إله إلا الله» رأس الأمر.

فأمَّا توحيد الربوبية الذي أقرَّ به كلُّ المخلوقات فلا يكفي وحده، وإن كان لا بُدَّ منه، وهو حجة على من أنكر توحيدَ الألوهية، فحقُّ الله على العبادِ أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئًا، وحقُّهم عليه إذا فعلوا ذلك أن لا يعذبهم وأن يكرمهم إذا قدموا عليه.

وهذا كما أنَّهُ غايةُ محبوبِ العبدِ ومطلوبه، وبه سروره ولذَّته ونعيمه، فهو أيضًا محبوبُ الربِّ من عبده ومطلوبُه [٢١/ب] الذي يرضىٰ

---

(١) «لهم» ساقط من «ط».

به. ويفرح بتوبة عبده إذا رجع إليه وإلى عبوديته وطاعته أعظمَ من فرحِ منْ وجَدَ راحلتَه التي عليها طعامُه وشرابُه في أرض مهلكة بعد أن فقدها وأَيِسَ منها[1]، وهذا أعظمُ فرحٍ يكون.

وكذلك العبد لا فَرَحَ له أعظمُ من فرحِه بوجود ربِّه، وأنسِه به، وطاعته له، وإقباله عليه، وطمأنينتِه بذكره، وعمارة قلبه بمعرفته، والشوقِ إلى لقائه. فليس في الكائنات ما يسكن العبدُ إليه، ويطمئن به، ويتنعم بالتوجه إليه إلا الله سبحانه. ومن عبد غيرَه وأحبَّه ـ وإن حصل له نوع من اللَّذة والمودَّة والسكون إليه والفرَح والسرور بوجوده ـ ففسادُه به ومضرَّتُه وعطَبُه أعظمُ من فساد أكل الطعام المسموم اللذيذ الشهي الذي هو عذْبٌ في مبدئه، وعذابٌ في نهايته، كما قال القائل:

مآربُ كانت في الشباب لأهلها عِذابًا، فصارت في المشيب عَذَابا[2]

﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَاۚ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ۝٢٢﴾ [الأنبياء/ ٢٢]، فإنَّ قوام السماوات والأرضِ والخليقة بأن تأله الإلهَ الحقَّ، فلو كان فيهما آلهة أخر[3] غير الله لم يكن إلٰهًا حقًّا، إذ الإله الحق لا شريكَ له ولا سمي له ولا مثل له، فلو تألهت غيرَه لفسدت كلَّ الفساد بانتفاء ما به صلاحُها، إذ صلاحُها بتألُّهِ الإلٰهِ الحقِّ. كما أنَّها لا توجَد إلا باستنادها إلى الربِّ الواحد القهَّار،

---

(١) يشير إلى حديث الصحيحين، وسيأتي في ص (٥١٢).

(٢) تمثل به المؤلف في روضة المحبين (٦٣٣)، والداء والدواء (٢٦٦، ٣٦١)، والفوائد (٤٦).

(٣) «ط»: «إله آخر».

ومستحيلٌ[1] أن تستند في وجودها إلى ربَّين متكافئين، فكذلك يستحيل أن تستند في بقائها وصلاحها إلى إلٰهين متساويَين.

إذا عُرِفَ هذا فاعلم أنَّ حاجةَ العبد إلى أن يعبد الله وحده، ولا يشرك[2] به شيئًا في محبته، ولا في خوفه، ولا في رجائه، ولا في التوكل عليه، ولا في العمل له، ولا في الحلف به، ولا في النذر له، ولا في الخضوع له، ولا في التذلل والتعظيم والسجود والتقرب= أعظمُ من حاجة الجسد إلى روحه، والعين إلى نورها. بل ليس لهذه الحاجة نظير تقاس به، فإنَّ حقيقة العبد قلبه وروحه[3]، ولا صلاح لها إلا بإلٰهها الذي لا إلٰهَ إلا هو. فلا تطمئن في الدنيا إلا بذكره، وهي كادحة إليه كدحًا فملاقيته، ولا بدَّ لها من لقائه؛ ولا صلاح لها إلا بمحبتها وعبوديتها له، ورضاه وإكرامه لها.

ولو حصلَ للعبد من اللذات والسرور بغير الله ماحصلَ لم يدُمْ له ذلك، بل ينتقل من نوع إلى نوع، ومن شخص إلى شخص، ويتنعم بهذا في وقت، ثمَّ يتعذب به[4] ـ ولا بد ـ في وقت آخر. وكثيرًا ما يكون ذلك الذي يتنعم به ويلتذّ به غيرَ مُنْعِمٍ له ولا مُلِذّ، بل قد يؤذيه اتصالُه به ووجودُه عنده[5]، ويضرّه ذلك. وإنَّما يحصل له بملابسته من جنس مايحصل للجَرِب من لذَّة الأظفار التي تحكُّه، فهي تُدمي الجلد

(١) «ك، ط»: «يستحيل».

(٢) «ك، ط»: «وحده لا يشرك».

(٣) «ك، ط»: «وروحه وقلبه».

(٤) «ك»: «يعذب به». «ط»: «يعذب ولابد».

(٥) في الأصل وغيره: «عنه»، وهو سهو. والصواب ماأثبتنا من«ط».

وتُحْرِقُه[1] وتزيد في ضرره، وهو يؤثِر ذٰلك لما له في حكّها من اللّذّة. وهكذا ما يتعذب به القلب من محبَّة غير الله، هو عذابٌ عليه ومضرَّةٌ وألمٌ في الحقيقة، لا تزيد لذَّتُه على لذَّة حكِّ الجرِب. والعاقل يوازن بين الأمرين ويؤثِر أرجحَهما وأنفعَهما، والله الموفق المعين، وله الحجَّة البالغة، كما له النعمة السابغة.

والمقصود أنَّ إله العبد الذي لا بُدَّ له منه في كلِّ حالة وكلِّ دقيقة وكلِّ طرفة عين فهو[2] الإلهُ الحقُّ الذي كلُّ ماسواه باطل، الذي[3] أينما كان فهو معه. وضرورته إليه[4] وحاجته إليه لا تشبهها[5] ضرورةٌ ولا حاجةٌ، بل هي فوق كلِّ ضرورة، وأعظمُ من كلِّ حاجة، ولهذا قال إمام الحنفاء: ﴿لَآ أُحِبُّ ٱلۡأٓفِلِينَ ۝٧٦﴾[الأنعام/ ٧٦][6].

---

(١) «ط»: «تخرقه».

(٢) «ط»: «هو».

(٣) «ط»: «والذي».

(٤) «إليه» ساقط من «ك، ط».

(٥) «ف، ك»: «يشبهها».

(٦) زاد بعدها في «ك، ط»: «والله أعلم».

فصل

[٢٢/أ] **وهذا مبني على أصلين أحدهما**: أنَّ نفس الإيمان بالله، وعبادته، ومحبته، وإخلاص العمل له، وإفراده بالتوكل عليه هو غذاءُ الإنسان وقوتُه وصلاحُه وقِوامُه؛ كما عليه أهل الإيمان، وكما دلَّ عليه القرآن؛ لا كما يقوله من يقوله[١] إنَّ عبادته تكليف ومشقَّة على خلاف مقصود القلب ولذَّته، بل[٢] لمجرد الامتحان والابتلاء، كما يقوله منكرو الحكمة والتعليل؛ أو لأجلِ التعويض بالأجر لما[٣] في إيصاله إليه بدون معاوضةٍ منَّة[٤] تكدره، أو لأجل تهذيب النفس ورياضتها واستعدادها لقبول العقليات، كما يقوله من يتقرَّب إلى النبوات من الفلاسفة.

بل الأمرُ أعظمُ من ذلك كله وأجلُّ، بل أوامرُ المحبوب قرَّةُ العيون، وسرورُ القلوب، ونعيمُ الأرواح، ولذَّاتُ النفوس، وبها كمالُ النعيم. فقرَّةُ عين المحب في الصلاة والحج، وفرَحُ قلبِه وسروره ونعيمه في ذلك، وفي الصيام والذكر والتلاوة؛ وأمَّا الصدقة فعجب من العجب.

وأمَّا الجهاد، والأمرُ بالمعروف والنهي عن المنكر، والدعوة إلى الله، و الصبر على أعداء الله، فاللذّة بذلك أمر آخر لا يناله الوصف، ولا يدركه من ليس له نصيب منه، وكلُّ من كان به أقوَم كان نصيبه من الالتذاذ به أعظم.

---

(١) «ط»: «يقول».

(٢) «بل» ساقط من «ط»، ومستدرك في القطرية.

(٣) «ف»: «كما»، تحريف.

(٤) «ط»: «منه»، وصحح في القطرية.

ومن غلظ فهمُه وكثف طبعُه عن إدراك هذا فليتأمَّلْ إقدامَ القوم على قتل آبائهم وأبنائهم وأحبابهم، ومفارقة أوطانهم، وبذل نحورهم لأعدائهم، ومحبتهم للقتل، وإيثارهم له على البقاء، وإيثار لوم اللائمين، وذمّ المخالفين على مدحهم وتعظيمهم. ووقوعُ هذا من البشرِ بدون أمر يذوقه قلبُه من حلاوته ولذَّته وسروره ونعيمه ممتنع. والواقع شاهد بذلك، بل ما قام بقلوبهم من اللذّة والسرور والنعيم أعظم ممَّا يقوم بقلب العاشق الذي يتحمَّل ما يتحمله في موافقة رضى معشوقه، فهو[1] يلتذ به، ويتنعم به، لما يعلمُ من سرور معشوقه به:

فيا منكِرًا هذا تأخَّرْ فإنَّهُ   حرامٌ على الخُفَّاشِ أن يُبْصِرَ الشَّمْسَا

فمن كان مرادُه وجه[2] الله، وحياتُه في معرفته ومحبته، ونعيمُه في التوجّه إليه وذكرِه، وطمأنينتِه به وسكونه إليه وحدَه= عرف هذا وأقرَّ به.

الأصل الثاني: أنَّ[3] كمال النعيم في الدّار الآخرة أيضًا به تعالىٰ: برؤيته، وسماع كلامه، وقربه، ورضوانه؛ لا كما يزعمُ من يزعم أنَّه لا لذَّةَ في الآخرةَ إلا بالمخلوق من المأكول والمشروب والملبوس والمنكوح. بل اللذّة والنعيم التام في حظهم من الخالق تعالىٰ أعظمُ مما يخطر بالبال أويدور في الخيال.

وفي دعاء النبي ﷺ الذي رواه الإمام أحمد في مسنده، وابن حبان

---

(١) «ف»: «وهو»، قراءة محتملة.

(٢) «ك، ط»: «وحبه» تصحيف.

(٣) «أنّ» ساقطة من «ط». وفي «ك»: «والأصل الثاني أنّ».

والحاكم في صحيحيهما: «وأسألُكَ[1] لذَّة النَّظَرِ إلى وجهكَ، والشَّوْقَ إلى لقائِكَ، في غيرِ ضرَّاءَ مُضِرَّة، ولا فتنةٍ مُضِلَّة»[2].

ولهذا قال تعالىٰ في حقِّ الكفَّار: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ۝١٥ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا۟ ٱلْجَحِيمِ ۝١٦﴾ [المطففين/ ١٥، ١٦].

فعذاب الحجاب من أعظم أنواع العذاب الذي يعذِّب به أعداؤه، ولذَّة النظر إلى وجهه[3] الكريم أعظمُ أنواع اللذّات التي ينعم بها أولياؤه، ولا تقومُ حظوظُهم من سائر المخلوقات مقامَ حظِّهم من رؤيته، وسماع كلامه، والدنوِّ منه وقربه.

وهذان الأصلان ثابتان بالكتاب والسنَّة، وعليهما أهل العلم والإيمان، ويتكلَّم فيهما مشايخ الطرق العارفون، وعليهما أهل السنَّة والجماعة، وهما من فطرة الله التي فطر النَّاس عليها [٢٢/ب]، ويحتجّون على من ينكرهما بالنصوص والآثار تارةً، وبالذوقِ والوجد تارة، وبالفطرة تارةً، وبالقياس والأمثال تارةً.

وقد ذكرنا مجموع هذه الطرق في كتابنا الكبير في المحبَّة الذي سمَّيناهُ «المورد الصافي، والظل الضافي»[4] في المحبة وأقسامها

---

(١) «ط»: «أسألك» دون واو العطف.

(٢) أخرجه أحمد (١٨٣٢٥). والنسائي في الكبرى (١٢٢٩) وابن حبان (١٩٧١) والحاكم (١/ ٥٢٤ ـ ٥٢٥) من حديث عمار. والحديث صححه ابن حبان والحاكم وأقرّه الذهبي. (ز). وقد شرح المؤلف هذا الحديث في إغاثة اللهفان (١/ ٢٧).

(٣) «ك، ط»: «وجه الله».

(٤) وهو الذي ذكر المصنف في مفتاح دار السعادة (١/ ٢١٦) أنّه سيتبعه بعد الفراغ =

وأنواعها وأحكامها وبيان وجوب(١) تعلّقها بالإلٰه الحقّ دون ما سواه، وقد ذكرنا من ذلك ما يزيد على مائة وجه(٢).

وممَّا يوضح ذلك ويزيده تقريرًا أنَّ المخلوق ليس عنده للعبد نفع ولا ضرٌّ ولا عطاءٌ ولا منع، بل ربُّه سبحانه الذي خلَقه، ورزقَه، وبصَّره، وهداه، وأسبغَ عليه نِعَمه، وتحبَّب إليه بها مع غناه عنه، ومع تبغُّض العبدِ إليه بالمعاصي مع فقره إليه. فإذا مسَّه الله بِضُرٍّ فلا كاشف له إلا هو، وإذا أصابه بنعمةٍ فلا رادَّ لها ولا مانع؛ كما قال تعالىٰ: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٧﴾﴾[يونس: ١٠٧]. ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢﴾﴾[فاطر/ ٢].

فالعبدُ لا ينفع ولا يضرّ ولا يعطي ولا يمنع إلا بإذن الله، فالأمر كله لله أوَّلاً وآخرًا وظاهرًا وباطنًا، هو مقلِّب القلوب ومصرِّفها كيف يشاء،

= منه «كتابًا في الكلام على المحبة وأقسامها وأحكامها..» وانظر كتاب «ابن قيم الجوزية حياته، آثاره، موارده» (٣٠٥، ٢٨٥).

(١) «وجوب» ساقط من «ط».

(٢) قد أحال المصنف على ثلاثة كتب له أفاض الكلام فيها في هذا الموضوع. أحدها: «التحفة المكية» (بدائع الفوائد: ٨٤٦)، والثاني: «قرة عيون المحبين وروضة قلوب العارفين»، (مدارج السالكين: ١/ ١٥٦)، ولعلَّه هو الذي أشار إليه بالكتاب الكبير فيما بعد (المدارج ٢/ ٥٩٨). والثالث: «المورد الصافي» هذا، وقد وصفه هنا بالكبير. فيبدو أن «قرة عيون المحبين» و «المورد الصافي» اسمان لكتاب واحد. أما كتاب «روضة المحبّين» المطبوع فهو كتاب مستقلّ، ولم تذكر فيه الوجوه التي أشير إليها هنا.

المتفرِّد بالضرّ والنفع، والعطاء والمنع، والخفض والرفع ﴿مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآ﴾[هود/٥٦]، ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾﴾[الأعراف/ ٥٤].

وهذا الوجه أظهرُ(١) لعموم الناس من الوجه الأوَّل، ولهذا خوطبوا به في القرآن أكثر من الأوَّل. لكن من تدبَّر القرآن تبين له أنَّ الله سبحانه يدعو عباده بهذا الوجه إلى الأوَّل(٢). فهذا الوجه يقتضي التوكلَ على الله، والاستعانة به، والدعاء له، ومسألته دون ما سواه. ويقتضي أيضًا محبته وعبادته لإحسانه إلى عبده، وإسباغ نعمه عليه؛ فإذا عبده وأحبَّه وتوكَّل عليه من هذا الوجه دخل في الوجه الأوَّل.

وهذا كمن(٣) نزل به بلاءٌ عظيم وفاقة شديدة أوخوف مقلِق، فجعل يدعو الله ويتضرع إليه، حتَّىٰ فتح له من لذيذ مناجاته له وباب الإيمان به(٤) والإنابة إليه ما(٥) هو أحبُّ إليه من تلك الحاجة التي قصدها أوَّلاً، لكنَّه لم يكن يعرف ذلك أوَّلاً حتّى يطلبه ويشتاقَ إليه، فعرَّفه إيَّاه بما أقامه له من الأسباب التي أوصلته إليه.

والقرآن مملوءٌ من ذكر حاجة العباد(٦) إلى الله دون ما سواه، ومن

---

(١) «ط»: «أعظم»، ولعله غلط.

(٢) «ط»: «بهذا إلى الوجه الأوَّل».

(٣) في الأصل: «هكذا كمن»، وهو سهو، وكذا في «ف». وفي «ك،ط»: «هكذا من». والصوابُ ما أثبتنا من«ن» غير أنَّه قد سقط منها «نزل».

(٤) في مطبوعة إغاثة اللهفان (٨٤): «عظيم الإيمان به».

(٥) «ط»: «مناجاته له باب الإيمان... إليه وماهو».

(٦) «ك»: «العبد». «ط»: «العبيد».

ذكر نعمائه عليهم، ومن ذكر ما وعدهم به في الآخرة من صنوف النعيم واللذّات، وليس عند المخلوق شيء من هذا. فهذا الوجه يحقق التوكل على الله، والشكر له، ومحبته على إحسانه.

وممَّا يوضح ذلك ويقوِّيه أنّ تعلّق[1] العبد بما سوىٰ الله مضرَّةٌ عليه، إذا أخذَ منه القدرَ الزائد على حاجته المعينة له على عبودية الله، ومحبته، وتفريغ قلبه له. فإنَّه إن نالَ من الطعام والشراب فوق حاجته[2] ضرَّه أو أهلكه، وكذلك من النكاح واللباس. وإن أحبَّ شيئًا بحيث يخالله فلا بُدَّ أن يسأمه أو يفارقه، فالضررُ حاصلٌ له إن وُجد أو فُقِدَ، فإن فُقِدَ تعذَّب بالفراق وتألَّم، وإن وُجِدَ فإنَّهُ يحصل له من الألم أكثر ممَّا يحصل له من اللذّة. وهذا أمرٌ معلومٌ بالاعتبار والاستقراء أنَّ كلَّ من أحبَّ شيئًا دون الله لغير الله، فإنَّ مضرته أكثرُ من منفعته، وعذابَه به[3] أعظمُ من نعيمه.

يزيدُ[4] ذلك إيضاحًا أنَّ اعتمادَه على المخلوق وتوكُّلَه عليه يُوجِب له الضررَ من جهته، فإنَّه يُخْذَل من تلك الجهة. وهذا أيضًا معلوم بالاعتبار والاستقراءِ. فإنَّه[5] ما [٢٣/أ] علَّق العبدُ رجاءه وتوكلَه بغير الله إلا خابَ من تلك الجهة، ولا استنصرَ بغيره إلا خُذِلَ.

قال تعالىٰ: ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُواْ لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾ كَلَّا

---

(١) «ط»: «أنّ في تعلق».

(٢) «ط»: «حاجاته».

(٣) «به» ساقط من «ف،ك،ط». وفي«ن»: «أكبر من نعيمه».

(٤) «ف»: «سنزيد». ورسم الأصل يحتمل «سيزيد»، ولكن الرَّاجح ما أثبتنا من «ن» وغيرها.

(٥) «ط»: «أنَّهُ».

﴿سَيَكۡفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمۡ وَيَكُونُونَ عَلَيۡهِمۡ ضِدًّا ٨٢﴾[مريم/ ٨١، ٨٢].

وقال تعالىٰ: ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لَّعَلَّهُمۡ يُنصَرُونَ ٧٤ لَا يَسۡتَطِيعُونَ نَصۡرَهُمۡ وَهُمۡ لَهُمۡ جُندٌ مُّحۡضَرُونَ ٧٥﴾[يس/ ٧٤، ٧٥].

وقال تعالىٰ عن إمام الحنفاء إنَّه قال للمشركين: ﴿إِنَّمَا ٱتَّخَذۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡثَٰنًا مَّوَدَّةَ بَيۡنِكُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ ثُمَّ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكۡفُرُ بَعۡضُكُم بِبَعۡضٍ وَيَلۡعَنُ بَعۡضُكُم بَعۡضًا﴾[العنكبوت/ ٢٥].

ولمَّا كان غايةُ صلاحِ العبدِ في عبادة الله وحدَه، واستعانته به[١] وحده كان في عبادة غيره والاستعانة بغيره غايةُ مضرته.

وممَّا يوضح الأمرَ في ذلك ويبينه أنَّ الله سبحانه غني حميد، كريم رحيم، فهو محسِن إلى عبده مع غناه عنه، يريد به الخير ويكشف عنه الضر، لا لجلبِ منفعةٍ إليه سبحانه ولا لدفع مضرَّة، بل رحمةً وإحسانًا وجودًا محضًا. فإنَّه رحيم لذاته، محسن لذاته، جواد لذاته، كريم لذاته؛ كما أنَّهُ غني لذاته، قادر لذاته، حيٌّ لذاته. فإحسانه وجوده وبرّه ورحمته من لوازم ذاته، لا يكون إلا كذلك؛ كما أنَّ حياته[٢] وقدرته وغناه من لوازم ذاته، فلا يكون إلا كذلك.

وأمَّا العباد فلا يُتصوَّر أن يُحسِنوا إلا لحظوظهم، فأكثرُ ماعندهم للعبد أن يحبوه، ويعظِّموه، ويجلبوا[٣] له منفعةً، ويدفعوا عنه مضرَّة. وذلك من تيسير الله وإذنه لهم به، فهو في الحقيقة وليّ هذه

(١) «به» ساقط من «ن، ك، ط».
(٢) «حياته و» ساقط من «ك، ط».
(٣) «ك»: «يجلبوا»، ط: «ليجلبوا».

النعم[١] ومُسْدِيها ومُجرِيها على أيديهم. ومع هذا فإنَّهم لا يفعلون ذلك إلا لحظوظهم من العبد، فإنَّهم إذا أحبوه طلبوا أن ينالوا غرضهم من محبته، سواءٌ أحبوه لجماله الباطن أوالظاهر.

فإذا أحبّوا الأنبياء والأولياءَ، وطلبوا[٢] لقاءهم، فهم يحبون التمتع برؤيتهم وسماع كلامهم ونحو ذلك. وكذلك من أحبَّ إنسانًا لشجاعته أورياسته أوجماله أوكرمه، فهو يحبُّ أن ينال حظَّه من تلك المحبة، ولولا التذاذه بها لما أحبَّ ذلك.

وإن جلبوا له منفعةً كخدمةٍ ومالٍ[٣]، أودفعوا عنه مضرَّةً كمرض وعدوّ ـ ولو بالدعاء ـ فهم يطلبون العوض إذا لم يكن العمل لله. فأجناد الملوك، وعبِيدُ المالِك[٤]، وأُجَراء المستأجِر، وأعوانُ الرئيس كلُّهم إنَّما يسعون في نيل أغراضهم به، ولا يعرِّج أكثرُهم على قصد منفعة المخدوم إلا أن يكون قد عُلِّم وهُذِّبَ من جهة أخرىٰ، فيدخل ذلك في الجهة الدينية، أو يكون فيه طبعُ عدلٍ وإحسانٍ من باب المكافأة والرحمة؛ وإلا فالمقصودُ بالقصد الأوَّل هو منفعة نفسه.

وهذا من حكمة الله التي أقام بها مصالح خلقه، إذ قسَّم بينهم معيشتَهم في الحياة الدنيا، ورفع بعضهم فوق بعض درجات، ليتخذ بعضهم بعضًا سخريًّا[٥].

---

(١) «ط»: «النعمة».

(٢) «ك، ط»: «فطلبوا».

(٣) «كخدمة ومال» ساقط من «ك، ط».

(٤) «ك»: «الممالك». «ط»: «المماليك»، تحريف.

(٥) اقتبس من الآية (٣٢) من سورة الزخرف.

فصل

إذا تبيَّن هذا ظهر أنَّ أحدًا من المخلوقين لا يقصد منفعتَك بالقصد الأوَّل، بل إنَّما يقصد منفعته بك، وقد [٢٣/ب] يكون عليك في ذلك ضرر إذا لم يراع المحب العدلَ، فإذا دعوتَه فقد دعوتَ من ضرُّه أقربُ من نفعه. **وأمَّا الربُّ تبارك وتعالىٰ فهو يريدك لك ولمنفعتك لا لينتفع بك، وذلك منفعة لك محضة لا ضرر فيها.**

فتدبَّرْ هذا حقَّ التدبُّر وراعِه حقَّ المراعاة، فملاحظتُه تمنعك أن ترجو المخلوق أو تطلب منه منفعته لك، فإنَّه لا يريد ذلك البتة بالقصد الأوَّل، بل إنَّما يريد انتفاعه بك عاجلاً أوآجلاً، فهو يريد نفسه لا يريدك، ويريد نفع نفسه بك لا نفعك بنفسه. فتأمَّل ذلك، فإنَّ فيه منفعةً عظيمةً، وراحةً، ويأسًا من المخلوقين، وسدًّا[1] لباب عبوديتهم، وفتحًا لباب عبودية الله وحده. فما أعظمَ حظَّ من عرفَ هذه المسألة ورعاها حقَّ رعايتها!

ولا يحملنَّك هذا على جفوة النَّاسِ، وترك الإحسان إليهم واحتمال أذاهم، بل أحْسِن إليهم لله لا لرجائهم، فكما لا تَخَفْهم فلا ترجُهم[2].

وممَّا يبين ذلك أنَّ غالبَ الخلق يطلبون إدراك حاجتهم بك، وإن كان ذلك ضررًا عليك، فإنَّ صاحبَ الحاجة أعمىٰ[3] لا يرىٰ إلا قضاءَها.

---

(١) «ط»: «سدًّا» دون واو العطف.

(٢) كذا في الأصل و«ف». وفي «ن»: «لم تخفهم». وفي «ك،ط»: «فكما لا تخافهم لا ترجوهم».

(٣) «أعمى» ساقط من«ط».

فهم لا يبالون بمضرتك إذا أدركوا منك حاجاتهم(١)، بل لوكان فيها هلاكُ دنياك وآخرتك لم يبالوا بذلك.

وهذا إذا تدبره العاقل علم أنَّه عداوة في صورة صداقة، وأنَّهُ لا أعدىٰ للعاقل اللبيب من هذه العداوة. فهم يريدون أن يُصَيِّروك(٢) كالكِير، تنفخ بطنَك وتعصر أضالعَك(٣) في نفعهم ومصالحهم، بل لوأبيح لهم أكلُك لجزَرُوك كما يجزُرون الشاة! وكم يذبحونك كلَّ وقت بغير سكين لمصالحهم، وكم اتخذوك جسرًا ومعبرًا لهم إلى أوطارهم وأنت لا تشعر. وكم بعتَ آخرتك بدنياهم وأنت لا تعلم، وربما علمتَ! وكم بعتَ حظَّك من الله بحظوظهم منك، ورُحْتَ صفر اليدين! وكم فوّتوا عليك من مصالح الدَّارين، وقطعوك عنها، وحالوا بينك وبينها؛ وقطعوا عليك(٤) طريق سفرك إلى منازلك الأولىٰ ودارك التي دُعِيتَ إليها، وقالوا: نحن أحبابك، وخدمك، وشيعتك، وأعوانك، والساعون في مصالحك؛ وكذبوا! والله إنْ هم إلا أعداءٌ(٥) في صورة أولياءَ، وحربٌ في صورة مسالمين، وقُطّاع طريق في صورة أعوان. فواغوثاه ثمَّ واغوثاه(٦) بالله الذي يغيث ولا يغاث!

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجِكُمۡ وَأَوۡلَٰدِكُمۡ عَدُوّٗا لَّكُمۡ

---

(١) «ط»: «حاجتهم».

(٢) «ك»: «يضروك»، تحريف.

(٣) كتبت الكلمة في الأصل بالظاء، وكذا في «ف». وفي «ك، ط»: «أضلاعك»، وفي حاشية «ك» إشارة إلى ما في الأصل. وفيها أيضًا: «ينفخ... يعصر».

(٤) «عليك» ساقط من«ك، ط».

(٥) «ك، ط»: «إنَّهم لأعداء».

(٦) «ثمَّ واغوثاه» سقط من «ط» واستدرك في القطرية.

﴿فَٱحۡذَرُوهُمۡۚ﴾[التغابن/ ١٤].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلۡهِكُمۡ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ٩﴾[المنافقون/ ٩].

فالسعيد الرابح من عامل الله فيهم، ولم يعاملهم في الله. وخاف الله فيهم، ولم يخفهم في الله؛ وأرضىٰ الله بسخطهم، ولم يُرضِهم بسخط الله. وراقب الله فيهم، ولم يراقبهم في الله؛ وآثرَ الله عليهم، ولم يؤثرهم على الله. وأماتَ خوفهم ورجاءهم وحبَّهم من قلبه، وأحيا حبَّ الله وخوفَه ورجاءَه فيه. فهذا[1] هو الذي يكتَب عليهم، وتكون معاملته لهم كلُّها ربحًا، بشرط أن يصبر على أذاهم، ويتخذه مغنمًا لا مغرمًا، وربحًا لا خسرانًا.

[٢٤/أ] وممَّا يوضح الأمر أنَّ الخلقَ لا يقدر أحد منهم أن يدفع عنك مضرَّة البتة، إلا بإذن الله ومشيئته وقضائه وقدره. فهو في الحقيقة الذي لا يأتي بالحسنات إلا هو، ولا يذهب بالسيئات إلا هو: ﴿وَإِن يَمۡسَسۡكَ ٱللَّهُ بِضُرّٖ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَۖ وَإِن يُرِدۡكَ بِخَيۡرٖ فَلَا رَآدَّ لِفَضۡلِهِۦۚ﴾[يونس/ ١٠٧].

قال النبي ﷺ لعبدالله بن عباس: «واعلم أنَّ الخليقة لو اجتمعوا على أن ينفعوك لم ينفعوك إلا بشيءٍ كتبه الله لك، ولواجتمعوا على أن يضرّوك لم يضرّوك إلا بشيءٍ كتبه الله عليك»[2].

---

(١) «ن»: «وهذا».

(٢) أخرجه أحمد (٢٦٦٩)، والترمذي (٢٥١٦). والحديث صححه الترمذي وابن رجب. وأشار العقيلي إلى لين أسانيده عن ابن عباس. انظر: الضعفاء للعقيلي (٣/ ٥٤)، وجامع العلوم والحكم (١/ ٤٦٢) (ز).

وإذا كانت هذه حال الخليقة، فتعليق الخوف والرجاء بهم ضارّ غير نافع[1].

فصل

وجِمَاعُ هذا أنَّك إذا كنتَ غيرَ عالمٍ بمصلحتك، ولا قادرٍ عليها، ولا مريدٍ لها كما ينبغي، فغيرك أولىٰ أن لا يكون عالمًا بمصلحتك، ولا قادرًا عليها، ولا مريدًا لها. والله سبحانه هو يعلم ولا تعلم، ويقدر ولا تقدر، ويعطيك من فضله[2] لا لمعاوضة ولا لمنفعة يرجوها منك، ولا لِتكثُّر بك، ولا لِتعزُّز بك؛ ولا يخاف الفقر، ولا تنقص خزائنه على سعة الإنفاق. ولا يحبس فضلَه عنك لحاجةٍ منه إليه[3] واستغناءً به[4]، بحيث إذا أخرجه أثَّر ذلك في غناه.

وهو يحب الجود والبذل والعطاءَ والإحسان أعظمَ ممَّا تحبّ أنت الأخذ والانتفاع بما سألته، فإذا حبسه عنك فاعلم أنَّ هناك أمرَين لا ثالث لهما:

أحدهما: أن تكون أنت الواقف في طريق مصالحك، وأنت المعوِّق لوصول فضله إليك، وأنت حجر في طريق نفسك. وهذا الأمر[5] هو الأغلبُ على الخليقة، فإنَّ الله سبحانه قضىٰ فيما قضَىٰ به أنَّ ما عنده

---

(١) بعده في «ك، ط»: «والله أعلم».

(٢) انتهىٰ هنا ما نقله المصنف من كلام شيخه مع بسطه، انظر: مجموع الفتاوى (١/ ٣٣).

(٣) «ك، ط»: «إليك».

(٤) «ن، ك، ط»: «استغنائه»، تحريف.

(٥) «الأمر» ساقط من «ك، ط».

لا يُنال إلا بطاعته، وأنَّه ما استُجلِبتْ نِعَمُ الله بغير طاعته، ولا استُديمتْ بغير شكره، ولا عُوِّقتْ وامتنعتْ بغير معصيته. وكذلك إذا أنعمَ عليك ثمَّ سلبك النعمة فإنَّه لم يسلبها لبخلٍ منه ولا استئثار بها عليك، وإنَّما أنت السبب[1] في سلبها عنك، فإنَّ الله لا يغيِّر ما بقومٍ حتَّىٰ يغيروا ما بأنفسهم.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۝٥٣﴾ [الأنفال/ ٥٣].

فما أُزيلت نعمُ الله بغير معصيته:[2]

إذا كنتَ في نعمةٍ فارْعَهَا ... فإنَّ الذنوبَ تُزيلُ النِّعَمْ[3]

فآفتُك من نفسك، وبلاؤك منك[4]، وأنت في الحقيقة الذي بالغتَ في عداوتك، وبلغتَ من معاداة نفسك ما لا يبلغ العدوُّ منك، كماقيل:

ما يبلغُ الأعداءُ من جَاهلٍ ... مايبلغُ الجاهلُ من نفسِهِ[5]

---

(١) «ك»: «المتسبب»، «ط»: «المسبب».

(٢) زاد في «ك»: «شعر».

(٣) من ثمانية أبيات ذكرها المؤلف في الداء والدواء (١١٩)، وهذا البيت وحده في بدائع الفوائد (٧١٢) وسيأتي مرَّة أخرى في كتابنا ص (٥٨٢). وفي «ك،ط»: «فإنَّ المعاصي». وقد نقل ابن عساكر في تاريخ دمشق (٥٤/ ٧٠) بسنده أن عمر بن عبد العزيز كان يتمثل بهذا البيت وبيت آخر بعده:
ولا تحقرنّ صغير الذنوب ... فإنّ الإله شديد النقمْ
وانظرأيضًا: تاريخ دمشق (٥١/ ١٠٣).

(٤) «ك،ط»: «من نفسك».

(٥) ذكره المصنف في الداء والدواء (١٥٩)، والمدارج (١/ ٢٦٤)، والمفتاح =

ومن العجب أنَّ هذا شأنك مع نفسك، وأنت تشكو المحسن البريء عن الشكاية، وتتهم أقداره وتعاتبها[1] وتلومها! فقد ضيعت فرصتك، وفرَّطت في حظك، وعجز رأيك عن معرفة أسباب سعادتك وإرادتها، ثمَّ قعدتَ تعاتب القدرَ بلسان الحال والقال! [٢٤/ب] فأنت المعنيّ بقول القائل:

وعاجزُ الرَّأيِ مِضياعٌ لِفرصته ... حتَّىٰ إذا فاتَ أمرٌ عاتَبَ القَدَرا[2]

ولو شعرتَ بدائك[3]، وعلمتَ من أين دُهِيتَ ومن أين أُصِبتَ، لأمكنك تداركُ ذٰلك. ولكن قد فسدت الفطرة، وانتكس القلب، وأطفأ الهوىٰ مصابيح العلم والإيمان منه، فأعرضتَ عمَّن أصلُ بلائك ومصيبتك منه، وأقبلتَ تشكو مَنْ كلُّ إحسانٍ دقيقٍ أو جليلٍ وصل إليك فمنه. فإذا شكوته إلى خلقه كنتَ كما قال بعض العارفين، وقد رأىٰ رجلاً يشكو إلى آخر ما أصابه ونزل به[4]: يا هذا تشكو من يرحمك إلى من لا يرحمك!

وإذا عَرَتْكَ مصيبةٌ فاصْبِرْ لها ... صبرَ الكريمِ فإنَّهُ بك أرحَمُ[5]

= (٣/ ٣٨)، والبدائع (١١٨٨). وهو لصالح بن عبدالقدوس. انظر: التمثيل والمحاضرة (٧٧)، والحماسة البصرية (٨٧٤).

(١) «ط»: «تعانيها»، تصحيف.

(٢) تمثل به المصنف في الروح (٢٩)، والفوائد (١٨١). وقد أنشده الجاحظ في البيان (٢/ ٣٥٠)، ونسب في المنتخل (١/ ٤٦٣) إلى الخليل بن أحمد.

(٣) «ك،ط»: «برأيك»، تحريف.

(٤) زاد في «ط» بعد «به»: «فقال».

(٥) «ط»: «وإذا أتتك».

وإذا شكوتَ إلى ابنِ آدمَ إنَّما   تشكو الرحيمَ إلى الذي لا يرحمُ[1]

وإذا علمَ العبدُ حقيقة الأمر، وعرف من أين أُتِيَ، ومن أيِّ الطرقِ أُغيرَ على سَرْحه[2]، ومن أي ثَغرَةٍ سُرِقَ متاعُه وسُلِبَ= استحيا من نفسه ـ إن لم يستحي من الله ـ أن يشكوَ أحدًا من خلقه، أويتظلَّمهم، أويرىٰ مصيبته وآفته[3] من غيره.

قال تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٠﴾﴾[الشورى/ ٣٠].

وقال: ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا ۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ۗ﴾[آل عمران/ ١٦٥].

هذا، ومن المخاطب بهذا الخطاب؟[4] وقال تعالىٰ: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ۚ﴾[النساء/ ٧٩].

---

(١) قول العارف مع البيتين في المدارج (٢:١٩٢). ونسب البيتان في الكشكول (١:٧٤) إلى الإمام زين العابدين ـ مع اختلاف في الألفاظ ـ والبيت الثاني مع آخر في عيون الأخبار (٢/ ٢٦٠).

(٢) السرح: الماشية الراعية.

(٣) «ف»: «وافية»، تحريف.

(٤) «هذا. . .الخطاب» كذا في الأصل وغيره، وهو ساقط من «ط».

[الاحتجاج بالقدر، والنصوص الواردة في إثباته]

فإن أصررتَ[1] على اتهام القدر، وقلتَ: فالسببُ الذي أُصِبتُ به[2]، وأُتيتُ منه، ودُهيتُ منه، قد سبقَ به القدرُ والحكمُ، وكان في الكتاب مسطورًا، فلا بُدَّ منه على الرغم منِّي. وكيف لي أن أنفكَّ منه، وقد أُودع الكتابَ الأوَّل قبل بدءِ الخليقة، والكتابَ الثاني قبل خروجي إلى هذا العالم، وأنا في ظلمات الأحشاءِ، حين أُمر الملَكُ بكَتْب الرزق والأجل والسعادة والشقاوة؛ فلو جريتُ إلى سعادتي ماجريتُ حتَّىٰ بقيَ بيني وبينها شِبْرٌ لغلَب عليَّ الكتابُ، فأدركتني الشقاوة. فما حيلةُ من قلبُه بيدِ غيرِه، يقلّبه كيف يشاءُ، ويصرّفه كيف أراد؛ إن شاءَ أن يقيمه أقامه، وإن شاء أن يُزيغه أزاغه. فهو[3] الذي يحول بين المرءِ وقلبه، وهو الذي يثبِّت قلبَ العبد إذا شاءَ، ويُزلزله إذا شاء، فالقلب مربوب مقهور تحت سلطانه لا يتحركُ إلا بإذنه ومشيئته.

قال أعلمُ الخلق بربِّه صلوات الله وسلامه عليه: «مامن قلب إلا وهو بين إصبَعين من أصابع الرحمن، إن شاءَ أن يقيمه أقامه، وإن شاء أن يزيغه أزاغه»، ثمَّ قال: «اللَّهم مقلِّبَ القلوب ثبِّت قلوبَنا على دينك»[4] وكانت[5] أكثر يمينه: «لا، ومقلِّبِ القلوب»[6].

---

(١) سيأتي جواب هذا الشرط، والردّ على الاحتجاج بالقدر في ص (١٧٨).

(٢) «ط»: «منه».

(٣) هذه قراءة «ن». وفي «ف» وغيرها: «وهو».

(٤) تقدم تخريجه في ص (١٧).

(٥) «ك، ط»: «كان».

(٦) أخرجه البخاري في كتاب القدر (٦٦١٧) من حديث عبدالله بن عمر رضي الله عنهما.

وقال بعض السلف: «مثل القلب مثل ريشة في أرض فلاة تقلِّبها الرياحُ ظهرًا لبطن»[1].

فما حيلةُ قلبٍ هو بيد مقلِّبه ومصرِّفه، وهل له مشيئة بدون مشيئته؟ كما قال تعالىٰ: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[التكوير/ ٢٩].

وروى[2] عبدالعزيز بن أبي حازم، عن أبيه، عن سهل بن سعد قال: تلا رسول الله ﷺ قوله عزَّوجلَّ: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾﴾[محمد/ ٢٤] وغلامٌ جالسٌ عند رسول الله ﷺ فقال: بلىٰ، والله يارسول الله، إنَّ عليها لأقفالها، ولا يفتحُها إلا الذي أقفلها. فلمَّا وُلِّيَ عمرُ بن الخطَّاب طلَبه ليستعمله وقال: «لم يقل ذلك إلا من عقلٍ»[3].

وقال طاووس: «أدركتُ ثلاثمائة من أصحاب رسول الله ﷺ يقولون: كل شيء بقدر»[4].

---

(١) أخرجه ابن الجعد في مسنده (١٤٩٩) ومسدّد في مسنده (١/ ٦٠ مصباح الزجاجة). وذكره أحمد في المسند (١٩٧٥٧) وغيرهم عن أبي موسى موقوفًا. وقد اختلف في رفعه ووقفه، والموقوف هو الصواب. وقد روى معناه عن أبي عبيدة رضي الله عنه أبو نعيم في الحلية (١/ ١٠٢) وغيره، وفيه انقطاع. (ز).

(٢) «ط»: «وروي عن».

(٣) أخرجه الدارقطني في الأفراد كما في أطراف الغرائب والأفراد (٣/ ٩٨) (٢١٤٦)، والبيهقي في القضاء والقدر (٣٨٦). قال الدارقطني: «غريب من حديثه، عن سهل (يعني أبا حازم)، تفرد به ذؤيب بن عمامة، عن عبدالعزيز، عن أبيه». (ز).

(٤) شرح أصول اعتقاد أهل السنة (٥٣٥، ٦٦١). وسيأتي بلفظ آخر في ص (١٤٦).

وقال أيوب السَّخْتِياني: «أدركتُ الناسَ، وماكلامهم إلا: إن قُضِي، إن قُدِّرَ»[1].

وقال عطاء عن ابن عباس في قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝٢٩﴾[الجاثية/ ٢٩] قال: «كتب الله أعمال بني آدم وماهم عاملون إلى يوم القيامة». قال: «والملائكة تستنسخ مايعمل بنوآدم يومًا بيوم، فذلك قوله: ﴿إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝٢٩﴾[الجاثية/ ٢٩]»[2].

وفي الآية قول آخر: إن استنساخ الملائكة هو كتابتهم لما يعمل بنوآدم بعد أن يعملوه[3].

وقد يُقال وهو الأظهر: إنَّ الآية تعمُّ الأمرَين، فيأمر الله ملائكته فتنسخ[4] من أم الكتاب أعمالَ بني آدم، ثمَّ يكتبونها عليهم إذا عملوها، فلا تزيد على ما نسخوه من أم الكتاب ذرَّةً ولا تنقصها[5].

وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ۝٤٩﴾[القمر/ ٤٩]: «خلَق الله الخلقَ كلَّهم بقدر، وخلق الخير والشر؛ فخير الخير السعادة، وشر الشر الشقاوة»[6].

وفي صحيح مسلم عن أبي الأسود الدِّيلي[7] قال: قال لي عمران بن

---

(١) أخرجه البيهقي في القضاء والقدر (٢١٣)، وسنده صحيح. (ز).

(٢) تفسير الطبري (٢٥/ ١٥٦).

(٣) المصدر السابق، زاد المسير (٧/ ٣٦٥).

(٤) «ك، ط»: «فتستنسخ».

(٥) وانظر: شفاء العليل (٥٤).

(٦) تفسير الطبري (٢٧/ ١١١).

(٧) «ط»: «الدؤلي». وهكذا يقول البصريون. وكان ابن إسحاق وأبو عبيد وابن =

حصين: أرأيتَ ما يعمل الناس اليوم ويكدحون، أشيء قُضي عليهم ومضىٰ عليهم من قدرٍ قد سبق، أوفيما يستقبلون ممَّا أتاهم به نبيهم وثبتت به الحجة؟ قال قلتُ: لا، بل فيما قضي عليهم ومضىٰ. قال: أفيكون ذلك ظلمًا؟ قال: ففزعتُ فزعًا شديدًا وقلتُ: إنَّه ليس شيء إلا خلقه وملكه، ولا يُسأل عمَّا يفعل، وهم يُسْأَلون. فقال: سددك الله، إنَّما سألتُك لأحزر[1] عقلك. إنَّ رجلاً من مُزينة ـ أوجهينة ـ أتى النبيّ ﷺ فقال: يارسول الله، أرأيت ما يعمل النَّاس ويتكادحون فيه، أشيءٌ قضي عليهم ومضىٰ، أو فيما يستقبلون ممَّا أتاهم به نبيُّهم؟ قال: «فيما قضي عليهم ومضىٰ». فقال الرجل: ففيم العمل؟ قال رسول الله ﷺ: «من كان خلقه الله لإحدىٰ المنزلتين فسيستعمله لها. وتصديقُ ذلك في كتاب الله عزَّوجلَّ: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨﴾[الشمس/ ٧، ٨][2].

وقال مجاهد في قوله تعالىٰ: ﴿إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾[البقرة/ ٣٠]. قال: علِم من إبليس المعصية وخلقه لها[3].

وقال تعالىٰ: ﴿فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَـٰلَةُ﴾[الأعراف/ ٣٠]،

= حبيب يقولون: «الديلي»، كما جاء في الأصل وغيره. انظر: تقييد المهمل (١/ ٢٤٩ ـ ٢٥١) وفرحة الأديب (٣٥).

(١) أي لأمتحن عقلك، وأصل الحزر: التقدير والخرص. وفي «ط»: «لأحرز»، تصحيف.

(٢) أخرجه مسلم في كتاب القدر (٢٦٥٠).

(٣) أخرجه عبدالرزاق في تفسيره (١/ ٦٥) (٣٦) والطبري في تفسيره (١/ ٤٧٧)، وسنده صحيح (ز).

قال ابن عباس: إنَّ الله سبحانه بدأ خلقَ ابنِ آدم[1] مؤمنًا وكافرًا، ثمَّ قال: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ﴾[التغابن/ ٢]، ثمَّ يعيدهم يوم القيامة كمابدأ خلقَهم: مؤمنٌ وكافرٌ[2].

وقال سعيد بن جبير عن ابن عباس في قوله تعالىٰ: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ﴾[الأنفال/ ٢٤] قال: يحول بين المؤمن والكفر ومعاصي الله، ويحول بين الكافر وبين الإيمان[3] وطاعة الله[4].

وقال ابن عباسٍ ومالك وجماعة من [٢٥/ب] السلف في قوله تعالىٰ: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ۝١١٨ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾[هود/ ١١٨، ١١٩] قالوا: خلق أهلَ الرحمة للرحمة، وأهل الاختلاف للاختلاف[5].

وقال تعالىٰ: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟﴾[البقرة/ ٢٥٣]، ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَءَاتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا﴾[السجدة/ ١٣]، ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا﴾[يونس/ ٩٩]، ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾[الأنعام/ ٣٥]، ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ﴾[الأنعام/ ١١٢].

وقال تعالىٰ: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾[الأعراف/ ٣٧] أي نصيبهم ممَّا كتب لهم[6].

---

(١) «ط»: «خلق آدم»، وصحح في القطرية.

(٢) أخرجه الطبري في تفسيره (١٢/ ٣٨٢). وفيه: «مؤمنًا وكافراً». وسنده حسن. (ز).

(٣) «بين» لم يرد في «ك، ط».

(٤) أخرجه الطبري في تفسيره (١٣/ ٤٦٨).

(٥) انظر تفسير الطبري (١٥/ ٥٣٥ ـ ٥٣٦).

(٦) تفسير الطبري (١٢/ ٤١٣).

وقال: ﴿كَذَٰلِكَ سَلَكْنَٰهُ فِي قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ۝٢٠٠﴾[الشعراء/ ٢٠٠]، قال الحسن وغيره: الشرك والتكذيب[١].

وقال تعالىٰ: ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ ۝٧﴾[المطففين/ ٧]، قال محمد بن كعب القُرَظي: رقم الله عزَّوجلَّ كتاب الفجار في أسفل الأرض، فهم عاملون بما قد رُقِمَ في ذلك الكتاب. ورقم كتابَ الأبرار، فجعله في علِّيين، فهم يؤتىٰ بهم حتى يعملوا ما قد رُقِمَ عليهم في ذلك الكتاب[٢].

وقال ابن عباس: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ﴾[المسد/ ١]: بما جرى من القلم في اللوح المحفوظ[٣].

وقال مجاهد في قوله تعالىٰ: ﴿وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا﴾[يس/ ٩] قال: «عن الحق»[٤]. وفي قوله: ﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً﴾[الإسراء/ ٤٦] قال: «كالجَعْبة فيها السهام»[٥].

وقال ابن عباس في قوله تعالىٰ: ﴿وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾[الجاثية/ ٢٣] قال: «أضلَّه في سابق علمه»[٦]. وقال في قوله حكايةً عن عدوه إبليس

---

(١) تفسير الطبري (١٩/ ١١٥).
(٢) أخرجه البيهقي في القضاء والقدر (٥٣٤)، وسنده حسن (ز).
(٣) أخرجه البيهقي في القضاء والقدر (٤٩١) بسند صحيح، ولفظه: «أوَّل ماخلق الله القلم وأمره أن يكتب ماهو كائن، فكتب فيما كتبَ: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ﴾ (ز).
(٤) تفسير الطبري (٢٢/ ١٥٢).
(٥) تفسير الطبري (٢٤/ ٩١).
(٦) تفسير الطبري (٢٥/ ١٥١).

﴿فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِي﴾[الأعراف/ ١٦] قال: «أضللتني»[١].

وقال في قوله: ﴿مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَٰتِنِينَ ﴿١٦٢﴾ إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٦٣﴾﴾[الصافات/ ١٦٢، ١٦٣] قال: «من قضيتُ له أنَّه صالي الجحيم»[٢].

وقال عمر بن عبدالعزيز: لوأراد الله أن لايعصىٰ لم يخلق إبليس، وقد فصَّل لكم وبيَّن لكم: ما أنتم عليه بفاتنين إلا من قدِّر له[٣] أن يصلىٰ الجحيم[٤].

وقال وُهَيب بن خالد: حدثنا خالد قال: قلتُ للحسن: ألهذه خلق آدم ـ يعني السماء ـ أم للأرض؟ فقال: «لا بل للأرض». قال: قلتُ: أرأيتَ لو اعتصمَ من الخطيئة فلم يعملها، أكان تُرِكَ في الجنَّة؟ قال: «سبحان الله كان[٥] له بد من أن يعملها؟»[٦].

وقال تعالىٰ: ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾[الأنبياء/ ٧٣]، وقال: ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ﴾[القصص/ ٤١]، وقال: ﴿وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾﴾[الفرقان/ ٧٤]، أي أئمة يُهْتدى بنا، ولا تجعلنا أئمة ضالِّين يَدعُون إلى النار.

---

(١) تفسير الطبري (١٢/ ٣٣٢).

(٢) تفسير الطبري (٢٣/ ١٠٩).

(٣) «له» ساقط من «ط».

(٤) أخرجه الآجري في الشريعة (٢٣٠)، والبيهقي في الأسماء والصفات (٣٧٣) (ز).

(٥) «ن، ط»: «أكان».

(٦) أخرجه اللالكائي في أصول الاعتقاد (١٠٠٦) (ز).

وقال تعالىٰ: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ﴾[الأنعام/ ٢٨].

وقال: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الأنعام/ ١١٠].

وقال: ﴿۞ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾[الأنعام/ ١١١].

وقال زيد بن أسلم: «والله ما قالت القدرية كما قال الله عزَّوجلَّ، ولا كما قال رسوله، ولا كما قال أهل الجنَّة، ولا كما قال أهل النَّار، ولا كما قال أخوهم إبليس. قال الله عزَّوجلَّ: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾[الإنسان/ ٣٠، التكوير/ ٢٩]، وقالت الملائكة: ﴿لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا﴾[البقرة/ ٣٢]، وقال شعيب: ﴿وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾[الأعراف/ ٨٩]، وقال أهل الجنَّة: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ﴾[الأعراف/ ٤٣]، وقال أهل النَّار: ﴿غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا﴾[المؤمنون/ ١٠٦]، وقال أخوهم إبليس: ﴿رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي﴾[الحجر/ ٣٩]»(١).

وقال مجاهد في قوله عزَّوجلَّ: ﴿وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ﴾[الإسراء/ ١٣] قال: «مكتوب في عنقه شقي أو سعيد»(٢).

وقال ابن عباس في قوله: ﴿وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾[المائدة/ ٤١] «يقول: ومن يرد الله ضلالته لم تغنِ عنه شيئًا»(٣).

---

(١) أخرجه اللالكائي (١٠١٢) (ز).

(٢) نحوه في تفسير الطبري (١٥/ ٥١).

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (٤/ ١١٣٣) (٦٣٧٠، ٦٣٧١) وسنده حسن (ز).

وذكر الطبري وغيره من حديث سويد [٢٦/أ] بن سعيد[1] عن سوَّار بن مصعب عن أبي حمزة عن مِقسَم عن ابن عباس: صعد النبي ﷺ المنبر، فحمدالله وأثنىٰ عليه، ثمَّ بسط يده اليمنى فقال: «بسم الله الرحمن الرحيم، كتاب من الله الرحمن الرحيم لأهل الجنَّة بأسمائهم، وأسماء آبائهم وقبائلهم وعشائرهم، مجمَلٌ[2] أوَّلُهم على آخرهم، لا ينقَص منهم ولا يُزاد فيهم، فرغ ربكم. وقد يُسلك بأهل السعادة طريق الشقاء حتى يقال: كأنَّهم هم، بل هم هم، ما أشبههم بهم، بل[3] هم هم، فيردّهم ما سبق لهم من الله من السعادة، فيعمل بعمل أهل الجنَّة، فيدخلها قبل موته بفَواق ناقة. وقد يُسلك بأهل الشقاء طريق السعادة حتى يقال: كأنَّهم هم، بل هم هم، ما أشبههم بهم، بل هم هم، فيردّهم ما سبق لهم من الله، فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها ولو قبل موته بفَواق ناقة. فصاحب الجنَّة مختوم له بعمل أهل الجنَّة وإنْ عمِل عملَ أهل النار، وصاحب النار مختوم له بعمل أهل النَّار وإنْ عمِل بعمل أهل الجنَّة». ثمَّ قال رسول الله ﷺ: «الأعمال بخواتيمها»[4].

وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ

---

(١) «ط»: «سعد» خطأ.

(٢) «ف»: «فحمل» بالحاء، وأكد ناسخها بوضع حاء صغيرة تحتها، وهو تصحيف. وفي «ك،ط»: «فجمل»، وهي قراءة محتملة. وستأتي الكلمة مرّة أخرى في ص (١٦٧). جَمَلَ الشيءَ: جمعه عن تفرق. وفي رواية: «أُجمِل على آخرهم» أي أحصوا وجُمعوا. انظر: النهاية (١/٢٩٨).

(٣) سقطت «بل» من «ط». وفي القطرية: «بلى»!

(٤) أخرجه اللالكائي (١٠١٧). من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، وسنده ضعيف جدًّا (ز).

﴿كَفَرُوا سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾﴾[البقرة/ ٦]، وفي قوله: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾[الأنعام/ ٣٥]، وقوله[(١)]: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا﴾[الأنعام/ ١٢٥]، وفي قوله[(٢)]: ﴿مَّا كَانُوا لِيُؤْمِنُوٓا إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾[الأنعام/ ١١١]، وقوله[(٣)]: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا﴾[السجدة/ ١٣]، وقوله: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا﴾[يونس/ ٩٩]، وقوله: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا﴾[(٤)][يس/ ٨]، وقوله: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا﴾[الكهف/ ٢٨] ونحو هذا من القرآن: «وإنَّ رسول الله ﷺ كان يحرص أن يؤمن جميعُ النَّاس ويتابعوه على الهدى، فأخبره الله عزّوجلّ أنَّه لا يؤمن إلا من سبق له من الله السعادة في الذكر الأوَّل. ثمَّ قال لنبيه ﷺ: ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾﴾[الشعراء/ ٣]، ويقول: ﴿إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَٰقُهُمْ لَهَا خَٰضِعِينَ ﴿٤﴾﴾[الشعراء/ ٤]، ثمَّ قال: ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾[فاطر/ ٢]. ويقول: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ﴾[آل عمران/ ١٢٨][(٥)].

وفي صحيح مسلم عن طاوس: أدركتُ ناسًا من أصحاب رسول الله ﷺ يقولون: كلُّ شيءٍ بقدر. وسمعت عبدالله بن عمر يقول: قال رسول

(١) «ك، ط»: «وفي قوله».
(٢) «ط»: «وفي قوله تعالى».
(٣) «ط»: «وفي قوله».
(٤) في الأصل وغيره: «وجعلنا»، وهو سهو.
(٥) انظر: تفسير الطبري (١/ ٢٥٢)، والأسماء والصفات (١٠٤) للبيهقي، وليس فيها آية فاطر وآية آل عمران.

الله ﷺ: «كل شيء بقدر، حتَّى العَجْز والكَيْس»[1].

وفي صحيح مسلم أيضًا[2] عن عبدالله بن عمرو[3] قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «كتب الله مقادير الخلق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة وعرشه على الماء»[4].

وفي صحيحه أيضًا عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «المؤمن القوي خيرٌ وأحبُّ إلى الله من المؤمن الضعيف، وفي كلٍّ خير، فاحرصْ على ما [٢٦/ب] ينفعك واستعنْ بالله ولا تعجز، وإن أصابك شيءٌ فلا تقل: لو أنِّي فعلتُ كذا وكذا، ولكن قل: قدَّر اللهُ وماشاءَ[5] فعل، فإنَّ «لو» تفتح عمل الشيطان»[6].

وفي صحيحه أيضًا عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ النذْرَ لا يُقَدِّرُ لابن آدمَ شيئًا لم يكن الله قدَّرَه، ولكنِ النَّذرُ يُوافِقُ القدَر فيُخرِجُ ذٰلِكَ من البَخيلِ مَا لَمْ يكن يريد أن يُخرجَه»[7].

وفي حديث جبريل وسؤاله للنبي[8] ﷺ عن الإيمان قال: «الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله والقدر خيره وشرِّه»[9].

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب القدر (٢٦٥٥).
(٢) سقط «أيضًا» من «ك، ط».
(٣) «ك، ط»: «عمر»، خطأ.
(٤) كتاب القدر (٢٦٥٣).
(٥) «ط»: «ماشاء الله».
(٦) كتاب القدر (٢٦٦٤).
(٧) كتاب النذر (١٦٤٠)، وانظر: صحيح البخاري (٦٦٩٤).
(٨) «ك، ط»: «النبي».
(٩) أخرجه مسلم في كتاب الإيمان (٨) من حديث عمر رضي الله عنه.

وفي الصحيحين حديث ابن مسعود في التخليق، وفيه: «فوالذي لا إله غيره إنَّ أحدكم ليعملُ بعمل أهل الجنَّة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراعٌ، فيسبق عليه الكتابُ، فيعملُ بعمل أهل النَّارِ، فيدخل النَّار. وإنَّ أحدكم ليعمل بعمل أهل النَّارِ حتَّى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتابُ، فيعمل بعمل أهل الجنَّة، فيدخلها»[١].

ذكر[٢] الطبري عن الحسن بن علي الطوسي، حدثنا محمد بن يزيد الأسفاطي البصري محدِّث البصرة قال: رأيتُ النبي ﷺ في النوم فقلتُ: يا رسول الله، حديث عبدالله بن مسعود حدَّثني الصادق المصدوق ـ أعني حديث القدر ـ فقال: «إي والله الذي لا إله إلا هو حدَّثتُ به، رحم الله عبدالله بن مسعود حيث حدَّث به، ورحم الله زيد بن وهب حيث حدَّث به، ورحمَ الله الأعمش حيث حدَّث به، ورحمَ الله من حدَّث به قبل الأعمش، ورحمَ الله من يحدث به بعد الأعمش»[٣].

وفي صحيحِ مسلم عن ابن مسعود: «الشقيُّ من شَقِيَ في بطن أُمِّه، والسعيدُ من وُعِظَ بغيره»[٤].

وقد رويَ حديث تقدير السعادة والشقاوة في بطن الأم من حديث عبدالله بن مسعود[٥]، وأنس بن مالك[٦]، وعبدالله بن

---

(١) أخرجه البخاري في القدر (٦٥٩٤) وغيره، ومسلم في القدر (٢٦٤٣).
(٢) «ن،ط»: «وذكر».
(٣) انظر اللالكائي (١٠٤٣).
(٤) كتاب القدر (٢٦٤٥).
(٥) انظر التعليق السابق.
(٦) البخاري (٦٥٩٥)، ومسلم (٢٦٤٦).

عمر[١]، وعائشة أم المؤمنين[٢]، وحذيفة بن أُسَيد[٣]، وأبي هريرة[٤].

وقال أبو الحسن علي بن عبيد[٥] الحافظ: سمعتُ أبا عبدالله بن أبي خيثمة يقول: سمعت عمرو بن علي الفلَّاس يقول: انحدرتُ من سُرَّ من رأى إلى بغداد في حاجة لي، فبينما أنا أمشي في بعض الطريق إذا بجُمْجُمةٍ قد نخِرت فأخذتُها، فإذا على الجبهة مكتوب: «شقي»، والياء مكسورة إلى خلف![٦] وهؤلاء كلهم أئمة حفاظ، ذكره الطبري في «السنَّة».

وفي الصحيحين حديث علي عن النبي ﷺ: «ما منكم من أحدٍ إلا كُتِبَ مقعده من النار ومقعده من الجنَّة، فقالوا: يارسول الله، أفلا نتكلُ على كتابنا، وندعُ العمل؟ فقال: «اعملوا فكلٌّ ميسَّرٌ لماخُلِقَ له: أمَّا من كان من أهل السعادة فييسَّر لعمل أهل السعادة، وأمَّا من كان من أهل الشقاوة فييسَّر لعمل أهل الشقاوة» ثمَّ قرأ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ ۝١٠﴾[الليل/ ٥ـ١٠][٧].

---

(١) عند ابن وهب في القدر (٣٠) وغيره. وقد اختلف في رفعه ووقفه، والصواب أنّه موقوف كما في القدر للفريابي (١٣٨، ١٣٩) والسنة لابن أبي عاصم (١٨٨، ١٩٠) (ز).

(٢) عند اللالكائي (١٠٥٣)، والآجري في الشريعة (٣٦٥)، وهو حديث منكر (ز).

(٣) في صحيح مسلم (٢٦٤٤).

(٤) عند اللالكائي (١٠٥٥، ١٠٥٦) وغيره، وسنده صحيح (ز).

(٥) «علي» ساقط من «ط»، واستدرك في القطرية.

(٦) اللالكائي (١٠٦١) (ز).

(٧) أخرجه البخاري في كتاب الجنائز وغيره(١٣٦٢، ٤٩٤٥ـ٤٩٤٨)، ومسلم في =

وفي الصحيحين عن عمران بن حصين أنَّ النبيّ ﷺ سُئِلَ: أَعُلِمَ أهلُ الجنَّة من أهل النَّارِ؟ قال: «نعم»، قيل له[1]: ففيم يعمل العاملون؟ قال: «نعم، [٢٧/أ] كلّ ميسَّر لما خلق له»[2].

وفي صحيح مسلم عن عائشة قالت: دُعِيَ رسول الله ﷺ إلى جنازة غلام من الأنصار، فقلت: يا رسول الله، طوبى لهذا، عصفورٌ من عصافير الجنَّة، لم يدرك السوءَ ولم يعمله. قال: «أوغيرَ ذلك، إنَّ الله تعالى خلق للجنَّة أهلاً، خلقَهم لها وهم في أصلاب آبائهم. وخلق للنَّارِ أهلاً، خلقَهم لها وهم في أصلاب آبائهم»[3].

وفي الصحيحين[4] عن ابن عباس عن أبيّ بن كعب عن النبيّ ﷺ قال: «الغلام الذي قتله الخضر طُبِع يومَ طُبِع كافرًا، ولو عاش لأرهقَ أبوَيه طغيانًا وكفرًا».

وفي مسند الإمام أحمد عن عبدالله بن عمرو بن العاص قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «إنَّ اللهَ خلقَ الخلقَ في ظلمة، ثمَّ ألقىٰ عليهم من نوره». وفي لفظ: «فجعلهم في ظلمة واحدة، فأخذ من نوره فألقاه على تلك الظلمة، فمن أصابه النور اهتدى، ومن أخطأه ضلَّ، فلذلك أقولُ:

= القدر (٢٦٤٧).

(١) «له» ساقط من «ك،ط».

(٢) أخرجه البخاري في القدر (٦٥٩٦)، ومسلم في القدر (٢٦٤٩).

(٣) كتاب القدر (٢٦٦٢).

(٤) كذا عزاه المصنّف إلى الصحيحين هنا، وفي تهذيب السنن (١٢/ ٣٢٠)، وشفاء العليل (٥٠)، ولكن لم يرد هذا اللفظ إلا في صحيح مسلم في كتاب القدر (٢٦٦١).

جفَّ القلمُ على علم الله»[١].

وذكر راشد بن سعد عن عبدالرحمن بن أبي قتادة[٢] السلَمي سمع[٣] النبي ﷺ يقول: «خلقَ اللهُ آدمَ وأخرجَ الخلقَ من ظهره فقال: هؤلاء في الجنَّة ولا أبالي، وهؤلاء في النَّارِ ولا أُبالي» قال: قيل علامَ[٤] نعمل؟ قال: على مواقع القَدَر»[٥].

وذكر أبوداود في كتاب القدر عن عبدالله بن مسعود أنَّهُ مرَّ على رجل

(١) أخرجه أحمد (٦٦٤٤)، والترمذي (٢٦٤٢)، وابن حبان (٦١٦٩، ٦١٧٠) من حديث عبدالله بن عمرو، وقال الترمذي: «هذا حديث حسن»، وصححه ابن حبان (ز).

(٢) «أبي قتادة»: كذا وقع في الأصل وغيره، وكذا نقله المصنف في إسناد آخر «عن إسحاق بن راهويه، أخبرنا بقية بن الوليد قال: أخبرني الزبيدي محمد بن الوليد، عن راشد بن سعد، عن عبدالرحمن بن أبي قتادة البصري عن أبيه عن هشام بن حكيم بن حزام...». الروح (٣٧٩)، أحكام أهل الذمة (٥٤٧)، شفاء العليل (٣١) (وليس فيه «البصري»). ثمَّ قال في أحكام أهل الذمة (٥٥٩): «وأبوقتادة البصري، وهو مجهول». قلت: لم أجد من سمَّىٰ أبا عبدالرحمن: «أبا قتادة» سواء في هذا السند أوالسند السابق. فالصحابي المعروف: عبدالرحمن بن قتادة السلمي، كما في طبقات ابن سعد (٧/٤١٧)، والإصابة (٤/٣٥٢) وغيرهما. أما «البصري» فهو في مطبوعتي الروح وأحكام أهل الذمة تصحيف «النصري». وانظر الكلام على نسب الصحابي واضطراب هذا السند في تفسير الطبري (١٣/٢٤٦ـ٢٤٨) (حاشية المحقق).

(٣) «ط»: «راشد بن سعد عن أبي عبدالرحمن السلمي أنَّ أباقتادة سمع»!

(٤) رسمها في الأصل وغيره: «على ما». وفي المسند: «على ماذا».

(٥) أخرجه أحمد (١٧٦٦٠)، وابن حبان (٣٣٨)، والحاكم (١/٣١)، وصححاه. وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٧/١٨٦): «ورجاله ثقات». وقد وقع فيه اختلاف كثير، راجع القدر للفريابي (٢٢ـ٢٦) (ز).

فقالوا: هذا هذا. . ونالوا منه. فقال عبدالله: أرأيتم لو قطعتم يده، أكنتم تستطيعون أن تخلقوا له يدًا؟ قالوا: لا، قال: فلو قطعتم رجله، أكنتم تستطيعون أن تخلقوا له رجلاً؟ قالوا: لا[1]، قال: فلو قُطِعَ رأسُه، أكنتم تستطيعون أن تخلقوا له رأسًا؟ قالوا: لا. قال: فكما لاتستطيعون أن تغيروا خَلقَه لا تستطيعون أن تغيروا خُلقه. إنَّ النطفة إذا وقعت في الرحم بعث الله إليه[2] ملَكًا، فيكتب أجله، وعمله، ورزقه، وشقيٌّ أو سعيد[3].

وذكر فيه عن ابن مسعود مرفوعًا: «إنَّما هُما اثنتان: الهدي والكلام. فأحسن الكلام كلام الله، وأحسن الهدي هدي محمد. وشرُّ الأمور محدثاتها، وإنَّ كلَّ بدعةٍ ضلالة، وإنَّ كلَّ ما هو آتٍ قريبٌ. وإنَّ الشقيَّ من شقيَ في بطن أُمِّه، والسعيدُ من وُعِظَ بغيره»[4].

وقال ابن وهب: أخبرني يونس عن ابن شهاب أنَّ عبدالرحمن بن هنيدة[5] حدَّثه أنَّ عبدالله بن عمر[6] قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا أرادَ

(١) «قال: فلو قطعتم رجله. . .» إلى هنا ساقط من «ط».
(٢) «إليه» ساقط من «ط».
(٣) أخرجه الطبراني في الكبير (٨٨٨٤)، والفريابي في القدر (١٣٠)، والبيهقي في القضاء والقدر (٤٧٩) بنحوه. قال الهيثمي في المجمع (٧/١٩٦) «ورجاله ثقات» (ز).
(٤) أخرجه ابن ماجه (٤٦) من حديث عبدالله بن مسعود مرفوعًا. وسنده ضعيف، لضعف عبيد بن ميمون، فقد جهله أبوحاتم الرازي كما في تهذيب الكمال (١٩/٢٣٧) (ز).
(٥) في حاشية الأصل: «نسخة: بن أبي هنيدة»، وانظر: تهذيب التهذيب (٦/ ٢٩١).
(٦) في الأصل وغيره: «عمرو»، هو سهو.

اللهُ أن يخلق النَّسَمة قال ملَكُ الأرحام مُعرضًا[1]: ياربّ، أذَكَرٌ أم أنثى؟ فيقضي الله أمره. ثمَّ يقول: ياربّ، أشقيٌّ أم سعيد؟ فيقضي الله أمره. ثمَّ يكتب بين عينيه ماهو لاقٍ حتَّىٰ النكبةَ يُنكبها»[2].

وقال الليث عن عُقَيل[3] عن ابن شهاب: أخبرني أبو بكر بن عبدالرحمن بن الحارث بن هشام أنَّ رسول الله ﷺ قال، فذكره سواء. قال الزهري: وحدَّثني عبدالرحمن بن أذينة[4] عن ابن عمر مثل ذلك.

وذكر أبوداود أيضًا عن عائشة ترفعه: «إنَّ الله حينَ يريدُ أن يخلقَ [٢٧/ب] الخلقَ يبعث ملكًا فيدخل على الرحم فيقول: أي ربّ ماذا؟ فيقول: غلام، أو جارية، أو ما شاء الله أن يخلق في الرحم، فيقول: أي ربّ، أشقيٌّ أم سعيد؟ فيقول: شقي، أو سعيد. فيقول: أي رب، ما أجله؟ فيقول كذا وكذا، فيقول: أي رب، ما خلقه؟ فيقول كذا وكذا. قال: [فيقول][5]: يارب، ما خلائقه؟ فيقول كذا وكذا. قال: «فما من شيءٍ إلا وهو يخلق معه في الرحم»[6].

---

(١) ضبط في الأصل بتشديد الرَّاء، وفي «ف» بتخفيفها، وفي«ك»: «تعرضا»، و«ط»: «تعرُّفا».

(٢) القدر لابن وهب (٣٠)، وأخرجه معمر في جامعه (٢٠٠٦٦)، واللالكائي في أصول الاعتقاد (١٠٥١) من حديث ابن عمر موقوفًا. وقد اختلف في رفعه ووقفه، والصحيح الموقوف كما تقدم في ص (١٤٧) (ز).

(٣) «ن»: «وقال أحمد بن عقيل»، تحريف.

(٤) قال ابن حجر: «صوابه: ابن هنيدة، قاله جماعة عن الزهري، وتفرد به هارون بن محمد عن الليث عن عقيل عنه بقوله: ابن أذينة». تهذيب التهذيب (٦/ ١٣٥).

(٥) مابين الحاصرتين من «ك، ط».

(٦) أخرجه اللالكائي (١٠٥٣)، وهو حديث منكر كما تقدم في ص (١٤٩). =

وذكر ابن وهب، عن ابن لهيعة، عن بكر بن سوادة، عن أبي تميم الجيشاني، عن أبي ذر أنَّ المنيّ إذا مكث في الرحم أربعين ليلة أتاه ملك النفوس فعرَج به إلى الرب تعالىٰ في راحته فيقول: يارب، عبدك ذَكَر أم أنثى؟ فيقضي الله ماهو قاض. أشقي أم سعيد؟ فيكتب ما هو لاقٍ بين عينيه. قال أبو تميم: وزاد[1] أبو ذر من فاتحة سورة التغابن خمس آيات[2].

وقال ابن وهب: أخبرني ابن لهيعة، عن كعب بن علقمة، عن عيسى ابن هلال، عن عبدالله بن عمرو بن العاص أنَّه قال: إذا مكثت النطفةُ في رحم المرأة أربعين يومًا جاءَها مَلَك، فاختلجها[3]، ثمَّ عرَجَ بها إلى الرحمن عزوجل فقال: اخلُق يا أحسن الخالقين، فيقضي الله فيها بما يشاء من أمره، ثمَّ تدفع[4] إلى الملَك، فيسأل الملَك عن ذلك، فيقول: يارب، سِقْط أم تِمّ؟ فيبيّن له، ثمَّ يقول: يارب، واحد أوتوأم؟ فيبين له، ثمَّ يقول: يارب، أذكر أم أنثى؟ فيبيّن له، فيقول: يارب، أناقص الأجل أم تامّ الأجل؟ فيبيّن له[5]، ثمَّ يقول: يارب، أشقيٌّ أم سعيد؟ فيبين له، ثمَّ يقول: يارب، اقطع رزقَه مع خلقِه، فيهبط بهما جميعًا. فوالذي

= انظر: الكامل لابن عدي (٣/ ٢٢٧) (ز).

(١) «ط»: «وقرأ».

(٢) أخرجه ابن وهب في القدر (٣٦) من حديث أبي ذر مرفوعًا، والفريابي في القدر موقوفًا. والحديث مداره على ابن لهيعة، وهو ضعيف، وهذا الاضطراب منه. راجع الفوائد المجموعة للشوكاني مع تعليق المعلمي (٤٥١) (ز).

(٣) يعني: انتزعها.

(٤) هذه قراءة «ن»، وكذا في القدر لابن وهب. وفي «ف» وغيرها: «يدفع».

(٥) «ك،ط»: «له ذلك».

نفسي بيده ماينال من الدنيا إلا ماقُسِمَ له، فإذا أكل رزقه قُبِضَ»[(١)].

وفي صحيح مسلم[(٢)]: عن حذيفة بن أُسيد يبلغ به النبي ﷺ قال: «يدخل الملك على النطفة بعد ما تستقر في الرحم بأربعين أو خمس وأربعين ليلة فيقول: يارب، أشقي أم سعيد؟ فيكتبان، فيقول: يارب أذكر أم أنثى؟ فيكتبان، ويكتب عمله وأثره ورزقه، ثم تطوى الصحف، فلا يزاد فيها ولا ينقص».

وفي الصحيحين عن أنس بن مالك ـ ورفع الحديث ـ قال: «إن الله وكّل بالرحم ملكًا فيقول: أي ربّ نطفة، أي ربّ علقة، أي رب مضغة. فإذا أراد الله أن يقضي خلقًا قال الملك: أي ربّ، ذكر أو أنثى، شقي أو سعيد، فما الرزق، فما الأجل؟ فيكتب ذٰلك في بطن أمه»[(٣)].

وفي الصحيحين من حديث ابن مسعود عن النبي ﷺ: «إن أحدكم يُجمَع خلقُه في بطن أمه أربعين يومًا ثم يكون علقة مثل ذٰلك، ثم يكون مضغة مثل ذٰلك، ثم ينفخ فيه الروح، ويبعث إليه الملك فيؤمر بأربع كلمات: بكتب رزقه، وأجله، وعمله، وشقي أو سعيد»[(٤)].

ففي[(٥)] حديث ابن مسعود أنّ هذا التقدير وهذه الكتابة في الطور

---

(١) أخرجه ابن وهب في القدر (٤٥)، والفريابي في القدر (١٤٥). وحسَّنه الحافظ في الفتح (١١/٤٧٩). قلتُ: فيه ابن لهيعة ضعيف الحديث. وعيسىٰ بن هلال مجهول (ز).

(٢) كتاب القدر (٢٦٤٤).

(٣) أخرجه البخاري في القدر (٦٥٩٥) وغيره، ومسلم في القدر (٢٦٤٦).

(٤) أخرجه البخاري في القدر (٦٥٩٤)، وغيره، ومسلم في القدر (٢٦٤٣).

(٥) «ك،ط»: «وفي».

الرابع من أطوار التخليق عند نفخ الروح فيه، وفي الأحاديث التي ذكرت[1] آنفًا أنّ ذٰلك في الأربعين الأولى قبل كونه علقةً ومضغةً، وفي رواية صحيحة[2]: «إذا مر بالنطفة ثنتان وأربعون ليلةً بعث الله إليها ملكًا فصورها، وخلق سمعها وبصرها وجلدها»[3]، وفي رواية[4]: أنّ ذٰلك يكون في [٢٨/أ] بضع وأربعين ليلة[5].

فصل

الجمع بين هذه الروايات أنّ للملَك ملازمةً ومراعاةً لِحال[6] النطفة، وأنّه يقول: ياربّ هذه نطفة، هذه علقة، هذه مضغة، في أوقاتها. فكلّ وقت يقول فيه ما صارت إليه بأمر الله تعالى، وهو أعلم بها منه[7].

ولِكلام الملَك وتصرُّفِه أوقاتٌ: أحدها حين يخلقها[8] الله نطفةً ثم ينقلها علقةً، وهو أول أوقات علمِ الملك بأنه ولد، لأنه ليس كلّ نطفة تصير ولدًا، وذلك بعد الأربعين الأولى في أول الطور الثاني. ولهذا ـ والله أعلم ـ وقعت الإشارة إليه في أول سورة أنزلها على رسوله ﴿ اَقْرَأْ

---

(١) «ك، ط»: «ذكرت أيضًا».

(٢) «ن»: «وفي حديث صحيح».

(٣) أخرجه مسلم في القدر (٢٦٤٥) من حديث حذيفة بن أسيد.

(٤) في صحيح مسلم أيضًا. انظر الموضع السابق.

(٥) زاد في «ك، ط»: «والله أعلم».

(٦) «ك، ط»: «بحال».

(٧) «منه» ساقط من«ك، ط».

(٨) «ك، ط»: «بكلام الملك، فتصرفه في أوقات..». «ف»: «بكلام الملك، فيصرفه أوقات أخذها حتى يخلقها». والصواب ما أثبتنا من الأصل. وكذا في «ن» إلاّ أنَّ فيها: «حين يجعلها»، وهو تحريف.

﴿بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ۝٢﴾[العلق/ ١ ـ ٢] إذ خلقُه من علقة هو أول مبدأ الإنسانية، وحينئذ يكتب رزقه، وأجله، وعمله، وشقاوته وسعادته.

ثمّ للملك فيه تصرُّف آخر في وقت آخر، وهو تصويره وتخليق سمعه وبصره وجلده وعظمه ولحمه وذكوريته وأنوثيته. وهذا إنّما يكون في الأربعين الثالثة قبل نفخ الروح فيه، لأن[1] نفخ الروح لا يكون إلاّ بعد تمام تصويره.

فههنا تقديران وكتابتان[2]:

التقدير الأول عند ابتداءِ تعلّق[3] التخليق في النطفة، وهو إذا مضى عليها أربعون، ودخلت في طور العلقة. ولهذا في إحدى الروايات: «إذا مرّ بالنطفة ثنتان وأربعون ليلة».

والتقدير الثاني والكتابة الثانية إذا[4] كمل تصويره وتخليقه وتقدير أعضائه وكونه ذكرًا أو أُنثى.

فالتقدير الأول تقدير لما يكون للنطفة بعد الأربعين، والتقدير الثاني تقدير لما يكون للجنين بعد تصويره.

ثم إذا وُلِد قُدّر مع ولادته كلَّ سنة ما يلقاه في تلك السنة، وهو مايقدَّر ليلة القدر من العام إلى العام. فهذا التقدير أخصّ من التقدير

---

(١) «ك، ط»: «فيها فإن».
(٢) «ط»: «كتابان».
(٣) «ك، ط»: «تعليق».
(٤) «ك، ط»: «الثاني الكتابة إذا».

الثاني، والثاني أخصّ من الأول.

ونظيرهذا أيضًا أنّ الله سبحانه قدّر مقاديرَ الخلائق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة، ثمّ قدّر مقادير هذا الخلق حين خلقه وأوجده[1]، ثم يقدّر كلّ سنة في ليلة القدر ما يكون في ذلك العام.

وهكذا تقدير أمر النطفة وشأنها يقع بعد تعلّقها بالرحم، وبعد كمال تصوير الجنين، وقد تقدّم ذلك[2] تقديرُ شأنها قبل خلق السموات والأرض، فهو تقدير بعد تقدير.

ونظير هذا أيضًا رفعُ الأعمال وعرضُها على الله، فإنّ عمل العام يُرفَع في شعبان، كما أخبر به الصادق المصدوق أنه شهر ترفع فيه الأعمال، قال: «فأحب أن يُرفع عملي وأنا صائم»[3]. ويُعرض عملُ الأسبوع يوم الاثنين والخميس، كما ثبت ذلك عن النبيّ ﷺ[4]. ويُعْرَض عملُ اليوم في آخره والليلة في آخرها، كما في حديث أبي موسى الذي رواه البخاري[5] عن النبي ﷺ: «أنَّ الله لا ينامُ ولا ينبغي له أن ينام، يخفض

---

(١) «ك،ط»: «خلقهم وأوجدهم».

(٢) «ط»: «تقدم ذكر تقدير»، خطأ.

(٣) أخرجه أحمد (٢١٧٥٣)، والنسائي (٢٣٥٧) واللفظ له، من حديث أسامة بن زيد رضي الله عنهما، وسنده حسن (ز).

(٤) أخرجه أحمد (٢١٧٥٣، ٢١٧٨١)، وأبوداود (٢٤٣٦)، والنسائي في الكبرى (٢٧٨١، ٢٧٨٢) من حديث أسامة بن زيد، وسنده لا بأس به. وله طريق آخر عن أسامة عند ابن خزيمة (٢١١٩) (ز).

(٥) وكذا في روضة المحبين (٥٦٥). وفي تهذيب السنن (١٣/ ٢٤) عزاه إلى الصحيحين، وهو سهو. فإنّما أخرجه مسلم في كتاب الإيمان (١٧٩).

القسط ويرفعه، يُرفَع إليه عملُ الليل قبل النهار وعملُ النهار قبل الليل».

فهذا الرفع والعرض اليومي أخصّ من العرض يوم الاثنين والخميس، والعرضُ فيهما[١] أخصُّ من العرض في شعبان، ثمَّ إذا انقضى الأجلُ رُفِعَ العمل كلُّه، وعُرِضَ على الله، وطويت الصحف، وهذا عرضٌ آخر.

وهذه المسائل العظيمة القدرِ هي من أهم مسائل الإيمان بالقدر، فصلوات الله وسلامه على كاشف الغمّة وهادي الأمة محمد ﷺ.

[٢٨/ب] **فإنْ قيل**: فما[٢] تقولون في قوله: «إذا مرَّ بالنطفة ثنتان وأربعون ليلةً بعث الله إليها ملكًا فصوَّرها وخلق سمعها وبصرها وجِلْدها ولَحْمها[٣] وعظمها ثمَّ قال: ياربّ أذكر أم أنثى؟ فيقضي ربك ما شاء، ويكتب الملك، ثمَّ يقول: ياربّ أجله؟ فيقول ربك ماشاء، ويكتب الملك». وهذه بعض ألفاظ مسلم في الحديث. وهذا يوافق الرواية الأُخرى «يدخل الملك على النطفة بعد ما تستقر في الرحم بأربعين أو خمسة[٤] وأربعين ليلة، فيقول: يارب أشقي أم سعيد[٥]؟»، ويوافق الرواية الأخرى: «إنَّ النطفة تقع في الرحم أربعين ليلةً ثمَّ يتسور عليها الملك». وهذا يدلُّ على أن تصويرها عقيب الأربعين الأولى.

---

(١) «ط»: «فيها»، خطأ.

(٢) «ك،ط»: «ما».

(٣) «ف»: «ومخها»، خلاف الأصل.

(٤) كذا في الأصل وغيره، وفي «ط»: «خمس».

(٥) «ط»: «أوسعيد».

قيل: لا ريب أنَّ التصوير المحسوس وخلق الجلد والعظم واللحم إنَّما يقع في الأربعين الثالثة، لا يقع عقيب الأولى، هذا أمرٌ معلوم بالضرورة، فإمَّا أن يكون المراد بالأربعين في هذه الألفاظ الأربعين الثالثة، وسمَّىٰ المضغة فيها نطفةً اعتبارًا بأوَّل أحوالها وما كانت عليه. أو يكون المراد بها الأربعين الأولى، وسمَّى كتابةَ تصويرها وتخليقها[١] وتقديرَه تخليقًا اعتبارًا بما يؤول؛ فيكون قوله «صوَّرها وخلق سمعها وبصرها» أي قدَّر ذلك وكتبه وأعلم به، ثمَّ يفعله[٢] بعد الأربعين الثالثة.

أو يكون المراد به[٣] الأربعين الأولى وحقيقة التصوير فيها، فيتعين حمله على تصوير خفي لا يدركه إحساس البشر. فإنَّ النطفة إذا جاوزت الأربعين انتقلت علقة، وحينئذٍ يكون أوَّل مبدأ التخليق، فيكون مع هذا المبدأ مبدأ التصوير الخفي الذي لا يناله الحس. ثم إذا مضت الأربعون الثالثة صُورت التصويرَ المحسوس المشاهد.

فأحد التقديرات الثلاثة متعيِّن[٤]، ولا بُدَّ؛ ولا يجوز غير هذا البتة، إذ العلقة لا سمع فيها ولا بصر ولا جلد ولا عظم. وهذا التقدير الثالث أليق بألفاظ الحديث وأشبه وأدلّ على القدرة[٥]، والله أعلم بمراد رسوله. غير أنَّا لا نشك أن التخليق المشاهد والتقسيم إلى الجلد والعظم

---

(١) «ط»: «تصويره وتقديره»، وفيه سقط وتحريف.

(٢) «ك، ط»: «يفعله به». «ن»: «ثم يكون ذلك».

(٣) «ط»: «به أي الأربعين». «ك»: «به أي بالأربعين المراد به الأربعين الأولى حقيقة».

(٤) «ط»: «يتعين».

(٥) «ك، ط»: «القدر».

واللحم إنَّما يكون بعد الأربعين الثالثة. والمقصود أنَّ كتابة الشقاوة والسعادة وما هو لاقٍ، عند أوَّل تخليقه.

ويحتمل وجهًا رابعًا وهو أنَّ النطفة في الأربعين الأولى لا يُتعرَّض إليها ولا يُعتنى بشأنها[١]، فإذا جاوزتها وقعتْ في أطوار التخليق طَورًا بعد طَور، ووقع حينئذٍ التقدير والكتابة. فحديث ابن مسعود صريحٌ بأنَّ وقوع ذلك بعد الطور الثالث عند تمام كونها مضغة، وحديث حذيفة بن أُسَيد وغيره من الأحاديث المذكورة إنَّما فيه وقوع ذلك بعد الأربعين، ولم يوقِّت فيها البَعدية[٢] بل أطلقها، وقد قيدها ووقَّتها في حديث ابن مسعود، والمطلق في مثل هذا يحمل على المقيد بلا ريب. فأخبر بما يكون للنطفة[٣] بعد الطور الأوَّل من تفاصيل [٢٩/أ] شأنها وتخليقها، وما يقدر لها وعليها، وذلك يقع في أوقات متعددة، وكلّه بعد الأربعين الأولى، وبعضه متقدم على بعض؛ كما أنَّ كونها علقةً متقدم[٤] على كونها مضغةً، وكونها مضغة متقدِّم[٥] على تصويرها، والتصوير متقدم على نفخ الروح، ومع[٦] ذلك فيصح أن يقال: إنَّ النطفة بعد الأربعين تكون علقة ومضغة، ويصوَّر خلقُها، وتركَّب فيها العظام والجلد، ويشق لها السمع والبصر، وينفخ فيها الروح، ويكتب شقاوتها وسعادتها. وهذا لا يقتضي وقوع ذلك كله عقيب الأربعين الأولى من غير فصل.

---

(١) قراءة «ف»: «ولا يعتبر شأنها».
(٢) «ف»: «التعدية» تصحيف.
(٣) «ف، ط»: «تكون النطفة»، «ك»: «يكون بالنطفة».
(٤) «ف، ك، ط»: «يتقدم»، والصوابُ ماأثبتنا، وهي قراءة «ن».
(٥) «وكونها مضغة» ساقط من «ن، ك». وفي«ن» هنا: «يتقدم».
(٦) سقطت الواو من «ك، ط».

وهذا وجه حسن جدًّا[1].

والمقصود: أنَّ تقدير الشقاوة والسعادة والخلق والرزق سبق خروج العبد إلى دار الدنيا، فأسكنه الجنة والنار وهو في بطن أمه.

[أحاديث أخرى في إثبات القدر]

وفي الصحيحين عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ الله كتبَ على ابن آدم حظَّه من الزِّنى أدْرَكَ ذٰلك لا محالةَ» الحديث[2].

وفي صحيح البخاري عن أبي سعيد عن النبي ﷺ قال: مابعثَ الله من نبيٍّ ولا استخلف من خليفة إلا كانَ له بطانتان: بطانة تأمرُه بالخيرِ وتحضُّه عليه، وبطَانةٌ تأمرُه بالشرِّ، وتحضُّه عليه. والمعصومُ من عَصَمَ[3] الله»[4].

وفي سنن ابن ماجه عن عدي بن حاتم أنَّه قال: أتيت النبي ﷺ فقال: «يا عُدَيُّ أسلِمْ تَسْلَمْ، قلتُ: وما الإسلام؟ قال: «تشهد أن لا إله إلا الله وأنِّي رسول الله، وتؤمن بالأقدار كلِّها خيرها وشرها، وحلوها ومرّها»[5].

---

(١) وانظر: شفاء العليل (٤٦)، والتبيان (٢١٩).

(٢) أخرجه البخاري في القدر (٦٦١٢) وغيره، ومسلم في القدر (٢٦٥٧).

(٣) «ط»: «عصمه».

(٤) أخرجه البخاري في الأحكام (٧١٩٨).

(٥) أخرجه ابن ماجه (٨٧)، وهو حديث ضعيف جدًّا، ضعَّفه البوصيري لاتفاقهم على ضعف عبدالأعلى بن أبي المساور الزهري، كذَّبه ابن معين، وكذلك في سنده يحيى بن عيسى الجرَّار، ضعيف. (ز).

وفي صحيح البخاري من حديث الحسن عن[1] عمرو بن تغلب قال: أتى النبي ﷺ مالٌ، فأعطى قومًا ومنع آخرين، فبلغه أنَّهم عتبوا، فقال: «إنِّي أعطي الرجل وأدَع الرجل، والذي أدع أحبُّ إليَّ من الذي أُعطي. أُعطي أقوامًا لما في قلوبهم من الجزع والهَلَع، وأكِلُ أقوامًا إلى ماجعلَ اللهُ في قلوبهم من الغِنى[2] والخيرِ» الحديث[3].

وفي الصحيحين[4] من حديث عمران بن حصين عن النبي ﷺ: «كان الله، ولم يكن شيءٌ قبله، وكان عرشه على الماءِ، ثمَّ خلقَ[5] السماوات والأرض، وكتب في الذكر كلَّ شيء».

وفي الصحيح عن ابن عباس أنَّ النبي ﷺ قال لأشجِّ عبدالقيس: «إنَّ فيك لَخُلُقَيْنِ يُحِبُّهما الله: الحِلم والأناة». قال: يارسول الله خُلقَين تخلَّقْتُ بهما، أم جُبِلتُ عليهما؟ قال: «بل جبلتَ عليهما». قال: الحمدلله الذي جَبَلني على خلقين يحبهما الله[6].

وقال أبوهريرة: قال النبي ﷺ: «جفَّ القلمُ بما أنت لاقٍ». رواه البخاري تعليقًا[7].

---

(١) «الحسن عن» ساقط من «ط».

(٢) «ك، ط»: «القناعة».

(٣) أخرجه البخاري في كتاب الجمعة (٩٢٣) وغيره.

(٤) وكذا في تهذيب السنن (١٢/ ٣١٥)، وهو سهو. وإنَّما أخرجه البخاري في بدء الخلق (٣١٩١).

(٥) «ط»: «وخلق». وهو لفظ الحديث في الصحيح.

(٦) أخرجه مسلم في الإيمان (١٧).

(٧) في النكاح (٥٠٧٦)، وانظر: كتاب القدر، باب جف القلم على الله. وقد وصله الإسماعيلي في المستخرج، والفريابي في القدر (٤٣٧)، وابن وهب في =

وذكر البخاري أيضًا[1] عن ابن عباس في قوله عزّوجلّ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَهُمۡ لَهَا سَٰبِقُونَ ٦١﴾[المؤمنون/ ٦١]. قال: سبقت لهم السعادة.

وفي سنن أبي داود وابن ماجه من حديث عبدالله بن مسعود، وحذيفة بن اليمان، وأبيّ بن كعب، وزيد بن ثابت: «أنَّ الله لو عذَّب أهلَ سماواته وأهلَ أرضه لعذَّبهم وهو غير ظالمٍ لهم، ولو رحمهم كانت رحمته[2] خيرًا لهم من أعمالهم، ولو أنفقتَ مثل أحدٍ ذهبًا في سبيل الله ماقبله الله منك حتى تؤمن بالقدر، وتعلم أنَّ ما أصابك لم يكن ليخطئك وما أخطأك لم يكن ليصيبك، ولو متَّ على غير هذا لدخلتَ النَّار». وقاله زيد بن ثابت عن النبي ﷺ[3].

وفي سنن أبي داود عن أبي حفص الشامي قال: قال عبادة بن الصامت: يابنيّ إنَّك لن تجد[4] طعمَ الإيمان حتَّى تعلم أنَّ ما أصابك لم يكن ليخطئك، وما أخطأك لم يكن ليصيبك. سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «إنَّ أوَّل ماخلقَ الله القلم فقال له: اكتب، قال:

= القدر (١٦)، والجوزقي في الجمع بين الصحيحين، كمافي تغليق التعليق (٤/ ٣٩٦) والتعليق عليه، وسنده صحيح. (ز).

(١) في كتاب القدر، باب جف القلم على علم الله.

(٢) «ط»: «رحمته لهم».

(٣) أخرجه أبوداود (٤٦٩٩)، وابن ماجه (٧٧)، وأحمد (٢١٥٨٩)، وابن حبان (٧٢٧) من حديث زيد بن ثابت. وظاهر سنده حسن، ولكن وقع فيه اختلاف، وأنّه موقوف على أبي بن كعب. انظر: القدر للفريابي (١٥٠)، والقضاء والقدر للبيهقي (١٩٩، ٤٨٢، ٤٨٣). (ز).

(٤) «ك، ط»: «لم تجد».

رب[1] وما أكتب؟ قال: اكتب مقادير كل شيء حتى تقوم الساعة». يا بني، سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «من مات على غير هذا فليس مِنِّي»[2].

وفي الصحيحين عن علي رضي الله عنه قال: كنا في جنازة فيها رسول الله ﷺ ببقيع الغرقد، فجاءَ رسول الله ﷺ فجلس ومعه مِخصرة، فجعل ينكُت بالمِخصَرة في الأرض، ثمَّ رفع رأسه فقال: «مامنكم من أحد من نفس منفوسة إلا قد كُتِبَ مكانُها من النار أو الجنَّة[3]، إلا قد كُتِبَت: شقيَّة أو سعيدة، قال: فقال رجل من القوم: يانبيّ الله أو لا نمكث[4] على كتابنا، وندعُ العمل، فمن كان من أهل السعادة ليكونَّن إلى السعادة، ومن كان من أهل الشقوة[5] لَيكوننّ إلى الشقاوة؟ قال: اعملوا، فكلٌّ مُيسَّرٌ، أمَّا أهل السعادة فَيُيَسَّرون لِلسَّعَادة، وأمَّا أهل الشقاوة فيُيسَّرون لِلشَّقَاوة». ثمَّ قرأ نبيُّ الله ﷺ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ ۝١٠﴾[الليل/ ٥ـ١٠] [6].

وفي السنن الأربعة عن مسلم بن يسار الجهني أنَّ عمر بن الخطاب سُئِلَ عن هذه الآية: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ

---

(١) «ك، ط»: «يارب».

(٢) أخرجه أبوداود (٤٧٠٠)، وفي سنده جهالة، وقد وقع فيه اختلاف، وروي من غير وجه عن عبادة، وفيها نظر. انظر: القدر للفريابي (٣١ ـ ٣٣). (ز).

(٣) «ك، ط»: «في النار أوفي الجنة».

(٤) «ط»: «نتكل».

(٥) «ط»: «الشقاوة».

(٦) تقدم تخريجه في ص (١٤٩).

ﺫُﺭِّﻳَّﺘَﻬُﻢۡ﴾[الأعراف/ ١٧٢](١)، فقال: سمعتُ رسول الله ﷺ سئل(٢) عنها، فقال رسول الله ﷺ: «خلقَ آدمَ(٣)، ثمَّ مسحَ ظهره بيمينه، فاستخرج [٣٠/أ] منه ذريَّة، فقال: خلقت هؤلاء للجنَّة، وبعمل أهل الجنَّة يعملون. ثمَّ مسحَ ظهره، فاستخرج منه ذرية، فقال: خلقتُ هؤلاء للنَّار، وبعمل أهل النَّار يعملون». قال رجل: يارسول الله، ففيم العملُ؟ فقال رسول الله ﷺ: «إنَّ اللهَ إذا خلقَ العبدَ للجنَّة استعمله بعمل أهل الجنَّة حتَّى يموت على عمل من أعمال أهل الجنَّة، فيُدخله به الجنَّة. وإذا خلقَ العبد للنَّارِ استعمله بعمل أهل النَّار حتَّى يموت على عمل من أعمال أهل النَّارِ، فيدخله به النَّار»(٤).

وفي الترمذي عن أبي موسى الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ الله خلقَ آدمَ من قبضة قبضها من جميع الأرض، فجاءَ بنو آدمَ على قدر الأرض، جاء منهم الأحمرُ والأبيض والأسود وبين ذلك، والسَّهْل والحَزْن، والخبيث والطيب». قال الترمذي: حديث حسن

---

(١) وردت الآية في الأصل والنسخ الأخرى على قراءة نافع وابن عامر وأبي عمرو: «ذريّاتهم». انظر: الإقناع (٢/ ٦٥١).

(٢) كذا في الأصل و«ن». وفي «ف» وغيرها: «قد سئل».

(٣) «ك، ط»: «خلق الله آدم».

(٤) قول المصنِّف: «في السنن الأربعة» سهو، فإنَّ الحديث أخرجه أبوداود (٤٧٠٣)، والترمذي (٣٠٧٥)، والنسائي في الكبرى (١١١٩٠)، قال الترمذي: «هذا حديث حسن، ومسلم بن يسار لم يسمع من عمر، وقد ذكر بعضهم في هذا الإسناد بين مسلم بن يسار وبين عمر رجلاً». وقال ابن عبدالبر في التمهيد (٦/ ٦): «وجملة القول في هذا الحديث أنَّه حديث ليس إسناده بالقائم لأنَّ مسلم بن يسار ونعيم بن ربيعة جميعًا غير معروفين بحمل العلم، ولكن معنى هذا الحديث قد صحَّ عن النبيّ ﷺ من وجوه كثيرة ثابتة...» (ز).

صحيح[1].

وذكر الطبري من حديث مالك بن عبد أنَّ رسول الله ﷺ قال لابن مسعود: «لا تُكْثِرْ[2] همَّكَ، مايُقدَّرْ يَكُنْ، وماتُرْزَقْ يأتِك»[3].

وذكر عن طارق بن شهاب عن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «بُعِثْتُ داعيًا ومبلِّغًا، وليس إليَّ من الهدى شيءٌ، وخُلقَ إبليس مُزَيِّنًا، وليس إليه من الضلالة شيء»[4].

وقال ابن وهب: أخبرنا عبدالرحمن بن سلمان[5]، عن عقيل، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: خرج النبيّ ﷺ، فسمع ناسًا من أصحابه يذكرون[6] فقال: «إنّكم قد أخذتم في شعبتين بعيدتي الغَور[7]، فيهما هلك أهل الكتاب من قبلكم». ولقد أخرج يومًا كتابًا، فقال: «هذا كتابٌ من الله الرحمن الرحيم فيه تسمية أهل الجنَّة بأسمائهم وأسماء آبائهم وقبائلهم وعشائرهم، مجمَلٌ[8] على آخرهم لا يُنقصُ منهم أحدٌ: فريقٌ

---

(١) الترمذي (٢٩٥٥)، وأخرجه أبوداود (٤٦٩٣)، وابن حبان (٦١٦٠) وغيرهما.

(٢) «ط»: «لا يكثر».

(٣) أخرجه ابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني (٢٨٠٦)، واللالكائي في أصول الاعتقاد (١٠٨٠). والحديث فيه إرسال مع الاختلاف في أسانيده، وقد ضعفه الألباني في ضعيف الجامع الصغير (٦٢٦٤) (ز).

(٤) أخرجه ابن عدي في الكامل (٣/ ٤٧١ـ٤٧٢)، وابن حبان في المجروحين (١/ ٢٨١)، وهو حديث ضعيف كما في تنزيه الشريعة (١/ ٣١٥) لابن عراق. (ز).

(٥) «ف،ك،ط»: «سليمان» تحريف.

(٦) زاد في «ط»: «القدر».

(٧) «ف»: «شعبين بعيدي الغور».

(٨) «ف،ك»: «فجمل». وفي «ط» بالحاء، تصحيف. وانظر ما سلف في =

في الجنَّة وفريقٌ في السَّعير»[1].

وفي الترمذي عن ابن عباس قال: ردِفتُ رسولَ الله ﷺ يومًا فقال: ياغلامُ، ألاَ أعلِّمُكَ كلماتٍ ينفعك الله بهنَّ؟ احفظ الله يحفظْك، احفظ الله تجده أمامك. تعرَّفْ على الله في الرَّخاءِ يعرفْك في الشدَّة. إذا سألتَ فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله. رُفِعَت الأقلامُ، وجفَّت الصحف. لَوْ جَهَدت الأُمَّة على أنْ ينفعوك بشيءٍ لم ينفعوك إلا بشيءٍ قد كتبه الله لك، ولو جهدت الأمة على أن يضرّوك بشيءٍ لم يضرّوك إلا بشيءٍ قد كتبه الله [٣٠/ب] عليك. واعلم أنَّ النصر مع الصبر، وأنَّ الفرَجَ مع الكرْبِ، وأنَّ مع العسر يُسْرًا»[2].

وفي بعض روايات الحديث في غير الترمذي: «فلو أنَّ النَّاس اجتمعوا على أن يعطوك شيئًا لم يُعْطِه الله لم يقدروا عليه، ولو أنَّ الناس اجتمعوا على أن يمنعوك شيئًا قدَّره الله لك وكتبه لك[3] ما استطَاعُوا، فاعبُدِ الله بالصَّبْرِ مع اليقين»[4].

= ص(١٤٥).

(١) تقدم من طريق آخر في ص (١٤٥).

(٢) تقدم في ص (١٣٢).

(٣) «وكتبه لك» ساقط من «ط».

(٤) «ك،ط»: «مع الصبر على اليقين».

والحديث أخرجه الطبراني في الكبير (١١/ ١٢٣) (١١٢٤٣)، والحاكم (٣/ ٦٢٤) (٦٣٠٤) من طريق ابن أبي مليكة عن ابن عباس. وقد ضعفه الذهبي من هذا الطريق فقال: «عيسى ـ يعني ابن محمد القرشي ـ ليس بمعتمد». وتقدم الحديث من طريق حنش عن ابن عباس، وهو أصح الطرق عن ابن عباس كما قاله ابن منده وغيره. انظر: جامع العلوم والحكم (١/ ٤٦١) (ز).

وقال علي بن الجعد: حدثنا[1] عبدالواحد بن سليم[2] البصري، عن عطاء بن أبي رباح قال: سألتُ[3] ابن[4] عبادة بن الصامت: كيفَ كانت وصية أبيك حين حضره الموت؟ قال: جعل يقول: «يابنيّ اتّقِ الله، واعلم أنَّك لن تتقيَ الله ولن تبلغ العلم حتَّى تعبد الله وحدَه، وتؤمنَ بالقدر خيره وشرِّه». قلت: يا أبتِ كيف لي أن أؤمن بالقدر خيره وشره؟ قال: «تعلم أنَّ ما أصابك لم يكن ليخطئك، وأنَّ ما أخطأك لم يكن ليصيبك؛ فإنْ متَّ على غير هذا دخلت النَّار. سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنَّ أوَّل ماخلقَ الله القلم، فقال له: اكتُبْ، فقال: ما أكتبُ؟ فجرى تلك الساعة بما كان وما هو كائن إلى الأبد»[5].

وذكر الطبري من حديث بقية حدثنا[6] أبوبكر العنسي[7] عن يزيد بن أبي حبيب[8] ومحمد بن يزيد قالا: حدثنا نافع، عن ابن عمر قال: قالت أم سلمة: يارسول الله لا تزال نفسك في كل عام وَجِعَةً من تلك الشاة المسمومة التي أكلتها، قال: «ما أصابني من[9] شيءٍ منها إلا وهو

---

(١) «ط»: «أنبأنا».
(٢) «بن سليم» لم يرد في «ك، ط».
(٣) «سألت» سقط من «ط»، واستدرك في القطرية.
(٤) سقطت كلمة «ابن» من «ط»، فزاد بين حاصرتين: «الوليد بن».
(٥) أخرجه علي بن الجعد في مسنده (٣٤٤٤)، وفيه عبدالواحد بن سليم، ضعيف، وقد تقدم الحديث في ص (١٦٤) من طريق آخر.
(٦) «ط»: «أنبأنا».
(٧) «ن، ط»: «العبسي»، تصحيف. انظر: تهذيب التهذيب (١٢/ ٤٤).
(٨) «ك، ط»: «زيد بن أم حبيب»، تحريف. انظر: تهذيب التهذيب (١١/ ٣١٨).
(٩) «من» ساقط من «ط».

مكتوبٌ عليَّ، وآدم في طينته»[1].

وفي صحيح مسلم[2] من حديث ابن عباس في خطبة النبيّ ﷺ: «الحمدُلله نحمدُهُ ونستعينه، من يهده الله فلا مُضِلَّ له، ومن يضلل فلا هاديَ له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأنَّ محمدًا عبده ورسوله».

وفي صحيحه[3] أيضًا عن زيد بن أرقم: كان النبي ﷺ يقول: «اللَّهُمَّ آتِ نفسي تقواها، وزكِّها أنت خيرُ من زكَّاها، أنت وليُّها ومولاها».

وفي صحيحه[4] أيضًا عن علي عن النبي ﷺ في دعاء الاستفتاح: «اللَّهم اهدني لأحسن الأخلاقِ، لا يهدي لأحسنها إلا أنت، واصرِفْ عنِّي سيِّءَ الأخلاق، لا يصرفُ عنِّي سيِّئَها إلا أنت».

وفي الترمذي والمسند من حديث عمران بن حصين أنَّ النبيّ ﷺ علَّم أباه هذا الدعاء: «اللَّهمَّ أَلْهِمْني رُشدي، وقِني شرَّ نفسي»[5].

---

(١) أخرجه ابن ماجه (٣٥٤٦)، والفريابي في القدر (٤١٨). قال البوصيري: هذا إسناد فيه أبوبكر العنسي وهو ضعيف. مصباح الزجاجة (٣/ ١٤٢) (ز).
(٢) كتاب الجمعة (٨٦٨).
(٣) كتاب الذكر والدعاء (٢٧٢٢).
(٤) كتاب صلاة المسافرين وقصرها (٧٧١).
(٥) أخرجه أحمد (١٩٩٩٢) والبخاري في التاريخ الكبير (٣/ ٣)، والترمذي (٣٤٨٣)، والطبراني في الكبير (١٨/ ٣٩٦)، والبيهقي في الأسماء والصفات (٢/ ١٦٥)، وقال الترمذي: «هذا حديث غريب». وفي سنده شبيب بن شيبة، وهو ضعيف، والحديث ضعفه الألباني في ضعيف الترمذي (٦٩٠). (ز).

وروى سفيان الثوري عن خالد الحذَّاء، عن عبدالله بن الحارث قال: قام عمر بن الخطاب بالجابية[1] خطيبًا فقال في خطبته: «من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له» وعنده الجاثَليقُ[2] يسمع مايقول، قال: فنفَضَ ثوبَه كهيئة المنكِر، فقال عمر: مايقول؟[3] قالوا: يا أمير المؤمنين، يزعمُ أنَّ الله لا يضلُّ أحدًا، قال: «كذبتَ ياعدوَّ الله، بل الله خلقك وهو أضلَّكَ، وهو يُدخِلُك النَّارَ إن شاء الله. أما والله، لولا وَلْثُ عهدٍ[4] لك لضربتُ عنقك، إنَّ الله خلقَ الخلقَ فخلَق أهل الجنَّة وما هم عاملون، وخلَقَ أهل النارِ وما هم عاملون، قال: هؤلاء لهذه، وهؤلاء لهذه»[5].

وذكر الطبري عن أبي بكر الصديق قال: «خلق الله الخلقَ فكانوا في قبضته، فقال لمن في يمينه: ادخلوا الجنَّة بسلام، وقال لمن في يده الأخرى: ادخلوا النَّار ولا أبالي، فذهَبتْ إلى يوم القيامة»[6].

وقال ابن عمر: جاء رجل إلى أبي بكر فقال: أرأيتَ الزنى بقدَر الله؟ فقال: نعم. قال: فإنَّ الله قدَّره عليَّ ثمَّ يعذبني؟ قال: «نعم يا ابن اللَّخْناءِ، أما والله لو كان [٣١/أ] عندي إنسان أمرتُ أن يجَأ

---

(١) «الجابية» ساقط من «ك، ط».

(٢) رئيس الأساقفة عند النصارى. انظر: القول الأصيل (٧٤).

(٣) «ط»: «تقولون».

(٤) «ولث» ساقط من«ط». والوَلْث: بقية العهد، وقيل: الضعيف من العهد. اللسان (ولث).

(٥) أخرجه عبدالله بن أحمد في السنة (٩٢٩)، والآجري في الشريعة (٤١٧)، واللالكائي (١١٩٧) وغيرهم (ز).

(٦) أخرجه الآجري في الشريعة (٤١٥)، واللالكائي (١٢٠٤)، وفي سنده انقطاع.

أنفَك»[1].

وذكر عن علي رضي الله عنه أنَّه ذُكِرَ عنده القدرُ يومًا، فأدخلَ إصبعيه السبابة والوسطى في فيه، فرقَم بهما باطنَ يده، فقال: أشهد أنَّ هاتين الرقمتين كانتا في أم الكتاب[2].

وذكر عنه أيضًا أنَّه قال: «إنَّ أحدكم لن يخلُص الإيمانُ إلى قلبه حتى يستيقن يقينًا غيرَ ظنٍّ أنَّ ما أصابه لم يكن ليخطئه، وأنَّ[3] ما أخطأه لم يكن ليصيبه، ويُقِرَّ بالقدَر كله»[4].

وذكر البخاري[5] عن ابن مسعود أنَّه قال في خطبته: «الشقي من شَقِيَ في بطن أمه، والسعيد من وُعِظَ بغيره».

وقال ابن مسعود: «لأَنْ أعضَّ على جمرٍ[6] أو أقبضَ[7] عليها حتى تبرُدَ في يدي أحبُّ إليَّ من أن أقول لشيءٍ قضاه الله: ليته لم يكن»[8].

---

(١) أخرجه اللالكائي (١٢٠٥)، وسنده ضعيف، وفيه اختلاف. انظر: اللالكائي (١٢٩٣).

(٢) أخرجه عبدالله بن أحمد في السنة (٩٥٥)، واللالكائي (١٢١٣) وغيرهما، وفي سنده ضعف (ز).

(٣) «أن» ساقطة من «ك، ط».

(٤) أخرجه اللالكائي (١٢١٤)، وفي سنده انقطاع، ميسرة لم يدرك عليًّا، قاله الإمام أحمد، جامع التحصيل (٨١٦). (ز).

(٥) كذا قال هنا، والصواب أنَّه في صحيح مسلم (٢٦٤٥)، كما ذكر المصنف في ص (١٤٨).

(٦) «ن، ط»: «جمرة».

(٧) «ك، ط»: «أو أن أقبض».

(٨) أخرجه الطبراني في الكبير (٩١٧١)، واللالكائي (١٢١٧) من طريقين عن ابن =

وقال: «لا يطعم رجل طعم الإيمان حتى يؤمن بالقدر ويعلم أنَّه ميت، وأنَّه مبعوث من بعد الموت»[(١)].

وقال الأعمش، عن خيثمة[(٢)]، عن ابن مسعود: «إنَّ العبدَ لَيهُمُّ بالأمرِ من التجارة والإمارة، حتى يتيسَّر له نظرُ الله إليه من فوق سبع سماوات، فيقول للملائكة: اصرفوه عنه، فإنِّي إن يسرتُه له أدخلته النار. قال: فيصرفه اللهُ عنه. قال: فيقول: من أين دُهيتُ؟ أو نحو هذا، وما هو إلا فضلُ الله عزَّوجلَّ»[(٣)].

وذكر الزهري عن إبراهيم بن عبدالرحمن بن عوف أنَّ عبدالرحمن بن عوف مرض مرضًا شديدًا، أغمي عليه فأفاق[(٤)] فقال: أُغمي علي؟ قالوا: نعم، قال: إنَّه أتاني رجلان غليظان، فأخذا بيدي، فقالا: انطلِقْ نحاكِمْكَ إلى العزيز الأمين. فانطلقا بي، فتلقَّاهما رجل، فقال: أين تريدان به؟ قالا: نحاكِمُه إلى العزيز الأمين. فقال: دعاه فإنَّ هذا ممن سبقت له السعادةُ وهو في بطن أمه[(٥)].

وقال ابن جريج، عن ابن طاوس، عن أبيه قال: أشهد لَسمِعتُ ابن

= مسعود رضي الله عنه (ز).

(١) أخرجه معمر في جامعه (٢٠٠٨١)، والفريابي في القدر (١٩٥، ١٩٦) وغيرهما. وهو لا يثبت، فيه الحارث الأعور. متهم بالكذب، وقد اختلف عليه. (ز).

(٢) «عن خيثمة» ساقط من «ك، ط».

(٣) أخرجه اللالكائي (١٢١٩)، وفي سنده انقطاع.

(٤) «ك، ط»: «وأفاق».

(٥) أخرجه عبدالرزاق (٢٠٠٦٥)، والآجري (٤٣٦)، واللالكائي (١٢٢٠) وغيرهم، والأثر صحيح. (ز).

عباس يقول: «العجز والكَيْس بقدر»[(١)].

وقال مجاهد: قيل لابن عباس: إنَّ ناسًا يقولون في القدر. قال: «يكذِّبون بالكتاب، لئن أخذتُ بشَعرِ أحدِهم لأنصُوَنَّه[(٢)]. إنَّ الله عزَّوجلَّ كان على عرشه قبل أن يخلق شيئًا، فخلَقَ القلمَ، فكتَبَ ما هو كائن إلى يوم القيامة، فإنَّما يجري النَّاسُ على أمرٍ قد فُرِغَ منه»[(٣)].

وقال ابن عباس أيضًا: «القدَرُ نظامُ التوحيد، فمن وحَّد الله ولم يؤمن بالقدر كان كفره بالقضاءِ نقضًا[(٤)] للتوحيد، ومن وحَّد الله وآمن بالقدر كانت العروة الوثقى لا انفصام لها»[(٥)].

وقال عطاء بن أبي رباح: كنتُ عند ابن عباس، فجاءَه رجل، فقال: «يا ابن عباس[(٦)]، أرأيت من صدَّني عن الهدى، وأوردني دارَ الضلالة والردى[(٧)]، ألا تراهُ قد ظلمني؟ فقال: «إن كان الهدى شيئًا كان لك عنده فمنَعَكَه فقد ظلمك، وإن كان الهدى هو له يؤتيه من يشاء فلم

---

(١) تقدم تخريجه في ص (١٤٧).

(٢) وردت هذه الجملة في «ط» محرَّفة، وقال في الحاشية: «بياض في الأصل، وفي الجملة تحريف»، ولا بياض في أصولنا. وقوله «لأنضونه» أي: لأنزعنَّه وأخلعنَّه.

(٣) أخرجه اللالكائي (١٢٢٣). (ز).

(٤) «ط»: «نقصًا» بالصاد المهملة.

(٥) أخرجه عبدالله بن أحمد في السنة (٩٢٥)، والآجري (٤٥٦)، واللالكائي (١٢٢٤)، وفي سنده ضعف (ز).

(٦) في الأصل: «يا باعباس» سهو، وكذا في «ف».

(٧) «ط»: «الضلالة واردًا» تحريف.

يظلمك[1]. قُمْ، لا تجالسْني[2]»[3].

وقال عكرمة عن ابن عباس: «كان الهدهد يدلُّ سليمان على الماء». فقلتُ له: وكيف ذاك والهدهدُ[4] يُنصَب له الفخُّ عليه التراب؟ فقال: «أَعضّك اللهُ بِهَن أبيك، إذا جاء القضاءُ ذهبَ البصرُ»[5].

وقال الإمام أحمد: حدثنا[6] إسماعيل، أنبأنا أبو هارون[7] الغنوي، حدثنا[8] أبو سليمان[9] الأزدي، عن أبي يحيى مولى بني عفراء[10] قال: أتيتُ ابن عباس، ومعي رجلان من[٣١/ب] الذين يذكرون القدر، أو ينكرونه، فقلتُ: يا ابن عباس، ما تقول في القدر؟ فإنَّ هؤلاء يسألونك عن القدر، إن زنَى وإن سرق[11] وإن شرب، قال[12]: فحسَرَ قميصَه حتى أخرج منكبيه وقال: «يا أبا يحيى[13] لعلَّك من الذين ينكرون

---

(١) «ط»: «فلا يظلمك».

(٢) «ك،ط»: «فلا تجالسني».

(٣) أخرجه اللالكائي (١٢٢٧). (ز).

(٤) «ك،ط»: «فكيف ذاك؟ الهدهد».

(٥) أخرجه اللالكائي (١٢٢٨) وسنده صحيح (ز).

(٦) «ط»: «أنبأنا».

(٧) «ن»: «أبو إبراهيم»، خطأ.

(٨) «ط»: «أنبأنا».

(٩) سقط «أبو» من «ط».

(١٠) في الأصل: «غفراء» بالمعجمة، ولعله سهو، وكذا في «ف».

(١١) «ك،ط»: «وإن شرب وإن سرق».

(١٢) «قال» ساقط من«ك،ط».

(١٣) «ك،ط»: «يايحي».

القدر[١] ويكذِّبون به. والله لو أعلم أنَّك منهم أو[٢] هذين معك لجاهدتُكم. إن زنَى فبقدَر، وإن سرقَ فبقدَر، وإن شرِب الخمرَ فبقدَر»[٣].

وصحَّ عن ابن عمر أنَّ يحيى بن يعمر قال له: إنَّ ناسًا يقولون: لا قدر، وإنَّ الأمر أُنُف[٤]. فقال: «إذا لقيتَ أولئك فأخبرهم أنَّ ابن عمر منهم بريء[٥]، وأنَّهم بُرَآءُ منه»[٦].

وقد تقدم قول أبيّ بن كعب، وحذيفة، وابن مسعود، وزيد بن ثابت: «لوأنفقت مثلَ أُحُد[٧] ذهبًا في سبيل الله ماقُبِلَ منك حتَّى تؤمنَ بالقدر، وتعلم أنَّ ما أصابك لم يكن ليخطئك، وأنَّ[٨] ما أخطأك لم يكن ليصيبك، وإن متَّ على غير ذلك دخلت النار»[٩].

وتقدَّم قول عبادة بن الصامت: «لن تؤمن حتَّى تؤمنَ بالقدرِ خيرِه وشرِّه، وتعلم أنَّ ما أصابك لم يكن ليخطئك، وما أخطأك لم يكن ليصيبك»[١٠].

---

(١) «القدر» سقط من«ك»، وزيد في «ط» بين حاصرتين.
(٢) «ط»: «وهذين».
(٣) أخرجه عبدالله بن أحمد في السنة (٩٣٧)، واللالكائي (١٢٣٠). (ز).
(٤) أي مستأنف، من غير أن يكون سبق به قضاء. النهاية (١/٧).
(٥) «ك،ط»: «بريء منهم».
(٦) أخرجه مسلم في الإيمان (٨).
(٧) «ط»: «مثل جبل أحد».
(٨) «أن» ساقطة من «ط».
(٩) انظر: ص (١٦٤).
(١٠) انظر: ص (١٦٤، ١٦٩).

وقال قتادة، عن أبي السوَّار، عن الحسن بن علي قال: «قُضي القضاءُ، وجفَّ القلم، وأمور تُقْضى[1] في كتابٍ قد خَلا»[2].

وقال عمرو بن العاص: «انتهى عجبي إلى ثلاث: المرءُ يفِرُّ من القدَر وهو لاقيه. ويرى في عين أخيه القذاة فيعيبُها، ويكون في عينه مثلُ الجِذْع فلا يعيبها. ويكون في دابته الضِّغْنُ[3] فيقوِّمها جهدَه، ويكون في نفسه الضِّغْن فلا يقوِّمها»[4].

وقال أبو الدرداء: «ذروة الإيمان أربع: الصبر للحكم، والرضا بالقدر، والإخلاص للتوكل، والاستسلام للرب»[5].

وقال الحجَّاج الأزدي: سألنا سلمانَ ما الإيمان بالقدر؟ فقال: «أن تعلم أنَّ ما أصابك لم يكن ليخطئك، وأنَّ ما أخطأكَ لم يكن ليصيبك»[6].

وقال سلمان أيضًا: «إنَّ الله لمَّا خلقَ آدم مسح ظهره فأخرج منه ما هو

---

(١) «ن،ك،ط»: «بقضاء»، تصحيف.

(٢) أخرجه عبدالله بن أحمد في السنة (٨٧٥، ٨٨١)، واللالكائي (١٢٣٤) (ز).

(٣) رسمها في الأصل بالظاء (انظر ما سبق في رسم «أضالع» في ١٣١) والغين مع إهمالهما، فتقرأ: «الطعن»، كما في «ف،ن». وكذا في «ط» وفسّرت فيها بالوثوب والاندفاع. وفي كتاب اللالكائي: «الصعر». والصواب ما أثبتنا. و«الضغن» في الدابّة أن تكون عسرة الانقياد. قاله الخطّابي في غريب الحديث (٢/ ٤٨٢). وانظر: الفائق (٢/ ٣٤٢). والنهاية (٣/ ٩٢).

(٤) أخرجه اللالكائي (١٢٣٥)، والبيهقي في القضاء والقدر (٥٠١). (ز).

(٥) أخرجه اللالكائي (١٢٣٨)، وأبونعيم في الحلية (١/ ٢١٦). (ز).

(٦) أخرجه معمر في جامعه (٢٠٠٨٣)، وعبدالله بن أحمد في السنة (٩٢٣)، وسنده لا بأس به. (ز).

ذاريءُ[1] إلى يوم القيامة، فكتب الآجال والأرزاق والأعمال[2] والشقوة[3] والسعادة. فمِن علَم السعادة فعل الخير ومجالس الخير، ومِن علَمِ الشقاوة فعلُ الشر[4] ومجالس الشر»[5].

وقال جابر بن عبدالله: «لا يؤمن عبد حتى يؤمن بالقدر كلِّه خيره وشرّه[6]، ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبَه»[7].

وقال هشام[8] عن أبيه عن عائشة: «إنَّ العبدَ ليعمل الزمانَ بعمل أهل الجنَّة، وإنَّهُ عند الله لمكتوبٌ من أهل النَّار»[9].

والآثار في ذلك أكثر من أن تذكر، وإنَّما أشرنا إلى بعضها إشارة.

فصل

فالجوابُ[10] أنَّ ههنا مقامَين: مقامَ إيمان وهدى ونجاة، ومقامَ ضلال وردى وهلاك، زلَّت فيه أقدام، فهوَتْ بأصحابها إلى دار الشقاء.

---

(١) «ك، ط»: «منه ذراري إلى».

(٢) «ك، ط»: «وكتب الآجال والأعمال والأرزاق».

(٣) «ط»: «الشقاوة».

(٤) «ك، ط»: «عمل الشر».

(٥) أخرجه اللالكائي (١٢٤١)، وسنده صحيح (ز).

(٦) زاد في «ط» بعده بين حاصرتين: «وأن».

(٧) أخرجه اللالكائي (١٢٤٢)، وسنده ضعيف (ز).

(٨) زاد في «ط» بين حاصرتين: «بن عروة بن الزبير».

(٩) أخرجه اللالكائي (١٢٤٣)، وسنده ضعيف. (ز).

(١٠) وهو جواب قوله: «فإن أصررت على اتهام القدر...» الذي سبق في ص (١٣٧). وبدأ المؤلف من هذا الفصل بالردِّ على الاحتجاج بالقدر، والإجابة عن الإشكال الوارد بسببه.

فأمَّا مقام الإيمان والهدى والنجاة فمقام إثبات القدر والإيمان به، وإسناد جميع الكائنات إلى مشيئة ربها وبارئها وفاطرها، وأنَّه[1] ماشاء كان وإن لم يشأ الناس، وما لم يشأ لم يكن وإن شاءه[2] الناس. وهذه الآثار التي ذكرت[3] كلُّها تُحقِّق هذا المقام، وتبيِّن أن من لم يؤمن بالقدر فقد انسلخ من التوحيد، ولبس جلباب الشرك، بل لم يؤمن بالله ولم يعرفه، وهذا في كلِّ كتابٍ أنزله الله على كلِّ رسولٍ أرسله[4].

وأمَّا المقام الثاني [٣٢/أ] ـ وهو مقام الضلال والردى والهلاك ـ فهو الاحتجاجُ به على الله[5]، وحملُ العبدِ ذنبَه على ربه، وتنزيهُ نفسه الجاهلة الظالمة الأمَّارة بالسوء، وجعلُ أرحمِ الراحمين وأعدلِ العادلين وأحكمِ الحاكمين وأغنى الأغنياء أضرَّ على العباد من إبليس؛ كما صرَّح به بعضهم، واحتجَّ عليه بما خصمه فيه من لا تدحَض حجَّتُه ولا تطاق مغالبتُه، حتَّىٰ يقول قائلُ هؤلاء:

ألقاه في اليمِّ مكتوفًا وقال له ... إيَّاكَ إيَّاكَ أن تبتلَّ بالماءِ[6]

---

(١) «ك، ط»: «وأنّ».

(٢) «ك، ط»: «شاء».

(٣) «التي ذكرت»: ساقط من «ط».

(٤) «ط»: «على رسله».

(٥) «ط»: «على ذنبه على الله».

(٦) أنشده المؤلف في مدارج السالكين (١/ ٢٦٢)، وشفاء العليل (٢٠)، وهو منسوب إلى الحلاج في وفيات الأعيان (٢/ ١٤٣). وأثبت في «ط» بيتًا آخر قبله:

ماحيلة العبد والأقدارُ جاريةٌ ... عليه في كلِّ حال أيها الرائي

وهما في ديوانه (٢٦).

ويقول قائلهم:

دعَاني وسدّ البابَ دوني فهل إلى دخولي سبيلٌ؟ بيِّنوا لِيَ قِصَّتي[(١)]

ويقول الآخر:

وضعـــوا اللحـمَ لِلبُـــزا ةِ على ذِروتَـــي عَـــدَنْ
ثُمَّ لامـــوا البُـزاة إذ خلَعـوا عنهـم الرَّسَـــنْ
لـــو أرادوا صِيـــانتـــي سَتــروا وَجْهَـك الحسَـنْ[(٢)]

وقال بعضهم ـ وقد ذكر له مَن[(٣)] يخاف من إفساده ـ فقال: لي خمس بنات لا أخاف على إفسادهِنّ غيره!

وصعد رجل يومًا على سطح دار له، فأشرف على غلام له يفجُر بجاريته، فنزل، وأخذهما ليعاقبهما، فقال الغلام: إنَّ القضاء والقدر لم يدَعانا حتى فعلنا ذلك. فقال: لَعِلمُك بالقضاء والقدر أحبُّ إليَّ من كلِّ

---

(١) أنشده المؤلف في المدارج (١/ ٢٦٤). «قصتي»: كذا في الأصول. وفي أعيان العصر (٣/ ٢٩٢) وفي المدارج وغيره: «قضيتي». والبيت من قصيدة شاعت في الشام في ذلك العهد، وذكر ابن حجر أن محمد بن أبي بكر السكاكيني عملها على لسان ذمي (الدرر الكامنة ١/ ١٥٦). ويقال إن ناظمها ابن البقَقي المتهم بالزندقة، فانبرى للرد عليها نظمًا كبار علماء مصر والشام. منهم شيخ الإسلام ابن تيمية (الفتاوى ٨/ ٢٤٥ ـ ٢٥٥) والعلاء الباجي، والعلاء القونوي وغيرهم. انظر قصائدهم في طبقات الشافعية (١٠/ ٣٥٢ ـ ٣٦٦).

(٢) ذكرها المؤلف في المدارج (١/ ٢٦٢)، وهي للشبلي في تاريخ بغداد (١٢/ ٩٥)، مع اختلاف في بعض الألفاظ.

(٣) «ط»: «ما».

شيء، أنت حرٌّ لوجه الله[1].

ورأى آخر رجلاً[2] يفجر بامرأته، فبادر ليأخذه فهرَب، فأقبل يضرب المرأة، وهي تقول: القضاءُ والقدر. فقال: يا عدوّةَ الله أتزني وتعتذري[3] بمثل هذا؟ فقالت: أوَّهْ تركتَ السنّة، وأخذت بمذهب ابن عبَّاد[4]! فتنبَّهَ ورمى السوط[5] من يده، واعتذر إليها، وقال: لولاكِ لَضلَلْتُ!

ورأى آخر رجلاً آخر يفجر بامرأته فقال: ما هذا؟ فقالت: هذا قضاءُ الله وقدره. فقال: الخِيرة فيما قضى الله! فلُقِّب بـ«الخيرة فيما قضى الله»، وكان إذا دعي به غضب!

وقيل لبعض هؤلاء: أليس الله عزّوجلّ[6] يقول: ﴿وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ﴾[الزمر/٧] فقال: دعنا من هذا، رضيَه وأحبه وأراده، وما أفسدنا غيرُه!

---

(١) نقل ابن النديم حكاية تشبه هذه عن سلام القارىء من متكلمة الجبرية. انظر الفهرست (٢٣٠).

(٢) «رجلاً» ساقط من «ك، ط».

(٣) كذا في الأصل و«ف، ن». وفي «ك، ط»: «تزنين وتعتذرين» حسب القاعدة.

(٤) كذا في الأصل و «ف، ن». وفي «ك، ط»: «ابن عباس»، وهو خطأ، فإنّ المقصود بمذهب ابن عباد هنا إنكار القدر. والمشهور بابن عباد هو الصاحب المتوفى سنة ٣٢٥. وقد يكون المراد معمَّر بن عباد السلمي المتوفى سنة ٢٢٠، رأس الفرقة المعمرية. انظرالملل والنحل للشهرستاني (٦٥–٦٨)

(٥) «ط»: «بالسوط».

(٦) «ك، ط»: «أليس هو يقول».

ولقد بالغَ بعضهم في ذلك حتى قال: القدرُ عذر لجميع العصاة، وإنَّما مثلنا في ذلك كما قيل:

إذا مرِضـنـا أتيناكـم نعـودُكُمُ وتُذنبـون فنأتيـكـم فنعتـذرُ(١)

وبلغ بعضَ هؤلاء أنَّ عليًّا مرَّ بقتلى النهروان فقال: «بؤسًا لكم، لقد ضرَّكم من غرَّكم». فقيل: من غرَّهم؟ فقال: «الشيطان، والنَّفس الأمَّارة بالسوء، والأماني». فقال هذا القائل: كان علي قدريًّا، وإلا فاللهُ غرَّهم، وفعل بهم ما فعل، وأوردَهم تلك الموارد.

واجتمع جماعة من هؤلاء يومًا، فتذاكروا القدر، فجرى ذكرُ الهدهد وقولِه: ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ﴾[النمل/ ٢٤] (٢)، فقال: كان الهدهد قدريًّا، أضاف العملَ إليهم والتزيينَ إلى الشيطان، وجميعُ ذلك فعلُ الله(٣) [٣٢/ب].

وسئل بعض هؤلاء عن قوله تعالى لإبليس: ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾[ص/ ٧٥]: أيمنعه، ثمَّ يسأله ما منعَه؟ فقال(٤): نعم، قضَى عليه في السرِّ مامنعه منه(٥) في العلانية، ولعَنه عليه! قال له: فما معنى قوله:

---

(١) أنشده المؤلف في المدارج (٢/ ٣٩٦)، وهو من قصيدة مشهورة للمؤمَّل بن أمَيل المحاربي من مخضرمي شعراء الدولتين، توفي نحو ١٩٠هـ. معجم المرزباني (٢٩٨)، معجم الأدباء (٢٧٣٣).

(٢) في الأصل و «ف»: ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾﴾ وهو جزء من الآية(٤٣) من سورة الأنعام، ولكن المقصود هنا آية النمل كما أثبتنا من «ك، ط».

(٣) «ف»: «قول الله»، غلط من الناسخ.

(٤) «ط»: «قال».

(٥) «منه» ساقط من«ك، ط».

﴿ وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ ءَامَنُواْ ﴾[النساء/ ٣٩][1] إذا كان هو الذي منعهم؟ قال: استهزاءً بهم! قال: فما معنى قوله: ﴿ مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ ﴾[النساء/ ١٤٧] قال: قد فعل ذلك بهم من غير ذنب جَنَوه، بل ابتدأهم بالكفر ثمَّ عذَّبهم عليه، وليس للآية معنى!

وقال بعض هؤلاء ـ وقد عوتب على ارتكابه معاصي الله فقال ـ : إن كنتُ عاصيًا لأمره فأنا مطيع لإرادته[2].

وجرى عند بعض هؤلاء ذكرُ إبليس وإبائه وامتناعه من السجود لآدم، فأخذ الجماعةُ يلعنونه ويذمّونه، فقال: إلى متى هذا[3] اللّوم؟ ولو خُلِّيَ لَسَجَدَ، ولكن مُنِعَ. وأخذ يقيم عذره، فقال له[4] بعض الحاضرين: تبًّا لك سائر اليوم، أتذبُّ عن الشيطان، وتلوم الرحمن؟

وجاءَ جماعة إلى منزل رجل من هؤلاء، فلم يجدوه، فلمَّا رجع قال: كنتُ أصلح بين قوم. فقيل له: وأصلحتَ بينهم؟ قال: أصلحتُ، إن لم يُفسِد الله. فقيل له: بؤسًا لك، أتُحسِن الثناء على نفسك، وتسيء الثناء على ربِّك؟[5]

ومُرَّ بلصٍّ مقطوع اليد على بعض هؤلاء فقال: مسكين، مظلوم، أجبرَه على السرقة، ثمَّ قطع يده عليها!

---

(١) «ك، ط»: ﴿. . . آمنوا بالله﴾.

(٢) سبق في ص (٥٥).

(٣) سقط «هذا» من «ط»، واستدرك في القطرية.

(٤) «له» سقط من «ك، ط».

(٥) انظر ترجمة عبدالله بن داود من المجبرة في الفهرست (٢٣٠).

وقيل لبعضهم: أترى اللهَ كلَّف عبادَه ما لا يطيقون، ثمَّ يعذبهم عليه؟ قال: واللهِ قد فعل ذلك، ولكن لا نجسر أن نتكلم![1]

وأراد رجل من هؤلاء السفر، فودَّع أهلَه وبكى. فقيل له[2]: استودِعْهم الله، واستحفظهم إيَّاه. فقال: ما أخاف عليهم غيرَه!

وقال بعض هؤلاء: زَنيةٌ أزنيها[3] أحبُّ إليَّ من عبادة الملائكة. قيل: ولم؟ قال: لعلمي بأنَّ الله قضاها عليَّ وقدَّرها، ولم يقضها إلا والخِيرةُ لي فيها.

وقال بعضُ هؤلاء: العارف لا ينكر منكرًا، لاستبصاره بسرِّ اللهِ في القدر[4].

ولقد دخل شيخ من هؤلاء بلدًا، فأوَّلُ ما بدأ به من المزارات[5] زيارة المواخير المشتملة على البغايا والخمور، فجعل يقول: كيف أنتم في قدر الله؟ كيف أنتم في قدر الله؟[6]

وسمعتُ شيخ الإسلام ابن تيمية يقول: عاتبتُ بعضَ شيوخ هؤلاءِ فقال لي: المحبة نارٌ تُحرِق من القلب ما سوى مراد المحبوب، والكونُ

---

(١) نقل ابن قتيبة نحوه عن هشام بن الحكم شيخ الإمامية. انظر: تأويل مختلف الحديث (٩٨).

(٢) «له» ساقط من «ك،ط».

(٣) «ك،ط»: «ذنبة أذنبها»، تصحيف.

(٤) نقله المصنف في شفاء العليل (٣٩) من إشارات ابن سينا، وسيأتي مرَّة أخرى في ص(٧٣٥).

(٥) «ط»: «الزيارات».

(٦) وردت هذه الجملة في «ك،ط» مرَّة واحدة.

كله مراد، فأيَّ شيءٍ أُبغِضُ منه؟ قال: فقلت له: إذا كان المحبوب قد أبغضَ بعضَ من في الكون وعاداهم ولعنهم، فأحببتَهم أنت وواليتهم، أكنتَ وليًّا للمحبوب أو عدوًّا له؟ قال: فكأنَّما أُلْقِمَ حجَرًا[1].

وقرأ قارىء بحضرة بعض هؤلاء: ﴿قَالَ يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسۡجُدَ لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّۖ﴾[ص/ ٧٥] فقال: هو واللهِ منعه! ولو قال إبليس ذلك كان[2] صادقًا، وقد أخطأ إبليس الحجَّة، ولو كنتُ حاضرًا لقلتُ[3]: أنتَ منعته!

وسمع بعض هؤلاء قارئًا يقرأ: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيۡنَٰهُمۡ فَٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡعَمَىٰ عَلَى ٱلۡهُدَىٰ﴾[فصلت/ ١٧] فقال: ليس من هذا شيء، بل أضلّهم وأعماهم. قالوا: فما معنى الآية؟ قال: مَخْرَقةٌ يُمَخْرِقُ بها[4].

[٣٣/أ] **فيقال**: الله أكبر على هؤلاء الملاحدة أعداء الله حقًّا الذين ما قدروا الله حقَّ قدره، ولا عرفوه حقَّ معرفته، ولا عظَّموه حقَّ تعظيمه، ولا نزَّهوه عمَّا يليق به، وبغَّضوه إلى عباده وبغَّضوهم إليه سبحانه، وأساؤوا الثناءَ عليه جهدَهم وطاقتهم.

وهؤلاء خصماءُ الله حقًّا الذين جاءَ فيهم الحديثُ: «يُقال يومَ القيامة: أين خصماء الله؟ فيؤمرُ بهم إلى النَّارِ»[5].

---

(١) نقله المؤلف عن شيخ الإسلام في المدارج (٢/ ٥٩٤)، وشفاء العليل (١٩)، وسينقله مرّة أخرى في هذا الكتاب (٦٥٨)، وانظر مجموع الفتاوى (١٠/ ٢١٠، ٤٨٦).

(٢) «ط»: «لكان».

(٣) «ك، ط»: «لقلت له».

(٤) المخرقة: الخداع، والشعوذة.

(٥) أخرجه الطبراني في «الأوسط» (٦٥١٠) وغيره من حديث عمر. وهو حديث منكر. انظر: «العلل» لابن أبي حاتم (٢٨١٠) وللدارقطني (١١٥).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية في تائيته: [١]

ويُدعَى خصومُ الله يومَ معادِهم   إلى النَّارِ طُرًّا فرقةُ القدريةِ
سواءٌ نفَوه أو سعَوا لِيخاصِمُوا   به اللهَ أو مارَوا به للشريعةِ [٢]

وسمعته يقول: القدرية المذمومون في السنة، وعلى لسان السلف هم هؤلاء الفرق الثلاثة [٣]: نفاته، وهم القدرية المجوسية. والمعارضون به للشريعة الذين قالوا: ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا﴾[الأنعام/ ١٤٨] وهم القدرية المشركية [٤]. والمخاصمون به للربِّ، وهم أعداءُ الله وخصومه، وهم القدرية الإبليسية، وشيخهم إبليس، وهو أوَّل من احتجَّ على الله بالقدر فقال: ﴿فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى﴾[الأعراف/ ١٦] ولم يعترف بالذنب ويَبُؤْ به، كما اعترف به آدم. فمن أقرَّ بالذنب، وباءَ به، ونزَّه ربَّه، فقد أشبه أباه آدم، ومن أشبه أباه فما ظلم [٥]. ومن برَّأ نفسَه واحتجَّ على ربِّه بالقدر فقد أشبَه إبليس [٦].

ولا ريبَ أنَّ هؤلاء القدريَّة الإبليسية والمشركية [٧] شرٌّ من القدريَّة

---

(١) وهي التي ردَّ بها على أبيات «الذمي» التي سبق ذكرها في ص (١٧٨).
(٢) مجموع الفتاوىٰ (٨/ ٢٤٦).
(٣) «ط»: «الثلاث». والذي في الأصل وغيره صحيح لاغبار عليه.
(٤) «ط»: «الشركية». والصواب ما في الأصل وغيره. وسماهم «المشركية» لكونهم قد تشبهوا بالمشركين في قولهم. انظر: مجموع الفتاوى (٣/ ١١١)، (٨/ ٢٥٦).
(٥) انظر: المثل في مجمع الأمثال (٣/ ٣١٢).
(٦) انظر: مجموع الفتاوى (٨/ ٢٥٦ ـ ٢٦١).
(٧) «ط»: «الشركية» هنا وفيما يأتي، تحريف. وانظر ما سلف آنفًا في الحاشية الرابعة.

النفاة، لأنَّ النفاة إنَّما نفوه تنزيهًا للرب تعالى وتعظيمًا له أن يقدّر الذنب ثمَّ يلوم عليه ويعاقب، ونزهوه أن يعاقِبَ العبد على مالا صُنعَ للعبد فيه البتة، بل هو بمنزلة طوله وقصره وسواده وبياضه وحوَله[1] ونحو ذلك. كما يحكى عن بعض الجبرية أنَّه حضرَ مجلسَ بعض الولاة فأتيَ بطرَّار[2] أحوَل، فقال له الوالي: ما ترى فيه؟ فقال: اضربه خمسة عشر سوطًا[3]. فقال له بعض الحاضرين ممن ينفي الجبر: بل ينبغي أن يُضْرَب ثلاثين سوطًا: خمسة عشر لِطرِّه، ومثلها لِحَوَله. فقال الجبري: كيف يُضْرَب على الحَوَل، ولا صنع له فيه؟ فقال: كما يضرب على الطرّ، ولا صنع له فيه عندك، فبُهِتَ الجبري.

وأمَّا القدرية الإبليسية والمشركية فكثيرٌ منهم منسلخ من[4] الشرع، عدوٌّ لله ورسله، لا يُقرّ بأمرٍ ولا نهي. وتلك وراثة عن شيوخه[5] الذين قال الله فيهم: ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُواْ بَأْسَنَاۗ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴿١٤٨﴾﴾[الأنعام/ ١٤٨].

وقال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيْءٍ نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيْءٍۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْۚ فَهَلْ عَلَى

---

(١) «وحوله» لم يرد في «ك، ط».
(٢) الطرّار: النشّال يشقّ ثوب الرجل ويسُلّ ما فيه.
(٣) «ك، ط»: «يعني سوطًا».
(٤) «ك، ط»: «عن».
(٥) «ك، ط»: «شيوخهم».

﴿الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ۝٣٥﴾ [النحل/ ٣٥].

وقال تعالىٰ: ﴿وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَاهُم ۗ مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ۝٢٠﴾ [الزخرف/ ٢٠].

وقال تعالىٰ: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ۝٤٧﴾ [يس/ ٤٧].

فهذه أربعة مواضع في القرآن بيّن سبحانه فيها أنَّ الاحتجاج بالقدر من فعل المشركين المكذبين للرسل.

وقد افترق النَّاسُ في الكلام على هذه الآيات أربعَ[1] فرق:

الفرقة الأولى: جعلت هذه الحجَّة حجة صحيحة، وأنَّ للمحتجِّ بها الحجَّةَ على الله. ثمَّ افترق هؤلاء فرقتين:

فرقةٌ كذَّبتْ بالأمرِ والوعد والوعيد، وزعمت أنَّ الأمرَ والنهي والوعد والوعيد بعد هذا يكون ظلمًا، والله لا يظلم من خلقه أحدًا.

وفرقةٌ صدَّقت بالأمر والنَّهي والوعد والوعيد، وقالت: ليس ذلك بظلم، والله يتصرَّف في ملكه كما[2] يشاء، ويعذِّب[3] العبدَ على مالا صنع له فيه، بل يعذِّبه على فعله هو سبحانه لا على فعل عبده، إذ

(١) في الأصل و«ف»: «أربعة»، ولعله سهو. وذلك أنّ المؤلف كتب في الأصل أوّلاً: «فرقًا أربعة»، ثم ضرب على «فرقًا»، وترك العدد على حاله، وكتب بعده: «فرق».
والمثبت من «ك، ط».

(٢) «ك، ط»: «كيف».

(٣) «ف»: «تعذيب»، تحريف.

العبد لا فعلَ له، والملكُ ملكُه، ولا يُسأل عمَّا يفعل وهم يُسألون. فإنَّ هؤلاء الكفَّار إنَّما قالوا هذه المقالة التي حكاها الله عنهم استهزاءً منهم، ولو قالوها اعتقادًا للقضاء والقدر وإسنادًا لجميع الكائنات إلى مشيئته وقدرته لم يُنكَر ذلك[1] عليهم! ومضمون قول هذه الفرقة أنَّ هذه حجة صحيحة إذا قالوها على وجه الاعتقاد لا على جهة الاستهزاء، فيكون للمشركين على الله الحجة. وكفى بهذا القول فسادًا وبطلانًا.

الفرقة الثانية: جعلت هذه الآيات حجَّةً لها في إبطال القضاء والقدر والمشيئة العامة، إذ لو صحَّت المشيئة العامة، وكان الله عزَّوجلَّ قد شاء منهم الشرك والكفر وعبادة الأوثان، لكانوا قد قالوا الحقَّ، وكان الله عزَّوجلَّ يصدِّقهم عليه، ولم ينكر عليهم. فحيث وصفهم بالخرص الذي هو الكذب، ونفى عنهم العلم، دلَّ على أنَّ هذا الذي قالوه ليس بصحيح، وأنَّهم كاذبون فيه. إذ لو كان علمًا لكانوا صادقين في الإخبار به، ولم يقل لهم: ﴿هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ﴾[الأنعام/ ١٤٨].

وجعلت هذه الفرقة هذه الآيات حجَّةً لها على التكذيب بالقضاءِ والقدر، وزعمت بها أنَّه[2] يكون في ملكه ما لا يشاء، ويشاءُ ما لا يكون، وأنَّه لا قدرة له على أفعال عباده من الإنس والجن والملائكة، بل[3] ولا على أفعال الحيوانات، وأنَّه لا يقدر أن يُضلَّ أحدًا ولا يهديه، ولا يوفقه[4] أكثر مما فعل به، ولا يعصمه من الذنوب والكفر،

---

(١) «ذلك» ساقط من «ط».

(٢) «ك، ط»: «أن».

(٣) «بل» لم يرد في «ك، ط».

(٤) «ف»: «يؤتيه». تحريف.

ولا يُلهِمه رُشْدَه، ولا يجعل في قلبه الإيمان، ولا هو الذي جعل المصلي مصلّيًا، والبر برًّا، والفاجر فاجرًا، والمؤمن مؤمنًا، والكافر كافرًا، بل هم الذين جعلوا أنفسهم كذلك.

فهذه الفرقة شاركت الفرقة التي قبلها في إلقاء الحرب والعداوة بين الشرع والقدر: فالأولى تحيَّزت إلى القدر، وحاربت الشرع. والثانية تحيَّزت إلى الشرع، وكذَّبت بالقدر.

والطائفتان ضالَّتان، وإحداهما أضلّ من الأُخرى.

الفرقة[١] **الثالثة**: آمنت بالقضاء والقدر، وأقرَّت بالأمر والنَّهي، ونزَّلوا كلَّ واحدٍ منزلته. فالقضاءُ والقدرُ يؤمَن به ولا يُحْتَجّ به، والأمر والنهي يُمتثل ويُطاع. فالإيمان بالقضاء والقدر عندهم من تمام [٣٤/أ] التوحيد وشهادةِ أن لا إله إلا الله، والقيامُ بالأمر والنهي موجَبُ شهادةِ أن محمدًا رسول الله. وقالوا: من لم يُقِرَّ بالقضاء والقدر ويَقُمْ[٢] بالأمر والنهي فقد كذَّب بالشهادتين، وإن نطق بهما بلسانه.

ثمَّ افترقوا في وجه هذه الآيات فرقَتين:

فرقة قالت: إنَّما أنكر عليهم استدلالهم بالمشيئة العامة والقضاء والقدر على رضاه ومحبته لذلك. فجعلوا مشيئته له وتقديره له دليلاً على رضاه به ومحبته له، إذ لو كرهه وأبغضه لحال بينهم وبينه[٣]، فإنَّ الحكيم إذا كان قادرًا على دفع مايكرهه ويبغضه دفَعه ومنَع من وقوعه.

---

(١) «ك، ط»: «والفرقة».

(٢) في الأصل: «ويقوم»، وكذا في «ف، ن»، والصواب ما أثبتنا من «ك، ط».

(٣) «ك، ط»: «بينه وبينهم».

وإذا[1] لم يمنع من وقوعه لزم إمَّا عدم قدرته وإمَّا عدم حكمته، وكلاهما ممتنع في حقِّ الله، فعُلِم محبتُه لما نحن عليه من عبادة غيره ومن الشرك به!

وقد وافق هؤلاء من قال: إنَّ الله يحب الكفر والفسوق والعصيان ويرضى بها، ولكن خالفهم في أنَّه نهى عنها وأمر بأضدادها ويعاقب عليها، فوافقهم في نصف قولهم، وخالفهم في الشطر الآخر.

وهذه الآيات من أكبر الحجج على بطلان قول الطائفتين، وأنَّ مشيئة الله تعالى العامة وقضاءَه وقدره لا تستلزم محبته ورضاه لكل ماشاءَه وقدَّره. وهؤلاء المشركون لما استدلُّوا بمشيئته على محبته ورضاه كذَّبهم، وأنكر عليهم، وأخبر أنَّه لا علم لهم بذلك وأنَّهم خارصون مفترون، فإنَّ محبة الله تعالىٰ للشيء ورضاه به إنَّما يُعلَم بأمره به على لسان رسوله لا بمجرَّد خلقِه له[2]. فإنَّه خلق إبليسَ وجنودَه، وهم أعداؤه، وهو تعالى يبغضهم ويلعنهم، وهم خَلْقُه. فهكذا في الأفعال خلَق خيرَها وشرَّها، وهو يُحبُّ خيرَها ويأمر به ويثيب عليه، ويبغض شرَّها وينهى عنه ويعاقب عليه، وكلاهما خلقُه. ولله تعالىٰ الحكمة البالغة التامة في خلقه مايبغضه ويكرهه من الذوات والصفات والأفعال، كلٌّ صادرٌ عن حكمته وعلمه، كماهو صادر عن قدرته ومشيئته.

وقالت الفرقة الثانية: إنَّما أنكر عليهم معارضةَ الشرع بالقدر، ودفعَ الأمر بالمشيئة. فلما قامت عليهم حجةُ الله، ولزمهم أمرُه ونهيُه دفعوه

(١) «ك»: «وإذ».
(٢) «له» ساقط من «ك، ط».

بقضائه وقدره، فجعلوا القضاءَ والقدر إبطالاً لدعوة الرسل ودفعًا لما جاؤوا به. وشاركهم في ذلك إخوانهم وورثتهم[1] الذين يحتجون بالقضاء والقدر على المعاصي والذنوب في نصف أقوالهم، وخالفوهم في النصف الآخر، وهو إقرارهم بالأمر والنهي.

فانظر كيف انقسمت هذه المواريث على هذه السهام، وورث كل قوم أئمتهم وأسلافهم إمَّا في جميع تركتهم، وإمَّا في كثير منها، وإمَّا في جزءٍ منها.

وهدى الله بفضله ورثة أنبيائه ورسله لميراث نبيهم وأصحابه، فلم يؤمنوا ببعض الكتاب ويكفروا ببعض، بل آمنوا بقضاء الله وقدره ومشيئته العامة النافذة، وأنَّه ماشاء الله كان ومالم يشأ لم يكن، وأنَّه مقلِّب القلوب ومصرِّفها كيف أراد. وأنَّه هو الذي جعل المؤمن مؤمنًا، والمصلي مصلِّيًا، والمتقي متقيًا. وجعل [٣٤/ب] أئمة الهدى يهدون بأمره، وأئمة الضلالة يدعون إلى النار. وأنَّه ألهمَ كلَّ نفس فجورها وتقواها، وأنَّه يهدي من يشاء بفضله ورحمته، ويضل من يشاء بعدله وحكمته. وأنَّه هو الذي وفَّق أهل الطاعة لطاعته فأطاعوه، ولو شاءَ لخذلَهم فعصَوه؛ وأنَّهُ حال بين الكفار وقلوبهم، فإنَّه يحول بين المرءِ وقلبه، فكفروا به، ولو شاءَ لوفَّقهم فآمنوا به وأطاعوه، وأنَّه من يهده[2] الله فلا مضلَّ له، ومن يضلل فلا هادي له. وأنَّهُ لو شاءَ لآمن من في الأرضِ كلهم جميعًا إيمانًا يُثابون عليه، ويقبل منهم، ويرضى به عنهم. وأنَّه لو شاء ما اقتتلوا، ولكنَّ الله يفعل مايريد: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ

---

(١) «ك، ط»: «ذريتهم».

(٢) «ط»: «يهد الله».

﴿فَذَرۡهُمۡ وَمَا يَفۡتَرُونَ ١١٢﴾ [الأنعام/ ١١٢].

والقضاء والقدر عندهم أربع مراتب[1] جاء بها نبيهم، وأخبر بها عن ربه:

الأولى: علمه السابق بما هم عاملوه قبل إيجادهم.

الثانية: كتابة ذلك في الذكر عنده قبل خلق السماوات والأرض.

الثالثة: مشيئته المتناولة لكل موجود، فلا خروج لكائن عن مشيئته، كما لا خروج له عن علمه.

الرابعة: خلقه له وإيجاده وتكوينه، فإنَّه لا خالق إلا الله، والله خالق كل شيء، فالخالق عندهم واحد، وما سواه فمخلوق، ولا واسطة عندهم بين الخالق والمخلوق.

ويؤمنون مع ذلك بحكمته، وأنَّه حكيم في كل ما فعَله وخلَقه، وأن مصدر ذلك جميعه عن حكمة تامَّة هي التي اقتضت صدورَ ذلك وخلقَه، وأنَّ حكمته حكمةُ حقٍّ عائدة إليه قائمة به كسائر صفاته، وليست عبارةً عن مطابقة علمه لمعلومه وقدرتِه لمقدوره، كما يقوله نفاة الحكمة الذين يقرّون بلفظها دون حقيقتها، بل هي أمر وراء ذلك. وهي الغاية المحبوبة له المطلوبة التي هي متعلَّق محبته وحمدِه، ولأجلها خلَق فسوَّى، وقدَّر فهدى، وأماتَ فأحيا، وأسعد وأشقى، وأضلَّ وهدى، ومنع وأعطى.

وهذه الحكمة هي الغاية، والفعل وسيلة إليها، فإثباتُ الفعل مع نفيها إثباتٌ للوسائل ونفيٌ للغايات وهو محال، إذ نفيُ الغاية مستلزِم

---

(١) انظر: شفاء العليل(٦٥).

لنفي الوسيلة، فنفيُ الوسيلة ـ وهي الفعل ـ لازم لنفي الغاية وهي الحكمة. ونفيُ قيام الفعل والحكمة به نفيٌ لهما في الحقيقة، إذ فعلٌ لا يقوم بفاعله وحكمةٌ لا تقوم بالحكيم شيء لا يُعقل. وذلك يستلزم إنكارَ ربوبيته وإلهيته. وهذا لازمٌ لمن نفى ذلك، لا محيدَ[1] له عنه وإن أبى التزامَه.

وأمَّا من أثبت حكمته وأفعاله على الوجه المطابق للعقل والفطرة وماجاءت به الرسل لم يلزم من قوله محذور البتة، بل قوله حقٌّ، ولازم الحق حق كائنًا ما كان.

والمقصود: أنَّ ورثة الرسل وخلفاءهم ـ لكمال ميراثهم لنبيهم ـ آمنوا بالقضاءِ والقدر والحِكَم والغايات المحمودة في أفعال الرب وأوامره، وقاموا مع ذلك بالأَمرِ والنهي، وصدَّقوا بالوعد والوعيد. فآمنوا بالخلق الذي من تمام الإيمان به إثباتُ القدر والحكمة، وبالأمر الذي من تمام الإيمان به الإيمانُ بالوعد[2] والوعيد وحشر الأجساد والثواب والعقاب. فصدَّقوا بالخلق والأمر، ولم ينفوهما بنفي لوازمهماـ كما فعلت القدرية المجوسية والقدرية المعارضة للأمر بالقدر ـ[3] فكانوا[4] أسعدَ النَّاس بالحقِّ[5] وأقربَهم عصبةً في هذا الميراث النبوي. وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل

---

(١) «ك، ط»: «ولا محيد».

(٢) «ن»: «إثبات الوعد».

(٣) «وبالقدر» سقط من «ط»، واستدرك في القطرية.

(٤) «ك، ط»: «وكانوا».

(٥) «ط»: «بالخلق»، تحريف.

العظيم.

واعلم أنَّ الإيمان بحقيقة القدر والشرع والحكمة لا يجتمع إلا في قلوب خواصّ الخلق ولبّ العالم. وليس الشأن في الإيمان [٣٥/أ] بألفاظ هذه المسمّيات وجحدِ حقائقها كما يفعل كثير من طوائف الضلال، فإنَّ القدرية تؤمن بلفظ القدر، ومنهم من يرده إلى العلم، ومنهم من يرده إلى الأمر الديني(١)، ويجعل قضاءَه وقدرَه هو نفسَ أمره ونهيه، ويفسر(٢) مشيئة الله لأفعال عباده بأمره لهم بها، وهذا حقيقة إنكار القضاء والقدر.

وكذلك الحكمة، فإنَّ الجبرية تؤمن بلفظها وتجحد(٣) حقيقتها، فإنَّهم يجعلونها مطابقةَ علمه تعالى لمعلومه، وإرادته لمراده. فهي عندهم وقوع الكائنات على وفق علمه وإرادته. والقدرية النفاة لا يرضون بهذا، بل يرتفعون عنه طبقةً، ويثبتون حكمةً زائدةً على ذلك، لكنَّهم ينفون قيامها بالفاعل الحكيم، ويجعلونها مخلوقًا من مخلوقاته، كما قالوا في كلامه وإرادته. فهؤلاء كلهم أقرُّوا بلفظ الحكمة، وجحدوا معناها وحقيقتها.

وكذلك الأمرُ والشرع، فإنَّ من أنكر كلام الله وقال: إنَّ الله لم يتكلَّم ولا يتكلَّم، ولا قال ولا يقول، ولا يحبُّ شيئًا ولا يبغض شيئًا؛ وجميعُ الكائنات محبوبةٌ له، وما لم يكن فهو مكروه له، ولا يحِبّ، ولا يحَبّ(٤)، ولا يرضى، ولا يغضب؛ ولا فرق في نفس الأمر بين

---

(١) «ف»: «والنهي»، تحريف.

(٢) «ط»: «نفس»، تحريف.

(٣) «ك،ط»: «يجحدون».

(٤) «ولا يحَبّ» ساقط من «ك،ط».

الصدق والكذب، والبرّ والفجور[1]، والسجود للأصنام والشمس والقمر والنجوم وبين[2] السجود له. ولم يكلف أحدًا ما يقدر عليه، بل كلُّ تكاليفه[3] تكليفُ مالا يطاق، ولا قدرة للمكلَّف عليه البتة. ويجوز أن يعذِّب رجالاً إذ لم يكونوا نساء، ويعذب نساءً إذ لم يكونوا رجالاً، وسودًا حيث لم يكونوا بيضًا، وعكسه[4]. ويجوزُ أن يُظهر المعجزةَ على أيدي الكذَّابين، ويُرسل رسولاً يدعو إلى الباطل وعبادة الأوثان، ويأمر بقتل النفوس وأنواع الفجور.

= ولا ريبَ[5] أنَّ هذا يرفع الشرائع والأمر والنهي بالكلية، ولولا تناقض القائلين به لكانوا منسلخين من دين الرسل، ولكن مشى الحالُ بعضَ المشي بتناقضهم، وهو خير لهم من طرد أصولهم والقولِ بموجبها.

والمقصود: أنَّه لم يؤمن بالقضاء والقدر والحكمة والأمر والنهي والوعد والوعيد حقيقةَ الإيمان إلا أتباع الرسل وورثتُهم.

والقضاء والقدر منشؤه عن علم الرب وقدرته، ولهذا قال الإمام أحمد: «القدر قدرة الله»[6]. واستحسن ابن عقيل هذا الكلام من أحمد

---

(١) «ط»: «الصدق والفجور والكذب والفجور»، وحذفت «الفجور» الأولى من القطرية، والصواب ما أثبتنا من الأصل وغيره.

(٢) «النجوم وبين» ساقط من «ط».

(٣) «ط»: «تكليفه».

(٤) مكان «عكسه» في «ط»: «وبيضًا حيث لم يكونوا سودًا».

(٥) كذا في الأصل وغيره، وهو في المعنى خبر «فإنّ» الواردة في أول الفقرة السابقة.

(٦) مسائل ابن هانىء (٢/ ١٥٥)، مجموع الفتاوى(٨/ ٣٠٨).

غايةَ الاستحسان، وقال: إنَّه شفى بهذه الكلمة وأفصح بها عن حقيقة القدر[1].

ولهذا كان المنكرون للقدر فرقتين: فرقة كذَّبت بالعلم السابق ونفَتْه، وهم غلاتهم الذين كفَّرهم السلف والأئمة وتبرأ منهم الصحابة. وفرقة جحدت كمال القدرة، وأنكرت أن تكون أفعال العباد مقدورةً لله تعالىٰ، وصرَّحت بأنَّ الله لا يقدر عليها. فأنكر هؤلاء كمالَ قدرة الرب تعالى، وأنكرت الأخرى كمالَ علمه. وقابلتهم الجبرية، فحافظت[2] على إثبات القدرة والعلم، وأنكرت الحكمة والرحمة.

ولهذا كان مصدرالخلق والأمر والقضاء والشرع عن علم الرب وعزته وحكمته، ولهذا يقرن تعالى بين الاسمين والصفتين[3] من هذه الثلاث[4] كثيرًا كقوله: ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾[النمل/ ٦]، وقال: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ۝١﴾[الزمر/ ١]. وقال: ﴿حمٓ ۝١﴾[غافر/ ١ـ٢].

وقال في حم فصلت[5] بعد ذكر تخليق العالم: ﴿ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ۝١٢﴾[فصلت/ ١٢]. وذكر نظير هذا في الأنعام، فقال: ﴿فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ

---

(١) وانظر شفاء العليل(٦٣).

(٢) «ط»: «فجاءت».

(٣) «والصفتين» ساقط من القطرية.

(٤) «ك،ط»: «الثلاثة». وانظر في اقتران الأسماء المذكورة ما سيأتي في ص(٢٣٠).

(٥) «فصلت» ساقط من القطرية.

﴿ٱلۡعَلِيمِ ٩٦﴾[الأنعام/ ٩٦][1].

فارتباطُ الخلق بقدرته التامَّة يقتضي أن لا يخرج موجودٌ عن قدرته، وارتباطُه بعلمه التام يقتضي إحاطته به وتقدمه عليه، وارتباطُه بحكمته يقتضي وقوعه على أكمل الوجوه وأحسنها، واشتماله على الغاية المحمودة المطلوبة للرب تعالىٰ. [٣٥/ب] وكذلك ارتباط[2] أمره بعلمه وحكمته وعزَّته، فهو عليمٌ بخلقه وأمره، حكيمٌ في خلقه[3] وأمره، عزيزٌ في خلقه وأمره[4].

ولهذا كان الحكيم من أسمائه الحسنى، والحكمة[5] من صفاته العلى. والشريعة الصادرة عن أمره مبناها على الحكمة، والرسول المبعوث بها مبعوث بالكتاب والحكمة. والحكمة هي سنة الرسول ﷺ، وهي تتضمن العلم بالحق، والعمل به، والخبر عنه، والأمر به؛ فكل[6] هذا يسمَّى «حكمة». وفي الأثر: «الحكمة ضالة المؤمن»[7]. وفي

---

(١) هذه قراءة عاصم وغيره من الكوفيين، والوارد في الأصل وغيره قراءة الباقين، ومنهم أبوعمرو، ويظهر أنَّ قراءته هي المعتمدة فيها، وهي: «وجاعلُ الليلِ». انظر: الإقناع (٢/ ٦٤١).

(٢) سقط «ارتباط» من «ط».

(٣) «ف»: «بخلقه»، سهو.

(٤) «عزيز في خلقه وأمره» سقط من «ط». وأمَّا القطرية فأسقطت ماقبله أيضًا، وهو: «حكيم في خلقه وأمره».

(٥) «ف»: «فالحكمة»، خلافًا للأصل. وكذا في «ك،ط».

(٦) «ف»: «وكل»، وهي قراءة محتملة.

(٧) أخرجه الترمذي (٢٦٨٧)، وابن ماجه (٤١٦٩) من حديث أبي هريرة. قال الترمذي: هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه، وإبراهيم بن الفضل المدني المخزومي يضعف في الحديث من قبل حفظه. وأخرجه البيهقي في =

الحديث: «إنَّ من الشعر حكمة»[1].

فكما لا يخرج مقدور عن علمه وقدرته ومشيئته، فهكذا لا يخرج عن حكمته وحمده. وهو[2] محمود على جميع ما في الكون من خيرٍ وشر حمدًا استحقه لذاته، وصدر عنه خلقُه وأمرُه. فمصدرُ ذلك كله عن الحكمة، فإنكارُ الحكمة إنكارٌ لحمده في الحقيقة[3].

فصل

وإنَّما يتبين هذا ببيان وجود الحكمة في كلِّ ماخلقه الله وأمرَ به، وبيان أنّه كلّه خير من جهة إضافته إليه سبحانه، وأنّه من تلك الإضافة خير وحكمة، وأنَّ جهة الشر منه من جهة إضافته إلى العبد، كما قال النبيّ[4] ﷺ في دعاءِ الاستفتاح: «لبَّيك وسعديك، الخيرُ في يديك، والشرُّ ليس إليك»[5].

فهذا النفي يقتضي امتناعَ إضافةِ الشر إليه تعالى بوجه، فلا يضافُ إلى ذاته ولا صفاته ولا أسمائه ولا أفعاله. فإنَّ ذاته تعالى منزَّهة عن كلِّ شرٍّ، وصفاته كذلك، إذ كلّها صفات كمال ونعوتُ جلال لا نقص فيها بوجه من الوجوه، وأسماؤه كلها حسنى ليس فيها اسم ذم ولا عيب،

= المدخل (٨٤٤) عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه. وجاء عن معاوية، وزيد بن أسلم، وعبدالله بن عبيد بن عمير. انظر: تبييض الصحيفة لمحمد عمرو عبداللطيف (١/ ٦٧). (ز).

(١) أخرجه البخاري عن أُبيّ بن كعب رضي الله عنه في كتاب الأدب(٦١٤٥).

(٢) «ف»: «فهو» خلافًا للأصل.

(٣) زاد في «ك،ط»: «والله أعلم».

(٤) «النبي» لم يرد في «ك،ط».

(٥) أخرجه مسلم في كتاب صلاة المسافرين وقصرها(٧٧١) من حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

وأفعاله كلها حكمة ورحمة ومصلحة وإحسان وعدل لا تخرج عن ذلك البتة؛ وهو المحمود على ذلك كله، فيستحيل إضافة الشر إليه.

وتحقيق ذلك أنَّ الشرَّ ليس هو إلا الذنوب وعقوبتها، كما في خطبته ﷺ: «الحمدُ لله، نستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا»[1]. فتضمّن ذلك الاستعاذةَ من شرور النفوس، ومن سيئات الأعمال وهي عقوباتها. وعلى هذا فالإضافة على معنى «اللام» من باب[2] إضافة المتغايرين. أو يقال: المرادُ السيئاتُ من الأعمال، فعلى هذا الإضافةُ بمعنى «من»، وهي من باب إضافة النوع إلى جنسه.

ويدلُّ على الأوّل قوله تعالى: ﴿وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوۡمَئِذٖ فَقَدۡ رَحِمۡتَهُۥۚ﴾[غافر/ ٩]. قال شيخنا رحمه الله[3]: وهذا أشبه، لأنَّه[4] إذا أريد السيئات من الأعمال، فإن أريد ماوقع منها فالاستعاذة إنَّما تكون من عقوباتها، إذ الواقع لا يمكن رفعُه؛ وإن استعاذ منها قبل وقوعها لئلا يقع، فهذا هو الاستعاذة[5] من شرِّ النفس.

وأيضًا فلا يقال في هذه التي لم توجد بعدُ: «سيئات أعمالنا»، فإنها

---

(١) أخرجه أحمد (٣٧٢١،٤١١٦)، وأبوداود (٢١١٨)، والترمذي (١١٠٥)، وابن ماجه (١٨٩٢) بإسناد صحيح.

(٢) «ن»: «وهي من باب».

(٣) يعني شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله. وانظر قوله في مجموع الفتاوى (١٨/ ٢٨٩).

(٤) «لأنَّه» ساقط من «ط».

(٥) «لا يمكن رفعه. . .الاستعاذة» ساقط من «ط».

لم تكن بعدُ أعمالاً فضلاً عن أن تكون سيئات، وإضافة الأعمال إلينا تقتضي وجودها، إذ ما[1] لم يوجد بعدُ ليس هو من أعمالنا، إلا أن يقال: من سيئات الأعمال التي إذا عملناها كانت سيئات.

ولمن رجَّح التقدير الثاني أن يقول: العقوبات ليست لجميع الأعمال، بل للمحرَّمات منها، والأعمال أعم، وحملُها على المحرمات خاصَّةً خلافُ ظاهر اللفظ. بخلاف ما إذا كانت الإضافة على معنى «من»، فتكون الأعمال على عمومها، والسيئات بعضها، فتكون السيئات على عمومها، والأعمال على عمومها[2].

ويترجَّح أيضًا بأن[3] الاستعاذة تكون قد اشتملت على أصول الشرّ كله، وهي[4] شرّ النفس الكامن فيها الذي لم يخرج إلى العمل، وشرّ العمل الخارج الذي سوَّلته النفس. فالأوَّل شر الطبيعة والصفة التي في النفس، والثاني شر العمل المتعلق بالكسب والإرادة. ويلزم من المعافاة من هذين الشرين المعافاةُ من موجَبهما، وهو العقوبة؛ فتكون الاستعاذة قد شملت جميع أنواع الشر بالمطابقة واللزوم. وهذا هو اللائق بمن أوتي جوامع الكلم، فإنَّ هذا من جوامع كلمه البديعة العظيمة الشأن التي لا يعرف قدرَها إلا أهلُ العلم والإيمان[5].

---

(١) «ما» سقط من «ط» واستدرك في القطرية.

(٢) «والأعمال على عمومها» ساقط من «ط».

(٣) «ك، ط»: «أنَّ».

(٤) «ط»: «هو».

(٥) وانظر: إغاثة اللهفان (١/ ١٥١)، وبدائع الفوائد (٧١٦)، والداء والدواء (١٧٨).

[٣٦/أ] وإذا عُرِفَ هذا، وأنَّه[1] ليس في الوجود شرٌّ إلا الذنوب وموجباتها، وكونُها ذنوبا ناشىء[2] من نفس العبد، فإنَّ سبَب الذنبِ الظلمُ والجهلُ، وهما من نفس العبد؛ كما أنَّ سببَ الخير والحمدِ العلم[3] والحكمة والغنى، وهي أمور ذاتية للرب تعالىٰ.

فذاتُ[4] الرب تعالى مستلزمة للحكمة والخير والجود، وذاتُ العبد مستلزمة للجهل والظلم، ومافيه من العلم والعدل فإنَّما حصل له بفضل الله عليه، وهو أمرٌ خارجٌ عن نفسه. فمن أراد الله به خيرًا أعطاه هذا الفضل، فصدرَ منه موجَبه[5] من الإحسان والبر والطاعة. ومن أراد به شرًّا أمسكه عنه، وخلَّاه ودواعي نفسه وطبعه وموجبها، فصدر منه موجبُ الجهل والظلم من كلِّ شرٍّ وقبيح. وليس منعه لذلك ظلمًا منه تعالىٰ، فإنَّه فضلُه، وليس من منع فضله ظالمًا، لا سيما إذا منعه عن محل لا يستحقه ولا يليق به.

وأيضًا فإنَّ هذا الفضل هو توفيقه وإرادته من نفسه أن يلطف بعبده، ويوفقَه، ويعينَه، ولا يخليَ بينه وبين نفسه؛ وهذا محض فعله وفضله، وهو سبحانه أعلمُ بالمحلِّ الذي يصلح لهذا الفضل، ويليق به، ويثمر فيه[6]، ويزكو به.

---

(١) قراءة «ف»: «فإنَّه».

(٢) «ك، ط»: «تأتي»، ولعله تصحيف.

(٣) «ط»: «الخير الحمد والعلم».

(٤) «ك، ط»: «وذات».

(٥) «موجبه من» ساقط من «ط».

(٦) «ك، ط»: «به».

وقد أشارَ تعالى إلى هذا المعنى بقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٥٣﴾﴾[الأنعام/ ٥٣] فأخبر سبحانه أنَّه أعلمُ بمن يعرف قدرَ هذه النعمة ويشكره عليها. فإنَّ أصلَ الشكر هو الاعترافُ بإنعام المنعم على وجه الخضوع له والذل والمحبة، فمن لم يعرف النعمة بل كان جاهلاً بها لم يشكرها؛ ومن عرفها ولم يعرف[1] المنعمَ بها لم يشكرها أيضًا؛ ومن عرفَ النعمة والمنعم لكن جحَدها كما يجحد المنكِر لنعمة المنعِم عليه[2] فقد كفرها. ومن عرف النعمةَ والمنعِمَ، وأقرَّ بها ولم يجحدها، ولكن لم يخضع له، ويحبَّه، ويرضَ به[3] وعنه، لم يشكرها أيضًا. ومن عرفها، وعرف المنعِم بها، وأقرّ بها[4]، وخضعَ للمنعم بها، وأحبه ورضي به وعنه، واستعملها في محابه وطاعته= فهذا هو الشاكر لها.

فلا بُدَّ في الشكر من علم القلب، وعمل يتبع العلم، وهو الميل إلى المنعم ومحبته والخضوع له، كما في صحيح البخاري[5] عن شدَّاد بن أوس قال: قال رسول الله ﷺ: «سيِّدُ الاستغفار أن يقول العبد: اللَّهم أنت ربِّي لا إله إلا أنت، خلقتني وأنا عبدك، وأنا على عهدك ووعدك ما استطعتُ، أعوذُ بك من شرِّ ما صنعتُ، أبوءُ لك بنعمتك عليَّ، وأبوءُ بذنبي، فاغفر لي فإنَّه لا يغفر الذنوب إلا أنت. من قالها إذا أصبح موقنًا

---

(١) قوله: «النعمة بل» إلى هنا سقط من «ك» لانتقال النظر.

(٢) «ك، ط»: «عليه بها».

(٣) «ف»: «يرضى». قراءة محتملة. وإثبات حرف العلّة في موقع الجزم لغة لبعض العرب. انظر: شواهد التوضيح (٢١).

(٤) «وأقرَّ بها» ساقط من «ط».

(٥) كتاب الدعوات (٦٣٠٦، ٦٣٢٣)، وسيأتي مرة أخرى مع تفسيره في (٣٥٧).

بها فماتَ من يومه دخل الجنَّة، ومن قالها إذا أمسى موقنا بها فمات من ليلته دخل الجنَّة».

فقوله: «أبوءُ لك بنعمتك عليَّ» يتضمن الإقرار والإنابة إلى الله بعبوديته، فإنَّ المباءة هي التي يبوء إليها الشخص، أي يرجع إليها رجوع استقرار، والمباءَة هي المستقر. ومنه قوله ﷺ: «من كذبَ عليَّ متعمِّدًا فلْيتبوَّأ مقعدَه من النَّارِ»[١] أي لِيتَّخِذْ مقعدَه من النَّار مباءَةً يلزمه ويستقر فيه، لا كالمنزل الذي ينزله ثم يرحل عنه.

فالعبدُ يبوءُ إلى الله عزَّوجلَّ بنعمته عليه، ويبوءُ بذنبه، فيرجع[٢] إليه بالاعتراف بهذا وبهذا، رجوعَ مطمئن إلى ربِّه منيبٍ إليه، ليس رجوعَ من أقبل عليه ثم أعرض عنه، بل رجوعَ من لا يُعرض عن ربه، بل لا يزال مقبلاً عليه، إذ[٣] كان لا بد له منه[٤]. فهو معبوده، وهو مستعانه[٥]، لا صلاح له إلا بعبادته، فإن لم يكن معبودَه هلك وفسد، ولا يمكن أن يعبده إلا بإعانته. وفي الحديث: «مثل المؤمن مثل الفرس في آخيّته[٦]: يجولُ ثمَّ يرجع إلى آخيته. كذلك المؤمن يجولُ ثمَّ يرجع

---

(١) أخرجه البخاري في العلم (١١٠) وغيره، ومسلم في المقدمة (٣) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) «ن»: «فرجع». «ك، ط»: «ويرجع».

(٣) «ط»: «إذا»، خطأ.

(٤) «ليس رجوع من أقبل...» إلى هنا ساقط من«ن».

(٥) «ك، ط»: «مستغاثه»، تصحيف.

(٦) الآخيَّة بالمد والتشديد، ويجوز بالتخفيف: العروة تشد بها الدابة مثنية في الأرضِ. قاله أبوعبيد. اللسان (أخا).

إلى الإيمان»[1].

فقوله: «أبوءُ» يتضمن أني وإن جُلْتُ كما يجول الفرس ـ إمَّا بالذنب وإمَّا بالتقصير في الشكر ـ فإنِّي راجع منيب أوَّاب إليك، رجوعَ من لا غنى له عنك.

وذكر النعمةَ والذنبَ لأنَّ[2] العبد دائمًا يتقلب بينهما، فهو بين نعمةٍ من ربِّه وذنبٍ منه هو، كما في الأثر الإلهي: «ابنَ آدم خيري إليك نازل، وشرُّك إليَّ صاعد. كم أتحبَّب إليك بالنعم، وأنا غني عنك! وكم تتبغض إليَّ بالمعاصي، وأنت فقير إلي! ولا يزال الملك الكريم يعرُج إليَّ منك بعمل قبيح»[3].

وكان في زمن الحسن البصري شابّ لا يُرى إلا وحده، فسأله الحسن عن ذلك فقال: إنِّي أجدني بين نعمةٍ من الله وذنبٍ منِّي، فأريد أن أحدِثَ

---

(١) أخرجه أحمد (١٥٢٦)، وابن حبان (٦١٦)، وأبوالشيخ في الأمثال (٣٥٢) وغيرهم. وفي سنده ضعف. تفرَّد به أبوسليمان الليثي عن أبي سعيد الخدري. وأبوسليمان مجهول. وفيه عبدالله بن الوليد، فيه ضعف. قال ابن طاهر المقدسي: حديث غريب لا يذكر إلا بهذا الإسناد. انظر: تعجيل المنفعة (٢/ ٤٧٣). (ز).

(٢) «ف»: «أنّ»، خلافًا للأصل.

(٣) نقله المصنف في المدارج (١/ ٥٤٥)، والزاد (٢/ ٤٠٩)، وشفاء العليل (٣٦٤)، وسيأتي مرّة أخرى في ص(٦٨٧). أخرجه نعيم في الحلية (٤/ ٣١) عن وهب بن منبه قال: قرأت في بعض الكتب فوجدت الله تعالى يقول... (ص).

وقد أخرجه ابن أبي الدنيا في الشكر (٤٣) عن مالك بن دينار قال: قرأت في بعض الكتب: إن اللّٰه عزّوجلّ يقول... فذكره. (ز).

للنعمة شكرًا وللذنب استغفارًا، فذلك الذي شغلني عن النَّاس، أو كما قال. فقال له: «أنت أفقه عندي[(١)] من الحسن»[(٢)].

فالخيرُ كله من الله كما قال تعالىٰ: ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ﴾[النحل/ ٥٣]. وقال تعالىٰ: ﴿ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ۝٧ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعْمَةً ﴾[الحجرات/ ٧ ـ ٨][٣٦/ ب].

وقال تعالىٰ: ﴿ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا۟ ۖ قُل لَّا تَمُنُّوا۟ عَلَىَّ إِسْلَٰمَكُم ۖ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝١٧ ﴾[الحجرات/ ١٧].

وقال تعالىٰ: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧ ﴾[الفاتحة/ ٦ـ٧]. وهؤلاء المنعَم عليهم هم المذكورون في قوله تعالىٰ: ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُو۟لَٰٓئِكَ رَفِيقًا ۝٦٩ ﴾[النساء/ ٦٩].

فالنعم كلُّها ـ من[(٣)] نعم الدِّين والدنيا، وثواب الأعمال في الدنيا والآخرة[(٤)] ـ من نِعَمِ الله ومنِّه[(٥)] وفضله على عبده. وهو تعالى، وإن

---

(١) لم يرد «عندي»، في «ك، ط».

(٢) نقله المصنف في عدة الصابرين (٢٤٣)، وقد أخرجه ابن أبي الدنيا في الشكر (١٩٦).

(٣) «من» ساقط من «ك».

(٤) قوله «من نعم الدين...» إلى هنا ساقط من«ط».

(٥) «ومنّه» ساقط من «ط».

كان أجودَ الأجودين وأرحم الراحمين وأكرم الأكرمين، فإنَّه أحكم الحاكمين وأعدل العادلين، لا يضع الأشياءَ إلا في مواضعها اللائقة بها، ولا يناقض جودُه ورحمتُه وفضلُه حكمتَه وعدلَه.

ولو رأى العقلاءُ أحدًا منهم قد وضع المِسك في الحشوش والأخلية، ووضَع النجاسات والقاذورات في مواضع الطيب والنظافة لاشتدَّ نكيرهم عليه والقدحُ في عقله، ونسبوه إلى السفَه وخلاف الحكمة. وكذلك لو وضع العقوبة موضع الإحسان، والإحسانَ موضع العقوبة لسفَّهوه، وقدحوا في عقله، كما قال القائل:

ووضعُ النَّدى في موضع السَّيف بالعلا مُضِرٌّ كوضع السَّيفِ في موضعِ النَّدى[1]

وكذلك لو وضع الدواءَ موضع الغذاء، والغذاءَ موضع الدواء، والاستفراغ حيث يكون اللائق به عدمه، والإمساكَ حيث يليق الاستفراغ. وكذلك وضع الماء موضعَ الطعام، ووضع[2] الطعام موضعَ الماء، وأمثال ذلك مما يخل بالحكمة، بل لو أقبل على الحيوان البهيم يريد تعليمه ما لم يُخلق له من العلوم والصنائع. فمن بهرت حكمتُه العقول والألباب كيف ينبغي له أن يضع الأشياء في غير مواضعها اللائقة بها؟

ومن المعلوم أنَّ أجلَّ نعمِه على عبده نعمةُ الإيمان به، ومعرفته، ومحبته، وطاعته، والرضا به، والإنابة إليه، والتوكل عليه، والتزام عبوديته. ومن المعلوم أيضًا أنَّ الأرواح منها الخبيث الذي لا أخبث

(١) للمتنبي في ديوانه (٥٣٣).
(٢) «وضع» ساقط من «ط».

منه، ومنها الطيب، وبين ذلك؛ وكذلك القلوب منها القلب الشريف الزكي، والقلب الخسيس الخبيث. وهو سبحانه خلق الأضداد كما خلق الليل والنهار، والبر والبحر[1]، والحر والبرد[2]، والداءَ والدواء، والعلو والسفل؛ وهو أعلمُ بالقلوب الزاكية والأرواح الطيبة التي تصلح لاستقرار هذه النعم فيها، وإيداعها عندها، ويزكو بذرها[3] فيها، فيكون تخصيصه لها بهذه النعم[4] كتخصيص الأرض الطيبة القابلة للبذرِ بالبذرِ. فليس من الحكمة أن يبذرَ البُرُّ في الصخور والرمال والسِّباخ[5]، وفاعل ذلك غير حكيم، فما الظنُّ ببذر الإيمان والقرآن والحكمة ونور المعرفة والبصيرة في المحالّ التي هي أخبث المحالّ.

فالله عزَّوجلَّ أعلم حيث يجعل رسالاته أصلاً وميراثًا، فهو أعلمُ بمن يصلح لتحمّلِ رسالته فيؤديها إلى عباده بالأمانة، والنصيحة، وتعظيم المرسِل، والقيامِ بحقه، والصبر على أوامره، والشكر لنعمه، والتقرب إليه؛ ومن لا يصلح لذلك. وكذلك هو سبحانه أعلم بمن يصلح من الأمم لوراثة رُسله، والقيام بخلافتهم، وحمل ما بلَّغوه عن ربِّهم.

قال عبدالله بن مسعود: «إنَّ الله تعالىٰ نظر في قلوب العباد، فرأى قلب محمد ﷺ خيرَ قلوب أهل الأرض، فاختصه برسالته. ثمَّ نظر في

---

(١) «والبر والبحر» ساقط من «ك،ط».

(٢) «ك،ط»: «البرد والحر».

(٣) «ط»: «بذورها»، وصحح في القطرية.

(٤) «ط»: «النعمة».

(٥) جمع سَبَخَة، وهي الأرض التي تعلوها الملوحة، ولا تكاد تنبت إلا بعض الشجر.

قلوب العباد، فرأى قلوبَ أصحابه خيرَ قلوب العباد، فاختارهم لصحبته»[١]. وفي أثر إسرائيلي[٢]: أنَّ الله تعالى قال لموسى: أتدري لِمَ اخترتُك لكلامي؟ قال: لا يارب. قال: لأنِّي[٣] نظرتُ في قلوب العباد، فلم أرَ فيها أخضعَ من قلبك لي. أو نحو هذا[٤].

فالربُّ سبحانه إذا علمَ من المحلّ[٥] أهليَّةً لفضله ومحبته ومعرفته وتوحيده حبَّبَ إليه ذلك، ووضعه فيه، وكتبه في قلبه، ووفَّقه له، وأعانه عليه، ويسَّرَ له طرقَه، وأغلق دونه الأبوابَ التي تحول بينه وبين ذلك. ثمَّ تولاه بلطفه وتدبيره وتيسيره وتربيته أعظمَ[٦] من تربية الوالد الشفيق الرحيم المحسِن لولده الذي هو أحب شيء إليه. فلا يزال يعامله بلطفه، ويختصه بفضله، ويؤثره برحمته، ويمده بمعونته، ويؤيده بتوفيقه، ويُريه مواقع إحسانه إليه وبرّه به؛ فيزداد العبدُ به معرفةً، وله محبَّةً، وإليه إنابةً، وعليه توكلاً؛ ولا يتولى معه غيره، ولا يعبد[٧] سواه. وهذا هو الذي عرفَ قدرَ النعمة، وعرف المنعم، وأقرَّ بنعمته، وصرفها في مرضاته؛ فاقتضت[٨] حكمة الرب تعالى وجوده وكرمه وإحسانه أن بذر

---

(١) أخرجه أحمد (٣٦٠٠)، والبزار كما في كشف الأستار (١٣٠)، وسنده حسن. (ز).

(٢) «ط»: «أثر بني إسرائيل». وكذا كان في «ك» ثمَّ عدّل في المتن.

(٣) «ط»: «إني».

(٤) نقل الذهبي نحو هذا عن وهب بن منبه في سير أعلام النبلاء (١٥/٤٩٨).

(٥) «ك،ط»: «محل».

(٦) «ط»: «أحسن».

(٧) «ك،ط»: «ولا يعبد معه».

(٨) «ك،ط»: «واقتضت».

في هذا القلبِ بذر الإيمان والمعرفة، وسقاه ماءَ العلم النافع والعمل الصالح، وأطلع عليه من نوره شمسَ الهداية، [٣٧/أ] وصرف عنه الآفاتِ المانعة من حصولِ الثمرة، فأنبتت أرضُه الزاكية من كل زوجٍ كريم، كما في الصحيح من حديث أبي موسى عن النبي ﷺ قال:

«مثلُ مابعثني الله به(١) من الهدى والعلم كمثل غيثٍ أصابَ أرضًا، فكان منها طائفةٌ طيبةٌ قبلت الماءَ، فأنبتت الكلأ والعشب الكثير. وكان منها طائفة أجادبُ أمسكت الماء، فسقى الناس وزرعوا. وأصاب منها طائفةً أخرى إنَّما هي قِيعانٌ لا تمسك ماءً ولا تنبت كلأً. فذلك مثل من فقُه في دين الله ونفعه بما بعثني الله به، ومثل من لم يرفع في بذلك رأسًا ولم يقبل هدى الله الذي أُرسِلتُ به»(٢).

فمثَّل القلوب بالأرضِ التي هي محل النبات والثمار، ومثَّل الوحيَ الذي وصل إليها من بارئها وفاطرها بالماءِ الذي ينزله على الأرضِ. فمن الأرضِ أرضٌ طيبة قابلةٌ للماءِ والنبات، فلمَّا أصابها الماءُ أنبتت ما انتفع به الآدميون والبهائم: أقواتَ(٣) المكلفين وغيرهم. وهذه بمنزلة القلبِ القابل لهدى الله ووحيه، المستعدّ لزكائه(٤) وثمرته ونمائه، وهذا خير قلوب العالمين.

ومن الأرضِ أرضٌ صلبةٌ منخفضةٌ غيرُ مرتفعة ولا رابية، قابلةٌ لحفظ الماءِ واستقراره فيها، ففيها قوّة الحفظ وليس فيها قوّة النبات؛ فلمَّا

---

(١) لم يرد «به» في «ك، ط».

(٢) أخرجه البخاري في كتاب العلم (٧٩)، ومسلم في كتاب الفضائل (٢٢٨٢).

(٣) «ط»: «وأقوات» بزيادة الواو.

(٤) «ف»: «لزكاته».

حصلَ فيها الماءُ أمسكته وحفظته، فورده الناس لشربهم وشرب مواشيهم، وسقوا منه زروعهم[1]. وهذا بمنزلة القلب الذي حفظ الوحيَ، وضبَطَه، وأدَّاه إلى من هو أفهمُ له منه، وأفقه منه فيه[2]، وأعرف بمراده؛ وهذا في الدرجة الثانية.

ومن الأرضِ أرضٌ قيعانٌ ـ وهي المستوية التي لا تنبت إمَّا لكونها سَبَخةً[3] أو رمالاً، ولا يستقر فيها الماء ـ فإذا وقع عليها الماءُ ذهبَ ضائعًا لم تمسكه لشرب الناس، ولم تُنبِت به كلأ، لأنَّها غير قابلة لحفظ الماءِ ولا لنبات الكلأ والعشب. وهذا حال أكثر الخلق، وهم الأشقياء الذين لم يقبلوا هدى الله ولم يرفعوا به رأسًا، ومن كان بهذه المثابة فليس من المسلمين. بل لابد لكلِّ مسلم أن يزكو الوحيُ في قلبه، فينبت من العمل الصالح، والكلم الطيب، ونفع نفسه وغيره بحسب قدرته. فمن لم ينبت قلبُه شيئًا من الخيرِ البتة، فهذا من أشقى الأشقياء. فصلوات الله وسلامه على مَن الهدى والبيانُ والشفاءُ والعصمةُ في كلامه وفي أمثاله[4].

والمقصود: أنَّ الله سبحانه أعلم بمواقع فضله ورحمته وتوفيقه، ومن يصلح لها ممن[5] لا يصلح، وأنَّ حكمته تأبى أن تضع[6] ذلك عند

---

(١) «ك»: «زرعهم».

(٢) «فيه» ساقط من «ك، ط».

(٣) في الأصل: «صبخة»، ولعله سبق قلم، وكذا في «ف، ن».

(٤) وانظر شرح الحديث المذكور في مفتاح دارالسعادة (١/٢٤٦)، والرسالة التبوكية (٦١).

(٥) «ط»: «ومن».

(٦) «ط»: «يضع».

غير أهله، كما تأبى أن تمنعه[1] من يصلح له. وهو سبحانه الذي جعل المحلّ صالحًا وجعله أهلاً وقابلاً، فمنه الإعداد والإمداد، ومنه السبب والمسبَّب.

ومن اعترض بقوله: فهلاَّ جعل المحالّ كلها كذلك، وجعل القلوب على قلب واحد! فهو من أجهل الناس وأضلهم وأسفههم، وهو بمنزلة من يقول: لم خلق الأضداد، وهلاَّ جعلها كلَّها شيئًا[2] واحدًا! فلم خلق الليل والنهار، والفوق والتحت، والحر والبرد، والداءَ والدواء[3]، والشياطين والملائكة، والروائح الطيبة والكريهة، والحلو والمر، والحسن والقبيح؟ وهل يسمح خاطرُ من له أدنى مُسْكةٍ من عقل بمثل هذا السؤال الدَّالّ على حمق سائله وفساد عقله؟ وهل ذلك إلا موجَب[4] ربوبيته وإلهيته وملكه وقدرته ومشيئته وحكمته، ويستحيل أن يتخلف موجب صفات كماله عنها.

وهل حقيقة الملك إلا بإكرام الأولياء وإهانة الأعداءِ؟ وهل تمام الحكمة وكمال القدرة إلا بخلق المتضادات والمختلفات، وترتيب آثارها عليها، وإيصال ما يليق بكل منها إليه؟ وهل ظهور آثار أسمائه وصفاته في العالمِ إلا من لوازم ربوبيته وملكه؟ فهل يكون رزَّاقًا وغفَّارًا وعفوًّا[5] ورحيمًا وحليمًا[6]، ولم يوجد من يرزقه، ولا من يغفر له،

---

(١) «ط»: «يمنعه».

(٢) «ط»: «سببًا»، تصحيف.

(٣) «ك،ط»: «الداء والدواء».

(٤) «ط»: «بموجب»، وصحح في القطرية.

(٥) «ك»: «غفورًا»، تحريف.

(٦) «ط»: «حليمًا رحيمًا»، وسقط «رحيمًا» من القطرية.

ويعفو عنه، ويحلم عنه، ويرحمه؟ وهل انتقامه إلا من لوازم ربوبيته وملكه؟ فممن ينتقم إن لم يكن له أعداء ينتقم منهم، ويُري أولياءَه كمال نعمتِه واختصاصه إيَّاهم دون غيرهم بكرامته وثوابه؟

وهل في الحكمة الإلهية تعطيلُ الخير الكثير لأجل شرٍّ جزئي يكون من لوازمه؟ فهذا الغيث الذي يحيي الله به[1] البلاد والعباد والشجر والدواب، كم يحبس من مسافر، ويمنع من قصَّار[2]، ويهدم من بناء، ويعوق عن مصلحة[3]؟ ولكن أين هذا مما يحصل به من المصالح؟ وهل[4] هذه المفاسد في جنب مصالحه إلا كتَفْلةٍ في بحر؟ وهل تعطيلُه لئلا تحصل به هذه المفاسد إلا موجِبًا[5] لأعظم المفاسد والهلاكِ؟

وهذه الشمس التي سخَّرها الله لمنافع عباده[6] وإنضاج ثمارهم وأقواتهم وتربية أبدانهم وأبدان الحيوانات والطير، وفيها من المنافع والمصالح ما فيها = كم تؤذي مسافرًا وغيره بحرّها، وكم تجفف رطوبةً وكم تُعطِش حيوانًا، وكم تحبس عن مصلحة، وكم تنشِف من مورد، وتحرق من زرع! ولكن أين يقع هذا في جنبِ ما فيها من المنافع والمصالح الضرورية[٣٧/ ب] والمُكملة؟ فتعطيل الخير الكثير لأجلِ الشر

---

(١) «ك، ط»: «يحيى به الله».

(٢) «ط»: «قصاد» بالدال، تحريف. والقصار: الذي يدُقّ الثياب بالقَصَرة ـ قطعة من الخشب ـ ويبيضها.

(٣) «ك، ط»: «من مصلحة».

(٤) في «ن»: «فهل».

(٥) كذا بالنصب في الأصل وغيره، وموضعه الرفع لكونه خبر المبتدأ.

(٦) «ك»: «العباد».

اليسير شرٌّ كبير[1]، وهو خلافُ موجب الحكمة الذي تنزَّه الله سبحانه عنه.

قلتُ لشيخ الإسلام[2]: فقد كان من الممكن خلق هذه الأمور مجرَّدةً عن المفاسد، مشتملةً على المصلحة الخالصة. فقال: خلق هذه الطبيعة بدون لوازمها ممتنع، فإنَّ وجود الملزوم بدون لازمه محال، ولو خُلِقت على غير هذا الوجه لكانت غير هذه، ولكان عالمًا آخر غير هذا.

قال: ومن الأشياء ما تكون ذاته مستلزمةً لنوع من الأمور لا ينفك عنه، كالحركة مثلاً المستلزمة لكونها لا تبقى. فإذا قيل: لم لم تخلق الحركةُ المعيّنةُ باقيةً؟ قيل: لأنَّ ذات الحركة تتضمن النقلة من مكان إلى مكان والتحول من حال إلى حال، فإذا قدر ما ليس كذلك لم يكن حركة. ونفس الإنسان هي في ذاتها جاهلة عاجزة فقيرة كما قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَـٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا﴾[النحل/ ٧٨] وإنَّما يأتيها العلم والقدرة والغنى من الله بفضله ورحمته، فما حصل لها من كمال وخير فمن الله، وماحصلَ لها من عجز وفقر وجهل يوجب الظلم والشر فهو منها ومن حقيقتها. وهذه أمور عدمية، وليس لها من نفسها وجود ولاكمال. والأمور العدمية من لوازم وجودها، ولو خلقت[3] على غير ذلك لم تكن هي هذه النفس الإنسانية بل مخلوقًا آخر.

فحقيقة نفس الإنسان جاهلة ظالمة فقيرة محتاجة، **والشرّ الذي يحصل لها نوعان: عدم، ووجود.**

---

(١) هذه قراءة «ف، ن». وفي «ك، ط»: «كثير».

(٢) يعني شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله، كمافي نسخة «ف» تحت السطر.

(٣) «ك، ط»: «جعلت».

فالأوَّل كعدم العلم والإيمان والصبر وإرادة الخيرات، وعدم العمل بها. وهذا العدم ليس له فاعل، إذ العدم المحض لا يكون له فاعل؛ لأنَّ تأثير الفاعل إنَّما هو في أمر وجودي. وكذلك عدم استعدادها للخيرات والكمالات هو عدم محض ليس له فاعل، فإنَّ العدم ليس بشيءٍ[1] أصلاً، وما ليس بشيءٍ لا يقال إنَّه مفعول لفاعل، فلا يقال إنَّه من الله، إنَّما يحتاج إلى الفاعل الأمور الوجودية. ولهذا من قول المسلمين كلهم: «ما شاءَ اللهُ كان، وما لم يشأ لم يكن»، فكلُّ كائن فبمشيئته كان، وما لم يكن فلعدم مشيئته[2].

والعدمُ يعلَّل بعدم السبب أو الشرط تارة، وبوجود المانع أخرى. وقد يقال: علَّة العدم عدمُ العلة. وبعضُ الناسِ يقول: الممكن لا يترجح أحدُ طرفيه على الآخر[3] إلا بمرجِّح، فلا يوجد إلا بسبب، ولا يعدم إلا بسبب. قال[4]: والتحقيق في هذا أنَّ العدم ليس له فاعل ولا علَّة فاعلة أصلاً، بل[5] إذا أضيف إلى عدم السبب أو عدم الشرط فمعناه الملازمة، أي عدمُ العلة استلزمَ عدمَ المعلول، وعدمُ الشرط استلزم عدمَ المشروط، فإذا قيل: عُدِمَ لِعدم علَّته[6]، أي عدمُ علَّته[7]

---

(١) في الأصل: «لشيء» باللام هنا وفي الجملة التالية. وكذا في «ف»، ولعله سهو.

(٢) انظر: مجموع الفتاوى (١٤/١٦).

(٣) «على الآخر» ساقط من «ط».

(٤) يعني شيخ الإسلام.

(٥) «بل» ساقطة من «ك». وفي «ط»: «أصلا وإذا».

(٦) «ط»: «علَّة».

(٧) «أي عدم علَّته» ساقط من «ف، ط».

مستلزم[1] لعدمه. والنفس تطلب سببَ العدم، فتقول: لِمَ لَمْ يوجَد كذا؟ فيقال: لعدم كذا، فيضاف عدم المعلول[2] إلى عدم علَّته، لا إضافة تأثير، ولكن إضافة استلزام وتعريف. وأمَّا التعليل بالمانع فلا يكون إلا مع قيام السبب إذا جعل المانع مقتضيًا للعدم، وأمَّا إذا أُريد قياس الدلالة فوجود المانع يستلزم عدمَ الحكم سواءٌ كان المقتضى موجودًا أو لم يكن.

والمقصود أنَّ ماعدمته النفس من كمالها فمنها، فإنَّها لا تقتضي إلا العدم، أي عدمُ استعداد نفسه[3] وقوّتها هو السبب في عدم هذا الكمال. فإنَّه كما يكون أحد الوجودين سببًا للآخر، فكذلك أحد العدمين يكون سببًا لعدم الآخر. والموجود الحادث يضاف إلى السبب المقتضي لإيجاده، وأمَّا المعدوم فلا يحتاج استمراره على العدم إلى فاعل يُحدث العدم، بل يكفي في استمراره عدمُ مشيئة الفاعل المختار له. فما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن لانتفاء مشيئته، فانتفاءُ مشيئةِ كونه سببُ عدمه.

وهذا معنى قولهم: «عدمُ علَّة الوجود علَّةُ العدم». وبهذا الاعتبار الممكنُ القابلُ للوجود والعدم لا يترجَّح أحدُ طرفيه[4] إلا بمرجِّح، فمرجِّح عدمه عدمُ مرجِّحه، ومعنى الترجيح والسببية ههنا الاستلزام لا التأثير، كما تقدم. فظهر استحالة إضافة هذا الشر إلى الله عزَّوجلَّ.

---

(١) في الأصل: «مستلزمة» ولعله سهو، وكذا في «ف،ك،ط»، والصواب ما أثبتنا من «ن»؛ لأنَّ الخبر للعدم لا للعلّة.

(٢) «ط»: «المعلوم»، تحريف.

(٣) «ط»: «نفسها»، خطأ.

(٤) زاد في «ك،ط»: «على الآخر».

وأمَّا الشر الثاني، وهو الشر الوجودي ـ كالعقائد الباطلة والإرادات الفاسدة ـ فهو من لوازم ذلك العدم. فإنَّه متى عُدِمَ العلم[1] النافع والعمل الصالح من النفس لزم أن يخلفه الشرُّ والجهلُ وموجبُهما، ولا بدَّ؛ لأنَّ النفس لا بدَّ لها من أحد الضدين، فإذا لم تشتغل بالضد النافع الصالح اشتغلت بالضد الضار الفاسد.

وهذا الشرُّ الوجودي هو من خلقه تعالى، إذ لا خالق سواه، وهو خالق كل شيء، لكن كلُّ ماخلقه الله فلا بد أن يكون له في خلقه حكمةٌ لأجلها خلَقَه، فلو لم يخلقه فاتت تلك الحكمة.

وليس في الحكمة تفويتُ هذه الحكمة التي هي أحبُّ إليه سبحانه من الخير الحاصل بعدمها، فإنَّ في وجودها من الحكمة[2] والغايات التي يُحمد عليها سبحانه أضعافَ مافي عدمها من ذلك، ووجود الملزوم بدون لازمه ممتنع. وليس في الحكمة تفويتُ هذه الحكمة العظيمة لأجل ما يحصل للنفس من الشر، مع ما حصل من الخيرات التي لم تكن تحصل[٣٨/أ] بدون هذا الشر، ووجود الشيء[3] لا يكون إلا مع وجود لوازمه وانتفاءِ أضداده، فانتفاء لوازمه يكون ممتنعًا لغيره، وحينئذٍ فقد يكون هدي هذه النفوس الفاجرة وسعادتها[4] مشروطًا بلوازم لم تحصل، أو بانتفاء أضدادٍ لم تنتفِ.

فإن قيل: فهلاَّ حصلت تلك اللوازم وانتفت تلك الأضداد؟ فهذا هو

---

(١) «ك»: «ذلك العلم».

(٢) «ن»: «الحكم».

(٣) «ووجود الشيء» ساقط من «ف».

(٤) «ك، ط»: «شهادتها، تحريف.

السؤال الأوَّل، وقد بيَّنَّا أنَّ لوازم هذا الخلق وهذه النشأة وهذا العالَم لا بدَّ منها، فلو قُدِّرَ عدمُها لم يكن هذا العالم بل عالمًا آخر ونشأةً أخرى وخلقًا آخر.

وبيَّنَّا أنَّ هذا السؤال بمنزلة أن يقال: هلاَّ تجرد الغيث والأنهار عمَّا يحصل به من تغريق وتعويق[1] وتخريب وأذى؟ وهلاَّ تجردت الشمس عمَّا يحصل منها من حرّ وسموم وأذى؟ وهلا تجردت طبيعة الحيوان عمَّا يحصل له من ألم وموت وغير ذلك؟ وهلاَّ تجردت الولادة عن[2] مشقة الحمل والطلق وألم الوضع؟ وهلاَّ تجرَّد بدن الإنسان[3] عن قبوله للآلام والأوجاع واختلاف الطبائع الموجبة لتغيّر أحواله؟ وهلاَّ تجردت فصول العام عمَّا يحدث[4] فيها من البرد الشديد القاتل، والحر الشديد المؤذي؟

فهل يقبل عاقل هذا السؤال أو يورده؟ وهل هذا إلا بمنزلة أن يقال: لمَ كان المخلوق فقيرًا محتاجًا، والفقرُ والحاجةُ صفةُ نقص، فهلاَّ تجرد منها وخُلِعت عليه خلعةُ الغنى المطلق والكمال المطلق؟ فهل يكون مخلوقًا إذا كان غنيًّا غنىً مطلقًا، ومعلوم أنَّ لوازم الخلق لا بدَّ منها فيه؟

ولا بدَّ للعلو من سفل، وللسفل[5] من مركز. ولوازمُ العلو من السعة والإضاءة والبهجة والخيرات، وما هناك من الأرواح العلوية النيرة المناسبة لمحلها، ومايليق بها ويناسبها من الابتهاج والسرور والفرح والقوَّة

---

(١) «وتعويق» ساقط من «ط».

(٢) «ط»: «من»، وأصلح في القطرية.

(٣) «ك»: «الحيوان».

(٤) «يحدث» ساقط من«ك،ط». وفي «ن»: «يحصل».

(٥) «ط»: «والسفل».

والتجرد من علائق المواد السفلية[1] لا بدَّ منها. ولوازم السفل والمركز من الضيق والحصر، ولوازم ذلك من الظلمة والغلظ والشر، وماهنالك من الأرواح السفلية المظلمة الشرِّيرة وأعمالها وآثارها لا بدَّ منها[2].

فهما عالمان علوي وسفلي، ومحلاَّن وساكنان تناسبهما مساكنهما وأعمالهما وطبائعهما، وقد خُلِقَ كلٌّ[3] من المحلّين معمورًا بأهليه وساكنيه، حكمةً بالغةً وقدرةً قاهرةً. وكلٌّ من هذه الأرواح لا يليق بها غيرُ ماخُلِقَتْ له ممَّا يناسبها ويشاكلها. قال تعالىٰ: ﴿ قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ ﴾[الإسراء/ ٨٤] أي على مايشاكله ويناسبه ويليق به، كما يقول النَّاس: «كلُّ إناءٍ بالذي فيه ينضَح»[4].

فمن أرادَ[5] من الأرواح الخبيثة السفلية أن تكون مجاورةً للأرواح الطيبة العلوية في مقام الصدق بين الملأ الأعلى فقد أراد ما تأباه حكمةُ أحكم الحاكمين. ولو أنَّ ملِكًا من ملوك الدنيا جعل خاصَّته وحاشيته سِفْلَةَ النَّاس وسَقَطَهم وغَرَثَهم[6] الذين

(١) «ط»: «العلية»، تحريف، وكذا كان في «ك»، فأصلح في المتن.

(٢) «ك»: «منه».

(٣) «ك، ط»: «كلاًّ».

(٤) ويروى «يرشح». انظر: مجمع الأمثال (٣/ ٥٨)، وعلى الوجهين روي قول كشاجم (ديوانه: ٩٢):

ويأبى الذي في القلب إلاَّ تبيّنًا وكلُّ إناءٍ بالَّذي فيه ينضَحُ

(٥) «ط»: «أرادت».

(٦) كذا في الأصل وغيره. وفي ط: «غِرّتهم». لم تثبت كتب اللغة ما ورد في الأصل، وقد اقتبسه المؤلف من قول الجنّة في حديث المحاجّة بينها وبين النار: «مالي لا يدخلني إلا ضعفاء الناس وغرثهم وسقطهم». أخرجه مسلم (٢٨٤٦). وضبطه القاضي عياض في إكمال المعلم (٨/ ٣٧٧) بفتح الغين =

تناسبت[1] أقوالهم وأعمالهم وأخلاقهم في القبح والرداءة والدناءة لقدَحَ النَّاسُ في ملكه وقالوا: لا يصلُح للمُلك. فما الظن بمجاوري الملك الأعظم مالكِ الملوك في داره وتمتُّعِهم برؤية وجهه وسماع كلامه ومرافقتهم للملأ الأعلى الذين هم أطيبُ خلقه وأزكاهم وأشرفهم؟

أفَيليق بذلك الرفيق الأعلى والمحل الأسنى والدرجات العلى روحٌ سفليةٌ أرضيةٌ قد أخلدت إلى الأرضِ، وعكفت على ما تقتضيه طباعها[2] مما يشاركها[3] فيه بل قد يزيد عليها[4] الحيوانُ البهيم، وقصرت همتها عليه، وأقبلت بكليتها عليه، لا ترى نعيمًا[5] ولا لذَّة ولا سرورًا إلا ما وافق طباعها من مأكل[6] ومشربٍ ومنكح من أين كان وكيف اتَّفق. فالفرق بينها وبين الحمير والكلاب والبقر بانتصاب القامة ونطق اللسان والأكل باليد، وإلا فالقلبُ والطبعُ على قلوب[7] هذه الحيوانات

= المعجمة وفتح الراء وثاء بعدها مثلّثة، وقال: هذه رواية الأكثرين من شيوخنا، وفسّرها بمعنى أهل الفاقة والجوع. وقال في مشارق الأنوار (٢/ ١٣٠): «كذا في حديث عبد الرزاق عند كافة الرواة». وقد رويت الكلمة على وجهين آخرين: «عجزتهم» جمع عاجز، و«غِرّتهم» أي البله الغافلون. قال النووي: وهو الأشهر في نسخ بلادنا. انظر شرحه لصحيح مسلم (١٧/ ١٨٧ ـ ١٨٨).

(١) «ك، ط»: «تتناسب».

(٢) «ك، ط»: «طبائعها».

(٣) «ط»: «تشارك فيه».

(٤) «ك، ط»: «تزيد على الحيوان».

(٥) «ن»: «مغنما»، تحريف.

(٦) «ط»: «كل مأكل».

(٧) «ط»: «على [شاكلة] قلوب» والزيادة التي بين الحاصرتين لا حاجة إليها. انظر ماسبق في ص(٢١٢): «وجعل القلوب على قلب واحد».

وطباعها، وربما كانت طباعُ الحيوانات خيرًا من طباع هؤلاء وأسلمَ وأقبلَ للخير. ولهذا جعلهم سبحانه شرَّ الدواب، فقال: ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ۝٢٢ وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ۝٢٣﴾[الأنفال/ ٢٢، ٢٣].

فهل يليق بحكمة العزيز الحكيم أن يجمع بين خير البرية وأزكى الخلق وبين شرِّ البرية وشر الدواب في دارٍ واحدة، يكونون فيها على حالٍ واحدة من النعيم أوالعذاب؟ قال تعالىٰ: ﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ۝٣٥ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ۝٣٦﴾[القلم/ ٣٥، ٣٦]. فأنكر عليهم الحكم بهذا، وأخرجه مخرجَ الإنكارِ لا مخرجَ الإخبار، لينبه العقول على أنَّ هذا ممَّا تحيله الفطَر وتأباه العقول السليمة. وقال تعالىٰ: ﴿لَا يَسْتَوِىٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۚ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ۝٢٠﴾[الحشر/ ٢٠]. وقال تعالى: ﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ۝٢٨﴾[ص/ ٢٨]. وقال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ۝٩﴾[الزمر/ ٩].

بل الواحد من الخلق لا تستوي[٣٨/ب] أعاليه وأسافله، فلا يستوي عقِبُه وعينُه، ولا رأسه ورجلاه، ولا يصلح أحدهما لما يصلح له الآخر. والله[١] عزَّوجلّ قد خلق الخبيث والطيب، والسهل والحزن، والضار والنافع. وهذه أجزاء الأرض: منها ما يصلح جلاءً للعين، ومنها ما يصلح للأتُّون[٢] والنار.

وبهذا ونحوه يُعرَف كمال القدرة وكمال الحكمة. فكمال القدرة

---

(١) «ك، ط»: «فالله».

(٢) وهو الموقد الكبير.

بخلق الأضداد، وكمالُ الحكمة بتنزيلها[1] منازلها ووضعِ كلٍّ منها في موضعه. والعالِمُ من لا يُلقي الحربَ بين قدرة الله وحكمته، فإن آمن بالقدرة قدَحَ في الحكمة وعطَّلها، وإن آمن بالحكمة قدَح في القدرة ونقَضها[2]؛ بل يربط القدرة بالحكمة، ويعلم شمولهما لجميع ماخلقه الله ويخلقه، فكما أنَّه لا يكون إلا بقدرته ومشيئته، فكذلك لا يكون إلا بحكمته.

وإذا كان لا سبيل للعقول البشرية إلى الإحاطة بهذا تفصيلاً، فيكفيها الإيمانُ بما تعلَم وتشاهد منه، ثمَّ تستدل على الغائب بالشاهد، وتعتبر ماعلمت بما لم تعلم[3]. وقد ضربَ الله سبحانه الأمثال لعباده في كتابه، وبيَّن لهم مافي لوازم ماخلقه لهم وأنزله عليهم من الغيث الذي به حياتهم وأقواتهم وحياةُ الأرضِ والدوابّ، وماخلقه لهم من النار[4] التي بها صلاحُ أبدانِهم وأقواتِهم وصنائعهم، من الشر الجزئي[5] المغمور بالإضافة إلى الخير الحاصل بذلك، فقال تعالى: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتۡ أَوۡدِيَةُۢ بِقَدَرِهَا فَٱحۡتَمَلَ ٱلسَّيۡلُ زَبَدًا رَّابِيًاۚ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيۡهِ فِي ٱلنَّارِ ٱبۡتِغَآءَ حِلۡيَةٍ أَوۡ مَتَٰعٖ زَبَدٞ مِّثۡلُهُۥۚ كَذَٰلِكَ يَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡحَقَّ وَٱلۡبَٰطِلَۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذۡهَبُ جُفَآءٗۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمۡكُثُ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ كَذَٰلِكَ يَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡأَمۡثَالَ ١٧﴾ [الرعد/ ١٧].

فأخبر سبحانه أنَّ الماءَ بسبب مخالطته الأرض[6] إذا سال فلا بد من

---

(١) «ك، ط»: «تنزيلها».

(٢) الأصل غير منقوط، والمثبت من «ف» وغيرها.

(٣) كذا في الأصل وغيره، ولعلَّ الصواب: «وتعتبر بما علمت ما لم تعلم».

(٤) في الأصل: «النار» وهو الصواب هنا، ولكن كأنَّه مضروب عليه، وفي «ف»: «المعارف»، وفي «ك، ط»: «المعادن» ويشبهه رسمه في «ن».

(٥) «ك، ط»: «الشر والخير وبين المغمور»، تحريف.

(٦) «ك»: «الأرض». «ط»: «الماء بمخالطته سبسب الأرض»، تحريف.

أن يحمل السيل من الغثاء والوسخ وغيره زبدًا عاليًا على وجه السيل. فالذي لا يعرف ما تحت الزبد يقصرُ نظرَه عليه، ولا يرى إلا غثاءً ووسخًا ونحو ذلك، ولا يرى ماتحته من مادة الحياة. وكذلك ما يستخرج من المعادن من الذهب والفضة والحديد والنحاس[(١)] وغيرها، إذا أُوقِد عليها في النار لتتهيأ للانتفاع[(٢)] بها خرَج منها خَبَثٌ ليس من جوهرها ولا يُنتفَع به. وهذا لا بدّ منه في هذا وهذا[(٣)].

وقد ذمّ تعالى من ضعفت بصيرتُه من المنافقين، وعميَ عمّا في القرآن ممّا به يُنال كلُّ سعادة وعلم وهدىً وصلاح وخير في الدنيا والآخرة، ولم يجاوز[(٤)] بصرُه وسمعُه رعودَ وعيده وبروقَها وصواعقَها، وما أعدّ الله لأعدائه من عذابه ونكاله وخزيه وعقابه، الذي هو ـ بالإضافة إلى ما فيه من حياة القلوب والأرواح، ومن[(٥)] المعارف الإلهية، وتبيين[(٦)] طريق العبودية التى هي غاية كمال العبد ـ يسيرٌ[(٧)]، وهو مقصود لتكميل ذٰلك وتمامه.

قال تعالى: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾ أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ

(١) «ف»: «النحاس والحديد» خلافًا للأصل وغيره.
(٢) «ك،ط»: «ليتهيأ الانتفاع».
(٣) في «ط» زيادة: «يجاوزه بصره»، ولعلها من آثار مجاوزة البصر!
(٤) «ط»: «لمن لم يجاوز».
(٥) «من» ساقط من «ك».
(٦) «ك»: «وتبين»، «ط»: «يبين».
(٧) «يسير» سقط من «ك،ط»، فاختلّ معنى الجملة مع إصلاحها في «ط».

﴿حَذَرَ ٱلْمَوْتِۚ وَٱللَّهُ مُحِيطُۢ بِٱلْكَـٰفِرِينَ ۝١٩ يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَـٰرَهُمْۖ كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْا۟ فِيهِ وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا۟ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَـٰرِهِمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾[البقرة/ ١٧-٢٠]. فهكذا حال كل من قصَر نظرَه في بعض مخلوقات الربِّ تعالى على مالا بدّ منه من شرٍّ جزئيّ جدًّا بالإضافة إلى الخير الكثير.

ولو لم يكن[١] في هذه النشأة الإنسانية إلا خاصّته وأولياؤه من رسله وأنبيائه وأتباعهم لكفى بها خيرًا ومصلحة، ومَن عداهم[٢] ـ وإن كانوا أضعافَ أضعافِهم ـ فهم كالقَشّ والزبالة وغثاء السيل، لا يُعْبَأ بكثرتهم، ولا يقدح في الحكمة الإلهية، بل وجود الواحد الكامل من هذا النوع يغتفَر معه آلاف[٣] مؤلّفة من النوع الآخر. فإنّه إذا وُجِد واحدٌ يوازن البريّةَ ويرجَح عليها كان الخيرُ الحاصلُ بوجوده والحكمة والمصلحة أضعافَ الشرّ الحاصل من وجود أضداده، وأثبتَ وأنفعَ وأحبَّ إلى الله من فواته[٤]، بتفويت ذٰلك الشرِّ المقابل له.

وهذا كالشمس، فإنّ الخير الحاصل بها أنفع للخلق وأكثر وأثبت وأصلح من تفويته بتفويت الشرّ المقابل له بها. وأين نفعُ الشمس وصلاحُ النبات والحيوان بها مِن نفع الرسلِ وصلاحِ الوجود بهم؟ بل أين ذٰلك من نفعِ سيّدِ ولدِ آدم، وصلاحِ القلوب و[٥] الأبدان والدنيا والآخرة به؟

وقد ضُرب للنفس الإنسانية وما فيها من الخير والشرّ مثلٌ بدولاب أو

(١) «ط»: «تكن».
(٢) «ط»: «عاداهم»، وكذا كان في «ك» ثمَّ أصلح في المتن.
(٣) «ك، ط»: «لآلاف».
(٤) «ط»: «فوته»، وأصلح في القطرية.
(٥) «ك، ط»: «صلاح الأبدان والدين والدنيا».

طاحونٍ شديدِ الدوران، أيّ شيء خطَفه ألقاه تحتَه وأفسده، وعنده قيِّمُه الذي [٣٩/أ] يديره[١]، وقد أحكمَ أمرَه لينتفع به ولا يضرَّ أحدًا. فربّما جاءَ الغِرّ الذي لا يعرف فيتقرّب منه[٢]، فيخرق ثوبه أو بدنه، أو يؤذيه. فإذا قيل لصاحبه: لِمَ لَمْ تجعله ساكنًا لا يؤذي من اقترب منه؟ قال: هذه صفته اللازمة التي كان بها دولابًا وطاحونًا، ولو جُعِلَ[٣] على غير هذه الصفة لم تحصل به الحكمة المطلوبة منه.

وكذلك إذا قدَّرنا[٤] نار الأتُّون التي تُحرق ما وقع فيها، وعندها وقَّاد حاذق يحُشّها[٥]، فإذا غفل عنها أفسدت. وإذا أرادَ أحد أن يقرب منها نهاه وحذَّره، فإذا استغفله مَن قرب منها حتى أحرقته لم يقل لصاحب النَّار: هلاَّ قلَّلتَ حرَّها لئلا تفسد من يقرب[٦] منها وتُحرقه؟ فإنَّه يقول: هذه صفتها التي لا يحصل المقصود منها إلا بها، ولو جعلتها دون ذلك لم تُحرق أحجارَ الكِلْس[٧]، ولم تطبخ الآجُرّ، ولم تُنضِج الأطعمة الغليظة ونحو ذلك.

فما يحصل من الدولاب والطاحون ومن النَّارِ من نفعها هو من فضل الله ورحمته، ومايحصل بها من شرٍّ هو من طبيعتها التي خُلِقَت عليها، التي[٨] لا تكون نارًا إلا بها؛ فلو خرجت عن تلك الطبيعة لم تكن نارًا.

---

(١) «ك»: «يدبره».

(٢) «ك،ط»: «فيقترب»، وأصلح في القطرية.

(٣) «جعل» سقط من القطرية.

(٤) كذا في الأصل و«ف». وفي «ك»: «أوقد». وفي «ط»: ««أوقدنا».

(٥) أي يوقدها. وفي «ك»: «يحشيها»، تحريف، وفي «ط»: «يحشوها».

(٦) قراءة «ف»: «تقرب»، وهي غير منقوطة في الأصل.

(٧) الكِلس: الجير.

(٨) «ط»: «والتي».

وكذلك النفس، ما[1] يحصل لها من شرٍّ فهو منها ومن طبيعتها ولوازم نقصها وعدمها، وماحصل لها من خيرٍ فهو من فضل الله ورحمته. والله خالقها وخالق كل شيء قام بها من قدرة وإرادة وعلم وعمل وغير ذلك.

فأمَّا[2] الأمور العدمية فهي باقية على ما كانت عليه من العدم، والإنسان جاهل ظالم بالضرورة، كما قال تعالىٰ: ﴿وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ۝٧٢﴾[الأحزاب/ ٧٢] فإنَّ الله أخرجه من بطن أمه لا يعلم شيئًا. والظلم هو النقص، كما قال تعالى: ﴿ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا﴾[الكهف/ ٣٣]، أي لم تنقص منه شيئًا[3]، وهي ظالمة نفسها فهي الظالمة المظلومة، إذ كانت منقوصةً من كمالها بعدم بعض الكمالات أو أكثرها منها[4]. وتلك الكمالات التي عدمت كان وجودها سببًا لكمالات أخر، فصار عدمها مستلزمًا لعدم تلك الكمالات، فعَظُمَ النقص، واشتدَّ العيب بحسبه، وفقدت من لذَّاتها وسرورها ونعيمها[5] وبهجتها وروحها بحسب ما فقدت من تلك الكمالات[6] التي لا سعادة لها بدونها؛ فإنَّ أحد الموجودين قد يكون مشروطًا بالآخر فيستحيلُ وجوده بدونه، لأنَّ عدم الشرط يستلزمُ عدمَ المشروط. فإذا عدمت النفسُ هذا الكمالَ المستلزم لكمالٍ آخر مثلِه أو أعلى منه، وهي موصوفة بالنقص الذي هو

---

(١) «ك، ط»: «فما».
(٢) «ك»: «وأمَّا».
(٣) العبارة «والظلم هو النقص» إلى هنا ساقطة من «ط».
(٤) «ك، ط»: «بها».
(٥) «ف»: «ونعيمها وسرورها» خلافًا للأصل.
(٦) العبارة «فعظم النقص..» إلى هنا ساقطة من «ك،ط» لانتقال النظر، وقد استدركت فيما بعد في حاشية «ك».

الظلم والجهل ولوازمها من أصل الخلقة= صارت مستلزمة للشر، وقوَّةُ شرها وضعفُه بحسب قوتها وضعفها في ذاتها.

وتأمَّلْ أوَّلَ نقصٍ دخلَ على أبي البشر وسرى إلى أولاده كيف كان من عدم العلم والعزم. قال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴿١١٥﴾﴾[طه/ ١١٥]. والنسيان سواءٌ كان عدم العلم أو عدم الصبر كما فُسِّر بهما ههنا فهو أمر عدمي، ولهذا قال آدم لما رأى ما دخل عليه من ذٰلك: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾[الأعراف/ ٢٣]. فإنّه[١] اعترف بنقص حظِّ نفسِه[٢] ـ بما حصل لها من عدم العلم والصبر ـ بالنسيان الذي أوجبَ فواتَ حظِّه من الجنّة. ثمّ قال: ﴿وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾[الأعراف/ ٢٣] فإنّه سبحانه إن لم يغفر السيئات الوجودية، فيمنعْ أثرها وعقابها، ويقي[٣] العبدَ ذٰلك[٤] وإلاّ ضرَّتْه آثارُها ولا بدّ، كآثار الطعام المسموم إن لم يتداركه المداوي بشرب التِّرياق ونحوه وإلاّ[٥] ضرّه ولا بدّ. وإن لم يرحمه سبحانه بإيجاد ما به تصلُح[٦] النفس وتصير عالمةً بالحقّ عاملةً به وإلاّ خسِر، فالمغفرةُ[٧] تمنع الشرّ، والرحمةُ توجب الخير، والربّ

---

(١) «ك، ط»: «فإنّه إذا».

(٢) «ط»: «بنقصه خص نفسه» تحريف.

(٣) كذا في الأصل وغيره، وهي لغة، انظر ماسبق في ص(٢٠٣). وفي «ط» «يقِ» على الجادة.

(٤) كذا في الأصل. وفي «ف» فوق العبد: «صح». وفي «ك، ط»: «من ذلك».

(٥) «إلاّ» في هذه الجملة، وفي الجملة السابقة وفي الجمل الآتية واقعة في غير موقعها. انظر ماسلف في ص(٤٤).

(٦) «ك، ط»: «يصلح به».

(٧) «ط»: «والمغفرة».

سبحانه إن لم يغفره للإنسان فيقيه السيئاتِ، ويرحمْه فيؤتيه[1] الحسناتِ وإلاّ هلك ولا بدّ، إذ كان ظالمًا لنفسه ظلومًا بنفسه. فإنّ نفسه ليس عندها خير يحصل لها منها، وهي متحرّكة بالذات، فإن لم تتحرّك إلى الخير تحرّكت إلى الشرّ فضرّت صاحبَها. وكونُها متحرّكةً بالذات من لوازم كونها نفسًا لأنّ ما ليس حسّاسًا متحرّكًا بالإرادة فليس نفسًا.

وفي[2] الصحيح عن النبي ﷺ: «أصدق الأسماء حارث وهمام»[3] فالحارث: الكاسب العامل، والهمّام: الكثير الهمّ، والهمّ مبدأ الإرادة، فالنفس لا تكون إلاّ مريدةً عاملةً؛ فإن لم توفَّق للإرادة الصالحة وإلاّ وقعت في الإرادة الفاسدة والعمل الضارّ[4].

وقد قال تعالى: ﴿ ۞إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾ ﴾[المعارج/ ١٩-٢٢] فأخبر تعالى أنّ الإنسان خُلِق على هذه الصفة، وإنّ من كان على غيرها فلأجل ما زكّاه الله به [٣٩/ ب] من فضله وإحسانه.

وقال تعالى: ﴿ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴿٢٨﴾ ﴾[النساء/ ٢٨] قال طاووس ومقاتل وغيرهما: لا يصبر عن النساءِ[5]. وقال الحسن: هو خلقه من

---

(١) «فيقيه. .فيؤتيه» كذا ورد الفعلان بثبوت حرف العلة، انظر ما علقناه آنفًا.

(٢) «ط»: «ففي»، «ك»: «في».

(٣) أخرجه أحمد (١٩٠٣٢)، وأبوداود (٤٩٥٠)، والبخاري في الأدب المفرد (٨١٤) وغيرهم عن أبي وهب الجشمي. وهو معلول. أعلّه أبوحاتم الرازي بالإرسال. انظر: علل ابن أبي حاتم (٢/ ٣١٢-٣١٣). (ز).

(٤) وانظر إغاثة اللهفان (٦٩)، ومجموع الفتاوى (١٤/ ٢٩٤)، (٢٠/ ١٢٢).

(٥) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (٣/ ٩٢٦) (٥١٧٦، ٥١٧٧).(ز)، وانظر: معالم التنزيل (٢/ ١٩٩)، زاد المسير (٢/ ٦٠).

ماءٍ مهينٍ[١]. وقال الزجّاج: ضعف عزمه عن قهر الهوى[٢]. والصواب أنّ ضعفه يعمُّ هذا كلّه، وضعفه أعظم من هذا وأكثر، فإنّه ضعيف البنية، ضعيف القوة، ضعيف الإرادة، ضعيف العلم، ضعيف الصبر. والآفات إليه مع هذا الضعف أسرعُ من السيل في الحَدور[٣]. فبالاضطرار لا بدّ له من حافظ معين يقوّيه ويعينه وينصره ويساعده، فإن تخلّى عنه هذا المسعِد[٤] المعين فالهلاكُ أقرب إليه من نفسه.

وخلقُه على هذه الصفة هو من الأمور التي يحمد عليها الربُّ جلَّ جلاله ويثنى عليه بها، وهو موجَب حكمته وعزَّته. فكل مايحدث من هذه الخلقة وما[٥] يلزمُ عنها فهو بالنسبة إلى الخالق سبحانه خيرٌ وعدلٌ وحكمة، إذ مصدر هذه الخلقة عن صفات كماله من غناه وعلمه وعزته وحكمته ورحمته. وبالنسبة إلى العبدِ ينقسمُ[٦] إلى خير وشر وحسن

---

(١) معالم التنزيل(٢/ ١٩٩)، زاد المسير (٢/ ٦٠).

(٢) زاد المسير (٢/ ٦٠). وفي معاني الزجاج (٢/ ٤٤): «أي يستميله هواه».

(٣) الحَدور: الموضع المنحدر. وفي «ك،ط»: «صيب الحدور» وهو تصحيف وغلط. وصواب الكلمة الأولى: «صَبَب» وهو بمعنى الحدور. ولعلّ سبب الغلط أن في الأصل: «الصبب الحدور» وضرب على الكلمة الأولى، ولكن خطّ الضرب لم يشملها كلّها، فظن بعض الناسخين أن المضروب عليه لام التعريف فقط. وأنّ المقصود: «صبب الحدور»، ثم صحفت الموحدة بالمثناة. وسيأتي المثل مرة أخرى في ص(٦٤٤) وقد ذكره حمزة الأصفهاني في أمثاله (١٨٩) بلفظ «. . . إلى الحدور»

(٤) من أسعَدَ: أعانَ. وكتب فوقه في «ك»: «صح». وفي الحاشية: «ظ المساعد». وفي «ط»: «المساعد»، ولعلّه تغيير من الناشر.

(٥) «ما» ساقط من «ك،ط». وفي «ن»: «أو يلزم».

(٦) «ك،ط»: «تنقسم»، والمثبت من «ف».

وقبيح، كما يكون[١] بالنسبة إليه طاعةً ومعصيةً وبرًّا وفجورًا، بل أخص من ذلك، مثل كونه[٢] صلاةً وصيامًا وحجًّا وزنىً وسرقةً وأكلاً وشربًا، إذ ذلك موجب حاجته وظلمه وجهله وفقره وضعفه، وموجَب أمر الله له ونهيه. فللَّه[٣] سبحانه الحكمة البالغة والنعمة السابغة والحمد المطلق على جميع ماخلقه وأمر به، وعلى ما لم يخلقه ممَّا لو شاء[٤] لخلقه، وعلى توفيقه الموجِب لطاعته، وعلى خِذلانه الموقع في معصيته.

وهو سبحانه سبقت رحمتُه غضبَه، وكتب على نفسه الرحمة، وأحسنَ كل شيء خلقه، وأتقن كلَّ ما صنع، وما يحصل للنفوس البشرية من الضرر والأذى فله سبحانه في ذلك أعظم حكمة مطلوبة، وتلك الحكمة إنَّما تحصل على الوجه الواقع المقدر بما خلق لها من الأسباب التي لا تُنال غاياتُها إلا بها، فوجود هذه الأسباب بالنسبة إلى الخالق الحكيم سبحانه هو من الحكمة.

ولهذا يقرُن سبحانه في كتابه بين اسمه «الحكيم» واسمه «العليم» تارةً، وبينه[٥] وبين اسمه «العزيز» تارة[٦]، كقوله: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾[النساء/ ٢٦، الأنفال: ٧١]، ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[البقرة/ ٢٤٠، المائدة/ ٣٨]، وقوله: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾[النساء/ ١٥٨، ١٦٥، الفتح/ ٧، ١٩]، ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ۝٤﴾[الفتح: ٤]، ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ

---

(١) «ط»: «تكون».
(٢) «ط»: «كونها».
(٣) «ك، ط»: «ولله».
(٤) «ك، ط»: «شاءه».
(٥) «وبينه» ساقط من «ط».
(٦) انظر ما سبق في ص(١٩٧).

مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ﴿٦﴾﴾[النمل/ ٦]، فإنَّ العزَّة تتضمَّن القوَّة، ولله القوَّة جميعًا.

يقال: عزَّ يعَزّ ـ بفتح العين ـ إذا اشتدَّ وقوي، ومنه الأرض العَزاز للصلبة[١] الشديدة؛ وعزَّ يعِزّ ـ بكسر العين ـ إذا امتنع ممن يرومه، وعزَّ يعُزّ ـ بضم العين ـ إذا غلب وقهر. فأعطوا أقوى الحركات ـ وهي الضمة ـ لأقوى المعاني وهو الغلبة والقهر للغير، وأضعفَها ـ وهي الفتحة ـ لأضعف هذه المعاني وهو كون الشيء في نفسه صلبًا، ولا يلزمُ من ذلك أن يمتنع عمَّن يرومه؛ والحركة المتوسطة ـ وهي الكسرة ـ للمعنى المتوسط وهو القوي الممتنع عن غيره، ولا يلزمُ منه أن يقهر غيرَه ويغلبه. فأعطوا الأقوى للأقوى، والأضعف للأضعف، والمتوسط للمتوسط[٢].

ولا ريبَ أنَّ قهر المريد[٣] عمَّا يريده من أقوى أوصاف القادر، فإنَّ قهرَه عن إرادته وجعله غيرَ مريد كان أقوى أنواع القهر، والعز ضد الذل، والذل أصله الضعف والعجز، فالعز يقتضي كمال القدرة والعزَّة[٤]، ولهذا يوصف به المؤمن، ولا يكون ذمًّا له، بخلاف الكبر. قال رجلٌ للحسن البصري: إنَّك متكبر. فقال: «لستُ بمتكبر، ولكنِّي عزيز».

---

(١) «ك، ط»: «الصلبة».

(٢) انظر نحو هذا الكلام على «عزّ» في جلاء الأفهام: (١٤٧) ومدارج السالكين (٣/ ٢٣٨) ويظهر من سياقه في جلاء الأفهام أنه أفاد ذلك من شيخ الإسلام. وانظر: منهاج السنة (٣/ ٣٢٥) والفتاوى (١٤/ ١٨٠).

(٣) «ط»: «المربوب»، تحريف.

(٤) «العزّة» ساقطة من «ك، ط».

وقال تعالىٰ: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾[المنافقون/ ٨].

وقال ابن مسعود: «ما زلنا أعزَّةً منذ أسلم عمر»[١]. وقال النبي ﷺ: «اللَّهم أعِزَّ الإسلامَ بأحد هذين الرجلين: عمرَ بن الخطاب، أو أبي جهل ابن هشام»[٢].

وفي بعض الآثار: إنَّ النَّاس يطلبون العزَّة في أبواب الملوك، ولا يجدونها إلا في طاعة الله[٣].

وفي الحديث: «اللَّهم أعِزَّنا بطاعتك ولا تذلّنا بمعصيتك»[٤].

وقال بعضهم: من أراد عزًّا بلا سلطان، وكثرةً بلا عشيرة، وغنىً بلا مال، فلينتقل من ذل المعصية [٤٠/أ] إلى عز الطاعة.

فالعزَّة من جنس القدرة والقوَّة. وقد ثبت في الصحيح عن النبيّ ﷺ أنَّهُ قال: «المؤمن القوي خيرٌ وأحبُّ إلى الله من المؤمن الضعيف، وفي

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب فضائل أصحاب النبي ﷺ، باب مناقب عمر بن الخطاب (٣٨٨٤).

(٢) أخرجه الترمذي (٣٦٨١) وأحمد (٥٦٩٦) وابن حبان (٦٨٨١) وابن عدي في الكامل (٣/ ٥١) وغيرهم من طريق خارجة بن عبدالله الأنصاري عن نافع عن ابن عمر. قال الترمذي: «حسن صحيح غريب من حديث ابن عمر». قلت: خارجة الأنصاري فيه ضعف، وقد تفرد بهذا عن نافع. (ز).

(٣) ذكره المؤلف في إغاثة اللهفان (١٠٦).

(٤) ذكره المؤلف في الداء والدواء: (٩٤) «من دعاء بعض السلف». وقد أخرجه أبونعيم في الحلية (٣/ ٢٢٨) من دعاء جعفر الصادق . وكان عامة دعاء إبراهيم بن أدهم: «اللهم انقلني من ذل معصيتك إلى عزّ طاعتك»، انظر: الحلية(٨/ ٣٢).

كلِّ خير»[1].

فالقدرةُ إن لم تكن معها حكمة، بل كان القادر يفعل ما يريده، بلا نظر في العاقبة، ولا حكمة محمودة يطلبها بإرادته ويقصدها بفعله، كان فعله[2] فسادًا، كصاحب شهوات الغي والظلم، الذي يفعل بقوّته ما يريده من شهوات الغي في بطنه وفرجه ومن ظلم الناس، فإنَّ هذا وإن كان له قوّة وعزَّة لكن لما لم يقترن بها حكمة كان ذلك معونةً على شرِّه وفساده.

وكذلك العلمُ كمالُه أن يقترن به الحكمة، وإلا فالعالم الذي لا يريد ما تقتضيه الحكمة وتوجبه، بل يريد مايهواه = سفيهٌ غاوٍ، وعلمه عون له على الشرِّ والفساد.

هذا إذا كان عالمًا قادرًا مريدًا له إرادة من غير حكمة. وإن قدّر أنّه لا إرادة له بحال فهذا أوّلاً ممتنع من الحي، فإنَّ وجود الشعور بدون حب ولا بغض ولا إرادة ممتنعٌ كوجود إرادةٍ بدون الشعور. وأمَّا القدرة والقوّة إذا قدّر وجودها بدون إرادة فهي كقوة الجماد، فإنَّ القوّة الطبيعية: التي هي مبدأ الفعل والحركة[3]. وقد قال بعض النَّاس: إنَّ لمحلِّها[4] شعورًا يليق به، واحتجَّ بقوله تعالىٰ: ﴿وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا

(١) سبق تخريجه في ص(١٤٧).

(٢) «ك، ط»: «فعلها».

(٣) زاد هنا في «ط» بين حاصرتين: «لا إرادة لها» ليكون خبراً لإنّ، وقال في الحاشية إن في الأصل بياضًا! ولا بياض في أصولنا.

(٤) في«ط»: «إنّ [للجماد]» وذكر في الحاشية أن في الأصل (تحملها) وهو تحريف». والصواب ما أثبتنا.

يَنفَجِرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۗ﴾[١][البقرة/ ٧٤] وبقوله تعالى: ﴿جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ﴾[الكهف/ ٧٧]. وهذه مسألة كبيرة تحتاج إلى كلامٍ لا يليق بهذا الوضع.

والمقصود أنَّ العلم والقدرة المجردين عن الحكمة لا يحصل بهما الكمال والصلاح، وإنَّما يحصل ذلك بالحكمة معهما. واسمه سبحانه «الحكيم» يتضمن حكمته في خلقه وأمره في إرادته الدينية والكونية، وهو حكيم في كلِّ ماخلقه، حكيمٌ في كلِّ ما[٢]أمر به.

والنَّاس في هذا المقام **أربع طوائف**:

الطائفة الأولى: الجاحدة لقدرته وحكمته، فلا يثبتون له تعالى قدرة ولا حكمة، كما يقوله من ينفي كونه تعالى فاعلاً مختارًا، وأنَّ صدور العالم عنه بالإيجاب الذاتي لا بالقدرة والاختيار. وهؤلاء يثبتون حكمةً يسمونها «عنايةً إلهية». وهم من أشد النَّاس تناقضًا، إذْ لا يُعقَل حكيمٌ لا قدرة له ولا اختيار، وإنَّما يسمون ما في العالم من المصالح والمنافع «عنايةً إلهية» من غير أن يرجع منها إلى الرب تعالى إرادة ولا حكمة.

وهؤلاءِ كما أنَّهم مكذبون لجميع الرسل والكتب، فهم مخالفون لصريح العقل والفطرة، قد نسبوا الرب تعالى إلى أعظم[٣] النقص،

(١) وردت الآية في الأصل هكذا: «وإنّ من الحجارة لما يشقق...» فسقط جزء منها، وكذا في «ف، ن».

(٢) «ك»: «خلقه وما أمر به». «ط»: «خلقه وأمر به».

(٣) «ط»: «للربّ سبحانه أعظم»، وصحّح في القطرية.

وجعلوا كل قادر مريد مختار أكملَ منه، وإن كان من كان. بل سلبُهم القدرةَ والاختيارَ والفعلَ عن رب العالمين شرٌّ من شرك عبَّاد الأصنام به بكثير، وشرٌّ من قول النصارى إنَّه ـ تعالى عن قولهم ـ ثالث ثلاثة وإن له صاحبةً وولدًا، فإنَّ هؤلاء أثبتوا له قدرةً وإرادةً وفعلاً اختياريًّا[1] وحكمةً، ووصفوه مع ذلك بما لا يليق به، وأمَّا أولئك فنفوا ربوبيته وقدرته بالكلية، وأثبتوا له أسماءً لا حقائق لها ولا معنى.

والطائفة الثانية: أقرَّت بقدرته وعموم مشيئته للكائنات، وجحدت حكمته وما له في خلقه من الغايات المحمودة المطلوبة له ـ سبحانه ـ التي يفعل لأجلها ويأمر لأجلها، فحافظت على القدر وجحدت الحكمة. وهؤلاء هم النفاة للتعليل والأسباب والقوى والطبائع في المخلوقات، فعندهم لا يفعل لشيء ولا لأجل شيء. وليس في القرآن عندهم لام تعليل ولا باء تسبيب[2]، وكلُّ لامٍ تُوهِم التعليل فهي عندهم لام العاقبة، وكلُّ باءٍ تُشعِر بالتسبيب[3] فهي عندهم باء المصاحبة[4].

[٤٠/ب] وهؤلاء سلَّطوا نُفاة القدر عليهم بما نفَوه من الحكمة والتعليل والأسباب، فاستطالوا عليهم بذلك، ووجدوا[5] مقالاً واسعًا بالشناعة، فقالوا، وشنعوا. ولعمر الله إنَّهم لمحقّون في أكثر ما شنّعوا عليهم به، إذ نفيُ الحكمة والتعليل والأسباب له لوازم في غاية الشناعة،

---

(١) «ك، ط»: «إرادة واختيارًا وحكمة».

(٢) «ك، ط»: «تسبّب».

(٣) «ك، ط»: «بالتسبّب».

(٤) وانظر: مفتاح دار السعادة (٢: ٢٥٦) وشفاء العليل: (٢٩٨).

(٥) «ط»: «فوجدوا»، وأصلح في القطرية.

والتزامها مكابرة ظاهرة عند عامَّة العقلاءِ.

والطائفة الثالثة: أقرَّت بحكمته، وأثبتت الأسباب والعلل والغايات في أفعاله وأحكامه، وجحدت بكمال[1] قدرته، فنفت قدرتَه على شطر العالم، وهو أشرف ما فيه من أفعال الملائكة والجن والإنس وطاعاتهم. بل عندهم هذه[2] كلها لا تدخل تحت مقدوره تعالى، ولا يوصف بالقدرة عليها، ولا هي داخلة تحت مشيئته ولا ملكه. وليس في مقدوره عندهم أن يجعل المؤمن مؤمنًا والمصلي مصليا والموفق موفقًا، بل هو الذي جعل نفسه كذلك. وعندهم أنَّ أفعال العباد من الملائكة والجن والإنس كانت بغير مشيئته واختياره، تعالىٰ[3] الله عن قولهم.

وهؤلاء سلَّطوا عليهم نفاةَ الحكمة والتعليل والأسباب، فمزقوهم كلَّ ممزَّق، ووجدوا طريقًا مَهْيعًا[4] إلى الشناعة عليهم، وإبداء[5] تناقضهم، فقالوا، وشنَّعوا، ورموهم بكلِّ داهية. إذ نفيُ[6] قدرة الربِّ تعالى على شطر المملكة له لوازم في غاية الشناعة والقبح والفساد، والتزامها مكابرة ظاهرة عند عامة العقلاء، ونفيُ التزامها تناقضٌ بيِّن. فصاروا مذبذين[7] بين التناقض ـ وهو أحسن

(١) ماعدا الأصل: «كمال».

(٢) «هذه» سقطت من القطرية.

(٣) «ك،ط»: «فتعالى».

(٤) طريق مهيَع: واضح واسع بين. وقد أشكلت الكلمة على ناسخ «ف»، فحاكى رسمها في الأصل، وأثبت فوقها: «ظ». وتحرفت في «ك،ط» إلى «وسيعًا».

(٥) «ك،ط»: «وأبدوا».

(٦) «ك،ط»: «ونفي»، وصحح بعضهم في متن «ك».

(٧) «ك،ط»: «فصاروا بذلك بين»، تحريف.

حاليهم -[1] وبين التزام تلك العظائم التي تُخرِج عن الإيمان، كما كان نفاة الحكمة والأسباب والغايات كذلك.

فهدى الله **الطائفة الرابعة** لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه ﴿وَٱللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢١٣﴾﴾[البقرة/ ٢١٣]، فآمنوا بالكتاب كله، وأقرّوا بالحق جميعه، ووافقوا كلَّ واحدةٍ من الطائفتين على ما معها من الحقِّ، وخالفوهم فيما قالوه من الباطل. فآمنوا بخلق الله وأمره بقدره وشرعه، وأنَّه سبحانه المحمود على خلقه وأمره، وأنَّ[2] له الحكمة البالغة والنعمة السابغة، وأنَّه على كلِّ شيء قدير. فلا يخرج عن مقدوره[3] شيء من الموجودات أعيانِها وأفعالِها وصفاتِها، كما لا يخرج عن علمه؛ فكلُّ ماتعلَّق به علمُه من العالم تعلَّقت به قدرته ومشيئته.

وآمنوا[4] مع ذلك بأنَّ له الحجة على خلقه، وأنَّه لا حجَّة لأحدٍ عليه بل لله الحجة البالغة، وأنَّه لو عذَّب أهل سماواته وأهلَ أرضه لعذَّبهم وهو غير ظالم لهم، بل كان تعذيبهم[5] عدلاً منه وحكمةً، لا بمحض المشيئة المجرَّدة عن السبب والحكمة، كما يقوله الجبرية.

ولا يجعلون القدرَ حجَّةً لأنفسهم ولا لغيرهم، بل يؤمنون به ولا يحتجون به، ويعلمون أنَّ الله سبحانه أنعم عليهم بالطاعات وأنَّها من نعمته عليهم وفضله وإحسانه، وأنَّ المعاصي من نفوسهم الظالمة

---

(١) «ك، ط»: «حالهم».

(٢) «ك، ط»: «وأنَّه».

(٣) «ن»: «قدرته».

(٤) «ك»: «فآمنوا».

(٥) «ف»: «يعذبهم»، أخطأ في قراءة الأصل. وفي «ك، ط»: «تعذيبهم منه».

الجاهلة، وأنَّهم هم جُناتها وهم الذين اجترحوها، ولا يحملونها على القضاءِ والقدر، مع علمهم بشمول قضائه وقدره لما في العالم من خيرٍ وشرٍّ وطاعة وعصيان وكفر وإيمان؛ وأنَّ مشيئة الله سبحانه محيطةٌ بذلك كإحاطة علمه به، وأنَّهُ لو شاءَ ألاَّ يُعصىٰ لما عُصِيَ، وأنَّه سبحانه[1] أعزّ وأجلّ من أن يعصى قسرًا، والعباد أقل من ذلك وأهون؛ وأنَّه ما شاء الله كان، وكلُّ كائن فهو بمشيئته، وما لم يشأ لم يكن، وما[2] لم يكن فلعدم مشيئته، فله الخلق والأمر، وله الملك والحمد، وله القدرة التامة والحكمة البالغة[3].

فهذه الطائفة هم[4] أهل البصر التام، والأولى لهم العمى المطلق، والثانية والثالثة عُورٌ[5]، كلُّ طائفة منهما لهم[6] عين عين[7]، ومع هذا فسرى العمى من العين العمياء إلى العين الصحيحة فأعماها[٤١/أ] أوكاد[8]. ولا يستنكِر[9] تكرارَ هذه الكلمات من يعلم شدَّة الحاجة إليها

---

(١) «ف»: «والله سبحانه»، خلافًا للأصل.

(٢) «ط»: «من»، وأصلح في القطرية.

(٣) «ط»: «الحكمة الشاملة البالغة». وقد اضطربت نسخة «ك» لدخول حاشية (كانت في أصلها) في النص.

(٤) وقع في الأصل: «هل» سهوًا، فترك ناسخ «ف» مكانها بياضًا. والصواب ما أثبتنا من «ك، ط».

(٥) «عور» سقط من «ك، ط»، وهو جمع أعوَر وعوراء.

(٦) «ط»: «له»، خطأ.

(٧) «ط»: «عمياء». ورسم الكلمة في الأصل يشبه «عيره» أو «عائرة». وأثبت ناسخ «ف»: «عميى»، ولا يقصد تأنيث أعمى، فإنَّ رسمها المعهود في الأصل: «عميا». والمثبت من «ن، ك» مع شك في صحته.

(٨) «أوكاد» ساقط من «ط».

(٩) «ك، ط»: «يستكثر»، تصحيف.

وضرورة النفوس إليها، فلو تكررت ماتكررت فالحاجة إليها في محل الضرورة، والله المستعان.

فصل

ويجمع هذين الأصلين العظيمين أصلٌ ثالثٌ هو عقد نظامهما وجامع شملهما، وبتحقيقه وإثباته[1] على وجهه يتم بناءُ هذين الأصلين، **وهو: إثبات الحمد كله لله رب العالمين**. فإنَّه المحمود على كل[2] ماخلقه، وأمر به، ونهى عنه. فهو المحمود على طاعات العباد ومعاصيهم، وإيمانهم وكفرهم. وهو المحمود على خلق الأبرار والفجار، والملائكة والشياطين، وعلى خلق الرسل وأعدائهم. وهو المحمود على عدله في أعدائه، كما هو المحمود على فضله وإنعامه على أوليائه.

فكل ذرّة من ذرّات الكون شاهدة بحمده، ولهذا سبَّح[3] بحمده السماوات السبع والأرض ومن فيهنَّ: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ [الإسراء/ ٤٤]. وكان من[4] قول النبيّ ﷺ عند الاعتدال من الركوع: «ربَّنا ولك الحمد، مِلْءَ السماوات[5] وملءَ الأرضِ، وملءَ ما بينهما، وملءَ ما شئت من شيءٍ بعد»[6]. فله سبحانه الحمد حمدًا يملأ المخلوقات والفضاءَ الذي بين الأرض والسماوات[7]، ويملأ ما يقدَّر بعد ذلك ممَّا

---

(١) «ف»: «إبانته»، تصحيف.
(٢) «كل» ساقط من «ك، ط».
(٣) «ن»: «يسبح».
(٤) «ك، ط»: «في».
(٥) «ك، ط»: «السماء».
(٦) أخرجه مسلم في الصلاة (٤٧٦، ٤٧٧، ٤٧٨) عن ابن أبي أوفى وغيره.
(٧) «ك، ط»: «السماوات والأرض».

يشاء الله أن يملأ بحمده.

وذاك يحتمل أمرين: أحدهما أن يملأ ما يخلقه الله بعد السماوات والأرض، والمعنى: لك الحمد[1] ملء ما خلقتَه وملء ما تخلقه بعدَ ذلك. الثاني: أن يكون المعنى: ملء ما شئتَ من شيء[2] يملؤه حمدك، أي يقدَّر مملوءًا بحمدك، وإن لم يكن موجودًا.

لكن قد[3] يقال: المعنى الأوَّل أقوى، لأنَّ قوله: «ما شئتَ من شيءٍ بعد» يقتضي أنَّه شيء يشاؤه، وما شاءَ كان، فالمشيئة[4] متعلقة بعينه لا بمجرد ملء الحمد له، فتأملْه. لكنَّه إذا شاءَ كونَه فله الحمد ملؤه، فالمشيئة راجعة إلى المملوء بالحمد، فلا بدَّ أن يكون شيئًا موجودًا يملؤه حمدُه.

وأيضًا فإنَّ قوله: «من شيء بعد» يقتضي أنَّه شيء يشاؤه سبحانه بعد هذه المخلوقات، كما يخلقه بعد ذلك من مخلوقاته من القيامة وما بعدها. ولو أريد تقديرُ خلقه لقيل: «وملء ما شئت من شيء مع ذلك»، لأنَّ المقدَّر يكون مع المحقَّق[5].

وأيضًا فإنَّه لم يقل: «ملء ما شئت أن يملأه الحمد». بل قال: «ما

(١) «ك، ط»: «أنَّ الحمد» تحريف.

(٢) «ك، ط»: «شيء بعد».

(٣) «ك، ط»: «ولكن يقال». «ف»: «يمكن قد» تحريف.

(٤) «ك، ط»: «والمشيئة».

(٥) وردت هنا في الأصل عبارة ضرب عليها، أثبتها للفائدة: «هذا تقرير شيخنا. قلت: وفيه نظر، إذ قوله: «وملء ماشئت من شيء بعد» يحتمل بعدية الزمان، ويحتمل بعدية المكان المغايرة، أي ما شئت غير ذلك. والبعدية مستعملة فيهما».

شئت». والعبد قد حمد حمدًا أخبر به، وأنشأه،[1] ووصفه بأنَّه يملأ ماخلقه الربُّ، ومايشاؤه[2] بعد ذلك.

وأيضًا فقوله: «وملء ما شئت من شيءٍ بعد» يقتضي إثباتَ مشيئة تتعلَّق بشيءٍ بعد ذلك. وعلى الوجه الثاني قد تتعلَّق المشيئة بملء المقدَّر، وقد لا تتعلَّق.

وأيضًا فإذا قيل: «ما شئتَ من شيء بعد ذلك» كان الحمد مالئًا لما هو موجود يشاؤه الربُّ دائمًا، ولا ريبَ أنَّ له الحمد دائمًا في الأولى والآخرة. وأمَّا إذا قدّر ما يملؤه الحمد، وهو غير موجود، فالمقدَّرات لا حدَّ لها، وما من شيء منها إلا يمكن تقدير شيء بعده، وتقدير ما لا نهاية له، كتقدير الأعداد. ولو أُريد هذا المعنى لم يحتج إلى تعليقه بالمشيئة، بل قيل: «ملء ما لا يتناهى». فأمَّا ما شاءه[3] الربّ تعالى فلا يكون إلا موجودًا مقدَّرًا، وإن كان لا آخرَ لنوع الحوادث وبقاءِ[4] ما يبقى منها، فهذا كله ممَّا يشاؤه بعد.

وأيضًا فالحمدُ هو الإخبار بمحاسن المحمود على وجه الحب له، ومحاسنُ المحمود تعالىٰ إمَّا قائمة بذاته، وإمَّا ظاهرة في مخلوقاته. فأمَّا المعدوم المحض الذي لم يخلق ولا خلق قط فذاك ليس فيه محاسن ولا غيرها، فلا محامد فيه البتة. فالحمدُ لله الذي يملأ المخلوقات ما

---

(١) «ط»: «وإن ثناءه»، تحريف.
(٢) «ك»: «شاءه». «ط»: «يشاء».
(٣) «ك،ط»: «يشاؤه».
(٤) «ك»: «وبقي». «ط»: «أوبقاء».

وُجِدَ منها وما[1] يوجَد هو حمدٌ يتضمن الثناءَ عليه بكماله القائم بذاته والمحاسن الظاهرة في مخلوقاته. وأمَّا ما لا وجود له فلا محامد فيه[2] ولا مذامّ، فجعلُ الحمدِ مالئًا له جعلُه مالئًا[3] لما لا حقيقة له.

وقد اختلف النَّاس في معنى كون حمده يملأ السماوات والأرض ومابينهما، فقالت طائفة: هذا[4] على جهة التمثيل، أي لو كان أجسامًا لملأ السماوات والأرضِ وما بينهما[5]. قالوا: فإنَّ الحمد من قبيل المعاني والأعراض التي لا تُملأ بها الأجسام، ولا تُملأ[٤١/ب] الأجسام إلا بالأجسام.

والصواب أنَّه لا يحتاج إلى هذا التكلف البارد، فإنَّ ملء كل شيء يكون بحسب المالىء والمملوءِ، فإذا قيل: امتلأ الإناءُ ماءً، وامتلأت الجفنةُ طعامًا، فهذا الامتلاء نوع. وإذا قيل: امتلأت الدَّارُ رجالاً، وامتلأت المدينةُ خيلاً ورجالاً، فهذا نوع آخر. وإذا قيل: امتلأَ الكتابُ سطورًا، فهذا نوع آخر.

وإذا قيل: امتلأت مسامع الناس حمدًا أوذمًّا لفلان، فهذا نوع آخر، كما في أثر معروف[6]: «أهل الجنَّة من امتلأت مسامعه من ثناء الناس

---

(١) «ما» ساقطة من «ط».

(٢) «فيه» سقط من «ط»، واستدرك في القطرية.

(٣) «جعله مالئا» سقط من «ط»، واستدرك في القطرية.

(٤) لم يرد «هذا» في «ك، ط».

(٥) هنا عبارة مضروب عليها، نثبتها للفائدة: «وكان شيخنا رحمه الله يرى أنَّه لا يحتاج إلى هذا التكلف، بل الحمد يملؤها حقيقة».

(٦) أخرجه ابن ماجه (٤٢٢٤) من حديث ابن عباس مرفوعًا. قال البوصيري: هذا إسناد صحيح رجاله ثقات. (ز).

عليه، وأهل النَّارِ من امتلأت مسامعه من ذمِّ النَّاس له».

وقال عمر بن الخطاب في عبدالله بن مسعود: «كُنَيفٌ مُلىء عِلمًا»[1]. ويقال: فلان علمه قد ملأ الدنيا، وكان يقال: «ملأ ابنُ أبي الدنيا الدنيا علمًا»[2]. ويقال: صيتُ فلانٍ قد ملأ الدنيا فطبق[3] الآفاقَ، وحبُّه قد ملأ القلوب، وبغضُ فلانٍ قد ملأ القلوب، وامتلأ قلبُه رعبًا.

وهذا أكثر من أن تستوعب شواهدُه، وهو حقيقة في بابه. وجعلُ الملء والامتلاء حقيقةً للأجسام خاصَّة تحكمٌ باطلٌ ودعوى لا دليل عليها البتة. والأصلُ الحقيقة الواحدة، والاشتراك المعنوي هو الغالب على اللغة والأفهام والاستعمال، فالمصير إليه أولى من المجاز والاشتراك اللفظي[4].

وليس هذا موضع تقرير هذه المسألة[5]، إذ[6] المقصود أنَّ الرب تعالى أسماؤه كلها حسنى ليس فيها اسم سوء، وأوصافه كلها كمال ليس فيها صفة نقص، وأفعاله كلها حكمة ليس فيها فعل خالٍ عن الحكمة والمصلحة، وله المثل الأعلى في السماوات والأرض وهو العزيز

---

(١) أخرجه ابن سعد في الطبقات (٢/٢٩٧)، وسنده صحيح. (ز)، والكُنَيف تصغير تعظيم للكِنْف، وهو الوعاء الذي يضع فيه الراعي أداته ومتاعه. انظر: اللسان(كنف).

(٢) «ن»: «ابن أبي الدنيا ملأ الدنيا علمًا».

(٣) «ك،ط»: «وضيق»، تحريف.

(٤) «اللفظي»: ساقط من«ط».

(٥) «ك،ط»: «تقرير المسألة».

(٦) «ك،ط»: «والمقصود».

الحكيم. موصوف بصفات[1] الكمال، مذكور بنعوت الجلال، منزَّه عن الشبيه والمثال، ومنزَّه عمَّا يضاد صفاتِ كماله: فمنزَّه عن الموت المضاد للحياة، وعن السِّنة والنوم والسهو والغفلة المضاد للقيومية. وموصوف بالعلم، منزَّه عن أضداده كلها من النسيان والذهول وعزوب شيءٍ عن علمه. موصوف بالقدرة التامة، منزَّه عن ضدها من العجز واللغوب والإعياء. موصوف بالعدل، منزَّه عن الظلم. موصوف بالحكمة، منزَّه عن العبث والسفه[2]. موصوف بالسمع والبصر، منزَّه عن أضدادهما من الصمَم والبكَم. موصوف بالعلو والفوقية، منزَّه عن ضد[3] ذلك. موصوف بالغنى التام، منزَّه عمَّا يضاده بوجه من الوجوه. ومستحق للحمد كله، فيستحيل أن يكون غيرَ محمود، كما يستحيل أن يكون غير قادر ولا خالق ولا حي. بل[4] الحمد كله واجب له[5] لذاته، فلا يكون إلا محمودًا، كما لا يكون إلا إلهًا وربًّا وقادرًا.

فإذا قيل: «الحمدُ كله لله»، فهذا له معنيان:

أحدهما: أنَّه محمود على كلِّ شيء، وبكلِّ ما يُحمَد به المحمودُ الحمدَ[6] التامّ. وإن كان بعضُ خلقه يُحمَد أيضًا، كما تُحمَد[7] رسلُه وأنبياؤه وأتباعهم، فذلك من حمده تبارك وتعالى، بل هو المحمود

---

(١) «ك، ط»: «بصفة».

(٢) «والسفه» ساقط من «ك، ط».

(٣) «ط»: «أضداد».

(٤) «ك، ط»: «وله» مكان «بل».

(٥) «له» ساقط من «ك، ط».

(٦) «الحمد» ساقط من «ط».

(٧) «ك، ط»: «يحمد».

بالقصد الأوَّل وبالذَّات، وما نالوه من الحمد فإنَّما نالوه بحمده، فهو المحمود أوَّلاً وآخرًا، وظاهرًا وباطنًا. وهذا كما أنَّه بكلِّ شيءٍ عليم، وقد علم غيرُه من علمه ما لم يكن يعلَمه بدون تعليمه.

وفي الدعاء المأثور: «اللَّهم لك الحمدُ كلُّه، ولك الملكُ كلُّه، وبيدك الخير كلُّه، وإليك يرجع الأمر كلُّه، أسألك من الخير كلِّه وأعوذُ بك من الشرِّ كلِّه»[١].

وهو سبحانه له المُلك، وقد آتى من مُلكه[٢] بعضَ خلقه؛ وله الحمد، وقد آتى غيره من الحمد ما شاءَ. وكما أنَّ مُلك المخلوق داخلٌ في ملكه، فحمدُه أيضًا داخلٌ في حمده، فما من محمود يحمَد على شيء ما[٣] ـ دقَّ أوجلَّ ـ إلا والله المحمودُ عليه بالذَّات، والأولية[٤]، والأولوية أيضًا. وإذا قال الحامد[٥]: «اللهم لك الحمد» فالمراد به: أنت المستحقُّ لكلِّ حمد، [٤٢/أ] ليس المراد به الحمد الخارجي فقط.

المعنى الثاني: أن يقال: «لك الحمد كله» أي الحمد التام الكامل، فهذا مختص بالله عزَّوجلَّ، ليس لغيره فيه شركة.

---

(١) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٤٠٨٨). وفي سنده خالد بن يزيد العمري المكي. قال البخاري فيه: ذاهب الحديث. التاريخ الكبير(٣/ ١٨٤). وجاء أوله عن حذيفة في مسند أحمد (٢٣٣٥٥) وسنده ضعيف. (ز).

(٢) «ك»: «المملكة»، «ط»: «الملكة».

(٣) «ط»: «ممَّا».

(٤) «والأولية» ساقط من «ك،ط».

(٥) «الحامد» ساقط من «ط».

والتحقيق أنَّ له الحمد بالمعنيين جميعًا، فله عموم الحمد وكماله، وهذا من خصائصه سبحانه. فهو المحمود على كلِّ حال، وعلى كلِّ شيء، أكملَ حمدٍ وأعظمه؛ كما أنَّ له الملك التامّ العامّ، فلا يملك كلَّ شيء إلا هو، وليس الملك التام الكامل إلا له. وأتباع الرسل صلوات الله وسلامه عليهم يثبتون له كمال الملك وكمال الحمد، فإنَّهم يقولون: إنَّه خالق كلِّ شيء وربّه ومليكه، لا يخرج عن خلقه وقدرته ومشيئته شيء البتة، فله الملك كله.

والقدرية المجوسية يُخرجون من ملكه[١] أفعالَ العباد، فيخرجون طاعات الأنبياء والمرسلين والملائكة والمؤمنين من ملكه، كما[٢] يخرجون سائر حركات الملائكة والجن والإنس عن ملكه. وأتباعُ الرسل يجعلون ذلك كلَّه داخلاً تحت[٣] ملكه وقدرته، ويثبتون له[٤] كمال الحمد أيضًا، وأنَّه المحمود على جميع ذلك، وعلى كلِّ ما خلقه ويخلقه، لما له فيه من الحِكَم والغايات المحمودة المقصودة بالفعل.

وأمَّا نفاةُ الحكمة والأسباب من مثبتي القدر، فهم في الحقيقة لا يثبتون له حمدًا، كما لا يثبتون له الحكمة؛ فإنَّ الحمد من لوازم الحكمة، والحكمة إنَّما تكون في حقِّ من يفعل شيئا لشيء، فيريد بما يفعله الحكمة الناشئة من فعله. فأمَّا من لا يفعل شيئًا لشيء البتة،

---

(١) في «ف» هنا وفي السطر التالي: «عن ملكه»، خلافًا لأصلها.

(٢) العبارة «فيخرجون...» إلى هنا ساقطة من «ط»، ومستدركة في حاشية «ك»، بخط متأخر.

(٣) «ك، ط»: «في ملكه».

(٤) «له» سقط من«ط»، وكتب في «ك» فوق السطر بخط مختلف.

فلا يُتصوَّر في حقه الحكمة. وهؤلاء يقولون: ليس في أفعاله وأحكامه لام تعليل، وما اقترن بالمفعولات من قوى وطبائع ومصالح فإنَّما اقترنت بها اقترانًا عاديًا، لا أنَّ هذا كان لأجل هذا؛ ولا شاءَ[1] السببَ لأجل المسبَّب، بل لا سببَ عندهم ولا مسببَ البتة، إنْ هو إلا محض المشيئة وصِرف الإرادة التي ترجِّح مِثلاً على مِثلٍ، بلا مرجِّح[2] أصلاً. وليس عندهم في الأجسام طبائع وقوىً تكون أسبابًا لحركاتها، ولا في العين قوَّةٌ امتازت بها على الرِّجْل تبصر بها[3]، ولا في القلب قوَّة يعقل بها امتاز بها على الظهر[4]؛ بل خصَّ سبحانه أحد الجسمَين بالرؤية والعقل والذوق تخصيصًا لمثل على مثل، بلا سبب أصلاً ولا حكمة.

فهؤلاء لم يُثبتوا له كمال الحمد، كما لم يُثبِت له أولئك كمالَ الملك، وكلا القولين منكَر عند السلف وجمهور الأمَّة. ولهذا كان منكرو الأسباب والقوى والطبائع يقولون: العقل نوع من العلوم الضرورية، كما قاله القاضيان أبوبكر بن الطيب وأبويعلى بن الفرَّاء وأتباعهما. وقد نصَّ أحمدُ على أنَّه غريزة، وكذلك الحارث المحاسِبي وغيرهما[5]. وأولئك[6] لا يثبتون غريزةً ولا قوَّة ولا طبيعةً ولا سببًا،

---

(١) «ك، ط»: «نشأ»، تحريف.

(٢) «ك، ط»: «بل لا مرجح».

(٣) «ط»: «يبصر بها». وفي «ف»: «بصيرتها» كذا، وهو تصحيف.

(٤) «ك، ط»: «عن الظهر».

(٥) انظر: ذم الهوى (٥). والعقل غريزة، أو نوع من العلوم الضرورية، كلا القولين حكاهما شيخ الإسلام وصوّبهما في الاستقامة (٢/ ١٦١)، ومجموع الفتاوى (٩/ ٢٨٧).

(٦) «ط»: «فأولئك»، خطأ.

وأبطلوا مسمَّيات هذه الأسماء جملةً، وقالوا: إنَّ ما في الشريعة من المصالح والحِكَم لم يشرع الربُّ سبحانه ما شرع من الأحكام لأجلها، بل اتفق اقترانُها بها أمرًا اتفاقيًّا، كما قالوا نظيرَ ذلك في المخلوقات سواءً، والعلل عندهم أمارات محضة لمجرد الاقتران الاتفاقي.

وهم فريقان: أحدهما لا يعرِّجون على المناسبات ولا يثبتون العلل بها البتة، وإنَّما يعتمدون على تأثير العلة بنص أوإجماع، فإن فقدوا فزِعوا إلى الأقيسة الشبَهية.

والفريق الثاني أصلحوا المذهبَ بعض الإصلاح، وقرّبوه بعض الشيء، وأزالوا تلك النفرة عنه، فأثبتوا الأحكامَ بالعلل، والعللَ بالمناسبات والمصالح، ولم يمكنهم[1] الكلامُ في الفقه إلا بذلك، ولكن جعلوا اقترانَ أحكامِ تلك العلل والمناسبات بها اقترانًا عاديًّا غيرَ مقصود في نفسه، والعللَ والمناسبات أماراتِ ذلك الاقتران.

وهؤلاء يستدلون على إثبات علم الرب تعالىٰ بما في مخلوقاته من الإحكام والإتقان والمصالح، وهذا تناقضٌ بيِّن[2] منهم، فإنَّ ذلك إنَّما يدلُّ إذا كان الفاعل يقصد أن يفعلَ الفعلَ على وجهٍ مخصوص لأجل الحكمة المطلوبة منه. وأمَّا من لم يفعل لأجل ذلك الإحكام والإتقان، وإنَّما اتفق اقترانُه بمفعولاته عادةً، فإنَّ ذلك الفعلِ لا يدلُّ على العلم. ففي أفعال الحيوانات من الإحكام والإتقانِ والحِكَم ماهو معروفٌ لمن تأمله، ولكن لمَّا لم تكن تلك الحكم والمصالح مقصودةً لها لم تدل على

(١) «ن»: «لم يلتئم»، تحريف.

(٢) «ف»: «من مذهبهم»، كذا، وهو تحريف.

علمها. [٤٢/ب] والمقصود أنَّ هؤلاء إذا قالوا: إنَّه تعالىٰ لا يفعل لحكمةٍ امتنع عندهم أن يكون الإحكام دليلاً على العلم.

وأيضًا فعلى قولهم يمتنع أن يُحمَد على ما فعله؛ لأنَّ[(١)] ما حصل للعباد من نفع، فهو سبحانه لم يقصد بماخلقه نفعهم، ولا خلقه لنفعهم ومصالحهم، بل إنَّما أرادَ مجرد وجوده، لا لأجل كذا، ولا لنفع أحد ولا لضره؛ فكيف يتصوَّر في حق من يكون فعله كذلك[(٢)] حَمْدٌ؟ فلا يُحمَد على فعل عدلٍ، ولا على ترك ظلم؛ لأنَّ الظلم عندهم هو الممتنع الذي لا يدخل في المقدور، وذلك لا يُمدَح أحدٌ على تركه. وكل ما أمكن وجودُه فهو عندهم عدل، فالظلم[(٣)] مستحيل عندهم، إذ هو عبارة عن الممتنع المستحيل لذاته الذي لا يدخل تحت المقدور، ولا يتصوَّر فيه ترك اختياري، فلا يتعلَّق به حمدٌ. وإخباره تعالى عن نفسه بقيامه بالقسط حقيقتُه عندهم مجرَّد كونِه فاعلاً لا أنَّ هناكَ شيئًا هو قسطٌ في نفسه يمكن وجودُ ضدِّه.

وكذلك قولُه: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّـٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٤٦﴾﴾[فصلت/ ٤٦] نفيٌ عندهم لما هو مستحيل في نفسه لا حقيقه له، كجعل الجسم في مكانين في آنٍ واحد، وجعله موجودًا معدومًا في آنٍ واحد، فهذا ونحوه عندهم هو الظلم الذي تنزَّه[(٤)] عنه. وكذلك قوله: «ياعِبَادِي، إنِّي حرَّمتُ الظلمَ

---

(١) «ك،ط»: «لأمر»، تحريف.

(٢) «ك»: «ذلك حمدًا»، «ط»: «ذلك حمد».

(٣) «ف»: «والظلم»، قراءة محتملة.

(٤) «ن،ك»: «ينزه».

على نفسي، وجعلتُه محرَّمًا بينكم[1]، فلا تظالموا»[2]، فالذي حرَّمه على نفسه هو المستحيل الممتنع لذاته كالجمع بين النقيضين، وليس هناك ممكن يكون ظلمًا في نفسه وقد حرَّمه على نفسه، ومعلومٌ أنَّه لا يُمدح الممدوحُ بترك ما لو أراده لم يقدر عليه، وأيضًا فإنَّه قال: «وجعلته محرَّمًا بينكم»، فالذي حرَّمه على نفسه هو الذي جعله محرَّمًا بين عباده، وهو الظلم المقدور الذي يستحق تاركُه الحمدَ والثناءَ.

والذي أوجبَ لهم هذا مناقضةُ القدرية المجوسية وردُّ أصولهم وهدمُ قواعدِهم، ولكن ردُّوا باطلاً بباطل، وقابلوا بدعةً ببدعة، وسلَّطوا عليهم خصومَهم بما التزموه من الباطل. فصارت الغلبة بينهم وبين خصومهم سِجَالاً: مرَّة يغلِبون، ومرَّةً يُغلَبون، لم تستقر[3] لهم نصرة. وإنَّما النصرة التامَّة[4] لأهل السنَّة المحضة الذين لم يتحيزوا إلى فئةٍ غير رسول الله ﷺ، ولم يلتزموا شيئًا[5] غير ماجاءَ به، ولم يؤصِّلوا أصلاً ببدعة يسلطون عليهم به خصومهم، بل أصلُهم مادلَّ عليه كتابُ الله، وكلامُ رسوله، وشهدت به الفِطرَ والعقول.

فصل

والمقصودُ بيانُ شمولِ حمدِه تعالىٰ وحكمتِه لكلِّ ما يحدثه من

---

(١) «ك،ط»: «بينكم محرَّمًا».
(٢) من الحديث القدسي الذي أخرجه مسلم عن أبي ذر رضي الله عنه في كتاب البر والصلة والآداب (٢٥٧٧).
(٣) «ط»: «لم يستقر».
(٤) «ك،ط»: «الثابتة».
(٥) «شيئًا»: ساقط من «ك،ط».

إحسانٍ ونعمة، وامتحانٍ وبلية، وما يقضيه من طاعة ومعصية، وأنَّه سبحانه[1] محمودٌ على ذلك مشكور حمدَ المدح وحمدَ الشكر. أمَّا حمد المدح فإنَّه محمود[2] على كلِّ ماخلق، إذ هو رب العالمين، والحمدُ لله ربِّ العالمين. وأمَّا حمد الشكر فلأنَّ[3] ذلك كلَّه نعمة في حقِّ المؤمن إذا اقترن بواجبه.

والإحسانُ[4] والنعمةُ إذا اقترنت بالشكر صارت نعمة، والامتحان والبليةُ إذا اقترن[5] بالصبر كان[6] نعمة. والطاعةُ فمن[7] أجلّ نعمه، وأمَّا المعصيةُ فإذا اقترنت بواجبها من التوبة والاستغفار والإنابة والذل والخضوع، فقد ترتَّب عليها من الآثار المحمودة والغايات المطلوبة ماهو نعمة أيضًا، وإن كان سببُها مسخوطًا مبغوضًا للربِّ تعالى، ولكنَّه يحب ما ترتب[8] عليها من التوبة والاستغفار.

وهو سبحانه أفرَح بتوبة عبده من الرجل إذا أضلَّ راحلته بأرضٍ

---

(١) «ط»: «والله تعالىٰ».

(٢) «ط»: «فالله محمود».

(٣) «ف»: «فإنَّ»، خلاف الأصل.

(٤) «ك،ط»: «من الإحسان»، كأنَّهُ بيان للواجب، والصواب ما ورد في الأصل. وقراءة «ن»: «فالإحسان».

(٥) كذا في الأصلِ بصيغة الإفراد، والضمير راجع إلى الامتحان دون البلية، كما رجع الضمير في «اقترنت» في الجملة السابقة إلى النعمة، وكان الأولى أن يرجع إلى الإحسان. وفي «ك،ط»: «اقترنا». ولعلَّه مغير في «ك» لأنَّ الجواب فيها «كان» بالإفراد كما في الأصل.

(٦) «ط»: «كانا». «ف»: «صار»، خلاف الأصل.

(٧) «ط»: «من».

(٨) «ط»: «يترتب».

دوِّيّةٍ(١) مهلكةٍ عليها طعامه وشرابه، فأيس منها ومن الحياة، فنام، ثمَّ استيقظ، فإذا بها قد تعلَّق خطامُها في أصلِ شجرةٍ، فجاءَ حتى أخذها= فاللهُ أفرحُ بتوبة العبد حين يتوب إليه من هذا براحلته(٢).

[٤٣/أ] فهذا الفرحُ العظيم الذي لا يشبهه شيء أحبُّ إليه سبحانه من عدمه، وله أسباب ولوازم لا بدَّ منها. وما يحصل بتقدير عدمه من الطاعات وإن كان محبوبًا له، فهذا الفرح أحبُّ إليه بكثير، ووجوده بدون لازمه ممتنع. فله من الحكمة في تقدير أسبابه وموجباته حكمة بالغة ونعمة سابغة.

هذا بالإضافة إلى الرب جلَّ جلاله، وأمَّا بالإضافة إلى العبد فإنَّه قد يكون كمالُ عبوديته وخضوعه موقوفًا على أسباب لا يحصل(٣) بدونها. فتقديرُ الذنب عليه إذا اتصل به التوبةُ والإنابة والخضوع والذل والانكسار ودوام الافتقار كان من النعم باعتبار غايته وما يُعقِبه، وإن كان من الابتلاء والامتحان باعتبار صورته ونفسه؛ والربُّ تعالى محمود على الأمرين. فإن اتصل بالذنب الآثارُ المحبوبةُ(٤) للرب سبحانه من التوبة والإنابة والذل والانكسار فهو عين مصلحة العبد، والاعتبار بكمال النهاية لا بنقص البداية.

وإن لم يتصل به ذلك فهذا لا يكون إلا من خُبث نفسه، وشرّه، وعدم استعداده لمجاورة ربه بين الأرواح الزكية الطاهرة في الملأ

---

(١) الدوية: الصحراء الواسعة التي لا نبات فيها.
(٢) يشير إلى حديث الصحيحين، وسيأتي في ص(٥١٢).
(٣) «ط»: «تحصل»، خطأ.
(٤) «ف»: «المحمودة»، خلاف الأصل.

الأعلى. ومعلوم أنَّ هذه النفس فيها من الشرِّ والخبث ما فيها، فلا بدَّ من خروج ذلك منها من القوَّة إلى الفعل، ليترتَّب على ذلك الآثارُ المناسبة لها ومساكنةُ من تليق مساكنتُه ومجاورة الأرواح الخبيثة في المحلِّ الأسفل. فإنَّ هذه النفوس إذا كانت مهيَّأةً لذلك فمن الحكمة أن تُستخرَج منها الأسبابُ التي تُوصِلها إلى ما هي مهيأة له، ولا يليق بها سواه.

والرب تعالى محمود على ذلك أيضًا، كما هو محمود على إنعامه وإحسانه على أهل الإحسان والإنعام القابلين له، فما كل أحد قابلاً لنعمته تعالى، فحمده وحكمته يقتضي[1] أن لا يُودِعَ نعمَه وإحسانَه وكنوزَه في محل غير قابل لها.

ولا يبقى إلا أن يقال: فما الحكمة في خلق هذه الأرواح التي هي غيرُ قابلةٍ لنعمته؟ فقد تقدَّم من الجوابِ عن ذلك ما فيه كفاية[2]، وأنَّ خلق الأضداد والمتقابلات[3] وترتيب آثارها عليها هو[4] موجَب ربوبيته وحكمته وعلمه وعزَّته، وأنَّ تقدير عدمِ ذلك هضمٌ من جانب الربوبية.

وأيضًا فإنَّ هذه الحوادث نعمة في حق المؤمن، فإنَّها إذا وقعت فهو مأمور أن يُنكِرَها بقلبه ويده ولسانه، أوبقلبه ولسانه فقط، أوبقلبه فقط؛

---

(١) لم ينقط حرف المضارعة في الأصل، ولا في «ف،ن». وفي «ط»: «تقتضي» أي الحكمة، ولعلّ الأولى ما أثبتناه من «ك»، ليرجع الضمير إلى الأول وهو الحمد.

(٢) انظر ماسلف في ص (٢١٢).

(٣) «ك،ط»: «المقابلات».

(٤) «هو» ساقط من «ك،ط». وفي «ف،ن»: «من» تحريف.

ومأمور أن يجاهد أربابَها بحسب الإمكان، فيترتَّبُ له على الإنكار والجهاد من مصالح قلبه ونفسه وبدنه ومصالح دنياه وآخرته ما لم يكن ينال بدون ذلك.

والمقصود بالقصد الأوَّل إتمام نعمته تعالى على أوليائه ورسله وخاصته، فاستعمالُ أعدائه فيما تكمل به النعمة على أوليائه غايةُ الحكمة، وكان في تمكين أهل الكفر والفسوق والعصيان من ذلك إيصالُ أوليائه[1] إلى الكمال الذي يحصل لهم بمعاداة هؤلاء، وجهادِهم، والإنكار عليهم، والموالاة فيه، والمعاداة فيه، وبذل نفوسهم وأموالهم وقواهم له. فإنَّ تمام العبودية لا يحصل إلا بالمحبة الصادقة، وإنَّما تكون المحبة صادقةً إذا بذل فيها المحبُّ ما يملكه من مال ورئاسة وقوَّة في مرضاة محبوبه والتقرب إليه، فإن بذل له روحَه كان هذا أعلى درجات المحبة.

ومن المعلوم أنَّ من لوازم ذلك التي لا يحصل إلا بها أن يخلق ذواتٍ[2] وأسبابًا وأعمالاً وأخلاقًا وطبائع تقتضي معاداةَ من يحبه ويؤثر مرضاته لها، وعند ذلك تتحقق المحبة الصادقة من غيرها. فكل أحد يحبُّ الإحسان والرَّاحة والدَّعَة واللذّة، ويحب من يوصل إليه ذلك ويُحصّله له، ولكن الشأن في أمرٍ وراءَ هذا، وهو محبتُه سبحانه ومحبةُ ما يحبه ممَّا هو أكرهُ شيءٍ إلى النفوس، وأشقُّ شيء عليها ممَّا لا يلائمها. فعند حصول أسباب ذلك يتبين من يحب الله لذاته ويحب ما يحب، ممن يحبُّه لأجل مخلوقاته فقط من المأكل والمشرب والمنكح

---

(١) «أوليائه» ساقط من «ك، ط».

(٢) في الأصل: «ذواتًا»، ولعله سهو. وكذا في غيره.

والرئاسة، فإن أعطي منها رضي، وإن مُنِعها سخط، وعتب على ربه، وربما شكاه، وربما ترك عبادته.

فلولا خلقُ الأضداد، وتسليط أعدائه، وامتحان أوليائه بهم[(١)] لم يستخرَج خالصُ[(٢)] العبودية من عَبِيده الذين هم عَبِيدُه، ولم يحصل لهم عبوديةُ الموالاة فيه، والمعاداة فيه، والحب فيه، والبغض فيه، والعطاء له، والمنع له؛ ولا عبوديةُ بذلِ الأرواح والأموال والأولاد والقوى في جهاد[(٣)] أعدائه ونصرته[(٤)]، ولا عبودية مفارقة الناس أحوجَ مايكون إليهم عبده[(٥)] لأجله و[(٦)]في مرضاته. فلا يتحيز[(٧)] إليهم، وهو يرى محابَّ نفسه وملاذَّها بأيديهم، فيرضى بمفارقتهم، ومشاققتهم[(٨)]، وإيثار موالاة الحق عليهم. فلولا الأضداد والأسباب التي توجب ذلك لم تحصل هذه الآثار.

وأيضًا فلولا تسليطُ الشهوة [٤٣/ب] والغضب ودواعيهما على العبد لم تحصل له فضيلة الصبر، وجهاد النفس، ومنعها من حظوظها[(٩)] وشهواتها محبَّةً لله، وإيثارًا لمرضاته، وطلبًا للزلفى لديه والقرب منه.

---

(١) «بهم» ساقط من «ك، ط».

(٢) «ك، ط»: «خاص»، تحريف.

(٣) «ك»: «وجهاد».

(٤) «ط»: «مضرته» تحريف.

(٥) «ك، ط»: «عنده»، تصحيف.

(٦) الواو ساقطة من «ك، ط».

(٧) «ك، ط»: «ولا يتحيز».

(٨) كذا في الأصل وغيره بفكّ الإدغام.

(٩) «ك، ط»: «خوضها»، تحريف.

وأيضًا فلولا ذلك لم تكن هذه النشأة الإنسانية إنسانيَّةً، بل كانت ملكيةً، فإنَّ الله سبحانه خلق خلقَه أطوارًا فخلق الملائكة عقولاً لا شهوات لها ولا طبيعة تتقاضى منها خلافَ ما يراد منها[١]، من مادة نورية لا تقتضي شيئًا من الآثار والطبائع المذمومة. وخلق الحيوانات ذوات شهوات لا عقول لها. وخلق الثقلين ـ الجن والإنس ـ وركَّب فيهم العقول والشهوات والطبائع المختلفة المقتضية[٢] لآثار مختلفة بحسب موادها وصورها وتركيبها. وهؤلاءِ هم أهل الامتحان والابتلاء، وهم[٣] المعرضون للثواب والعقاب. ولو شاءَ سبحانه لجعل خلقه على طبيعة واحدة[٤] وخلق واحد، ولم يُفاوت بينهم، لكن مافعله سبحانه هو محض الحكمة وموجب الربوبية ومقتضى الإلهية.

ولو كان الخلق كله طبيعةً واحدةً ونمطًا واحدًا لوجد الملحد مقالاً وقال: هذا مقتضى الطبيعة، ولو كان فاعلاً بالاختيار لتنوعت أفعالُه ومفعولاتُه، ولفَعَل الشيءَ وضدَّه، والشيء وخلافه. وكذلك لولا شهودُ هذه الحوادث المشهودة لوجد الملحد أيضًا مقالاً وقال: لو كان لهذا العالم خالق مختار[٥] لوجِدت فيه الحوادثُ على حسب إرادته واختياره، كما رُوِي عن[٦] الحسن أوغيره قال: «كان أصحاب محمد

(١) سقط «منها» من «ط».
(٢) «المقتضية» ساقط من «ط»، ومستدرك في حاشية «ك».
(٣) «وهم» ساقط من«ك».
(٤) «واحدة» ساقط من «ك، ط».
(٥) في الأصل: «خالقًا مختارًا»، وكذا في «ف،ك،ط». ولعله سهو، والمثبت من«ن».
(٦) «عن» ساقط من«ك، ط».

ﷺ يقولون: جلَّ ربنا القديم، [لو][1] لم يتغيَّر هذا الخلق لقال الشاكُّ في الله[2]: لو كان لهذا العالم خالق لَحادثَه[3]: بينا هو ليل إذ جاء نهار، وبينا[4] هو نهارٌ إذ جاء ليل، وبينا هو صحو إذا جاء غيم، وبينا هو غيم إذ جاءَ صحو»[5] أو نحو[6] هذا من الكلام[7].

ولهذا يستدل سبحانه في كتابه بالحوادث تارةً وباختلافها تارةً، إذ هذا وهذا مستلزمٌ لربوبيته[8]، وقدرته، واختياره، ووقوع الكائنات[9] على وفق مشيئته؛ فتنوعُ أفعالِهِ ومفعولاته من أعظم الأدلةَ على ربوبيته وحكمته وعلمه.

ولهذا ـ سبحانه ـ خلق[10] النوع الإنساني أربعةَ أقسام: أحدها: لا من ذكر ولا أنثى، وهو خلق أبيهم وأصلهم آدم. الثاني: خلقَه من ذكر بلا أنثى، كخلق أمهم حواء من ضلع من أضلاع آدم من غير أن تحمل بها أنثى أويشتمل عليها بطن. الثالث: خلقَه من أنثى بلا ذكر، كخلق المسيح

---

(١) زيادة يقتضيها السياق، وقد أثبتناها من «ف،ن». وفي «ك،ط»: «إنَّه لو».
(٢) «ط»: «الشاك فيه إنَّه».
(٣) أي لم يتركه على صفة واحدة، بل تعاهده بالتغيير والإصلاح، من حادث السيفَ: تعاهده بالجلاء والصقال. وفي «ط»: «لأحدثه»، ولعلَّه تغيير في النص.
(٤) في هذه الجملة والتي بعدها في «ط»: «بينا» دون الواو.
(٥) لم أجده.
(٦) «ك،ط»: «ونحو».
(٧) «ط»: «هذا الكلام»، واستدركت «من» في القطرية.
(٨) «ك،ط»: «يستلزم ربوبيته».
(٩) «ك،ط»: «كل الكائنات».
(١٠) «ك،ط»: «خلق سبحانه».

عيسى ابن مريم صلى الله على نبينا وعليه. الرابع: خلق سائر النوع الإنساني من ذكر وأنثى.

وكلُّ هذا ليدلَّ عباده على كمال قدرته، ونفوذ مشيئته، وكمال حكمته؛ وأنَّ الأمرَ ليس كما يظنه أعداؤه الجاحدون له الكافرون به من أن ذلك أمرٌ طبيعي لم يزل هكذا ولا يزال، وأنَّه ليس للنوع أبٌ ولا أمٌّ، وأنَّه ليس إلا أرحامٌ تدفَع، وأرضٌ تبلع، وطبيعةٌ تفعل ما يُرى ويشاهَد. ولم يعلم هؤلاء الجهَّال الضلَّال أنَّ الطبيعة قوَّة وصفة فقيرة إلى محلها، محتاجة إلى حامل لها، وأنَّها من أدل الدلائل على وجود من[1] طبَعها، وخلَقَها، وأودعها الأجسامَ، وجعل فيها هذه الأسرار العجيبة. فالطبيعةُ مخلوقٌ من مخلوقاته، ومملوكٌ من مماليكه وعبيده، مسخَّرةٌ لأمره، منقادةٌ لمشيئته. ودلائلُ الصنعة، وأماراتُ الخلق والحدوث، وشواهدُ الفقر والحاجة شاهدٌ[2] عليها بأنّها مخلوقة مصنوعة، لا تخلق، ولا تفعل، ولا تتصرّف في ذاتها ونفسها، فضلاً عن إسناد الكائنات إليها.

والمقصود أنّ تنويع المخلوقات واختلافها من لوازم الحكمة والربوبيّة والملك، وهو أيضًا من موجبات الحمد، فله الحمد على ذلك كلّه أكمل حمد وأتمّه.

وأيضًا[3] فإنَّ مخلوقاته هي موجَباتُ أسمائه وصفاته، فلكلِّ اسمٍ وصفةٍ أثرٌ لا بُدَّ من[٤٤/أ] من ظهوره فيه[4] واقتضائه له، فيمتنع تعطيلُ

---

(١) «ط»: «وجود أمره»!

(٢) كذا في الأصل وغيره. وفي ط: «شاهدة».

(٣) «ط»: «وأتمه أيضًا»، فاختل السياق.

(٤) «فيه» سقط من «ف».

آثار أسمائه وصفاته، كما يمتنع تعطيلُ ذاته عنها. وهذه الآثار لها متعلقات ولوازم يمتنع أن لا توجد، كما تقدم التنبيه عليه.

وأيضًا فإنَّ تنويع أسباب الحمد أمرٌ مطلوب للرب محبوب له، فكلما[1] تنوعت أسبابُ الحمد تنوَّع الحمدُ بتنوعها، وكثر بكثرتها. ومعلومٌ أنَّه سبحانه محمود على انتقامه من أهل الإجرام والإساءة، كما هو محمود على إكرامه لأهل العدل والإحسان. فهو محمود[2] على هذا وعلى هذا، مع مايتبع ذلك من حمدِه على حلمه وعفوه ومغفرته، وترك حقوقه ومسامحة خلقه بها، والعفو عن كثير من جنايات العبيد. فنبّهَهم باليسير من عقابه وانتقامه على الكثيرِ الذي عفا عنه، وأنَّه لو عاجلهم بعقوبته، وأخذهم بحقه، لقُضِيَ إليهم أجلُهم، ولما ترك على ظهرها من دابة. ولكنَّه سبقت رحمتُه غضبَه، وعفوُه انتقامَه، ومغفرته عقابَه. فله الحمد على عفوه وانتقامه، وعلى عدله وإحسانه، ولا سبيل إلى تعطيل أسباب حمده ولا بعضها. فليتدبر اللبيبُ هذا الموضع حقَّ التدبر، وليعطه حقَّه يُطْلِعْه على أبوابِ عظيمةٍ من أسرار القدر، ويهبطْ به[3] على رياضٍ منه مُعْشِبةٍ وحدائقَ مُؤْنِقة، والله الموفِّق الهادي للصواب.

وأيضًا فإنَّ الله سبحانه نوَّع الأدلّة الدَّالّة عليه والتي تعرّف عباده به غاية التنوع، وصرّف الآيات، وضرب الأمثال، ليقيمَ عليهم حجَّته البالغة، ويتمَّ بذلك عليهم[4] نعمته السابغة، ولا يكون لأحدٍ بعد ذلك

(١) «ط»: «فكما».
(٢) «ط»: «محمول»، خطأ.
(٣) «ن»: «يهبطه».
(٤) «ك، ط»: «عليهم بذلك».

حجةٌ عليه سبحانه، بل الحجَّةُ كلها له، والنعمةُ كلها له[1]، والقدرةُ كلها له. فأقام عليهم حجته، ولو شاء لسوَّى بينهم في الهداية، كما قال تعالىٰ: ﴿قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٤٩﴾﴾[الأنعام/ ١٤٩]، فأخبر أنَّ له الحجَّة البالغة، وهي التي بلغت إلى صميم القلب، وخالطت العقل، واتحدت به، فلا يمكن العقلَ دفعُها ولا جحدُها. ثمَّ أخبر أنَّه سبحانه قادر على هداية خلقه كلِّهم، ولو شاء ذلك لفعله لكمال قدرته ونفوذ مشيئته، ولكنَّ حكمته تأبى ذلك وعدله يأبى تعذيب أحد وأخذه بلا حجة، فأقام الحجة، وصرف الآيات، وضرب الأمثال، ونوَّع الأدلة. ولو كان الخلقُ كلهم على طريقة واحدة من الهداية لما حصلت هذه الأمور، ولا تنوعت هذه الأدلة والأمثال، ولا ظهرت عزَّتُه سبحانه في انتقامه من أعدائه ونصر أوليائه عليهم، ولا حججه التي أقامها على صدق أنبيائه ورسله، ولا كان للناس ﴿ءَايَةٌ فِى فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا ۖ فِئَةٌ تُقَٰتِلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْىَ ٱلْعَيْنِ﴾[آل عمران/ ١٣]، ولا كان للخلق آيةٌ باقيةٌ[2] مابقيت الدنيا في شأن موسى وقومه، وفرعون وقومه، وفلقِ البحر لهم، ودخولهم جميعًا فيه. ثم أنجى[3] موسى وقومه لم يغرَق منهم أحد[4]، وأغرقَ فرعونَ وقومَه لم ينجُ منهم أحد. فهذا التعرف إلى عباده، وهذه الآيات، وهذه العزَّة والحكمة لا سبيل إلى تعطيلها البتة، ولا توجد بدون لوازمها.

---

(١) «والنعمة كلها له» ساقط من «ط».

(٢) من هنا تبدأ المقابلة على النسخة«ب» أيضًا.

(٣) «ط»: «إنجاء».

(٤) «ط»: «ولم يغرق أحد منهم».

وأيضًا فإنَّ حقيقة المُلْك إنَّما تتم[1] بالعطاء والمنع، والإكرام والإهانة، والإثابة والعقوبة، والغضب والرضا، والتولية والعزل، وإعزاز من يليق به العز[2] وإذلال من يليق به الذل. قال تعالى: ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾ تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيْلِ وَتُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢٧﴾ ﴾[آل عمران/ ٢٦، ٢٧].

وقال تعالىٰ: ﴿ يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴿٢٩﴾ ﴾[الرحمن/ ٢٩]، يغفر ذنبًا، ويفرِّج كَرْبًا، ويكشف غمًّا، وينصر مظلومًا، ويأخذ ظالمًا، ويفُكّ عانيًا، ويُغني فقيرًا، ويجبُر كسيرًا، ويشفي مريضًا، ويُقيل عَثْرةً، ويستر عورةً، ويُعزّ ذليلاً، ويُذلّ عزيزًا، ويعطي سائلاً، ويذهب بدولة، ويأتي بأخرى، ويداول الأيّامَ بين الناس، ويرفع أقوامًا، ويضع آخرين. يسوق[3] المقادير التي قدّرها قبل خلق السماوات والأرض بخمسين ألف عام إلى مواقيتها، فلا يتقدّم شيء منها عن وقته[4] ولا يتأخّر، بل كلّ منها قد أحصاه كتابه[5]، وجرى به قلمُه، ونفذ فيه حكمُه، وسبق به علمُه. فهو المتصرّف في الممالك كلّها وحده تصرُّفَ ملكٍ قادر قاهر عادل رحيم تامّ الملك، لا ينازعه في ملكه منازع، ولا يعارضه فيه معارض. فتصرّفُه في المملكة دائرٌ بين العدل والإحسان

(١) الأصل غير منقوط، وفي غيره: «يتم»، وهو جائز، ولكن رجحت قراءة «ط».
(٢) «ب»: «تليق به العزة».
(٣) «ن»: «فيسوق».
(٤) «ب»: «على وقته».
(٥) «ب، ك، ط»: «قد أحصاه كما أحصاه كتابه».

والحكمة والمصلحة والرحمة، فلا يخرج تصرُّفه عن ذلك.

وفي تفسير الحافظ أبي بكر أحمد بن موسى بن مردويه من حديث الحِمّاني: حدّثنا إسحاق بن سليمان، عن معاوية بن يحيىٰ، عن يونس بن ميسرة، عن أبي أدريس، عن أبي الدرداءِ أنّه[1] سئل عن قوله تعالى: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ۝٢٩﴾[الرحمن/ ٢٩] فقال: سئل عنها رسول الله ﷺ فقال: «من شأنه أن يغفر ذنبًا، ويفرج كربًا، ويرفع قومًا، ويضع آخرين»[2].

وفيه أيضًا من حديث حمّاد بن سلمة، حدثنا الزبير [٤٤/ب] أبو عبد السلام، عن أيّوب بن عبدالله بن مكرز، عن أبيه قال: قال عبدالله بن مسعود: «إنّ ربّكم عزّوجلّ ليس عنده ليل ولا نهار، نور السماوات من نور وجهه، أيّامكم عنده ثنتا عشرةَ ساعةً: تُعرض عليه أعمالُكم بالأمس ثلاثَ ساعاتٍ من أوّل النهار، فيطّلع منها على ما يكره، فيغضب، فيكون أول من يعلم بغضبه حملة العرش، فتسبِّح[3] حمَلةُ العرش وسُرادقِاتُ العرش والملائكةُ المقرّبون وسائرُ الملائكة، وينفخ جبريل في القَرْن، فلا يبقى خلقٌ لله في السماوات ولا في الأرض إلاّ سمعه إلاّ الثقلين؛ ويسبّحونه ثلاثَ ساعات[4] حتى يمتلىء الرحمن رحمةً، فتلك

(١) «ب»: «حديث الحماني أنّه سئل»، فسقط سند الحديث.
(٢) أخرجه ابن ماجه (٢٠٢)، وابن حبان (٦٨٩) من حديث أبي الدرداء مرفوعًا. وقد حسَّنه البوصيري في مصباح الزجاجة. وذكر محقق صحيح ابن حبان شواهد للحديث، على أنَّ الحديث روي موقوفًا. (ز).
(٣) «ب،ك»: «فيسبح».
(٤) في «ط»: «ويسبحون لذلك» ثمَّ أثبت «ثلاث ساعات» بين حاصرتين.

ستُّ ساعات[1]. ثم يدعو بالأرحام، فينظر فيها ثلاثَ ساعات ﴿يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾[آل عمران/ ٦] ﴿يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ ﴿٤٩﴾﴾[الشورى/ ٤٩] فتلك تسعُ ساعات. ثم يدعو بالأرزاق، فينظر فيها ثلاث ساعات فيبسط الرزق لمن يشاء ويقدر، فتلك ثنتا عشرة ساعة. ثم قرأ عبدالله: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴿٢٩﴾﴾[الرحمن/ ٢٩] ثم قال: هذا شأنكم وشأن ربّكم عزّوجَلّ»[2].

وذكره الطبراني في المعجم الكبير من وجه آخر[3].

وهذا من تمام تصرّفه في ملكه سبحانه، فلو قصر تصرّفه على وجه واحد ونمط واحد لم يكن تصرّفًا تامًّا.

والمقصود أنّ الملك والحمد في حقّه متلازمان، فكلّ ما شمِله ملكُه وقدرتُه شمِله[4] حمدُه، فهو محمود في ملكه، وله الملك والقدرة مع حمده. فكما يستحيل خروج شيء من الموجودات عن ملكه وقدرته، يستحيل خروجُها عن حمده وحكمته. ولهذا يحمد سبحانه نفسَه عند خلقه وأمره، لينبّه عبادَه على أنّ مصدر خلقه وأمره عن حمده. فهو محمود على كلّ ماخلقه وأمر به[5] حمدَين[6]: حمدَ شكر وعبودية،

---

(١) ذكر ناشر ط أن هنا بياضًا في أصله، ولا بياض في أصولنا.

(٢) أخرجه الطبراني في الكبير (٨٨٨٦)، وأبونعيم في الحلية (١/ ١٣٧). قال الهيثمي في مجمع الزوائد (١/ ٨٥): «فيه أبو عبد السلام، قال أبوحاتم: مجهول». انظر نقض الدارمي على بشر المريسي (٢٦٦ـ٢٦٨) (ز).

(٣) انظر: التعليق السابق.

(٤) «ط»: «شمل».

(٥) «ف»: «وأمره» خلاف الأصل.

(٦) «حمدين» ساقط من «ك،ط». وفي «ب»: «أمر به من حمد شكر»، سقط =

وحمدَ ثناءٍ ومدح، ويجمعهما «التبارُك»، فتبارك الله يشمل ذلك كلَّه، ولهذا ذكر هذه الكلمة عقيب قوله: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾﴾[الأعراف/ ٥٤].

فالحمد أوسع الصفات وأعم المدائح، والطرقُ إلى العلم به في غاية الكثرة، والسُّبُل[١] إلى اعتباره في ذرات العالم[٢] وجزئياته وتفاصيل الأمر والنهي واسعة جدًّا، لأنَّ جميع أسمائه تبارك وتعالى حمد، وصفاته حمد، وأفعاله حمد، وأحكامه حمد، وعدله في انتقامه[٣] من أعدائه حمد، وفضله في إحسانه[٤] إلى أوليائه حمد. والخلق والأمر إنَّما قام بحمده، ووجد بحمده، وظهر بحمده، وكان لغاية[٥] هي حمده. فحمده سبب ذلك، وغايته، ومظهره، وحامله؛ فحمده روح كل شيء، وقيام كل شيء بحمده. وسريانُ حمده في الوجودات[٦] وظهورُ آثاره فيه[٧] أمرٌ مشهود بالأبصار والبصائر.

فمن الطرق الدالّة على شمول معنى الحمد وانبساطه على جميع المعلومات[٨] معرفةُ أسمائه وصفاته، وإقرار العبد بأنَّ للعالم إلهًا حيًّا

= وتحريف.

(١) «ك، ط»: «السبيل».

(٢) «ب»: «كليات العالم».

(٣) «ك»: «وعدله وانتقامه». «ط»: «وعدله حمد وانتقامه».

(٤) «ك»: «فضله وإحسانه».

(٥) «ط»: «الغاية».

(٦) كذا في الأصل و«ن». وفي «ف» وغيرها: «الموجودات».

(٧) كذا في الأصل وغيره بإفراد الضمير المذكر، ولعله يقصد الوجود.

(٨) «ب»: «المخلوقات».

جامعًا[1] لكلِّ صفة كمال، واسم حسن، وثناء جميل، وفعل كريم؛ وأنَّه سبحانه له القدرة التامة، والمشيئة النافذة، والعلم المحيط، والسمع الذي وسع الأصوات، والبصر الذي أحاط بجميع المبصرات، والرحمة التي وسعت جميع المخلوقات، والملك الأعلى الذي لا يخرج[2] عنه ذرَّة من الذرَّات، والغنى التام المطلق من جميع الجهات، والحكمة البالغة المشهودُ أثرُها[3] في الكائنات، والعزَّة العالية[4] بجميع الوجوه والاعتبارات، والكلماتُ التامَّات النافذات التي لا يجاوزهنَّ برٌّ ولا فاجر من جميع البريّات[5].

واحدٌ لا شريك له في ربوبيته، ولا في إلهيته. ولا شبيه له في ذاته، ولا في صفاته، ولا في أفعاله. وليس له من يَشرَكه في ذرَّة من ذرَّات ملكه، أو يخلُفه في تدبير خلقه، أويحجبه عن داعيه ومؤمليه[6] وسائليه[7]، أو يتوسط بينهم وبينه بتلبيس أوفِرية أو كذب، كما يكون

---

(١) في الأصل: «إله حي جامع»، وفي حاشيته: «صوابه إلهًا حيًّا جامعًا»، وكذا نقل الأصل مع حاشيته في «ف». وفي «ن» كما في الأصل. وفي «ب،ك،ط» كما أثبتنا.

(٢) «ب»: «لا تخرج»، والأصل غير منقوط.

(٣) «ف»: «المشهودة الرعاية»، وكلمة «الرعاية» تحريف غريب لكلمة «أثرها» المكتوبة في الأصل فوق السطر مع علامة «صح». وفي «ك»: «المشهودة آثارها»، وفي «ب»: «المشهورة...»، وفي «ط»: «المشهود...».

(٤) كذا في الأصل و«ف» بالياء المثناة. وفي «ك،ط»: «الغالبة». وفي «ب»: «العالمية» وهو تحريف ما في الأصل.

(٥) «ن»: «المخلوقات».

(٦) «ك،ط»: «أو مؤمليه».

(٧) «ط»: «أوسائليه».

بين الرعايا وبين الملوك. ولو كان كذلك لفسد نظام الوجود، وفسد العالم بأسره فـ[1] ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَاۚ ﴾[الأنبياء/ ٢٢]، فلو كان[2] معه آلهة أخرى ـ كما يقوله أعداؤه المبطلون ـ لوقع من النقص في التدبير وفساد الأمر كله ما لا يثبتُ معه حال، ولا يصلح معه[3] وجود.

ومن أعظم نعمه علينا وما استوجب به[4] حمدَ عباده له أن جعلنا[5] عبيدًا له خاصَّةً، ولم يجعلنا نَهْبًا[6] منقسمين بين شركاء متشاكسين، ولم يجعلنا عبيدًا لإلهٍ نحتَتْه الأفكار، لا يسمع أصواتنا[7]، ولا يبصر أفعالنا، ولا يعلم أحوالنا، ولا يملك لعابديه ضرًّا ولا نفعًا ولا موتًا ولا حياةً ولا نشورًا[8]، ولا تكلَّم قط ولا يتكلم، ولا يأمر ولا ينهى، [٤٥/أ] ولا تُرفع إليه الأيدي، ولا تعرج الملائكة والروح إليه، ولا يصعد إليه[9] الكلمُ الطيب، ولا يُرفع إليه العمل الصالح.

وإنَّه ليسَ داخل العالم ولا خارجه ولا فوقه، ولا عن يمينه ولا عن يساره ولا خلفه ولا أمامه، ولا متصلاً به ولا منفصلاً

---

(١) حذفت الفاء في «ط».
(٢) «ك، ط»: «ولوكان».
(٣) ماعدا الأصل و«ف»: «عليه».
(٤) «ب، ك»: «استوجبه حمد»، «ط»: «استوجب حمد».
(٥) «ك، ط»: «يجعلنا».
(٦) «ب، ك، ط»: «ربنا»، تحريف. و«النهب» هنا بمعنى المنهوب.
(٧) «ب»: «أقوالنا».
(٨) من هنا إلى «ترك ما نهوا عنه» في ص (٢٦٧) سقط من «ب».
(٩) «إليه» ساقط من «ك».

عنه[1]، ولا مماسًّا[2] له ولا بائنًا[3] ولا مستويًا[4] على عرشه، ولا هو فوق عباده ولا عاليًا عليهم،[5] وحظ العرش منه حظُّ الحُشوش والأخلية. ولا تنزل الملائكة من عنده، بل لا ينزل من عنده شيء، ولا يصعد إليه شيء، ولا يقرب منه شيء، ولا يقرب من شيء[6].

ولا يُحِبُّ ولا يُحَب، ولا يلتذ المؤمنون بالنظر إلى وجهه الكريم في دار الثواب، بل ليس له وجه يُرَى، ولا له يدٌ يقبض بها[7] السماوات وأخرى يقبِض بها الأرض. ولا له[8] فعل يقوم به، ولا حكمة تقوم به، ولا كلَّم موسى تكليمًا، ولا تجلَّى للجبل فجعله دكًّا هشيمًا. ولا يجيء يوم القيامة لفصل القضاء، ولا ينزل كلَّ ليلة إلى سماء الدنيا، فيقول: «لا أسأل[9] عن عبادي غيري»[10]، ولا يفرح بتوبة عبده إذا تاب إليه.

ويجوز في حكمته تعذيبُ أنبيائه ورسله وملائكته وأهل طاعته

---

(١) من هنا إلى «عاليًا عليهم» لم يظهر في مصورة الأصل، وهو مما ألحق في أعلى الورقة، فاعتمدنا على «ف».

(٢) كذا في ف. وفي «ك»: «مجانبًا»، وفي «ط»: «محاذيًا»، ولعلَّ صواب ما فيهما: «محايثا»، كما ورد فيما بعد. وهو ساقط من«ن».

(٣) كذا في «ف». وفي«ك، ط»: «مباينًا». وهو ساقط من«ن».

(٤) «ن، ك، ط»: «ولا هو مستوٍ».

(٥) «ولا عاليًا عليهم» لم يرد في «ن، ك، ط». ومكانه في «ن»: «ولا يرى من فوق سبع ويسمع»!

(٦) «ولا يقرب من شيء» ساقط من«ك، ط».

(٧) في الأصل: «به» سهو.

(٨) «له» ساقط من «ط».

(٩) «لا» ساقط من «ط».

(١٠) كما جاء في حديث رفاعة الجهني في مسند أحمد ٢٦/ ١٥٢، ١٥٧ (١٦٢١٥، ١٦٢١٨).

أجمعين من أهل السماوات والأرضين، وتنعيمُ أعدائه من الكفَّار به والمحاربين له والمكذبين له ولرسله. والكلُّ بالنسبة إليه سواءٌ، ولا فرق البتة إلا أنَّه أخبر أنه لا يفعل ذلك، فامتنع للخبر بأنَّه لا يفعله، لا لأنَّه في نفسه منافٍ لحكمته.

ومع ذلك فرضاه عينُ غضبه، وغضبُه عينُ رضاه، ومحبته كراهته، وكراهته محبته، إن هو[1] إلا إرادة محضة ومشيئة صرفة يشاء بها، لا لحكمة ولا لغاية ولا لأجل مصلحة. ومع ذلك يعذِّب عباده على ما لم يعملوه ولا قدرة لهم عليه، بل يعذبهم على نفس فعله الذي فعله هو وينسبه إليهم، ويعذبهم إذ لم يفعلوا فعله ويلومهم عليه. ويجوز في حكمته أن يعذب رجالاً إذ[2] لم يكونوا نساءً، ونساءً حيث[3] لم يكونوا رجالاً، وطِوالاً إذ[4] لم يكونوا قصارًا وبالعكس، وسودًا إذ[5] لم يكونوا بيضًا وبالعكس. بل تعذيبُه لهم على مخالفته هو من هذا الجنس، إذ لا قدرة لهم البتة على فعل ما أُمروا به، ولا ترك ما نُهوا عنه.

فله الحمدُ والمنَّة والثناءُ الحسن الجميل، إذ[6] لم يجعلنا عبيدًا لمن هذا شأنُه، فنكون مضيعين، ليس لنا ربٌّ نقصده، ولا صمدٌ نتوجه إليه ونعبده[7]، ولا إله نعول عليه، ولا رب نرجع إليه، بل قلوبنا تنادي في

---

(١) «ط»: «هي».

(٢) «ط»: «إذا»، خطأ.

(٣) «ف»: «إذ» خلاف الأصل.

(٤) «ك، ط»: «حيث».

(٥) «ط»: «إذا»، وصحح في القطرية.

(٦) «ط»: «إذا»، خطأ.

(٧) «ونعبده» ساقط من«ب».

طرق الحيرة: من دلَّنا وجمع علينا ربًّا ضائعًا، لا هو داخل العالم ولا خارجه، ولا مباين له ولا محايث[1] له، ولا متصل به ولا منفصل عنه، ولا ينزل من عنده شيء ولا يصعد إليه شيء، ولا كلَّم أحدًا ولا يكلمه أحد. ولا ينبغي لأحد أن يذكر صفاته، ولا يعرّفه بها، بل يهجرها بلسانه فلا يتكلم بها، وبقلبه فلا يعقلها. وينبغي[2] له أن يعاقب بالقتل أوالضرب والحبس من ذكرها، أوأخبر عنه بها، أوأثبتها له، أو نسبها إليه، أوعرَّفه بها. بل التوحيد الصرف[3] جحدُها، وتعطيله عنها، ونفي قيامها به واتصافه بها. ومالم تدركه عقولنا من ذلك فالواجب نفيُه، وجحده، وتكفير من أثبته، واستحلال دمه وماله، أو تبديعه وتضليله وتفسيقه. وكلَّما كان النفيُ أبلغَ كان التوحيدُ أتم، فليس كذا وليس كذا أبلغ في التوحيد من قولنا هو كذا وهو كذا.

فللّه العظيم أعظمُ حمدٍ وأتمُّه وأكملُه[4] على ما منَّ به[5] من معرفته وتوحيده، والإقرار بصفاته العُلى وأسمائه الحسنى، وإقرار قلوبنا بأنَّه الله الذي لا إله إلا هو، عالمُ الغيب والشهادة، ربُّ العالمين، قيومُ السماوات والأرضين، إلهُ الأولين والآخرين، لم يزل[6] ولا يزال موصوفًا بصفات الجلال، منعوتًا بنعوت الكمال، منزهًا عن أضدادها من

(١) «ن»: «مجانب»، «ط»: «محاذٍ». وهو ساقط من «ب».
(٢) النص من «لأحد أن يذكر» إلى هنا ساقط من «ب،ط»، ومستدرك في حاشية «ك» بخط متأخر.
(٣) زاد في «ب»: «عندهم».
(٤) «ب»: «أكمل حمد وأتمه وأعظمه».
(٥) «ب»: «منَّ به علينا».
(٦) «لم يزل» ساقط من «ب،ك،ط».

النقائص والتشبيه والمثال.

فهو الحيُّ القيُّوم الذي لكمال حياته، وقيوميته لا تأخذه سنةٌ ولا نوم. مالك السماوات والأرض الذي لكمال ملكه لا يشفع عنده أحدٌ إلا بإذنه.

والعالمُ بكل شيء، الذي لكمال علمه يعلم ما بين أيدي الخلائق وما خلفهم، فلا تسقط ورقة إلا بعلمه، ولا تتحرَّك ذرَّة إلا بإذنه. يعلم دبيبَ الخواطر في القلوب حيث لا يطلع عليها الملَك، ويعلم ما سيكون منها حيث لا يطلع عليها(١) القلب.

البصير الذي لكمال بصره يرى تفاصيل خلقِ الذرَّة الصغيرة وأعضائها ولحمها ودمها ومخها وعروقها، ويرى دبيبَها على الصخرة الصمَّاء في الليلة الظلماء، ويرى ما تحت الأرضين السبع كما يرى ما فوق السماوات السبع.

السميع الذي قد استوى في سمعه سرُّ القول وجهرُه، وسع سمعُه الأصوات، فلا تختلف عليه أصوات الخلق ولا تشتبه عليه، ولا يشغله منها سمع عن سمع، ولا تغلّطه المسائل، ولا تُبرمه(٢) كثرةُ سؤالِ(٣) السائلين. قالت عائشة: الحمد لله الذي وسع سمعُه الأصوات، لقد جاءت المجادلةُ تشكو إلى رسول الله ﷺ، [٤٥/ب]، وإنَّه(٤) لَيَخفى عليَّ بعض كلامها، فأنزل الله عزَّوجلَّ: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾[المجادلة/ ١](٥).

---

(١) «ب، ك، ط»: «عليه».

(٢) هذه قراءة «ف». وفي غيرها: «يبرمه».

(٣) «سؤال» ساقط من «ب، ك، ط».

(٤) «ب، ك، ط»: «وإنِّي».

(٥) أخرجه ابن ماجه (١٨٨)، والنسائي (٦/ ١٦٨)، وفي الكبرى له (٢٦٥٤). =

القدير الذي لكمال قدرته يهدي من يشاء ويُضِلُّ من يشاء، ويجعل المؤمن مؤمنًا والكافر كافرًا ، والبر برًّا والفاجر فاجرًا. وهو الذي جعل إبراهيم وآله أئمةً يدعون إليه ويهدون بأمره، وجعل فرعون وقومَه أئمةً يدعون إلى النَّارِ. ولكمال قدرته لا يحيط أحد بشيء من علمه إلا بما شاء سبحانه أن يُعلِّمه إيَّاه. ولكمال قدرته خلَقَ السماوات والأرض وما بينهما في ستة أيام، وما مسَّه من لغوب. ولا يُعجِزه أحدٌ من خلقه، ولا يفوته، بل هو في قبضته أين كان، وإن[1] فرَّ منه فإنَّما يطوي المراحلَ في يديه، كما قيل:

وكيف يفِرُّ المرءُ عنك بذنبه ... إذا كان يطوي في يديك المراحلا؟[2]

ولكمال غناه استحال إضافةُ الولد والصاحبة والشريك والظهير[3] والشفيع بدون إذنه إليه. ولكمال عظمته وعلوه[4] وسِع كرسيُّه السمواتِ والأرضِ، ولم تسعه أرضُه ولا سماواته، ولم تُحِطْ به مخلوقاته، بل هو العالي على كلِّ شيء، الظاهر فوق كل شيء[5]، وهو بكلِّ شيء محيط.

= وأحمد (٢٤١٩٥). والحديث صححه الحاكم ولم يتعقبه الذهبي. (ز)

(١) هذه قراءة «ف». وفي غيرها: «فإن».

(٢) البيت لأبي العرب مصعب بن عبدالله بن أبي الفرات القرشي العبدري الصقلي المتوفى بميورقة سنة (٥٠٦هـ). انظر فوات الوفيات (٤/ ١٤٥). وفيه: «فأين يفر... بجرمه».

(٣) «والظهير» ساقط من «ب، ك، ط».

(٤) «ك»: «ولعلوه».

(٥) «الظاهر فوق كل شيء» من الأصل و«ف».

لا تنفد[1] كلماته ولا تبيد، بل[2] لو أنَّ البحر يمده من بعده سبعةُ أبحر مدادٌ، وأشجارُ الأرض أقلامٌ[3]، فكتب بذلك المداد وتلك[4] الأقلام، لَنَفِد المداد[5]، وفنيت الأقلام؛ ولم تنفد كلماته، إذ هي غير مخلوقة، ويستحيل أن يفنى غيرُ المخلوق بالمخلوق. ولو كان كلامه مخلوقًا ـ كما قاله[6] من لم يقدُره حقَّ قدره، ولا أثنى عليه بما هو أهلُه ـ لكان أحقَّ بالفناءِ[7] من هذا المداد وهذه الأقلام، لأنَّه إذا كان مخلوقًا فهو نوعٌ من أنواع مخلوقاته، ولا يحتمل المخلوق إفناءَ هذا المداد وهذه الأقلام، وهو باقٍ غيرُ فانٍ.

وهو سبحانه يحب رسله وعباده المؤمنين، ويحبونه[8]، بل لا شيء أحبّ إليهم منه، ولا أشوق إليهم من لقائه، ولا أقرَّ لعيونهم من رؤيته، ولا أحظى عندهم من قربه.

وإنَّه سبحانه له الحكمة البالغة في خلقه وأمره، وله النعمة السابغة على خلقه، وكلُّ نعمةٍ منه فضلٌ، وكلُّ نقمةٍ منه عدل.

وإنَّه أرحمُ بعباده من الوالدة بولدها، وأفرحُ[9] بتوبة عبده من واجد

---

(١) «ك، ط»: «ولا تنفد».

(٢) «ط»: «ولا تبدل» مكان «ولا تبيد، بل»، تحريف.

(٣) «ب، ك، ط»: «مدادًا. . . أقلامًا» خطأ. و«مداد» ساقط من«ن».

(٤) «ب، ك، ط»: «بتلك».

(٥) «ب»: «لفني المداد».

(٦) «ب»: «قال».

(٧) «ب»: «بهذا الفناء».

(٨) في الأصل: «ويحبونهم» سبق قلم.

(٩) كذا في «ف، ن». وفي غيرها: «وإنَّه أفرح»، والظاهر أنَّ «إنَّه» مع كلمة أخرى =

راحلته التي عليها طعامُه وشرابُه في الأرضِ المهلكة بعد فقدها واليأس منها.

وإنَّه سبحانه لم يكلِّف عبادَه إلا وسعهم، وهو دون طاقتهم، فقد يطيقون الشيء ويضيق عليهم، بخلاف وسعهم، فإنَّه[١] ما يسعونه، ويسهل عليهم، وتفضُل[٢] قُدَرُهم عنه، كما هو الواقع.

وإنَّه سبحانه لا يعاقبُ أحدًا بغير فعله، ولا يعاقبه على فعلِ غيره، ولا يعاقبه بترك ما لا يقدِر على فعله، ولا على فعل[٣] ما لا قدرةَ له على تركه.

وإنَّهُ سبحانه حليم[٤] كريم جواد ماجد محسن ودود صبور شكور، يُطاع فيشكر، ويُعصَى فيغفِر. لا أحدَ أصبرُ على أذى سمعه منه، ولا[٥] أحبُّ إليه المدحُ منه، ولا أحبُّ إليه العذرُ منه. ولا أحدَ[٦] أحبُّ إليه الإحسانُ منه، فهو محسن يحب المحسنين، شكورٌ يحب الشاكرين.

جميلٌ يحب الجمال، طيِّبٌ يحب كلَّ طيب، نظيفٌ يحب النظافة، عليمٌ يحب العلماء من عباده، كريمٌ يحب الكرماء، قويٌّ والمؤمن القوي

= مضروب عليها في الأصل.

(١) «ف»: «فإنَّهم» سهو.

(٢) «ك، ط»: «يفضل».

(٣) «فعل» سقط من«ط» واستدرك في القطرية.

(٤) «ب، ك، ط»: «حكيم».

(٥) «ف»: «ولا أحد» خلاف الأصل.

(٦) «أحد» ساقط من «ب».

أحب إليه من المؤمن الضعيف، برٌّ يحب الأبرار، عدلٌ يحب أهل العدل، حييٌّ سِتِّيرٌ يحب أهل الحياء والستر، عفوٌّ غفورٌ يحب مَن يعفو عن عباده ويغفر لهم، صادقٌ يحب الصادقين، رفيقٌ يحب الرفق، جوادٌ يحب الجود وأهله، رحيمٌ يحب الرحماء، وترٌ يحب الوتر.

يحبُّ[(١)] أسماءَه وصفاتِه، ويحبُّ المتعبدين له بها، ويحب من يسأله بها[(٢)] ويدعوه بها، ويحب من يعرفها ويعقلها، ويثني عليه بها، ويحمده ويمدحه بها، كما في الصحيح عن النبي ﷺ: «لا أحد أحبُّ إليه المدحُ من الله، من أجلِ ذلك أثنى على نفسه. ولا أحدَ أغيرُ من الله، من أجلِ ذلك حرَّم الفواحش ما ظهر منها وما بطن، ولا أحدَ أحب إليه العذرُ من اللهِ، من أجل ذلك أرسل الرسل مبشِّرين ومنذرين»[(٣)].

وفي حديثٍ آخر صحيح: «لا أحدَ أصبرُ على أذى يسمعُه[(٤)] من الله، يجعلون له ولدًا وهو يرزقهم ويعافيهم»[(٥)].

ولمحبته لأسمائه وصفاته [٤٦/أ] أمر عباده بموجبها ومقتضاها، فأمرهم[(٦)] بالعدل والإحسان والبر والعفو والجود والصبر والمغفرة

---

(١) «ط»: «ويحب».

(٢) «بها» ساقط من«ط».

(٣) أخرجه البخاري في التفسير (٤٦٣٤) وغيره، ومسلم في التوبة (٢٧٦٠) عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه.

(٤) هذا في الأصل و«ف»، وهو لفظ مسلم. وفي غيرها: «سمعه»، وهو لفظ البخاري.

(٥) أخرجه البخاري في الأدب (٦٠٩٩) وغيره، ومسلم في صفات المنافقين (٢٨٠٤) من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه.

(٦) «ف»: «وأمرهم».

والرحمة والصدق والعلم والشكر والحلم والأناة والتثبت. ولمَّا كان سبحانه يحب أسماءَه وصفاته كان أحب خلقه[١] إليه من اتصف بالصفات التي يحبها، وأبغضهم[٢] إليه من اتصفَ بالصفاتِ التي يكرهها. فإنَّما أبغضَ من اتصف بالكبر والعظمة والجبروت؛ لأنَّ اتصافه بها ظلم، إذ لا تليق به هذه الصفات ولا تحسن منه، لمنافاتها لصفات العبيد، وخروجِ من اتَّصف بها من رِبقة العبودية، ومفارقته لمنصبه ومرتبته، وتعدّيه طورَه وحدَّه. وهذا بخلافِ[٣] ماتقدم من الصفات كالعلمِ والعدلِ والرحمة والإحسان والصبر والشكر، فإنَّها لا تنافي العبوديةِ، بل اتصافُ العبد بها من كمال عبوديته، إذ المتصف بها من العبيد لم يتعدَّ طورَه ولم يخرج بها من دائرة العبودية.

والمقصود أنَّه سبحانه لكمال أسمائه وصفاته موصوفٌ بكلِّ صفة كمال، منزَّهٌ عن كلِّ نقص، له كلُّ ثناءٍ حسن، ولا يصدر عنه إلا كلُّ فعلٍ جميل، ولا يُسمَّى إلا بأحسن الأسماءِ، ولا يُثنَى عليه إلا بأكمل الثناءِ. وهو المحمود المحبوب المعظم ذو الجلال والإكرام على كلِّ ماخلقه وقدَّره[٤]، وعلى كلِّ ما أمر به وشرعه.

ومن كان له نصيبٌ من معرفة أسمائه الحسنى واستقرى[٥] آثارها في الخلقِ والأمر، رأى الخلق والأمر منتظمَين بها أكمل انتظام، ورأى

(١) «ك، ط»: «الخلق».

(٢) «ب»: «وأبغض خلقه».

(٣) «ك، ط»: «خلاف».

(٤) «ك، ط»: «قدره وخلقه».

(٥) «ب»: «واستقراء»، وهي قراءة محتملة.

سَريان آثارها فيهما، وعلم ـ بحسب معرفته ـ ما يليق بكماله وجلاله أن يفعله وما لا يليق، فاستدلَّ بأسمائه على ما يفعله وما لا يفعله، فإنَّه لا يفعل خلافَ موجَب حمده وحكمته. وكذلك يعلم مايليق به أن يأمر به ويشرعه ممَّا لا يليق به. فيعلم أنَّه لا يأمر بخلاف موجَب حمده وحكمته.

فإذا رأى في بعض الأحكام جورًا وظلمًا أوسفهًا وعبثًا أومفسدة[١] أو ما لا يُوجِب حمدًا وثناءً فَلْيعلَمْ أنَّه ليس من أحكامه ولا دينه، وأنَّه بريء منه ورسولُه، فإنَّه إنَّما يأمرُ بالعدل لا بالظلم، وبالمصلحة لا بالمفسدة، وبالحكمة لا بالعبث والسفَه. وإنَّما بعث رسوله بالحنيفية السمحة لا بالغلظة والشدة، وبعثه بالرحمة لا بالقسوة، فإنَّه أرحم الرَّاحمين، ورسولُه رحمةٌ مهداةٌ إلى العالمين، ودينُه كلُّه رحمة، وهو نبي الرحمة، وأمتُه الأمة المرحومة. وذلك كله موجَب أسمائه الحسنى وصفاته العلى[٢] وأفعاله الحميدة، فلا يُخبَر عنه إلا بحمده، ولا يثنى عليه إلا بأحسن الثناءِ، كما لا يسمَّى إلا بأحسن الأسماء.

وقد نبَّه سبحانه على شمول حمده لخلقِه[٣] وأمرِه بأن حمِد نفسَه في أوَّل الخلق وآخره، وعند الأمر والشرع؛ وحمد نفسَه على ربوبيته للعالمين، وحمد نفسَه على تفرده بالإلهية وعلى حياته. وحمد نفسَه على امتناع اتصافه بما لا يليق بكماله من اتخاذ الولد والشريك وموالاةِ أحد من خلقه لحاجة[٤] إليه. وحمد نفسَه على علوه وكبريائه، وحمد

(١) «ك، ط»: «ومفسدة».
(٢) «ط»: «العليا».
(٣) «ب»: «خلقه لحمده»، خطأ.
(٤) «ب، ك، ط»: «لحاجته».

نفسَه في الأولى والآخرة. وأخبر عن سَرَيان حمدِه في العالم العلوي والسفلي. ونبَّه على هذا كلِّه في كتابه، وحمد نفسَه عليه؛ فنوّع[1] حمدَه وأسبابَ حمده، وجمعها تارةً، وفرَّقها أخرى، ليتعرَّف إلى عباده، ويعرِّفهم كيف يحمدونه وكيف يثنون عليه، وليتحبَّب إليهم بذلك، ويحبهم إذا عرفوه وأحبوه وحمدوه.

قال تعالىٰ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤﴾[الفاتحة/ ٢ ـ ٤].

وقال: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ۖ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ۝١﴾[الأنعام/ ١].

وقال: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ۝١ قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ۝٢﴾[الكهف/ ١ ـ ٢].

وقال: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ۝١﴾[سبأ/ ١].

وقال تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُو۟لِىٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ۚ يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾[فاطر/ ١].

وقال: ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ۝٧٠﴾[القصص/ ٧٠].

وقال: ﴿هُوَ ٱلْحَىُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۗ ٱلْحَمْدُ

---

(١) «ك، ط»: «فتنوع».

﴿لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٦٥﴾[غافر/ ٦٥].

وقال: ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ۝١٧ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ۝١٨﴾[الروم/ ١٧ ـ ١٨].

وأخبر عن حمدِ خلقِه له بعد فصلِه بينهم، والحكم لأهل طاعته بثوابه وكرامته، والحكم لأهل معصيته بعقابه وإهانته: ﴿وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٧٥﴾[الزمر/ ٧٥].

[٤٦/ب] وأخبر عن حمد أهل الجنَّة له وأنَّهم لم يدخلوها إلا بحمده، كما أنَّ أهل النَّارِ لم يدخلوها إلا بحمده، فقال أهل الجنَّة: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا﴾[الأعراف/ ٤٣] و﴿دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ ۚ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝١٠﴾[يونس/ ١٠].

وقال عن أهل النَّار: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ۝٧٤ وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ فَعَلِمُوٓا۟ أَنَّ ٱلْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ۝٧٥﴾[القصص/ ٧٤ ـ ٧٥].

وقال تعالىٰ: ﴿فَٱعْتَرَفُوا۟ بِذَنۢبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾[الملك/ ١١].

وشهدوا على أنفسهم بالكفر والظلم، وعلموا أنَّهم كانوا كاذبين في الدنيا، مكذبين بآيات ربهم، مشركين به، جاحدين لإلهيته، مفترين عليه. وهذا اعتراف منهم بعدله فيهم، وأخذهم ببعض حقه عليهم، وأنَّه غيرُ ظالمٍ لهم، وأنَّهم إنَّما دخلوا النَّارَ بعدله وحمده، وإنَّما عوقبوا بأفعالهم وبما كانوا قادرين على فعله وتركه، لا كما يقول الجبرية.

وتفصيل هذه الجملة[1] ممَّا لا سبيل للعقول البشرية إلى الإحاطة به، ولا إلى التعبير عنه، ولكن بالجملة فكلُّ صفة عليا واسم حسن وثناءٍ جميل وكلُّ حمد ومدح وتسبيح وتنزيه وتقديس وجلال وإكرام فهو لله عزَّوجلَّ على أكمل الوجوه وأتمها وأدومها، وجميعُ مايوصف به ويُذكر به ويُخبر عنه به فهو محامدُ له وثناءٌ وتسبيح وتقديس. فسبحانه وبحمده، لا يحصي أحدٌ من خلقه ثناءً عليه، بل هو كما أثنى على نفسه، وفوق ما يثني به عليه[2] خلقُه، فله الحمدُ أوَّلاً وآخرًا حمدًا كثيرًا طيّبًا مباركًا فيه، كما ينبغي لكرم وجهه، وعز جلاله، ورفيع مجده، وعلو جده.

فهذا تنبيه على أحد نوعَي حمده، وهو **حمد الصفات والأسماء**.

والنوع الثاني: حمد النعم والآلاء، وهذا مشهود للخليقة: برِّها وفاجرِها، مؤمِنها وكافرها؛ من جزيل مواهبه، وسعة عطاياه، وكريم أياديه، وجميل صنائعه، وحسن معاملته لعباده، وسعة رحمته بهم[3]، وبره ولطفه وحنانه، وإجابته لدعوات المضطرين، وكشف كُرُبات المكروبين[4]، وإغاثة[5] الملهوفين، ورحمة العالمين[6]، وابتدائه بالنعم قبل السؤال ومن غير استحقاق، بل ابتداءً منه بمجرد فضله وكرمه

---

(١) «ب، ك، ط»: «الحكمة»، والظاهر أنَّه تحريف.

(٢) «ف»: «عليه به»، خلاف الأصل.

(٣) «ك، ط»: «لهم».

(٤) «ف»: «المحزونين»، تصحيف.

(٥) «ف»: «إعانة».

(٦) «ب، ك، ط»: «رحمته للعالمين».

وإحسانه، ودفعِ المحن والبلايا بعد انعقاد أسبابها، وصرفِها بعد وقوعها، ولطفِهِ تعالى في ذلك بإيصاله[1] إلى من أراده بأحسن الألطاف، وتبليغه من ذلك إلى ما لا تبلغه الآمال، وهدايته خاصَّته وعبادَه[2] إلى سُبُل السلام[3]، ومدافعته عنهم أحسن الدفاع، وحمايتهم عن مراتع الآثام.

وحبَّبَ إليهم الإيمان، وزيَّنه في قلوبهم، وكرَّه إليهم الكفرَ والفسوق والعصيان، وجعلهم من الرَّاشدين. وكتب في قلوبهم الإيمان، وأيدهم بروح منه، وسمَّاهم المسلمين قبل أن يخلقهم، وذكرهم قبل أن يذكروه، وأعطاهم قبل أن يسألوه، وتحبَّب إليهم بنعمه، مع غناه عنهم[4]، وتبغُّضهم إليه بالمعاصي، وفقرهم إليه.

ومع هذا كله فاتخذَ لهم دارًا، وأعدَّ لهم فيها من كلِّ ما تشتهيه الأنفس وتلذُّه الأعين[5]، وملأها من جميع الخيرات، وأودعها من النعيم والحَبْرَة والسرور والبهجة ما لا عينٌ رأت، ولا أذنٌ سمعت، ولا خطرَ على قلب بشر.

ثمَّ أرسلَ إليهم الرسل يدعونهم إليها، ثمَّ يسَّرَ لهم الأسباب التي توصلهم إليها وأعانهم عليها، ورضيَ منهم باليسير في هذه المدَّة القصيرة جدًّا بالإضافة إلى بقاء دار النعيم، وضَمِنَ لهم إن أحسنوا أن

---

(١) «ب،ك»: «باتصاله».

(٢) «ب»: «خاصة عباده».

(٣) «ك،ط»: «سبيل دار السلام».

(٤) «عنهم» ساقط من«ط».

(٥) «ب،ط»: «تلذ الأعين».

يُثيبهم بالحسنة عشرًا، وإن أساؤوا واستغفروه[1] أن يغفر لهم، ووعَدهم أن يمحو ما جنَوه من السيئاتِ بمايفعلونه بعدها من الحسنات.

وذكّرهم بآلائه، وتعرف إليهم بأسمائه، وأمرهم بما أمرهم به رحمةً منه بهم وإحسانًا، لا حاجةً منه إليهم، ونهاهم عمَّا نهاهم عنه حمايةً وصيانةً[2] لهم، لا بخلاً منه عليهم. وخاطبهم بألطف الخطاب وأحلاه، ونصحهم بأحسن النصائح، ووصَّاهم بأكمل الوصايا، وأمرهم بأشرف الخصال، ونهاهم عن أقبح الأقوال والأعمال، وصرَّف لهم الآيات، وضرب لهم الأمثال، ووسَّع لهم طرُقَ العلم به ومعرفته، وفتح لهم أبوابَ الهداية، وعرَّفهم الأسبابَ التي تُدنيهم من رضاه وتُبعِدهم [٤٧/أ] من غضبه[3].

ويخاطبهم بألطف الخطاب، ويسميهم[4] بأحسن أسمائهم كقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾، ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾[النور/ ٣١]، ﴿يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾[الزمر/ ٥٣]، ﴿قُل لِّعِبَادِىَ﴾[إبراهيم/ ٣١]، ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى﴾[البقرة/ ١٨٦].

فيخاطبهم بخطاب الوداد والمحبة والتلطف[5] كقوله:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ

---

(١) «ب»: «استغفروا».

(٢) «ب»: «نهاهم صيانة وحماية».

(٣) «ك، ط»: «عن غضبه». «ن»: «من سخطه».

(٤) «ب»: «وسماهم»، وماقبله ساقط منها.

(٥) «ف»: «والتعطف»، خلاف الأصل.

ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾[البقرة/ ٢١ ـ ٢٢].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣﴾ ﴾[فاطر/ ٣].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿٥﴾ ﴾[فاطر/ ٥].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ﴿٦﴾ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ﴿٧﴾ ﴾[الانفطار/ ٦ ـ ٧].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾ ﴾[آل عمران/ ١٠٢ ـ ١٠٣].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا۟ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١١٨﴾ ﴾[آل عمران/ ١١٨].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا۟ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ ۙ أَن تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَٰدًا فِى سَبِيلِى وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِى ۚ تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ ۚ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١﴾ ﴾[الممتحنة/ ١].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ۖ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَٱتَّقُوا۟ فِتْنَةً لَّا

تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنكُمْ خَآصَّةً ۖ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢٥﴾ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِى ٱلْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٢٦﴾﴾[الأنفال/ ٢٤-٢٦].

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾ مَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٧٤﴾﴾[الحج/ ٧٣ - ٧٤].

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّـٰلِمِينَ بَدَلًا ﴿٥٠﴾﴾[الكهف/ ٥٠].

فتحتَ هذا الخطاب: إنّي عاديتُ إبليسَ، وطردتُه من سمائي، وباعدتُه من قربي، إذ لم يسجد لأبيكم آدم، ثمَّ أنتم يابنيه توالونه وذريته من دوني، وهم أعداءٌ لكم[١]! فليتأمَّل اللبيبُ مواقع هذا الخطاب، وشدَّة لصوقه بالقلوب، والتباسه بالأرواح. وأكثرُ القرآن جاءَ على هذا النمط من خطابه لعباده بالتودد والتحنن واللطف والنصيحة البالغة.

وأعلم عباده ـ سبحانه ـ أنَّه لا يرضى لهم إلا أكرمَ الوسائل، وأفضل المنازل، وأجل العلوم والمعارف. قال تعالى: ﴿إِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنكُمْ ۖ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ ۖ وَإِن تَشْكُرُوا۟ يَرْضَهُ لَكُمْ ۗ﴾[الزمر/ ٧].

---

(١) «ب»: «لكم أعداء».

وقال تعالىٰ: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾[المائدة/ ٣].

وقال: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [البقرة/ ١٨٥](1).

﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦﴾ وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُوا۟ مَيْلًا عَظِيمًا ﴿٢٧﴾ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴿٢٨﴾﴾[النساء/ ٢٦ـ ٢٨](2).

ويتنصَّل سبحانه إلى عباده من مواضع الظنّة والتهمة التي ينسبها(3) إليه مَن لم يعرفه حقَّ معرفته ولا قدَره حقَّ قدره، من تكليفِ عباده ما لا يقدِرون عليه ولا طاقة لهم بفعله البتَّة، وتعذيبهم إن شكروه وآمنوا به، وخلقِ السماوات والأرضِ ومابينهما لا لحكمةٍ ولا لغاية؛ وإنَّه(4) لم يخلق خلقَه لحاجةٍ منه إليهم، ولا ليتكثَّر بهم من قلَّة، ولا ليتعززَ بهم من ذلَّة، ولا ليستعينَ بهم(5)، كما قال تعالىٰ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾﴾[الذاريات/ ٥٦ ـ ٥٧].

---

(١) بعد هذه الآية وقع في الأصل: ﴿والله يُريدُ أَنْ يَتوبَ علَيْكُمْ﴾، وكذا في «ف، ن». وهو جزء من الآية التالية، فحذف في «ط». وزاد في «ك، ط»: «وقال».

(٢) حذفت الآية الأولى في «ك».

(٣) «ب، ك، ط»: «نسبها».

(٤) في «ب»: «الغاية، تعالى الله عمَّا يقولون علوًّا كبيرًا. إنَّه جل جلاله لم يخلق».

(٥) «من ذلة، ولا ليستعين بهم» ساقط من «ك، ط».

فأخبرَ أنَّهُ لم يخلق الجنَّ والإنسَ لحاجةٍ منه إليهم، ولا ليربح عليهم، لكن خلقهم جودًا وإحسانًا ليعبدوه فيربَحوا هم عليه كلّ الأرباح كقوله: ﴿ إِنۡ أَحۡسَنتُمۡ أَحۡسَنتُمۡ لِأَنفُسِكُمۡۖ ﴾[الإسراء/ ٧]، ﴿ وَمَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا فَلِأَنفُسِهِمۡ يَمۡهَدُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾[الروم/ ٤٤].

ولمَّا أمرهم بالوضوء والغسل[1] من الجنابة الذي يحطّ عنهم أوزارهم، ويدخلون به عليه، ويرفع به درجاتهم، قال: [٤٧/ب]﴿ مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجۡعَلَ عَلَيۡكُم مِّنۡ حَرَجٖ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمۡ وَلِيُتِمَّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴿٦﴾ ﴾[المائدة/ ٦].

وقال في الأضاحي والهدايا: ﴿ لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقۡوَىٰ مِنكُمۡۚ ﴾[الحج/ ٣٧].

وقال عقيب أمرهم بالصدقة ونهيهم عن إخراج الرديء من المال: ﴿ وَلَا تَيَمَّمُواْ ٱلۡخَبِيثَ مِنۡهُ تُنفِقُونَ وَلَسۡتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغۡمِضُواْ فِيهِۚ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿٢٦٧﴾ ﴾[البقرة/ ٢٦٧]. يقول سبحانه: إنِّي غني عمَّا تنفقون أن ينالني منه شيء، حميد مستحق للمحامد[2] كلِّها. فإنفاقكم لا يسدُّ منه حاجةً، ولا يوجب له حمدًا، بل هو الغني بنفسه، الحميد بنفسه وأسمائه وصفاته، وإنفاقُكم إنَّما نفعُه لكم وعائدته عليكم.

ومن المتعين على من لم يباشر قلبَه حلاوةُ هذا الخطاب، وجلالتُه، ولطفُ موقعه، وجذبُه للقلوب والأرواح، ومخالطتُه لها= أن يعالجَ قلبَه بالتقوى، وأن يستفرغ منه المواد الفاسدة التي حالت بينه وبين حظِّه من

---

(١) «ب، ط»: «بالغسل».

(٢) «ك، ط»: «المحامد».

ذلك، ويتعرَّضَ إلى الأسبابِ التي يناله بها، من صدق الرغبة، واللجأ إلى الله أن يحيى قلبَه، ويزكيه، ويجعل فيه الإيمان والحكمة. فالقلب الميِّت لا يذوق طعمَ الإيمان، ولا يجد حلاوته، ولا يتمتع بالحياة الطيبة لا في الدنيا ولا في الآخرة.

ومن أراد مطالعة أصولِ النِّعَم فَلْيُسِمْ سَرْحَ الفكر[1] في رياض القرآن، ولْيتأمل ما عدَّد الله فيه من نعَمِه، وتعرَّف بها إلى عباده من أوَّل القرآن إلى آخره، حتَّى خلقَ النَّارِ[2]، وابتلاءَهم بإبليس وحزبِه، وتسليطَ أعدائهم عليهم، وامتحانَهم بالشهوات والإرادات والهوى؛ لِتعظُمَ النعمةُ عليهم بمخالفتها ومحاربة أعدائه[3]. فللَّه على أوليائه وعباده أتمُّ نعمة وأكملها في كلِّ ما خلقه من محبوب ومكروه، ونعمة ومحنة، وفي كلِّ ما أحدثه في الأرض من وقائعه[4] بأعدائه وإكرامه لأوليائه، وفي كلِّ ماقضاه وقدَّره. وتفصيلُ ذلك لا تفي به أقلامُ الدنيا وأوراقُها، ولا قوى العباد، وإنَّما هو التنبيه والإشارة.

ومن استقرى الأسماء الحسنى وجدها مدائحَ وثناءً تقصر بلاغاتُ الواصفين عن بلوغ كنهها، وتعجز الأوهامُ عن الإحاطة بالواحد منها. ومع ذلك فللَّه سبحانه محامد ومدائح وأنواع من الثناءِ لم تتحرَّك بها

---

(١) «ط»: «الذكر». تحريف.

(٢) «ب»: «حين خلق النار». «ك،ط»: «حين خلق أهل النار»، والصواب ما أثبتنا من الأصل و«ف». و«خلق النار» معطوف على «ماعدَّد»، فجعل خلق النار ومابعده من النعم التي دعا إلى تأملها.

(٣) «أعدائه» ساقط من «ك». «ط»: «محاربته».

(٤) «ب»: «إيقاع». «ك»: «الأرض ووقائعه».

الخواطر، ولا هجست في الضمائر، ولا لاحت لمتوسم، ولا سنحت في فكر. ففي دعاء أعرفِ الخلق بربِّه تعالى وأعلمِهم بأسمائه وصفاته ومحامده: «أسألك بكلِّ اسمٍ هو لك، سمَّيتَ به نفسك، أوأنزلته في كتابك، أوعلَّمته أحدًا من خلقك، أواستأثرت به في علم الغيب عندك، أن تجعل القرآن[1] ربيع قلبي، ونورَ صدري، وجلاءَ حُزني، وذهابَ همِّي وغمِّي»[2].

وفي الصحيح عنه ﷺ في حديث الشفاعة لمَّا يسجدُ[3] بين يدي ربِّه، قال: «فيفتح عليَّ من محامده بشيءٍ لا أحسنه الآن»[4].

وكان يقول في سجوده: «أعوذ برضاك من سَخَطك، وبعفوك من عقوبتك، وأعوذ بك منك، لا أحصي ثناءً عليك، أنت كما أثنيتَ

---

(١) «ب»: «القرآن العظيم».

(٢) أخرجه أحمد (٣٧١٢)، وابن حبان (٩٧٢)، والحاكم (١/٥٠٩) من حديث عبدالله بن مسعود. قال الحاكم: «هذا حديث صحيح على شرط مسلم، إن سلم من إرسال عبدالرحمن بن عبدالله عن أبيه فإنَّه مختلف في سماعه من أبيه». (ز).

(٣) «لما يسجد» كذا في الأصل وغيره. و«لما» الحينية مختصة بالماضي، فلا يجوز دخولها على المضارع. وقد أدخلها المصنف على المضارع في نونيته في ثلاثة مواضع، منها قوله في السياق نفسه:

ولذاك يُثني في القيامة ساجدًا ... لمَّا يراهُ المصطفى بعيانِ
بثناء حمدٍ لم يكن في هذه الد ... نيا ليحصيَه مدى الأزمان

الكافية الشافية (٦٨٥). وفي «ك»: «لمَّا سجد»، لكنَّه غير مناسب للسياق.

(٤) أخرجه البخاري في التفسير (٤٧١٢) وغيره، ومسلم في الإيمان (١٩٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

على نفسك»[1].

فلا يحصي أحد من خلقه ثناءً عليه البتة، وله أسماءٌ وأوصاف وحمد وثناءٌ[2] لا يعلمه ملَك مقرَّب، ولا نبي مرسَل. ونسبة ما يعلم العبادُ من ذلك إلى ما لا يعلمونه كنَقْرَةِ عصفورٍ في بحر.

فإن قيل: فكيف تصنعون بما يشاهد من أنواع الابتلاء والامتحان والآلام للأطفال والحيوانات ومن هو خارج عن التكليف ومن لا ثواب ولا عقاب عليه؟ وما تقولون في الأسماء الدَّالّة على ذلك من المنتقم والقابض والخافض ونحوها؟

قيل: قد تقدَّم من الكلام في ذلك ما يكفي بعضه لذي الفطرة السليمة والعقل المستقيم. وأمَّا من فسدت فطرته، وانتكس قلبه، وضعفت بصيرة عقله، فلو ضُرب له من الأمثال ماضُرب فإنَّه لا يزيده إلا عمىً وتحيرًا. ونحن نزيد ما تقدم إيضاحًا وبيانًا، إذ بسطُ هذا المقام[3] أولى من اختصاره، فنقول:

قد علمتَ أنَّ جميع أسماءِ الربِّ جلَّ جلاله حسنى، وصفاته كمال، وأفعاله حكمة ومصلحة؛ وله كلُّ ثناءٍ وكلُّ حمدٍ ومدحة[4]، وكلُّ خير فمنه وله وبيده[5]، والشرُّ ليس إليه بوجه من الوجوه: لا في ذاته، ولا في صفاته، ولا في أفعاله، ولا في أسمائه. وإن كان في مفعولاته

---

(١) تقدم تخريجه في ص (٥٦).
(٢) «ب»: «ثناء وحمد وأسماء وأوصاف».
(٣) «ب»: «بسط الكلام في هذا المقام».
(٤) «ب»: «وكل مدحة وكل حمد».
(٥) «ب»: «وله وبه وبيده».

فهو خيرٌ بإضافته إليه، وشرٌّ بإضافته إلى من صدر عنه ووقع به. **فتمسَّك بهذا الأصل ولا تُفارِقْه في كلِّ دقيق وجليل، وحكِّمه على كلِّ[(١)] ما يرد عليك، وحاكِمْ إليه واجعله آخيَّتَك التي ترجع إليها وتعتمد عليها.**

واعلم أنَّ [٤٨/أ] لله خصائصَ في خلقه، ورحمةً وفضلاً يختص به من يشاءُ، وذلك موجَب ربوبيته وإلهيته وحمده وحكمته، فإيَّاك ثمَّ إيَّاكَ أن تُصغي إلى وسوسةِ شياطين الإنس والجنّ والنفس الجاهلة الظالمة أنَّه هلاَّ سوَّى بين عباده في تلك الخصائص، وقسَّمها بينهم على السواء؟ فإنَّ هذا عين الجهلِ والسفَه من المعترض به. وقد بيَّنَّا فيما تقدم أنَّ حكمته تأبى ذلك وتمنع منه[(٢)].

ولكن اعلم أنَّ الأمرَ قسمةٌ بين فضله وعدله، فيختص برحمته من يشاء، ويقصد بعذابه من يشاء، وهو المحمود على هذا وهذا[(٣)]. فالطيبون من خلقه مخصوصون بفضله ورحمته، والخبيثون مقصودون بعذابه، ولِكلٍّ واحدٍ قسطُه من الحكمة والابتلاء والامتحان، وكلٌّ مستعملٌ فيما هو له مهيَّأ وله مخلوق.

وكلُّ ذلك خير ونفع ورحمة للمؤمنين، فإنَّه تعالى خلقهم للخيرات فهم لها عاملون، واستعملهم فيها فلم يدركوا ذلك إلا به، ولا استحقوه إلا بما سبق لهم من مشيئته وقَسْمه[(٤)]، فلذلك[(٥)] لا تضرهم الأدواءُ

---

(١) «كل»: ساقط من«ب».

(٢) انظر ما سلف في ص (٢١٢، ٢١٧).

(٣) «وهذا» ساقط من«ط».

(٤) «ب،ط»: «قسمته»، وقد سقطت من «ف» سهوًا.

(٥) «ك،ط»: «فكذلك».

ولا السُّموم، بل متى وسوس لهم العدو، أواغتالهم[1] بشيءٍ من كيده، أومسَّهم بشيء من طيفه ﴿تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ۝٢٠١ وَإِخْوَٰنُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِى ٱلْغَىِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ ۝٢٠٢﴾[الأعراف/ ٢٠١-٢٠٢].

وإذا واقعوا معصيةً صغيرةً أو كبيرةً عاد[2] ذلك عليهم رحمةً، وانقلب في حقهم دواءً، وبُدِّلَ حسنةً بالتوبة النصوح والحسنات الماحية؛ لأنَّه سبحانه عرَّفهم بنفسه وبفضله، وبأنَّ قلوبهم بيده وعصمتهم إليه، حيث نقض عزماتهم، وقد عزموا أن لا يعصوه، وأراهم عزَّتَه في قضائه، وبرَّه وإحسانه في عفوه ومغفرته، وأشهدهم نفوسهم وما فيها من النقص والظلم والجهل، وأشهدهم حاجَتهم إليه وافتقارَهم وذلَّهم، وأنَّه إن لم يعفُ عنهم ويغفر لهم فليس لهم سبيل إلى النجاة أبدًا.

فإنَّهم لمَّا أعطوه[3] من أنفسهم العزمَ أن لا يعصوه، وعقدوا عليه قلوبَهم، ثمَّ عصوه بمشيئته وقدرته، عرفوا بذلك عظيمَ اقتداره، وجميلَ ستره إيَّاهم، وكريم حلمه عنهم، وسعة مغفرته لهم، وبردَ عفوه[4] وحنانه وعطفه ورأفته، وأنَّه حليم ذو أناة لا يعجل، ورحيم سبقت رحمتُه غضبَه، وأنَّهم متى رجعوا بالتوبة إليه[5] وجدوه غفورًا[6] رحيمًا

---

(١) «ن، ك، ط»: «واغتالهم».

(٢) «ن»: «رد».

(٣) «ك، ط»: «أعطوا».

(٤) «ب»: «وبره وعفوه». «ك، ط»: «لهم برد عفوه».

(٥) ما عدا الأصل و«ف»: «إليه بالتوبة».

(٦) «ب»: «عفوًّا».

حليمًا كريمًا، يغفر لهم السيئات، ويُقيلهم العثرات، ويودهم بعد التوبة ويحبهم.

فتضرعوا إليه حينئذٍ بالدعاءِ، وتوسلوا إليه بذلّ العبيد[1] وعزّ الربوبيّة. فتعرّف سبحانه إليهم بحسن إجابته وجميل عطفه وحسن امتنانه في أن ألهمهم دعاءَه، ويسّرهم للتوبة والإنابة، وأقبل بقلوبهم إليه بعد إعراضها عنه. ولم تمنعه معاصيهم وجناياتُهم من عطفه عليهم وبره لهم وإحسانه إليهم، فتابَ قبل أن يتوبوا إليه، وأعطاهم قبل أن يسألوه.

فلمَّا تابوا إليه واستغفروه وأنابوا إليه تعرَّف إليهم تعرُّفًا آخر: فعرَّفهم رحمتَه، وحسنَ عائدته، وسعةَ مغفرته، وكريمَ عفوه، وجميلَ صفحه، وبرَّه وامتنانَه وكرمَه، وسرعةَ مبادرته[2] قبولَهم بعد أن كان منهم ما كان من طول الشرود[3]، وشدَّة النفور، والإيضاع في طرق معاصيه[4].

وأشهدَهم مع ذلك حمدَه العظيم، وبرَّه العميم، وكرمَه في أن خلَّى بينهم وبين المعصية، فنالوها بنعمته وإعانته، ثمَّ لم يُخلِّ بينهم وبين ما توجبه من الهلاكِ والفسادِ الذي لا يرجى معه صلاح[5]، بل تداركهم بالدواءِ الشافي[6]، فاستخرج منهم داءً لو استمرَّ معه لأفضى[7] إلى الهلاك.

---

(١) «ك، ط»: «العبودية».

(٢) «ط»: «وشرعه، ومبادرته»، تحريف.

(٣) «ك، ط»: «شرور»، تحريف.

(٤) «طرق» ساقط من «ب». والإيضاع: الإسراع.

(٥) «ب، ك، ط»: «فلاح».

(٦) «ك»: «النائي الشافي»، «ط»: «الثاني الشافي».

(٧) «ك»: «لأخرجهم».

ثمَّ تداركهم بروحِ الرجاءِ، فقذفه في قلوبهم، وأخبر أنَّه عند ظنونهم به. ولو أشهدهم عظيمَ الجناية[1]، وقبحَ المعصية، وغضبه ومقته على من عصاه فقط، لأورثهم ذلك المرضَ[2] القاتل والداءَ العضال من اليأس من رَوحه والقنوط من رحمته، وكان ذلك عين هلاكهم. ولكن رحمهم قبل البلاء، وفي حَشْو البلاء، وبعد البلاء[3]. وجعل تلك الآثار التي تُوجِبها معصيتُه[4] من المحن والبلاءِ والشدائد رحمةً لهم وسببًا [٤٨/ب] إلى علوِّ درجاتهم ونيل الزلفى والكرامة عنده. فأشهدهم بالجناية[5] عزَّةَ الربوبية وذلَّ العبيد[6]، ورقَّاهم بآثارها إلى منازل قربه ونيل كرامته؛ فهم على كلِّ حال يربحون عليه، ويتقلبون في كرمه وإحسانه، فكلُّ[7] قضاءٍ يقضيه للمؤمن فهو خير له، يسوقه به[8] إلى كرامته وثوابه.

وكذلك عطاياه الدنيوية نعمٌ منه عليهم، فإذا استرجعها أيضًا منهم وسلبَهم إيَّاها انقلبت من عطايا الآخرة، كما قيل: إنَّ الله يُنعِم على عباده بالعطايا الفاخرة، فإذا استرجعها كانت من[9] عطايا الآخرة.

---

(١) «ك، ط»: «عظم الجناية».

(٢) «ف»: «بالمرض»، خلاف الأصل.

(٣) «وفي حشو البلاء وبعد البلاء» ساقط من «ط».

(٤) «ك، ط»: «المعصية».

(٥) «بالجناية» ساقط من «ب».

(٦) «ط»: «العبودية».

(٧) «ك، ط»: «وكل».

(٨) «به» ساقط من «ب، ك، ط».

(٩) «من» ساقطة من «ك، ط».

والربُّ سبحانه قد تجلَّى لقلوب المؤمنين العارفين، وظهر لها بقدرته وجلاله وكبريائه، ومضاء[1] مشيئته، وعظيم سلطانه، وعليّ شأنه[2]، وكرمه وبره وإحسانه، وسعة مغفرته ورحمته، وما ألقاه في قلوبهم من الإيمان بأسمائه وصفاته إلى حيث احتملته القوى البشرية من ذلك[3]، ووراءَه ـ ممَّا لم تحتمله قواهم، ولا يخطر ببال، ولا يدخل في خلَد ـ ما[4]لا نسبةَ لما عرفوه إليه. فاعلم أنَّ الذين كان قِسْمُهم أنواع المعاصي والفجور، وفنون الكفر[5] والشرك، والتقلب في غضبه وسخطه= قلوبُهم[6] وأرواحهم شاهدةٌ عليهم بالمعاصي والكفر، مُقِرَّةٌ بأنَّ له الحجَّة عليهم وأنَّ حقَّه قِبَلهم. ولا يدخل[7] النارَ منهم أحدٌ[8] إلا وهو شاهدٌ بذلك، مقِرٌّ به، معترفٌ اعتراف طائع مختار[9] لا مُكرَه مضطهد. فهذه شهادتُهم على أنفسهم وشهادةُ أوليائه عليهم.

والمؤمنون يشهدون له[10] فيهم بشهادة أخرى لا يشهد بها أعداؤه، ولو شهدوا بها وباؤوا بها لكانت رحمتُه أقربَ إليهم من عقوبته.

---

(١) «ط»: «مضي».
(٢) «ك، ب، ط»: «علو شأنه».
(٣) «من ذلك» ساقط من «ط».
(٤) ماعدا الأصل: «مما».
(٥) «وفنون الكفر» ساقط من «ب».
(٦) «ك، ط»: «وقلوبهم»، خطأ.
(٧) «ك، ط»: «يذكر» تحريف.
(٨) «ب، ك، ط»: «أحد منهم النار».
(٩) «مختار» ساقط من «ك، ط».
(١٠) «له» ساقط من «ب، ك، ط».

فيشهدون بأنَّهم[1] عبِيده ومِلكه، وأنَّه أوجدهم ليظهر بهم مجدُه، وينفذَ فيهم حُكمُه، ويمضي فيهم عدلُه، ويحقَّ عليهم كلمتُه، ويصدقَ فيهم وعيدُه، ويبين[2] فيهم سابقُ علمه، ويعمر بها[3] ديارهم ومساكنهم التي هي محل عدله وحكمته.

وشهد[4] أولياؤه عظيم ملكه، وعز سلطانه، وصدق رسله، وكمال حكمته، وتمام نعمته عليهم، وقدرَ ما اختصّهم به، ومن أي شيء حماهم وصانهم، وأيَّ شيء صرَف عنهم؛ وأنَّه لم يكن لهم إليه وسيلة قبل وجودهم يتوسلون بها إليه أن لا يجعلهم من أصحاب الشمال وأن يجعلهم من أصحاب اليمين.

وشهدوا له سبحانه بأنَّ ما كان منه إليهم وفيهم ـ ممَّا يقتضيه إتمامُ كلماته[5] الصدق والعدل[6]، وصدقُ قوله، وتحقيقُ[7] مقتضى أسمائه ـ فهو محضُ حقِّه. وكلُّ ذلك منه حسن جميل، له عليه أتمُّ حمدٍ وأكمله وأفضلُه. وهو حُكمٌ عدلٌ، وقضاءٌ فصل. وأنَّه المحمود على ذلك كلِّه فلايلحقه منه ظلم ولا جور ولا عبث، بل ذلك عين الحكمة، ومحض الحمد، وكمالٌ أظهره في حقه، وعزٌّ أبداه، وملكٌ أعلنه، ومرادٌ له أنفذه؛ كما فعل بالبُدْن وضروب الأنعام: أتمَّ بها مناسكَ أوليائه

---

(١) «ن،ك،ط»: «أنَّهم».

(٢) كذا في «ف» وغيرها. ويحتمل قراءة «يتبين».

(٣) كذا في الأصل وغيره، ولعلَّ الصواب «بهم» كما في «ط».

(٤) «ف»: «ويشهد»، قراءة محتملة.

(٥) «ب»: «كلمته».

(٦) في حاشية «ب»: «لعله: حكمه» يعني: كلمته الصدق، وحكمه العدل.

(٧) «ك،ط»: «تحقق».

وقرابين عباده، وإن كان ذلك بالنسبة إلى الأنعام إهلاكًا[1] وإتلافًا. فأعداؤه الكفَّار المشركون به الجاحدون به[2] أولى أن تكون دماؤهم قرابينَ أوليائه وضحايا المجاهدين في سبيله، كما قال حسَّان بن ثابت[3]:

يتطهَّرون، يَرونَـه قُـربـانَهـم   بدمـاءِ مَن عَلِقـوا من الكفَّـار[4]

وكذلك لمَّا ضحَّى خالد بن عبدالله القَسْري[5] بشيخ المعطِّلة الفرعونية الجعد بن درهم، فإنَّه خطبهم في يوم أضحى، فلمَّا أكمل خطبته قال: «أيّها النَّاسُ ضَحُّوا، تقبَّل الله ضحاياكم، فإنِّي مُضَحٍّ بالجعد [٤٩/أ] بن درهم، إنَّه زعمَ أنَّ الله لم يكلِّم موسى تكليمًا، ولم يتخذ إبراهيمَ خليلاً، تعالى عمَّا يقول الجعدُ علوًّا كبيرًا. ثمَّ نزل، فذبحه، وكان[6] ضحيته. ذكر ذلك البخاري في كتاب خلق الأفعال[7].

فهذا شهود أوليائه من شأن أعدائه، ولكن أعداؤه في غفلة عن هذا لا يشهدونه ولا يقرون به، ولو شهدوه وأقروا به لأدركهم حنانُه

---

(١) «ب،ك،ط»: «هلاكًا».

(٢) «به» ساقط من «ب،ك،ط».

(٣) كذا وقع في الأصل وغيره، وهو سهو، فالبيت من الأبيات المشهورة التي قالها كعب بن زهير في الأنصار. انظر: ديوانه (٣٥)، ورواية صدر البيت فيه وفي السيرة وغيرها:

يتطهرون كأنَّه نُسُكٌ لهم

(٤) في الأصل والنسخ الأخرى: «علقوا به»، وهو خطأ يخلّ بالوزن.

(٥) «القسري» ساقط من«ب».

(٦) «ب،ك،ط»: «فكان».

(٧) ص(٢٩). وانظر الفتاوى (٨/ ٣٥٧).

ورحمتُه، ولكن لمَّا حُجبوا عن معرفته، ومحبته، وتوحيده، وإثبات أسمائه الحسنى وصفاته العلى[1]، ووصفه بما يليق به، وتنزيهه عمَّا لا يليق به= صاروا أسوأَ حالاً من الأنعام، وضُرِبوا بالحجاب، وأُبعِدوا عنه بأقصى البعد، وأخرجوا من نوره إلى الظلمات، وغُيِّبتْ قلوبُهم من[2] الجهل به وبكماله وجلاله وعظمته في غيابات[3]، ليتمَّ عليهم أمرُه[4]، وينفذ فيهم حكمُه، والله عليم حكيم[5].

فصل

والله سبحانه مع كونه خالقَ كلِّ شيء، فهو موصوف بالرضا والغضب، والعطاء والمنع، والخفض والرفع، والرحمة والانتقام. **فاقتضت حكمته تعالى أن خلقَ دارًا لطالبي رضاه العاملين بطاعته،** المؤثرين لأمره، القائمين بمحابه، وهي الجنَّة. وجعل فيها كل شيء مرضي، وملأها من كلِّ محبوب ومرغوب ومشتهىً ولذيذ، وجعل الخيرَ بحذافيره فيها، وجعلها محلَّ كلِّ طيبٍ من الذوات والصفات والأقوال.

وخلق دارًا أخرى لطالبي أسباب غضبه وسخطه، المؤثرين لأغراضهم[6] وحظوظهم على مرضاته، العاملين بأنواع مخالفته، القائمين بما يكره من الأعمال والأقوال، الواصفين له بما لا يليق به،

---

(١) «ط»: «العليا».

(٢) «ك،ط»: «في»، تحريف.

(٣) «ب»: «غايات». «ك،ط»: «غابات»، تحريف. وغَيابة الجُب: قعره.

(٤) «ك،ط»: «أمده» تحريف.

(٥) «والله عليم حكيم» ساقط من «ن». وفيها وفي«ك،ط» زيادة: «والله أعلم».

(٦) «ط»: «لأغراضها». وصحح في القطرية.

الجاحدين لما أخبرتْ به رسلُه من صفات كماله ونعوت جلاله، وهي جهنَّم. وأودعها كلَّ شيء مكروه، وشحنَها[1] من كلِّ مؤذٍ[2] ومؤلم، وجعل الشرَّ بحذافيره فيها، وجعلها محلَّ كلِّ خبيث من الذوات والصفات والأقوال والأعمال.

فهاتان الداران هما دار القرار[3].

وخلق دارًا ثالثة هي كالميناء لهاتين الدارين، ومنها يتزود المسافرون إليهما، وهي دار الدنيا. ثمَّ أخرج إليها من آثار[4] الدارين بعضَ ما اقتضته أعمالُ أربابهما وما يُستدل به عليهما، حتَّى كأنَّهما رأيُ عين، ليصير للإيمان[5] بالدَّارين ـ وإن كان غيبًا ـ وجهُ[6] شهادة تستأنس[7] به النفوس، وتستدلّ به. فأخرج سبحانه إلى هذه الدار من آثار رحمته من الثمار والفواكه، والطيبات، والملابس الفاخرة، والصور الجميلة، وسائر ملاذّ النفوس ومشتهاها ماهو نفحةٌ من نفحات الدار التي جعل ذلك كله فيها على وجه الكمال. فإذا رآه المؤمنون ذكّرهم بما هناك من الحَبْرة[8] والسرور والعيش الرخي، كما قيل:

---

(١) «ك»: «سجنها»، «ط»: «وسجنها مليءٌ». ولعلَّ هذه الزيادة سببها التصحيف السابق.

(٢) «ب،ك»: «شيء مؤذ».

(٣) كذا في الأصل وغيره بإفراد «الدار». وفي«ط»: «دارا القرار».

(٤) «ك،ط»: «أثمار».

(٥) «ب،ك»: «الإيمان».

(٦) «وجه» ساقط من«ب».

(٧) «ف»: «تستأثر». «ن»: «تستأمن»، والظاهر أنَّ كليهما تحريف.

(٨) «ب،ك،ط»: «الخير».

فــإذا رآك المسلمـــون تيقَّنـــوا حُورَ الجِنانِ لدى النعيم الخالدِ[1]

فشمَّروا إليه وقالوا: «اللهم لا عيش إلا عيشُ الآخرة»[2]. وأحدثت لهم رؤيته عَزمات وهممًا وجدًّا وتشميرًا، لأنَّ النعيم يذكِّر بالنعيم، والشيء يذكِّر بجنسه؛ فإذا رأى أحدُهم ما يُعجبه ويروقه ولا سبيل له إليه قال: «موعدك الجنَّة، وإنَّما هي عشية أوضحاها». فوجودُ تلك [٤٩/ب] المشتهيات والملذوذات في هذه الدار رحمةٌ من الله، يشوّق[3] بها عباده المؤمنين إلى تلك[4] التي هي أكملُ منها، وزادٌ[5] لهم من هذه الدار إليها. فهي زاد، وعبرة، ودليل، وأثرٌ من آثار[6] رحمته التي أودعها تلك الدار. فالمؤمن يهتزُّ برؤيتها إلى ما أمامه، ويثير ساكنَ عزماته إلى تلك، فنفسه ذوَّاقة توّاقة، إذا ذاقت شيئًا منها تاقت إلى ما هو أكملُ منه حتَّى تتوقَ إلى النعيم المقيم في جوار الرب الكريم.

وأخرجَ سبحانه إلى هذه الدار أيضًا من آثار غضبه ونقمته من العقوبات والآلام والمحن والمكروهات من الأعيان والصفات ما يُستدَلُّ بجنسه على ما في دار الشقاء من ذلك، مع أنَّ ذلك من آثار النفَسين الشتائي والصيفي[7] اللذين أذِنَ الله سبحانه بحكمته لجهنَّم أن تتنفَّسَ

---

(١) لأبي إسحاق الصابىء في يتيمة الدهر(٢/ ٢٥٩).

(٢) من قول النبيّ ﷺ في غزوة الخندق. أخرجه البخاري في كتاب الجهاد (٢٩٦١).

(٣) «ب،ك،ط»: «يسوق».

(٤) «ب،ك،ط»: «تلك الدار».

(٥) في الأصل: «زادًا»، ولعله سهو، وكذا في «ف،ن». والمثبت من «ب،ك،ط».

(٦) «من آثار» ساقط من القطرية.

(٧) «ك،ط»: «الشتاء والصيف». «ب»: «في الشتاء...».

بهما، فاقتضت [بذينك] النفسين[1] آثارًا ظهرت في هذه الدار كانت دليلاً وعبرة عليها[2]. وقد أشار تعالى إلى هذاالمعنى، ونبَّه[3] عليه بقوله في نار الدنيا: ﴿ نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً وَمَتَاعًا لِّلْمُقْوِينَ ﴿٧٣﴾ ﴾[الواقعة/ ٧٣] تذكرةً تُذكر بنار الآخرة[4]، ومنفعةً للنازلين بالقَواءِ، وهم المسافرون. يُقال: أقوى الرجلُ، إذا نزل بالقِيِّ والقَوَاءِ، وهي الأرض الخالية. وخص المقوين بالذكر[5]، وإن كانت منفعتُها عامَّةً للمسافرين والمقيمين، تنبيهًا لعباده ـ والله أعلم بمراده من كلامه ـ على أنَّهم كلهم مسافرون، وأنَّهم في هذه الدار على جناح سفر ليسوا[6] مقيمين ولا مستوطنين، وأنَّهم عابرو سبيل وأبناء سفر.

والمقصود: أنَّهُ سبحانه أشهدَهم[7] في هذه[8] ما أعدَّ لأوليائه وأعدائه في دار القرار، وأخرج إلى هذه الدار من آثار رحمته وعقوبته ما هو عبرة ودلالة على ما هناك من خيرٍ وشرٍّ. وجعل هذه العقوبات والآلام والمحن والبلايا سياطًا[9] يسوقُ بها عبادَه المؤمنين، فإذا رأوها حذِروا

---

(١) في الأصل و«ف،ك»: «فاقتضت تلك النفسين»، وفي «ف» تحت «النفسين»: «النفس ظ»، وفي الحاشية: «النفسان صح». وفي«ن»: «فاقتضت بذلك النفسين». وفي «ب»: «فأفاضت بالنفسين». وفي «ط»: «فاقتضى ذانك النفسان».

(٢) «ط»: «دليلاً عليها وعبرة».

(٣) قراءة «ف»: «فنبه».

(٤) «ب،ك،ط»: «بها الآخرة».

(٥) «ف»: «بالدار». خلاف الأصل وهو تحريف.

(٦) «ط»: «ليسوا هم».

(٧) «هم» ساقط من«ط».

(٨) «ب»: «هذه الدار»، وزاد كلمة«الدار» في «ط» بين حاصرتين.

(٩) «ف»: «سببًا لها» تحريف.

كلَّ الحذَر، واستدلُّوا بما رأوه منها وشاهدوه على مافي تلك الدار من المكروهات والعقوبات. وكان وجودُها في هذه الدار وإشهادُهم إياها، وامتحانُهم باليسير منها رحمةً منه بهم، وإحسانًا إليهم، وتذكرةً وتنبيهًا.

ولمَّا كانت هذه الدار ممزوجًا خيرُها بشرها، وأذاها براحتها، ونعيمُها بعذابها اقتضت حكمةُ أحكم الحاكمين أن خلَّص خيرَها من شرِّها، وخصَّه بدار أخرى هي دار الخيرات المحضة ودار الشرور[١] المحضة. فكتب على هذه الدار حُكمَ الامتزاج والاختلاط، وخلَطَ فيها بين[٢] الفريقين، وابتلَى بعضهم ببعض، وجعَل بعضَهم لبعض فتنة؛ حكمةٌ بالغةٌ بهرت العقول وعزَّةٌ قاهرة. فقام بهذا الاختلاط سوقُ العبودية كما يحبه ويرضاه، ولم تكن تقوم[٣] عبوديته التي يحبها ويرضاها إلا على هذا الوجه، بل العبد الواحد جمَع فيه بين أسباب الخير والشر، وسلَّط بعضَه على بعض ليستخرج منه مايحبه من العبودية التي لا تحصل إلا بذلك.

فلمَّا حصلت الحكمة المطلوبة من هذا الامتزاج والاختلاط أعقبَه بالتمييز والتخليص، فميز بينهما بدارين ومحلين، وجعل لكلِّ دارٍ ما يناسبها، وأسكن فيها من يناسبها وخلَق المؤمنين المتقين المخلصين لرحمته، وأعداءَه الكافرين لنقمته، والمخلِّطين للأمرين معًا[٤]: فهؤلاء أهل الرحمة، وهؤلاء أهل النقمة، وهؤلاء أهل الرحمة

(١) «ك، ط»: «السرور»، تصحيف.
(٢) «ف»: «من»، تحريف.
(٣) «ب»: «ولم يمكن قيام».
(٤) «معًا» ساقط من «ك، ب».

والنقمة[1]، وقسمٌ آخر لا يستحقون ثوابًا ولا عقابًا. ورتَّب على كلِّ قسم من هذه الأقسام[2] حُكمَه اللائقَ به، وأظهر[3] فيه حكمتَه الباهرة[4]، ليعلمَ العبادُ كمالَ قدرته وحكمته، وأنَّه يخلق مايشاءُ، ويختار من خلقه من يصلح للاختيار، وأنَّه يضع ثوابه موضعه، وعقابه موضعه، [٥٠/أ] ويجمع بينهما في المحلِّ المقتضي لذلك، ولا يظلم[5] أحدًا، ولا يبخسه شيئًا من حقِّه، ولا يعاقبه بغير جنايته.

هذا مع ما في ضمن هذا الابتلاء والامتحان من الحِكَم الراجعة إلى العبيد أنفسهم: من استخراجِ صبرهم وشكرهم وتوكلهم وجهادهم، واستخراج[6] كمالاتهم[7] الكامنة في نفوسهم[8] من القوَّة إلى الفعل، ودفع الأسباب بعضها ببعض، وكسرِ كلِّ شيء بمقابله[9] ومصادمته بضده، ليظهر عليه آثارُ القهر وسماتُ الضعف والعجز، ويستيقنَ[10] العبد أنَّ القهَّار لا يكون إلا واحدًا، وأنَّه يستحيل أن يكون له شريك؛ بل القهر والوحدة متلازمان.

---

(١) «ك، ط»: «النقمة والرحمة». وقد غير بعضم «النقمة» في «ك»: «النعمة»!

(٢) زاد في «ط»: «الخمسة»، مع أنَّ الأقسام المذكورة أربعة فحسب!

(٣) «ب»: «فأظهر».

(٤) «ف»: «القاهرة»، تحريف. وفي«ب»: «البالغة».

(٥) «ف»: «فلا يظلم».

(٦) هذه نهاية نسخة «ن» الناقصة.

(٧) «ف»: «حالاتهم»، تحريف.

(٨) «ط»: «نفسهم».

(٩) «ب»: «بمقاتلته». تصحيف.

(١٠) «ب، ك، ط»: «ويتيقن».

فالملك والقدرة والقوَّة والعزَّة كلها لله الواحد القهَّار، ومن سواه مربوب مقهور، له ضد ومناوٍ[1] ومشارك. فخلقَ الرياحَ، وسلَّطَ بعضها على بعض تُصادمها، وتكسِر سَورتَها، وتذهب بها. وخلقَ الماء، وسلَّطَ عليه الرياحَ تصرّفه وتكسره. وخلق النَّار، وسلَّطَ عليها الماءَ يكسرها ويطفئها. وخلقَ الحديد، وسلَّط عليه النار تذيبه وتكسر قوته. وخلق الحجارة، وسلَّط عليه الحديد يكسرها ويفتِّتها. وخلق آدم وذريته، وسلَّطَ عليهم إبليس وذريته. وخلَق إبليس وذريته، وسلَّطَ عليهم[2] الملائكة يشرّدونهم كلَّ مشرَّد ويطرّدونهم كلَّ مطرَّد. وخلق الحرَّ والبرد والشتاء والصيف، وسلَّطَ كلاًّ منها على الآخر يُذهِبه ويقهَره. وخلقَ الليل والنهار، وقهرَ كلاًّ منهما بالآخر. وكذلك الحيوان على اختلاف ضروبه من حيوان البر والبحر، لكلٍّ منه مضاد ومغالب.

فاستبان للعقول والفطَر أنَّ القاهر الغالب لذلك كلِّه واحدٌ، وأنَّه[3] من تمام ملكه إيجادُ العالم على هذا الوجه، وربطُ بعضه ببعض[4]، وإحواجُ بعضه إلى بعض، وقهرُ بعضه ببعض، وابتلاءُ بعضه ببعض[5]، وامتحانُ[6] خيره بشرّه وجعلُ شرِّه لخيره الفداءَ. ولهذا يُدفع إلى كلِّ مؤمن يوم القيامة كافرٌ فيقال له: «هذا فداؤكَ من النار»[7]. وهكذا

---

(١) كذا ورد في الأصل بحذف الهمزة، وهو جائز. وفي«ب،ك،ط»: «مناف».

(٢) «ب»: «وسلَّط على إبليس وذريته».

(٣) «ب،ط»: «وأنّ».

(٤) «ب،ط»: «على بعض».

(٥) «وإحواج. . .» إلى هنا ساقط من«ب».

(٦) «ط»: «وامتزاج»، تحريف.

(٧) أخرجه ابن ماجه(٤٢٩٢) عن أنس بن مالك رضي اللّه عنه بإسناد ضعيف. وله =

المؤمن[1] في الدنيا يسلَّط عليه من الابتلاء والامتحان والمصائب مايكون فداءَه من عذاب الله، وقد تكون تلك الأسباب فداءً له من شرورٍ أكبر[2] منها في العالم أيضًا. فَلْيُعطِ اللبيبُ هذا الموضع حقَّه من التدبر يتبين له حكمةُ اللطيف الخبير.

فصل

وقد تقرَّر أنَّ الله سبحانه كامل الصفات، له الأسماء الحسنى، ولا يكون عن الكامل في ذاته وصفاته إلا الفعل المحكم. وهو سبحانه خلقَ عبادَه على الفطرة، وكلُّ مولود فإنَّما يولد على الفطرة التي فُطِرَ الخلائق عليها، ولكنَّ الآباء والكافلين للمولودين يخرجونهم عن الفطرة[3]، ويَعدِلون بهم عنها، ولو تركوهم لما اختاروا عليها غيرَها، ولكن أخرجوهم عن سَنَنِ الحنيفية وأفسدوا فِطَرهم وقلوبهم. وهكذا بالأضداد والأغيار يخرُج بعض المخلوقات عن سَنَن الإتقان والحكمة، ولولا تلك الأضداد والأغيار لكانت في مرتبتها كالمولود في فطرته، ولذلك أمثلة:

المثال الأوَّل: أنَّ الماءَ خلقه الله في الأصل[4] طاهرًا مطهِّرًا، فلو تُرِكَ على حالته التي خُلِقَ عليها ولم يخالطه مايزيلُ طهارته لم يكن إلا

= شاهد في صحيح مسلم (٢٧٦٧) من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه. وانظر المسند(١٩٤٨٥)، تعليق المحقق (٣٢/ ٢٣٠).

(١) «ف»: «يكون المؤمن»، خلاف الأصل.

(٢) «ب،ك،ط»: «أكثر».

(٣) «التي فطر...» إلى هنا ساقط من«ب،ط» لانتقال النظر.

(٤) «في الأصل» ساقط من«ك،ط».

طاهرًا، ولكن بمخالطته[1] أضدادَه من الأنجاس والأقذار تغيرت أوصافه، وخرج عن الخلقة [٥٠/ب] التي خلق عليها. فكانت تلك النجاسات والقاذورات بمنزلة[2] أبوي الطفل وكافليه الذين يهودونه وينصرونه ويمجسونه ويشرِّكونه[3]. وكما أنَّ الماءَ إذا فسدَ بمخالطته[4] الأنجاس والقاذورات لم يصلح للطهارة، فكذلك القلوب إذا فسدت فِطَرُها بالأغيار لم تصلح لحظيرة القدس.

المثال الثاني: الشرابُ المعتصَرُ من العنب، فإنَّه طيِّب يصلح للدواءِ ولإصلاح الغذاءِ وللمنافع[5] التي يصلح لها. ولو[6] خُلِّيَ على حاله لم يكن إلا طاهرًا طيِّبًا، ولكن أفسد بتهيئته للسكر واتخاذه مسكرًا، فخرج بذلك عن خلقته التي خُلِقَ عليها من الطهارة والطيب، فصارَ أخبثَ شيءٍ وأنجسه. فلو انقلبَ خلًّا، أو زالَ تغيُّر الماءِ، كان بمنزلة رجوع الكافر إلى فطرته الأولى، فإنَّ الحكمَ إذا ثبتَ لعلَّةٍ زال بزوالها[7].

المثال الثالث: الأغذية الطيِّبة النافعة إذا خالطت باطنَ الحيوانِ واستقرَّت هناك خرجت عن حالتها التي خُلِقَتْ عليها، واكتسبَتْ بهذه المخالطة والمجاورةِ خبثًا وفسادًا لم يكن فيها، لسلوكها في غير

(١) «ب،ك،ط»: «بمخالطة».
(٢) «ب،ك،ط»: «بمعنى».
(٣) الأفعال الأربعة في «ب» بالتثنية: «يهودانه...» لضبط «كافلَيه» فيها بالتثنية!
(٤) «ك»: «بمخالطة».
(٥) «ك،ط»: «والمنافع».
(٦) «ب،ك،ط»: «فلو».
(٧) في«ك،ط» زيادة «والله أعلم».

طرقها[1] التي بها كمالها.

ولمَّا أنزلَ اللهُ سبحانه الماءَ طاهرًا نافعًا، فمازج الأرضَ، وسالت به أوديتها، أوجدَ ـ جل جلالُه ـ بينهما بسبب هذه[2] المخالطة والممازجة أنواعَ الثمارِ والفواكه[3] والزروع والنخيل والزيتون وسائر الأغذية والأقوات، وأوجدَ[4] مع ذلك المُرَّ والشوكَ والحنظلَ وغيرَ ذلك. واللقاح واحد، ولكن الأم مختلفة. قال تعالى: ﴿وَفِي ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي ٱلْأُكُلِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الرعد/ ٤].

ثمَّ إنَّه سبحانه يُصرِّف ما أخرجه من هذا الماءِ، ويُقلِّبه، ويحيل بعضَه إلى بعض، وينقل بعضه بالمخالطة والمجاورة عن طبيعته إلى طبيعة أخرى. وهذا كما خلق كلَّ دابَّةٍ من ماءٍ، ثمَّ خالفَ بين صورها وقواها ومنافعها وأوصافها وماتصلح له[5]، وأمشى بعضها[6] على بطنه، وبعضها على رجلين، وبعضها على أربع؛ حكمة بالغة، وقدرة باهرة.

وكذلك سبحانه يقلِّب الليل والنهار، ويقلِّب ما يوجد فيهما، ويقلِّب أحوال العالم كما يشاء، ويسلك بذلك كلِّه[7] مسلك الحكمة البالغة التي

---

(١) «ف»: «طريقها»، خلاف الأصل.
(٢) «هذه» ساقط من «ب».
(٣) «والفواكه» ساقط من «ب».
(٤) «ف»: «وإن وُجدَ» خلاف الأصل.
(٥) «ك، ط»: «ومايصلح لها».
(٦) «ك، ط»: «بعضًا» في هذه الجملة وما يليها.
(٧) «كله» ساقط من «ك، ب، ط».

بها يتم مراده، ويظهر ملكه: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾﴾ [الأعراف/ ٥٤].

وهذا القرآن المجيد عمدتُه ومقصودُه الإخبارُ عن صفات الربّ جلّ جلاله وأسمائه وأفعاله وأنواعِ حمده والثناءِ عليه، والإنباءُ عن عظمته وعلائه(١) وحكمته وإبداع(٢) صَنعه، والتقدّمُ إلى عباده بأمره ونهيه على ألسنة رسله، وتصديقهم(٣) بما أقامه من الشواهد والدلالات(٤) على صدقهم وبراهين ذلك ودلائله، وتبيينُ مراده من ذلك كلّه. وكان من تمام ذلك الإخبارُ عن الكافرين والمكذّبين، وذكرُ ما أجابوا به رسلهم وقابلوا به رسلات ربهم، ووصفُ كفرهم وعنادهم وكيف كذَبوا على الله، وكذّبوا رسلَه، وردّوا أمره ونصائحه(٥). وكان(٦) في اجتلاب(٧) ذلك من العلوم والمعارف والبيان وضوحُ شواهد الحقّ، وقيامُ أدلّته، وتنوّعُها.

وكان موقع هذا من خلقه موقعَ تسبيحه تعالى وتنزيهه من الثناءِ عليه، فإن(٨) أسماءَه تعالى الحسنى وصفاته العلى(٩) هي موضع الحمد، ومن

---

(١) «ب،ك،ط»: «عزّته».
(٢) «ب،ك،ط»: «أنواع».
(٣) «ك،ط»: «تصديقه يفهم»، تحريف.
(٤) «ب»: «الآيات».
(٥) «ب،ك،ط»: «ومصالحه»، تحريف.
(٦) «ك،ط»: «فكان».
(٧) «ف»: «اختلاف»، تصحيف.
(٨) «ب،ك،ط»: «وإنّ».
(٩) «ط»: «العليا».

تمام حمده تسبيحُه وتنزيهُه عمّا وصفه به أعداؤه والجاهلون به مما لا يليق به. وكان في تنوّع تنزيهه عن ذلك من العلوم [٥١/أ] والمعارف وتقرير صفات الكمال وتكميل أنواع الحمد ما[١] في بيان محاسن الشيء وكماله عند معرفة ما يضادّه ويخالفه. ولهذا كان تسبيحُه تعالى من تمام حمده، وحمدُه من تمام تسبيحه؛ ولهذا كان التسبيح والتحميد قرينين[٢]. فكان[٣] ما نسبه إليه أعداؤه والمعطّلون[٤] لصفات كماله ـ من علّوه على خلقه وإنزاله كلامه الذي تكلّم به على رسله وغير ذلك من صفات كلامه ـ موجبًا لتنزيه رسله له وتسبيحهم عن ذلك[٥] مما نزّه عنه نفسَه وسبّح به نفسَه. وكان في ذلك ظهورُ حمده لخلقه[٦]، وتنوّعُ أسبابه، وكثرةُ شواهده، وسعةُ طرق الثناءِ عليه به، وتقريرُ عظمته ومعرفته في قلوب عباده. فلولا معرفةُ الأسباب التي يسبّح وينزّه ويتعالى عنها، وخَلْقُ مَن يضيفها إليه ويصفه بها، لما قامت حقيقة التسبيح، ولا ظهر لقلوب أهل الإيمان عن أيّ شيء يسبّحونه وعمّا ذا ينزّهونه. فلما رأوا في خلقه مَن قد نسبه إلى ما لا يليق به، وجحد من كماله ما هو أولى به، سبّحوه حينئذ تسبيحَ مُجِلٍّ له، مُعظِّمٍ له، منزِّهٍ له[٧] عن أمرٍ قد

---

(١) «ف»: «وما»، وكذا في الأصل، ولكن لعل الواو مضروب عليها، ولم يظهر خط الضرب لانتشار الحبر.

(٢) «ط»: «قربتين»، تصحيف.

(٣) «ب،ك،ط»: «وكان».

(٤) «ب»: «إليه المعطلون».

(٥) «من صفات..» إلى هنا ساقط من«ب،ك،ط». وقد استدرك في حاشية «ك» بخط مختلف.

(٦) «ب،ط»: «بخلقه»

(٧) «له» ساقط من«ط»، ومستدرك في القطرية.

نسبه إليه أَعداؤه والمعطّلون لصفاته.

ونظير هذا اشتمال[(١)] كلمة الإسلام ـ وهي شهادة أن لا إله إلاّ الله ـ على النفي والإثبات. فكان في الإتيان بالنفي في صدر هذه الكلمة من تقرير الإثبات، وتحقيق معنى الإلهية، وتجريد التوحيد الذي يُقصد بنفي الإلهيّة عن كلّ من[(٢)] ادعيت فيه سوى الإله الحقّ تبارك وتعالى. فتجريدُ هذا التوحيد من العقد واللسان بتصوّر إثبات الإلهيّة لغير الله ـ كما قاله أعداؤه المشركون ـ ونفيُه وإبطالُه من القلب واللسان من تمام التوحيد وكماله، وتقريره[(٣)]، وظهور أعلامه، ووضوح شواهده، وصدق براهينه.

ونظير ذلك أيضًا أنّ تكذيَب أعداءِ الرسل لهم[(٤)] وردَّهم ما جاؤوهم به كان من الأسباب الموجِبة ظهورَ براهينِ صدقِ الرسل، ودفعَ ما احتجّ به أعداؤهم عليهم من الشبه[(٥)] الداحضة، ودحضَ حججهم الباطلة، وتقريرَ طرق الرسالة، وإيضاحَ أدلتها. فإنّ الباطل كلّما ظهر فساده وبطلانه أسفر وجهُ الحقّ، واستنارت معالمه، ووضحت سبله، وتقررت براهينه. فكسرُ الباطل ودحضُ حججه وإقامةُ الدليل على بطلانه من أدلّة الحق وبراهينه.

فتأمّلْ كيف اقتضى الحقُ وجودَ الباطل، وكيف تمّ ظهورُ الحق

(١) «ف»: «استكمال»، تحريف.
(٢) «ك، ط»: «ما».
(٣) «ب»: «كمال تقريره».
(٤) «لهم» ساقط من«ك، ط».
(٥) «ب، ك»: «الشبهة».

بوجود الباطل، وكيف كان كفرُ أعداءِ الرسل بهم[1] وتكذيبُهم لهم ودفعهُم ماجاؤوا به هو[2] من تمام صدق الرسل، وثبوت رسالات الله، وقيام حججه على العباد.

ولنضربْ لذلك مثالاً يتبيّن به، وهو: ملِكٌ له عبدٌ قد توحّد في العالم بالشجاعة والبسالة، والناس بين مصدِّق ومكذِّب. فمِن قائلٍ: هو كذلك، ومِن قائلٍ: هو بخلاف ما يظَنّ به، فإنّه لم يقابل الشجعان، ولا واجه الأقران. ولو نازل[3] الأقران، وقابل الشجعان، لظهر أمرُه، وانكشف حالُه. فسمع به شجعانُ العالم وأبطالُهم، فقصدوه من كلّ أوب، وأمّوه[4] من كلّ قطر، فأراد الملك أن يُظهر لرعّيته ما هو عليه من الشجاعة، فمكّن تلك[5] الشجعان والأبطال[6] من منازلته ومقاومته، وقال: دونكم وإيّاه، وشأنكم به. فهل تسليطُ الملِك لأولئك على عبده ومملوكه إلاّ لإعلاءِ شأنه، وإظهار شجاعته في العالم، وتخويف أعدائه به، [٥١/ب] وقضاءِ الملك أوطاره به؟

وكما[7] يترتّب على هذا[8] إظهارُ شجاعة عبده وقوّته، وحصولُ مقصوده بذلك؛ فكذلك يترتَّب عليه ظهورُ كذبِ من ادعَّى مقاومته،

(١) «ف»: «منهم»، خطأ.
(٢) «ك،ط»: «وهو»، خطأ.
(٣) «ب،ك،ط»: «بارز».
(٤) أي قصدوه. وفي «ب،ك،ط»: «أتوه».
(٥) «ط»: «أولئك». «ب»: «الشجاعة بين تلك».
(٦) «والأبطال» ساقط من«ك،ط».
(٧) «ب»: «فكما». «ط»: «كما».
(٨) «هذا»: ساقط من «ط» ومستدرك في القطرية.

وظهورُ عجزهم، وفضيحتهم وخزيهم، وأنهم ليسوا ممن يصلح لمهمّات الملِك وحوائجه. فإذا عدَل بهم عن مهّماته وولاياته[(١)] وعدَل بها عنهم كان ذلك مقتضى حكمة الملك وحسن تصرّفه في ملكه، وأنّه لو استعملهم في تلك المهمّات لتشوّش أمرُ المملكة، وحصل الخلل والفساد. فالله أعلم حيث يجعل رسالاته[(٢)]، وهو أعلم بالشاكرين[(٣)].

والمقصود أنّ خلقَ الأسبابِ المضادّةِ للحقّ وإظهارها في مقابلة الحق من أبيَن دلالاتِه وشواهدِه، فكان في خلقها من الحكمة ما لو فاتت لفاتت بها[(٤)] تلك الحكمةُ، وهي أحبُّ إلى الله تعالى من تفويتها بتقدير تفويت هذه الأسباب. والله أعلم.

فصل

وللنَّاس في دخولِ الشرِّ في القضاءِ الإلهي طُرُقٌ، فنذكرها ونذكر أصولَهم التي تفرَّعت عليها هذه الطرق قبل ذلك. فنقول:

الناسُ قائلان[(٥)]: أحدهما قولَ أهل الإسلام وأتباع المرسلين كلِّهم إنَّ الله سبحانه فعَّالٌ لما يريد، يفعل باختياره وقدرته ومشيئته، فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن. وهو الذي يعبِّر عنه متأخرو المتكلمين بكونه «فاعلاً بالاختيار».

---

(١) «ط»: «ولايته».

(٢) «ك»: «والله أعلم.. رسالته». والعبارة ساقطة من «ط».

(٣) «ط»: «والله أعلم بالشاكرين».

(٤) وضع «لفاتت» في «ط» بين حاصرتين. وقد سقط «بها» منها ومن«ك».

(٥) كذا في الأصل وغيره. وفي«ط»: «للناس قولان».

والفريق[1] الثاني قولَ من نفى ذلك وقال: صدورُ العالَمِ[2] عنه تعالى صدورًا ذاتيًّا كصدور النور عن الشمس، والحرارة عن النَّار، والتبريد عن الماءِ، ويسمي المتكلمون هذا «الإيجاب الذاتي»، ومصدَره «موجِبًا بالذات[3]»، وهذا قول الفلاسفة المشَّائين. وهو الذي يذكره ابن الخطيب[4] وغيره عن الفلاسفة، ولا يحكي عنهم غيرَه، وإنَّما هو قول المشَّائين. وقرَّبه متأخرُهم وفاضلُهم ابن سينا إلى الإسلام بعضَ التقريب، مع مباينته لما جاءَت به الرسل ولِمَا دلَّ عليه صريح العقل والفطرة.

والفريقان متفقون على أنَّ مصدر[5] الكائنات بأَسْرها خيرٌ محضٌ من جميع الوجوه وكمالٌ صِرْف. ووجود الشرِّ في العالم مشهود، والخير لا يصدر عنه إلا خير، فلا جَرَمَ اختلفت طرقُهم في كيفية دخول الشر في القضاء الإلهي، وتنوعت إلى **أربعة طرق**[6].

الطريق الأولى[7]: طريق نفاة التعليل والحكمة والأسباب، فإنَّهم سدُّوا على أنفسهم هذا الباب، وأثبتوا مشيئةً محضةً لا غاية لها ولا سبب ولا حكمة يفعل[8] لأجلها، ولا يتوقف فعلُ المختار بها على مصلحة

---

(١) «ك، ط»: «وللفريق».
(٢) «ك»: «صدور العلم». «ط»: «صدر العلم»، تحريف.
(٣) «ك، ط»: «موجبات الذات»، تحريف.
(٤) يعني الفخر الرَّازي صاحب التفسير الكبير، المتوفى سنة ٦٠٦هـ.
(٥) «ف»: «ضبط»، تحريف.
(٦) «ب»: «أربع طرق».
(٧) «ط»: «الأوَّل».
(٨) «ط»: «تفعل».

ولا حكمة، ولا غاية لها يُفعل[١]، بل كلُّ مقدورٍ يحسن منه فعلُه، ولا حقيقة عندهم للقبيح إلا[٢] المستحيل لذاته الذي لا يوصف بالقدرة عليه. وهؤلاءِ نفوا مسمَّى الرحمة والحكمة، وإن أقرُّوا بلفظ لا حقيقة له. وكان شيخهم الجهم بن صفوان يقف بأصحابه على المجذَّمين[٣]، وهم يتقلَّبون في بلائهم، فيقول لهم[٤]: أرحمُ الرَّاحمين يفعل مثل هذا! يعني أنَّه ليس في الحقيقة رحمة، وإنَّما هو محضُ مشيئة وصِرْفُ إرادة مجرَّدةٍ عن الحكمة والرحمة.

وهؤلاء قابلوا أصحاب **الطريق الثاني**، وهم الذين أثبتوا له حكمة وغايةً، وقالوا: لا يفعل شيئًا إلا لحكمة وغاية مطلوبة[٥]، ولكن حجروا عليه سبحانه في ذلك، وشرعوا له شريعةً وضعوها بعقولهم، وظنُّوا أنَّ ما يحسن من خلقه تعالى يحسن منه، وما يقبح منهم يقبح منه، فجعلوا ما أثبتوه له من الحكمة والرحمة من جنس ما هو للخلق. ولهذا كانوا «مشبِّهة الأفعال»، كما أنَّ من شبَّهه بخلقه في صفاته فهو «مشبِّه الصفات»، فاقتسموا التشبيه[٦] نصفين: هؤلاء في أفعاله، وإخوانهم في صفاته.

وقالوا: إنَّه تعالى لو خصَّ بعض عبيده عن بعض بإعطائه توفيقًا

---

(١) «ط»: «تفعل».

(٢) «ط»: «لولا»، خطأ.

(٣) «ب، ط»: «المجذومين».

(٤) «لهم» ساقط من «ك، ط».

(٥) «ب»: «الغاية وحكمة مطلوبة».

(٦) في «ف» مكان «التشبيه»: «إلى مشبهة»، تحريف.

وقدرةً وإرادةً، ولم يعطها الآخرَ، لكان ظلمًا للذي منعه.

[٥٢/أ] وقالوا: لو شاءَ من عباده أفعال المعاصي لكان سفهًا[(١)] ينزَّه عنه، كما في الشاهد[(٢)]؛ ولو شاءَ منهم الكفر والفسوق والعصيان ثمَّ عذَّبهم عليه لكان ظلمًا، كما[(٣)] في الشاهد أيضًا. فإنَّ السيد إذا أراد من عبده شيئًا، ففعل العبد ما أراد سيده، فإنَّه إذا عذَّبه عدَّه الناس ظالمًا له.

وجعلوا العدل في حقِّه من جنس العدل في حقِّ عباده، والظلم الذي تنزَّه[(٤)] عنه كالظلم الذي يتنزهون[(٥)] عنه. وجعلوا ما يحسن منه من جنس ما يحسن منهم، وما يقبح منه من جنس ما يقبح منهم. وقالوا: لوأرادَ الشرَّ لكان شرِّيرًا كما في الشاهد، فإنَّ مريدَ الشرِّ شرِّير[(٦)].

وقالوا: لو ختم على قلوب أعدائه وأسماعهم، وحال بينهم وبين قلوبهم، وأضلهم عن الإيمان، وجعل على أبصارهم غشاوةً، وجعل من بين أيديهم سدًّا ومن خلفهم سدًّا، ثمَّ عذَّبهم، لكان ذلك ظالمًا لهم؛ لأنَّ أحدنا لو فعل ذلك بعبده، ثمَّ عذَّبه، لكان ظالمًا له.

فهؤلاءِ هم[(٧)] المشبِّهة حقًّا في الأفعال، فعدلُهم تشبيه، وتوحيدُهم تعطيل، فجمعوا بين التشبيه والتعطيل.

---

(١) «سفهًا» ساقط من«ط»، ومستدرك في حاشية «ك» بخط مختلف.
(٢) تحرفت هذه الكلمة في «ط» هنا وفي المواضع الآتية كلها إلى «المشاهد».
(٣) سقط «كما» من«ك، ط».
(٤) «ب، ك»: «ينزه».
(٥) «ك»: «ينزهون».
(٦) في الأصل: «شريرًا»، سهو.
(٧) «هم» ساقط من «ب، ك، ط».

وهؤلاء قسموا الشرَّ الواقعَ في العالم إلى قسمين:

أحدهما: شرورٌ هي أفعال العباد وما تولّد منها، فهذه لا تدخل عندهم في القضاءِ الإلهي تنزيهًا للرب تعالى عن نسبتها إليه، ولا تدخل عندهم تحت قدرته ولا مشيئته[1] ولا تكوينه.

والثاني: الشرور التي لا تتعلق بأفعال العباد، كالسموم والأمراض وأنواع الآلام، وكإبليس وجنوده، وغير ذلك من شرور المخلوقات، كإيلام الأطفال وذبح الحيوان. فهذا النوع هو الذي كدَّر على القدرية أصولَهم، وشوَّش عليهم قواعدهم، وقالوا: ذلك كلُّه حسنٌ لما فيه من اللطف والمصلحة العاجلة والآجلة.

قالوا: أمَّا الآلام والأمراض فمفعولة لغرض صحيح، وهو ما ضمن الربُّ سبحانه لمن أصابه بها من العوض الوافي. قالوا: وذلك يجري مجرى استئجار أجير في فعل شاقّ، فإنَّه بغرض[2] الاستئجار أخرَجَ الاستئجار عن كونه عبثًا، وبالأجرة أخرجه[3] عن كونه ظلمًا، فكان حسنًا.

قالوا: فإن قيل: إذا كان الله قادرًا على التفضل بالعوض وبأضعافه بدون توسط الألم، فأي حاجة إلى توسطه؟ وأيضًا فإذا حسُن الألمُ لأجل العوض، فهل يحسن منَّا أن نؤلم[4] أحدَنا بغير إذنه لِعوضٍ يصل إليه؟.

---

(١) «ف»: «قدرته ومشيئته»، خلاف الأصل.

(٢) «ط»: «بفرض». «ب»: «لغرض».

(٣) «أخرجه» ساقط من«ط».

(٤) «ك،ط»: «يؤلم»، تصحيف، وزاد في «ط» بعد «أحدنا» بين حاصرتين: «غيره».

فالجوابُ أنَّ الله سبحانه لا يُمرِض ولا يُؤلِم[١] إلا مَن يعلم من حاله أنَّه لو لوأطلعه على الأعواض التي تصل إليه لرضيَ بالألم، ولرغب فيه، لوفور الأعواض وعظمها، وليس كذلك في الشاهد استئجار الأجير من غير اختياره.

قالوا: وليس كذلك إيلام أحدنا لغيره لأجل التعويض، فإنَّ مَن قطَع يدَ غيرِه أورجلَه ليعوضه عنها لم يحسن ذلك منه؛ لأنَّ العوض يصل إليه وهو مقطوع اليد والرجل، وليس من العقلاء من يختارُ مُلكَ الدنيا مع ذلك؛ والله يوصل الأعواض في الآخرة إلى الأحياء، وهم أكملُ شيء خلقًا وأتمه أعضاءً، فلذلك افترق الشاهد والغائب في هذا.

قالوا: فإن فرضتموه في ضربٍ وجلدٍ مع سلامة الأعضاء قَبُح لأنَّه عبث[٢]، فإن فُرِضَ فيه مصلحة، ورضي المضروبُ بذلك، وعظمت الأعواض عنه، فهو حسن في العقل لا محالة. قالوا: وسرُّ الأمرِ أنَّ بالعوض يخرج الألم عن كونه ظلمًا لأنَّه نفع عظيم[٣] مُوفٍ[٤] على مضرَّة الألم؛ وباعتبار كونه لطفًا في الدين يخرج عن كونه عبثاً.

قالوا: وقد رأينا في الشاهد حسنَ الألم للنفع، فإنَّه يحسن في الشاهد إيلام أنفسنا وإتعابها في طلب العلوم والأرباح التي لا يُعبر[٥] إليها إلا على جسرٍ[٦] من التعب والمشقة.

---

(١) «ولا يؤلم» ساقط من«ب».

(٢) «ب،ك،ط»: «عيب»، تصحيف.

(٣) «عظيم» ساقطة من «ط».

(٤) «ب،ك،ط»: «موقوف».

(٥) «ب»: «نصير». «ك»: «يصل». «ط»: «نصل».

(٦) «ب»: «حُسْن». «ك،ط»: «جنس»، وكلاهما تحريف. وهي عبارة مألوفة في =

قالوا: وهذا الوجه هو الذي[1] حسُن لأجله إيلامُ الأطفال والبهائم فإنَّه إيلامٌ للنفع، فإنَّ أبدان الأطفال لا تستقيمُ إلا على الأسباب الجالبة للآلام، وكذلك نفوسهم إنَّما تكمل بذلك، وإيلامُ الحيوان لنفع الآدمي به غير قبيح.

قالوا: وأمَّا الألمُ المستحَق للعقوبة، فإنَّه حسنٌ في الشاهد ولكنَّه غير متحقق في الغائب بالنسبة إلى الأطفال والبهائم لعدم تكليفها، ولكن لا بدَّ في إيلامها من مصلحة ترجع إليها، وهي مايحصل لهم من العوض في الآخرة. قالوا: ويجب إعادتها لاستيفاءِ ذلك الحق الذي لها، وهو العوض على الآلام التي حصلت لها.

قالوا: وبقاؤها بعد الإعادة موقوف على مقدارٍ معلوم... لانقطاعه[2]، ونعيم الأطفال والمجانين دائم. واختلفوا في البهائم فقال

= كتب المؤلف، منها قوله في مفتاح دار السعادة (١/٣٦٣): «والسعادة لا يعبر إليها إلا على جسر المشقة»، وفيه أيضا (٢/٣٤٧) «والكمالات كلها لا تنال إلا بحظٍّ من المشقة، ولا يعبر إليها إلا على جسر من التعب». وأنشد فيه (٢/٣٠٧) قول بعضهم:

كذا المعالي إذا ما رُمْتَ تدركها ... فاعبُر إليها على جسرٍ من التعب

والأصل قول أبي تمام في بائيته:

بصرتَ بالراحة الكبرى فلم ترها ... تُنال إلا على جسرٍ من التعب

(١) «الذي» سقط من «ط» فاستدرك في القطرية.

(٢) كتب ناسخ «ف» فوق كلمة «معلوم»: «ينظر»، وترك بياضًا بقدر نصف سطر أويزيد. والعبارة من لحق طويل بدأ في حاشية الأصل اليمنى ثمَّ استمر إلى أعلى الصفحة ويسارها وأسفلها عائدًا إلى يمينها، ومكان البياض في السطر الأوَّل في أعلاها، وقد ذهب هذا السطر كله لتأكل الورقة، فاعتمدنا في إثبات العبارة «على مقدار...واختلفوا في» على «ف». وفي«ك»: «موقوف ونعيم =

بعضهم: يدوم عوضهم، وقال آخرون بانقطاعه وإنَّهم[1] يصيرون ترابًا. قالوا: فإن لم يكن للبهائم عوض يجب لأجله أن تعاد لم تجب إعادتها عقلاً، وتحسن إعادتها، وما يحسن قد يفعله الله وقد لا يفعله.

وهل تجوزُ الآلام للتعويض المجرَّد؟ فيه قولان لهم[2] مبنيان على أصل اختلفوا فيه، وهو أنَّه هل يحسن منه تعالى التفضل بمثل العوض ابتداءً؟ فصار بعضهم إلى امتناعه، كما يمتنع التفضل بمثل الثواب ابتداءً عندهم، وهم مجمعون على امتناعه لئلا يسوَّى بين العامل وغيره. وصارَ مَن ينتمي إلى التحصيل منهم إلى أنَّ التفضل بمقدار الأعواض ممكن غير ممتنع. فمن قال بامتناع التفضل بمقدار العوض جوَّز وقوعَ الآلام للتعويض المجرد. ومن جوَّز التفضل بأمثال الأعواض لم تحسُن عنده الآلام[3] لمجرَّد[4] التعويض، بل قالوا: إنَّما تحسن لوجهين لا بد من اقترانهما: أحدهما التزامُ التعويض، والثاني اعتبار غيرِ المؤلَم بتلك الآلام، وكونُها ألطافًا في زجرِ غاوٍ عن غوايته إذا شاهدها في غيره.

وذهب عبَّاد الصَّيْمَري[5] منهم إلى أنَّ الآلام تحسن

= الأطفال...» ولم يُترك بياض، ولكن في الحاشية: «كذا سقط من الأصل نصف سطر قطعه المجلد»، ثمَّ استدرك بعضهم الكلمات التي لم ترد في غير «ف» وهي «على مقدار معلوم... لانقطاعه». وفي «ب، ط» بياض بقدر كلمتين بين «موقوف» و«نعيم».

(١) «ب، ك، ط»: «فإنَّهم».
(٢) «لهم» ساقط من«ب».
(٣) العبارة «للتعويض المجرد..» إلى هناسقطت من«ط»، واستدركت في القطرية.
(٤) «ب، ك، ط»: «بمجرد».
(٥) أبو سهل عبَّاد بن سلمان، من كبار المعتزلة، كان في أيام المأمون، وكان =

لمجرد[1] الاعتبار من غير تعويض لمن أصابته، وردَّ عليه جماهيرُ القدَرية ذلك. قالوا: والآلام التي يفعلها سبحانه إمَّا أن تكون مستحقة كعقوبات الدنيا وعذاب الآخرة، وإمَّا للتعويض، وإمَّا للمصلحة الرَّاجحة، قالوا: وما يفعله في الآخرة منها فكله للاستحقاق[2]، وما يفعله في الدنيا فللعوض والمصلحة، وقد يفعله عقوبة، وأمَّا ما شرعه من أسباب الألم فعقوبات محضة.

وأمَّا مشايخ القوم فقالوا: إنَّما يحسن منه تبارك وتعالى الإيلام لأنَّه المنعم[3] بالصحة والحياة، ولأنَّه في حكم من أعار تلك المنفعة لمن لا يملكها، فله قطعُها إذا شاءَ، ولأنَّه قادرٌ على التعويض عالم بقدره، وليس كذلك الواحد منَّا[4]. قالوا: فإذا استرجع عاريَّة الصحة والحياة خلَفَها الألم[5]، ولا بد.

وأطالوا الكلام في الآلام وأسبابها، وما يحسن منها وما يقبح، وعلى أي وجه يقع؟ وحصروا أنفسهم غاية الحصر، فاستطالت عليهم الجبرية بالأسولة والمضايقات، وألجأوهم إلى مضايق «تضايَقُ عنها أن تَوَلَّجَها الإِبَرُ»[6]، وأضحكوا العقلاءَ منهم بإبداءِ تناقضهم، وألزموهم إلزاماتِ

= أبوعلي الجبائي يصفه بالحذق في الكلام ثم يقول: «لولا جنونه!». الفهرست (٢١٥)، لسان الميزان (٣/ ٢٢٩).

(١) ب،ك: «بمجرد».

(٢) «ب»: «وكل مايفعل.. فهو للاستحقاق».

(٣) «ب»: «الآلام لأنه منعم».

(٤) «ط»: «من الخلق».

(٥) «ب»: «الألم والموت».

(٦) عجز بيت لطرفة بن العبد، وصدره: =

لا بدَّ من التزامها أو ترك المذهب.

وسأل أبو الحسن الأشعري أبا علي الجُبائي عن ثلاثة إخوة لأب وأم مات أحدهم صغيرًا، وبلغ الآخر فاختار الإسلام، وبلغ الآخر فاختارَ الكفر، فاجتمعوا عند ربِّ العالمين، فرفع درجة البالغ المسلم، فقال أخوه الصغير: ياربِّ، ارفع درجتي حتى أبلغ منزلة أخي، فقال: إنَّك لا تستحق، إنَّ أخاكَ بلغ، فعمل أعمالاً استحق بها تلك الدرجة، فقال: ياربِّ، فهلاَّ أحييتني حتى أبلغ، فأعمل عمله؟ فقال: كانت المصلحة[1] تقتضي اخترامك قبل البلوغ، لأنِّي علمتُ أنَّك لو بلغتَ لاخترتَ الكفر، فكانت المصلحة في قبضك صغيرًا. قال: فصاح الثالث من أطباق النَّار[2] وقال: ياربِّ هلاَّ فعلتَ معي هذا الأصلح، وقبضتني صغيرًا، كما قبضت أخي صغيرًا؟[3] فما جوابُ هذا أيها الشيخ؟ فلم يُحِرْ[4] إليه جوابًا[5].

قالوا: وإذا علم الله سبحانه من بعض العبيد أنَّه لا يختار الإسلام وأنَّه لا يكون إلا كافرًا مفسدًا في الأرضِ، فأي مصلحةٍ لهذا العبدِ في إيجاده؟

= رأيتُ القوافي يَتَّلِجْنَ مَوالجًا.

انظر: البيان والتبين (١/ ١٥٨).

(١) «ك،ط»: «تلك المصلحة».

(٢) «ك،ط»: «بين أطباق النار». «ب»: «من بين أطباق النيران».

(٣) «ط»: «يارب لم لم تمتني صغيرًا؟» مكان «هلاَّ فعلت... أخي صغيرًا».

(٤) أحار الجوابَ: ردَّه. وفي«ط»: «فلم يرد».

(٥) أورد المؤلف هذه الحكاية في مفتاح دار السعادة (٢/ ٤٣٠)، وشفاء العليل (٣٣٢). وذكرها شيخ الإسلام في منهاج السنة (٣/ ١٩٨)، وقال إنَّها مشهورة. وانظر: سير أعلام النبلاء (١٥/ ٨٨).

قالوا: وأي مصلحة لإبليس وذريته الكفار[1] في إيجادهم؟ فإن قلتم: عرضهم للثواب، قيل لكم: كيف يعرضهم لأمر قد علم[2] أنَّهم لا يفعلونه وأنَّه[3] لا يقع منهم البتَّة؟

ومن هنا أنكرَ غُلاتُهم العلم القديم، وكفَّرهم السلف على ذلك، ومن أقرَّ به منهم فإقراره به يبطل مذهبَه[4] وأصلَه [٥٣/أ] في وجوب مراعاة الصلاح والأصلح. وهذا معنى قول السلف: ناظِروا القدَريَّةَ بالعلم، فإن جحدوه كفروا، وإن أقرُّوا به خُصِمُوا[5].

قالوا: وأمَّا حديث العوض على الآلام، فالرب تبارك وتعالى قادرٌ على إيصال تلك المنافع بدون توسط الآلام. قالوا: وهذا بخلاف المستأجر، فإنَّ له منفعةً وحاجةً في توسط تعب الأجيرِ واستيفاء منفعته. فأمَّا من يتعالى[6] عن الانتفاع بخلقه، ولا يحتاج إلى أحدٍ منهم البتة، فلا يعقل في حقِّه ذلك.

قالوا: وأمَّا وقوع الآلام على وجه العقوبات، فذلك إنَّما يحسن في الشاهد لحصول التشفي من الجناة[7] وإطفاء نار الغيظِ والغضب بالانتقام منهم، وذلك لحاجة المعاقب إلى العقاب وانتفاعه به؛ وقياس

---

(١) «الكفار» ساقط من «ب».

(٢) «ك، ط»: «يعلم».

(٣) «أنَّهُ» ساقط من «ط». وفي «ك»: «ولأنه»، خطأ.

(٤) «ك»: «مبطل مذهبه»، «ط»: «مبطل لمذهبه».

(٥) نسبه ابن أبي العزّ في شرح الطحاوية (٢٤٧) إلى الإمام الشافعي رحمه الله.

(٦) «ط»: «تعالىٰ».

(٧) «ف»: «في الحياة»، تحريف.

الغائب على الشاهد في ذلك ممتنع.

قالوا: وأمَّا الإيلام للاعتبار بأن يعتبر الغيرُ بالألم الواقع بغيره، فيكون ذلك أدعى له إلى الإذعان والانقياد؛ فلاريبَ أنَّ الصبي إذا شاهدَ المعلِّم يضرب غيره على لعبه وتفريطه كان ذلك مصلحةً واعتبارًا له، ولعلَّه أن ينتفع بضرب ذلك الغير أكثرَ من انتفاع المضروب، أو حيث لا ينتفع المضروب. ولكن إنَّما يحسن ذلك إذا كان المضروبُ مستحقًّا للضرب، فأين استحقاق الأطفال والبهائم؟

قالوا: وكذلك تمكينُه تعالى عبادَه أن يؤلم بعضُهم بعضًا ويضرَّ بعضهم[1] بعضًا ـ مع قدرته على منعِ المؤلِم المضِر ـ أيُّ مصلحة لمن مُكِّنَ من ذلك وأُقدر عليه؟ وهل كانتَ مصلحته إلا تعجيزه وأن يحالَ بينه وبين القدرة على الأذى وضرر العباد[2]؟

قالوا: فهذه الشريعةُ التي وضعتموها لربِّ العباد تعالى، وأوجبتم عليه ما أوجبتم، وحرَّمتم عليه ما حرَّمتم، وحجرتم[3] عليه في تصرفه في مُلكه بغير ما أصَّلتم وفرَّعتم بعقولكم وآرائكم، تشبيهًا له وتمثيلاً بخلقه فيما يحسن منهم ويقبح؛ مع أنَّها شريعةٌ باطلة ما أنزل الله بها من سلطان، فإنَّكم لم تطردوها، بل أنتم متناقضون فيها غاية التناقض، خارجون فيها عمَّا يُوجِبه كلُّ عقلٍ صحيح وفطرة سليمة. فلا للتشبيه والتمثيل طردتم، ولا بالتعويض قلتم، ولا على حقيقة الحكمة والحمدِ

(١) «ويضر بعضهم بعضًا» ساقط من «ب».

(٢) «ك، ط»: «الأداء وصون العباد» تحريف.

(٣) «ك، ط»: «جحدتم»، تصحيف.

وقفتم. بل أثبتم له تعالى نوعَ حكمةٍ لا تقوم به، ولا ترجع إليه، بل هي قائمةٌ بالخلق فقط؛ وقدحتم بها في تمام ملكه. كما أثبتَ له إخوانكم من الجبرية قدرةً مجرَّدةً عن حكمة وحمدٍ وغاية يفعل لأجلها، بل جعلوا حمده وحكمته اقتران أفعاله بما اقترنت به من المصالح عادةً، ووقوعَها مطابقةً لمشيئته وعلمه فقط، فقدحوا بذلك في[1] تمام حمده.

وقامَ حزبُ اللهِ وحزب رسوله وأنصار الحقِّ بـ«لاإلهَ إلا الله وحده لا شريك له، له الملك، وله الحمد، وهو على كلِّ شيءٍ قدير» حقَّ القيام، ورَعَوا[2] هذه الكلمة[3] حقَّ رعايتها علمًا ومعرفةً وبصيرةً، ولم يُلقُوا بالحرب بين حمده ومُلكه، بل أثبتوا له الملكَ التامَّ الذي لا يخرج عنه شيء من الموجودات أعيانِها وأفعالها، والحمدَ التامَّ الذي وسع كلَّ معلوم، وشمِلَ كلَّ مقدور.

وقالوا: إنَّ له تعالى في كلِّ ما خلقه وشرعه حكمةً بالغةً ونعمةً سابغةً لأجلها خلَقَ وأمرَ، ويستحقُّ أن يُثنى عليه ويُحمد لأجلها، كما يُثنى عليه ويحمد لأسمائه الحسنى ولصفاته العلى[4]. فهو المحمود على ذلك كله أتمَّ حمد وأكمله، لما اشتملت عليه صفاتُه من [٥٣/ب] الكمالِ، وأسماؤه من الحسن، وأفعالُه من الحِكَم والغايات المقتضية لحمده، المطابقة لحكمته، الموافقةِ لمحابِّه. فإنَّه سبحانه كامل الذات، كامل

(١) «في» سقط من«ط»، واستدرك في القطرية.

(٢) «ك، ط»: «راعوا».

(٣) «الكلمة حق» تحرفت في «ف» إلى «طريق».

(٤) «ط»: «العليا». «ب»: «وصفاته العلى».

الأسماء والصفات، لا يصدر عنه إلا كلُّ فعلٍ[1] كريمٍ مطابقٍ للحكمة، موجبٍ للحمد، مرتَّبٍ[2] عليه من محابِّه ما فعل لأجله.

وهذا أمرٌ ذهب عن طائفتي الجبرية والقدرية، وحال بينهم وبينه أصول فاسدة أصَّلوها، وقواعد باطلة أسَّسوها، من تعطيل بعض صفات كماله، كما عطَّل الفريقان حقيقة محبته، وقالوا: إنَّه[3] لا يحِبُّ ولا يُحَبُّ، بل حقيقة محبته[4] عند الجبرية: مشيئته وإرادته؛ ومحبةُ العباد له: إرادتهم لما يخلقه من النعيم في دار الثواب، فالمحبة عندهم إنَّما تعلقت بمخلوقاته لا بذاته. وحقيقة محبته وكراهته عند القدرية: أمره ونهيه؛ ومحبة العباد له: محبتهم لثوابه المنفصل.

وأصَّل الفريقان أنّه لا يقوم[5] بذاته حكمة ولا غاية يفعل لأجلها، ثم اختلفوا، فقالت الجبرية: لا يفعل لغاية ولا لحكمة أصلاً. وتكايست القدريّةُ بعضَ التكايُس فقالت: يفعل لغاية وحكمة لا ترجع[6] إليه، ولا تقوم به، ولا يعود إليه منها وصف.

وأصَّل الفريقان أيضًا أنَّه لا يقوم بذاته فعلٌ البتة، بل فعلُه عينُ[7] مفعوله. فعطَّلوا أفعاله القائمة به، وجعلوها نفس المخلوقات المشاهدة

---

(١) «كل» سقط من «ط»، واستدرك في القطرية.
(٢) «ب،ك،ط»: «يترتب».
(٣) «ك»: «إنَّ الله».
(٤) «وقالوا..» إلى هنا ساقط من«ط».
(٥) «ط»: «لا تقوم».
(٦) «ف»: «لا ترفع»، تحريف.
(٧) «ب»: «غير» تحريف.

التي لا تقوم به. فلم يقم به عندهم فعلٌ البتة.

كما عطَّل غلاةُ الجهمية صفاتِه فلم يثبتوا له صفةً تقوم به، وإن تناقضوا. وكما عطَّلت «السينائية» أتباعُ ابن سينا ذاتَه فلم يُثبتوا له ذاتًا زائدة على وجودٍ مجرَّدٍ لا يقارِنُ[(١)] ماهيةً ولا حقيقةً.

وأصَّلت الجبرية أنَّه تعالىٰ لا ينزّه عن فعل مقدور يكون قبيحًا بالنسبة إليه، بل كل مقدور فهو جائزٌ عليه؛ وإن عُلِمَ عدمُ فعله فبالسمع، وإلا فالعقل يقضي بجوازه عليه. فلا ينزه عن ممكن مقدور إلا ما دلَّ عليه السمعُ[(٢)]، فيكون تنزيهه عنه، لا لقبحه في نفسه، بل لأنَّ وقوعه يتضمن الخلفَ في خبره وخبر رسوله، ووقوع الأمر على خلاف علمه ومشيئته، فهذا[(٣)] حقيقة التنزيه عند القوم.

وأصّلت القدرية أنَّ ما يحسن من عباده يحسن منه، وما يقبح منهم يقبح منه؛ مع تناقضهم في ذلك غاية التناقض.

فاقتضت هذه[(٤)] الأصول الفاسدة والقواعد الباطلة فروعًا ولوازمَ كثيرةً[(٥)] منها مخالفٌ لصريح العقل ولسليم الفِطَر[(٦)]، كما هو مخالف لما أخبرت به الرسلُ عن الله؛ فجعل أرباب هذه القواعد والأصول قواعدهم وأصولهم محكمةً، وما جاءَ به الرسول متشابهًا!

---

(١) «ب»: «لا تقارن».

(٢) «ك، ط»: «بالسمع».

(٣) «ف»: «وهذا»، قراءة مرجوحة.

(٤) «ف»: «تلك».

(٥) «ط»: «كثيرة»، خطأ.

(٦) «ط»: «الفطرة».

ثمَّ أصَّلوا أصلاً في ردِّ هذا المتشابه إلى المحكم، وقالوا: الواجبُ فيما خالف هذه القواطع العقلية ـ بزعمهم ـ من الظواهر الشرعية أحدُ أمرين: إمَّا تخريجها[1] على ما يعلم العقلاءُ أنَّ المتكلم لم يُرِدْه بكلامه من المجازات البعيدة، والألغاز المعقَّدة، ووحشي اللغات[2]، والمعاني المهجورة التي لا يُعرَف أحد [٥٤/أ] من العربِ عبَّرَ عنها بهذه العبارة، ولا تحتملها لغة القوم البتة، وإنَّما هي محامل أَنشأوها هم، ثمَّ قالوا: نحمل[3] اللَّفظ عليها! فأنشأوا مَحاملَ من تلقاءِ أنفسهم وحكموا على الله ورسوله[4] بإرادتها بكلامه، فأنشأوا منكرًا وقالوا زورًا.

فإذا ضاقَ عليهم المجالُ، وغلبتهم النصوصُ، وبهرتهم شواهدُ الحقيقة من اطِّرادِها، وعدمِ فهمِ العقلاءِ سواها، ومجيئها على طريقة واحدة، وتنوع الألفاظ الدالَّة على الحقيقة، واحتفافِها بقرائن من السياق والتأكيد وغير ذلك، يقطع[5] كلُّ سامع بأنَّ المراد حقيقتُها ومادلَّتْ عليه = قالوا: الواجب ردُّها، وأن لا يُشتغَل[6] بها!

وإن أحسنوا العبارةَ والظن قالوا: الواجب تفويضها، وأن نكِلَ علمَها إلى الله من غير أن يحصل لنا بها هدىً أوعلم أو معرفة بالله وأسمائه

(١) «ك»: «نخرجها». «ط»: «يخرجها».
(٢) في «ب»: «واللغات»، وبعدها بياض بقدر كلمة.
(٣) «ب»: «يحمل».
(٤) «ط»: «أورسله»، وفي القطرية: «أورسوله».
(٥) «ط»: «مما يقطع».
(٦) «ب»: «نشتغل».

وصفاته، أو ننتفع(1) بها في باب واحد من أبواب الإيمان بالله وما يُوصَف به وما يُنزَّه عنه، بل نُجري ألفاظَها على ألسنتا، ولا نعتقد حقيقتها، لمخالفتها للقواطع العقلية!

فسمَّوا أصولهم الفاسدة وشُبَهَهم الباطلة التي هي كبيت العنكبوت، وكما قال فيها القائل(2):

شُبَـهٌ تَهَافَـتُ كالزجـاج تَخالُها حقًّا وكـلٌّ كاسِرٌ مكسـورُ(3)

=«قواطع عقلية»، مع اختلافهم فيها، وتناقضهم فيها، ومناقضتها لصريح المعقول وصحيح المنقول. وسمَّوا(4) كلام الله ورسوله «ظواهر سمعية»

(١) «ب»: «ينتفع».
(٢) «ك»: «القائل شعر». «ط»: «القائل شعرًا».
(٣) تمثّل به المصنف في الصواعق (١٢٧٧)، وقبله تمثّل به شيخ الإسلام في درء التعارض (٧: ٣١٤)، وبيان تلبيس الجهمية (٢: ٢٥٣)، وقال في مجموع الفتاوى (٤: ٢٨): «أنشده الخطّابي» . وتمثل به السمعاني في الأنساب (٣/ ٣٨٨) بلفظ «حجج تكاسَر». وقد ضمّن المصنّف معظم البيت في قوله في النونّية:
شُبَـه تهافت كالـزجـاج تخالهـا حقًّا، وقـد سقطت علـى صفـوانِ
ونظم المعنى في بيت آخر:
شُبَهٌ يكسِّر بعضُها بعضًا كَبَيْـ ـتٍ من زُجاجٍ خرَّ للأركانِ
انظر: الكافية الشافية (٨٣٣، ٨٤٦). ولم أعرف قائل البيت، غير أنّ ابن الرومي له أبيات في المعنى مشهورة:
لِذوي الجدال إذا غدوا لجدالهم حُجَجٌ تضِلّ عن الهدى وتجورُ
وُهُنٌ كآنية الزجاج تصادمتْ فهوَتْ وكلٌّ كاسرٌ مكسورُ
فالقاتلُ المقتولُ ثَمّ لِضَعفِه ولِوَهيِه والآسرُ المأسورُ
انظر: ديوانه (٣/ ١١٣٩).
(٤) «ط»: «فسمّوا».

إزالةً لحرمته من القلوب، ومنعًا للتعلق به والتمسك بحقيقته في باب الإيمان والمعرفة بالله وأسمائه وصفاته. فعبَّروا عن كلامهم بأنَّه «قواطع عقلية»، فيظن الجاهل بحقيقته أنَّه إذا خالفه فقد خالف صريحَ المعقول، وخرجَ عن حدِّ العقلاءِ، وخالفَ القاطع[1]! وعبَّروا عن كلام الله ورسوله بأنَّه «ظواهر»، فلا جناح على من صرفه عن ظاهره، وكذَّب بحقيقته، واعتقدَ بطلان الحقيقة؛ بل هذا عندهم هو الواجب!

وقد أشهد الله سبحانه عباده الذين أوتوا العلم والإيمان أنَّ الأمر بعكس ما قالوه، وأنَّ كلامه وكلام رسوله هو الشفاء والعصمة والنور الهادي والعلم المطابق لمعلومه[2]، وأنَّه هو المشتمل على القواطع العقلية السمعية والبراهين اليقينية، وأنَّ كلامَ هؤلاء المتهوّكين الحيارى المتضمّن لخلافِ[3] ما أخبر به عن نفسه وأخبر به عنه رسوله هو الشبهات الفاسدة والخيالات الباطلة، وأنَّه كالسراب الذي يحسَبه الظمآنُ ماءً حتَّى إذا جاءَه لم يجده شيئًا، ووجد الله عنده فوفَّاهُ حسابَه والله سريع الحساب[4].

وهؤلاء هم أهل العلم حقًّا الذين شهد الله سبحانه لهم به فقال تعالى: ﴿وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ وَيَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ⑥﴾[سبأ/ ٦][5].

(١) في حاشية «ب»: «خ القواطع».
(٢) «ط»: «العلومه».
(٣) «ط»: «خلاف».
(٤) ضمّن المؤلف هنا جزءا من الآية (٣٩) من سورة النور.
(٥) وقع سهو في نقل الآية في الأصل، فسقط «هو» ثم جاء «ويهدي إلى صراط =

ومَن سواهم[1] من الصم والبُكم الذين قال الله فيهم: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ۝١٠﴾[الملك/ ١٠]، وقال تعالى: ﴿۞ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ ۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ۝١٩﴾[الرعد/ ١٩].

وكان ما شهدوه من ذلك بالعقل والفطرة، لا بمجرد الخبر؛ بل جاءَ إخبارُ الربِّ تعالى وإخبار رسوله مطابقًا لما في فطرهم السليمة وعقولهم المستقيمة. فتظافرَ[2] على إيمانهم به الشريعةُ المنزَّلة، [٥٤/ب] والفطرة المكمَّلة، والعقل الصريح. فكانوا هم العقلاء حقًّا، وعقولهم هي المعيار، فمن خالفها فقد خالفَ صريحَ المعقول والقواطعَ العقلية.

ومن أراد معرفةَ صحّة[3] هذا فليقرأْ كتاب شيخنا وهو «**بيان موافقة العقل الصريح للنقل الصحيح**[4]»، فإنّه كتاب لم يطرق العالمَ له نظيرٌ في بابه، فإنّه هدم فيه قواعدَ أهل الباطل من أُسِّها، فخرّت عليهم سقوفه من فوقهم؛ وشيّد فيه قواعدَ أهل السنّة والحديث، وأحكمها، ورفع أعلامها، وقرّرها بمجامع الطرق التي تقرّر[5] بها الحقُّ من العقل والنقل والفطرة والاعتبار. فجاءَ كتابًا لا يستغني مَن نصح نفسَه من أهل العلم

= مستقيم»، وقد صحح الخطأ في الحاشية بخطّ مجوّد.

(١) «ط»: «سواه». «ب»: «ماسواه».

(٢) «ط»: «فتضافر».

(٣) «ك، ط»: «معرفة هذا». «ب»: «أراد صحة هذا».

(٤) وهو الكتاب المطبوع بعنوان «درء تعارض العقل والنقل».

(٥) «ف»: «يقرر»، والأصل غير منقوط.

عنه[1]، فجزاه الله عن أهل العلم والإيمان أفضل الجزاءِ، وجزى العلم والإيمان عنه كذلك.

فصل

عدنا إلى تمام الكلام في كيفية دخول الشرّ في القضاءِ الإلهي، وبيان طرق الناس في ذلك، واختلافهم في إيلام الأطفال والبهائم.

وقالت «البكريّة» وهم أتباع بكر ابن أخت عبدالواحد بن زيد البصري[2]: إنّ البهائم والأطفال لا تألمُ البتّة. والذي حملهم على هذا موجَب التعليل والحكمة، ولم يرتضوا ما قالت الجبريّة من نفي ذلك، ولا ما قالت المعتزلة من حديث الأعواض وما فرّعوه عليه، ولم يمكنهم القول بمذهب «التناسخية» القائلين بأنّ الأرواح الفاجرة الظالمة تُودَع في الحيوانات التي تناسبها، فينالها من ألم الضرب والعذاب بحسبها، ولا بمذاهب «المجوس» من إسناد الشرّ والخير إلى إلهين مستقلّين كلّ منهما يذهب[3] بخلقه، ولا بقول من يقول: إنّ البهائم مكلَّفة مأمورة

(١) في «ط» وضع «عنه» بعد الفعل «لا يستغني».
(٢) «ب»: «ابن أخت زيد البصري» وفيه سقط. انظر ترجمته في لسان الميزان (٢/ ٦٠). وخاله عبدالواحد المتوفى سنة ١٧٧هـ زاهدٌ مشهور، متروك الحديث. العبر (١/ ٢٧)، لسان الميزان (٤/ ٨٠). وقول بكر في الأطفال ذكره الأشعري في المقالات (٢٨٦)، وابن قتيبة في تأويل مختلف الحديث (٩٦)، ونسبه ابن حزم إلى عبدالله بن عيسى تلميذ بكر. انظر: الفصل (٣/ ١١٠).
(٣) «ب»: «يذهب كل منها».

منهيّة مُثابة مُعاقبة، وإنّ[1] في كلّ أمّة منها رسول ونبيّ[2] منها، وهذه الآلام والعقوبات الدنياوية جزاءٌ على مخالفتها لرسولها ونبيّها= فلم يجدوا بدًّا من التزام ما ذهبوا إليه من إنكار وقوع الآلام بها ووصولها إليها.

وقد ردَّ عليهم الناس بأنّهم كابروا الحسَّ، وجحدوا الضرورة، وأنّ العلم بخلاف ما ذهبوا إليه ضروريّ. وقال من أنصف القوم: لا سبيل إلى نسبة هؤلاءِ إلى جحد الضرورة مع كثرتهم، ولكنّهم ربمّا رأوا أنّ الطفل والبهيمة لا تدرك الآلام حسبما يدركها العقلاءُ. فإنّ العاقل إذا أدرك تألُّمَ جوارحِه وأحسَّ به تألّمَ قلبُه، وطال حزنه، وكثر همُّ روحه وغمُّها، واشتدت فكرتُه في ذلك وفي الأسباب الجالبة له والأسباب الدافعة له؛ وهذه الآلام زائدة على مجرّد ألم[3] الطبيعة، ولا ريب أنّ البهائم والأطفال لا تحصل لها تلك الآلام كما تحصل[4] للعاقل المميّز. فإن أراد القوم هذا فهم مصيبون، وإن أرادوا أنّه[5] لا شعور لها بالآلام[6] البتة وأنَّها لا تحس بها فمكابرة ظاهرة، فإنَّ الواحد منَّا يعلم باضطرار أنّه كان يتألَّم في طفوليته[7] بمسِّ النار له، وبالضرب، وغير ذلك.

---

(١) «ط»: «أنّه».

(٢) كذا بالرفع في الأصل على حذف اسم إنّ. وكذا في «ف،ك،ط». وفي «ب»: «رسولاً ونبيًا».

(٣) «ألم» ساقط من«ب».

(٤) «ط»: «يحصل»، وكذا في «ب،ك» هنا وقبل.

(٥) «ط»: «أنها».

(٦) «ب»: «أنّه لا يتصور لها الآلام»، تحريف.

(٧) «ب»: «كان سالمًا في طفوليته من النار بمس»، تحريف.

وقالت طائفة: كلُّ ما يتألم به الطفل والبهيمة ليس من قِبَل الله سبحانه، ولا فعَل اللهُ فيه الألم، لما ثبت من حكمته. وهذا يشبه[1] قولهم في أفعال الحيوان أنَّها ليست من خلقِ الله، ولا كانت بمشيئته. لكن هذا أشد فسادًا من ذلك، فإنَّ هذه الآلام حوادث لا تتعلَّق باختيار من قامت به ولا بإرادته، فلا بُدَّ لها من مُحدِث، إذ وجودُ حادثٍ بلا محدث محالٌ، والله سبحانه خالقها بأسبابها المفضية إليها، فخالق السبَب خالق للمسبَّب. فإن أرادَ هؤلاء نفيَ فعلها عن الله مباشرةً من [٥٥/أ] غيرِ توسط سبب[2] أصلاً فهذا قد يكون حقًّا، وإن أرادوا أنَّها غير منسوبة إلى قدرته ومشيئته البتَّة فباطل.

وذهبت طائفة إلى أنَّ في كلِّ نوعٍ من أنواع الحيوانات أنبياء ورسل[3]، وأنَّها مستحقة للثوابِ والعقابِ، وأنَّ ما ينزل بها من الآلام فجزاءٌ لها وعقوبات على معاصيها ومخالفتها. واحتجوا بقوله تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم﴾[الأنعام/ ٣٨]، وقال تعالى: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٢٤﴾﴾[فاطر/ ٢٤].

وقالت طائفة من التناسخية: إنَّ الله تعالى خلق خلقَه كلَّهم جملةً واحدةً بصفة واحدة، ثمَّ أمرهم ونهاهم، فمن عصى منهم نسخ روحه في جسد بهيمة تُبتلى بالذبح والقتل كالدجاج والغنم والإبل والبقر والبراغيث والقمل، فما يُسلَّط[4] على هذه البهائم من الآلام فهو

(١) «ك»: «شبه».
(٢) «ك، ط»: «بسبب».
(٣) كذا في الأصل و«ف»، وله وجه كما سبق آنفًا. وفي غيرهما: «رسلاً».
(٤) «ب، ك، ط»: «سلط».

للأرواح الآدميَّة التي أودعتْ هذه الأجسادَ. فمن كان منهم زانيًا أو زانيةً كوفيء بأن جُعِل في بدن حيوان لا يمكنه[1] الجماع كالبغال، ومن كان منهم عفيفًا عن الزنا مع ظلمه وغشمه[2] كوفيء بأن جعل في بدن تيس أوعصفور أوديك، ومن كان منهم جبَّارًا عنيدًا كوفيء بأن جعل في بدن قملة أوقُرادة[3] ونحوهما، إلى أن يُقتصَّ منهم ثم يُردّون، فمن عصى منهم بعد كرَّته[4] كُرِّر أيضًا عليه ذلك التناسخ هكذا أبدًا حتى يطيع طاعةً لا معصية بعدها أبدًا، فينتقل إلى الجنَّة من وقته؛ أو يعصي معصيةً لا طاعة معها، فينتقل إلى جهنَّم من وقته[5]. وقد ذهب إلى هذا المذهب من المنتسبين إلى الإسلام رجلٌ يقال له أحمد بن حابط[6] طردًا لأصول[7] القدرية وشريعتهم التي شرعوها لله، فأوجبوا بها عليه وحرّموا.

وذهب المجوس إلى أنَّ هذه الآلام والشرور من الإله الشرِّير المظلم، فلاتضاف إلى الإله الخير العادل، ولا تدخل تحت قدرته. ولهذا كان أشبهَ أهلِ البدع بهم القدريةُ النفاة.

وقالت الزنادقة والدهرية: كل ذلك من تصرف الطبيعة وفعلها،

---

(١) «ط»: «ما يمكنه».

(٢) «ف»: «طلبه وتجشمه».

(٣) «ط»: «جرادة».

(٤) «ب»: «كونه». «ك»: «كذبه». «ط»: «ردّه»، تحريفات.

(٥) «أويعصي...» إلى هنا سقط من«ط».

(٦) معتزلي، من أصحاب النظام، وطائفته تسمى الحابطية. انظر: لسان الميزان (١/ ١٤٨)، الملل والنحل (٦٣).

(٧) «ط»: «طرد أصول».

وليس لذلك فاعل مختار مدبّر بمشيئته وقدرته، ولا بدَّ في النار من إحراق ونفع، وفي الماءِ من إغراق ونفع، وليس وراء ذلك شيء.

فهذه مذاهب أهل الأرض في هذا المقام.

ولمَّا انتهى أبوعيسى الورّاق[1] إلى حيث انتهتْ إليه أربابُ المقالات، طاش[2] عقلُه، ولم يتسع لحكمة إيلام الحيوان وذبحه، صنَّف[3] كتابًا سمَّاه «النوح على البهائم»[4]، فأقام عليها المآتم وناح، وباح بالزندقة الصُّراح.

وممن كان على هذا[5] المذهب أعمى البصر والبصيرة كلبُ معرّةِ النُّعمان المكنيّ بأبي العلاء المعرِّي، فإنَّه امتنع من أكل الحيوان، زعمَ لظلمه بالإيلام والذبح[6].

وأمَّا ابن خطيب الرَّي[7] فإنَّه سلك في ذلك طريقةً مركبةً من طريقة المتكلمين وطريقة الفلاسفة المشّائين، وهذَّبها ونقَّحها، واعترف في

---

(١) اسمه محمد بن هارون، كان معتزليًّا ثمَّ خلَّط وانتهى به التخليط إلى أن صار يرمى بمذهب الثنوية، وعنه أخذ ابن الراوندي. توفي ببغداد سنة ٢٤٧هـ. الفهرست (٢١٦)، مروج الذهب (٤/ ١٠٥)، لسان الميزان (٥/ ٤١٢).

(٢) «ط»: «فطاش».

(٣) في «ب»: «فصنّف»، ولعله إصلاح، كما أصلح في «ط» بإدخال الفاء على «طاش».

(٤) ذكره ابن النديم بعنوان «الغريب المشرقي في النوح على البهائم».

(٥) «هذا» سقط من «ط»، واستدرك في القطرية.

(٦) انظر فصل «القول الفصل في القضية» في كتاب «أبوالعلاء وما إليه» للأستاذ عبدالعزيز الميمني رحمه الله.

(٧) هو الفخر الرازي.

آخرها بأنَّه لا سبيل إلى الخلاص عن المطالبات[١] التي أوردها على نفسه إلا بالتزام أنَّه تعالى موجِب بالذات، لا فاعل بالقصد والاختيار! فأقرَّ على نفسه بالعجز عن أجوبة تلك المطالبات إلا بإنكار قدرة الله ومشيئته وفعله الاختياري، وذلك بجحد ربوبيته. ونحن نذكر كلامه بألفاظه. قال في مباحثه المشرقية:

«الفصل السَّادس في كيفية دخول الشر في القضاء الإلهي. وقبل الخوض فيه لا بدَّ من تقديم مقدمتين:

المقدمة الأولى: الأمور التي يُقال لها[٢] إنَّها شر إمَّا أن تكون أمورًا عدمية، أو أمورًا وجودية. فإن كانت [٥٥/ب] أمورًا عدمية فهي على أقسام ثلاثة، لأنَّها إمَّا أن تكون عدمًا لأمور ضرورية للشيء في وجوده مثل عدم الحياة، وإمَّا أن تكون عدمًا لأمور نافعة قريبة من الضرورة كالعمى[٣]، وإمَّا أن[٤] لا تكون كذلك كعدم العلم بالفلسفة والهندسة. وأمَّا الأمور الوجودية التي يُقال إنَّها شرور فهي[٥] كالحرارة المفرّقة لاتصال العضو.

واعلم أنَّ الشرَّ بالذات هو عدم ضروريات الشيء وعدم منافعه مثل عدم الحياة وعدم البصر، فإنَّ الموت والعمى لا حقيقة لهما إلا أنَّهما عدم الحياة وعدم البصر، وهما من حيث هما كذلك

---

(١) «ك»: «عن التي». «ط»: «من الشبه التي».

(٢) «لها» ساقط من«ك، ط».

(٣) «ك، ط»: «كالأعمى»، تحريف.

(٤) «إمَّا» ساقط من«ك»، وفي«ط»: «أوأن».

(٥) «ف»: «يقال لها شرور وهي»، أخطأ في القراءة.

شر[١]، فإذن ليس لهما اعتبار آخر بحسبه يكونان شرين.

وأمَّا عدم الفضائل المستغنى عنها ـ مثل عدم العلم بالفلسفة ـ فظاهر أنَّ ذلك ليس بشر. وأمَّا الأمور الوجودية فإنَّها ليست شرورًا بالذات بل بالعرض، من حيث إنَّها تتضمن عدم أمور ضرورية أو نافعة، ويدل عليه أنَّا لا نجد شيئًا من الأفعال التي يُقال لها شرّ إلا وهو كمال[٢] بالنسبة إلى الفاعل، وأمَّا شريته فبالقياس إلى شيء آخر.

فالظلم مثلاً يصدر عن قوَّة طلاَّبة[٣] للغلبة وهي القوة الغضبية، والغلبة هي كمالها وفائدة خلقتها. فهذا الفعل بالقياس إليها خير، لأنَّها إن ضعفت عنه فهو بالقياس إليها شر، وإنَّما كان شرًّا للمظلوم لفوات المال وغيره عنه. والنَّفس الناطقة[٤] كمالها الاستيلاء على هذه القوَّة، فعند قهر[٥] القوة الغضبية يفوت النفسَ ذلك الاستيلاء، فلا جرم[٦] كان شرًّا لها. وكذلك النَّار إذا أحرقت فإنَّ الإحراق كمالها، ولكنَّه[٧] شر بالنسبة إلى من زالت سلامته بسببها. وكذلك القتل وهو استعمال الآلة القطَّاعة في قطع رقبة إنسان، فإنَّ كون الإنسان قويًّا على استعمال الآلة ليس شرًّا له بل خير[٨]، وكذلك كون الآلة قطَّاعةً هو خير لها، وكذلك

---

(١) كذا في الأصل وغيره، وفي المباحث المشرقية: «شرّان»، كما جاء فيما بعد.

(٢) «ب،ك،ط»: «وهو كما قال»، تحريف.

(٣) «ك،ط»: «ظلاَّمة»، تحريف.

(٤) «ف»: «الباطنة»، تحريف.

(٥) في المباحث: «فوات»، وهو الصواب.

(٦) «ك،ط»: «ولا جرم».

(٧) «ك،ط»: «ولكنها».

(٨) في الأصل وغيره: «خيرًا» ولعله سهو. والمثبت من المباحث و«ط».

كون الرقبة قابلة للانقطاع، كل ذلك خيرات، ولكنَّ القتل شرٌّ من حيث إنَّه متضمن لزوال الحياة. فثبت بما ذكرنا أنَّ الأمور الوجودية ليست شرورًا[1] بالذَّات بل بالعرض[2].

المقدمة الثانية[3]: أنَّ الأشياء إمَّا أن تكون مادية، أو لا تكون. فإن لم تكن مادية لم يكن فيها ما بالقوَّة، فلايكون فيها شر أصلاً. وإن كانت مادية كانت في معرض الشر، وعروض الشر لها إمَّا أن يكون في ابتداء تكونها أو بعد تكونها.

أمَّا الأوَّل فهو[4] أن تكون المادة التي يتكون منه إنسان أوفرس[5] يعرض لها من الأسباب ما يجعلها رديئة المزاج رديئة الشكل والخلقة. فرداءة مزاج ذلك الشخص ورداءة خلقه ليس لأنَّ الفاعل حرَمَ بل لأنَّ المنفعل[6] لم يقبل.

وأمَّا الثاني وهو أن يعرض الشر للشيء بطروء[7] طارىء عليه بعد تكونه، فذلك[8] الطارىء إما شيء يمنع المكمل من الإكمال مثل تراكم

---

(١) «ب،ك،ط»: «شرًّا».

(٢) زاد في «ك،ط»: «والله أعلم».

(٣) من هنا إلى آخر كلام الرازي مكتوب في الأصل بخط مغاير ضعيف.

(٤) «ب،ك،ط»: «فهو إما».

(٥) «ك،ط»: «تتكون إنسانا أوفرسًا».

(٦) «ب،ك،ط»: «المنفعل له»، وكذا في المباحث.

(٧) في الأصل: «يعرض الشيء للشيء وطروء» وكذا في غيره، وهو تحريف. والصواب ما أثبتنا من المباحث. وفي«ط»: «يعرض الشر» فصحح التحريف الأوَّل.

(٨) في الأصل و«ف»: «فكذلك»، تحريف.

السحب وإظلال الجبال الشاهقات إذا صارَ مانعًا من تأثير الشمس في النبات، وإمَّا شيء مفسد مضاد[1] مثل البرد الذي يصل إلى النبات فيفسد بسبب ذلك استعداده للنشوء والنمو.

وإذا عرفت ذلك فنقول: قد بيَّنَّا أنَّ الشرَّ بالحقيقة إمَّا عدم ضروريات الشيء، وإمَّا عدم منافعه. فنقول: الموجود إمَّا أن يكون خيرًا من كل الوجوه، أو شرًّا من كل الوجوه، أو خيرًا من وجه وشرًّا من وجه. وهذا على ثلاثة أقسام[2]: فإنَّه إمَّا أن يكون خيره غالبًا على شرِّه، أويكون شرُّه غالبًا على خيره، أو يتساويا[3] خيره وشره، فهذه أقسامٌ خمسة.

أمَّا الذي يكون خيرًا من كلِّ الوجوه فهو موجود، وأمَّا الذي[4] يكون كذلك لذاته فهو الله تبارك وتعالى. وأمَّا الذي يكون[5] لغيره فهو العقول والأفلاك، لأنَّ هذه الأمور مافاتها شيء من ضروريات ذاتها ولا من كمالاتها.

وأمَّا[6] الذي كله شر أوالغالب فيه أوالمساوي فهو غير موجود، لأنَّ كلامنا في الشر[7] بمعنى عدم الضروريات والمنافع، لا بمعنى عدم

---

(١) «ف،ب،ك»: «يفسد وصار»، ويشبهه رسم الأصل، وهو تحريف صوابه ما أثبتنا من المباحث.

(٢) «ك،ط»: «تقدير أقسام»، تحريف.

(٣) كذا في الأصل و«ف». وفي«ب،ك»: «متساويًا». وفي المباحث: «يتساوى».

(٤) «ط»: «وهو موجود أي الذي»، تحريف.

(٥) زاد في «ط» هنا بين حاصرتين: «خيره».

(٦) «أمَّا» ساقطة من«ط».

(٧) في الأصل وغيره: «الشيء»، تحريف صوابه ما أثبتنا من المباحث.

الكمال الزائد. وإذا عنينا بالشر ذلك[1] فلا شكَّ أنَّ ذلك مغلوب والخير غالب. لأنَّ الأمراض وإن كثرت إلا أنَّ الصحة أكثر منها، والحرق[2] والغرق والخسف وإن كانت قد تكثر إلا أنَّ السلامة أكثر منها.

فأمَّا الذي يكون خيره غالبًا[3] على شرِّه، فالأولى فيه أن يكون موجودًا لوجهين:

الأوَّل: أنَّه إن لم [٥٦/أ] يوجد فلابدَّ وأن يفوت الخير الغالب، وفوت الخير الغالب شر غالب، فإذن في عدمه يكون الشر أغلب من الخير، وفي وجوده يكون الخير أغلب من الشر، ويكون[4] وجود هذا القسم أولى. مثاله: النار في وجودها منافع كثيرة، وأيضًا مفاسد كثيرة مثل إحراق الحيوانات، ولكنَّا إذا قابلنا منافعها[5] بمفاسدها كانت مصالحها أكثر بكثير من مفاسدها، ولو لم توجد لفاتت تلك المصالح، فكانت[6] مفاسد عدمها أكثر من مصالحه[7]، فلاجرم وجب إيجادها وخلقها.

الثاني ـ وهو الذي يكون خيره ممزوجًا بالشر ـ ليس إلا الأمور التي تحت كرة القمر، ولا شك أنَّها معلولات العلل العالية[8]، فلو لم يوجد

---

(١) «وإذا عنينا بالشر ذلك» ساقط من «ط».
(٢) «ك، ط»: «فالحرق».
(٣) في الأصل: «غالب»، والمثبت من «ف» وغيرها.
(٤) في المباحث: «فيكون»، وهو مقتضى السياق.
(٥) المباحث: «مصالحها».
(٦) «ك، ط»: «وكانت».
(٧) «ط»: «مصالحها».
(٨) «ف، ب»: «الغالية»، تصحيف.

هذا القسم لكان يلزم من عدمها[1] عدم عللها الموجبة لها، وهي خيرات محضة، فيلزم من عدمها عدم الخيرات المحضة، وذلك شر محض، فإذن لا بدَّ من وجود هذا القسم.

فإن قيل[2]: فَلِمَ لم يخلق الخالق هذه الأشياء عريَّة عن[3] كلِّ الشرور؟ فنقول: لأنَّه لو جعلها كذلك لكان هذا هو القسم الأوَّل، وذلك مما قد فرغ منه.

وبقيَ في العقل قسم آخر وهو الذي يكون خيره غالبًا على شرِّه. وقد بيَّنا أنَّ الأولى بهذا القسم أن يكون موجودًا».

قال: «وهذا الجواب لا يعجبني لأنَّ لقائل أن يقول: إنَّ جميع هذه الخيرات والشرور إنَّما توجد باختيار الله تعالى وإرادته، مثلاً الاحتراق[4] الحاصل عقيب النار ليس موجَبًا عن[5] النار، بل الله تعالى اختار خلقه عقيب مماسَّة النار، وإذا كان حصول الاحتراق عقيبَ مماسة النار[6] باختيار الله وإرادته فكان[7] يمكنه أن يختار خلقَ الإحراق عندما يكون خيرًا ولا يختار خلقه عندما يكون شرًّا. ولا خلاص عن هذه المطالبة إلا ببيان كونه سبحانه وتعالى فاعلاً بالذَّات، لا بالقصد

---

(١) «عدمها» سقط من «ط»، فاستدرك في القطرية.

(٢) نقل المؤلِّف كلام الرَّازي من هنا إلى آخره في شفاء العليل (٢٩٠) أيضًا وعقب عليه.

(٣) «ف»: «من» خلاف الأصل.

(٤) «ب»: «الإحراق».

(٥) «ك، ط»: «من».

(٦) «وإذا كان. .» إلى هنا ساقط من«ب»

(٧) «ف، ب»: «وكان».

والاختيار. ويرجع حاصل[1] الكلام في هذه المسألة إلى مسألة القدم والحدوث».

قلتُ: لمَّا لم يكن عند الرَّازي إلا مذهبُ الفلاسفة المشائين القائلين بالموجِب بالذَّات، أومذهب القدرية المعتزلة[2] القائلين بوجوب رعاية الصلاح أو الأصلح، أومذهبُ الجبرية نفاة الأسباب والعلل والحِكَم؛ وكان الحقُّ عنده متردِّدًا بين هذه المذاهب الثلاثة، فتارةً يرجح مذهبَ المتكلمين، وتارةً مذهب المشائين، وتارةً يلقي الحرب بين الطائفتين ويقف في النظارة، وتارةً يتردد بين[3] الطائفتين؛ وانتهى إلى هذا المضيق ورأى أنَّه لا خلاص له منه إلا بالتزام طريقِ الجبرية ـ وهي غير مرضية[4] عنده، وإن كان في كتبه الكلامية يعتمد عليها ويرجع في مباحثه إليها ـ أو طريقِ[5] المعتزلة القائلين برعاية الصلاح وهي متناقضة غير مطردة = لم يجد بدًّا من تحيزه إلى أعداءِ الملَّة القائلين بأنَّ الله لا قدرة له ولا مشيئة ولا اختيار ولا فعل يقوم به، ومعلومٌ أنَّ هذه المذاهب بأسرها باطلة متناقضة، وإن كان بعضها أبطل من بعض. وإنَّما ألجأه إلى التزام القول بإنكار الفاعل المختار في هذا المقام تسليمُه لهم الأصول الفاسدة والقواعد الباطلة التي قادت إلى التزام بعض أنواع الباطل.

---

(١) «حاصل» ساقط من«ط».

(٢) «القائلين بالموجب. . .» إلى هنا ساقط من«ط».

(٣) «هذه المذاهب. . . .» إلى هنا ساقط من«ب».

(٤) «ب»: «وهي مرضية»، خطأ.

(٥) «ك، ط»: «وطريق».

ولو أعطى الدليل حقَّه، وضم ما مع كل طائفة من الحق إلى حق الطائفة الأخرى، وتحيز إلى ماجاءت به الرسل، على علم وبصيرةٍ، وتقريرٍ[1] لما جاؤوا به بجميع طرق الحق، لخلص[2] من تلك المطالبات مع إقراره بأنَّ ربَّ العالمين فعَّال لما يريد، يفعل بمشيئته وقدرته وحكمته[3]، وأنَّ له المشيئة النَّافذة والحكمة البالغة، وأنَّ تقدير تجريد النَّار عمَّا خُلِقَت عليه من الإحراق، والماءِ عمَّا خلق عليه، والرياح والنفوس البشرية عمَّا هُيِّئت له وخلقت عليه= منافٍ[4] للحكمة المطلوبة المحبوبة للرب سبحانه؛ وأنَّ هذا تقديرٌ لِعَالمٍ آخر غير هذا العالم، وتعطيلٌ للأسباب التي نَصَبَهَا[5] الله مقتضياتٍ لمسبَّباتها، وأنَّ تلك الأسباب مظهر حكمته وحمده، وموضع تصرفه بخلقه[6] وأمره. فتقديرُ تعطيلها تعطيلٌ للخلق والأمر، وهو أشدُّ منافاةً للحكمة [٥٦/ب] وإبطالاً لها؛ واقتضاءُ هذه الأسباب لمسبباتها كاقتضاء الغايات لأسبابها، فتعطيلُها عنها[7] قدحٌ في الحكمة، وتفويتٌ لمصلحة العالم التي عليها نظامه وبها قوامه.

ولكن الرب سبحانه قد يخرق العائدة[8]، ويعطِّلها عن مقتضياتها

---

(١) «ط»: «وهو تقرير»، خطأ.

(٢) «ك»: «تخلص»، «ط»: «لتخلص».

(٣) «ف»: «كلمته»، تحريف.

(٤) «ف»: «سان» كذا دون نقط، فإنَّه لم يتمكن من قراءة الأصل.

(٥) «سبحانه، وأنَّ هذا. .» إلى هنا سقط من«ط»، فاستدرك في القطرية، ولكن بقي في هذه سقط، وهو: «غير هذا العالم».

(٦) «ك، ط»: «لخلقه».

(٧) «ك، ط»: «منها».

(٨) أي العادة كما في«ب، ط».

أحيانًا إذا كان فيه مصلحة راجحة على مفسدة فوات تلك المسببات، كما عطَّل النار التي أُلقيَ فيها إبراهيم وجعلها عليه بردًا وسلامًا عن الإحراق لما في ذلك من المصالح[١] العظيمة. وكذلك تعطيلُ الماءِ عن إغراق موسى وقومه وعمَّا خُلِقَ عليه من الإسالة والتقاءِ أجزائه بعضها ببعض = هو لما فيه من المصالح العظيمة والآيات الباهرة والحكمة التَّامة التي ظهرت في الوجود، وترتَّب عليها من مصالح الدنيا والآخرة ما ترتب.

وهكذا ـ سبحانه ـ سائر أفعاله[٢]، مع أنَّه شهد[٣] عبادُه بذلك أنَّه هو[٤] مسبِّب الأسباب، وأنَّ الأسباب خَلقُه وملكه[٥]، وأنَّه يملك تعطيلها عن مقتضياتها وآثارها، وأنَّ جعلها[٦] كذلك لم يكن من ذاتها وأنفسها، بل هو الذي جعلها كذلك، وأودعَ فيها من القوى والطبائع ما اقتضت به آثارها، وأنَّه إن شاءَ أن يسلبها إيَّاها سلبها، لا كما يقول أعداؤه من الفلاسفة والطبائعيين[٧] وزنادقة الأطباءِ إنَّه ليس في الإمكان[٨] تجريد هذه الأسباب عن آثارها وموجباتها، ويقولون:

---

(١) «النار التي. . .» إلى هنا سقط من«ب».

(٢) «ك،ب»: «فهكذا سائر أفعاله سبحانه». «ب»: «فهكذا سبحانه وتعالى. . .».

(٣) «ط»: «أشهد».

(٤) «هو»: ساقط من«ب،ك،ط».

(٥) «وملكه».

(٦) كذا في الأصل وغيره. وفي حاشية «ك»: «ظ كونها»، وهو أشبه، وكذا في«ط».

(٧) «ف»: «الطبائعية». والكلمة غير واضحة في الأصل لانتشار الحبر ولكنَّها أقرب إلى ما أثبتنا، وبعد فالكلمتان كلتاهما شائعتان في كتب المصنف.

(٨) «ب»: «الإنسان»، تحريف.

لا تعطيل في الطبيعة. وليست الطبيعة عندهم مربوبةً مقهورةً تحت قهر قاهر وتسخير مسخِّر يصرِّفها كيف يشاءُ، بل هي المتصرفة المدبِّرة. ولا كما يقول من نقص[١] علمُه ومعرفتُه بأسرار مخلوقاته وما أودعها من القوى والطبائع والغرائز، وبالأسباب التي ربط بها خلقَه وأمرَه وثوابَه وعقابَه؛ فجحد ذلك كلَّه، وردَّ الأمرَ إلى مشيئة محضة مجردة عن الحكمة والغاية وعن ارتباط العالم بعضه ببعض ارتباطَ الأسباب بمسبباتها، والقوى بمحالّها.

ثمَّ المحذورُ اللازمُ من إنكارِ الفاعل المختار الفعَّال[٢] لما يريد بقدرته ومشيئته فوق كل محذور، فإنَّ القائل بذلك يجعل هذه الشرورَ بأسرها لازمةً له لزومَ الظلِّ[٣] لحامله والحرارةِ للنار، لا يمكنه[٤] دفعُها ولا تخليص الخيرات منها[٥]. فهم فرُّوا من إضافة الشر إلى خلقه ومشيئته واختياره، ثمَّ ألزموه إيَّاه، وأضافوه إليه إضافةً لا يمكن إزالتها، مع تعطيل قدرته ومشيئته وخلقه وعلمه بتفاصيل أحوال عباده؛ وفي ذلك تعطيل ربوبيته للعالمين. ففرُّوا من محذور بالتزام عدَّةِ محاذير، واستجاروا من الرَّمْضاءِ بالنَّارِ![٦]

وهذا كما نزَّهه الجهمية عن استوائه على عرشه وعلوه على مخلوقاته

---

(١) «ب»: «يقضي»، تحريف.
(٢) «ف»: «والفعال»، سهو.
(٣) «ك، ب، ط»: «الطفل»، تحريف.
(٤) «ك، ط»: «ولا يمكنه».
(٥) «منها» أي من الشرور. وفي«ك، ط»: «الحرارة» بدل «الخيرات»، تحريف.
(٦) انظر المثل في فصل المقال (٣٧٧).

فرارًا[1] من التحيز والجهة، ثمَّ جعلوه سبحانه في كلِّ مكان مخالطًا للقاذورات والأماكن المكروهات وكلِّ مكان يأنف العاقلُ من مجاورته. ففرُّوا من تخصصه بالعلو، فعمَّموا به كلَّ مكان!

ولمَّا علمت الفرعونيةُ بطلانَ هذا المذهبِ فرُّوا إلى شرٍّ منه، فأخلَوا داخل العالم وخارجه منه البتة، وقالوا: ليس فوق العرشِ ربٌّ يُعبَد، ولا إلهٌ يُصلَّى له ويُسجَد، ولا تُرفَع إليه الأيدي، ولا يصعَد إليه الكلِم الطيِّب والعمل الصالح، ولا عُرِجَ بمحمد ﷺ إليه بل عرج به إلى عَدَمٍ صِرْف، ولا فرق بالنسبة إليه بين العرش وبين أسفل سافلين[2]. ومنَ المعلوم أنَّه ليس موجودًا في أسفل سافلين، فإذا لم يكن موجودًا فوق العرش فهذا إعدام له البتة وتعطيل لوجوده.

فلمَّا رأت الحلولية وإخوانهم من الاتحادية أشباه النصارى ما في ذلك من الإحالةِ قالوا: بل هو هذا الوجود الساري في الوجودات[3]، الظاهرُ فيها على اختلاف صورها وأنواعها بحسبها[4]. فهو في الماءِ ماءٌ، وفي الخمر خمر، وفي النار نار، وهو حقيقة كل شيء وماهيته. فنزَّهوه عن استوائه على عرشه، وجعلوه وجودَ كلِّ موجود خسيس أو شريف، صغير أو كبير، طيِّب أو غيره، تعالى الله عمَّا يقول أعداؤه علوًّا كبيرًا.

---

(١) «ك، ط»: «فإنَّه فرار».

(٢) «ف»: «السافلين» سهو.

(٣) كذا في الأصل بلا شك. وفي «ف» المنقولة عنه وغيرها: «الموجودات». وما ورد في الأصلِ صحيح لا غبار عليه. انظر: درء التعارض (٢/ ٣٤٧).

(٤) «ك، ط»: «بحسنها»، تصحيف.

وكذلك القائلون بقدم العالم نزَّهوه عن قيام الإرادات والأفعالِ المتجدِّدة به، ثمَّ جعلوا جميعَ الحوادث لازمةً له لا ينفكُّ عنها. ونزَّهوه عن إرادته[1] لخلق العالم وأن يكون صدوره عن مشيئته وإرادته، وجعلوه لازمًا لذاته كالمضطرِّ إلى صدوره عنه.

وكذلك المعتزلة الجهمية نزَّهوه عن صفات كماله لئلا يقعوا في تشبيه[2]، ثمّ شبَّهوه بخلقه في أفعاله، وحكموا عليه بحسن ما يحسن منهم وقبح ما يقبح منهم، مع تشبيهه بها[3] في سلبِ صفات كماله بالجمادات والناقصات. فإنَّ[4] من فرَّ من إثبات السمعِ والبصرِ والكلام والحياة له[5] لئلا يشبهه، فقد شبَّهه بالأحجارِ التي لا تسمع ولا تبصر ولا تتكلَّم. ومن عطَّله عن صفة الكلام لما يلزم من تشبيه يزعمه[6]، فقد شبَّهه بأصحاب الخرَس والآفات الممتنع منهم الكلام[7].

ومن نزّهه عن نزوله كلَّ ليلة إلى سماءِ الدنيا، ودنوّه عشيةَ عرفة من أهل الموقف، ومجيئه يوم القيامة للقضاءِ بين عباده، فرارًا من تشبيهه بالأجسام، فقد شبّهه بالجماد الذي لا يتصرّف ولا يفعل ولا يجيء

---

(١) «ب»: «إعادته»، تحريف.

(٢) «ف»: «تشبيهه»، خلاف الأصل.

(٣) «بها» كذا في «ف» وغيرها، وحذفت في «ط». ومن هنا إلى «لئلا يشبهه» لم يظهر في مصورة الأصل، وهو جزء من السطر الأوَّل من لحق طويل كتب في الحاشية اليمنى من أسفلها إلى أعلاها.

(٤) «ك،ط»: «وإن».

(٥) «له» لم ترد في «ف».

(٦) «ب،ط»: «بزعمه»

(٧) «ب»: «بأصحاب الدنيا الممتنع منهم الكلام بالآفات»!

ولا يأتي ولا ينزل.

ومن نزّهه عن أن يفعل لغرض أو حكمة أو لداع إلى الفعل، حذرًا من تشبيهه بالفاعلين لذلك، فقد شبّهه بأهل السفه والعبث الذين لا يقصدون بأفعالهم غايةً محمودةً ولا غرضًا مطلوبًا محبوبًا.

ومن نزّهه عن خلق أفعال عباده وتصرّفه فيهم بالهداية والإضلال وتخصيص من شاءَ منهم بفضله أو منعه لمن شاءَ، حذرًا من الظلم بزعمه، فقد وصفه بأقبح الظلم والجور حيث يخلّد في أطباق النيران من استنفد عمره كلّه في طاعته، إذا فعل قبل الموت كبيرة واحدة، فإنّها تُحْبِط جميع تلك الطاعات، وتجعلها هباءً منثورًا، ويخلّد في جهنّم مع الكفار ما لم يتب منها، إلى غير ذلك من أصولهم الفاسدة.

فهذا وأمثالُه فرّوا منه[1]، وهدى[2] الله الذين آمنوا لما اختلفوا من الحق بإذنه، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم.

---

(١) «فهذا وأمثاله» لم يظهر في مصورة الأصل لوقوع الحبر عليه، وقد أثبتناه من«ف»، هو ساقط من «ك،ب». وفي «ب»: «فرارًا من الحقّ»، ولعلّه إصلاح للنص المبتور. والعبارة بكاملها حذفت من «ط».

(٢) كذا في الأصل و«ف». ولم يقصد المؤلف نقل الآية (٢١٣) من البقرة، وإنّما أراد الاقتباس منها في كلامه. وفي «ب،ك»: «فهدى».

[٥٧/أ] قاعدة

كمال العبد وصلاحه يتخلّف عنه من أحد[١] جهتين:

إمّا أن تكون طبيعته يابسةً قاسيةً غيرَ ليّنة ولا منقادة ولا قابلة لما به كمالُها وفلاحُها[٢].

وإمّا أن تكون ليّنة منقادة سلسة القياد، لكنّها غير ثابتة على ذلك، بل سريعة الانتقال عنه كثيرة التقلّب.

فمتى رُزق العبدُ انقيادًا للحقّ وثباتًا عليه فَلْيُبْشِرْ، فقد يُسِّر لِكلّ خير[٣]، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.

---

(١) كذا في الأصل وغيره. وانظر ما سبق في ص(٧٩). وفي «ط»: «إحدى».

(٢) «ب»: «فلاحها وكمالها».

(٣) «ك، ط»: «بشر بكل خير»، تصحيف.

قاعدة

إذا ابتلى الله عبدَه بشيء من أنواع البلايا[1] والمحن فإنْ ردّه ذلك الابتلاءُ والامتحان[2] إلى ربّه، وجمعه عليه، وطرحه ببابه، فهو علامة سعادته وإرادة الخير به. والشدّة بَتْراءُ لا دوام لها وإن طالت، فتقلع عنه حين تقلع، وقد عُوِّض منها أجلَّ عوض وأفضلَه، وهو رجوعُه إلى الله بعد أن كان شاردًا عنه، وإقبالُه عليه بعد أن كان نائيًا عنه، وانطراحُه على بابه وقد كان عنه معرضًا[3]، وللوقوف على أبواب غيره متعرّضًا.

وكانت البلية في حقّ هذا عين النعمة، وإن ساءَته، وكرهها طبعه، ونفرت منها نفسه.

فربّما كان مكروهُ النفوسِ إلى محبوبِها سببًا ما مثله سببُ[4]

وقوله تعالى في ذلك هو الشفاءُ والعصمة: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾﴾[البقرة/ ٢١٦].

وإن لم يردَّه ذلك البلاءُ إليه، بل شرّد قلبَه عنه، وردّه إلى الخلق، وأنساه ذكرَ ربِّه، والضراعةَ إليه، والتذلّلَ بين يديه، والتوبةَ والرجوع

---

(١) «ب»: «عبده بأنواع البلايا».

(٢) «ك،ط»: «المحن».

(٣) «ب،ك،ط»: «بابه بعد أن كان معرضًا».

(٤) أثبت هذا البيت في «ف،ك،ط» نثرًا. وقد أنشده المؤلف في زاد المعاد (٣/ ٣١٠) وإغاثة اللهفان (٢/ ٨٠٣)، وشفاء العليل (٣٤٤)، ومدارج السالكين (١/ ٥٠١). وهو من أبيات أوردها ابن العديم في بغية الطلب (٣٧٩٢).

إليه؛ فهو علامة شقاوته وإرادة الشرّ به. فهذا إذا أقلع عنه البلاءُ ردّه إلى حكم طبيعته، وسلطان شهوته، ومرحه وفرحه؛ فجاءَت طبيعتُه عند القدرة بأنواع الأشَر والبطَر والإعراض عن شكر المنعم عليه بالسرّاء، كما أعرض عن ذكره والتضرّع إليه في الضرّاءِ. فبليةُ هذا وبالٌ عليه وعقوبة ونقص في حقّه، وبليةُ الأوّل تطهير له ورحمة وتكميل. وبالله التوفيق[1].

---

(١) «ب»: «والعصمة».

قاعدة

في مشاهد الناس في المعاصي والذنوب(١)

الناس(٢) في البلوى التي تجري عليهم أحكامُها بإراداتهم(٣) وشهواتهم متفاوتون ـ بحسب شهودهم لأسبابها وغايتها ـ أعظم تفاوت. وجماع ذلك ثمانية مشاهد(٤):

---

(١) كتب في الأصل أولاً كلمة «قاعدة» فقط، ثم أضيف في الحاشية بخط مختلف هذا العنوان: «قاعدة. . . الذنوب» مع علامة «صح». وفيه «مشاهدة» بدلاً من «مشاهد». ولكن ناسخ «ف» نقل العنوان كما أثبتنا، وكذا في غيرها. وهو الذي يؤيده كلام المصنف في هذا الفصل، وفي مفتاح دار السعادة ومدارج السالكين.

(٢) «ط»: «والناس»، وصحح في القطرية.

(٣) «ب، ك، ط»: «بإرادتهم».

(٤) كتب في الأصل أوّلاً: «ويجمع ذلك أربعة أقسام أحدها. . . القسم الثاني» ثمَّ استبدل به ما في المتن. وقد أشار المؤلف في مفتاح دار السعادة (٢/ ٢٥٤) إلى أنّه ذكر في كتابه «الفتوحات القدسية» مشاهد الخلق في مواقعة الذنب وأنّها تنتهي إلى ثمانية مشاهد ثمَّ أوردها بالاختصار، والكتابان (المفتاح والفتوحات) أُلِّفا قبل طريق الهجرتين. وقد عقد المؤلف فصلاً في كتاب مدارج السالكين (١/ ٤٧٩)، وذكر فيه ثلاثة عشر مشهدًا أربعة منها للمنحرفين والبواقي لأهل الاستقامة، ثمَّ قال: إنَّ هذا الفصل لا تظفر به في كتاب إلا ما ذكره في كتابه «سفر الهجرتين في طريق السعادتين» يعني هذا الكتاب. وقد ذكر هنا أولاً أربعة مشاهد، وقسَّم المشهد الرابع إلى قسمين، ثمَّ زاد عليه في الحاشية: «فهذه ستة مشاهد. المشهد السابع مشهد الحكمة. . .» وأضيفت إلى الأصل «وريقة» ليست بين أيدينا. والجدير بالذكر أنَّ المشهد الثامن لم يذكر هنا، ثمَّ المشاهد السبعة المذكورة تختلف بعض الاختلاف عما ذكر في مفتاح دار السعادة.

أحدها[١]: شهود السبب الموصل إليها، والغاية المطلوبة منها فقط. **وهو شهود الحيوانات**، إذ لا تشهد إلاّ طريق قضاء[٢] وطَرها، وبرد النفس بعد تناولها. وهذا الضرب من الناس ليس بينه وبين الحيوان البهيم في ذلك فرق إلاّ تدقيق[٣] الحيلة في الوصول إليها، وربمّا زاد غيره من الحيوانات عليه في تناولها ولذّته بها[٤].

المشهد الثاني[٥]: **من يشهد مع ذلك مجرّدَ الحكم القدري** وجريانه عليه، ولا يتجاوز[٦] شهوده ذلك. وربما رأى أنّ الحقيقة هي توفية هذا المشهد حقَّه، ولا يتمّ له ذلك إلاّ بالفناءِ عن شهود فعله هو جملةً، فيشهد الفاعلَ فيه غيرَه والمحرّكَ له[٧] سواه، فلا ينسب إلى نفسه فعلاً، ولا يرى لها إساءَة، ويزعم أنّ هذا هو التحقيق والتوحيد.

وربمّا زاد على ذلك أنّه يشهد نفسه مطيعًا من وجه، وإن كان عاصيًا من وجه آخر، فيقول: «أنا مطيع للإرادة[٨] والمشيئة، وإن كنت عاصيًا للأمر»[٩]. فإن[١٠] كان ممّن يرى الأمر تلبيسًا وضبطًا لِلرَّعاع عن الخبطِ

(١) سمّاه في المفتاح: «المشهد الحيواني البهيمي».
(٢) «قضاء» ساقط من «ك، ط».
(٣) «ك، ط»: «بدقيق»، تصحيح.
(٤) «ك»: «مع تناولها ولذّتها». «ط»: «مع... لذاتها».
(٥) سمّاه في المفتاح: «مشهد الجبر». وانظر: المدارج (١/ ٤٨٥).
(٦) «ب، ك»: «يجاوز». «ط»: «يجوز».
(٧) «له» ساقط من «ك، ط».
(٨) «ك، ط»: «الإرادة».
(٩) سبق في ص(٥٥).
(١٠) «ك، ط»: «وإن».

والجريانِ(١) مع حكم الطبيعة الحيوانية فقط(٢)، رأى نفسه مطيعًا لا عاصيًا، كما قال قائلهم في هذا المعنى:

أصبحتُ منفعلاً لما يختاره ... منّي ففعلي كلُّه طاعاتُ(٣)

وأصحاب المشهد الأول أقرب إلى السلامة من هؤلاءِ وخير منهم. وهذا المشهد بعينه هو المشهد الذي شهده(٤) المشركون عبّاد الأصنام، ووقفوا عنده، كما قالوا: ﴿لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُم﴾[الزخرف/ ٢٠]. وقالوا: ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ﴾(٥)[الأنعام/ ١٤٨]. ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ﴾(٦)[يس/ ٤٧]. فهذا مشهد من أشرك بالله وردّ أمرَه، وهو مشهد إبليس الذي انتهى إليه إذ يقول لربه: ﴿رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾﴾[الحجر/ ٣٩](٧).

المشهد الثالث: مشهد الفعل الكسبيّ القائم بالعبد فقط(٨)،

---

(١) «ك، ط»: «الحرمان»، تحريف.

(٢) «ط»: «فقد»، تحريف.

(٣) سبق في ص(٥٥).

(٤) «ط»: «يشهده».

(٥) في النسخ كلها: ﴿وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ﴾ وهو جزء من الآية (٣٥) من سورة النحل.

(٦) في «ب» أكمل الآية: ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٤٧﴾﴾.

(٧) في «ك، ط» زيادة: «والله أعلم».

(٨) سمّاه في المفتاح: «مشهد القدر» وفي المدارج: «مشهد القدرية النفاة». ولكن ذكر تحت هذا المشهد هنا منكر القدر، ومن ليس منكرًا ولكنه مغلوب مع نفسه.

ولا يشهد إلاّ صدورَه عنه وقيامه به، ولا يشهد مع ذلك مشيئةَ الربّ له، ولا جريانَ حكمه القدريّ به، ولا عزّةَ الربّ تعالى في قضائه ونفوذ أمره. بل قد فني بشهود معصيته وذنبه[1] وقبح ما اجترمه عن شهود المشيئة النافذة والقدر السابق، إمّا لعدم اتساع قلبه لشهود الأمرين، فقد امتلأ من شهود ذنبه وجرمه وفعله، مع أنّه مؤمن بقضاءِ الربّ وقدره، وأنّ العبد أقلّ قدرًا[2] من أن يُحدِث في نفسه ما لم يسبق به مشيئةُ بارئه وخالقه. وإمّا لإنكاره القضاءَ والقدر جملةً، وتنزيهه للرب تعالى أن يُقدِّر على العبد شيئًا ثمّ يلومه عليه.

فأما الأول وإن[3] كان مشهده صحيحًا نافعًا له موجِبًا له أن لا يزال لائمًا لنفسه، مُزريًا عليها[4]، ناسبًا للذنب والعيب إليها، معترفًا بأنّه يستحقّ العقوبة والنكال، وأنّ الله تعالى إن عاقبه فهو العادل فيه وأنّه هو الظالم لنفسه، وهذا كلّه حقّ لا ريب فيه؛ لكن صاحبه ضعيف مغلوب مع نفسه غيرُ مُعانٍ عليها، بل هو معها كالمقهور المخذول، فإنّه لم يشهد عزّةَ الربّ تعالى في قضائه ونفوذ أمره الكوني ومشيئته، وأنّه لو شاءَ لعصمه وحفظه، وأنّه لا معصوم إلاّ من عصمه، ولا محفوظ إلاّ من حفظه، وأنّه هو محلّ لجريان أقضيته وأقداره، مسوق إليها في سلسلة إرادته وشهوته، وأنّ تلك السلسلة طرفها بيد غيره، فهو القادرُ على سَوقه بها[5] إلى ما فيه صلاحه وفلاحه، وإلى ما فيه هلاكه وشقاؤه.

(١) «ط»: «بذنبه»، خطأ.

(٢) «ف»: «أمرًا»، خلافًا للأصل.

(٣) «ب»: «فإن».

(٤) «ب»: «لنفسه لائمًا، عليها مزريًا».

(٥) «ط»: «فيها».

فهو لغَيبته عن هذا المشهد، وغلبة شهود المعصية والكسب على قلبه، لا يعطي التوحيدَ حقَّه، ولا الاستعانة[١] بربِّه والاستغاثة به واللجأ[٢] إليه والافتقار والتضرع والابتهال حقَّه، بحيث يشهد سرَّ قوله ﷺ: «أعوذ برضاك من سخطك، وأعوذ بعفوك من عقوبتك، وأعوذ بك منك»[٣]. فإنَّه سبحانه ربُّ كل شيء وخالقُ كل شيء، فالمستعاذُ[٤] منه واقع بخلقه ومشيئته، ولو شاء لم يكن، فالفرار منه إليه، والاستعاذة منه به، ولا ملجأ منه إلا إليه، ولا مهرب منه إلا إليه، لاإله إلا هو العزيز الحكيم.

[٥٧/ب] وأمَّا الثاني ـ وهو منكر القضاء والقدر ـ فمخذول، محجوب عن شهود التوحيد، مصدود عن شهود الحكمة الإلهية، موكول إلى نفسه، ممنوع عن شهود عزَّة الرب تعالى في قضائه وكمال مشيئته ونفوذ[٥] حكمه، وعن شهود عجزه هو وفقره، وأنَّه لا توفيق له إلا بالله، وأنَّه إن لم يُعِنْه الله فهو مخذول، وإن لم يوفقه ويخلقْ له عزيمة الرشد وفعله فهو عنه ممنوع. فحجابه عن الله غليظ، فإنَّه «لا حجاب أغلظ من الدعوى، ولا طريقَ إلى الله أقرب من دوام الافتقار إليه»[٦].

---

(١) «ط»: «الاستعاذة».
(٢) «ب،ك،ط»: «الالتجاء».
(٣) سبق تخريجه (٥٧).
(٤) في «ف» وغيرها: «والمستعاذ»، قراءة محتملة.
(٥) «ب»: «نفاذ».
(٦) من كلام سهل بن عبدالله التستري. انظر صفة الصفوة (٢/ ٢٣٤)، ومجموع الفتاوى (٧/ ٢٠). وانظر الوابل الصيب (١٢)، والمدارج (١/ ٥١١). وسيأتي مرة أخرى في ص(٣٦٦).

المشهد الرَّابع: مشهد التوحيد والأمر[١]، فيشهد انفرادَ الرب تعالى بالخلق، ونفوذَ مشيئته، وتعلقَ الموجودات[٢] بأسرها بها[٣]، وجريانَ حكمه على الخليقة، وانتهاءها إلى ما سبق[٤] في علمه، وجرى به قلمه. ويشهد مع ذلك أمره ونهيه وثوابه وعقابه، وارتباطَ الجزاء بالأعمال واقتضاءها له، ارتباطَ المسبَّبات بأسبابها، التي جُعِلَت أسبابًا مقتضيةً له[٥] شرعًا وقدرًا وحكمة.

فشهودُه توحيدَ الرب تعالى وانفرادَه بالخلقِ ونفوذَ مشيئته وجريانَ قضائه وقدره يفتحُ له بابَ الاستعانة به[٦] ودوام الالتجاء إليه والافتقار إليه. وذلك يُدنيه من عتبة العبودية، ويطرحه بالباب فقيرًا عاجزًا مسكينًا، لا يملك لنفسه ضرًّا ولا نفعًا ولا موتًا ولا حياةً ولا نشورًا. وشهودُه أمرَه تعالى ونهيَه وثوابَه وعقابَه يُوجِبُ له الجِدَّ[٧] والتشمير، وبذلَ الوسع، والقيامَ بالأمر، والرجوع على نفسه باللّوم والاعتراف بالتقصير. فيكون سيرُه بينَ شهودِ العزَّةِ والحكمة والقدرة الكاملة والعلم السابق والمنَّة العظيمة، وبينَ شهودِ التقصير والإساءةِ منه وتطلّب عيوبِ

---

(١) سمّى المشهد الرابع في المفتاح: «مشهد أهل العلم والإيمان، وهو مشهد القدر والشرع»، ثم سمّى المشهد السادس: «مشهد التوحيد». وانظر المدارج(١/ ٤٩١).

(٢) يحتمل قراءة «الوجودات».

(٣) «بها» يعني: بمشيئته. وفي «ط»: «به».

(٤) «ط»: «سبق لها».

(٥) كذا في الأصل وغيره، والضمير راجع إلى الجزاء. وفي «ط»: «لها».

(٦) «ك، ط»: «الاستعاذة ودوام».

(٧) «ك، ط»: «الحمد»، تحريف.

نفسه وأعمالها. فهذا هو العبدُ الموفق المعان، الملطوف به، المصنوع له، الذي أقيم في مقام[1] العبودية، وضُمِنَ له التوفيق.

وهذا هو مشهد الرسل صلوات الله وسلامه عليهم، فهو مشهد أبيهم آدم، إذ يقول: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾[الأعراف/ ٢٣].

ومشهد أوَّل الرسل نوح، إذ يقول: ﴿رَبِّ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ ۖ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِىٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٤٧﴾﴾[هود/ ٤٧].

ومشهد إمام الحنفاءِ وشيخ الأنبياء إبراهيم صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين، إذ يقول: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٨٢﴾﴾[الشعراء/ ٧٨-٨٢].

وقال في دعائه: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾﴾[إبراهيم/ ٣٥] فعلِمَ ﷺ أنَّ الذي يحول بين العبدِ وبين الشرك وعبادة الأصنام هو الله لا ربَّ غيره، فسأله أن يجنِّبَه وبنيه عبادةَ الأصنام.

وهذا هو مشهد موسى إذ يقول في خطابه لربِّه: ﴿أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ ۖ إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِى مَن تَشَآءُ ۖ أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا ۖ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَٰفِرِينَ ﴿١٥٥﴾﴾[الأعراف/ ١٥٥] أي إنْ ذلك إلا امتحانُك واختبارُك، كما يقال: فتنت الذهب إذا امتحنته واختبرته، وليس من

(١) «ك، ط»: «أقيم مقام».

الفتنة التي هي الفعل السيء[1] كما في قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُواْ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾[البروج/ ١٠]، وكما في قوله: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾[البقرة/ ١٩٣]، فإنَّ تلك فتنة المخلوق. وموسى[2] أعلم بالله تعالى أن يضيف إليه هذه الفتنة. وإنَّما هي كالفتنة في قوله تعالى: ﴿وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًا﴾[طه/ ٤٠] أي ابتليناك، واختبرناك، وصرَّفناك في الأحوال التي قصَّها الله سبحانه علينا من لدن ولادته إلى وقت خطابه له وإنزاله عليه كتابَه[3].

والمقصود أنَّ موسى ﷺ شهد توحيدَ الرب وانفرادَه بالخلق والحكم، وفعلَ السفهاء ومباشرتَهم الشرك، فتضرع إليه بعزَّته وسلطانه وأضافَ الذنب إلى فاعله وجانيه. ومن هذا قوله ﷺ: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَٱغْفِرْ لِي﴾ قال تعالى: ﴿فَغَفَرَ لَهُۥٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝١٦﴾[القصص/ ١٦].

وهذا مشهد ذي النون، إذ يقول: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٨٧﴾[الأنبياء/ ٨٧] فوحَّد ربَّه تعالى، ونزَّهه عن كلِّ عيبٍ، وأضافَ الظلم إلى نفسه.

وهذا مشهد صاحب سيِّد الاستغفار، حين[4] يقول في دعائه: «اللَّهم أنت ربِّي لا إلهَ إلا أنتَ، خَلَقْتَني وأنا عبدُكَ، وأنا على عَهدك ووعدك ما استطعتُ، أعوذُ بِكَ من شرِّ ما صنعتُ، أبوءُ لَكَ بنعمتك

(١) «ط»: «المسيء».
(٢) «ك، ط»: «فإنَّ موسى».
(٣) «ف»: «كلماته»، سهو.
(٤) «ك، ط»: «إذ».

عليَّ، وأبوءُ بذنبي، فاغفر لي، إنَّه لا يغفرُ الذنوب إلا أنتَ»[(١)].

فأقرَّ بتوحيد الربوبية المتضمن لانفراده سبحانه بالخلقِ وعموم المشيئة ونفوذها، وتوحيد الإلهية المتضمن لمحبته وعبادته وحده لا شريك له، والاعتراف بالعبودية المتضمن للافتقار من جميع الوجوه إليه سبحانه.

ثمَّ قال: «وأنا على عهدك ووعدك»، فتضمن ذلك التزام شرعه وأمره ودينه ـ وهو العهد الذي عهِدَه إلى عباده ـ وتصديقَ وعده، وهو جزاؤه وثوابه[(٢)]. فتضمن التزام الأمر، والتصديق بالموعود، وهو الإيمان والاحتساب.

ثمَّ لمَّا علم أنَّ العبدَ لا يوفي هذا المقام حقَّه الذي يصلح له تعالى علَّق ذلك باستطاعته وقدرته التي لا يتعدَّاها، فقال: «ما استطعتُ» أي ملتزم[(٣)] ذلك بحسب استطاعتي وقدرتي.

ثمَّ شهد المشهدين المذكورين، وهما مشهد القدرة والعزَّة[(٤)]. ومشهد التقصير من نفسه، فقال: «أعوذُ بكَ من شرِّ ما صنعتُ»، فهذه الكلمة تضمنت المشهدين معًا.

ثمَّ أضافَ النعم كلها إلى وليِّها وأهلها والمبتدىء بها، والذنبَ إلى نفسه وعمله، فقال: أبوءُ لك بنعمتك عليَّ، وأبوءُ بذنبي». فأنتَ

---

(١) تقدم تخريجه (٢٠٣).

(٢) «ط»: «من ثوابه».

(٣) «ط»: «ألتزم.

(٤) «ك، ط»: «القوّة».

المحمود المشكور[1] الذي له الثناءُ كلُّه، والإحسان كلّه، ومنه النعم كلّها. فلك الحمد كلّه، ولك الثناء كله، ولك الفضل كله، وأنا المذنب المسيء، المعترف بذنبه، المقِرُّ بخطائه[2]، كما قال بعض العارفين[3]: «العارفُ يسير بين مشاهدة المنَّة من الله، ومطالعة عيب النفس والعمل». فشهودُ المنَّة تُوجبُ[4] له المحبة لربِّه سبحانه وحمدَه والثناء عليه، ومطالعةُ عيب النفس والعمل يوجب استغفارَه [٥٨/أ] ودوامَ توبته وتضرعه واستكانته لربِّه سبحانه.

ثمَّ لمَّا قامَ هذا بقلب الداعي وتوسل إليه بهذه الوسائل قال: «فاغفر لي فإنَّه لا يغفر الذنوب إلا أنت»[5].

فصل[6]

ثمَّ أصحاب هذا المشهد فيه قسمان:

أحدهما[7]: من يشهد تسلّط[8] عدوه عليه، وقياده[9] إيَّاه بسلسلة

---

(١) «ب، ت، ط»: «والمشكور».

(٢) «ط»: «بخطئه».

(٣) هو صاحب منازل السائرين. انظر: المنازل (١١)، والمدارج (١/ ٢٩٦). وقد أورد المصنف قوله في الوابل الصيب (١٠)، وشفاء العليل (٤١) أيضًا.

(٤) كذا في الأصل و«ف». وفي «ك، ط»: «يوجب».

(٥) وانظر في تفسير سيد الاستغفار: ما سبق في ص (٢٠٣)، والوابل الصيب (١١)، والمدارج (١/ ٥٢٩٦).

(٦) «فصل» ساقط من «ب، ط».

(٧) وهو المشهد الخامس.

(٨) «ك، ط»: «تسليط».

(٩) «ك، ط»: «فساده إياه وسلسلة» تحريف.

الهوى، وكبحَه إيَّاه بلجام الشهوة. فهو أسيرٌ معه بحيث يسوقه إلى ضرب عنقه، وهو مع ذلك ملتفت إلى ربِّه وناصره ووليه، عالم بأنَّ نجاته في يديه، وأنَّ ناصية عدوه بيده[١]، وأنَّه لوشاءَ طرده عنه وخلَّصه من يديه. فكلَّما قاده عدوه وكبحه بلجامه أكثر الالتفاتَ إلى وليِّه وناصره، والتضرع إليه، والتذلل بين يديه. وكلَّما زاد[٢] اغترابُه وبعدُه عن بابه تذكّر عطفَه وبره وإحسانه وجوده وكرمه وغناه وقدرته ورأفته ورحمته، فانجذبت دواعي قلبه هاربةً إليه، متراميةً[٣] على بابه، منطرحةً على فنائه؛ كعبد قد شُدَّتْ يداه إلى عنقه، وقُدِّمَ لتضرب عنقُه، وقد استسلم للقتل، فنظرَ إلى سيِّده أمامه، وتذكر عطفه ورأفته به، ووجدَ فُرجةً، فوثب إليه منها. فهَبْه[٤] طرَحَ نفسه بين يديه، ومدّ له عنقَه، وقال: أنا عبدك ومسكينك، وهذه ناصيتي بين يديك، ولا خلاص لي من هذا العدوّ إلاّ بك، وإنّي مغلوب فانتصر. فهذا مشهد عظيم المنفعة جليل الفائدة تحته من أسرار العبودية ما لا يناله الوصف.

وفوقه مشهد أجلُّ منه وأعظم وأخصّ[٥]، تجفو[٦] عنه العبارة، وإن

---

(١) في الأصل: «به»، مكان «بيده»، وكذا في «ف،ك». وكتب فوقه في «ف»: «كذا». والمثبت من «ب». وفي «ط»: «بين يديه». وقد كتب أوَّلاً في الأصل: «وأنَّ عدوَّه» ثم ضرب على «عدوه» فوصل خط الضرب إلى حرف النون في «أنَّ». ومن ثم حذف «أنَّ» في «ب،ك». وقد تحرف «عدوه» في «ك» إلى «هدوه» فكتب بعضهم فوقه: «بين يديه»، كما في «ط».

(٢) «ك،ط»: «أراد»، تحريف.

(٣) «ط»: «بترامیه»، تحريف.

(٤) «ب،ك،ط»: «وثبة»، ولعله تحريف.

(٥) وهو المشهد السادس.

(٦) «ف»: «وهو تجفو»، والظاهر أنَّ «وهو» مضروب عليه في الأصل.

أشارت[١] إليه بعضَ الإشارة. وتقريبه إلى الفهم بضرب مثل يعبر[٢] منه إليه، وذلك مثَلُ عبدٍ أخذه سيّده بيده، وقدّمه ليضرب عنقَه بيده، فهو قد أحكم ربطَه، وشدّ عينيه، وقد أيقن العبد أنّه في قبضته، وأنّه هو قاتله لا غيره. وقد علم مع ذلك برَّه به ولطفه، ورحمته ورأفته، وجوده وكرمه؛ فهو يناشده بأوصافه، ويدخل عليه به، قد ذهب عن وهمه وشهوده كلُّ سبب[٣]، وانقطع[٤] تعلّقه بشيء سواه، فهو معرِض عن عدوه الذي كان سببَ غضب سيّده عليه، قد محا شهودَه من قلبه، فهو مقصورُ النظر إلى سيّده وكونه في قبضته، ناظرٌ إلى ما يصنعه به[٥]، منتظرٌ منه ما يقتضيه عطفه وبرّه وكرمه.

ومثَلُ الأول مثلُ عبدٍ أمسكه عدوّه وهو يخنقه للموت، وذلك العبد يشهد خنقَ[٦] عدوّه له، ويستغيث بسيّده، وسيّدُه يغيثه ويرحمه.

ولكنّ ما يحصل للثاني في مشهده ذلك من الأمور العجيبة فوق ما يحصل للأول، وهو بمنزلة من قد أخذه محبوبُه، فهو يخنقه خنقةً، وهو لا يشهد إلاّ خنقه له، فهو يقول: اخنُقْ خنقَك، فأنت تعلم أنّ قلبي يحبّك!

---

(١) «ك،ط»: «الإشارة»، تحريف.
(٢) «ب،ك،ط»: «تعبر».
(٣) «ك،ط»: «نسب»، تحريف.
(٤) «ط»: «فانقطع».
(٥) «به» ساقط من «ب،ك،ط».
(٦) «ب،ك،ط»: «دنوّ»، تحريف.

وفي هذا المثلِ إشارةٌ وكفاية، ومن غلُظَ حجابُه وكثفت طباعُه لا ينفعه التصريحُ، فضلاً عن ضرب الأمثالِ. والله المستعان، وعليه التكلان، ولا قوّة إلا باللهِ.

فهذه ستَّة مشاهد.

المشهد السابع: مشهد الحكمة، وهو أن يشهد حكمةَ الله في تخليته بينه وبين الذنب، وإقداره عليه، وتهيئة[1] أسبابه له، وأنَّه لوشاءَ لعصمه وحالَ بينه وبينه، ولكنَّه خلَّى بينه وبينه لحِكَم عظيمة لا يعلم مجموعها إلا الله[2]:

أحدها: أنَّه سبحانه يحب التوابين ويفرح بتوبتهم، فلمحبته للتوبة وفرحه بها قضى على عبده بالذنب، ثمَّ إذا كان ممَّن سبقت له العنايةُ قضى له بالتوبة.

الثاني: تعريف العبد عزَّةَ الرب تعالى[3] في قضائه، ونفوذ مشيئته، وجريان حكمه.

الثالث: تعريفه حاجته إلى حفظه وصيانته، وأنَّه إن لم يحفظه ويصنه

---

(١) «ط»: «تهيئته».

(٢) أشار المصنف في المفتاح (٢/ ٢٥٥) إلى أنَّه ذكر قريبًا من أربعين حكمة في كتابه الفتوحات القدسية، ثمَّ ذكر نحو (٣٤) حكمة. أمَّا هنا فقد ذكر (٣١) حكمة لخصها وفرَّعها مما ذكره في المفتاح (٢/ ٢٥٧ ـ ٣٠١)، وانظر: المدارج (١/ ٤٨٧).

(٣) من هنا إلى آخر الفصل اعتمدنا على «ف» وغيرها، لأن «الوريقة» التي أضيفت إلى الأصل وكانت مشتملة على هذه الزيادة التي بدأت في الحاشية من قوله: «فهذه ستة. . .» لم توجد في المصورة. ولعلها ضاعت من النسخة الأصلية.

فهو هالك ولا بد، والشياطين قد مدَّت أيديها إليه تمزّقه كلَّ ممزَّق.

الرابع: استجلابه من العبد استغاثته[1] به، واستعاذته[2] به من عدوّه وشرّ نفسه، ودعاءه، والتضرع إليه، والابتهال بين يديه.

الخامس: إرادته من عبده تكميلَ مقام الذل والانكسار، فإنَّه متى شهد صلاحه واستقامته شمَخ بأنفه، وظنَّ أنَّه... وأنَّه...! فإذا ابتلاه بالذنب تصاغرت عنده نفسُه وذلَّت، وتيقن[3] أنَّه... وأنَّه...!

السادس: تعريفه بحقيقة نفسه، وأنَّها الظالمة[4] الجاهلة، وأنَّ كلَّ ما فيها من علم أو عدلٍ[5] أو خير فمن الله، منَّ به عليه، لا من نفسه.

السابع: تعريفه عبدَه سعةَ حلمه تعالى وكرمَه في ستره عليه، فإنَّه لو شاءَ لعاجله على الذنب، ولهتكه بين عباده، فلم يصفُ له معهم عيش.

الثامن: تعريفه أنَّه لا طريق إلى النجاة إلا بعفوه ومغفرته.

التاسع: تعريفه كرمَه في قبول توبته، ومغفرتَه له على ظلمه وإساءته.

العاشر: إقامة الحجة على عبده، وأنَّه[6] له عليه الحجة البالغة، فإن عذَّبه فبعدله، وببعض حقه عليه، بل اليسير منه.

---

(١) «ب، ك، ط»: «استعانته».

(٢) «ب»: «استغاثته».

(٣) «ك، ب، ط»: «تيقن وتمنَّى». وانظر نحو هذه العبارة في المفتاح (٢/ ٢٦٨).

(٤) «ط»: «الخطالة»، تحريف. وانظر: المفتاح (٢/ ٢٧٠).

(٥) «ط»: «عمل»، تحريف.

(٦) «ب، ك، ط»: «فإن».

الحادي عشر: أن يعامل عباده في إساءتهم إليه وزلأتهم معه بما يُحِب أن يعامله الله ُبه، فإنَّ الجزاءَ من جنس العمل؛ فيعتمد[1] في ذنوب الخلق معه مايحب أن يصنعه الله بذنوبه.

الثاني عشر: أن يقيم معاذير الخلائق، وتتسع رحمتُه لهم، مع إقامة أمر الله فيهم[2]. فيقيم أمر الله فيهم[3] رحمةً لهم، لا قسوةً وفظاظةً عليهم.

الثالث عشر: أن يخلع صولة الطاعة والإحسان من قلبه، فتتبدَّل برقَّة[4] ورأفة ورحمة.

الرابع عشر: أن يُعرّيه من رداءِ[5] العُجْب بعمله، كما قال النبيّ ﷺ: «لو لَمْ تُذْنِبُوا لَخِفْتُ عليكم ما هو أشدُّ منه: العُجْبَ»[6]، أوكما قال.

الخامس عشر: أن يعرِّيه من لباس الإدلال الذي يصلح[7] للملوك، ويُلبِسه لباسَ الذل الذي لا يليق بالعبد سواه.

---

(١) كذا في «ف،ب». أي يقصد. وفي«ك،ط»: «يعمل».

(٢) «فيهم» لم يرد في «ب»

(٣) «فيقيم أمر الله فيهم» من «ب،ك،ط»، ولم يرد في «ف».

(٤) «ب»: «من قلبه رقَّة».

(٥) «ب»: «داء»، تحريف. وانظر: المفتاح (٢/ ٢٧٨).

(٦) أخرجه البزار كما في كشف الأستار (٣٦٣٣)، وابن عدي في الكامل (٣/ ٣٠٦)، وابن عدي في الكامل (٣/ ٣٠٦) من حديث أنس. قال الهيثمي: «وإسناده جيد». والحديث جعله ابن عدي من منكرات سلاَّم أبي المنذر لتفرده به عن ثابت البناني عن أنس (ز).

(٧) «ف»: «التي تصلح». ولعله سهو في النقل.

السادس عشر: أن يستخرج من قلبه عبوديته بالخوف والخشية وتوابعهما من البكاءِ والإشفاق والندم.

السابع عشر: أن يُعرّفه[1] مقدار نعمة معافاته[2]، وفضله في توفيقه وعصمته؛ فإنَّ من تربى في العافية لا يعرف ما يقاسيه المبتلى، ولا يعرف مقدار نعمة[3] العافية.

الثامن عشر: أن يستخرج منه محبته وشكرَه لربِّه إذا تابَ إليه ورجعَ إليه، فإنَّ الله يحبه ويُوجب له بهذه التوبة مزيدَ محبَّة وشكر ورضا لا يحصل بدون التوبة، وإن كان يحصل بغيرها من الطاعات أثر آخر، لكنَّ هذا الأثر الخاص لا يحصل إلا بالتوبة.

التاسع عشر: أنَّه إذا شهد إساءَته وظلمَه، استكثر[4] القليلَ من نعمة ربِّه[5]، لِعلمه بأنَّ الواصلَ إليه منها كثيرٌ على مسيء مثله؛ واستقل[6] الكثيرَ من عمله، لعلمه بأنَّ الذي يصلح له أن يغسل به نجاسَتَه وَوضَرَ ذنوبه[7] أضعافُ أضعافِ مايفعله، فهو دائمًا مستقل لعمله كائنًا ماكان. ولو لم يكن في فوائد الذنب وحكمه إلا هذا وحده لكان كافيًا.

---

(١) «ك،ط»: «يعرف».

(٢) «ب»: «نعمة العافية في معافاته». «ط»: «مقداره مع معافاته». وانظر: المفتاح (٢/ ٢٨١).

(٣) «نعمة» ساقط من«ك،ط».

(٤) «ك،ط»: «واستكثر».

(٥) «ك،ط»: «نعمة الله».

(٦) «ك،ط»: «فاستقل». وانظر: المفتاح (٢/ ٢٨٤).

(٧) «وضر» ساقط من«ب،ك،ط». وفي«ب»: «نجاسة ذنوبه».

العشرون: أنَّه يوجب له التيقظ والحذر من مصايد العدوّ ومكايده، ويُعرِّفه من أين يدخل عليه، وبماذا يحذر منه، كالطبيب الذي ذاقَ المرضَ والدواءَ.

الحادي والعشرون: أنَّ مثلَ هذا ينتفع به المرضى، لمعرفته بأمراضهم ودوائها[1].

الثاني والعشرون[2]: أنَّه يرفع عنه حجابَ الدعوى، ويفتح له طريقَ الفاقة، فإنَّه لا حجابَ أغلَظ من الدعوى، ولا طريق أقرب من العبودية[3]، فإنَّ دوام الفقر إلى اللهِ مع التخليط خير من الصفاءِ مع العجب[4].

الثالث والعشرون: أن يكون[5] في القلب أمراض مُزْمنة لا يشعر بها، فيطلب دواءَها، فيمُنُّ عليه اللطيفُ الخبيرُ، ويقضي عليه بذنب ظاهر، فيجد ألم مرضه، فيحتمي، ويشرب الدواء النافع، فتزول تلك الأمراض التي لم يكن يشعر بها. ومن لم يشعر بهذه اللطيفة فَلِغلظِ[6] حجابه، كما قيل:

---

(١) في «ف» وغيرها: «وأدوائها»، والظاهر أنه سهو. وانظر المفتاح (٢/ ٢٨٨).

(٢) في الأصل (ف): «الثالث والعشرون»، ولعله سهو، وقد استمر عليه، فوصل العدد إلى الثاني والثلاثين.

(٣) قوله: «لا حجاب...» من كلام سهل بن عبدالله التستري. وقد سبق في ص(٣٥٤).

(٤) من كلام ذي النون المصري. وقد تقدم في ص(١٠٥).

(٥) «ط»: «تكون». «ك»: «أنَّه يكون».

(٦) «ك، ط»: «فغلظ»، تحريف.

لعـلَّ عتبَـك محمــودٌ عواقـبُـه وربَّما صحَّت الأجسامُ بالعِلَلِ[1]

الرابع والعشرون: أن[2] يذيقه ألم الحجاب والبعد[3] بارتكاب الذنب، ليكمل له نعمته[4] وفرحه وسروره إذا أقبل بقلبه إليه، وجمَعه عليه[5]، وأقامه في طاعته، فيكون التذاذه بذلك[6] ـ بعد أن صدر منه ما صدر ـ بمنزلة التذاذ الظمآن[7] بالماءِ العذب الزلال، والشديد الخوف بالأمن، والمحب الطويل الهجر بوصل محبوبه. وإنَّ لطفَ الربِّ تعالى وبرَّه وإحسانه ليبلغ بعبده أكثر من هذا، فيا بؤس من أعرض عن معرفة ربِّه ومحبته!

الخامس والعشرون: امتحان العبد واختباره هل يصلح لعبوديته وولايته أم لا، فإنَّه إذا واقع[8] الذنبَ، سُلِبَ حلاوةَ الطاعة والقرب، ووقع في الوحشة. فإن كان ممن يصلح اشتاقت نفسه إلى لذَّة تلك المعاملة، فحنَّت، وأنَّت، وتضرَّعت، واستغاثت[9] بربِّها، ليردَّها إلى

---

(١) للمتنبي في ديوانه (٤٩٤) وفيه: «فربّما». وسيأتي مرَّة أخرى في ص (٥٠٨، ٦٠٢). وانظر: المفتاح (٢/ ٢٦٩)، والمدارج (١/ ٣٧٠،٣٧٥)، والفوائد (٦٧)، والوابل الصيب (٢٥).

(٢) «ب»: «أنَّه».

(٣) «ب»: «والتهديد»، تحريف. وانظر: المفتاح (٢/ ٢٩٠).

(٤) «ب»: «نعيمه».

(٥) «ب»: «عليه وجمعه إليه».

(٦) «ك، ط»: «في ذلك».

(٧) «ب»: «الظمآن الشديد الظمأ».

(٨) «ك، ط»: «وقع».

(٩) «ك، ط»: «واستعانت».

ما عوَّدها من بره ولطفه. وإن ركبتْ غيَّها[1]، واستمرَّ إعراضها، ولم تحِنَّ إلى معهدها[2] الأوَّل ومألفها، ولم تحسّ بضرورتها وفاقتها الشديدة إلى مراجعة قربها من ربها= علم أنَّها لا تصلح لله. وقد جاءَ هذا بعينه في أثر إلهي لا أحفظه.

السادس والعشرون: أنَّ الحكمة الإلهية اقتضت تركيبَ الشهوة والغضب في الإنسان، وفي ذلك حِكَمٌ[3] عظيمة لصانعه تبارك وتعالى. ولا ريبَ أنَّهما داعيان إلى أثريهما وموجَبيهما[4]، فلا بُدَّ من ترتب أثر داعي[5] الشهوة والغضب في الإنسان[6]، أوبعضها، ولو لم تُخلق[7] فيه هذه الدواعي لم يكن إنسانًا بل ملكًا. فالذنبُ من موجَبات البشرية، كما أنَّ النسيان من موجَباتها، كما قال النبي ﷺ: «كلُّ بَني آدمَ خطَّاءٌ وخيرُ الخطَّائين التوابون»[8]، ولا يتم الابتلاء والاختبار إلا بذلك[9].

السابع والعشرون: أن يُنسيه رؤيةَ طاعته، ويشغله برؤية ذنبه، فلا

---

(١) «ك، ط»: «ركنت عنها»، تصحيف.

(٢) «ط»: «عهدها».

(٣) «ك»: «حكمة».

(٤) «ب، ك»: «أثرها وموجبها».

(٥) في حاشية «ك»: «دواعي»، ولعله تصحيح من قارىء لما سيأتي من قول المصنف: «أو بعضها»، و«هذه الدواعي».

(٦) «وفي ذلك حكم عظيمة...» إلى هنا ساقط من «ط».

(٧) «ك، ط»: «يخلق».

(٨) أخرجه أحمد (١٣٠٤٩)، وابن ماجه (٤٢٥١)، والترمذي (٢٤٩٩) من حديث أنس. قال الترمذي: «هذا حديث غريب لا نعرفه إلاَّ من حديث علي بن مسعدة، عن قتادة». (ز).

(٩) زاد في «ك، ط»: «والله أعلم».

يزال نصب عينيه. فإنَّ الله إذا أراد بعبدٍ خيرًا سلب رؤيةَ أعماله الحسنة من قلبه، والإخبارَ بها من لسانه، وشغله برؤية ذنبه، فلا يزالُ نصب عينيه حتَّى يدخله(١) الجنَّة. فإنَّ ما يُقبل(٢) من الأعمال رُفِع من القلبِ رؤيتُه، ومن اللسان ذكرُه.

وقال بعض السلف: إنَّ العبدَ ليعمل الخطيئة فيدخل بها الجنَّة، ويعمل الحسنة فيدخل بها النار، قالوا: كيف؟ قال(٣): يعمل الخطيئة، فلا تزالُ نصب عينيه: إذا ذكرها ندم، واستقال، وتضرَّع إلى اللهِ، وبادرَ إلى محوها، وانكسر، وذلَّ لربِّه، وزال عنه عُجبه وكِبْره. ويعملُ الحسنة فلا تزال نصب عينيه: يراها، ويمنّ بها، ويعتدُّ بها، ويتكبر بها(٤)، حتَّى تدخله(٥) النار(٦).

الثامن والعشرون: أنَّ شهودَ ذنبه وخطيئته يُوجِب له أن لا يرى له على أحد فضلاً، ولا له على أحدٍ حقًّا؛ فإنَّه يشهد عيبَ نفسه وخطأها وذنوبها فلا يظن(٧) أنَّه خير من مسلم يؤمن بالله واليوم الآخر. وإذا شهد ذلك من نفسه لم ير لها على النَّاس حقوقًا من الإكرام يتقاضاهم إيَّاها، ويذمهم على ترك القيام بها، فإنَّها عنده أخسّ قدرًا وأقل قيمةً من أن

---

(١) «ب،ك،ط»: «يدخل».
(٢) «ك،ط»: «تقبل».
(٣) «ب»: «فقال».
(٤) «ب»: «يغتر بها ويتكثر بها».
(٥) «ك،ط»: «يدخل».
(٦) أخرجه ابن المبارك في الزهد (١٦٢) مرفوعًا من طريق المبارك بن فضالة عن الحسن مرسلاً. وأخرجه فيه (١٦٤) من كلام الحسن (ز).
(٧) «ط»: «إذا شهد عيب نفسه بفاحشة . . . لا يظن»!

يكون لها على عباد الله حقوقٌ يجب مراعاتها، أو لها عليهم فضلٌ يستحق أن يكرموه[1] لأجله. فيرى أنَّ من سلَّم عليه أو لقيه[2] بوجه منبسط قد أحسن إليه، وبذل له ما لا يستحقه، فاستراح في نفسه، واستراح الناس من تعتّبه[3] وشكايته. فما أطيبَ عيشَه! وما أنعمَ بالَه! وما أقرَّ عينه!

وأين هذا ممَّن لا يزال عاتبًا على الخلق، شاكيًا ترك قيامهم بحقِّه، ساخطًا عليهم، وهم عليه أسخط؟ فسبحان ذي الحكمة الباهرة التي بهرت عقولَ العالمين[4].

التاسع والعشرون: أنَّه يُوجِب له الإمساكَ عن عيوب الناس والفكرِ فيها، فإنَّه في شغلٍ بعيبه ونفسه. و«طوبى لمن شغله عيبُه عن عيوب النَّاس»[5]، وويلٌ لمن نسيَ عيبَه وتفرَّغ لعيوب النَّاس! فالأوَّل علامة السعادة، والثاني علامة الشقاوة[6].

الثلاثون: أنَّه يُوجب له الإحسان إلى الناس، والاستغفار لإخوانه المؤمنين الخطائين[7] فيصيرُ هِجِّيراه: «ربِّ اغفر لي ولوالديّ وللمسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات». فإنَّه يشهد أن إخوته

---

(١) «ك، ط»: «يلزموه»، تحريف.

(٢) «ب»: «ولقيه».

(٣) «ط»: «عتبه».

(٤) «عقول» ساقط من«ب». وانظر: المفتاح (٢/ ٢٩٦).

(٥) قطعة من خطبة للنبي ﷺ، أخرجها البزار وابن عدي في الكامل (١/ ٣٨٤)، والبيهقي في الشعب (١٠٠٨٩) كلهم عن أنس مرفوعًا، وفيه النصر بن محرز وغيره من الضعفاء. قاله الهيثمي في مجمع الزوائد (١٠/ ٢٢٩). (ز).

(٦) وانظر المفتاح (٢/ ٢٩٧).

(٧) «ك، ب، ط»: «الخاطئين من المؤمنين».

الخطَّائين[1] مصابون[2] بمثل ما أصيبَ به، محتاجون[3] إلى مثل ما هو محتاج إليه. فكما يحب أن يستغفر له أخوه المسلم يجب[4] أن يستغفر هو لأخيه المسلم.

وقد قال بعض السلف: إنَّ الله لمَّا عتَب على الملائكة في قولهم: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ﴾[البقرة/ ٣٠] وامتحن منهم[5] هاروتَ وماروتَ جعلت الملائكةُ بعد ذلك تستغفر لبني آدم ويدعون الله لهم[6].

الحادي والثلاثون: أنَّه يوجب له سعةَ بطانِه[7] وحلمه ومغفرته لمن أساءَ إليه. فإنَّه إذا شهد نفسه مع ربِّه سبحانه مسيئًا خاطئًا مذنبًا ـ مع فرط إحسانه إليه وبرّه به[8]، وشدَّة حاجته إلى ربِّه ـ فكيف يطمع أن يستقيم له

---

(١) «ط»: «إخوانه الخاطئين».
(٢) «ك، ط»: «يصابون».
(٣) «ط»: «ويحتاجون».
(٤) كذا في «ف، ك». وفي «ب»: «يُحَب» مضبوطًا بالمهملة المفتوحة.
(٥) «منهم» ساقط من «ك، ط».
(٦) انظر نحوه في المفتاح (٢/ ٢٩٨). وقصة هاروت وماروت على الوجه الذي أشير إليه من امتحانهما هنا وفي المدارج (١/ ٤٩٠) وشفاء العليل (٣٤٠) رويت عن جماعة من التابعين، وقصّها خلق من المفسرين، وهي راجعة في تفصيلها إلى أخبار بني إسرائيل وخرافاتهم التي لا يعوّل عليها، كما قال ابن كثير رحمه الله في التفسير (١/ ١٣٥) والبداية والنهاية (١/ ٨٤).
(٧) «ب»: «عطائه»، «ك، ط»: «إبطائه» وكلاهما تحريف. والبِطان: حزام يُشد على البطن، وسعة البطان كناية عن سعة الصدر.
(٨) «به»: «ساقط من «ك، ط».

الخلقُ، ويعاملوه[1] بمحض الإحسان، وهو لم يعامل ربَّه بتلك المعاملة؟ وكيف يطمع أن يطيعه مملوكُه وولدُه وزوجتُه في كلِّ ما يريد، وهو مع ربِّه ليس كذلك؟ وهذا يُوجِبُ له[2] أنْ يغفرَ لهم، ويسامحهم، ويعفو عنهم، ويغضي عن الاستقصاءِ[3] في طلب حقه قِبَلَهم[4].

---

(١) «ف، ك»: «يعاملونه».

(٢) «له» ساقط من «ط».

(٣) «ب»: «طلب الاستقصاء»، خطأ.

(٤) هذه آخر الزيادة التي كتبت في «الوريقة» الملحقة بالأصل.

قاعدة

[في الإنابة ودرجاتها]

كثيرًا ما يتكرَّر في القرآن ذكر الإنابة والأمر بها كقوله تعالى: ﴿وَأَنِيبُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا۟ لَهُۥ﴾[الزمر/ ٥٤]، وقوله حكايةً عن شعيب أنَّه قال: ﴿وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾﴾[هود/ ٨٨]، وقوله: ﴿تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٨﴾﴾[ق/ ٨]، وقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ ﴿٢٧﴾﴾[الرعد/ ٢٧]، وقوله عن نبيِّه داود: ﴿وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ﴿٢٤﴾﴾[ص/ ٢٤].

فالإنابة[(١)]: الرجوع إلى الله، وانصراف دواعي القلب وجواذبه[(٢)] إليه. وهي تتضمَّن المحبَّة والخشية[(٣)]، فإنَّ المنيب محب لمن أناب إليه، خاضع له، خاشعٌ ذليلٌ[(٤)].

والناسُ في إناباتهم[(٥)] على درجات متفاوتة: فمنهم المنيب إلى الله بالرجوع إليه من المخالفات والمعاصي. وهذه الإنابة مصدرها: مطالعة الوعيد، والحامل عليها: العلم، والخشية، والحذر.

ومنهم المنيب إليه بالدخول في أنواع العبادات والقربات، فهو ساع فيها بجهده، وقد حُبِّبَ إليه فعلُ الطاعات وأنواع القربات. وهذه الإنابةَ

---

(١) «ك، ط»: «والإنابة».

(٢) «ب»: «حوادثه»، تصحيف.

(٣) «ب»: «وهو يتضمن الخشية والمحبة».

(٤) وانظر تفسير الإنابة في مدارج السالكين (١/ ٥١٤)

(٥) «ط»: «إنابتهم».

مصدرها الرجاءُ، ومطالعةُ الوعد والثواب، ومحبّة الكرامة من الله. وهؤلاء أبسط نفوسًا من أهل القسم الأوّل، وأشرح صدورًا، وجانبُ الرجاءِ ومطالعةِ الرحمة والمنَّة أغلبُ عليهم؛ وإلا فكلٌّ واحدٍ من الفريقين منيبٌ بالأمرين جميعًا، ولكن خوفُ هؤلاء اندرج في رجائهم، فأنابوا بالعبادات. ورجاءُ الأوَّلين اندرجَ تحت خوفهم، فكانت إنابتهم بترك المخالفات.

ومنهم المنيب إلى الله بالتضرع، والدعاء، والافتقار إليه، والرغبة، وسؤال الحاجات كلها منه. ومصدر هذه الإنابة: شهودُ الفضل، والمنَّة، والغنى، والكرم، والقدرة؛ فأنزلوا به حوائجهم، وعلَّقوا به آمالهم. فإنابتهم إليه من هذه الجهة، مع قيامهم بالأمر والنهي، ولكنَّ إنابتهم الخاصَّة إنَّما من هذه الجهة[1]. وأمَّا الأعمال فلم يُرزَقوا فيها الإنابةَ الخاصَّة.

ومنهم[2] المنيب إليه عند الشدائد والضراء[3] فقط إنابةَ اضطرار، لا إنابةَ اختيار، كحال الذين قال الله فيهم[4]: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِي ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾[الإسراء/ ٦٧]، وقوله [٥٨/ب]: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾[العنكبوت/ ٦٥].

وهؤلاء كلهم قد تكون نفس أرواحهم ملتفتةً عن الله سبحانه، معرضةً عنه إلى مألوف طبيعي نفساني قد حال بينها وبين إنابتها

(١) «مع قيامهم» إلى هنا ساقط من «ب».
(٢) «ط»: «أملهم»، تحريف.
(٣) «والضراء» ساقط من «ب».
(٤) «ك، ط»: «في حقهم».

بذاتها[1] إلى معبودها وإلهها الحق، فهي ملتفتة إلى غيره. ولها إليه إنابةٌ ما بحسب إيمانها به، ومعرفتها له.

فأعلى أنواع الإنابات إنابة الروح بجملتها إليه بشدة[2] المحبة الخالصة المفنية[3] لهم عمَّا سوى محبوبهم ومعبودهم. وحين أنابت إليه أرواحهم لم يتخلف منهم شيءٌ عن الإنابة، فإنَّ الأعضاء كلها رعيتها، وملكها تبع للروح، فلمَّا أنابت الروح بذاتها إليه، إنابةَ محبٍّ صادقِ المحبة ليس فيه عرق ولا مفصل إلا وفيه حبٌّ ساكن لمحبوبه، أنابت جميعُ القوى والجوارح. فأناب القلبُ أيضًا بالمحبة والتضرع والذل والانكسار، وأناب العقلُ بانفعاله لأوامر المحبوب ونواهيه، وتسليمه لها، وتحكميه إيَّاها دون غيرها، فلم يبقَ فيه منازعة شبهة معترضة دونها.

وأنابت النفسُ بالانقياد والانخلاع عن العوائد النفسانية والأخلاق الذميمة والإرادات الفاسدة. وانقادت للأمر[4] خاضعةً له، راغبةً[5] فيه، مؤثرةً إيَّاه على غيره، فلم يبقَ فيها منازعة شهوة تعترضها دون الأمر. وخرجت عن تدبيرها واختيارها تفويضًا إلى مولاها الحق[6]، ورضىً بقضائه، وتسليمًا لحكمه. وقد قيل: إنَّ تدبيرَ العبد لنفسه هو

---

(١) «بذاتها» سقط من «ف» سهواً.
(٢) «ك، ط»: «لشدة».
(٣) «ك، ط»: «المغنية»، تحريف.
(٤) «ط»: «لأوامره».
(٥) «ك، ط»: «وداعية»، تحريف. «ب»: «خاضعة أوراغبة».
(٦) «الحق» ساقط من«ط».

آخر الصفات المذمومة في النفس.

وأنابَ الجسدُ بالأعمالِ[1] والقيام بها فرضِها[2] وسننها على أكمل الوجوه. وأنابت كل جارحة وعضو إنابتها الخاصَّة[3].

فلم يبقَ من هذا العبد المنيب عرقٌ ولا مفصلٌ إلا وله إنابة ورجوع إلى الحبيب الحق الذي كلُّ محبَّةٍ سوى محبته عذاب على صاحبها، وإن كانت عَذْبَةً[4] في مبادئها، فإنَّها عذاب في عواقبها. فإنابةُ العبد ـ ولو ساعةً من عمره ـ هذه الإنابة الخالصة أنفعُ له، وأعظمُ ثمرةً من إنابة سنين كثيرة من غيره. فأين إنابة هذا من إنابة من قبله؟ وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء. بل هذا[5] روحه منيبة أبدًا، وإن توارى عنه شهودُ إنابتها باشتغالٍ، فهي كامنة فيها كمونَ النَّارِ في الزِّناد[6].

وأمَّا أصحابُ الإنابات المتقدمة، فإن أناب أحدهم ساعةً بالدعاءِ والذكر والابتهال، فلنفسه وروحه وقلبه[7] وعقله التفاتٌ عمَّن قد أنابَ إليه. فهو ينيب ببعضه ساعةً، ثمَّ يتركُ ذلك مقبلاً على دواعي نفسه وطبعه.

والله الموفق المعين، لا ربَّ غيره، ولا إله سواه.

---

(١) «ك، ط»: «في الأعمال».

(٢) «ب»: «فروضها».

(٣) «ب»: «الخاصة بها». وقد سقط من«ك»: «فروضها وسننها...» إلى «الخاصة».

(٤) «ب»: «عِذابًا».

(٥) «ط»: «هذه»، خطأ.

(٦) «ف»: «الرماد»، تحريف.

(٧) «وقلبه» ساقط من«ف».

قاعدة

في ذكر طريق قريب موصِل[1] إلى الاستقامة في الأحوال والأقوال والأعمال.

وهي شيئان:

أحدهما: حراسة الخواطر وحفظها، والحذر كل الحذر[2] من إهمالها والاسترسال معها. فإنَّ أصلَ الفساد كله من قِبلها يجيء؛ لأنَّها هي بذر الشيطان والنفس في أرض القلبِ، فإذا تمكن بذرُها تعاهدها الشيطان بسقيه مرَّةً بعد أخرى حتَّى تصير إرادات، ثمَّ يسقيها حتَّى تصير[3] عزائم، ثمَّ لا يزال بها حتى تثمر الأعمال.

ولا ريبَ أنَّ دفعَ الخواطر أيسرُ من دفع الإرادات والعزائم، فيجد العبدُ نفسه عاجزًا أو كالعاجز عن دفعها بعد أن صارت إرادة جازمة، وهو المفرِّط إذ[4] لم يدفعها وهي خاطر ضعيف؛ كمن تهاون بشرارة من نار وقعت في حطَبٍ يابسٍ، فلمَّا تمكنت منه عجزَ عن إطفائها[5].

فإن قلتَ: فما الطريقُ إلى حفظ الخواطر؟

قلتُ: أسباب عدَّة:

---

(١) «ك،ط»: «طريق يوصل». وقد استدركت كلمة «قريب» في حاشية «ك»، والقطرية.

(٢) «كل الحذر» ساقط من«ك،ط».

(٣) «ط»: «تكون».

(٤) «ك،ط»: «إذا».

(٥) وانظر: عدة الصابرين (٩٦)، والداء والدواء (٢٣٦).

أحدها: العلم الجازم باطلاع الرب تعالى، ونظره إلى قلبك، وعلمه بتفصيل خواطرك.

الثاني: حياؤك منه.

الثالث: إجلالك له أن يرى مثل تلك الخواطر في بيته الذي خلقه[1] لمعرفته ومحبته.

الرابع: خوفك منه أن تسقط من عينه بتلك الخواطر.

الخامس: إيثارك له أن يساكن[2] قلبك غير محبته.

السادس: خشيتك أن تتولَّد تلك الخواطر، ويستعر شرارُها، فتأكلَ ما في القلب من الإيمان ومحبة اللهِ، وتذهب[3] به جملةً[4]، وأنتَ لا تشعر.

السابع: أن تعلم أنَّ تلك الخواطر بمنزلة الحَبِّ الذي يُلقىٰ للطائر ليصاد به، فاعلم أنَّ كلَّ خاطر منها فهو حبَّة في فخ منصوب لصيدك، وأنت لا تشعر.

الثامن: أن تعلمَ أنَّ تلك الخواطر الرديئة لا تجتمع هي وخواطر الإيمان ودواعي المحبة والإنابة أصلاً، بل هي ضدها من كل وجه، وما اجتمعا في قلبٍ إلا وغلبَ أحدُهما صاحبَه، وأخرجه، واستوطن مكانه.

---

(١) «ط»: «خلق».

(٢) «ك، ط»: «تساكن».

(٣) «ب، ط»: «فتذهب». «ك»: «فيذهب».

(٤) «ف»: «كله» تحريف.

فما الظن بقلب غلبت خواطرُ النفس والشيطان فيه خواطرَ الإيمان والمحبة والمعرفة[1] فأخرجتها، واستوطنت مكانها؟ لكن لو كان للقلب حياة لشعر بألم ذلك، وأحسَّ بمصابه.

التاسع: أن يُعلم[2] أنَّ تلك الخواطر بحر من بحور الخيال لا ساحل له، فإذا دخل القلبُ في غمراته غرق فيه، وتاه في ظلماته، فيطلب الخلاص منه، فلا يجد إليه سبيلاً. فقلبٌ تملكه الخواطر بعيدٌ من الفلاح، معذَّبٌ، مشغولٌ بما لا يفيد.

العاشر: أنَّ تلك الخواطر هي وادي الحمقى وأماني الجاهلين، فلا تثمر لصاحبها إلا الندامةَ والخزيَ. وإذا غلبت على القلب أورثته الوساوسَ، وعزلته عن سلطانه[3]، وأفسدت عليه رعيته، وألقته في الأسر الطويل.

كما أنَّ هذا معلومٌ في الخواطرِ النفسانية، فهكذا الخواطر الإيمانية الرحمانية، هي أصل الخير كلِّه. فإنَّ أرض القلب متى[4] بُذِرَ فيها خواطرُ الإيمان والخشية والمحبة والإنابة والتصديق بالوعد ورجاءِ الثوابِ، وسُقِيَت مرَّةً بعد مرَّةٍ، وتعاهدها صاحبُها بحفظها ومراعاتها والقيامِ عليها، أثمرت له كلَّ فعل جميل، وملأت قلبَه من الخيرات، واستعملت جوارحَه في الطاعات واستقرَّ بها الملك في سلطانه،[٥٩/أ]

---

(١) «ك، ط»: «المعرفة والمحبة».

(٢) الأصل غير منقوط، فيجوز أن يقرأ «تعلم» كما سبق في السابع والثامن. والمثبت من «ف» وغيرها، وقد ضبط في «ب» بضم أوله.

(٣) «ك، ط»: «سلطانها».

(٤) «ط»: «إذا».

واستقامت له رعيته.

ولهذا لما تحقَّقت طائفة من السالكين ذلك عملت على حفظ الخواطر، وكان[1] ذلك هو سيرَها وعملها[2]. وهذا نافع لصاحبه بشرطين: أحدهما: أن لا يترك به واجبًا ولا سنَّة، الثاني: أن لا يجعلَ مجرَّد حفظِها هو المقصود. بل لا يتم ذلك إلا بأن يجعل موضعها خواطرَ الإيمان والمحبة والإنابة والتوكل والخشية، فيفرغ قلبه من تلك الخواطر، ويعمره بأضدادها. وإلا فمتى عمل على تفريغه منهما معًا كان خاسرًا، فلا بدَّ من التفطن لهذا.

ومن هنا غلِطَ أقوامٌ من أرباب السلوك، وعملوا على إلقاءِ الخواطرِ وإزالتها جملةً، فبذر فيها الشيطان أنواع الشبه والخيالات، فظنّوها تحقيقًا وفتحًا رحمانيًّا، وهم فيها غالطون، وإنَّما هي خيالات وفتوحات شيطانية[3]. والميزان هو الكتاب الناطق، والفطرة السليمة، والعقل المؤيد بنور النبوة، والله المستعان.

فصل[4]

الثاني[5]: صدق التأهب للقاءِ الله عزَّوجلَّ. وهذا[6] من أنفع ما للعبدِ وأبلغِه في حصول استقامته. فإنَّ من استعدَّ للقاءِ الله انقطعَ قلبه عن

(١) «ك، ط»: «فكان».
(٢) «ب،ك»: «جلَّ عملها»، وهي قراءة محتملة. «ط»: «جلَّ أعمالها».
(٣) «وفتوحات» ساقط من «ط».
(٤) «فصل» ساقط من«ب».
(٥) «ب»: «والسبب الثاني». وقد سقط «الثاني» من «ط».
(٦) «وهذا» ساقط من«ط».

الدنيا[1] ومطالبها، وخمدت من نفسه نيرانُ الشهوات، وأخبتَ قلبُه إلى ربِّه تعالىٰ[2]، وعكفت همته على الله وعلى محبته وإيثار مرضاته. واستحدث[3] همَّةً أخرى وعلومًا أخر، وولد ولادةً أخرى تكون نسبةُ قلبه فيها إلى الدار الآخرة كنسبة جسمه إلى هذه الدار بعد أن كان في بطن أمِّه، فيولد قلبُه ولادةً حقيقية، كما ولد جسمه حقيقة. وكما كان بطن أمه حجابًا لجسمه عن هذه الدار، فهكذا نفسه وهواه حجاب لقلبه عن الدار الآخرة، فخروج قلبه عن نفسه بارزًا إلى الدار الآخرة كخروج جسمه عن بطن أمه بارزًا إلى هذه الدارِ. وهذا معنى مايذكر عن المسيح ﷺ أنَّه قال: «يابني إسرائيل، إنَّكم لن تلجوا ملكوتَ السماء حتَّى تولدوا مرَّتين»[4].

ولمَّا كان أكثر الناس لم يولدوا هذه الولادة الثانية ولا تصوروها ـ فضلاً عن أن يصدقوا بها ـ فيقول القائل: كيف يولد الرجل الكبير أم[5] كيف يولد القلب، لم يكن لهم إليها همَّة ولا عزيمة، إذ كيف يعزم على الشيء من لا يعرفه ولا يصدّقه؟ ولكن إذا كُشِفَ حجاب الغفلة عن القلب صدَّق بذلك وعلم أنَّه لم يولد قلبُه بعد.

والمقصود أنَّ صدق التأهّب للقاءِ اللهِ هو مفتاح جميع الأعمال الصالحة، والأحوال الإيمانية، ومقامات السالكين إلى الله ومنازل

(١) «ك، ط»: «الدنيا ومافيها ومطالبها».
(٢) «ك، ط»: «إلى الله».
(٣) «ك، ط»: «واستحدثت».
(٤) تقدّم في ص(٢٩).
(٥) «ط»: «أو».

السائرين إليه، من اليقظة والتوبة والإنابة والمحبة والرجاءِ والخشية والتفويض والتسليم وسائر أعمالِ القلوب والجوارح. فمفتاحُ ذلك كلِّه صدقُ التأهب والاستعداد للقاءِ اللهِ، والمفتاح بيد الفتَّاحِ العليم، لا إلهَ غيره، ولا ربَّ سواه.

قاعدة شريفة

[الطريق إلى الله واحد]

الناس قسمان: عِلْية، وسِفْلة، فالعلية من عرف الطريق إلى ربِّه، وسلكها قاصدًا للوصول[1] إليه، وهذا هو الكريم على ربِّه. والسفلة من لم يعرف الطريق إلى ربِّه، ولم يتعرفها، فهذا هو اللئيم الذي قال الله تعالى فيه: ﴿وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ﴾[الحج/ ١٨].

والطريق إلى الله في الحقيقة واحد لا تعدُّدَ فيه، وهو صراطه المستقيم الذي نصبه موصلاً لمن سلكه إليه[2]، قال الله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ﴾[الأنعام/ ١٥٣]. فوحَّد سبيلَه لأنَّه في نفسه واحد لا تعدُّدَ فيه، وجمع السُّبُل المخالفة لأنَّها كثيرة متعدِّدة، كما ثبت عن النبي ﷺ أنَّه[3] خطَّ خطًّا، ثمَّ قال: «هذا سبيل الله». ثمَّ خطَّ خطوطًا عن يمينه وعن يساره، ثمَّ قال: «هذه سُبُل، على كلِّ سبيلٍ منها شيطانٌ يدعو إليه»، ثمَّ قرأ: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾[الأنعام/ ١٥٣][4].

ومن هذا قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى

---

(١) «ط»: «الوصول».

(٢) «إليه» ساقط من«ط».

(٣) «ب،ك،ط»: «ثبت أنَّ النبي ﷺ خط».

(٤) أخرجه أحمد (٤١٤٢)، والنسائي في الكبرى (١١١٧٤)، وابن حبان (٦،٧)، والحاكم (٢/٢٣٩) من حديث عبدالله بن مسعود. وأصله عند البخاري (٦٠٥٤،٦٠٥٥) عن ابن مسعود وأنس دون ذكر الآية. (ز).

﴿ٱلظُّلُمَٰتِۗ﴾[البقرة/ ٢٥٧]. فوحَّد النورَ الذي هو سبيلُه، وجمع الظلمات التي هي سُبُل الشيطان[١].

ومن فهم هذا فَهِمَ السرَّ في إفراد النور وجمع الظلمات في قوله: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَۖ﴾[الأنعام/ ١]، مع أنَّ فيه سرًّا ألطفَ من هذا، يعرفه من عرف[٢] منبع النور كلّه[٣]، ومن أين فاضَ، وعمَّاذا حصل، وأنَّ أصلَه كله واحد. وأمَّا الظلمات فهي متعددة بتعدُّدِ الحُجُب المقتضية لها، وهي كثيرةٌ جدًّا، لكلِّ حجاب ظلمة خاصَّة. ولا ترجع الظلماتُ إلى النورِ الهادي جلَّ جلاله أصلاً، لا وصفًا و لا ذاتًا، ولا اسمًا ولا فعلاً، وإنَّما ترجع إلى مفعولاته سبحانه، فهو جاعلُ الظلمات، ومفعولاتُه[٤] متعددة متكثرة، بخلاف النور فإنَّه يرجع إلى اسمه وصفته جلَّ جلاله، تعالى أن يكون كمثله شيءٌ، فهو[٥] نور السماواتِ والأرضِ.

قال ابن مسعود: «ليس عندَ ربِّكم ليلٌ ولا نهار، نور السماوات والأرضِ من نور وجهه». ذكره الدارمي عنه[٦]. وفي صحيح مسلم[٧] عن أبي ذرٍّ، قلتُ: يارسول الله هل رأيت ربَّك؟ قال: «نورٌ، أنَّى أراهُ!».

---

(١) وانظر: بدائع الفوائد (١/ ٢٠٨).

(٢) «ك، ط»: «يعرف».

(٣) «كله»: ساقط من«ط».

(٤) «ط»: «مفعولاتها».

(٥) «ك، ط»: «وهو».

(٦) تقدم في ص (٢٦٢).

(٧) في كتاب الإيمان (١٧٨).

والمقصودُ أنَّ الطريقَ إلى الله واحد، فإنَّه هو[1] الحقُّ المبين، والحق واحد، مرجعه إلى واحد، وأمَّا الباطل والضلال فلا ينحصر، بل كل ما سواه باطل[2]، وكل طريق إلى الباطل فهو باطل. فالباطل متعدِّد، وطرقه متعددة.

وأمَّا مايقع في كلام بعض العلماءِ أنَّ الطرق[3] إلى اللهِ متعددة متنوعة، جعلها الله كذلك لتنوع الاستعدادت واختلافها، رحمةً منه وفضلاً [٥٩/ب] فهو صحيح لا ينافي ما ذكرناه من وحدة الطريق.

وكشف ذلك وإيضاحه أنَّ الطريقَ[4] واحدة جامعة لكلِّ ما يرضي الله. وما يرضيه سبحانه متعدِّدٌ متنوعٌ، فجميعُ ما يُرضيه طريق واحد، ومراضيه متعددة متنوعة بحسب الأزمان والأماكن والأشخاص والأحوال، فكلُّها[5] طرُق مرضاته. فهذه هي[6] التي جعلها الله سبحانه برحمته[7] وحكمته كثيرةً متنوعةً جدًّا لاختلاف استعدادات العباد وقوابلهم. ولو جعلها نوعًا واحدًا مع اختلاف الأذهان والعقول وقوَّة الاستعدادت وضعفها لم يسلكها إلا واحدٌ بعد واحدٍ. ولكن لمَّا اختلفت الاستعدادت تنوعت الطرق ليسلك كلّ امرئٍ إلى ربِّه طريقًا يقتضيها استعدادُه وقوتُه وقبولُه.

---

(١) «هو» ساقط من«ك، ب، ط».

(٢) «باطل» ساقط من«ف».

(٣) «ب، ك، ط»: «الطريق».

(٤) «ب، ك، ط»: «الطريق هي».

(٥) «ب، ك، ط»: «وكلها».

(٦) «هي» ساقط من«ط».

(٧) «ط»: «لرحمته».

ومن هنا يُعلَم تنوُّعُ الشرائع واختلافُها مع رجوعها كلِّها إلى دينٍ واحد، بل تنوعُ الشريعة الواحدة[1]، مع وحدة المعبود ودينه. ومنه الحديث المشهور: «الأنبياءُ أولادُ عَلاَّت، دينُهم واحد»[2]. فأولادُ العلاَّت أن يكون الأبُ واحدًا والأُمَّهاتُ متعدِّدة، فشبَّه دينَ الأنبياءِ بالأب الواحد، وشرائعهم بالأُمَّهاتِ المتعددة. فإنَّها وإن تعددت فمرجعها كلها[3] إلى أب واحد.

وإذا عُلِمَ هذا فمن الناس من يكون سيد عمله وطريقه الذي تعبَّد بسلوكه[4] إلى الله طريق العلم والتعليم، وقد وفَّرَ عليه زمانَه مبتغيًا به وجه الله. فلا يزال كذلك عاكفًا على طريق العلم والتعليم حتَّى يصل من تلك[5] الطريق إلى اللهِ، ويفتح له فيها الفتح الخاص، أو يموت في طريق طلبه، فيرجى له الوصول إلى مطلبه بعد مماته. قال تعالى: ﴿وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾[النساء/ ١٠٠]. وقد حكي عن جماعة كثيرة ممَّن أدركه الأجل، وهو حريص طالب للقرآن، أنَّه رُئي بعد موته، وأخبرَ أنَّه في تكميل مطلوبه وأنَّه يتعلَّم في البرزخ؛ فإنَّ العبد يموت على ما عاش عليه.

ومن الناس من يكون سيّد عمله الذكر، وقد جعله زادَه لمعاده،

---

(١) «بل تنوع الشريعة الواحدة» ساقط من«ط». أمَّا في «ب» فقد سقط منها من «مع رجوعها» إلى «الواحدة».

(٢) زاد في «ب»: «وأمهاتهم شتَّى». والحديث أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٤٤٢)، ومسلم في كتاب الفضائل (٢٣٦٥) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) «ك،ط»: «فمرجعها إلى أب واحد كلها».

(٤) «ط»: «بعد سلوكه».

(٥) «ب»: «ذلك».

ورأسَ ماله لمآله، فمتى فترَ عنه أو قصّر فيه[١] رأى أنّه قد غُبِن وخَسِر.

ومن الناس من يكون سيّد عمله وطريقه الصلاة، فمتى قصّر في وِرْده[٢] منها، أو مضى عليه وقت، وهو غير مشغولٍ بها أو مستعدٍّ لها، أظلم عليه وقتُه، وضاق صدُره.

ومن الناس من يكون طريقه الإحسان والنفع المتعدّي، كقضاءِ الحاجات، وتفريج الكربات، وإغاثة اللهفات[٣]، وأنواع الصدقات، قد فتح له في هذا، وسلك منه طريقًا إلى ربّه.

ومن الناس من يكون طريقه تلاوة القرآن، فهي[٤] الغالب على أوقاته، وهي أعظم أوراده.

ومنهم من يكون طريقه الصوم فهو متى أفطر تغيّر عليه قلبُه، وساءَت حاله[٥].

ومنهم من يكون طريقه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، قد فُتِح[٦] له فيه، ونفذ منه إلى ربّه.

ومنهم من يكون طريقه الذي نفذ فيه الحجّ والاعتمار.

---

(١) «فيه» ساقط من «ك،ط». وفي«ب»: «عنه».

(٢) «ف»: «ورد منها»، خلافًا للأصل.

(٣) «ف»: «اللهفان» خلاف الأصل.

(٤) «ب،ك،ط»: «وهي».

(٥) العبارة «ومن الناس من يكون طريقه الصوم.. ساءت حاله» مقدمة على العبارة السابقة المتعلقة بالقرآن في «ك،ط».

(٦) «ك،ط»: «فتح الله».

ومنهم من يكون طريقه قطع العلائق، وتجريد الهمّة، ودوام المراقبة، ومراعاة الخواطر، وحفظ الأوقات أن تذهب ضائعة.

ومنهم الجامع الفَذّ[1]، السالك إلى الله في كلِّ واد، الواصل إليه من كلّ طريق. فهو قد جعل[2] وظائفَ عبوديته قِبلةَ قلبه ونصبَ عينه، يؤمّها أين كانت، ويسير معها حيث سارت، قد ضرب مع كلّ فريق بسهم. فأين كانت العبوديةُ وجدتَه هناك: إن كان علمٌ وجدتَه مع أهله، أو جهاد وجدتَه في صفّ المجاهدين، أو صلاة وجدتَه في القانتين، أو ذكر وجدتَه في الذاكرين، أو إحسان ونفع وجدتَه في زمرة المحسنين، أو مراقبة ومحبّة[3] وإنابة إلى الله وجدتَه في زمرة المحبّين المنيبين. يدين بدين العبوديّة أنّى استقلّتْ ركائبُها، ويتوجّه إليها حيث استقرّت مضاربُها. لو قيل له: ما تريد من الأعمال؟ لقال: أريد أن أنفّذ أوامرَ ربّي حيث كانت، وأين[4] كانت، جالبةً ما جلبَتْ، مقتضيةً ما اقتضتْ، جمعتني أو فرّقتني؛ ليس لي مراد إلاّ تنفيذها والقيام بأدائها مراقبًا له فيها، عاكفًا عليه بالروح والقلب والبدن والسرّ. قد سلّمتُ إليه المبيعَ منتظرًا منه تسليمَ الثمن. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ﴾[التوبة/ ١١١].

فهذا هو العبد السالك إلى ربّه، النافذ إليه حقيقة. ومعنى النفوذ إليه

---

(١) «ط»: «جامع المنفذ»، تحريف.

(٢) «ك، ط»: «فهو جعل».

(٣) «ب، ك، ط»: «محبة ومراقبة».

(٤) «ف»: «وإن».

أن يتّصل به قلبه ويعلق[1] به تعلّقَ المحبِّ التامِّ المحبّة لمحبوبه[2]، فيسلو به عن جميع المطالب سواه، فلا يبقى في قلبه إلاّ الله[3] وأمره وطلب التقرّب إليه. فإذا سلك العبد على هذا الطريق عطف عليه ربُّه، فقرَّبه، واصطفاه، وأخذ بقلبه إليه، وتولاه في جميع أموره في معاشه ودينه، وتولّى تربيته أحسن وأبلغ مما يربّي الوالدُ الشفيقُ ولدَه. فإنّه سبحانه القيّوم المقيم لكل شيء من المخلوقات طائعها وعاصيها، فكيف تكون قيوميّته بمن أحبّه [٦٠/أ]، وتولاه، وآثره على ما[4] سواه؛ ورضي به من الناس حبيبًا وربًّا، ووكيلاً وناصرًا ومعينًا وهاديًا؟ فلو كشف الغطاءَ عن ألطافه به[5] وبرّه وصنعه له، من حيث يعلم ومن حيث لا يعلم، لذاب قلبُه حبًّا[6] له وشوقًا إليه، وتقطّع[7] شكرًا له. ولكن حجب القلوبَ عن مشاهدة ذلك إخلادُها إلى عالم الشهوات والتعلّق بالأسباب، فصُدّت عن كمال نعيمها، وذلك تقدير العزيز العليم. وإلاّ فأيّ قلب يذوق حلاوةَ معرفة الله ومحبّته، ثم يركن إلى غيره، ويسكن إلى سواه[8]؟ هذا ما لا يكون أبدًا.

ومن ذاق شيئًا من ذلك، وعرف طريقًا[9] موصلةً إلى الله، ثمّ تركها،

---

(١) «ب»: «يتعلّق».

(٢) «ب،ك،ط»: «بمحبوبه».

(٣) «ك،ط»: «محبة الله».

(٤) «ف»: «عليها»، تحريف.

(٥) «به»: ساقط من«ك،ط».

(٦) «ك،ط»: «محبة».

(٧) «ف»: «يقطع». وفي «ط»: «يقع»، تحريف.

(٨) «ك،ط»: «ماسواه».

(٩) «ف»: «طريقة»، خلاف الأصل.

وأقبل على إراداته[1] وراحاته وشهواته ولذّاته، وقع في آبار[2] المعاطب، وأودع قلبَه سجونَ المضايق، وعُذِّب في حياته عذابًا لم يعذَّبْه [3] أحدٌ من العالمين. فحياته عجز وغمّ وحزن، وموته كمد[4] وحسرة، ومعاده أسف وندامة. قد فرط عليه أمرُه، وشُتِّت عليه شملُه، وأحضِرتْ[5] نفسُه الغمومَ والأحزان. فلا لذّة الجاهلين، ولا راحة العارفين[6]. يستغيث فلا يُغاث، ويشتكي فلا يُشكَى. قد[7] ترحّلت أفراحُه وسروره مدبرةً، وأقبلت آلامُه وأحزانُه وحسراته مقبلةً[8]. قد[9] أبدل بأُنسه وحشةً، وبعزّه ذلاًّ، وبغناه فقرًا، وبجمعيته تشتّتًا[10].

وأبعدوه فلم يظفَرْ بقربهِمُ ... وأبدلوه مكانَ الأنسِ إيحاشا[11]

ذلك بأنّه عرف طريقه إلى الله، ثمّ تركها ناكبًا عنها مكِبًّا[12] على

---

(1) «ك، ط»: «إرادته».
(2) «ب، ك، ط»: «آثار»، تصحيف.
(3) كذا في الأصل و«ف» وهو صواب محض، وفي غيرهما: «لم يعذب به».
(4) «ك، ط»: «كدر»، تحريف.
(5) «ط»: «أحضر».
(6) «ف»: «الغافلين»، خلاف الأصل.
(7) «ط»: «فقد».
(8) «مقبلة» سقط من«ب، ك، ط». ولعله حذف لأجل الفعل «أقبلت».
(9) «ط»: «فقد».
(10) «ط»: «تشتيتًا».
(11) أثبت البيت في «ط» منثورًا. وهو من ثلاثة أبيات ذكرها المؤلف في بدائع الفوائد (٣/ ٨٤٧). وهي من قصيدة في ديوان الحلاَّج (٥٠) مع خلاف في الرواية. وفي «ب»: «فكان الأنس»، تحريف.
(12) «مكبًّا» ساقط من«ك». وفي «ب»: «منكبًّا».

وجهه، فأبصر ثمّ عمي، وعرف ثمّ أنكر، وأقبل ثمّ أدبر، ودُعي فما أجاب، وفُتِح له فولّى ظهرَه الباب! قد ترك طريق مولاه، وأقبل بكلّيّته على هواه. فلو نال بعض حظوظه، وتلذّذ براحاته وشهواته[(١)]، فهو مقيّد القلب عن انطلاقه في فسيح التوحيد، وميادين الأُنس، ورياض المحبّة، وموائد القرب.

قد انحطّ بسبب إعراضه عن إلهه الحقّ إلى أسفل سافلين، وحصل في عداد الهالكين. فنارُ الحجاب تطّلِع كلّ وقت على فؤاده، وإعراضُ الكون عنه ـ إذ أعرض ربّه[(٢)] ـ حائلٌ بينه وبين مراده. قبرٌ[(٣)] يمشي على وجه الأرض، فروحُه[(٤)] في وحشةٍ في جسمه[(٥)]، وقلبُه في مَلالٍ[(٦)] من حياته. يتمنّى الموت ويشتهيه، ولو كان فيه ما فيه؛ حتّى إذا جاءَه الموت على تلك الحال ـ والعياذ بالله ـ فلا تسأل عمّا يحِلّ به من العذاب الأليم بسبب وقوع الحجاب بينه وبين مولاه الحقّ[(٧)]، وإحراقه بنار البعد عن قربه والإعراض عنه، وقد حيل بينه وبين سعادته وأمنيّته.

---

(١) في «ف» وغيرها: «شؤونه»، ولا معنى له في هذا السياق. ثمَّ رسمه في الأصل: «شووته» بواوين ونقطتي التاء. وكلمة «الشؤون» في الإملاء القديم تكتب بواو واحدة. ولعلَّ الصواب ما أثبتنا استئناسًا باقتران الشهوات بالراحات قبل أسطر.

(٢) كذا في الأصل. وفي حاشية «ف»: «عنه» مع علامة لم تتضح في الصورة. وفي غيرهما: «عن ربه».

(٣) تحرف «قبر» في «ك» إلى «فهو». وفي «ط»: «فهو قبر».

(٤) «ك،ط»: «وروحه».

(٥) «ط»: «من جسمه». «ب»: «وجسمه».

(٦) «ب،ك»: «هلاك»، تحريف.

(٧) «الحق» ساقط من«ب».

فلو توهّم العبد المسكين هذه الحالَ، وصوّرتْها له نفسُه، وأرته إيّاها على حقيقتها، لتقطع واللهِ قلبُه، ولم يلتذَّ بطعام ولا شراب؛ ولخرج إلى الصُّعُدات[1] يجأَر إلى الله، ويستغيث به، ويستعتبه[2] في زمن الاستعتاب. هذا مع أنّه إذا آثر شهواته ولذّاته الفانية التي هي كخيال طَيف أو مُزنة صَيف نُغِّصت عليه لذّتُها أحوجَ ما كان إليها، وحيل بينه وبينها أقدرَ ما كان عليها!

وتلك سنّة الله في خلقه، كما قال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَـٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَـٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [يونس/ ٢٤].

وهذا هو غِبّ إعراضه وإيثاره شهوتَه[3] على مرضاة ربّه، فيعوّق[4] القدرُ عليه أسبابَ مراده، فيخسر الأمرين جميعًا. فيكون معذَّبًا في الدنيا بتنغيص شهواته وشدة اهتمامه بطلب ما لم يُقسَم له، وإن قُسِم له منه شيء فحشوه الخوفُ والحزن[5] والنكد والألم. فهمٌّ لا ينقطع، وحسرة لا تنقضي، وحرص لا ينفد، وذلّ لا ينتهي، وطمع لا يُقلِع!

---

(١) الصعدات: الطرق أو البراري والصحاري وبكليهما فسرت الكلمة في حديث أبي ذر: «ولخرجتم إلى الصعدات تجأرون إلى الله». أخرجه الترمذي في الزهد (٢٤١٤). انظر: تحفة الأحوذي (٦/ ٤٩٦).

(٢) «ب»: «يستعينه».

(٣) «ك، ط»: «إيثار شهوته».

(٤) «ط»: «يعوق».

(٥) «ك»: «الحزن والخوف».

هذا في هذه الدار، وأمّا في البرزخ فأضعاف أضعاف ذلك! قد حيل بينه وبين ما يشتهي، وفاته ما كان يتمنّاه من قُرب ربّه وكرامته ونيل ثوابه، وأحضِرَ جميعَ غمومه وأحزانه. وأمّا في دار الجزاءِ فسجن أمثاله من المبعودين[(١)] المطرودين. فواغوثاه ثمّ واغوثاه بغياث المستغيثين وأرحم الراحمين!

فمن أعرض عن الله بالكلّية أعرض اللهُ عنه بالكلّية. ومن[(٢)] أعرض الله عنه لزمه الشقاءُ والبؤس والبخس في أحواله وأعماله، وقارنه[(٣)] سوءُ الحال وفسادُه في دينه ومآله. فإنّ الربّ تعالى إذا أعرض عن جهة دارت بها النحوس، وأظلمت أرجاؤها، وانكسفت أنوارها، وظهر[(٤)] عليها وحشة الإعراض، وصارت مأوى للشياطين، وهدفًا للشرور، ومصبًّا للبلاءِ [٦٠/ب].

فالمحروم كلّ المحروم من عرف طريقًا إليه، ثمَّ أعرضَ عنها؛ أو وجد بارقةً من حبه ثم سُلِبَها، لم ينفذ إلى ربِّه منها، خصوصًا إذا مالَ بتلك الإرادة إلى شيءٍ من اللذات، أو انصرفَ[(٥)] بجملته إلى تحصيل الأعراض[(٦)] والشهوات، عاكفًا على ذلك ليله ونهاره وغدوه ورواحه، هابطًا من الأوج الأعلى إلى الحضيض الأدنى.

---

(١) كذا وردت الكلمة في الأصل وغيره، وهي من الألفاظ الدارجة في زمن المصنف وبعده. والفصيح: «المبعدون».

(٢) «ب»: «وإذا».

(٣) «ب»: «قام به»، تحريف.

(٤) «ط»: «ظهرت».

(٥) «ك، ط»: «وانصرف».

(٦) «ف، ب، ط»: «الأغراض».

قد مضت عليه برهةٌ من أوقاته، وكان همه الله، وبغيته قربه ورضاه وإيثاره على كلِّ ماسواه، على ذلك يصبح ويمسي، ويظل ويضحي، وكان الله في تلك الحال وليَّه[1]، لأنَّه وليٌّ من تولاه، وحبيب من أحبَّه ووالاه. فأصبحَ في سجن الهوى ثاويًا، وفي أسر العدو مقيمًا، وفي بئر المعصية ساقطًا، وفي أودية الحيرة والتفرقة هائمًا، معرضًا عن المطالب العالية إلى الأغراض[2] الخسيسة الفانية. كان قلبه يجول[3] حول العرش، فأصبحَ محبوسًا في أسفلِ الحُشِّ.

فأصبحَ كالبازي المنتَّفِ ريشُه　　　يرى حسراتٍ كلَّما طارَ طائرُ
وقد كان دهرًا في الرياضِ منعَّمًا　　　على كلِّ مايهوى من الصيدِ قادرُ
إلى أن أصابته من الدهرِ نَكبةٌ　　　إذا هو مقصوصُ الجناحين حاسِرُ[4]

فيا من ذاقَ شيئًا من معرفة ربِّه ومحبته، ثمَّ أعرضَ عنها، واستبدل بغيرها منها، ياعجبًا له بأي شيءٍ[5] تعوَّضَ! وكيف قرَّ قرارُه، فماطلبَ الرجوعَ إلى أحبّته[6] وماتعرَّض! وكيف اتخذَ سوى أحبّته[7] سكنًا،

---

(١) «وكان الله...» إلى هنا ساقط من«ب».
(٢) ضبط بالغين المعجمة في الأصل خلافًا لما سبق قبل أسطر. وفي«ك»: «الأعراض».
(٣) «ط»: «يحوم».
(٤) من أربعة أبيات وردت دون عزو في المدهش (٤٥٨) مفتوحة القافية، والبيت الأوَّل مع آخر أوردهما الثعالبي في ثمار القلوب (٤٥٥)، والتمثيل والمحاضرة (٣٦٦).
(٥) «ب»: «بأي عوض».
(٦) «ط»: «أحنيته»، تصحيف، ويشبهه ما في «ك».
(٧) «ط»: «أحنيته».

وجعل قلبه لمن عاداه مولاه من أجله موطنًا! أم كيف طاوعه قلبه على الاصطبار، ووافقه على مساكنة الأغيار!

فيا معرضًا عن حياته الدائمة ونعيمه المقيم، ويا بائعًا سعادته العظمى بالعذاب الأليم. ويا مُسْخِطًا مَن حياتُه وراحتُه وفوزُه في رضاه، وطالبًا رضى مَن سعادتُه في إرضاءِ سواه. إنَّما هي لذَّةٌ فانية، وشهوة منقضية، تذهب لذَّاتها، وتبقى تبعاتها. فرحُ ساعةٍ لا شهر، وغمٌّ سنة بل دهر. طعامٌ لذيذ مسموم، أوَّلهُ لذَّة وآخره هلاك. فالعامل عليها والساعي في تحصيلها كدودة القزّ، يسدُّ على نفسه[1] المذاهب، بما نسجَ عليها من المعاطب. فيندم حين لا تنفع الندامة، ويستقيل حين لا تُقبَل الاستقالة.

فطوبى لمن أقبل على الله بكليته، وعكف عليه بإرادته ومحبته، فإنَّ الله يُقبِل عليه بتوليه ومحبته وعطفه ورحمته. وإنَّ الله سبحانه إذا أقبلَ على عبدٍ[2] استنارت جهاتُه، وأشرقت ساحتُها[3]، وتنورت ظلماتُها[4]، وظهرت عليه آثار إقباله من بهجة الجلال وآثار الجمال، وتوجَّه إليه أهلُ الملأ الأعلى بالمحبة والموالاة لأنَّهم تبع لمولاهم. فإذا أحب عبدًا أحبوه، وإذا والى وليًّا والَوه. «إذا أحبَّ الله العبد نادى: يا جبريلُ إنِّي أحبُّ فلانًا فأحِبَّه، فينادي جبريل في السماء: إنَّ اللهَ يحب فلانًا فأحِبُّوه. فيحبه أهلُ السَّماءِ ثمَّ يحبه أهلُ الأرضِ، فيوضع له القبول

---

(١) «ك»: «تسد على نفسها».
(٢) في حاشية «ب»: «خ العبد».
(٣) كذا في الأصل و«ب». وفي «ف،ك»: «ساحاتها»، وفي «ط»: «ساحاته».
(٤) «ط»: «ظلماته».

بينهم»[1]، ويجعل الله قلوب أوليائه تفِدُ إليه بالود والمحبَّة والرحمة. وناهيك بمن يتوجَّه إليه مالك الملك ذو الجلالِ والإكرام بمحبته، ويقبل عليه بأنواع كرامته، ويلحظه الملأ الأعلى وأهل الأرضِ بالتبجيل والتكريم. وذلك فضلُ الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم.

(١) أخرجه البخاري في كتاب بدء الخلق (٣٢٠٩) وغيره، ومسلم في كتاب البر والصلة (٢٦٣٧) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

قاعدة[١]

[السير إلى اللهِ لا يتمّ إلا بقوتين: علمية وعملية]

السائر إلى الله والدار الآخرة، بل كلُّ سائرٍ إلى مقصد، لا يتم سيرُه ولا يصلُ إلى مقصوده إلا بقوّتين: قوّة علمية، وقوّة عملية[٢].

فبالقوّة العلمية يبصر منازل الطريق ومواضع السلوك، فيقصدها سائرًا فيها، ويجتنب أسبابَ الهلاكَ، ومواضعَ العطب، وطرقَ المهالك المنحرفة عن الطريق الموصل. فقوّتُه العلمية كنورٍ عظيم بيده، يمشي به[٣] في ليلة مظلمة[٤] شديدة الظلمة. فهو يبصرُ بذلك النورِ ما يقع الماشي في الظلمة في مثله من الوِهاد والمتالف، ويعثر به من الأحجار والشوك وغيره. ويبصر بذلك النور أيضًا أعلامَ الطريقَ وأدلتها المنصوبة عليها، فلا يضل عنها. فيكشف له النور عن الأمرين: أعلام الطريق، ومعاطبها[٥].

وبالقوّة العملية يسير حقيقةً، بل السيرُ هو حقيقة القوّة العملية، فإنَّ السيرَ هو عمل المسافر[٦]. وكذلك السائر إلى ربِّه إذا أبصرَ الطريق وأعلامَها، وأبصرَ المعاثر[٧] والوهاد والطرق الناكبة عنها، فقد حصل له شطر السعادة والفلاح. وبقيَ عليه الشطر الآخر، وهو أن يضع عصاه

(١) في «ب»: «قاعدة شريفة».
(٢) وانظر مفتاح دار السعادة (١/ ٢١٤).
(٣) «به» ساقط من «ك، ط».
(٤) «ك، ط»: «ليلة عظيمة مظلمة».
(٥) «ب»: «معالمها»، تحريف.
(٦) «ب»: «السائر».
(٧) «ك»: «المغايرة»، تصحيف.

على عاتقه، ويشمِّر مسافرًا في الطريق، قاطعًا منازلها منزلةً بعد منزلةٍ. فكلَّما قطع مرحلةً [٦١/أ] استعدَّ لقطع الأُخرى، واستشعر القرب من المنزل، فهان[(١)] عليه مشقَّةُ السفر. وكلَّما شكت[(٢)] نفسه من كلال السير ومواصلة الشد والرحلِ وعَدَها قُربَ التلاقي وبردَ العيش عند الوصول، فيحدث لها ذلك نشاطًا وفرحًا وهمَّة. فهو يقول: يا نفس أبشري، فقد قرب المنزل، ودنا التلاقي، فلا تنقطعي في الطريق دون الوصول، فيحال بينك وبين منازل الأحبة، فإن صبرتِ وواصلتِ السُّرى[(٣)] وصلتِ حميدةً مسرورةً جذِلةً، وتلقَّتك الأحبة بأنواع التحف والكرامات. وليس بينك وبين ذلك إلا صبر ساعةٍ، فإنَّ الدنيا كلها كساعة من ساعاتِ الآخرة، وعمرك درجة من درج تلك الساعة، فالله الله لا تنقطعي في المفازة، فهو والله الهلاك والعطب لو كنت تعلمين!

فإن استصعبتْ عليه[(٤)] فليذكِّرها ما أمامها من أحبابها، وما لديهم من الإكرام والإنعام، وما خلفها من أعدائها وما لديهم من الإهانة والعذاب وأنواع البلاءِ. فإنْ رجعت فإلى أعدائها رجوعُها، وإن تقدَّمت فإلى أحبابها مصيرُها، وإن وقفت في طريقها أدركها أعداؤها، فإنَّهم وراءَها في الطلب. فلا بدَّ[(٥)] لها من قسم من هذه الأقسام الثلاثة فلتختر أيها شاءت.

---

(١) «ط»: «فهانت».

(٢) «ك، ط»: «سكنت»، تحريف.

(٣) «ك»: «المسير». «ط»: «المسرى».

(٤) «عليه» ساقط من«ب».

(٥) «ب، ك، ط»: «ولا بد».

وليجعلْ[1] حديث الأحبة حاديَها وسائقَها، ونورَ معرفتهم وإرشادهم هاديَها ودليلَها، وصدقَ ودادهم وحبهم غذاءَها وشرابَها ودواءَها. ولا يوحشنَّه[2] انفرادُه في طريق سفره، ولا يغترَّ بكثرة المنقطعين، فألمُ انقطاعه وبعاده واصلٌ إليه دونهم، وحظُّه من القرب والكرامة مختصٌّ به دونهم، فما معنى الاشتغال بهم والانقطاع معهم؟

وليعلمْ أنَّ هذه الوحشة لا تدوم، بل هي من عوارض الطريق، فسوف تبدو له الخيام، وسوف يخرج إليه المتلقون[3] يهنئونه بالسلام والوصول إليهم. فيا قرَّةَ عينه إذ ذاك، ويافرحته إذ يقول: ﴿يَٰلَيۡتَ قَوۡمِي يَعۡلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ ﴿٢٧﴾﴾[يس/ ٢٦ ـ ٢٧].

ولا يستوحشْ ممَّا يجده من كثافة الطبع، ودرَن[4] النفس، وبطءِ سيرها. فكلَّما أدمن السير وواظبَ عليه غدوًّا ورواحًا وسحرًا قرُبَ من المنزل[5]، وتلطفت تلك الكثافة، وذابت تلك الخبائث والأدران، وظهرت[6] عليه همَّة المسافرين وسيماهم، فتبدَّلت وحشتُه أُنسًا، وكثافتُه لطافة، ودرنُه طهارة.

---

(١) «ب،ك»: «ولتجعل»، تصحيف.

(٢) «ب،ك،ط»: «ولا يوحشه».

(٣) في الأصل: «الملتقون»، ولعله سهو، وكذا في «ف،ب». والمثبت من «ك،ط».

(٤) «ك»: «دُؤب»، «ط»: «ذوب»، تحريف.

(٥) «ك،ط»: «من الدار».

(٦) «ك،ط»: «فظهرت».

فصل[1]

فمن النَّاسِ من تكون[2] له القوة العلمية الكاشفة عن الطريق ومنازلها وأعلامها وعوارضها ومعاثرها، وتكون هذه القوَّة أغلبَ القوَّتين عليه، ويكون ضعيفًا في القوَّة العملية. يبصر الحقائق ولا يعمل بموجبها، ويرى المتالف والمخاوف والمعاطب ولا يتوقَّاها. فهو فقيه ما لم يحضر العمل، فإذا حضر العمل شارك الجُهَّال في التخلف، وفارقهم في العلم. وهذا هو الغالب على أكثر النفوس المشتغلة بالعلم، والمعصوم من عصمه الله، فلا قوَّة إلا بالله[3].

ومن النَّاسِ من تكون له القوة العملية الإراديّة، وتكون أغلبَ القوتين عليه. وتقتضي هذه القوة السير والسلوك[4]، والزهد في الدنيا، والرغبة في الآخرة، والجِدّ والتشمير في العمل. ويكون أعمى البصر عند ورود الشبهات في العقائد، والانحرافات في الأعمال والأحوال[5] والمقامات، كما كان الأوَّل ضعيف العقل عند ورود الشهوات. فداءُ هذا من جهله، وداءُ الأوَّل من فساد إرادته وضعف عقله.

وهذا حال أكثر أرباب الفقر والتصوف السالكين على غير طريق العلم، بل على طريق الذوق والوجد والعادة. يُرَى[6] أحدهم أعمى عن

(١) انظر: مفتاح دار السعادة (١/ ٣٧٨).
(٢) «ك، ط»: «يكون». والأصل غير منقوط.
(٣) «ط»: «ولا قوة».
(٤) «ب»: «السكوت»، تحريف.
(٥) «ب، ك، ط»: «الأقوال».
(٦) «ب»: «ترى».

مطلوبه، لا يدري من يعبد، ولا بماذا يعبده. فتارةً يعبده بذوقه ووجده، وتارةً يعبده بعادة[1] قومه وأصحابه من لبس معين، أو كشف رأس، أوحلق لحية ونحوها. وتارةً يعبده بالأوضاع التي وضعها بعضُ المتحَذْلقين وليس لها[2] أصل في الدِّين. وتارةً يعبده بما تحبه نفسُه وتهواه كائنًا ما كان. وهنا طرق ومتاهات لا يحصيها إلا ربُّ العباد[3]. فهؤلاءِ كلُّهم عُمْيٌ عن ربِّهم وعن شريعته ودينه، لا يعرفون شريعته ودينه الذي بعث به رسلَه، وأنزل به كتبَه، ولا يقبل من أحدٍ دينًا سواه؛ كما أنَّهم لا يعرفون صفاتِ ربِّهم التي تعرَّف بها إلى عباده على ألسنة رسله، ودعاهم إلى معرفته ومحبته[4] من طريقها، فلا معرفة[5] بالرب ولا عبادة له.

[٦١/ب]فمن[6] كانت له هاتان القوتان استقام له سيرُه إلى الله تعالى، ورجي له النفوذ، وقوي على رد القواطع والموانع بحول الله وقوَّته. فإنَّ القواطع كثيرة، شأنها شديد، لا يخلص من حبائلها إلا الواحد بعد الواحد. ولولا القواطع والآفات لكانت الطريق معمورةً بالسالكين. ولو شاء الله لأزالها وذهب بها، ولكنَّ الله يفعل ما يريد.

والوقت هو[7] ـ كما قيل ـ سيفٌ، فإن قطعتَه وإلا قطعك. فإذا كان

---

(١) «ب»: «بعبادة»، تحريف.
(٢) «ك،ط»: «له»، خطأ.
(٣) «ب»: «الله رب العباد».
(٤) «التي تعرف» إلى هنا ساقط من «ب».
(٥) «ط»: «معرفة له».
(٦) «ط»: «ومن».
(٧) «هو» ساقط من«ط».

السير ضعيفًا، والهمَّة ضعيفة، والعلم بالطريق ضعيفًا[١]، والقواطع الخارجة والداخلة كثيرةً شديدة= فإنَّه جهد البلاءِ، ودرك الشقاء، وسوء القضاء[٢]، وشماتة الأعداء؛ إلا أن يتداركَ[٣] الله برحمةٍ منه من حيث لا يحتسب: يأخذ[٤] بيده، ويخلصه من أيدي القواطع. والله ولي التوفيق.

(١) «والهمة...» إلى هنا ساقط من «ب».

(٢) «سوء القضاء» ساقط من «ط».

(٣) «ط»: «يتداركه».

(٤) كذا في الأصل و«ف». وفي غيرهما: «فيأخذ».

[أقسام العباد في سفرهم إلى ربهم]

العبدُ من حين استقرَّت قدمه في هذه الدار فهو مسافر إلى ربِّه، ومدَّة سفره هي عمره الذي كتب له. فالعمر هو مدَّة سفر الإنسان في هذه الدار إلى ربِّه تعالى، ثمَّ قد جعلت الأيام والليالي مراحل لسفره، فكلُّ يوم وليلة مرحلةٌ من المراحل، فلا يزالُ يطويها مرحلةً بعد مرحلةٍ حتَّى ينتهي السفر.

فالكيّس الفطِن هو الذي يجعل كل مرحلة نصب عينيه، فيهتم بقطعها سالمًا غانمًا، فإذا قطعها جعل الأخرى نصب عينيه. ولا يطول عليه الأمد، فيقسو قلبه، ويمتد أمله، ويحضره[1] التسويفُ والوعد والتأخير والمطل؛ بل يعدّ عمرَه تلك المرحلةالواحدة، فيجتهد في قطعها بخير ما بحضرته. فإنَّه إذا تيقن قِصَرَها وسرعة انقضائها هان عليه العمل، وطوَّعت[2] له نفسه الانقياد إلى التزود؛ فإذا استقبل المرحلة الأخرى من عمره استقبلها كذلك. فلا يزالُ هذا دأبه حتَّى يطوي مراحل عمره كلَّها، فيحمد سعيَه[3]، ويبتهج بما أعدَّه ليوم فاقته وحاجته. فإذا طلع صبح الآخرة، وانقشع ظلام الدنيا، فحينئذٍ يحمد سُراه، وينجلي[4] عنه كَراه. فما أحسنَ ما يستقبل يومَه، وقد لاحَ صباحُه، واستبانَ فلاحُه!

---

(١) «ك، ط»: «يحضر بالتسويف».

(٢) «ب، ك، ط»: «فطوعت».

(٣) «ب»: «تعبه».

(٤) «ب»: «ينحل»، تحريف، وفي «ك، ط»: «ينجاب».

ثمّ النَّاس في قطع هذه المراحل قسمان:

فقسم قطعوها مسافرين فيها إلى دار الشقاءِ، فكلَّما قطعوا مرحلةً منها[1] قربوا من تلك الدَّار، وبعدوا عن ربهم وعن دار كرامته. فقطعوا تلك المراحل بمساخط الرب ومعاداته، ومعاداة رسله وأوليائه ودينه، والسعي في إطفاء نوره، وإبطال دعوته ـ دعوة الحق[2] ـ وإقامة دعوة غيرها. فهؤلاءِ جعلت أيَّامهم مراحل[3] يسافرون فيها[4] إلى الدار التي خلقوا لها، واستعملوا بعملها[5]، فهم مصحوبون فيها بالشياطين الموكلة بهم حتى يسوقونهم[6] إلى منازلهم سوقًا، كما قال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ﴿٨٣﴾ ﴾[مريم/ ٨٣] أي تزعجهم إلى المعاصي والكفرِ إزعاجًا، وتسوقهم سوقًا.

القسم الثاني: قطعوا تلك المراحل سائرين فيها[7] إلى الله وإلى دار السلام. **وهم ثلاثة أقسام**: ظالمٌ لنفسه، ومقتصد، وسابق بالخيرات بإذن الله. وهؤلاء كلهم مستعدون للسير موقنون بالرجعى إلى الله، ولكن متفاوتون في التزود وتعبئة الزاد واختياره، وفي نفسِ السير وسرعته وبطئه.

---

(١) «ك، ط»: «منها مرحلة».

(٢) «دعوة الحق» ساقط من«ط».

(٣) «مراحل» ساقط من«ط».

(٤) «ب»: «بها».

(٥) «ك»: «بها بعملها». «ط»: «بها»، وأسقط «بعملها».

(٦) «ب»: «يسوقوهم». وقد أسقط «حتى» من «ط».

(٧) «فيها» ساقط من«ب».

فالظالم لنفسه مقصر في الزاد غير آخذٍ منه ما يبلّغه المنزل، لا في قدره ولا في صفته؛ بل مفرِّط في زاده الذي ينبغي له أن يتزوده. ومع ذلك فهو متزوِّد ما يتأذَّى به في طريقه، ويجد غِبَّ أذاه إذا وصلَ المنزل بحسب ما تزود من ذلك المؤذي الضارّ.

والمقتصد اقتصر من الزاد على ما يبلّغه، ولم يشدَّ[1] مع ذلك أحمالَ التجارة الرَّابحة، ولم يتزود ما يضره. فهو سالم غانم، لكن فاتته المتاجر الرَّابحة، وأنواع المكاسب الفاخرة.

والسابق بالخيرات همُّه في تحصيل الأرباح، وشدِّ أحمال التجارات، لعلمه بمقدار الربح الحاصل. فيرى خسرانًا أن يدخر شيئًا ممَّا بيده، ولا يتجر فيه[2]، فيجدُ ربحَه يوم يغتبط التجار بأرباح تجارتهم. فهو كرجل قد علم أنَّ أمامه بلدةً يكسب الدرهم[3] فيها عشرةً إلى سبعمائة وأكثر، وعنده حاصل، وله خبرة بطريق ذلك البلد، وخبرة بالتجارة، فهو لو أمكنه بيعُ ثيابه وكلّ ما يملك حتَّى يهيىء به تجارةً إلى ذلك البلد لفعل. فهكذا[4] حال السابق بالخيرات بإذن ربِّه[5] يرى خسرانًا بيِّنًا أن يمرَّ عليه وقتٌ في غير متجر.

فنذكر بعون الله وفضله[6] **نبذةً من متاجر الأقسام الثلاثة** ليعلم العبد

(١) «ف»: «فشد»، خلافًا للأصل.
(٢) «ب،ك،ط»: «به».
(٣) «ف»: «الدرهم يكسب».
(٤) «ف»: «فهذا»، خلاف الأصل.
(٥) «ك،ط»: «بإذن الله».
(٦) «ب»: «بحمد الله وعونه».

من أي التجار هو:

فأمَّا الظالم لنفسه فإنَّه إذا استقبل مرحلةَ يومه وليلته استقبلها وقد سبقت حظوظه وشهواته إلى قلبه، فحرَّكت جوارحَه طالبةً لها ساعيةً فيها[1]. فإذا زاحمتها[2] حقوق ربِّه فتارةً وتارةً: [٦٢/أ] فمرَّةً يأخذ بالرخصة، ومرَّةً بالعزيمة، ومرَّةً يقدم على الذنب وتركِ الحقِّ تهاونًا ووعدًا بالتوبة. فهذا حالُ الظالم لنفسه، مع حفظ التوحيد، والإيمان بالله ورسوله واليوم الآخر، والتصديق بالثواب والعقاب. فمرحلة هذا مقطوعة بالربح والخسران، وهو للأغلب[3] منهما. فإذا وردَ القيامةَ مُيِّزَ ربحُه من خسرانه، وحُصِّل ربحُه وحده، وخسرانُه وحده، وكان الحكم للرَّاجح منهما. وحكم الله عزَّوجلَّ من وراءِ ذلك، لا يعدم عباده[4] منه[5] فضلَه وعدلَه.

فصل[6]

وأمَّا المقتصدون: فأدوا وظيفةَ تلك المرحلة، ولم يزيدوا عليها، ولم ينقصوا[7] منها. فلا حصلوا على أرباح التجار، ولا بخسوا الحقَّ الذي عليهم.

---

(١) «ساعية فيها» ساقط من«ط».

(٢) «ك،ط»: «زاحمها».

(٣) «ب،ك»: «الأغلب»، وفي حاشية «ك»: «لعله للأغلب»، وهو الثابت في الأصل و«ف».

(٤) «عباده» ساقط من«ك،ط».

(٥) «ك»: «فيه» تحريف.

(٦) «فصل» ساقط من«ب،ط».

(٧) «ك،ط»: «ولا نقصوا».

فإذا استقبلَ أحدهم مرحلةَ يومه استقبلها بالطهور التامّ والصلاة التامّة في وقتها، بأركانها وواجباتها وشرائطها؛ ثمَّ ينصرف منها إلى مباحاته ومعيشته وتصرفاته التي أذنَ الله له[1] فيها مشتغلاً بها، قائمًا بأعبائها[2]، مؤديًا واجبَ الربِّ فيها، غير متفرِّغ لنوافل العبادات وأوراد الأذكارِ والتوجه.

فإذا حضرت الفريضة الأخرى بادر إليها كذلك، فإذا أكملها انصرف إلى حاله الأوَّل، فهو كذلك سائر يومه.

فإذا جاء الليل فكذلك إلى حين النوم، يأخذ[3] مضجعه حتَّى ينشقّ الفجر، فيقوم إلى عَدَّانه[4] ووظيفته.

فإذا جاء الصوم الواجب قام بحقِّه، وكذلك الزكاة الواجبة، والحج الواجب.

وكذلك المعاملة مع الخلق، يقوم فيها بالقسط، لا يظلمهم، ولا يترك حقَّه لهم.

فصل[5]

وأمَّا السابقون بالخيرات فهم نوعان: أبرار ومقرَّبون. وهؤلاءِ

(١) «له»: ساقط من«ط».

(٢) «ط»: «بأعيانها»، تصحيف، وسقط من «ف»: «بها قائمًا».

(٣) «ب»: «فيأخذ».

(٤) أي إلى عهده. وقد ضبط في «ب» بفتح أوله، ويجوز بكسره، وفي «ك،ط»: «غذائه»، تصحيف. وانظر ص(٤٤٦).

(٥) «فصل» ساقط من«ب،ط».

الأصناف الثلاثة هم أهل اليمين، وهم المقتصدون، والأبرار، والمقرَّبون. وأمَّا الظالم لنفسه فليسَ من أصحاب اليمين عند الإطلاق، وإن كان مآله إلى أصحاب اليمين، كما أنَّه لا يسمَّى مؤمنًا عند الإطلاق وإن كان مصيره ومآله مصير المؤمنين بعد أخذ الحق منه.

وقد اختُلِف في قوله تعالى: ﴿جَنَّٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا يُحَلَّوۡنَ فِيهَا مِنۡ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٖ﴾[فاطر/ ٣٣] الآية، هل ذلك راجعٌ إلى الأصناف الثلاثة: الظالم لنفسه، والمقتصد، والسابق بالخيرات؛ أو يختص بالقسمَين الأخيرين، وهما: المقتصد، والسابق، دون الظالم= على قولين:

فذهبت طائفة إلى أنَّ الأصناف الثلاثة كلهم في الجنَّة، وهذا يروى عن ابن مسعود، وابن عباس، وأبي سعيد الخدري، وعائشة أم المؤمنين.

قال أبوإسحاق السَّبيعي: «أمَّا الذي سمعتُ مذ ستون(١) سنة فكلهم ناجٍ»(٢).

قال أبوداود الطيالسي(٣): حدثنا الصَّلْت بن دينار، حدثنا عُقبة بن صُهبان الهُنائي قال: سألتُ عائشة عن قول الله تعالى: ﴿فَمِنۡهُمۡ ظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ وَمِنۡهُم مُّقۡتَصِدٞ وَمِنۡهُمۡ سَابِقُۢ بِٱلۡخَيۡرَٰتِ﴾[فاطر/ ٣٢] فقالت لي: «يابني، كلُّ هؤلاء في الجنَّة، فأمَّا السابق بالخيرات، فمن مضى على عهد رسول الله ﷺ، يشهد له رسولُ الله ﷺ بالحياة(٤) والرزق. وأمَّا

---

(١) «ب»: «مذ ستين»، «ك،ط»: «منذ ستين».

(٢) تفسير الطبري (٢٢/ ١٣٤).

(٣) «ك،ط»: «الطائي»، تحريف.

(٤) «ط»: «الخيرة»، تحريف.

المقتصد، فمن تبع أثره من أصحابه حتَّى لحق به. وأمَّا الظالم لنفسه، فمثلي ومثلك». قال: فجعلت نفسها معنا[(١)].

وقال ابن مسعود: «هذه الأمة يوم القيامة أثلاث: ثلث يدخلون الجنَّة بغير حساب، وثلث يحاسَبون حسابًا يسيرًا، ثمَّ يدخلون الجنَّة، وثلث يجيئون بذنوب عظام، فيقول الله: ما هؤلاء؟ وهو أعلم بهم، فتقول الملائكة: هم مذنبون إلا أنَّهم لم يشركوا، فيقول عزَّوجلَّ: أدخلوهم في سعة رحمتي»[(٢)].

وقال كعب: «تحاكَّتْ[(٣)] مناكبهم وربِّ الكعبة، وتفاضلوا بأعمالهم».

وقال الحسن: «السابق من رجحت حسناته[(٤)]، والمقتصد من استوت حسناته وسيئاته، والظالم من خفَّت موازينه»[(٥)].

واحتجت هذه الفرقة بأنَّه سبحانه سمّى الكلَّ «مصطفين»، وأخبر أنَّه

---

(١) أخرجه الطيالسي في مسنده (١٥٩٢) والحاكم (٢/ ٤٦٢) (٣٥٩٣). قال الحاكم: «صحيح الإسناد ولم يخرجاه»، فتعقبه الذهبي بقوله: «الصلت، قال النسائي: ليس بثقة، وقال أحمد: ليس بالقوي» (ز).

(٢) تفسير الطبري (٢٢/ ١٣٤).

(٣) كذا في الأصل، وهو الصواب. انظر: زاد المسير (٦/ ٤٩١)، وقرأ ناسخ «ف»: «تحاذت»، وهو تحريف. ومثله في «ب،ك،ط». وفي تفسير الطبري (٢٢/ ١٣٤): «تماسّت». وفي المحرر الوجيز (٤/ ٤٣٩): «استوت».

(٤) «ك،ط»: «السابقون.. حسناتهم».

(٥) زاد المسير (٦/ ٤٨٩). (ص). أخرجه الطبري (٢٢/ ١٣٥)، والبيهقي في البعث (٧٥،٧٦) بمعناه، وسنده صحيح. (ز).

اصطفاهم من جملة العباد. ومحال أن يكون الكافر والمشرك من المصطفَين، لأنَّ الاصطفاء هو الاختيار، وهو افتعال[1] من صفوة الشيء، وهو خياره. فعُلِمَ أنَّ هؤلاء الأصناف الثلاثة صفوة الخلق، وبعضُهم خيرٌ من بعض: فسابقُهم مصطفى عليهم، ثمَّ مقتصدهم مصطفى على ظالمهم، ثمَّ ظالمهم مصطفى على الكافر والمشرك.

واحتجت أيضًا بآثار روتها تؤيد ما ذهبت إليه: فمنها مارواه سليمان[2] الشاذكوني، حدثنا حصين بن نُمير[3]، عن ابن أبي ليلى[4]، عن أخيه، عن أبيه، عن أسامة بن زيد، عن النبي ﷺ في هذه الآية قال: «كلهم في الجنَّة»[5].

ومنها ما رواه الطبراني[6]، حدَّثنا أحمد بن حمَّاد ابن زُغبة[7]، حدثنا يحيى بن بكير، حدثنا ابن لهيعة، عن أحمد بن حازم

---

(١) «ط»: «الافتعال».

(٢) «ف»: «سلمان»، خطأ، وقد سقط من «ب».

(٣) «ف»: «نَهْر» كذا مضبوطًا. «ك»: «بهر»، «ب،ط»: «بهز». والصواب ما أثبتنا من الأصل وكتب الرجال. وهو حصين بن نمير الواسطي أبومحصن الضرير، كوفي الأصل. انظر: تهذيب التهذيب (٢/ ٣٩١).

(٤) «ط»: «عن أبي يعلى»، خطأ.

(٥) أخرجه الطبراني في الكبير (٤١٠) والبيهقي في البعث (٦٣، ٦٤). قال الهيثمي في المجمع: «وفيه محمد بن عبدالرحمن بن أبي ليلى، وهو سيىء الحفظ». (ز).

(٦) لعله في الكبير في القسم المفقود. وسنده ضعيف. فيه ابن لهيعة. وصالح مولى التوأمة لم يسمع من أبي الدرداء. والحديث له طرق أخرى ستأتي. (ز).

(٧) لم يضبط في «ب،ك». وفي «ط»: «رعبة»، تصحيف. و«زغبة» لقب حمَّاد. انظر ترجمة عيسى بن حماد في تهذيب التهذيب (٨/ ٢٠٩).

المعافري[1]، عن صالح مولى التوأمة، عن أبي الدرداء قال: قرأ النبيّ ﷺ هذه الآية: ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾[فاطر/ ٣٢] فقال: «أمَّا السابق فيدخل الجنَّة بغير حساب، وأمَّا المقتصد فيحاسَب حسابًا يسيرًا، وأمَّا الظالم [٦٢/ب] فيُحبس[2] في طول المحبس، ثمَّ يتجاوز الله عنه».

ومنها ما رواه زكريا الساجي، عن الحسن بن علي الواسطي، عن أبي سعد[3] الخزاعي، عن الحسن بن سالم، عن سعد بن طريف، عن أبي هاشم الطائي قال: «قدمتُ المدينة، فدخلتُ مسجدها، فجلستُ إلى سارية، فجاء حذيفة فقال: لأحدثَنَّك[4] بحديث سمعته من رسول الله ﷺ، سمعته[5] يقول: «يبعث الله تبارك وتعالى هذه الأمة ـ أو كما قال ـ ثلاثة أصناف، وذلك في قوله تعالى: ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ﴾[فاطر/ ٣٢] فالسابق بالخيرات يدخل الجنَّة بلا حساب، والمقتصد يحاسب حسابًا يسيرًا، والظالم لنفسه يدخل الجنَّة برحمة الله»[6].

---

(١) «ط»: «المعارفي»، تحريف.

(٢) «ط»: «فيجلس»، تحريف.

(٣) في الأصل نقطة على الحرف الثاني، ويحتمل قراءة «سفيان». وقراءة «ف»: «أبي نصر». وفي «ب،ك،ط»: «أبي سعيد». ولعلَّ الصواب ما أثبتنا.

(٤) «ك»: «ألا أحدثكم». «ط»: «ألا أحدث».

(٥) «سمعته» ساقط من«ط».

(٦) أخرجه الديلمي في مسند الفردوس زهر الفردوس (٤٦٦) (٨٧٧٤) من طريق أبي الشيخ الأصفهاني عن زكريا الساجي به مثله. وهو ضعيف جدًّا. فيه سعد ابن طريف، وهو متروك، وقد رُمي بوضع الحديث. (ز).

ومنها ما رواه الطبراني عن محمد بن إسحاق[(١)] بن راهويه، حدثنا أبي، حدثنا جرير، عن الأعمش، عن رجلٍ سمَّاه، عن أبي الدرداء قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول في قوله تعالى: ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ﴾[فاطر/ ٣٢] الآية، قال: «السابق بالخيرات والمقتصد يدخلان الجنَّة بغير حساب، والظالم لنفسه يحاسب حسابًا يسيرا ثمَّ يدخل الجنَّة»[(٢)].

ومنها ما رواه ابن لهيعة عن ابن أبي جعفر[(٣)]، عن يونس بن عبدالرحمن، عن أبي الدرداء قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول في[(٤)] هذه الآية: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَـٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾ إلى قوله: ﴿سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ﴾[فاطر/ ٣٢] قال: «فأمَّا السَّابقون فيدخلون الجنَّة بغير حساب، وأمَّا المقتصد فيحاسب حسابًا يسيرًا، وأمَّا الظالمون فيحاسبون، فيصيبهم عناءٌ وكرب، ثمَّ يدخلون الجنَّة، ثم يقولون: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ ۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾﴾[فاطر/ ٣٤]».

ومنها ما رواه الحميدي، حدَّثنا سفيان، حدثنا طُعْمة[(٥)] بن عمرو

---

(١) «ف»: «الحسن»، تحريف.

(٢) أخرجه الحاكم (٢/ ٤٦٢)، والبيهقي في البعث (٦٢) من طريق جرير عن الأعمش به. وجاء هذا الحديث من طرق أخرى عن الأعمش وغيره عند أحمد (٢١٦٩٧) والطبري في تفسيره (٢٢/ ١٣٧)، والبخاري في تاريخه (٨/ ١٧ ـ ١٨). ولعلَّ أصح الطرق الطريق المرسلة. انظر تفصيل الخلاف في التاريخ الكبير. فالحديث ضعيف الإسناد لجهالة حال الراوي عن أبي الدرداء. (ز).

(٣) «ك، ط»: «عن أبي جعفر».

(٤) «في»: ساقطة من «ط».

(٥) «ب، ك»: «طعيمة»، تحريف.

الجعفري، عن رجلٍ قال: قال أبوالدرداءِ لرجل: ألا أحدثك بحديث أخصُّك به، لم أحدث به أحدًا؟ قال رسول الله ﷺ: ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ الآية [فاطر/ ٣٢]. قال: «جنَّات عدن»(١) قال: «دخلوا الجنَّة جميعًا»(٢).

واحتجت أيضًا بالآيات والأحاديث التي تشهد بنجاة الموحدين من أهل الكبائر ودخولهم الجنَّة.

واحتجت أيضًا بأنَّ «ظلم النفس» إنَّما يُرادَ به(٣) ظلمُها بالذنوب والمعاصي، فإنَّ الظلم ثلاثة أنواع: ظلم في حق النفس باتباعها شهواتها وإيثارها لها على طاعة ربها، وظلم في حق الخلق بالعدوان عليهم ومنعهم حقوقهم، وظلم في حق الرب بالشرك به. فظلم النفس إنَّما هو بالمعاصي، وقد تواترت النصوص بأنَّ العصاة من الموحدين مآلهم إلى الجنّة، كقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ﴾ الآية(٤)[آل عمران/ ١٣٥].

وقالت طائفة: بل الوعد بالجنَّات إنَّما هو للمقتصد والسابق، دون الظالم لنفسه. فإنَّ الظالم لنفسه لا يدخل تحت الوعد المطلق، والظالم لنفسه هنا هو: الكافر، والمقتصد: المؤمن العاصي، والسابق: المؤمن التقي.

---

(١) كذا في الأصل وغيره، وقارن بما في «ط».

(٢) انظر تاريخ البخاري، الموضع السابق.

(٣) «ك، ط»: «بها».

(٤) «كقوله تعالى...» إلى هنا ساقط من«ب،ك،ط»، وهو ثابت في حاشية الأصل.

وهذا يروى عن عكرمة[(١)]، والحسن[(٢)]، وقتادة[(٣)]. وهو اختيار جماعة من المفسرين منهم صاحب الكشّاف[(٤)]، ومنذر[(٥)] بن سعيد في تفسيره، والرماني[(٦)]، وغيرهم.

قالوا: وهذه الآية متناولة لجميع أقسام الخلق شقيهم وسعيدهم. وهي نظير آية: ﴿وَكُنتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً ۝٧ فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ ۝٨ وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ ۝٩ وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ ۝١٠﴾[الواقعة/ ٧ ـ ١٠]. قالوا: فأصحاب الميمنة هم المقتصدون، وأصحاب المشأمة هم[(٧)] الظالمون لأنفسهم، والسابقون[(٨)] هم السابقون بالخيرات.

قالوا: ولم يصطفِ الله من خلقه ظالمًا لنفسه، بل المصطفون من عباده هم صفوته وخيارهم، والظالمون لأنفسهم ليسوا خيار العباد بل شرارهم، فكيف يوقع عليهم اسم المصطفين ويتناولهم فعل الاصطفاء؟

---

(١) أخرجه الطبري (٢٢/ ١٢٥). (ز).

(٢) أخرجه الطبري (٢٢/ ١٣٥)، والبيهقي في البعث (٧٥،٧٦) وهو ثابت عنه (ز).

(٣) أخرجه الطبري (٢٢/ ١٣٥)، وهو ثابت عنه (ز).

(٤) الكشاف (٣/ ٦١٢).

(٥) «ب»: «رزين». تحريف. وهو أبوالحكم منذر بن سعيد البلوطي (٣٥٥هـ) كان فقيهًا محققًا ونحويًا وعالمًا بالتفسير. سير أعلام النبلاء (١٦/ ١٧٣).

(٦) أبوالحسن علي بن عيسى الرماني، (٣٨٤هـ)، المعتزلي، من كبار النحاة، صاحب التصانيف في التفسير والنحو واللغة. إنباه الرواة (٢/ ٢٩٤)، السير (١٦/ ٥٣٣).

(٧) «هم» ساقط من«ك، ط».

(٨) «ك، ط»: «والسابقون السابقون».

قالوا: وأيضًا فصفوة الله[1] هم أحباؤه، والله لا يحب الظالمين، فلا يكونون[2] مصطفين.

قالوا: ولأنَّ الظالم لنفسه، وإن كان ممن أُورث الكتاب، فهو بتركه العمل[3] بما فيه قد ظلم نفسَه، والله سبحانه إنَّما اصطفى من عباده من أورثه كتابَه ليعمل بما فيه. فأمَّا من نبذه وراءَ ظهره فليس من المصطفين من عباده.

قالوا: ولأنَّ الاصطفاء افتعال من صفوة الشيء، وهو خلاصته ولبّه، وأصله اصتفى، فأُبدلت التاءُ طاءً لوقوعها بعد الصاد كالاصطباح والاصطلام ونحوه. والظالم لنفسه ليس صفوة العباد ولا خلاصتهم ولا لبّهم، فلا يكون مصطفى.

قالوا: ولأنَّ الله سبحانه سلَّم على المصطفين من عباده فقال: ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ﴾[النمل/ ٥٩]. وهذا يقتضي سلامتهم من كلِّ شرٍّ ومن[4] كلِّ [٦٣/أ] عذاب، والظالم لنفسه غير سالم من هذا ولا هذا، فكيف يكون من المصطفين؟

قالوا: وأيضًا فطريقة القرآن أنَّ الوعدَ المطلق بالثواب إنَّما يكون للمتقين لا للظالمين، كقوله تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِى نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا ﴿٦٣﴾﴾[مريم/ ٦٣] فأين الظالم لنفسه هنا؟ وقوله: ﴿أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ

---

(١) «ط»: «صفوة الله».

(٢) «ك»: «فلا يكونوا».

(٣) «ب»: «للعمل».

(٤) «من» ساقطة من«ك، ط».

﴿جَنَّةُ ٱلْخُلْدِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ﴾[الفرقان/ ١٥]، وقوله: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ١٣٣﴾[آل عمران/ ١٣٣]، وقوله: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ٣١ حَدَآئِقَ وَأَعْنَٰبًا ٣٢ وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ٣٣ وَكَأْسًا دِهَاقًا ٣٤ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّٰبًا ٣٥ جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابًا ٣٦﴾[النبأ/ ٣١ - ٣٦]. والقرآن مملوءٌ من هذا، ولم يجىء فيه موضع واحد بإطلاق الوعد بالثواب للظالم لنفسه أصلاً.

قالوا: وأيضًا فلم يجيء في القرآن ذكر الظالم لنفسه إلا في معرض الوعيد لا الوعد، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى عَذَابِ جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ٧٤ لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ٧٥ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُواْ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ ٧٦﴾[الزخرف/ ٧٤ - ٧٦]، وقوله تعالى: ﴿فَقَالُواْ رَبَّنَا بَٰعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾[سبأ/ ١٩][(١)]، وقوله: ﴿وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ٥٧﴾[البقرة/ ٥٧][(٢)]. وقوله: ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ ١٢٤﴾[البقرة/ ١٢٤]، وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ٤٤﴾[يونس/ ٤٤][(٣)].

قالوا: وأيضًا فالظالم لنفسه هو الذي خفَّت موازينه، ورجحت سيئاته، والقرآن كلُّه يدلُّ على خساره[(٤)] وأنَّه غير ناج، كقوله تعالى: ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ٨ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ

---

(١) وقع في الأصل وغيره من النسخ: «قالوا ربنا...» وهو سهو.
(٢) «ب،ك،ط»: «وما ظلمناهم...»، وهي آية أخرى في سورة النحل (١١٨).
(٣) سقطت هذه الآية والتي قبلها من «ب،ك،ط».
(٤) «ب،ط»: «خسارته».

﴿خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا يَظْلِمُونَ﴾[الأعراف/ ٨ ـ ٩]، وقوله: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٨﴾﴾(١)[القارعة/ ٨ ـ ٩]. فكيف يذكر وعده بجنّاته وكرامته للظالمين أنفسَهم، الخفيفة موازينُهم؟

قالوا: وأيضًا فقوله تعالى: ﴿جَنَّـٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا﴾[فاطر/ ٣٣](٢) مرفوع، لأنّه بدل من قوله: ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ﴾[فاطر/ ٣٢]، وهو بدل نكرة من معرفة، كقوله: ﴿كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًۢا بِٱلنَّاصِيَةِ ﴿١٥﴾ نَاصِيَةٍ كَـٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴿١٦﴾﴾[العلق/ ١٥ ـ ١٦] وحسَّن وقوعَه مجيءُ النكرة موصوفةً لِتخصُّصها(٣) بالوصفِ وقربها من المعرفة. ومعلومٌ أنَّ المبدل منه وهو «الفضل الكبير» مختص بالسابقين بالخيرات، والمعنى أنَّ سبقَهم بالخيرات بإذنه(٤) هو(٥) الفضل الكبير، وهو جنَّات عدن يدخلونها؛ وجعل السبق بالخيرات نفسَ الجنَّات لأنَّه سببها وموجبها.

قالوا: وأيضًا فإنَّه وصفَ حليتَهم فيها بأنَّها أساور من ذهبٍ ولؤلؤ، وهذه جنَّات السابقين لا جنَّات المقتصدين. فإنَّ جنَّات الفردوس أربع، كما ثبت في الصحيح عن النبيّ ﷺ أنَّه قال: «جنَّتان من ذهبٍ آنيتُهما وحِليتُهما وما فيهما. وجنَّتان من فضَّة آنيتهما وحليتهما وما فيهما. وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربِّهم إلا رداءُ الكبرياءِ على وجهه في جنَّة

(١) وقع في الأصل وغيره من النسخ: «ومن خفت...»، وهو سهو.
(٢) «يدخلونها» ساقط من «ك، ط».
(٣) كذا في الأصلِ، وفي غيره: «لتخصيصها».
(٤) أشار في حاشية «ط» إلى أن في الأصل بياضًا بعد «بإذنه». ولكن لا بياض في النسخ التي بين أيدينا.
(٥) «ك، ط»: «ذلك هو».

عدن»[1]، ومعلوم أنَّ الجنتين الذهبيتين أعلى وأفضل من الفضيتين، فإذا كانت الجنَّتان الذهبيتان للظالمين لأنفسهم، فمن يسكن الجنَّتين الفضيتين؟ فعُلِمَ أنَّ هذه الجنَّات المذكورة لا تتناول الظالمين لأنفسهم.

قالوا: وأيضًا فإنَّ أقرب المذكورات إلى ضمير الداخلين هم السابقون بالخيرات، فوجبَ اختصاصهم بالدخول إلى الجنَّاتِ المذكورة[2].

قالوا: وفي اختصاصهم ـ بعد ذكر الأقسام ـ بذكر ثوابهم، والسكوت عن الآخرين ما هو معلوم من طريقة القرآن، إذ يصرِّح بذكر ثواب الأبرار والمتقين والمخلصين والمحسنين ومن رجحت حسناتهم، وبذكر[3] عقاب الكفَّار والفجَّار والظالمين لأنفسهم ومن خفَّت موازينهم، ويسكت عن القسم الذي فيه شائبتان وله مادَّتان. هذه طريقة القرآن، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ ﴿١٤﴾﴾[الانفطار/ ١٣ ـ ١٤]، وقوله: ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾﴾[النازعات/ ٣٧ ـ ٤١]. وهذا كثير في القرآن.

قالوا: وفي السكوت عن شأن صاحب الشائبتين تحذير عظيم وتخويف له، فإنَّ[4] أمره مرجأٌ إلى الله، وليس له[5] عليه ضمان، ولا له

(١) أخرجه البخاري في التفسير (٤٨٧٨) وغيره، ومسلم في الإيمان (١٨٠) عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه.
(٢) «ب، ك، ط»: «المذكورات».
(٣) معطوف على «بذكر ثوابهم»، وفي «ف» وغيرها: «يذكر».
(٤) «ط»: «بأنَّ».
(٥) «له»: ساقط من «ك، ط».

عنده وعد، فَلْيحذر[1] كلَّ الحذرِ، ولْيبادر بالتوبة النصوح التي تُلحِقُه بالمضمون لهم النجاةُ والفلاحُ.

قالوا: وأيضًا فمن المحال أن يقع على أحدٍ من المصطفين اسمُ الظلم مطلقًا، وإنَّما يقع اسم الظلم مطلقًا على الكافر، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَٰعَةٌ وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾[البقرة/ ٢٥٤]. وقال تعالى: ﴿وَٱلظَّٰلِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ۝٨﴾[الشورى/ ٨] مع قوله: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾[البقرة/ ٢٥٧]. والظالم لا ولي له فلا يكون[2] من المؤمنين.

قالوا: وأيضًا فمن تدبَّر الآيات وتأمَّل سياقها وجدها قد [٦٢/ب] استوعبت جميع أقسام الخلق، ودلَّت على مراتبهم في الجزاء. فذكر سبحانه فيها[3] أنَّ النَّاس نوعان: ظالمٌ، ومحسنٌ. ثمَّ قسم المحسن إلى قسمين: مقتصد، وسابق. ثمَّ ذكر جزاءَ المحسن. فلمَّا فرغ منه ذكر جزاءَ الظالم، فقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُواْ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا كَذَٰلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ﴾[فاطر/ ٣٦][4].

وقد قال[5] تعالى: ﴿۞ وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّيٓ إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٢٩﴾[الأنبياء/ ٢٩]، فذكر أنواع العباد

---

(١) «ك، ط»: «ليحذر».

(٢) قراءة «ف»: «ولا يكون».

(٣) «فيها» ساقط من«ب، ك، ط».

(٤) في«ب» ضبطت الآية على قراءة أبي عمرو البصري، فقد قرأ: «كذلك يُجزَى كلُّ كفور». انظر: الإقناع (٢/ ٧٤١). ولم تضبط في الأصل وغيره.

(٥) «ب، ك، ط» : «وقال».

وجزاءهم.

وقالوا: وأيضًا فهذه طريقة القرآن في ذكر أصناف الخلق الثلاثة، كما ذكرهم تعالى في سورة الواقعة والمطففين وسورة الإنسان(١).

فأمَّا سورة الواقعة، فذكرهم في أولها وفي آخرها، فقال في أولها: ﴿وَكُنتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً ﴿٧﴾ فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ ﴿٨﴾ وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ ﴿٩﴾ وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ ﴿١٠﴾ أُولَٰئِكَ الْمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾[الواقعة/ ٧ ـ ١٢] فأصحاب المشأمة هم الظالمون. وأمَّا أصحاب اليمين فقسمان: أبرار وهم أصحاب الميمنة، وسابقون وهم المقربون.

وقال(٢) في آخرها: ﴿فَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴿٨٩﴾ وَأَمَّا إِن كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ ﴿٩٠﴾ فَسَلَامٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ ﴿٩١﴾ وَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ ﴿٩٢﴾ فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٩٣﴾ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ﴿٩٤﴾﴾.

فذكر حالهم في القيامة الكبرى في أوَّل السورة، ثمَّ ذكر حالهم في القيامة الصغرى في البرزخ في آخر السورة. ولهذا قدَّم قبله ذكر الموت ومفارقة الروح(٣)، فقال: ﴿فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾ فَلَوْلَا إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ تَرْجِعُونَهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٨٧﴾﴾، ثمَّ قال: ﴿فَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾﴾ إلى آخرها.

وأمَّا في أوَّلها فذكر أقسام الخلق عقب(٤) قوله: ﴿إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ﴿١﴾

---

(١) «ب»: «الواقعة وسورة الإنسان والمطففين».

(٢) «قال» ساقط من «ك، ط».

(٣) «في آخر السورة...» إلى هنا ساقط من «ب».

(٤) «ف»: «عقيب» خلاف الأصل.

﴿لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ۝٢ خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ ۝٣ إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًّا ۝٤ وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا ۝٥ فَكَانَتْ هَبَاءً مُّنْبَثًّا ۝٦ وَكُنتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً ۝٧﴾[الواقعة/ ١ ـ ٧].

وأمَّا سورة الإنسان فقال تعالى: ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلَاسِلَا وَأَغْلَالًا وَسَعِيرًا ۝٤﴾، فهؤلاء الظالمون أصحاب المشأمة. ثمَّ قال: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ۝٥﴾، فهؤلاء المقتصدون أصحاب اليمين. ثمَّ قال: ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ۝٦﴾، فهؤلاء المقربون السابقون، ولهذا خصَّهم بالإضافة إليه، وأخبرَ أنَّهم يشربون بتلك العين صِرفًا محضًا[1]، وأنَّها تُمزَج للأبرار مزجًا، كما قال في سورة المطففين في شراب الأبرار: ﴿وَمِزَاجُهُ مِن تَسْنِيمٍ ۝٢٧ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ ۝٢٨﴾.

وقال: ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ ۝٢٨﴾ ولم يقل: «منها»، إشعارًا بأنَّ رِيَّهم[2] بالعينِ نفسِها خالصةً لا بها وبغيرها. فضمّن «يشرب» معنى «يروى»، فعدَّى بالباء. وهذا ألطف مأخذًا وأحسن معنى من أن تُجعل الباءُ بمعنى«من»، ولكن[3] يُشرَب الفعلُ معنى فعل آخرَ فيعدَّى[4] تعديته. وهذه طريقة الحذَّاق من النحاة، وهي طريقة سيبويه وأئمة أصحابه[5]. وقال في الأبرار: ﴿مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا﴾

---

(١) «ب،ك»: «محضة».
(٢) «ط»: «شربهم».
(٣) «ط»: «ويضمن»، خطأ.
(٤) «ك»: «فتعدَّى»، «ط»: «فيتعدى».
(٥) انظر نحو هذا الكلام في بدائع الفوائد (٤٢٤)، وحادي الأرواح (٢٦٤)، وانظر: مقدمة في أصول التفسير (٥٢)، ومجموع الفتاوى (١١/١٧٨)، والتبيان في أقسام القرآن (٩٥)، والخصائص لابن جني (٢/٣٠٨ـ٣١١)، =

[الإنسان/ ٥]، لأنَّ شرب المقربين لمَّا كان أكمل استعير له الباء الدَّالّة على شرب الري بالعينِ خالصةً. ودلالة القرآن ألطف وأبلغ من أن يحيط بها البشر.

وقال تعالى في سورة المطففين: ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ ۝٧﴾ إلى قوله: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ۝١٥ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا۟ ٱلْجَحِيمِ ۝١٦ ثُمَّ يُقَالُ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ۝١٧﴾، فهؤلاء الظالمون أصحاب الشمال.

ثمَّ قال: ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ ۝١٨ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ ۝١٩﴾، فهؤلاء الأبرار المقتصدون. وأخبر أنَّ المقرَّبين يشهدون كتابَهم، أويُكتَب بحضرتهم ومشهدهم، لا يغيبون عنه، اعتناءً به وإظهارًا لكرامة صاحبه ومنزلته عند ربِّه.

ثمَّ ذكرَ سبحانه نعيم[(١)] الأبرار، ومجالسهم[(٢)]، ونظرهم إلى ربِّهم، وظهورَ نضرة النعيم في وجوههم. ثمَّ ذكرَ شرابهم فقال: ﴿يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ ۝٢٥ خِتَٰمُهُۥ مِسْكٌ ۚ وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ ۝٢٦﴾. ثمَّ قال: ﴿وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ ۝٢٧ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ ۝٢٨﴾، والتسنيم أعلى أشربة الجنَّة. فأخبر سبحانه أنَّ مزاجَ شراب الأبرار من التسنيم، وأنَّ المقرَّبين يشربون منه بلا مزاج. ولهذا قال: ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ ۝٢٨﴾ كما قال في سورة الإنسان سواءً.

قال ابن عباس وغيره: يشرب بها المقربون صرفًا،

= وإعراب القرآن للنحاس (٥/ ٩٨).

(١) «ب»: «معين».

(٢) «ب، ك، ط»: «مجالستهم».

وتمزج[1] لأصحاب اليمين مزجًا[2]. وهذا لأنَّ الجزاء وفاقُ العملِ، فكما خلصت أعمالُ المقربين كلُّها لله، خلص شرابهم؛ وكما مزَجَ الأبرارُ الطاعاتِ بالمباحات، مُزِجَ لهم شرابُهم. فمن أخلصَ أُخلِصَ شرابُه، ومن مزَج مُزِج شرابُه.

فيا لاهيًا في غمرة الجهلِ والهوى صريعًا على فُرْشِ الرَّدى يتقلبُ[3]
تأمَّلْ ـ هداك الله ـ ما ثمَّ وانتبِهْ فهذا شرابُ القومِ حقًّا يركَّبُ
وتركيبُه في هذه الدار إن يفُتْ فليسَ له بعد المنية مطلبُ[4]
فيا عجبًا من مُعرضٍ عن حياته وعن حظِّه العالي ويلهو ويلعبُ[5]
ولو علم المحرومُ أيَّ بضاعةٍ أضاعَ لأمسى قلبُه يتلهَّبُ
فإنْ كان لا يدري فتلك مصيبةٌ وإنْ كان يدري فالمصيبةُ أصعبُ
بلى سوف يدري حين ينكشفُ الغطا ويصبحُ مسلوبًا ينوحُ ويندُبُ[6]
ويعجَبُ ممَّن باعَ شيئًا بدون ما يُساوي بلا علمٍ وأمرُك أعجَبُ[7]

---

(١) «ب،ك،ط»: «يمزج».
(٢) تفسير الطبري (٣٠/١٠٩).
(٣) «ب،ك»: «أيا لاهيًا». «ط»: «يا لاهيًا». والظاهر أنَّ هذه الأبيات للمؤلف رحمه الله. وقد زيدت في الأصل في حاشيته.
(٤) «ط»: «إن تفت»، خطأ.
(٥) «ب»: «عن جنابه»، تصحيف.
(٦) «ط»: «مصلوبًا»، تحريف.
(٧) «ب»: «وتعجب».

لأنَّك قد بعتَ الحياة وطيبَها بلذَّة حُلْمٍ عن قليلٍ ستذهَبُ[(١)]
فهلاَّ عكستَ الأمر إن كنتَ حازمًا ولكن أضعتَ الحزمَ والحكمُ يغلِبُ
تصدُّ وتنأى عن حبيبك دائمًا فأينَ عن الأحباب ويحَكَ تذهبُ
ستعلَمُ يومَ الحشرِ أيَّ تجارةٍ أضعتَ إذا تلك الموازينُ تُنصَبُ

[٦٤/أ] قالوا: فهكذا هذه الآيات التي في سورة الملائكة، ذكر فيها الأقسام الثلاثة: الظالم لنفسه وهو من أصحاب الشمال، وذكر المقتصد وهو من أصحاب اليمين، وذكر السابقين وهم المقربون.

قالوا: وليسَ في الآيةِ ما يدلُّ على اختصاص الكتاب بالقرآن، والمصطفين بهذه الأمة، بل الكتاب اسم جنس للكتب[(٢)] التي أنزلها على رسُله، فإنَّه أورثها المصطفَين من عباده من كل أمة، وهم[(٣)] الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم. هم الذين أُورثوه أوَّلاً، ثمَّ أُورثَه المصطفون[(٤)] من أممهم بعدهم. قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْهُدَىٰ وَأَوْرَثْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ ﴿٥٣﴾ هُدًى وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٥٤﴾﴾[غافر/ ٥٣ ـ ٥٤]، فأخبرَ أنَّه إنَّما يكون هدىً وذكرى لمن له لبٌّ عقَلَ به الكتابَ وعمل بما فيه، والعامل بما فيه هو الذي أورثه الله علمَه.

وتأمَّل قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ

(١) «ك، ط»: «سيذهب».
(٢) «ب»: «الكتبه».
(٣) «هم»: ساقط من«ط».
(٤) «ط»: «أورثوه المصطفين».

مُرِيبٖ ﴿١٤﴾﴾[الشورى/ ١٤] كيف حذف الفاعلَ هنا، وبنى الفعلَ للمفعول، لما كان في معرض الذمِّ لهم ونفيِ العلمِ عنهم. ولمَّا كان في سياق ذكر نعمه وآلائه ومننه(١) عليهم قال: ﴿وَأَوۡرَثۡنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡكِتَٰبَ ﴿٥٣﴾﴾[غافر/ ٥٣]. ونظيره هذه(٢) الآية: ﴿ثُمَّ أَوۡرَثۡنَا ٱلۡكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصۡطَفَيۡنَا مِنۡ عِبَادِنَاۖ﴾[فاطر/ ٣٢].

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٞ وَرِثُواْ ٱلۡكِتَٰبَ يَأۡخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلۡأَدۡنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغۡفَرُ لَنَا وَإِن يَأۡتِهِمۡ عَرَضٞ مِّثۡلُهُۥ يَأۡخُذُوهُۚ﴾[الأعراف/ ١٦٩] فإنَّه(٣) لمَّا كان الكلام في سياق ذمّهم على اتباعهم(٤) شهواتهم، وإيثارهم العرضَ الفاني على حظّهم من الآخرة، وتماديهم في ذلك؛ لم ينسب التوريثَ إليه، بل نسبه إلى المحلّ، فقال: «ورثوا الكتاب»، ولم يقل: «أورثناهم الكتاب».

وقد ذكرتُ نظير هذا في قوله: ﴿ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ [البقرة/ ١٢١] أنَّه للمدح، و﴿أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ﴾(٥) إمَّا في سياق الذمِّ، وإمَّا منقسم، في كتاب «التحفة المكية»(٦).

---

(١) «ط»: «منته».
(٢) «ط»: «ونظير هذه».
(٣) «ب، ك، ط»: «وأنّه».
(٤) «ب»: «اتباع».
(٥) «ب»: «أورثوا»، «ك، ط»: «أورثوا الكتاب»، تحريف.
(٦) سمَّاه في بدائع الفوائد (١٥٩٧) «التحفة المكية في بيان الملة الإبراهيمية». وقد تكلَّم المؤلف في هذا الموضوع في بدائع الفوائد (٧٢٥) أيضًا، ولكنَّه أحال هناك في بيان الفرق بين ﴿الَّذين آتيناهم الكتاب﴾ و ﴿الَّذين أوتوا الكتاب﴾ على كتاب «الفوائد المكية».

والمقصودُ أنَّ الذين أورثهم الكتاب هم المصطفون من عباده أوَّلاً وآخرًا.

قالوا: وأمَّا[1] قوله تعالى: ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ﴾ لا يرجع إلى المصطفين، بل إمَّا أن يكون الكلام قد تمَّ عند قوله: ﴿مِنْ عِبَادِنَا﴾، ثمَّ استأنف جملةً أخرى، ذكر[2] فيها أقسام العباد، وأنَّ[3] منهم ظالم، ومنهم مقتصد، ومنهم سابق. ويكون الكلام جملتين مستقلتين، بيَّن في إحداهما أنَّه أورثَ كتابَه مَن اصطفاه من عباده، وبيَّن في الأُخرى أنَّ من عباده ظالم، ومقتصد، وسابق[4]. وإمَّا أن يكون المعنى تقسيم المرسل إليهم بالنسبة إلى قبول الكتاب، وأنَّ منهم من لم يقبله وهو الظالم لنفسه، ومنهم من قَبِلَه مقتصدًا فيه، ومنهم من قَبِله سابقًا بالخيرات بإذن ربِّه[5].

قالوا: والذي يدل على هذا الوجه أنَّه سبحانه ذكر إرساله في كلِّ أمة نذيرًا ممَّن تقدم هذه الأمة، فقال: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ۝٢٤﴾[فاطر/ ٢٤]. ثمَّ ذكر أنَّ رسلهم جاءَتهم بالبينات وبالزبُر وبالكتاب المنير. فالبينات[6]: الآيات الدَّالّة على صدقهم وصحَّة رسالتهم[7]. والزبر: الكتب[8]، واحدها زبور بمعنى مزبور أي

(١) «أمَّا» ساقط من«ط».
(٢) «ب،ك،ط»: «وذكر».
(٣) كذا في الأصل وغيره على أنّ اسم أنّ محذوف، وفي «ط»: «أنّهم».
(٤) كذا في الأصل وغيره، وفي «ط»: «ظالمًا ومقتصدًا وسابقًا».
(٥) «ب،ك،ط»: «بإذن الله».
(٦) «فالبينات» ساقط من«ط»، وفي«ك»: «والبينات».
(٧) «ط»: «رسالاتهم».
(٨) «ط»: «الكتاب».

مكتوب. و«الكتاب المنير»[1] من باب عطفِ الخاصِّ على العام، لتميزه[2] عن المسمَّى العام بفضيلة وشرف[3] امتاز بها واختص بها[4] عن غيره. وهو كعطف جبريل وميكائل على الملائكة[5]، وكعطف أولي العزم[6] على النبيين من قوله: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَـٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ﴾[الأحزاب/ ٧]. والكتاب المنير هاهنا هو[7] التوراة والإنجيل.

ثمَّ ذكر إهلاك المكذبين لكتابه ورسله، فقال: ﴿ثُمَّ أَخَذْتُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ۝٢٦﴾[فاطر/ ٢٦]. ثمَّ ذكر التالين لكتابه، وهم المتبعون له العاملون بشرائعه، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَـٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ إلى قوله: ﴿غَفُورٌ شَكُورٌ ۝٣٠﴾[فاطر/ ٢٩ ـ ٣٠][8].

ثمَّ ذكر الكتاب الذي خصَّ به خاتمَ أنبيائه ورسله محمدًا ﷺ فقال: ﴿وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ هُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ۝٣١﴾[فاطر/ ٣١]. ثمَّ ذكر سبحانه من أورثهم سبحانه الكتابَ بعد أولئك، وأنَّه اصطفاهم لتوريث كتابه، إذ ردَّه المكذبون ولم يقبلوا

---

(١) «ف،ك»: «المبين»، تحريف.

(٢) «ف،ك،ب»: «ليميزه»، وقد ضبط في الأصل بالتاء.

(٣) «ط»: «بفضله وشرفه».

(٤) «بها» كذا هنا ومن قبل في الأصل وغيره، والضمير عائد إلى «الفضيلة».

(٥) «ميكائل»: كذا في الأصل و«ف». وهي قراءة نافع المدني، وفي«ب»: «ميكائيل». وفي«ك»: «ميكال».

(٦) في الأصل: «أولو العزم» بالرفع، سهو.

(٧) «هو» ساقط من«ط».

(٨) كذا في الأصل وغيره. وفي «ط» أكملت الآية.

توريثه.

قالوا: وأمَّا قولكم إنَّ الاصطفاء افتعال من الصفوة، وهي الخيار، وهي إنَّما تكون في السعداء، فهذا بعينه حجة لنا في أنَّ الظالم لنفسه ليس ممن اصطفاه الله من عباده، وقد تقدم[١] تقريره.

قالوا: وأمَّا الآثارُ التي رويتموها عن النبيّ ﷺ في ذلك فكلها ضعيفة الأسانيد أو منقطعة[٢] لاتثبت، كيف وهي معارَضةٌ بآثار مثلها أو أقوى منها.

قال ابن مردويه في تفسيره: حدثنا الحسن بن عبيدالله بن الحسن[٣]، حدثنا صالح بن أحمد، حدثنا أحمد بن محمد بن المعلَّى الأدمي، حدثنا حفص بن عمار، حدثنا مبارك بن فضالة، عن عبيدالله ابن عمر، عن نافع، عن ابن عمر عن النبي ﷺ في قوله: ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ﴾[فاطر/ ٣٢] قال: «الكافر»[٤].

قالوا: وأمَّا النصوص الدالّة على أنَّ أهل التوحيد يدخلون الجنَّة فصحيحة لا ننازعكم فيها، غير أنَّها مطلقة، ولها شروط وموانع. كما أنَّ النصوص الدَّالّة على عذاب أهل الكبائر[٥] صحيحة متواترة، ولكن[٦] لها شروط[٧] وموانع يتوقف لحوق الوعيد عليها، فكذلك نصوص

---

(١) «ب»: «سبق».

(٢) «ب، ك، ط»: «ومنقطعة».

(٣) «ط»: «الحسن بن عبدالله».

(٤) سنده ضعيف فيه حفص بن عمار المعلم. قال الذهبي: «مجهول». وله أحاديث منكرة ساقها ابن عدي في الكامل (٢/ ٣٩١-٣٩٢). (ز).

(٥) «ف»: «أهل النار» تحريف.

(٦) «لكن» ساقط من«ط».

(٧) «ب»: «شروطًا».

الوعد يتوقف مقتضاها على شروطها وانتفاء موانعها.

قالوا: وأمَّا قولكم إنَّ «ظلم النفس» إنَّمايراد به ظلمها بالذنوب والمعاصي دون الكفر فليس بصحيح، فقد ذكرنا من[1] القرآن مايدل على أنَّ ظلم النفس يكون بالكفر والشرك، ولو لم يكن في هذا إلا قول موسى لقومه[2]: ﴿يَٰقَوۡمِ إِنَّكُمۡ ظَلَمۡتُمۡ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلۡعِجۡلَ﴾[البقرة/ ٥٤] وقوله: ﴿وَظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ فَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَحَادِيثَ وَمَزَّقۡنَٰهُمۡ كُلَّ مُمَزَّقٍۚ﴾[سبأ/ ١٩] ونظائره كثيرة.

قالت الطائفة الأولى: لو تدبرتم القرآن حقَّ تدبره، وأعطيتم الآيات حقَّها من الفهم، وراعيتم وجوهَ الدلالة[3] وسياق الكلام، لعلمتم أنَّ الصوابَ معنا، وأنَّ هذه الأقسام الثلاثة هي الأقسام التي خلقت للجنَّة، وهم درجات عندالله[4]؛ وأنّ هذا التقسيم الذي دلّت عليه أخصُّ من التقسيم المذكور في سورة الواقعة والإنسان والمطفّفين. فإنّ ذلك تقسيمٌ للناس إلى شقيّ وسعيد، وتقسيمٌ للسعداء[5] إلى أبرار ومقرّبين، وتلك القسمة خالية عن ذكر العاصي الظالم لنفسه. وأما هذه الآيات ففيها تقسيم الأُمّة إلى محسن ومسيء، فالمسيء[6] هو الظالم لنفسه، والمحسن نوعان: مقتصد، وسابق بالخيرات. فإنّ الوجود شامل لهذا

---

(١) «ط»: «ذكر في». «ك»: «ذكرنا في القرآن ما دلَّ».

(٢) «لقومه» ساقط من«ك، ط».

(٣) «ط»: «وجوهه الدالة».

(٤) «وأنَّ هذه الأقسام. . .» إلى هنا ساقط من«ط».

(٥) «ك، ط»: «السعداء».

(٦) قراءة «ف»: «والمسيء».

القسم، بل هو أغلب أقسام الأمة، فكيف يخلو القرآن عن ذكره وبيان حكمه؟ ثمّ لمّا استوفى أقسام الأُمة ذكر الخارجين عنهم، وهم الذين كفروا، فعمّت الآية أقسامَ الخلق كلِّهم. وعلى ما ذهبتم إليه تكون الآية قد أهملَتْ ذِكرَ القسمِ الأغلب الأكثر، وكرّرت ذكر حكم الكافر أوّلاً وآخرًا. ولا ريبَ أنَّ ماذكرناه أولى لبيان حكم[1] هذا القسم، وعموم الفائدة.

وأيضًا فإنَّ قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾[فاطر/ ٣٢] صريح في أنَّ الذين أورثهم الكتاب هم المصطفون من عباده. وقوله: ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ﴾[فاطر/ ٣٢] إمَّا أن يرجع إلى الذين اصطفاهم، وإمَّا أن يرجع إلى العباد. ورجوعُه إلى «الذين اصطفينا»[2] أولى[3] لوجهين:

أحدهما: أنَّ قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ﴾[4][فاطر/ ٣٢] إنَّما يرجع إلى المصطفين لا إلى العباد، فكذلك قوله: ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ﴾[فاطر/ ٣٢]. ولا يقال: بل الضمائر كلّها تعود على العباد، لأنَّ سياق الآية والإتيان بالفاءِ والتقسيم المذكور كلّه يدلّ على أنَّ المراد بيانُ أقسام الوارثين للكتاب لا بيان أقسام العباد، إذ لو أراد ذلك لأتى بلفظ يُزيل الوهمَ، ولا يلتبس به المراد بغيره، وكان وجهُ الكلام[5] على

---

(١) «حكم» ساقط من«ط».

(٢) «ك»: «اصطفيناهم». «اصطفاهم».

(٣) «أولى» ساقط من«ط».

(٤) «ف»: «سابق بالخيرات»، خلاف الأصل.

(٥) «ك»: «وجه الكلام عندهم».

هذا أن يقال: «ومن عبادنا ظالم لنفسه ومقتصد وسابق بالخيرات ثمَّ أورثنا الكتابَ الذين اصطفينا منهم»، وهذا هو[1] معنى الكلام عندكم، ولا ريب أنَّ سياق الآية لا يدلّ عليه. إنَّما يدلّ على أنَّه أورث الكتابَ طائفةً من عباده، وأنَّ تلك الطائفة ثلاثةُ أقسام. هذا وجه الكلام الذي يدلُّ عليه ظاهره.

الثاني: أنَّك إذا قلت: «أعطيتُ مالي للبالغين[2] من أولادي، فمنهم تاجرٌ[3]، ومنهم خازن، ومنهم مبذِّر مسرفٌ[4]». هل يفهم من هذا أحد قطّ[5] هذا التقسيم لجملة أولاده؟ بل لا يفهم منه إلا أنَّ أولاده كانوا في أخذهم المال أقسامًا ثلاثةً، ولهذا أتى فيها بالفاءِ الدالّة على تفصيل ما أجمله أوَّلاً، كما إذا قلت: «خذ هذا المال فأعطِ فلانًا كذا، وأعطِ فلانًا كذا»، ونظائره متعددة. ولا وجه للإتيان بالفاءِ ههنا إلا تفصيل المذكور أولاً، لا تفصيل المسكوت عنه. والآيةُ قد سكتت عن تفصيل العباد الذين اصطفى منهم من أورثه الكتاب، فالتفصيل للمذكور[6] ليس إلا. فتأمّله فإنَّه واضح.

قالوا: وأمَّا قولكم إنَّ الله لا يصطفي من عباده ظالمًا لنفسه، لأنَّ الاصطفاءَ هو الاختيار من الشيء صفوتَه وخيارَه إلى آخر ما ذكرتم،

---

(١) «هو» ساقط من «ب،ك،ط».

(٢) كذا في «الأصل ف،ب». وفي «ك،ط»: «البالغين».

(٣) «ب»: «فاجر»، تحريف.

(٤) «ك،ط»: «مبذِّر ومسرف».

(٥) «قط» ظرف مختص بالزمان الماضي، وقد أوقعه المؤلف هنا وفي مواضع أخرى من كتبه موقع «أبدًا». وانظر ما يأتي في ص (٥١٩، ٥٧٦).

(٦) «ف»: «بالتفصيل المذكور». «ك»: «فالتفصيل المذكور». وكلاهما خطأ.

فجوابُه أنّ كون العبد مصطفىً لله[1] وليًا له محبوبًا له[2] ونحو ذلك من الأسماء الدالّة على شرف منزلة العبد وتقريب الله له لا ينافي ظلمَ العبدِ نفسه أحيانًا بالذنوب والمعاصي. بل أبلغُ من ذلك أن صدّيقيّته لا تُنافي ظلمه لنفسه، ولهذا قال صدِّيق الأمة وخيارها للنَّبيّ ﷺ: علِّمني دعاءً أدعو به في صلاتي، فقال: «قل: اللَّهم إنِّي ظلمتُ نفسي ظلمًا كثيرًا، ولا يغفر الذنوبَ إلا أنت، فاغفر لي مغفرةً من عندك وارحمني، إنَّك أنت الغفور الرحيم»[3].

وقد قال تعالى: ﴿ ۞ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ ﴾[آل عمران/ ١٣٣ـ ١٣٥]. فأخبر[4] سبحانه عن صفات المتّقين، وأنَّهم يقع منهم [٦٥/أ] ظلم النفس والفاحشة، لكن لا يصرّون على ذلك.

وقال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ ۙ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿٣٣﴾ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ۚ ذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٤﴾ لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى عَمِلُواْ وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ ٱلَّذِى كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾[الزمر/ ٣٣ ـ ٣٥]. فهؤلاء الصدِّيقون المتقون قد أخبر سبحانه أنَّ لهم أعمالاً

---

(١) «ف»: «مصطفى ربّه».

(٢) «ط»: «مصطفى ووليًا لله ومحبوبًا لله».

(٣) أخرجه البخاري في كتاب الأذان (٨٣٤) وغيره، ومسلم في كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار(٢٧٠٥).

(٤) «ط»: «وأخبر».

سيئة يكفِّرها، و لا ريبَ أنّها ظلم للنفس[1].

وقال موسى: ﴿ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَٱغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُۥٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦﴾ ﴾[القصص/ ١٦]. وقال آدم: ﴿ رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ ﴾[الأعراف/ ٢٣]. وقال يونس: ﴿ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ ﴾[الأنبياء/ ٨٧]. وقال تعالى: ﴿ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿١٠﴾ إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًۢا بَعْدَ سُوٓءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١﴾ ﴾[النمل/ ١٠-١١].

وإذا كان ظلم النفس لا ينافي الصدِّيقيّة والولاية، ولا يُخرِج العبد عن كونه من المتّقين، بل يجتمع فيه الأمران: يكون وليًّا لله صدِّيقًا متّقيًا، وهو مسيء ظالمٌ لنفسه= عُلِمَ أنَّ ظلمَه لنفسه لا يُخرجه عن كونه من الذين اصطفاهم الله من عباده وأورثَهم كتابَه، إذ هو مصطفىً من جهة كونه من ورثة الكتاب علمًا وعملاً، ظالمٌ لنفسه من جهة تفريطه في بعض ما[2] أُمر به وتعدِّيه بعضَ ما نهي عنه. كما يكون الرجل وليًّا لله محبوبًا له من جهة، ومبغوضًا له من جهة أخرى. وهذا عبدالله حمار[3] كان يُكثر شربَ الخمر، والله يبغضه من هذه الجهة؛ ويحبُّ الله ورسولَه، واللهُ يحبُّه ويواليه من هذه الجهة. ولهذا نهى النبيّ ﷺ من لعنته[4]، وقال: «إنَّه يحبُّ الله ورسوله»[5].

---

(١) «ب»: «ظلم النفس».

(٢) «ط»: «ممّا».

(٣) «حمار» لقب عبدالله كما في صحيح البخاري. وكان يضحك رسول الله ﷺ. وانظر: الإصابة(٢/ ١١٧).

(٤) «ف»: «لعنه»، خلاف الأصل.

(٥) من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه، أخرجه البخاري في كتاب =

ونكتةُ **المسألة** أنَّ الاصطفاء والولاية والصديقيّة وكون الرجل من الأبرار والمتّقين(١) ونحو ذلك كلها مراتب تقبل التجزّي(٢) والانقسام والكمال والنقصان، كما هو ثابتٌ باتفاق السلف(٣) في أصل الإيمان. وعلى هذا فيكون هذا القسم مصطفىً من وجه، ظالمًا لنفسه من وجه آخر.

وظلم النفس نوعان: نوعٌ لا يبقى معه شيء من الإيمان والولاية(٤) والاصطفاء، وهو ظلمها بالشرك والكفرِ. ونوع يبقى معه حصَّةٌ(٥) من الإيمان والاصطفاء والولاية، وهو ظلمها بالمعاصي، وهو درجات متفاوتة في القدرِ والوصف.

فهذا التفصيل يكشف قناع المسألة ويزيل إشكالها بحمدالله.

قالوا: وأمّا قولكم إنَّ قوله تعالى: ﴿جَنَّٰتُ عَدۡنٖ﴾[فاطر/ ٣٣] مرفوع، لأنَّه بدل من قوله: ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَضۡلُ ٱلۡكَبِيرُ﴾[فاطر/ ٣٢]، وهو مختصٌّ بالسابقين، وذكرُ(٦) حليتِهم فيها من أساور من ذهبٍ يدلُّ

= الحدود(٦٧٨٠).

(١) «ك،ط»: «ومن المتقين».

(٢) كذا وردَ في الأصلِ وغيره، وهو مصدر تجزّى بتسهيل الهمزة.

(٣) «ك،ط»: «المسلمين».

(٤) زاد بعدها في «ب،ك،ط»: «والصديقية».

(٥) كذا في الأصل و«ف». والحصّة: النصيب. وفي«ب،ك،ط»: «حظّه». ولايستبعد كتابة الظاء ضادًا، ولكنّي رأيت ناسخ الأصل تعود العكس، فهو يكتب الضاد ظاءً، فكتب «الظن» مكان «الضن» (١٠٣/ أ)، و«الحظ» مكان «الحض» (١٠٦/ ب).

(٦) «ذكر» ساقط من«ب».

على ذلك إلى آخره، فجوابه من وجهين:

أحدهما: أنَّ هذا بعينه وارد عليكم، فإنَّ المقتصد من أهل الجنَّات، ومعلوم أنَّ جنَّات السابقين بالخيرات أعلى وأفضل من جنَّاته[1]. فما كان جوابكم عن المقتصد فهو الجواب بعينه عن الظالم لنفسه، فإنَّ التفاوت حاصل بين جنَّات الأصناف الثلاثة، ويختصُّ كلُّ صنفٍ بما يليق بهم[2] ويقتضيه مقامُهم وعلمهم.

الجواب الثاني: أنَّه سبحانه ذكر جزاءَ السابقين بالخيرات هنا مشوِّقًا لعباده إليه منبِّهًا لهم على مقداره وشرفه، وسكت عن جزاءِ الظالمين لأنفسهم والمقتصدين، ليحذر الظالمون ويجدَّ[3] المقتصدون.

وذكر في سورة الإنسان جزاءَ الأبرار منبِّهًا به[4] على ما هو أعلى وأجل منه، وهو جزاءُ المقرَّبين السابقين، ليدلّ على أنَّ هذا[5] إذا كان جزاء الأبرار[6] المقتصدين فما الظنّ بجزاءِ المقربين السابقين؟ فقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ۝٥﴾ إلى قوله: ﴿وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِـَٔانِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا۠ ۝١٥ قَوَارِيرَا۟ مِن فِضَّةٍ﴾ إلى قوله: ﴿عَٰلِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوٓا۟ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ۝٢١﴾[الإنسان/ ٥ ـ ٢١].

---

(١) «ب»: «جنات الظالم»، خطأ.

(٢) «ف»: «به» سهو.

(٣) «ب»: «يحذر»، تحريف.

(٤) «به» ساقط من «ط».

(٥) «ب»: «أنّه».

(٦) «ط»: «للأبرار».

فذكر هنا الأساور من الفضّة والأكواب من الفضّة في جزاءِ الأبرار، وذكر في سورة الملائكة[1] الأساور من الذهبِ في جزاءِ السابقين بالخيرات، فعُلِمَ جزاءُ المقتصدين من سورة الإنسان، وعلِمَ جزاءُ السابقين من سورة الملائكة، فانتظمت السورتان جزاءَ المقرَّبين على أتمّ الوجوه. والله أعلم بأسرار كلامه وحكمه.

قالوا: وهذا هو الجواب عن قولكم: إنَّ الضمير يختصّ به أقربُ مذكور إليه.

قالوا: وأمَّا قولكم: إنَّ الظالم لنفسه إنَّما هو الكافر، فقد تقدَّم جوابه، وذكرنا[2] ما يُبطله.

قالوا: وأمَّا قولكم: إنَّ هذه الآيات نظير آيات الواقعة وسورة الإنسان وسورة المطفّفين في تقسيم الناس إلى ثلاثة أقسام: أصحاب الشمال، وأصحاب اليمين، والمقرّبون؛ فلا ريب أنَّ هذه الآية وافية بالأقسام الثلاثة مع مزيد تقسيم آخر، وهو تقسيم أصحاب اليمين إلى ظالم لنفسه ومقتصد، فهي مشتملة على تلك الأقسام وزيادة.

قالوا: وأمَّا قولكم [٦٥/ب]: إنَّ الآثار الدالّة على أنَّ الأصناف الثلاثة هم السعداءُ أهل الجنَّة ضعيفة لا تقوم بها حجّة، فجوابه أنَّها قد بلغت في الكثرة إلى حدّ يشدُّ بعضُها بعضًا ويشهد بعضها لبعض، ونحن نسوق منها آثارًا غيرَ ما ذكرناه[3] تعلم[4] به كثرتَها وتعدّد طرقها.

---

(١) يعني سورة فاطر.

(٢) «ط»: «وذكر».

(٣) «ب»: «ذكرنا».

(٤) «ك، ط»: «يعلم».

فروى ابن مردويه في تفسيره من حديث سفيان، عن الأعمش، عن رجل، عن أبي ثابت أنَّ رجلاً دخل المسجد، فقال: اللَّهم ارحمْ غربتي، وآنسْ وحشتي، وسُقْ لي جليسًا صالحًا، فقال أبوالدرداء: إنْ كنت صادقًا أنا[1] أسعد بذلك منك، سمعتُ رسول الله ﷺ قرأ هذه الآية: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَـٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ﴾[فاطر/ ٣٢] قال: «أمَّا السابق بالخيرات فيدخل[2] الجنَّة بغير حساب، وأمَّا المقتصد فيحاسَب حسابًا يسيرًا، وأمَّا الظالم لنفسه فيحاسب[3] في المقام حتى يدخله الهمّ والحزن، ثمَّ يدخل الجنَّة». ثمَّ قرأ هذه الآية: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ ۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ۝٣٤﴾[4][فاطر/ ٣٤].

وقد ذكرنا فيما تقدّم حديث ابن أبي ليلى[5]، عن أخيه عيسى، عن أبيه، عن أسامة بن زيد في قوله: ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ﴾[فاطر/ ٣٢] قال: قال رسول الله ﷺ: «كلُّهم من هذه الأمة»[6].

وروى ابن مردويه أيضًا من حديث الفضل بن عميرة القيسي[7]، عن ميمون بن سِياه، عن أبي عثمان النهدي قال: سمعتُ عمر بن الخطاب يقول على المنبر: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «سابقنا سابقٌ،

---

(١) «ط»: «لأنا». «ب»: «لئن... لأنا».

(٢) «ك، ط»: «فيدخله».

(٣) «ب، ط»: «فيحبَس».

(٤) تفسير الطبري (٢٢/ ١٣٧).

(٥) «ط»: «حديث أبي ليلى».

(٦) تقدم في ص (٤١٠).

(٧) «ب، ك، ط»: «عمرة العبسي»، تحريف.

ومقتصدنا ناجٍ، وظالمُنا مغفورٌ له» وقرأ عمر: ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ﴾(1) [فاطر: ٣٢].

وروى أيضًا من حديث أبي داود عن شعبة، عن الوليد بن العيزار، قال: سمعتُ رجلاً من ثقيف يحدث عن رجل من كنانة، عن أبي سعيد أنَّ النبي ﷺ قال في هذه الآية: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾ [فاطر: ٣٢] قال: «كلُّهم في الجنَّة». أو قال: «كلُّهمْ بمنزلةٍ واحدةٍ» قال شعبة أحدهما. ورواه داود بن إبراهيم عن شعبة به، وقال(2): «دخلوا الجنَّة كلّهم». أو «كلّهم(3) بمنزلة واحدة». فهذا حديث صحيح إلى شعبة، وإذا كان شعبة في حديث لم يُطرَح، بل شُدَّ يديك به. ورواه يحيى بن سعيد عن الوليد بن العيزار، فذكره بمثله(4).

وروى محمد بن سعد(5)، عن أبيه، عن عمِّه، حدثنا أبي، عن أبيه، عن ابن عباس في قوله: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ

---

(١) أخرجه العقيلي في الضعفاء (٣/ ٤٤٣)، والبيهقي في البعث (٦٥)، والواحدي في الوسيط (٣/ ٥٠٥). قال العقيلي: «ولا يتابع على حديثه ـ يعني الفضل بن عميرة»، وقال أيضًا: «وهذا يروى من غير هذا اللفظ بإسناد أصلح من هذا». وروي موقوفًا على عمر عند البيهقي في البعث (٦٦) وقال: غير قوي. (ز).

(٢) «ك، ط»: «وقالوا».

(٣) «أو كلّهم» ساقط من «ك، ط».

(٤) أخرجه الطيالسي (٢٢٣٦) والطبري (٢٢/ ١٣٧) والترمذي (٣٢٢٥) وقال: «هذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلاَّ من هذا الوجه». والبيهقي في البعث والنشور (٦١) وقال ابن كثير في تفسيره (٣/ ٥٦٣): «هذا حديث غريب من هذا الوجه، وفي إسناده من لم يسمّ» (ز).

(٥) «ف»: «ورواه محمد بن سعيد» خلاف الأصل.

عِبَادِنَا﴾[فاطر/ ٣٢] الآية قال: «جعل الله أهل الإيمان على ثلاث منازل، كقوله: ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ ﴿٤١﴾﴾[الواقعة/ ٤١] ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ﴾[الواقعة/ ٢٧] ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ﴿١٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾﴾(١) [الواقعة/ ١٠ ـ ١١]، فهم على هذا المثال»(٢).

قلتُ: يريد ابن عباس أنَّ الله قسم أصحاب اليمين إلى ثلاث منازل، كما قسم الخلقَ في الواقعة إلى ثلاث منازل، فإنَّ أصحاب الشمال المذكورين في الواقعة هم الكفّار المنكرون للبعث، فكيف تكون هذه منزلةً من منازل أهل الإيمان؟ ويجوزُ أن يريد أنَّ الظالمين لأنفسهم المستحقين للعذاب هم من أهل الشمال، ولكنَّ إيمانَهم يجعلهم آخرًا من أهل اليمين.

وروي من حديث معاوية بن صالح، عن علي بن أبي طلحة(٣)، عن ابن عباس في هذه الآية قال: «هم أمَّة محمد ﷺ، ورثّهم الله سبحانه كلَّ كتاب أنزله، فظالمهم يُغفَرُ له، ومقتصدهم يُحاسَب حسابًا يسيرًا، وسابقهم يدخل الجنَّة بغير حساب»(٤).

وروي من حديث عثمان بن أبي شيبة، حدَّثنا الحسن بن عبدالرحمن

---

(١) في «ب» وردت مكانها هذه الآيات: ﴿فَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ﴿٨﴾ وَأَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ﴿٩﴾ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ﴿١٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾﴾ [الواقعة/ ٨ ـ ١١].

(٢) تفسير الطبري (٢٢/ ١٣٥).

(٣) «ب،ك،ط»: «أبي طالب»، تحريف. وقال ناشر «ط» أن في أصله بياضًا بعد «أبي طالب». ولا بياض في أصولنا.

(٤) تفسير الطبري (٢٢/ ١٣٤).

ابن أبي ليلى، حدَّثنا عمران بن محمد بن أبي ليلى[1]، حدثنا أبي، عن الحكم، عن عبدالرحمن بن أبي ليلى، عن البراء بن عازب ـ أو عن رجل عن البراءِ[2] ـ قال: قال رسول الله ﷺ: ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾[فاطر/ ٣٢] . قال: «كُلُّهُمْ نَاجٍ، وهي هذه الأُمَّة».

ورواه الفريابي، حدثنا سفيان، عن ابن أبي ليلى[3]، عن الحكم، عن رجل، حدَّثه عن البراء قال: قال رسول الله ﷺ في هذه الآية: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾ إلى آخر الآية [فاطر/٣٢] قال: «كلٌّ ناجٍ»[4].

وقال آدم بن أبي إياس: حدَّثنا أبوفضالة، عن الأزهر بن عبدالله الحَرَازي[5]، حدثنا من سمع عثمان بن عفَّان يقول: «ألا إنَّ سابقنا أهل جهادنا، ألا وإنَّ مقتصدنا أهل حضرنا، ألا وإنَّ ظالمنا أهل بدونا»[6].

---

(١) «ف»: «محمد بن إسرائيل»، تحريف.

(٢) «ك،ط»: «البراء بن عازب».

(٣) «ط»: «عن أبي ليلى» خطأ.

(٤) أخرجهما الفريابي وابن مردويه كما في الدر المنثور (٥/ ٤٧٤). وسنده ضعيف. فيه محمد بن عبدالرحمن بن أبي ليلى وهو سيىء الحفظ. وقد روي موقوفًا في البعث (٦٧) للبيهقي وسنده ضعيف (ز).

(٥) «ف»: «الخرازي»، وفي«ب،ك»: «الأزهري عبدالله الخراز» ومثله في «ط»، إلاّ أن فيها «الخزاز» بزايين، والصواب ماأثبتنا من الأصل. وانظر: تهذيب التهذيب (١/ ٢٠٤).

(٦) أخرجه سعيد بن منصور في سننه (٢٣٠٨)، والبيهقي في البعث (٦٦)، وسنده ضعيف لإبهام الرجل الذي لم يسمّ. وعزاه السيوطي في الدر المنثور (٥/ ٤٧٣) لابن أبي شيبة. وابن المنذر وابن مردويه.

وقد تقدَّم حديث عائشة وأبي الدرداء وحذيفة[١].

قالوا: فهذه الآثار يُسنِد[٢] بعضُها بعضًا. فإنَّها[٣] قد تعدَّدت طرقها، واختلفت مخارجها؛ وسياق الآية يشهد لها بالصحّة، فلا يُعدل عنها[٤].

والمقصود الكلام على مراحل العالمين وكيفية قطعهم إيَّاها، فلنرجع إليه فنقول:

أمَّا الأشقياء فقطعوا تلك المراحل سائرين إلى دار الشقاء متزوّدين غضبَ الربّ سبحانه، ومعاداةَ كتبه ورسله وما بُعثِوا به، ومعاداةَ أوليائه والصدّ عن سبيله، ومحاربةَ من يدعو إلى دينه، ومقاتلةَ[٥] الذين يأمرون بالقسط من النَّاسِ، وإقامةَ دعوةٍ غير دعوة الله سبحانه التي بَعث بها رسلَه لتكون الدعوة له وحده. فقطع هؤلاء الأشقياء مراحل أعمارهم في ضدّ ما يحبّه[٦] ويرضاه.

وأمَّا السائرون إليه، فظالمهم قطع مراحل عمره [٦٦/أ] في غفلاته وإيثار شهواته ولذَّاته على مراضي الربّ وأوامره، مع إيمانه بالله وكتبه ورسله واليوم الآخر، لكن نفسه مغلوبة معه، مأسور[٧] مع حظِّه وهواه،

(١) انظر: ص (٤٠٨، ٤١١ ـ ٤١٣).

(٢) «ك، ط»: «يشدّ».

(٣) «ف، ك، ط»: «وإنَّها»، قراءة محتملة.

(٤) «ط»: «فلا نعدل عنها».

(٥) «ك»: «معاملة»، تحريف.

(٦) «ب، ك، ط»: «يحبه الله».

(٧) «ط»: «مأسورة».

يعلم سوءَ حاله، ويعترف بتفريطه، ويعزم على الرجوع إلى الله. فهذا حال المؤمن[1] المسلم.

وأمَّا من زُيِّن له سوءُ عمله فرآه حسنًا، وهو غير معترفٍ ولا مقرّ ولا عازم على الرجوع إلى الله والإنابة إليه أصلاً، فهذا لا يكاد إسلامه أن يكون صحيحًا أبدًا، ولا يكون هذا إلا منسلخ القلب من الإيمان، ونعوذ بالله من الخذلان.

وأمَّا الأبرار المقتصدون فقطعوا مراحل سفرهم بالاهتمام بإقامة أمر الله، وعقد القلبِ على ترك مخالفته ومعاصيه، فهممُهم مصروفة إلى القيامِ بالأعمال الصالحة واجتناب الأعمال القبيحة.

فأوَّل ما يستيقظ أحدهم من منامه يسبق إلى قلبه القيامُ إلى الوضوءِ والصلاة كما أمره الله. فإذا أدَّى فرضَ وقته[2] اشتغل بالتلاوة والأذكارِ إلى حين تطلع الشمس، فركع[3] الضحى، ثمَّ ذهب إلى ما أقامه الله فيه من الأسباب.

فإذا حضر فرضُ الظهر بادر إلى التطهّر[4] والسعي إلى الصفِّ الأوَّل من المسجد، فأدَّى فريضته كما أُمِر مكمِّلاً لها[5] بشرائطها وأركانها وسننها وحقائقها الباطنة من الخشوع والمراقبة والحضور بين يدي الرَّبّ.

---

(١) «المؤمن» ساقط من«ب، ك، ط».
(٢) «ف»: «فرض الله»، تحريف.
(٣) «ك، ط»: «فيركع».
(٤) «ب، ك»: «التطهير»، تحريف.
(٥) «ف»: «أمر بكمالها»، تحريف.

فينصرف من الصلاة وقد أثَّرت في قلبه وبدنه وسائر أحواله آثارًا تبدو على صفحاته ولسانه وجوراحه. ويجد ثمرتها في قلبه من الإنابة إلى دار الخلود، والتجافي عن دار الغرور، وقلَّة التكالب[1] والحرص على الدنيا وعاجلها. قد نهته صلاتُه عن الفحشاء والمنكر، وحبَّبتْ إليه لقاء الله، ونفَّرته من كلِّ قاطع يقطعه[2] عن الله. فهو مغموم مهموم، كأنَّه في سجن، حتَّى تحضر الصلاة، فإذا حضرت قام إلى نعيمه وسروره وقرَّة عينه وحياة قلبه، فهو لا تطيب له الحياة إلا بالصلاة.

هذا، وهم في ذلك كلّه مراعون لحفظ السنن لا يُخِلّون منها بشيء ما أمكنهم. فيقصدون من الوضوءِ أكمله، ومن الوقت أوَّله، ومن الصفوف أوَّلها عن يمين الإمام أو خلف ظهره.

ويأتون بعد الفريضة بالأذكار المشروعة كالاستغفار ثلاثًا، وقول: «اللَّهم أنتَ السَّلامُ، ومنكَ السَّلامُ، تباركتَ يا ذا الجلالِ والإكرام»[3]، وقول: «لا إلهَ إلا اللهُ وحده لا شريكَ له، له الملكُ، وله الحمدُ، وهو على كلِّ شيءٍ قدير. اللّهم لا مانِعَ لِمَا أعطيتَ، ولا مُعْطِيَ لِمَا مَنَعْتَ، ولا يَنْفَعُ ذا الجَدِّ منكَ الجدُّ، لا إلهَ إلا اللهُ، ولا نعبدُ إلا إيَّاه، له النِّعْمَةُ وله الفضلُ وله الثَّناءُ الحسَن[4]، لا إلهَ إلا اللهُ مخلصين له الدِّين ولو كَرِهَ الكافرونَ»[5].

---

(١) «ك»: «التكاليف»، تحريف.

(٢) «ب»: «يقطع».

(٣) أخرجه مسلم في المساجد (٥٩١) من حديث ثوبان رضي الله عنه.

(٤) «ف»: «الحسن الجميل»، خلاف الأصل.

(٥) أخرجه مسلم في المساجد (٥٩٤) من حديث عبدالله بن الزبير رضي الله =

ثمَّ يسبِّحون ويحمدون ويكبرون تسعًا وتسعين، ويختمون المائة بِـ«لا إلهَ إلا اللهُ وحدَهُ لا شريكَ له، له الملكُ، وله الحمدُ، وهو على كلِّ شيءٍ قدير»[1].

ومن أرادَ المزيدَ قرأ آية الكرسيّ والمعوّذتين عقيب كلِّ صلاة، فإنَّ فيهما[2] أحاديث رواها[3] النسائيّ وغيره[4]، ثمَّ يركعون السنَّة على أحسن الوجوه.

هذا دأبهم في كلِّ فريضة.

فإذا كان قبل غروب الشمس توفَّروا على أذكار المساء الواردة في السنَّة نظير أذكار الصباح الواردة في أوَّل النهار، لا يُخِلُّون بها أبدًا. فإذا جاء الليل كانوا فيه على منازلهم من مواهب الربّ تعالى التي قسمها بين عباده.

فإذا أخذوا مضاجعهم أتوا بأذكار النوم الواردة في السنّة، وهي كثيرةٌ تبلغ نحوًا من أربعين، فيأتون منها بما علموه وما يقدرون عليه من قراءة

= عنهما.

(١) أخرجه مسلم في المساجد (٥٩٧) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) «ك، ط»: «فيها».

(٣) «ف»: «الحديث رواه»، خلاف الأصل.

(٤) أخرجه النسائي في الكبرى (٩٩٢٨) وفي عمل اليوم والليلة له (١٠٠) من حديث أبي أمامة. وأخرجه الروياني (١٢٦٨) والطبراني في الكبير (٧٥٣٢) والأوسط (٨٠٦٨)، ومسند الشاميين له (٨٢٤). والحديث صححه المنذري وابن عبدالهادي، وتكلم فيه الدارقطني وقال: «غريب، تفرَّد به محمد بن حميد». وعدَّه الذهبي من غرائبه. وقال ابن حجر: «حسن غريب». انظر: نتائج الأفكار (٢/ ٢٧٩ـ٢٨٠). (ز).

سورة الإخلاص والمعوّذتين ثلاثًا، ثمَّ يمسحون[1] بها رؤوسهم ووجوههم وأجسادهم ثلاثًا، ويقرؤون آية الكرسيّ وخواتيم سورة البقرة، ويسبِّحون ثلاثًا وثلاثين، ويحمدون ثلاثًا وثلاثين، ويكبِّرون أربعًا وثلاثين. ثمَّ يقول أحدهم: «اللَّهم إنِّي أسلمتُ نفسي إليك، ووجَّهت وجهي إليك، وفوَّضت أمري إليك، وألجأت ظهري إليك، رغبةً ورهبةً إليك، لا ملجأ ولا منجىٰ منك إلا إليك. آمنتُ بكتابك الذي أنزلتَ، ونبيّك الذي أرسلتَ»[2].

وإنْ شاءَ قال: «باسمك ربِّي وضعتُ جنبي وبك أرفعه، فإن أمسكتَ نفسي فاغفر لها، وإن أرسلتَها فاحفظها بما تحفظ به عبادك الصالحين»[3].

وإنْ شاءَ قال: «اللَّهم ربَّ السَّماوات السَّبع وربَّ العرش العظيم، ربِّي وربَّ كلّ شيء،فالقَ الحبِّ والنَّوى، مُنزِلَ التوراة والإنجيل والقرآن[4]، أعوذ بك من شرِّ كلِّ دابَّة أنت آخِذٌ بناصيتها. أنت الأوَّل فليس قبلك شيء، وأنت الآخر فليس بعدك شيء، وأنت الظاهر فليس فوقك شيء، وأنت الباطن فليس دونك شيء، اقضِ عنِّي الدَّينَ، وأغْنِني من الفقرِ»[5].

---

(١) «ك»: «يتمسحون».

(٢) أخرجه البخاري في الدعوات (٦٣١٥). وغيره، ومسلم في الذكر والدعاء (٢٧١٠) عن البراء بن عازب رضي الله عنه.

(٣) أخرجه البخاري في الدعوات (٦٣٢٠) وغيره، ومسلم في الذكر والدعاء (٢٧١٤) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٤) «ك، ط»: «والفرقان».

(٥) أخرجه مسلم في الذكر والدعاء (٢٧١٣).

وبالجملة، فلا يزال يذكر الله على فراشه حتَّى يغلبه النوم وهو يذكر الله. فهذا منامُه عبادةٌ، وزيادةٌ له في قربه من الله. فإذا استيقظ [٦٦/ب] عاد إلى عَدَّانه الأوَّل[١]. ومع هذا فهو قائمٌ بحقوق العباد من عيادة المرضى، وتشييع الجنائز، وإجابة الدعوة، والمعاونة لهم بالجاه[٢] والبدن والنفس والمال، وزيارتهم، وتفقّدهم؛ وقائمٌ بحقوق أهله وعياله. فهو متنقّلٌ في منازل العبوديّة كيف نقله فيها الأمرُ. فإذا وقع منه تفريط في حقٍّ من حقوق الله بادر إلى الاعتذارِ والتوبة والاستغفار، ومحوه ومداواته بعمل صالح يُزيل أثرَه. فهذا وظيفته دائمًا.

وأمَّا السابقون المقرَّبون، فنستغفر الله الذي لا إله إلا هو أوَّلاً من وصف حالهم وعدم الاتّصاف به، بل ما شمِمنا له رائحةً، ولكن محبّة القوم[٣] تحمل على تعرّف منزلتهم والعلم بها. وإن كانت النفوس متخلفةً[٤] منقطعةً عن اللحاق بهم، ففي معرفة حال القوم فوائد عديدة:

منها أن لا يزالُ المتخلّف المسكين مُزْرِيًا على نفسه، ذامًّا لها، لائمًا لها[٥].

ومنها أنّه[٦] لا يزالُ منكسرَ القلب بين يدي ربّه، ذليلاً له حقيرًا،

---

(١) أي إلى عهده الأوَّل. وقد سبقت هذه الكلمة في ص (٤٠٧). وفي «ب، ك، ط»: «عادته الأولى».

(٢) «ب»: «بالجاه والمال والبدن والنفس».

(٣) «ف»: «العلم»، وهو سهو وخلاف الأصل. وكذا في «ك»، فكتب أحد في الحاشية: «ظ بالقوم»، يعني العلم بالقوم. والصواب ما أثبتنا من الأصل وكذا في «ب، ط».

(٤) «ب»: «مختلفة»، تحريف.

(٥) «لائمًا لها» ساقط من «ب، ك، ط».

(٦) «ب، ك، ط»: «أن».

ويشهد منازل السابقين وهو في زمرة المنقطعين، ويشهد بضائعَ التجّارِ وهو في رفقة المحرومين.

ومنها أنَّه عساه أن تنهض همّته يومًا ما[1] إلى التشبّث والتعلّق بساقة القوم ولو من بعيد.

ومنها أنّه لعلَّه أن يصدُقَ في الرغبة واللّجأ إلى مَن بيده الخيرُ كلُّه أن يُلْحِقَه بالقوم ويهيّئه لأعمالهم، فيصادف ساعةَ إجابةٍ لا يسأل الله فيها شيئًا إلا أعطاه.

ومنها أنَّ هذا العلم هو من أشرف علوم العباد. ليس[2] بعد علم التوحيد أشرفُ منه، وهو لا يناسب إلا النفوس الشريفة ولا يناسب النفوس الدنيئة المهينة. فإذا رأى نفسَه تناسب هذا العلم، وتشتاق إليه، وتحبّه، وتأنس بأهله[3] فَلْيُبشِرْ[4] بالخيرِ، فقد أُهِّل له، فليقل لنفسه: يا نفس قد[5] حصل لكِ شطرُ السعادة فاحرصي على الشطر الآخر، فإنَّ السعادة في العلم[6] بهذا الشأن والعمل به، فقد قطعتِ نصف المسافة، فهلاَّ تقطعين باقيها فتفوزين فوزًا عظيمًا!

ومنها أنَّ العلم بكل حالٍ خيرٌ من الجهل. فإذا كان اثنان أحدهما عالمٌ بهذا الشأن غيرُ موصوفٍ به ولا قائم به، وآخر جاهل به غير متّصف

---

(١) «ما» ساقطة من «ك، ط».
(٢) «ك، ط»: «وليس».
(٣) «ط»: «بأقلّه»، تحريف.
(٤) «ب»: «فيبشر».
(٥) «ك، ط»: «فقد».
(٦) «ب»: «بالعلم».

به فهو خِلْوٌ من الأمرين، فلا ريبَ أنَّ العالم به خير من الجاهل، وإن كان العالم المتّصف به خيرًا منهما، فينبغي أن يُعطى كلُّ ذي حقٍّ حقَّه، وينزَّل في مرتبته.

ومنها أنَّه إذا كان العلمُ بهذا الشأن همَّه ومطلوبَه، فلا بدَّ أن ينال منه بحسب استعداده، ولو لَمْظَةً[1]، ولو بارقةً، ولو أنَّه يحدِّث نفسَه بالنهضة إليه.

ومنها أنَّه لعله يجري منه على لسانه ماينتفِع به غيرُه بقصده أو بغير قصده، والله لا يضيع مثقال ذرَّة، فعسى أن يُرحَم بذلك العامل.

وبالجملة ففوائد العلم بهذا الشأن لا تنحصر، فلا ينبغي أن تصغي إلى من يثبّطك[2] عنه، ويقول[3]: إنَّه لا ينفع. بل احذره، واستعن بالله، ولا تعجز، ولكن لا تغترّ، وفرِّق بين العلم والحال، وإيَّاك أن تظنّ أنَّ بمجرد علم هذا الشأن قد صرتَ من أهله. هيهات! ما أظهر الفرق بين العالم[4] بوجوه الغنى وهو فقير، وبين الغني بالفعل؛ وبين العالم بأسباب الصحة وحدودها وهو سقيم، وبين الصحيح بالفعل!

فاسمع الآن وصفَ القومِ، وأحضِر ذهنك لشأنهم العجيب وخطرهم

---

(١) كذا في الأصل و«ف،ك». وفي «ب»: «لمعة» ولكن ذكر في الحاشية أنَّ في النسخة: «لمظة». وهي من لَمَظَ الماء: ذاقه بطرف لسانه. واللُّماظة: مايبقى في الفم من طعام، وقد يستعار لبقية الشيء القليل. انظر: اللسان (لمظ) (٧/ ٤٦٢). وفي«ط»: «لحظة».

(٢) «ب»: «يثبط».

(٣) «ط»: «تقول»، خطأ.

(٤) «ك،ط»: «العلم».

الجليل. فإن وجدتَ من نفسك حركةً وهمَّةً إلى التشبّه بهم فاحمدالله، وادخل، فالطريق واضح، والباب مفتوح.

إذا[1] أعجبتْك خصالُ امرئٍ فكُنْه يكنْ منك[2] ما يُعجِبُكْ

فليسَ على الجودِ والمكرماتِ إذا جئتَها حاجبٌ يحجُبُكْ[3]

فنبأ القومِ عجيب، وحالُهم أعجَب[4]، وأمرُهم أخفى[5] إلا على من له مشاركة مَع القوم، فإنَّه يطّلع من حالهم على ما يريه إيّاه القدرُ المشترك.

وجملة أمرهم أنَّهم قوم قد امتلأت قلوبُهم من معرفة الله، وعُمِرتْ[6] بمحبّته وخشيته وإجلاله ومراقبته، فسرَت المحبّة في أجزائهم، فلم يبق فيها عرق ولا مفصل إلا وقد دخله الحبّ. قد أنساهم حبُّه ذكرَ غيره، وأوحشهم أنسُهم به ممَّن سواه. قد فَنُوا بحبّه عن حبّ مَن سواه، وبذكره عن ذكر من سواه[7]، وبخوفه، ورجائه، والرغبة إليه، والرهبة منه،

---

(١) «ف»: «وإذا»، سهو. فقد كتب في الأصل أولاً «وإذا» ثم ضرب على الواو. وكذا في «ك».

(٢) «ك»: «مثل» تحريف. وفي «ط»: «تكن مثل».

(٣) تمثل المؤلف بالبيتين في مدارج السالكين (٣/ ١٠) والفروسية (٤٠٢) أيضًا. وذكرهما الراغب في محاضراته (١/ ٣١٠) من إنشاد أبي العيناء. وهما مع ثالث في ديوان المعاني (٢٦٢).

(٤) «وحالهم أخفى» ساقط من «ك، ط».

(٥) «ك، ط»: «خفي».

(٦) «ط»: «غمرت» بالمعجمة.

(٧) «وبذكره» إلى هنا ساقط من «ب».

والتوكل عليه، والإنابة إليه، والسكون[1] إليه، والتذلّل والانكسار بين يديه؛ عن تعلّق ذلك منهم بغيره.

فإذا وضع أحدُهم جنبَه على مضجعه صعدت أنفاسه إلى إلهه ومولاه، واجتمع همُّه عليه[2]، متذكِّرًا صفاته العلى وأسماءَه الحسنى، مشاهدًا له في أسمائه وصفاته، قد تجلَّت على قلبه [٦٧/أ] أنوارها، فانصبغ قلبُه بمعرفته ومحبّته، فبات جسمه في فراشه يتجافى عن مضجعه، وقلبُه قد أوى إلى مولاه وحبيبه، فآواه إليه، وأسجدَه بين يديه خاضعًا خاشعًا ذليلاً منكسرًا من كلِّ جهة من جهاته. فيالها سجدةً ما أشرفها من سجدة، لا يرفع رأسه منها إلى يوم اللقاءِ!

وقيل لبعض العارفين: أيسجد القلب بين يدي ربِّه؟ فقال[3]: «إي والله، سجدةً[4] لا يرفع رأسه منها إلى القيامة!»[5].

فشتَّان بين قلبٍ يبيت عند ربِّه، قد قطع في سفره إليه بيداءَ الأكوان وخرق حُجُبَ الطبيعة، ولم يقف عند رسم، ولا سكن إلى علَم، حتَّى دخلَ على ربِّه في داره، فشاهد[6] عزَّ سلطانه، وعظمة جلاله، وعلوَّ

---

(١) «ف»: «الشكوى»، تحريف.

(٢) «ك»: «إليه».

(٣) «ط»: «قال»

(٤) «ك، ط»: «بسجدة».

(٥) «ب، ك، ط»: «يوم القيامة». وقد نقل المؤلف هذا القول في مدارج السالكين (١/ ٥٠٩). وسيأتي مرة أخرى في هذا الكتاب ص (٦٦٢). وهو من كلام سهل بن عبدالله التستري كما في مجموع الفتاوى (٢١/ ٢٨٧و٢٣/ ١٣٨).

(٦) «ف»: «مشاهدًا»، تحريف.

شأنه، وبهاءَ كماله، وهو مستوٍ على عرشه يدبِّر أمر[1] عباده، وتصعد إليه شؤونُ العباد، وتُعْرَض عليه حوائجُهم وأعمالُهم، فيأمر فيها بما يشاءُ، فينزل الأمر من عنده نافذًا كما أمر. فيشاهد الملك الحقَّ قيّومًا بنفسه، مقيمًا لكلِّ ما سواهِ، غنيًّا عن كلِّ من سواه[2]، وكلُّ من سواه فقيرٌ إليه. ﴿يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ۝٢٩﴾[الرحمن/ ٢٩]: يغفر ذنبًا، ويفرِّج كربًا، ويفكّ عانيًا، وينصر ضعيفًا، ويجبُر كسيرًا، ويغني فقيرًا، ويميت ويحيي، ويُسعد ويشقي، ويُضِلّ ويهدي، ويُنعم على قوم، ويسلب نعمته عن آخرين، ويُعزّ أقوامًا ويذلُّ آخرين، ويرفع أقوامًا ويضع آخرين.

ويَشهده كما أخبر عنه أعلمُ الخلق به وأصدقهم في خبره، حيث يقول في الحديث الصحيح: «يمين الله ملأى، لا يَغِيضُها نفقةٌ، سحَّاءُ الليلَ والنهارَ، أرأيتم ما أنفق منذ خلقَ الخلقَ فإنّه لم يَغِضْ ما في يمينه. وبيده الأخرى الميزانُ يخفِضُ ويرفَعُ»[3]. فيشاهده[4] كذلك يقسم الأرزاق، ويجزل العطايا، ويمنّ بفضله على من يشاء من عباده بيمينه. وباليد الأخرى الميزان يخفض به من يشاءُ، ويرفع به من يشاء، عدلاً منه وحكمةً، لا إله إلا هو العزيز الحكيم.

فيَشهده وحده القيّوم بأمر السماوات والأرضِ ومن فيهنَّ، ليس له

---

(١) «ف»: «يدنو من»، تحريف.

(٢) «ب»: «ما سواه» هنا وفي الجملة التالية.

(٣) أخرجه البخاري في كتاب التفسير (٤٦٨٤) وغيره، ومسلم في كتاب الزكاة (٩٩٣) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٤) «ب»: «ويشاهده».

بوّاب فيستأذَن، ولا حاجب فيُدخَل عليه به[1]، ولا وزير فيؤتى، ولا ظهير فيستعان به، ولا وليّ من دونه فيتشفّع[2] به إليه، ولا نائب عنه فيعرِّفَه حوائجَ عباده، ولا معين له فيعاونه على قضائها. بل قد[3] أحاط سبحانه بها علمًا، ووَسِعها قدرةً ورحمةً، فلا تزيده كثرةُ الحاجات إلا جودًا وكرمًا. فلا[4] يشغله منها شأن عن شأن، ولا تغلّطه كثرةُ المسائل، ولا يتبرّم بإلحاح الملحّين.

لو اجتمع أوّلُ خلقه وآخرُهم، وإنسُهم وجنّهم، وقاموا في صعيدٍ واحدٍ، ثمَّ سألوه، فأعطى كلاًّ منهم مسألتَه، ما نقص ذلك ممَّا عنده ذرَّةً واحدةً إلا كما ينقص المِخْيَطُ البحرَ إذا غُمِسَ فيه. ولو أنَّ أوَّلهم وآخرهم وإنسهم وجنّهم كانوا على أتقى قلب رجلٍ واحدٍ منهم ما زاد ذلك في ملكه شيئًا[5]. ولو أنَّ أوَّلهم وآخرهم وإنسهم وجنّهم كانوا على أفجرِ قلبِ رجلٍ واحدٍ منهم ما نقصَ ذلك من ملكه شيئًا[6]. ذلك بأنّه الغنيّ الجواد الماجد، فعطاؤه كلام، وعذابه كلام[7]. ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ۝٨٢﴾ [يس/ ٨٢].

ويَشهده كما أخبر عنه أيضًا الصادق المصدوق حيث يقول: «إنَّ الله لا ينامُ، ولا ينبغي له أن ينامَ. يخفضُ القسطَ، ويرفعُه. يُرْفَعُ إليهِ عملُ

(١) «به» ساقط من «ك،ط».
(٢) «ب»: «فيستشفع». «ف،ط»: «فيشفع».
(٣) «بل قد» ساقط من «ك،ط». و «قد» ساقط من «ب».
(٤) «ط»: «ولا يشغله».
(٥) بعد هذا إلى قوله: «من ملكه شيئًا» ساقط من «ك،ط».
(٦) يشير إلى حديث أبي ذر الذي أخرجه مسلم في كتاب البر والصلة (٢٥٧٧).
(٧) «ط»: «من كلام وعذابه من كلام». وصحح في القطرية.

الليلِ قبل النَّهارِ[1]، وعملُ النَّهارِ قبلَ الليل[2]. حِجَابُه النُّور، لَوْ كَشَفَه لأحْرَقَتْ سُبُحاتُ وجهِهِ ما أدركه بصرُه من خلقِهِ»[3].

وبالجملة فيَشهده في كلامه، فقد تجلَّى سبحانه وتعالى لعباده في كلامه، وتراءى لهم فيه، وتعرَّف إليهم فيه. فبعدًا وتبًّا للجاحدين والظالمين ﴿أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾[إبراهيم/ ١٠] لا إله إلا هو الرحمن الرحيم.

فإذا صارت صفاتُ ربِّه[4] وأسماؤه مشهدًا لقلبه أنْسَتْه ذكرَ غيره، وشغلته عن حبِّ سواه[5]، وجذبت[6] دواعي قلبِه إلى حبِّه تعالى بكلِّ جزءٍ من أجزاءِ قلبه وروحه وجسمه. فحينئذٍ يكون الربُّ تعالى سمعَه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها. فبه يسمع. وبه يبصر، وبه يبطش، وبه يمشي. كما أخبر عن نفسه على لسان رسوله ﷺ[7].

ومن غلُظ حجابُه، وكثُف طبعُه، وصلُب عوده؛ فهو عن فهم هذا بمعزل، بل لعلَّه أن يفهمَ منه ما لا يليق به تعالى من حلول أو اتحاد، أو يفهم منه غيرَ المراد منه، فيحرّف معناه ولفظه ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا

---

(١) «ب، ك، ط»: «عمل النهار».

(٢) «ب، ك، ط»: «عمل الليل».

(٣) تقدّم تخريجه في ص (١٥٨).

(٤) «ب»: «صفاته».

(٥) «ك، ط»: «من سواه».

(٦) «ط»: «حديث»، تصحيف.

(٧) أخرجه البخاري في كتاب الرقاق (٦٥٠٢) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

﴿لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴿٤٠﴾﴾[النور/ ٤٠]. وقد ذكرتُ معنى الحديث، والردّ على من حرَّفه وغلِط فيه في كتاب «التحفة المكّية»(١).

وبالجملة فيبقى قلب العبد الذي هذا شأنه عرشًا للمثل الأعلى، أي عرشًا(٢) لمعرفة محبوبه ومحبّته وعظمته وجلاله وكبريائه، وناهيك بقلب هذا شأنه! فيا له من قلب، من ربّه ما أدناه، ومن قربه ما أحظاه! فهو ينزّه قلبَه أن يساكن سواه، أو يطمئنّ بغيره. فهؤلاء قلوبهم قد قطعت الأكوان، وسجدت تحت العرش، وأبدانُهم في فُرُشهم؛ كما قال أبوالدرداءِ: «إذا نام العبد المؤمن عُرِجَ بروحه حتّى تسجدَ تحت العرش، فإن كان طاهرًا أذِن لها بالسجود(٣)، [٦٧/ب] وإنْ كان جنُبًا لم يؤذَن لها(٤)»(٥).

وهذا ـ والله أعلم ـ هو السرّ الذي لأجله أمر النبيُّ ﷺ الجُنُبَ إذا أرادَ النوم أن يتوضّأ(٦)، وهو إمّا واجب على أحد القولين، أو مؤكد الاستحباب(٧) على القول الآخر. فإنَّ الوضوء يخفّف حدثَ الجنابة، ويجعله طاهرًا من بعض الوجوه. ولهذا روى الإمام أحمد وسعيد بن

(١) انظر ما سبق من التعليق في ص(٤٢٥).
(٢) وقع في الأصل: «عرش» كذا في الموضعين. ولعله سهو. وكذا في «ف» وكذا في الموضع الثاني في «ب».
(٣) «ك، ط»: «في السجود».
(٤) «ك، ط»: «لها بالسجود».
(٥) أخرجه عبدالله بن المبارك في الزهد (١٢٤٥) وسنده ضعيف. «ز».
(٦) نصّه عند البخاري (٢٨٧، ٢٨٩) ومسلم (٣٠٦) من حديث عمر بن الخطاب. رضي الله عنه (ز).
(٧) «ف»: «للاستحباب».

منصور وغيرهما عن أصحاب رسول الله ﷺ أنَّهم إذا كان أحدُهم جنُبًا ثمَّ أراد أن يجلس في المسجد توضَّأ ثمَّ جلس فيه[1]. وهذا مذهب الإمام أحمد وغيره، مع أنَّ المساجد لا تحلّ لجنب[2]. فدلَّ[3] على أنَّ وضوءَه رفع حكمَ الجنابة المطلقة الكاملة التي تمنع الجسد[4] من الجلوس في بيت الله، وتمنع الروح من السجود بين يدي الله.

فتأمَّلْ هذه المسألةَ وفقهَها[5]، واعرف بها مقدار فقه الصحابة وعمق علومهم. فهل ترى أحدًا من المتأخّرين وصل إلى مبلغ هذا الفقه الذي خصَّ الله به خيارَ عباده، وهم أصحاب نبيّه؟ وذلك فضل الله، يؤتيه من يشاءُ، والله ذو الفضل العظيم.

فإذا استيقظ هذا[6] القلب من منامه صعد إلى الله بهمّه وحبّه وأشواقه[7] مشتاقًا إليه، طالبًا له، محبًّا له[8]، عاكفًا عليه. فحاله كحال المحبّ الذي غاب عن محبوبه الذي لا غنى له عنه، ولا بدَّ له منه، وضرورتُه إليه أعظم من ضرورته إلى التنفّس[9] والطعام والشراب. فإذا نامَ غاب عنه، فإذا استيقظ عاد إلى الحنين إليه، وإلى الشوق الشديد

---

(١) أخرجه سعيد بن منصور (٦٤٦) عن عطاء بن يسار (ز).
(٢) انظر مجموع الفتاوى (٢١/ ٣٤٤).
(٣) «فدلّ» ساقط من «ك،ط».
(٤) «ب،ك،ط»: «الجنب»، تحريف.
(٥) «ب»: «تفهمها»، تحريف.
(٦) «هذا» ساقط من «ب».
(٧) «ب»: «شوقه».
(٨) «ط»: «محتاجًا إليه» مكان «محبًّا له».
(٩) «ك،ط»: «النفس».

والحبّ المقلق، فحبيبُه آخرُ خطراته عند منامه، وأوّلُها عند استيقاظه، كما قال بعض المحبّين لمحبوبته[1]:

آآخرُ شيءٍ أنتِ في كلِّ هَجْعةٍ   وأوَّلُ شيءٍ أنتِ عندَ هُبوبي؟[2]

فقد أفصح هذا المحبُّ عن حقيقة المحبّة وشروطها. فإذا كان هذا في محبّة مخلوقٍ، فما الظنّ بمحبّة[3] المحبوب الأعلى؟ فأُفٍّ لِقلبٍ لا يصلح لهذا ولا يصدّق به، لقد صُرِفَ عنه خيرُ الدنيا والآخرة!

فصل

فإذا استيقظ أحدهم، وقد بدر إلى قلبه هذا الشأن، فأوَّلُ ما يجري على لسانه ذكرُ محبوبه، والتوجّه إليه، واستعطافه، والتملق بين يديه، والاستعانة به أن يخلّي بينه وبين نفسه، وأن لا يكِلَه إليها، فيكلَه إلى ضَيْعةٍ[4] وعجز وذنب وخطيئة، بل يكلأَه كلاءَة الوليد الذي لا يملك لنفسه ضرًّا ولا نفعًا ولا موتًا ولا حياةً ولا نشورًا.

فأوَّل ما يبدأ به قول[5]: «الحمد لله الذي أحيانا بعد ما أماتنا وإليه النشورُ»[6]، متدبِّرًا لمعناها من ذكرِ نعمةِ الله عليه بأن أحياه بعد نومه

---

(١) «ب،ك،ط»: «لمحبوبه».

(٢) ذكره المؤلف في روضة المحبّين (٣٨٧). وهو من بيتين في حماسة أبي تمام (٢/ ٧٥). وقد نسبا في بلاغات النساء (١١٩) وذيل الأمالي (٧٠) إلى امرأة. وأنشده الراغب في محاضراته (٢/ ٥٥) لعليّ بن الجهم.

(٣) «ك،ط»: «في محبة».

(٤) «ك،ط»: «ضعة»، تحريف.

(٥) «قول» ساقط من «ب،ك،ط».

(٦) أخرجه البخاري في الدعوات (٦٣١٢) من حديث حذيفة رضي الله عنه.

الذي هو أخو الموت، وأعاده إلى حاله سويًّا سليمًا محفوظًا مما لا يعلمه ولا يخطر بباله من المؤذيات والمهلكات التي هو غرض وهدف لسهامها، كلُّها تقصده بالهلاك أو الأذى، والتي[١] من بعضها أرواح[٢] شياطين الإنس والجنّ، فإنَّها تلتقي بروحه إذا نام، فتقصد إهلاكه وأذاه؛ فلولا أنَّ الله سبحانه يدفع عنه لما سلم.

هذا، وكم يلقى[٣] الروح في تلك الغَيبة من أنواع الأذى والمخاوف والمكاره والتفزيعات ومحاربة الأعداء والتشويش والتخبيط بسبب ملابستها لتلك الأرواح. فمن الناس من يشعر بذلك لرقة روحه ولطافتها، ويجد آثار ذلك فيها إذا استيقظ من الوحشة والخوف والفزع والوجع الروحي الذي ربما غلب حتَّى سرى إلى البدن. ومن النَّاس من تكون روحه أغلظ وأكثف[٤] وأقسى من أن تشعر بذلك، فهي مثخَنةٌ بالجراح، مزمَنة بالأمراض، ولكن لموتها[٥] لا تحسّ بذلك.

هذا، وكم من مريدٍ لإهلاك جسمه من الهوامّ وغيرها قد حفظه منه، فهي في أجحارها محبوسة عنه، لو خُلِّيتْ وطبعَها لأهلكته. فمن ذا الذي كلأَه وحرَسه، وقد غاب عنه حسُّه وعلمُه وسمعُه وبصرُه؟ فلو جاءَه البلاءُ من أي مكان جاءَ لم يشعر به. ولهذا ذكَّر سبحانه عبادَه هذه النعمة، واعتدّها[٦] عليهم من جملة نعمه، فقال: ﴿مَن يَكْلَؤُكُم بِٱلَّيْلِ

(١) كذا في الأصل و «ط» مع واو العطف، وفي «ف» وغيرها دونها.
(٢) «أرواح» ساقط من «ط».
(٣) «كم» ساقط من «ط». وفي «ب»: «تلقى». وفي «ط»: «تلتقي».
(٤) «ب»: «أكثف وأغلظ».
(٥) «ط»: «لنومها».
(٦) «ك»: «أعدّها»، «ط»: «عدّها».

﴿وَٱلنَّهَارِ مِنَ ٱلرَّحْمَٰنِ بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٢﴾﴾ [الأنبياء/ ٤٢].

فإذا تصوَّر العبدُ ذلك فقال: «الحمدُ لله» كان [٦٨/أ] حمده أبلغ وأكمل من حمد الغافل عن ذلك. ثمَّ يُفكِّر[١] في أنَّ الذي أعاده بعد هذه الإماتة حيًّا سليمًا قادرٌ[٢] على أن يعيده بعد موتته الكبرى حيًّا كما كان، ولهذا يقول بعدها: «وإليه النشور».

ثمَّ يقول: «لا إله إلا الله وحدَه لا شريك له، له الملك، وله الحمدُ، وهو على كلِّ شيءٍ قدير. الحمدُ لله، وسبحان الله[٣]، والله أكبر، ولا حولَ ولا قوَّة إلا بالله»[٤]. ثمَّ يدعو ويتضرّع.

ثمَّ يقوم إلى الوضوء بقلب حاضر مستصحِب لما فيه[٥].

ثمَّ يصلّي ما كتب الله له صلاةَ محبٍّ ناصحٍ لمحبوبه متذللٍ منكسرٍ بين يديه، لا صلاةَ مُدِلٍّ بها عليه، يرى من أعظم نعم محبوبه عليه أن أقامه وأنام غيرَه، واستزاره وطرد غيرَه، وأهَّله وحرَم غيره، فهو يزداد بذلك محبَّةً إلى محبته. يرى[٦] أنَّ قرَّة عينه وحياةَ قلبه وجنَّة روحه

---

(١) «ك، ط»: «تفكر».

(٢) «ط»: «قادرًا»، خطأ.

(٣) «ك، ط»: «سبحان الله والحمد لله». وكذلك ورد فيها بعده «ولا إله إلا الله» ولم ترد هذه الزيادة في صحيح البخاري إلا في رواية كريمة، وكذا عند الإسماعيلي والنسائي والترمذي وابن ماجه. قاله الحافظ ابن حجر في الفتح (٣/ ٤٠). وانظر: الوابل الصيب (٢٥٤).

(٤) أخرجه البخاري في التهجد (١١٥٤) عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه.

(٥) ما بعد «حاضر» ساقط من «ب».

(٦) «ط»: «ويرى».

ونعيمَه ولذَّته وسرورَه في تلك الصلاة، فهو يتمنَّى طولَ ليله، ويهتمّ بطلوع الفجر، كما يتمنى المحب الفائز بوصل محبوبه ذلك. فهو كما قيل:

يودُّ أنَّ ظلامَ اللّيل دامَ له[1] وزِيدَ فيه سوادُ القلبِ والبصَرِ[2]

فهو يتملَّق فيها مولاه تملُّقَ المحب لمحبوبه العزيز الرحيم، ويناجيه بكلامه معطيًا لكلِّ آية حظّها من العبوديّة. فتجذب قلبَه وروحَه إليه آياتُ المحبّة والوداد، والآياتُ التي فيها الأسماءُ والصفات، والآياتُ التي تعرّفَ[3] بها إلى عباده بآلائه وإنعامه عليهم وإحسانه إليهم. وتطيِّبُ له السيرَ آياتُ الرجاء والرحمة وسعة البرّ والمغفرة، فتكون له بمنزلة الحادي الذي يطيّب له السيرَ ويهوّنه عليه[4]. وتُقلِقُه آياتُ الخوف والعدل والانتقام وإحلال غضبه بالمعرضين عنه، العادلين به غيرَه، المائلين إلى سواه؛ فتجمعه عليه وتمنعه[5] أن يشرد قلبه عنه. فتأمَّلْ هذه النكتةَ[6]، وتفقَّهْ فيها، والله المستعان، ولا حول ولا قوّة إلا به[7].

وبالجملة فيشاهد المتكلّمَ سبحانه، وقد تجلَّى في كلامه، ويعطي كلَّ آية حظَّها من عبودية قلبه الخاصَّة الزائدة على مجرَّد تلاوتها

---

(١) «ب»: «طوّله».

(٢) البيت لأبي العلاء المعرّي في سقط الزند (٥٦).

(٣) «ب»: «يتعرف».

(٤) «عليه» ساقط من «ط».

(٥) «ك،ط»: «فيجمعه عليه ويمنعه».

(٦) «ب،ط»: «هذه الثلاثة»، وهو تحريف طريف. وكذا كان في «ك»، ثم عدّل فيها.

(٧) «ب،ك،ط»: «إلاّ بالله».

والتصديقِ بأنّها كلام الله، بل الزائدة على نفس فهمها ومعرفة المراد منها. بل[1] ثَمَّ شأن آخر لو فطن له العبد لعلِمَ أنّه كان قبلُ يلعب، كما قيل:

وكنتُ أرى أن قد تناهَى بيَ الهوى إلى غايةٍ ما بعدَها ليَ مذهبُ
فلمَّا تلاقَينا وعايَنْتُ حسنَها تيقَّنتُ أنِّي إنَّما كنتُ ألعبُ[2]

فوا أسفاه! وواحسرتاه! كيف ينقضي الزمان، وينفد العمر، والقلب محجوب ما شمّ لهذا رائحة! خرج[3] من الدنيا كما دخل إليها[4]، وما ذاق أطيب ما فيها، بل عاش فيها عيش البهائم، وانتقل منها انتقال المفاليس، فكانت حياته عجزًا، وموته كمدًا، ومعاده حسرةً وأسفًا!

اللهم فلك الحمد، وإليك المشتكى، وأنت المستعان، وبك المستغاث، وعليك التكلان، ولا حولَ ولا قوّة إلا بك.

فصل

فإذا صلّى ما كتب الله[5] جلس مطرقًا بين يدي ربِّه تعالى هيبةً له وإجلالاً، واستغفره استغفارَ من قد تيقن أنَّه هالك إن لم يغفر له

---

(١) «بل» ساقط من «ب،ك،ط».

(٢) «ب»: «علمت يقينًا أنني كنت ألعب». وقد ذكر المصنف البيتين في مفتاح دار السعادة (١/ ٣٦٣) ومدارج السالكين (١/ ٥٩٢). وأنشدهما مع بيت ثالث أبوبكر محمد بن داود الظاهري في كتاب الزهرة (٢٧٤) «لبعض أهل هذا العصر».

(٣) «ب،ك،ط»: «وخرج».

(٤) «ب»: «فيها».

(٥) زاد في «ب»: «له».

ويرحمه. فإذا قضى من الاستغفار وطرًا، وكان عليه بعدُ ليلٌ اضطجع على شقّه الأيمن مُجِمًّا نفسَه، مريحًا لها، مقوِّيًا لها[١] على أداء وظيفة الفرض، فيستقبله نشيطًا بجده وهمته كأنَّه لم يزل نائمًا طول ليلته لم يعمل شيئًا. فهو يريد أن يستدرك ما فاته في صلاة الفجر، فيصلِّي السنة، ويبتهل بينها وبين الفريضة، فإنَّ لذلك الوقت شأنًا[٢] يعرفه من عرفه. ويكثر فيه من قول «ياحيُّ ياقيوم لا إله إلا أنت»، فلهذا الذكر في هذا الموطن تأثيرٌ عجيب[٣].

ثمَّ ينهض إلى صلاة الصبح قاصدًا الصفَّ الأوَّل عن يمين الإمام أو خلف قفاه. فإن فاته ذلك قصدَ القربَ منه مهما أمكن، فإنَّ للقربِ من الإمام تأثيرًا[٤] في سرّ الصلاة. ولهذا القرب تأثيرٌ في صلاة الفجر خاصَّةً يعرفه من عرف قوله تعالى: ﴿وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴿٧٨﴾﴾[الإسراء/ ٧٨]. قيل: يشهده الله عزَّ وجل وملائكته. وقيل: يشهده ملائكة الليل وملائكة النهار، فيتفق نزول هؤلاء البدل عند صعود أولئك فيجتمعون في صلاة الفجر، وذلك لأنَّها في[٥] أوَّل ديوان النهار وآخر ديوان الليل فيشهدها ملائكة الليل والنهار. واحتجَّ لهذا القول [٦٨/ب] بما في الصحيح من حديث الزهري، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «فَضْلُ صلاة الجميع على صلاة الواحد

---

(١) «ب»: «متقويًا بها».

(٢) في الأصل: «شأن» بالرفع. والمثبت من «ف» وغيرها.

(٣) انظر: ما نقله في ذلك عن شيخ الإسلام ابن تيمية في مدارج السالكين (١/ ٥٢٩ و٣/ ٢٤٦).

(٤) هنا أيضًا في الأصل: «تأثير» بالرفع. والمثبت من «ف» وغيرها.

(٥) «ط»: «هي».

خمسٌ وعشرون درجة، وتجتمع ملائكةُ الليل وملائكةُ النّهار في صلاة الفجر» يقول أبوهريرة[1]: واقرؤوا إن شئتم: ﴿وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِۖ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ۝٧٨﴾ رواه البخاري في الصحيح[2].

قال أصحاب القول الأوَّل: وهذا لا ينافي قولنا، وهو أن يكون الله سبحانه وملائكة الليل والنهار يشهدون قرآن الفجر، وليس المراد الشهادة العامَّة، فإنَّ الله على كلِّ شيءٍ شهيد، بل المراد شهادة خاصة، وهي شهادة حضور ودنوّ متصل بدنوّ الربّ تعالى ونزوله إلى سماءِ الدنيا في الشطر الأخير من الليل.

وقد روى الليث بن سعد، حدّثني زياد[3] بن محمد، عن محمد بن كعب القُرَظي[4]، عن فضالة بن عبيد الأنصاري، عن أبي الدرداء عن رسول الله ﷺ قال: «إنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ ينزلُ في ثلاثِ ساعاتٍ يَبقينَ من اللَّيلِ، فيَفْتَحُ الذِّكْرَ في السَّاعةِ الأولى الذي لم يرَه غيرُه، فيمحو الله ما يَشَاءُ ويُثْبِتُ. ثُمَّ يَنْزِلُ في السَّاعَةِ الثانية إلى جنَّةِ عَدْن، وهي دارُه التي لم تَرَهَا عينٌ ولَمْ تَخْطُرْ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ، وهِيَ مَسْكَنُه لا يسكنها معه من بني آدم غير ثلاث، وهم النبيّون والصدِّيقون والشهداءُ، ثم يقول: طُوبى لمن دَخَلَكِ، ثمَّ ينزلُ في الساعة الثالثة إلى سماء الدنيا بِرُوحه وملائكته

(١) «ط»: «لقول أبي هريرة»، تحريف.
(٢) في كتاب الأذان (٦٤٨). وانظر: صحيح مسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة (٦٤٩).
(٣) «زياد» كذا في الأصل و «ف»، وهو تحريف، والصواب: «زيادة» كما في الإكمال لابن ماكولا (١٩٦/٤) والمؤتلف والمختلف للدارقطني (١١٥١). وكذا في «ك، ط».
(٤) «ك، ط»: «زيادة بن محمد بن كعب القرظي»، تحريف.

فتنتفضُ فيقول: قومي بعزَّتي. ثمَّ يطلع إلى عباده فيقول: هل من مستغفر فأغفرَ له؟ ألا مِن سائلٍ يسألني فأعطيَه؟ ألا من[1] داعٍ يدعوني فأجيبَه؟ حتّى تكونَ صلاةُ الفجر. ولذلك يقول الله: ﴿وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِۖ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴿٧٨﴾﴾ يشهدُه الله عزَّ وجلَّ وملائكتُه ملائكةُ اللّيل والنهار»[2].

ففي هذا الحديث أنَّ النزول يدوم إلى صلاة الفجر. وعلى هذا فيكون شهود الله سبحانه لقرآن الفجر مع شهود ملائكة الليل والنهار له، وهذه خاصَّة لصلاة[3] الصبح ليست لغيرها من الصلوات[4]. وهذا لا ينافي دوام النزول في سائر الأحاديث إلى طلوع الفجر، ولا سيّما وهو معلّق في بعضها على انفجار الصبح، وهو اتساع ضوئه. وفي لفظ: «حتَّى يُضِيءَ الفَجْرُ»[5] وفي لفظ: «حَتَّى يسْطَع الفجر»[6]، وذلك هو وقت قراءة الفجر. وهذا دليل على استحباب تقديمها مع مواظبة

---

(١) «من» ساقط من «ط».

(٢) أخرجه الطبري في تفسيره (١٥٥٤٨) والعقيلي في الضعفاء (٢/ ٩٣) وقال: «والحديث في نزول الله عز وجل إلى السماء الدنيا ثابت، فيه أحاديث صحاح، إلاّ أن زيادة هذا جاء في حديثه بألفاظ لم يأت بها الناس، ولا يتابعه عليها أحد» وزيادة بن محمد الأنصاري منكر الحديث، قاله البخاري والنسائي وغيرهما. (ز).

(٣) «ط»: «بصلاة»، تحريف.

(٤) «ط»: «الصلاة»، تحريف.

(٥) أخرجه مسلم (٧٥٨) ـ(١٦٩، ١٧٢). (ز).

(٦) أخرجه أحمد (٤٢٦٨) مرفوعًا، والدارقطني في النزول (١٠) موقوفًا من حديث ابن مسعود. ومداره على إبراهيم الهجري وفيه ضعف. وهذا الاضطراب في رفعه ووقفه منه. (ز).

النّبيّ ﷺ وخلفائه الراشدين على تقديمها في أوّل وقتها، فكان النبيّ ﷺ يقرأ فيها بالستّين إلى المائة، ويطيل ركوعها وسجودها، وينصرف منها والنساءُ لا يُعْرَفْنَ من الغلَس[1]. وهذا لا يكون إلا مع شدَّة التقديم في أوَّل الوقت، لتقع القراءَةُ في وقت النزول، فيحصل الشهود المخصوص.

هذا[2] مع أنَّه قد جاءَ في بعض الأحاديث مصرَّحًا به دوامُ ذلك[3] إلى الانصراف من صلاة الصبح، رواه الدارقطنيّ في «كتاب نزول الربّ كلَّ ليلة إلى سماءِ الدنيا»[4] من حديث محمد بن عمرو، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة أنَّ رسول الله ﷺ قال: «ينزلُ اللهُ عزَّ وجلَّ كلَّ ليلةٍ[5] إلى السماءِ الدنيا لنصف الليل الآخر أو الثلث الآخر يقول: مَن ذا الذي يدعوني فأستجيبَ له؟ مَن ذا الذي يسألني فأعطيَه؟ مَن ذا الذي يستغفرني فأغفرَ له؟ حتى يطلعَ الفجر أو ينصرف القارىء من صلاة الصبح». رواه عن محمد جماعة: منهم سليمان بن بلال، وإسماعيل بن جعفر، والدراوردي، وحفص بن غياث، ويزيد بن هارون، وعبدالوهاب بن عطاء، ومحمد بن جعفر، والنضر بن شميل، كلّهم قال: «أو ينصرف القارىء من صلاة الفجر».

---

(١) كما في حديث عائشة رضي الله عنها. أخرجه البخاري في مواقيت الصلاة (٥٧٨) وغيره.

(٢) «هذا» ساقط من «ك، ط».

(٣) «دوام ذلك» ساقط من «ب».

(٤) برقم (١٣ـ٢١)

(٥) «كل ليلة» ساقط من «ب، ك، ط». ثم استدرك في حاشية «ك». وفيها جميعا: «سماء الدنيا».

فإنْ كانت هذه اللفظة محفوظةً عن النبي ﷺ، فهي صريحة في المعنى كاشفة للمراد. وإن لم تكن محفوظة، وكانت من شكِّ الراوي هل قال هذا أو هذا، فقد قدَّمنا أنَّه لا منافاة بين اللفظين، وأنَّ حديث الليث بن سعد عن محمد بن زياد[1] يدلُّ على دوام النزول إلى وقت صلاة الفجر، وأنَّ تعليقه بالطلوع لكونه أوَّل الوقت الذي يكون فيه الصعود. كما رواه يونس بن أبي إسحاق، عن أبيه، عن الأغرّ أبي مسلم قال: شهِدَ لي[2] على أبي هريرة وأبي سعيد الخدري أنَّهما شهدا على النبي ﷺ أنَّه قال: «إنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ يُمْهِلُ حَتَّى إذا ذهبَ[3] ثلث الليل هَبَط إلى هذهِ السَّماءِ، ثمَّ أمرَ بأبواب السَّماء ففتحت، ثمَّ قال: هل من سائلٍ فأعطيَه؟ هل من داعٍ فأجيبَه؟ هل من مستغفرٍ فأغفرَ له؟ هل من مستغيث أغيثه؟[4] هل من مضطرٍّ أكشفُ[5] عنه؟ فلا يزالُ ذلك[6] مكانه حتى يطلع الفجر في كلِّ ليلة من الدنيا، ثمَّ يصعد إلى السماء». قال الدارقطني[7]: فزاد فيه [٦٩/أ] يونس بن أبي إسحاق زيادةً حسنةً.

والمقصود ذكر القرب من الإمام في صلاة الفجر وتقديمها في

---

(١) كذا وقع في الأصل وغيره، وهو خطأ فقد مرّ آنفًا أنّ صوابه: زيادة بن محمد.

(٢) كذا في الأصل و«ف». فإنْ لم يكن خطأ فالمقصود أنَّ أبا إسحاق قال: شهد لي أبومسلم، وفي «ب،ك،ط»: «شهدتُ».

(٣) «ط»: «كان».

(٤) «ف»: «فأغيثه»، خلاف الأصل. وكذا في «ب،ط».

(٥) «ب»: «فأكشف».

(٦) «ب»: «كذلك».

(٧) النزول (٥٥)، ولفظة: «ثمَّ يصعد إلى السماء» غريبة غير محفوظة لم يروها الثقات من أصحاب أبي إسحاق، ولا أحد من أصحاب الأغر أبي مسلم. راجع صحيح مسلم (٧٥٨)، والنزول للدارقطني (٥٢ ـ ٦٤). (ز).

أوَّل وقتها[1].

فصل

فإذا فرغَ من صلاة الصبح أقبل بكلّيّته على ذكر الله والتوجّه إليه بالأذكارِ التي شُرِعَت أوَّل النَّهارِ، فيجعلها وِردًا له لا يُخِلُّ به[2] أبدًا، ثمَّ يزيد عليها ما شاءَ[3] من الأذكار الفاضلة أو قراءة القرآن حتّى تطلع الشمس حسنًا[4]. فإذا طلعت فإن شاء ركع ركعتي الضّحى وزاد ما شاء، وإن شاء قام من غير ركوع.

ثمَّ يذهب متضرّعًا إلى ربِّه، سائلاً له أن يكون ضامنًا عليه، متصرِّفًا في مرضاته بقيّة يومه. فلا يتقلب إلا في شيء يظهر له فيه مرضاةُ ربه، وإن كان من الأفعال العاديّة الطبيعيّة قَلَبه عبادةً بالنية، وقصَدَ الاستعانة به على مرضاة الربّ. وبالجملة فيقف عند أوَّل الداعي إلى فعله[5]، فيفتّش ويستخرج منه منفذًا ومسلكًا يسلك به إلى ربّه. فينقلب في حقّه عبادة وقربة. وشتَّان كم[6] بين هذا وبين من إذا عرض له أمر من أوامر الربّ لا بدّ له من فعلِه، وفتَّش فيه على مراد لنفسه وغرض لطبعه، ففعله[7] لأجل ذلك، وجعل الأمر طريقًا له ومنفذًا لمقصده. فسبحان من فاوت

---

(١) زاد في «ك،ط»: «والله أعلم».
(٢) «به» يعني: بالورد. وفي«ط»: «بها».
(٣) وقع «ماشاء » في «ب» بعد «الفاضلة».
(٤) «ف،ب»: «حسناء». والكلمة ساقطة من «ط».
(٥) «إلى فعله» ساقط من «ب».
(٦) كذا وقع في الأصل وغيره، وهو أسلوب غريب.
(٧) «ط»: «ففعل».

بين النفوس إلى هذا الحد والغاية! فهذا عباداته عادات، والأوَّل عاداته عبادات!

فإذا جاءَ فرضُ الظهر بادرَ إليه كذلك[1] مكمِّلاً له، ناصحًا فيه لمعبوده كنصح المحبّ الصادق المحبّة لمحبوبه الذي قد طلب منه أن يعمل له شيئًا ما، فهو لا يُبقي مجهودًا، بل يبذل مقدوره كلَّه في تحسينه وتزيينه[2] وإصلاحه وإكماله، ليقع موقعًا من محبوبه، فينال به رضاه عنه وقربه منه. أفلا يستحيي العبد من ربِّه ومولاه ومعبوده أن لا يكون في عمله هكذا، وهو يرى المحبّين في أشغال محبوبيهم من الخلقِ كيف يجتهدون في إيقاعها على أحسن وجه وأكمله، بل هو يجد من نفسه ذلك مع من يحبّه من الخلق، فلا أقلَّ من أن يكون مع ربِّه بهذه المنزلة. ومن أنصف نفسه وعرف أعمالَه استحيا من الله أن يواجهه بعمله أو يرضاه لربه، وهو يعلم من نفسه أنَّه لو عملِ لمحبوب له من النَّاس لبذل فيه نُصْحَه، ولم يَدَعْ من حسنه شيئًا إلا فعَلَه.

وبالجملةِ، فهذا حال هذا العبد مع ربِّه في جميع أعماله، فهو يعلم أنَّه لا يوفي هذا المقام حقَّه، فهو أبدًا يستغفر الله عقيب كلّ عمل. وكان النبيّ ﷺ إذا سلَّم من الصلاة استغفر ثلاثًا[3]، وقال تعالى: ﴿وَبِٱلۡأَسۡحَارِ هُمۡ يَسۡتَغۡفِرُونَ ۝١٨﴾[الذاريات/ ١٨]. قال الحسن: مدّوا الصلاة إلى السحر، ثمَّ

(١) «كذلك» ساقط من «ك، ط».
(٢) «ب»: «ترتيبه»، تصحيف، فإنه ضبط في الأصل بالنون.
(٣) «ط»: «استغفر الله...»، وقد أخرجه مسلم في كتاب المساجد (٥٩١) من حديث ثوبان رضي الله عنه.

جلسوا يستغفرون ربّهم[1]، وقال تعالى: ﴿ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ۝١٩٩﴾[البقرة/ ١٩٩] فأمر سبحانه بالاستغفار بعد الوقوف بعرفة والمزدلفة، وشرع للمتوضىء أن يقول بعد وضوئه: «اللّهُمّ اجْعَلْنِي من التّوّابِينَ واجْعَلْنِي من المتطهرين»[2]. فهذه توبة بعد الوضوء، وتوبة بعد الحجِّ، وتوبة بعد الصلاة، وتوبة بعد قيام الليل. فصاحب هذا المقام مضطرٌّ إلى التوبة والاستغفار كما تبيّن، فهو لا يزال مستغفرًا تائبًا، وكلّما كثرت طاعاتُه كثرت توبتُه واستغفارُه.

فصل

وجماع الأمر في ذلك إنّما هو بتكميل عبوديّة الله عزَّ وجلَّ في الظاهر والباطن، فتكون حركات نفسه وجسمه كلّها في محبوبات الله، فكمالُ[3] عبوديّة العبد موافقتُه لربِّه في محبّة[4] ما أحبَّه، وبذلُ الجهدِ في فعله؛ وموافقتُه في كراهة ما كرهه، وبذلُ الجهد في تركه. وهذا إنّما يكون للنفس المطمئنّة، لا للأمّارة ولا للّوّامة. فهذا كمال من جهة الإرادة

(١) تفسير الطبري (٢٦/ ١٩٨).

(٢) أخرجه الترمذي (٥٥) من حديث عمر بن الخطاب وقال: «حديث عمر قد خولف زيد بن الحباب في هذا الحديث. وروى عبدالله بن صالح وغيره عن معاوية بن صالح، عن ربيعة بن يزيد، عن أبي إدريس، عن عقبة بن عامر، عن عمر؛ وعن ربيعة عن أبي عثمان، عن جبير بن نفير، عن عمر. وهذا حديث في إسناده اضطراب، ولا يصح عن النبيّ ﷺ في هذا الباب كثير شيء» (ز).

(٣) «ك، ط»: «وكمال». وقد سقط ما بعد «عبودية» إلى هنا في «ف» لنزول البصر إلى السطر الثاني.

(٤) «ك، ط»: «محبّته».

والعمل.

وأمَّا من جهة العلم والمعرفة فأن تكون بصيرتُه منفتحةً في معرفة الأسماء والصفات والأفعال، له شهود خاصّ فيها مطابقٌ لما جاء به الرسول لا مخالفٌ له، فإنّ بحسب مخالفته له في ذلك يقع الانحراف. ويكون مع ذلك قائمًا بأحكام العبوديّة الخاصَّة التي تقتضيها كلُّ صفة بخصوصها.

وهذا سلوك الأكياس الذين هم خلاصة العالم، والسالكون على هذا الدرب أفراد من العالم. وهو[1] طريق سهل قريب مُوصِل، طريق[2] آمن، أكثر السالكين في غفلة عنه. ولكن يستدعي رسوخًا في هذا[3] العلم، ومعرفةً تامَّةً به، وإقدامًا على ردِّ الباطل المخالف له ولو قاله من قاله. وليس عند أكثر النَّاس سوى رسومٍ تلقَّوها عن قوم معظَّمين [٦٩/ب] عندهم، فهم[4] لإحسان ظنِّهم بهم قد وقفوا عندَ أقوالهم، ولم يتجاوزوها إلى غيرها[5]، فصارت حجابًا لهم وأيَّ حجاب!

فمن فتح الله بصيرةَ[6] قلبه وإيمانه حتَّى خرقها وجاوزها إلى مقتضى الوحي والفطرة والعقل، فقد أوتي خيرًا كثيرًا، ولا يُخاف عليه إلا مِن ضعفِ همته. فإذا انضاف إلى ذلك الفتح همَّة عالية فذاك السابق حقًّا،

---

(١) «وهو» ساقط من «ك، ط».

(٢) «طريق» ساقط من «ب».

(٣) «هذا» ساقط من «ب، ك، ط».

(٤) «ب، ك، ط»: «ثمّ»، تحريف.

(٥) «إلى غيرها» ساقط من «ك، ط».

(٦) «ك»: «على بصيرة». «ط»: «عليه بصيرة».

واحدُ النَّاس في زمانه[1]، لا يُلحَق شأْوُه، ولا يشقُّ غبارُه. فشتَّان ما بين من يتلقَّى أحواله ووارداته عن الأسماء والصفات، وبين من يتلقَّاها عن الأوضاع الاصطلاحية والرسوم أو عن مجرّد ذوقه ووجده، إذا استحسن شيئًا قال: هذا هو الحقّ.

فالسيرُ إلى الله[2] من طريق الأسماء والصفات شأنه عجب، وفتحُه عجب[3]. صاحبه قد سبق السُّعاة[4]، وهو مستلقٍ على فراشه، غيرُ تعبٍ ولا مكدود، ولا مشتَّتٍ عن وطنه، ولا مشرَّدٍ عن سكنه. ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ﴾[النمل/ ٨٨]. وليس العجب من سائر في ليله ونهاره، وهو في السُّرى[5] لم يبرح من مكانه. وإنَّما العجب من ساكنٍ لا يُرى عليه أثرُ السفر، وقد قطع المراحل والمفاوز! فسائرٌ قد ركبتْه نفسُه، فهو حاملها سائرٌ بها، ملبوك بها[6]، يعاقبها وتعاقبه، ويجرّها وتهرب منه، ويخطو بها خطوةً إلى أمامه فتجذبه خطوتين إلى ورائه؛ فهو معها في جهد وهي معه كذلك. وسائرٌ قد ركب نفسَه، وملك عِنانَها، فهو يسوقها كيف شاءَ وأين شاءَ، لا تلتوي عليه، ولا تنجذب، ولا تهرب منه، بل هي معه كالأسير الضعيف في يد مالكه

---

(١) «ط»: «بزمانه».

(٢) «إلى الله» ساقط من «ب».

(٣) «ب»: «شأنه عجيب وفتحه غريب».

(٤) «ب»: «سيق للسعادة»، «ط»: «سيقت له السعادة»، تحريف وتغيير. وانظر نحوه في مدارج السالكين (٢/ ٥٨٥).

(٥) «ب»: «السير». «ط»: «الثرى»، تحريف.

(٦) «بها» ساقط من «ب،ك،ط». وفي «ب»: «مكبول»، تحريف. ويقصد المؤلف أن هذا السائر قد نشب بنفسه وتورّط بها، فيجذبها وتجذبه.

وآسِره، وكالدابّة الريّضة[1] المنقادة في يد سائسها وراكبها، فهي منقادة معه حيث قادها، فإذا رام التقدّم جمَزَتْ[2] به وأسرعت، فإذا[3] أرسلها سارت به وجرت في الحَلْبة إلى الغاية ولا يردّها شيء، فتسير به وهو ساكن على ظهرها؛ ليس كالذي نزل عنها فهو يجرّها بلجامها، ويشحَطها ولا تنشحط[4]. فشتّان مابين المسافرين! فتأمَّل هذا المثل، فإنّه مطابق لحال السائرين[5] المذكورين، والله يختصّ برحمته من يشاء.

فصل

ومن شأن القوم أن تنسلخ نفوسهم من التدبير والاختيار الذي يخالف تدبير ربّهم[6] تعالى واختياره، بل قد سلَّموا إليه سبحانه التدبيرَ كلَّه، فلم يزاحم[7] تدبيرُهم تدبيرَه ولا اختيارُهم اختيارَه، لتيقنهم أنَّه الملك القاهر القابض على نواصي الخلق، المتولِّي لتدبير[8] أمر العالم كلِّه، وتيقُّنِهم مع ذلك أنَّه الحكيم في أفعاله الذي لا تخرج أفعاله عن الحكمة والمصلحة والرحمة. فلم يُدخلوا أنفسهم معه في تدبيره لملكه وتصريفِه

---

(١) «ب»: «الرضيّة»، تحريف.

(٢) أي: وثبت وأسرعت. والجمزى: ضرب من السير سريع.

(٣) «ب»: «وإذا».

(٤) أي: يسحبها ويمرّغها، فلا تنسحب. من كلام العامّة انظر: متن اللغة «شحط» (٣:٨٣). وفي «ك»: «يتشحّط».

(٥) «ف»: «السالكين»، سهو.

(٦) «ب، ك، ط»: «تدبيره».

(٧) «ط»: «فلا يزاحم».

(٨) «ط»: «تدبير».

أمورَ عباده بـ «لو كان كذا وكذا»، ولا بـ «عسى ولعلَّ»، ولا بـ«ليتَ»؛ بل ربُّهم تعالى أجل وأعظم في قلوبهم من أن يعترضوا عليه، أو يسخطوا[1] تدبيرَه، أو يتمنّوا سواه. وهم أعلم به وأعرف بأسمائه وصفاته من أن يتّهموه في تدبيره أو يظنّوا به الإخلالَ بمقتضى حكمته وعدله، بل هو ناظرٌ بعين قلبه إلى بارىء الأشياء وفاطرها ناظرًا[2] إلى إتقان صنعه، مشاهدًا[3] لحكمته فيه، وإن لم يخرج ذلك على مكاييل عقول البشر[4] وعوائدهم ومألوفاتهم.

قال بعض السلف: «لو قُرِضَ جسمي بالمقاريض كان[5] أحبَّ إليَّ من أن أقولَ لشيء قضاه اللهُ: ليتَه لم يقضِه»[6].

وقال آخر: «أذنبتُ ذنبًا أبكي عليه منذ ثلاثين سنة» ـ وكان قد اجتهد في العبادة ـ فقيل[7] له: وما هو؟ قال: «قلتُ مرَّةً لشيءٍ كان: ليته لم يكن»[8].

وبعض العارفين يجعل عيب المخلوقات وتنقيصها بمنزلة العيب لصانعها وخالقها؛ لأنّها صُنْعُه وأثرُ حكمته. وهو سبحانه أحسن كلَّ

---

(١) «ك، ط»: «يتسخطوا».

(٢) «ف»: «ناظر»، خلاف الأصل، وكذا في «ب،ك،ط».

(٣) «ب، ط»: «مشاهد».

(٤) «عقول البشر» ساقط من«ب».

(٥) «كان» ساقط من«ط».

(٦) نقله المصنف في مدارج السالكين (٢/ ٢٥٩). وانظر ما سبق من أثر ابن مسعود رضي الله عنه في ص(١٧٢).

(٧) «ك، ط»: «قيل».

(٨) نقله في مدارج السالكين(٢/ ٢٥٨).

شيءٍ خلقه، وأتقن كلَّ شيءٍ، فهو[١] أحكمُ الحاكمين وأحسن الخالقين، له في كلِّ شيءٍ حكمةٌ بالغة، وفي كلِّ مصنوعٍ صُنْعٌ متقَن. والرجلُ إذا عابَ صنعة رجل آخر وذمّها سرى ذاك[٢] إلى الصانع، لأنّه كذلك صنعَها، وعن حكمته أظهرَها، إذ كانت الصنعة مجبولةً[٣] لم تصنع نفسها، ولا صنع لها في خلقها. فالعارفُ لا يعيب إلا ما عابه الله، ولا يذمّ إلا ما ذمَّه.

وإذا سبقَ إلى قلبه ولسانه عيبُ ما لم يعِبْه الله وذمُّ ما لم يذمّه[٤]، تاب إلى الله منه كما يتوب صاحبُ الذنبِ من ذنبه، فإنَّه يستحيي من الله أن يكون في داره وهو يعيب آلات تلك الدار وما فيها. فهو يرى نفسه بمنزلة رجلٍ دخل إلى دار ملِك من الملوك، ورأى ما فيها من الآلات والبناءِ والترتيب، فأقبل يعيب منها بعضها ويذمّه ويقول: لو كان كذا بدل كذا لكان [٧٠/أ] خيرًا، ولو كان هذا في مكان هذا لكان أولى. وشاهدَ الملِك يولِّي ويعزل، ويعطي ويحرِم[٥]، فجعل يقول: لو وُلِّيَ هذا مكان فلان كان خيرًا، ولو عُزِلَ هذا المتولِّي لكان أولى، ولو عوفي[٦] هذا، ولو أُغني هذا! فكيف يكون مقت الملك لهذا المعترض وإخراجه له من قربه؟ وكذلك لو أضافه صاحبٌ له فقدَّم إليه طعامًا فجعل

---

(١) «ك، ط»: «وهو».

(٢) وردت هنا في «ك، ط» زيادة: «إلى صانعها، فمن عاب صنعة الربّ سبحانه بلا إذنه سرى ذلك».

(٣) «ب»: «مجبورة».

(٤) «ك، ط»: «يذمه الله».

(٥) «ك، ط»: «يحرم ويعطي».

(٦) «ب»: «عافى».

يعيب صنعته[1] ويذمّه، أكان ذلك يهون على صاحب الطعام؟ قالت عائشة[2]: «ما عابَ رسولُ الله ﷺ طعامًا قطّ، إن اشتهى شيئًا أكله وإلا تركه».

والمقصود أنَّ من شأن القوم ترك الاهتمام بالتدبير والاختيار، بل همّهم كلّه في إقامة حقّه عليهم. وأمّا التدبير العام والخاصّ فقد سلَّموه لوليّ الأمر كلّه ومالكه الفعَّال لما يريد.

ولعلَّك تقول: ومن[3] الذي ينازع اللهَ في تدبيره؟ فانظر إلى نفسك ـ في عجزها وضعفها وجهلها ـ كيف هي عُرْضةٌ[4] للمنازعة، لكن[5] منازعةَ جاهل عاجز ضعيف لو قدر لظهرت منه العجائب! فسبحان من أذلَّه بعجزه وضعفه وجهله، وأراه العبر في نفسه لو كان ذا بصر! كيف هو عاجز القدرة، جبان الإرادة[6]، عبد مربوب مدين[7] مملوك، ليس له من الأمرِ شيء، وهو مع ذلك ينازع اللهَ ربوبيّتَه وحكمتَه وتدبيرَه، لا يرضى بما رضي الله به، ولا يسكن عند مجاري أقداره. بل هو عبد

---

(1) «ط»: «صفته»، تحريف.

(2) كذا في الأصل وغيره. والحديث معروف عن أبي هريرة رضي الله عنه كما ذكر المؤلف في الوابل الصيب (٣٣٩). أخرجه البخاري في كتاب الأطعمة (٣٥٦٣)، ومسلم في الأشربة (٢٠٦٤).

(3) «ب،ك»: «ومن ذا». «ط»: «من ذا».

(4) أي: تتعرَّض وتتصدَّى للمنازعة. وفي«ط»: «عرضت» بالتاء المفتوحة، تحريف.

(5) «لكن» ساقط من«ط».

(6) في «ف» وغيرها: «جبَّار الإرادة»، ولعلَّ قراءتنا هي المناسبة للسياق.

(7) من دانه: أخضعه وساسه، وحاسبه. وفي «ب،ك،ط»: «مدبر»، تحريف.

ضعيف مسكين يتعاطى الربوبيّة، فقير مسكين[1] في مجموع حالاته يرى[2] نفسه غنيًّا، جاهل ظالم ويرى نفسه عارفًا محسنًا، فما أجهله بنفسه وبربِّه! وما أتركه لحقِّه، وأشده إضاعةً[3] لحظه!

ولو أُحْضِرَ رشدَه لرأى ناصيته ونواصي الخلائق بيد الله يخفضها ويرفعها كيف شاء[4]، وقلوبهم بيده سبحانه وفي قبضته يقلِّبها كيف يشاءُ، يُزيغ[5] منها من يشاءُ ويقيم من يشاءُ[6]، ولكان هذا غالبًا على شهود قلبه، فيغيب به عن مشيئاته وإراداته[7] واختياره، ولعرف أنَّ التدبير والركون إلى حول العبد وقوته من الجهل بنفسه وبربّه؛ فينفي العلمُ بالله الجهلَ عن قلبه، فتمّحي منه الإرادات والمشيئات والتدبيرات، ويفوِّضها إلى مالك القلوب والنواصي، فيصير بذلك عبدًا لربّه تقلّبه يد القدرة، ويصير ابن وقته لا ينتظر وقتًا آخر يدبر نفسه فيه؛ لأنَّ ذلك الوقت بيد موقته، فيرى نفسه بمنزلة الميت في قبره ينتظر ما يُفعل به، مستسلمًا[8] لله، منقطعَ المشيئة والاختيار.

هذا فيما[9] يجري على أحدهم من فعل الله وحكمه وقضائه الكوني.

---

(١) «ب»: «ذليل».

(٢) «ط»: «ويرى».

(٣) «ط»: «وأشدّ إضاعته».

(٤) «ب، ك، ط»: «يشاء».

(٥) «ف»: «يرفع»، تحريف.

(٦) «ويقيم من يشاء» ساقط من«ف».

(٧) «ك، ط»: «إرادته».

(٨) «ط»: «مستسلم».

(٩) «ط»: «ما».

فإذا جاءَ الأمر جاءت الإرادة والاختيار، والسعي والجِدّ[(١)] واستفراغ الفكر وبذل الجهدِ. فهو قويّ حيّ فعَّال، يشاهد عبودية مولاه في أمره، فهو متحرك فيها بظاهره وباطنه، قد أخرج مقدوره من القوَّة إلى الفعل. وهو مع ذلك مستعين بربِّه، قائمٌ بحوله وقوته، ملاحظ لضعفه وعجزه، قد تحقَّق بمعنى ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝﴾[الفاتحة/ ٥]، فهو ناظرٌ بقلبه إلى مولاه الذي حرَّكه، مستعين به في أن يوفّقه لما يحبّه ويرضاه، عينُه في كلِّ لحظة شاخصةٌ إلى حقّه المتوجّه عليه لربِّه، ليؤديه في وقته على أكمل أحواله.

فإذا وردت عليهم أقدارُه التي تصيبهم بغير اختيارهم قابلوها بمقتضاها من العبودية، وهم فيها على مراتب ثلاثة:

أحدها[(٢)]: الرضا عنه فيها والمزيد من حبه والشوق إليه. وهذا ينشأ[(٣)] من مشاهدتهم للطفه فيها وبرّه وإحسانه العاجل والآجل، ومن مشاهدتهم[(٤)] حكمتَه فيها ونصبَها سببًا لمصالحهم، وسَوقهم[(٥)] بها إلى حبّه[(٦)] ورضوانه. ولهم في ذلك[(٧)] مشاهد أُخر لا تسعها العبارة، وهي فتح من الله على العبد لا يبلغه علمه ولا عمله.

---

(١) «ط»: «الجدّ والسعي».

(٢) كذا في الأصل وغيره. وانظر ما سبق في ص(٧٩) وفي «ط»: «إحداها».

(٣) «ط»: «نشأ».

(٤) «للطفه فيها. . .» إلى هنا ساقط من «ب».

(٥) «ب،ك،ط»: «شوقهم».

(٦) «ب»: «فيها إلى جنته».

(٧) «ط»: «من ذلك».

المرتبة الثانية: شكره عليها كشكره على النعم. وهذا فوق الرضا عنه بها. ومنه ينتقل إلى هذه المرتبة، فهذه مرتبتان لأهل هذا الشأن.

والثالثة[1]: للمقتصدين وهي مرتبة الصبر التي إذا نزل منها نزل إلى نقصان الإيمان وفواته، من التسخّط والتشكّي، واستبطاء الفرج، واليأس من الرَّوح، [٧٠/ب] والجزَع الذي لا يفيد إلا فواتَ الأجر وتضاعُف المصيبة. فالصبر أوّل منازل الإيمان ودرجاته، وأوسطها، وآخرها؛ فإنَّ صاحب الرضا والشكر لا يعدم الصبرَ في مرتبته، بل الصبر معه، وبه يتحقّق الرضا والشكر، لا تصوُّرَ[2] ولا تحقّقَ لهما دونه.

وهكذا كلّ مقام مع الذي فوقه، كالتوكّل مع الرضا، وكالخوف والرجاءِ مع الحبِّ، فإنَّ المقام الأوّل لا ينعدم بالترقّي إلى الآخر ـ ولو عُدِم لخلفه ضدُّه، وذلك رجوع إلى نقص الطبيعة وصفات النفس المذمومة ـ وإنَّما يندرج حكمُه في المقامِ الذي هو[3] أعلى منه، فيصير الحكم له، كما يندرج مقام التوكّل في مقَام المحبّة والرضا. وليس هذا كمنازل سير الأبدان الذي إذا قطع منها منزلاً خلَّفه وراءَ ظهره، واستقبل المنزل الآخر معرضًا عن الأوّل تاركًا له[4]. بل هذا بمنزلة[5] التَّاجر الذي كلَّما باع شيئًا من ماله وربح فيه، ثمَّ باع الثاني وربح، فقد ربح بهما معًا، وهكذا أبدًا يكون ربحُه في كلِّ صفقة متضاعفًا بانضمامه إلى

(١) «ب»: «المرتبة الثالثة».
(٢) «ب»: «ولا يتصوّر».
(٣) «هو» ساقط من «ب، ك، ط».
(٤) «ك، ط»: «بارتحاله»، تحريف.
(٥) «ك، ط»: «كمنزلة»، تحريف.

ما قبله، فالربح الأوّل اندرج في الثاني ولم يُعْدَم.

فتأمَّل هذا الموضع وأعطه حقَّه يزُلْ عنك ما يعرض من **الغلط في علل المقامات**، وتعلَمْ[1] أنَّ دعوى المدّعي أنَّها من منازل العوامّ ودعوى أنَّها معلولة غلط من وجهين:

أحدهما: أنَّ أعلى المقامات مقرون بأدناها مصاحب له كما تقدم، متضمّن له تضمُّن الكلّ لجزئه، أو مستلزم له استلزامَ الملزوم للازمه لا ينفكّ عنه أبدًا، ولكن لاندراجه فيه وانطواءِ حكمه تحته يصير المشهد والحكم للعالي.

الوجه الثاني: أنَّ تلك المقامات والمنازل إنَّما تكون من[2] منازل العوامّ وتعرض لها العلل بحسب متعلّقاتها وغاياتها. فإن كان متعلّقها وغاياتها[3] بريئًا من شوائب العلل ـ وهو أجلُّ متعلَّق وأعظمه ـ فلا علَّة فيها بحال، وهي من منازل الخواصّ حينئذٍ، وإن كان متعلّقها حظًّا للعبد أو أمرًا مشوبًا بحظّه فهي معلولة من جهة تعلّقها بحظّه. ولنذكر لذلك أمثلة[4]:

---

(١) قراءة «ف»: «يعلم».

(٢) «ب»: «إنما هي من منازل». «ك،ط»: «إنَّما هي منازل»، وقد صحح في حاشية «ك» بخط مختلف.

(٣) «ف»: «غايتها»، خلاف الأصل.

(٤) نقل المصنف هذه الأمثلة من كتاب محاسن المجالس لأبي العباس أحمد بن محمد بن موسى الصنهاجي الأندلسي المعروف بابن العريف، وقد وصفه الذهبي بالإمام الزاهد العارف، صاحب المقامات والإشارات، ولد سنة ٤٨١هـ، وتوفي بمراكش سنة ٥٣٦هـ. سير أعلام النبلاء (٢٠/١١١). نقلها المصنف من كتابه ثمَّ عقب عليها بالنقد وبيان الغلط فيها. وقد اعتمد ابن =

[أمثلة من الغلط في علل المقامات، ونقد كلام ابن العريف]

المثال الأوَّل: الإرادة، فإنَّ الله جعلها من منازل صفوة عباده وأمر رسوله ﷺ أن يصبر نفسَه مع أهلها، فقال: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾[الكهف/ ٢٨]. وقال تعالى: ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ۝١٩ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ۝٢٠﴾[الليل/ ١٩-٢٠]. وقال تعالى حكاية عن أوليائه قولهم: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ﴾[الإنسان/ ٩] وهذه[١] لام التعليل الداخلة على الغايات المرادة، وهي كثيرةٌ في القرآن[٢].

فقالت طائفة: «الإرادة حلية العوامّ، وهي تجريد القصد، وجزم النية، والجدّ في الطلب. وذلك[٣] في طريق الخواصّ: نقص، وتفرُّق[٤]، ورجوع إلى النفس. فإنَّ إرادة العبد عينُ حظِّه، وهو رأس الدعوى. وإنَّما الجمع والوجود فيما يراد بالعبد لا فيما يريد، كقوله تعالى: ﴿وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ﴾[يونس/ ١٠٧]، فيكون مراده ما يراد به، واختياره ما اختير له، إذ لا إرادة للعبد مع سيّده ولا نظر. كما قال:

أريدُ وصالَه ويريد هَجري ... فأتركُ ما أريدُ لِما يُريد[٥]

= العريف في كتابه المذكور على كتاب علل المقامات للشيخ زكريا الأنصاري الهروي، كما ذكر شيخ الاسلام ابن تيمية. انظر: مجموع الفتاوى (١٠/ ٣٥).

(١) «ب،ك»: «هو» تحريف. «ط»: «هي».

(٢) خلافًا لمن زعم أن القرآن خلو من لام التعليل وباء التسبيب. انظر ما سبق في ص (٢٣٥).

(٣) زاد في «ط» بعد «ذلك»: «غيره»!

(٤) «نقص و» ساقط من«ط».

(٥) البيت لابن المنجم الواعظ المعرّي المتوفى سنة ٥٥٧هـ. انظر: فوات الوفيات =

ومن هذا قول أبي يزيد[١]: «قيل لي ما تريد؟ قلتُ: أريد أن لا أريد، لأنِّي أنا المراد وأنت المريد»[٢].

فيقال: ليس المراد من «العوامّ» في كلامهم العامَّة[٣] الجهال، وإنَّما مرادهم بهذه اللفظة عموم السالكين، دون أهل الخصوص الواصلين إلى[٤] منازل الفناء وعين الجمع. وإذا عرف هذا فالكلام على ما ذكر في الإرادة من وجوه:

أحدها: أنَّ الإرادة هي مَركَب العبودية، وأساس بنائها الذي لا تقوم إلا عليه، فلا عبودية لمن لا إرادة له. بل أكمل الخلق[٥] عبوديّةً ومحبّةً، وأصحّهم حالاً، وأقومهم معرفةً= أتمّهم إرادةً. فكيف يقال: إنَّها حِلية[٦] العوامّ أو من منازل العوامّ؟

الوجه الثاني: أنَّه يلزم من هذا أن تكون المحبّة من منازل العوام، وتكون معلولةً أيضًا؛ لأنَّها إرادة تامَّة للمحبوب[٧]، ووجود المحبة بلا إرادة كوجود الإنسانية من غير حيوانية، وكوجود[٨] مقام الإحسان

= (٢/ ٣٠١).

(١) البسطامي، الزاهد المشهور.

(٢) محاسن المجالس لابن العريف (٧٦ ـ ٧٧)، وسيصرِّح المؤلف بالنقل عنه بعد قليل.

(٣) «ب»: «العوام».

(٤) «إلى» ساقط من «ب،ك،ط».

(٥) زاد في المطبوعة هنا: «أكملهم»، وزاد الواو قبل «أتمهم» فاختلَّ السياق.

(٦) في الأصل: «حيلة»، وهو سبق قلم. وكذا في «ف،ب».

(٧) «ب»: «إرادة لمحبوبه».

(٨) «ب»: «وجود».

بدون الإيمان والإسلام. فإذا كانت الإرادة معلولةً[1] وهي من منازل العوامّ لزم أن تكون المحبة كذلك.

[٧١/أ] فإن قيل: المحبة التي لا علّة فيها هي[2] تجرُّد المحبّ عن الإرادة، وفناؤه بإرادة محبوبه عن إرادته[3] قيل: هذا هو حقيقة الإرادة أن ينفي[4] مرادَه مرادُ محبوبه، فلو لم يكن مريدًا لمراد محبوبه لم يكن موافقًا له في الإرادة، والمحبّة هي موافقة المحبوب في إرادته، فعاد الأمرُ إلى ما أشرنا إليه أنَّ المعلول من ذلك ما تعلق بحظّ المريد دون حقّ[5] محبوبه. فإذا صارت إرادتُه موافِقةً لإرادة محبوبه لم تكن تلك الإرادةُ من منازل العوامّ ولا معلولةً، بل هذه أشرفُ منازل الخواصّ وغاية مطالبهم. وليس وراءها إلا التجرّد عن كلِّ إرادة، والفناء بشهوده عن إرادة ما يريد. وهذا هو الذي يشير إليه السالكون إلى منازل الفناءِ ويجعلونه غايةَ الغايات. وهذا عند الكُمَّل[6] نقص وتغبير[7] في وجه المحبة، وهضم لجانب العبودية، وفناءٌ بحظّ المحبّ من مشاهدته[8] جمالَ محبوبه[9] وفنائه فيه عن حقّ المحبوب ومراده. فهو الوقوف مع

(١) في الأصلِ: «من معلولة»، ولعله سهو. وكذا في «ف».
(٢) «هي» ساقط من «ب».
(٣) «ف»: «إراداته» خلاف الأصل.
(٤) «ك، ط»: «يبقى»، والأصل غير منقوط.
(٥) «حق» ساقط من«ك، ط».
(٦) «ك، ط»: «أهل الكمال».
(٧) «ك، ط»: «تغيير»، تصحيف.
(٨) «ب، ك»: «مشاهدة».
(٩) «ف»: «كمال محبوبه» خلاف الأصل.

نفس الحظّ، والهروب عن حقّ المحبوب ومراده.

وهل مثل هذا إلا كمثل رجلين ادَّعيا محبةَ ملِك، فحضرا بين يديه، فقال: ما تريدان؟ فقال أحدهما: أُريدُ أن لا أريد شيئًا، بل أفنى عن إرادتي، وأكون أنا المراد، وأنت تريد بي ما تشاء. وقال الآخر: بل[1] أريد أن أنفق أنفاسي وذرّاتي[2] في محابّك ومرضاتك منفِّذًا لأوامرك مشمِّرًا في طاعتك، أتوجّه حيث توجهني وأفعل ما تأمرني، هذا الذي أريده[3]. فقال[4] للآخر: وأنا أريد منك أن تفعل مثل هذا، فإنِّي سأبعثكما في أشغالي ومهماتي. فأمَّا أحدهما فقال: لاحظ لي سوى اتباع مرضاتك والقيام بحقوقك. وقال الآخر: لا أُريد إلا مشاهدتَك، والنظر إليك، والفناءَ فيك. فهل يكونان في نظره سواءً؟ وهل تستوي منزلتهما عنده؟

ولو أنعموا النظر لعلموا أنَّ صاحبَ الفناء هو طالبُ الحظِّ الواقفُ معه، وأنّ الآخرَ وإن لم ينسلخ من الحظّ، ولكنّ حظَّه مرادُ المحبوب منه، لا مرادُه هو من المحبوب؛ وبين الأمرين من الفرق كما بين الأرض والسماءِ[5]. فالعجب ممن يفضّل صاحبَ الحظّ الذي يريده من محبوبه على من صارَ حظّه مراد محبوبه منه! بل الفناء الكامل أن يفنى بإرادته عن إرادة ما سواه[6]، وبحبّه عن حبّ ما سواه، وبرجائه عن رجاءِ ما سواه،

---

(١) «بل»: ساقط من«ط».

(٢) «ب»: «إرادتي».

(٣) «ب»: «أريد».

(٤) «ب»: «فقال الملك».

(٥) «ب»: «بين السماء والأرض».

(٦) «ب،ك،ط»: «من سواه».

وبالتوكّل عليه عن التوكّل على ما سواه؛ ليس أن تفنى بحظك منه عن مراده منك. وهذا موضع يشتبه علمًا وحالاً وذوقًا إلا على من فتح الله عليه بفرقانٍ[1] بين هذا وهذا.

الوجه الثالث: أنَّ الإرادة إنَّما تكون ناقصةً بحسب نقصان المراد، فإذا كان مرادها أشرف المراد[2] فإرادته أشرف الإرادات. ثمَّ إذا كانت الوسيلة إليه أجلّ الوسائل، وأنفعها، وأكملها، فإرادتها كذلك. فلا تخرج إرادته عن إرادةِ أشرف الغايات، وإرادةِ أقرب الوسائل إليه وأنفعها. فأي علَّة في هذه الإرادة[3]؟ وأي شيء فوقها للخواصّ؟

الوجه الرابع: أنَّ نقصان الشيء يكون من وجهين: أحدهما: أن يوجب ضررًا. والثاني: أن تكون له ثمرة نافعة لكن يشغل عمَّا هو أكمل منه. وكلاهما منتفٍ عن الإرادة، فكيف تكون ناقصة معلولة؟

فإنْ قيل: لمَّا كان الوقوف معها رجوعًا إلى النفس وتفرّقًا ووقوفًا مع حظّ المريد كانت ناقصة، قيل: هذا منشأ الغلط.

وجوابه **بالوجه الخامس**: وهو أن يقال: قوله «إنَّ الإرادة تفرّق». فإنْ أردتم بالتفرّق شهود المريد لإرادته ومراده[4] ولعبوديته ولمعبوده ولمحبّته ومحبوبه[5]، فلم قلتم إنَّ هذا التفرّق نقص؟ وهل هذا إلا عين الكمال؟ وهل تتمّ العبودية إلا بهذا؟ فإنَّ من شهد عبوديته وغاب بها عن

---

(١) في «ب»: «أن يفرِّق» وفي حاشيتها: «خ بالفرقان».

(٢) «ط»: «المرادات».

(٣) «ب»: «الإرادات»، خطأ.

(٤) «ك، ط»: «لمراده».

(٥) «ك، ط»: «لمحبوبه».

معبوده كان محجوبًا[١]، ومن شهد المعبودَ وغابَ به عن شهود عبوديته وقيامه بما أمره به كان ناقص[٢] العبودية ضعيف الشهود، وهل الكمال إلا شهود المعبود مع شهود عبادته؟ فإنَّها [٧١/ب] عين حقّه ومراده ومحبوبه من عبده. فهل يكون شهود العبد لحقّ محبوبه ومراده منه وأنَّه قائم به ممتثل له نقصًا، وتكون غيبته عن ذلك وإعراضه عنه وفناؤه عن شهوده كمالاً؟ وهل هذا إلا قلب للحقائق؟ فغاية صاحب هذا الحال والمقام أن يكون معذورًا بضيق قلبه عن شهود هذا وهذا، إمَّا لضعف المحل، أو لغلبة الوارد وعجزه عن احتمال شيء آخر معه. فأمَّا أن يكون هذا هو الكمال المطلوب والآخر نقص فكلاّ. وأين مقام من يشهد[٣]عبوديته، ومنَّة الله عليه فيها، وتوفيقَه لها، وجعلَه محلاًّ وآلةً لها[٤] ـ وهو ناظر مع ذلك إلى معبوده بقلبه، شاهدًا له، فانيًا[٥] عن شهود غيره في عبوديته ـ من مقام من لا يتّسع لهذا وهذا؟

وتأمَّل حال أكمل الخلق وأفضلهم[٦] وأشدّهم حبًّا لله ﷺ، كيف كان في عبادته جامعًا بين الشهودين، حتّى كان لا يغيب عن أحوال المأمومين، فضلاً عن شهود عبادته، فكان[٧] يراعي أحوالهم وهو في ذلك المقام بين يدي ربِّه تعالى؛ فالكُمَّل[٨] من أمّته على منهاجه وطريقته

---

(١) «ط»: «محبوبًا»، تحريف شنيع.

(٢) في الأصل: «ناقصًا»، سبق قلم.

(٣) «ف»: «شهد»، والقراءة المثبتة أرجح.

(٤) «لها» ساقط من «ك، ط».

(٥) «ب»: «شاهدٌ له فانٍ».

(٦) «ب»: «أفضل الخلق وأكملهم».

(٧) «ط»: «وكان».

(٨) «ك»: «فالكامل». «ط»: «فالكملة».

في ذلك ﷺ[1]. فالواجب التمييز بين المراتب وإعطاءُ كلّ ذي حقٍّ حقَّه، فقد جعل الله لكلِّ شيءٍ قدرًا.

وإن أردتم بالتفرّق شتات القلب في شعاب الحظوظ وأودية الهوى، فهذه الإرادة لا تستلزم شيئًا من ذلك، بل هي جمعيّة[2] القلب على المحبوب وعلى محابّه ومراداته. ومثل هذا التفرّق هو عين البقاءِ، ومحض العبودية، ونفس الكمال. وماعداه فمحض حظّ العبد، لاحقّ محبوبه.

الوجه السادس: أنَّ قوله: «الإرادةُ[3] رجوعٌ إلى النفس، وإنَّ إرادةَ العبد عينُ حظّه» كلام فيه إجمال وتفصيل. فيقال: ما تريدون بقولكم: إنَّ الإرادة رجوع إلى النفس؟ أتريدون[4] أنَّها رجوع عن إرادة الربّ وإرادة محابّه إلى إرادة النفس وحظوظها، أم تريدون أنَّها رجوع إلى إرادة النفس لربّها ولمرضاته؟ فإن أردتم الأوَّل عُلِمَ أنَّ هذه الإرادة معلولة ناقصة فاسدة، ولكن ليست هذه الإرادة التي نتكلم فيها، وإن أردتم المعنى الثاني فهو عين الكمال، وإنَّما النقصان خلافه.

الوجه السابع: أنَّ قولكم: «إنَّ هذه الإرادة عين حظّ العبد»، قلنا: نعم، وهي أكبر حظّ له وأجلّه وأعظمه. وهل للعبد حظّ أشرف من أن يكون الله وحده إلهه ومعبودَه ومحبوبَه ومراده؟ فهذا هو الحظّ الأوفر والسعادة العظمى. ولكن لم قلتم إنَّ اشتغال العبد بهذا الحظّ

---

(١) في «ط» قدّم الصلاة والسلام على «في ذلك».
(٢) «ف»: «جعبه». كذا كتب ناسخها لعدم تمكنه من قراءة الكلمة.
(٣) «ك،ط»: «إنَّ الإرادة».
(٤) «أتريدون» ساقط من«ب».

نقص[١] في حقِّه؟ وهل فوق هذا كمال، فيطلبه العبد؟

ثمَّ يقال: لوكان فوقه شيء أكمل منه، لكان اشتغالُ العبد به وطلبُه إيَّاه اشتغالاً بحظّه أيضًا، فيكون ناقصًا، فأين الكمال؟ فإن قلتم: في تركِه حظوظَه كلَّها، قيل لكم: وتركُه هذا الحظّ أيضًا هو من حظوظه، فإنَّه لا يبقى معطَّلاً فارغًا خِلْوًا[٢] من الإرادة أصلاً، بل لا بدّ له من إرادة ومراد، وكلّ إرادة عندكم[٣] رجوع إلى الحظّ، فأيّ شيء اشتغل[٤] به وبإرادته كان وقوفًا مع حظّه[٥]، فيالله العجب متى يكون عبدًا محضًا خالصًا لربه؟

يوضِّح هذا[٦] **الوجه الثامن**: أنَّ الحيّ لا ينفكّ عن الإرادة مادام شاعرًا بنفسه، وإنَّما ينفكّ عنها إذا غاب عنه شعوره بعارضٍ من العوارض، فالإرادة من لوازم الحياة، فدعوى أنَّ الكمال في التجرّد عنها دعوى باطلة مستحيلة طبعًا وحسًّا. بل الكمال في التجرّد عن الإرادة التي تُزاحِم مرادَ المحبوب، لا عن الإرادة التي توافق مرادَه.

الوجه التاسع: قوله «الجمع والوجود فيما يراد بالعبد، لا فيما يريد...» إلى آخره، فيقال: هذا على نوعين:

---

(١) كتب ناسخ «ف»: «...العبد به وطلبه إيَّاه نقص» لنزول بصره إلى السطر التالي من الأصل.

(٢) «خلوًا» ساقط من«ط».

(٣) «ب،ك،ط»: «لكم».

(٤) سقط «شيء» من «ك». وفي «ط»: «فأي اشتغال به».

(٥) «ب،ك،ط»: «عن حظِّه».

(٦) «ف»: «يوضحه»، خلاف الأصل.

أحدهما: ما يراد بالعبد[1] من المقدور الذي يجري عليه بغير اختياره، كالفقر والغنى، والصحّة والمرض، والحياة والموت، وغير ذلك. فهذا لا ريب أنَّ الكمال[2] فناءُ العبد فيه عن إرادته، ووقوفُه مع ما يراد به، لا يكون له إرادةٌ تُزاحِمُ إرادةَ الله منه[3]؛ كحال الثلاثة الذين قال أحدهم: أنا أحبّ الموت للقاءِ الله، وقال الآخر: أحبّ البقاء لطاعته وعبادته. فقال الثالث: غلطتما، ولكن أنا أحبّ من ذلك ما يحبّ: فإن كان يحبّ إماتتي أحببتُ الموت، وإن كان يحبّ حياتي أحببتُ الحياة، فأنا أحبّ ما يحبّه من الحياة والموت. فهذا أكمل منهما، وأصحّ حالاً. فهذا[4] فيما يراد بالعبد.

والنوع الثاني: مايراد من العبد من الأوامر والقربات. فهذا ليس الكمال إلا في إرادته، وإن فرَّقَتْه، فهو مجموع في تفرقته، متفرّق في جمعيّته. وهذا[5] حال الكُمَّل[6] من النَّاس: متفرّق الإرادة في الأمر، مجتمع على الأمر؛ فهو مجموع عليه، متفرق فيه. ولا يكون فعل المرادات المختلفة بإرادة واحدة بالعين. وإنَّما غايتها أن تكون هنا إرادتان: أحدهما[7]: إرادة واحدة للمراد المحبوب.

---

(١) «ب»: «من العبد»، غلط.
(٢) «الكمال» ساقط من «ب».
(٣) «ب»: «إرادة تزاحمه إرادة منه».
(٤) «فهذا» ساقط من «ك، ط».
(٥) «ب»: «فهذا».
(٦) «ط»: «الكملة».
(٧) كذا في الأصل و«ف،ك». والمقصود: نوعان: أحدهما... والثاني. وفي «ب، ط»: «إحداهما».

والثاني[1]: إرادات متفرّقة لحقّه ومحابّه وما أمر به، فهي[2] وإن تعدَّدت وتكثّرت فمرجعها إلى مراد واحد بإرادة واحدة[3] كلية، وكلٌّ فعل منها له إرادة جزئية تخصّه[4].

الوجه العاشر: أنَّ قول أبي يزيد: «أريد أن لا أريد» تناقض بيِّن، فإنَّه قد أراد عدم الإرادة. فإذا قال: «أريد أن لا أُريد» يقال له: فقد أردت! وأحسن من هذا أن يكون الجواب: «أُريد ما تريد، لا ما لا تريد»[5]. وإذا

---

(١) «ب،ط»: «الثانية».

(٢) في الأصل: «فهو»، سبق قلم، وكذا في «ف،ب». والمثبت من «ك،ط».

(٣) «واحدة» ساقط من «ك،ط».

(٤) «ك،ط»: «محضة»، تحريف.

(٥) «ب،ك»: «لا ما لا أريد»، وهو خلف من القول. وفي «ط»: «أريد ما يريد لا ما أريد». وقد نقل المؤلف قول أبي يزيد في مدارج السالكين (٢/١٠٦) وعقَّب عليه بأنَّه «في التحقيق عين المحال الممتنع عقلاً وفطرةً وحسًّا وشرعًا. فإنَّ الإرادة من لوازم الحيّ». لكنَّه حمله من قبل في المدارج نفسه (١/٥٤٩) على محمل حسن. وفسَّره بصون الإرادة وقبضها عمَّا سوى الله سبحانه. وقد جعل شيخ الإسلام ابن تيمية هذا القول «أريد أن لا أريد» ونحوه من الكلام المجمل، فإنَّما يمدح منه سقوط إرادته التي لم يؤمر بها. وإن أريد بطلان إرادته بالكلية فهو مخالف لضرورة الحسّ والعقل. مجموع الفتاوى (٣/١١٧). وقول الشيخ عبدالقادر «وعلامة فناء إرادتك بفعل الله أنَّك لا تريد مرادًا قط، فلا يكن لك غرض، ولا تقف لك حاجة ولا مرام لأنَّك لا تريد مع إرادة الله سواها...» فسَّره شيخ الإسلام بأن لا تريد مرادًا لم تؤمر بإرادته. ثمَّ قال: «وهذا الموضع يلتبس على كثير من المسالكين، فيظنون أنَّ الطريقة الكاملة أن لا يكون للعبد إرادة أصلاً، وأنَّ قول أبي يزيد: «أريد أن لا أريد» ـ لمَّا قيل له: ماذا تريد؟ ـ نقص وتناقض، لأنَّه قد أراد! ويحملون كلام المشايخ الذين يمدحون بترك الإرادة على ترك الإرادة مطلقًا، وهذا غلط منهم على الشيوخ =

كان لا بدَّ من إرادةٍ، ففرْقٌ بين الإرادتين: إرادة سلب الإرادة، وإرادة موافقة المحبوب في مراده. والله أعلم.

[٧٢/أ] **الوجه الحادي عشر**: أنَّه فسَّر الإرادة بتجريد القصد وجزم النية، والجدّ في الطلب. وهذا هو عين كمال العبد[١]، وهو متضمّن للصدق[٢] والإخلاص والقيام بالعبودية. فأيّ نقص في تجريد القصد ـ وهو تخليصُه من كلِّ شائبةٍ نفسانية أو طبيعية، وتجريدُه لمراد المحبوب وحدَه ـ والجدِّ في طلبِه وطلبِ مرضاتِه، وجزم النِّية، وهو أن لا يعتريها وقفة ولا تأخُّر[٣]؟ وهذا الأمرُ هو غاية منازل الصدِّيقين، وصدِّيقيَّةُ العبد بحسب رسوخه في هذا المقام، وكلَّما ازداد قربُه وعلا مقامُه قوي عزمُه وتجرد صدقُه. فالصادق لا نهاية لطلبه، ولا فتور لقصده، بل قصدُه أتمّ، وطلبُه أكمل، ونيته أجزم.

قال تعالى: ﴿ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴿٩٩﴾ ﴾[الحجر/ ٩٩]. و«اليقين» هنا: الموت، باتفاق أهل[٤] الإسلام، فجاءَه ﷺ اليقين[٥] إذ جاءَه، وإرادتُه وقصده ونيته في الذروةِ العليا ونهايةِ كمالها وتمامها. فأين العلَّة في هذه الإرادة؟ ولكنَّ العلَّة والنقص في الإرادة التي يكون

= المستقيمين. وإن كان من الشيوخ من يأمر بترك الإرادة مطلقًا فإنَّ هذا غلط ممَّن قاله، فإنَّ ذلك ليس بمقدور ولا مأمور...» مجموع الفتاوى (١٠/ ٤٩٤).

(١) «ط»: «كمال العين»، تحريف.

(٢) قراءة «ف»: «يتضمن الصدق». وفي «ب»: «القصد»، تحريف.

(٣) «ب،ك،ط»: «تأخير».

(٤) سقط «أهل» من «ط».

(٥) «اليقين» ساقط من«ط».

مصدرُها النفس والهوى، وغايتُها نيل حظّ[1] المريد من محبوبه، وإن كان المحبوب يريد ذلك لكن غيره أحبّ إليه منه، وهو أن يكون مراده محضَ حقِّ محبوبه وحصول مرضاته، فانيًا عن حظّه هو من محبوبه[2]، بل قد صار حظّه منه نفس حقّه ومراده. فهذه هي الإرادة والمحبّة التي لا علَّة فيها ولا نقص. نسأل الله تعالى أن يمنّ علينا، ويُحيِيَنا، ولو بنفَسٍ منها، كما منَّ بعلمها[3] ومعرفتها، إنَّه جوادٌ كريم.

الوجه الثاني عشر: أنَّه قال بعد هذا: «فصحّة الإرادة بذل الوسع واستفراغ الطاقة مع ترك الاختيار والسكون إلى مجاري الأقدار، فيكون كالميِّت بين يدي الغاسل، يقلِّبه كيف يشاء»[4]. فأين هذا من قوله: «وذلك في طريق الخواص نقص وتفرق»؟

وهل يكون بذل الوسع واستفراغ الطاقة إلا مع تمام الإرادة؟

وإنَّما الذي يعرض[5] له النقص من الإرادة نوعان: أحدهما: إرادةٌ مصدرها طلب الحظّ، والثاني: اختياره فيما يفعل به بغير اختياره. فعن هاتين الإرادتين ينبغي الفناء، وفيهما يكون النقص. والكمال[6] ترك الاختيار فيهما، والسكون إلى مراد المحبوب وحقّه في الأولى، وإلى مجاري أقداره وحكمِه في الثانية. فيكون في الأولى حيًّا فعَّالاً منازعًا

---

(١) «ب»: «حظوظ».
(٢) «وإن كان المحبوب يريد...» إلى هنا ساقط من«ب».
(٣) «ب،ك،ط»: «بتعليمها».
(٤) محاسن المجالس (٧٧).
(٥) «ط»: «يفرض»، تحريف، وكذا كان في «ك»، فعدَّل بعضهم في متنها.
(٦) «ب،ك،ط»: «فالكمال».

لقواطعه عن مراد محبوبه، وفي الثانية كالميت بين يدي الغاسل يقلِّبه كيف يشاء.

وبهذا التفصيل ينكشف سرّ هذه المسألة، ويحصل التمييز بين محض العبودية وحظّ النفس. والله الموفق للصواب.